4



المؤتمر الدولي عن العلامة الليبي

د. أحمد القطعاني

1956 - 2018

الدورة الرابعة لعام 2022

قراءات في الإصلاح الصوفي عند العلامة أحمد القطعاني

تحرير وتقديم

أسامة علي بن هامل



منشورات مركز العلامة الليبي أحمد القطعاني
للثقافة والدراسات الصوفية
ليبيا - طرابلس

المؤتمر الدولي عن
العلامة الليبي
د. أحمد القطعاني
1956 - 2018

الدورة الرابعة لعام 2022
قراءات في الإصلاح الصوفي
عند العلامة أحمد القطعاني

المؤتمر الدولي عن العلامة الشيخ أحمد القطعاني

الدورة الرابعة

الطبعة الأولى

2023م

رقم الإيداع

2023 / 22140

الترقيم الدولي

978 -977-6715-10-3



منشورات مركز العلامة الليبي أحمد القطعاني

للثقافة والدراسات الصوفية

ليبيا - طرابلس

المؤتمر الدولي عن العلامة الليبي

د. أحمد القطعاني

1956 - 2018

الدورة الرابعة لعام 2022

قراءات في الإصلاح الصوفي عند العلامة أحمد القطعاني

تحرير وتقديم

أسامة علي بن هامل

منشورات مركز العلامة الليبي أحمد القطعاني

للثقافة والدراسات الصوفية

ليبيا - طرابلس



المحتويات

الموضوع	الصفحة

كلمة رئيس مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية 11

من قضايا المجتمع في فكر العلامة أحمد القطعاني

القضايا المجتمعية ومسارات البرهنة في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني
الخضر عبد الباقي محمد 19

التنشئة الاجتماعية في فكر الشيخ أحمد القطعاني
جمعة فرج عمر 43

قضايا المرأة في فكر العلامة الشيخ أحمد القطعاني
بثينة قسم السيد عمر.. 55

ملامح ومعالم في أدب العلامة أحمد القطعاني

شعر الشيخ أحمد القطعاني، قراءة في المحتوى والتعبير
أمين عودة.. 77

مرتكزات أسلوبية في بنية المقال عند الشيخ أحمد القطعاني
عبد الباسط سلامة هيكل 104

الموضوع	الصفحة

الأداء الفني في السرد القصصي القصير للعلامة أحمد القطعاني
محمد نفاد 120
الأسلوب القصصيّ عند الشيخ أحمد القطعانيّ في كتابه: لماذا أبكيتم عصام؟
أحمد الجنابي 135
البنية الفنية للمقالة الصحفية عند العلامة أحمد القطعاني «الحب القذر أُنموذجًا»، دراسة وصفية تحليلية
مصطفى حبلوص 147

ملامح ومعالم في تصوف العلامة أحمد القطعاني

نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني
خالد التوزاني 167
الشيخ المربي في فكر الشيخ أحمد القطعاني: خصاله وأدواره الحضارية والثقافية
صابر سويسي 202
التربية والتصوف في فكر الشيخ أحمد القطعاني قراءة في بعض آثاره
ميلود حميدات 221

قراءات في بعض كتب الشيخ القطعاني

جهود العلاّمة القطعاني في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، رؤية تحليلية لكتابي «موسوعة الأشراف» و«خصائص السيرة النبوية الشريفة»
رانيا عاطف 259

الموضوع	الصفحة

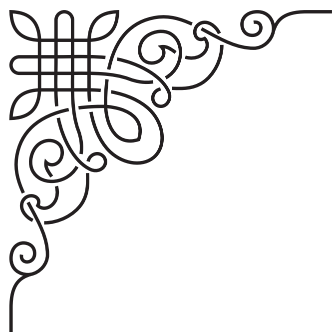
دفاعا عن التّصوّف من خلال ردود العلاّمة القطعاني على كتاب «إلى التّصوّف يا عباد الله»
نور الدين المكشر 281
في التصدي لمعضلة التطرف الديني، «حي على الجحاد» للشيخ أحمد القطعاني نموذجًا
منتصر حمادة.. 299
قراءة في كتاب «وداعا أيتها الدموع» قصص قصيرة للشيخ أحمد القطعاني
علي محمد عليان عبدالرازق الخطيب.. 304
كتاب «أعلام الطريقة العيساوية» للشيخ أحمد القطعاني، قراءة وعرض
عبد العزيز العموري.. 326
«موسوعة القطعاني»، قراءة للوجه الاخر للتاريخ الليبي
أسامة بن هامل 347

الإصلاح والتجديد في فكر العلامة أحمد القطعاني

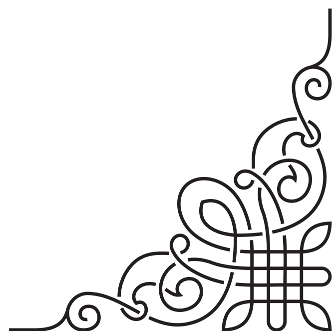
الرؤية النقدية في أفكار الشيخ القطعاني الإصلاحية
توفيق بن عامر.. 419
أوجه التجديد في تراث الشيخ أحمد القطعاني
صابر مولاي أحمد.. 448
بين إنسانية الإسلام وتجديد الخطاب الديني في فكر الشيخ القطعاني
محمد السيد محمد.. 458

الموضوع	الصفحة

الشيخ أحمد القطعاني، ملامح فكرية إبداعية
لطيفة الوزاني الطيبي 493
جمالية التضاد وعرفانية الموقف في تجربة الشيخ القطعاني
ليلى قراوزان 522



بين يدي الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة رئيس مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية

أ. أسامة علي بن هامل

يمثل الإصلاح جوهر التصوف وأساسه، وحوله يتمحور عمل الصوفيين في العملية التربوية الصوفية سواء في المستوى الفردي أو الجماعي، كنتيجة لتكامل مقامي الإسلام والإيمان، والمفضيين إلى مقام الإحسان، فقيمة المراقبة التي يشير إليها الإحسان بـ«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» يحملها الصوفيون بمعناها الشامل لمراقبة الإنسان نَفسَه ومجتَمعَه على حدٍّ سواء، فهم يهيِّئون الإنسان لمهمة الاستخلاف في الأرض، ويرتقون به من صالح إلى مصلح، وشتان عندهم بين الصالحين والمصلحين.

تلك هي غاية التصوف، لكن أدوات الصوفيين ووسائلهم من أجل هذه الغاية تختلف باختلاف الزمان والمكان، بل والإنسان أيضًا، ونتج عبر ممارساتهم وأعمالهم كمٌّ هائلٌ من التجارب، التي تأسَّسَت عليها مدارسهم وعُرفت بالطرق، خَلقَت تعددًا وتنوعًا وغنًى كبيرًا تَوجَّب متابعته بالدراسة والبحث للإفادة منه.

ويُعد الصوفي الكبير الشيخ أحمد القطعاني من أعلام الإصلاح المعاصرين، امتلَكَ رؤيةً ومشروعًا إصلاحيًّا مَثَّل مرحلةً من مراحل مسيرة الإصلاح الصوفي، سواء الإصلاح المحلي الليبي بعمقه التاريخي الذي مثَّلَته جهود الصوفيين الليبيين كالإمام عبد السلام الأسمر (880هـ/ 981هـ)، والإمام محمد بن علي السنوسي

(1202هـ/ 1276هـ) وغيرهما، أو الإصلاح العربي والإسلامي بأمثلته التي تخرج عن الحصر.

لقد توفَّرَت لدى الشيخ القطعاني حصيلة معرفية هائلة مكَّنَته من العمل على بلورة مشروع إصلاحي يقف فيه على أرضية صوفية صلبة، بفعل تراكُم التجارب الصوفية الإصلاحية السابقة، منطلقًا بخطاب معاصر يتماهى في شكله مع مستجدات العصر، في إدراك عميق منه لقوة التصوف في قدرته على الحركة والفعل والتجاوب مع تغيُّر التحديات في كل عصر، واقتراح الأجوبة وطرح المشكلات على بساط البحث والحوار والنقاش.

يسير مشروع الشيخ القطعاني في خطين متوازيين لتتكامل في النهاية نتيجتهما، **الأول** نظري خطابي بعدة صيغ، بالمحاضرات والدروس، أو من خلال الندوات والمؤتمرات والمهرجانات واللقاءات أو بالكتابة، وهنا لا يتوقف خطابه عن المحلية، بل يتجاوزها إلى المجال العربي والدولي.

والثاني عملي من خلال العديد من المؤسسات التي أطلقها كالمتاحف (متحف سيلين الأهلي، ومتحف قصر طيبة للفن التشكيلي الليبي)، والمكتبات (مكتبة تيجي الأهلية، ومكتبة الصحابة)، والمؤسسات التعليمية (معهد الصحابة للعلوم الشرعية، ودار الحديث الشريف)، والصحفية (مجلة الأسوة الحسنة)، والتربوية (الزوايا)، والتثقيفية (مهرجان طرابلس للمديح النبوي، واليوم الوطني للمسرح، وغيرها)، ومجموع هذه المؤسسات يكشف عن بُعد من أبعاد مشروعه وشخصيته الرائدة.

وفي المسار النظري تتبدى معالم فكره بشكل أوضح، خصوصًا من خلال قرابة الثمانين كتابًا، ألفها في القراءات والفقه والعقيدة، والحديث الشريف والتاريخ والأدب، والفن والتحقيق العلمي، والبحوث والدراسات الأكاديمية[1]، وأكثر من

---

(1) صدرت أغلب هذه الكتب في حياته، وصدر له عن مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بالاشتراك مع دار بشرى وكلثوم كتابان بعد وفاته، وهما «أعلام الطريقة العيساوية» عام 2019م، و«أوبة المهاجر وتوبة الهاجر» في جزأين عام 2021م.

مائة مقالة صحافية نشرها في مجلته «مجلة الأسوة الحسنة» على مدار أربع عشرة سنة من صدورها[1]، ناقشت قضايا في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والأدب والفن والتراث الإسلامي، عدا عشرات المحاضرات والدروس، تفسح المجال بشكل أيسر للغوص عميقًا لمشارفة رؤيته بشكل شامل ومتكامل، وطريقة تعبيره عنها وأسلوبه فيها، وتطبيقاتها في القضايا التي ناقشتها واقترح لها الحلول.

وإن كانت أدواته ووسائله تبدو حديثة، إلا أنه لم يشتغل بها في مجالات تخرج عن مضمونها عن أعمال الصوفيين الإصلاحية، فالاشتغال بالأدب والتاريخ والاجتماع والقضايا المتصلة بالواقع، عُرف عن الصوفيين كثافة العمل فيها.

وحتى استخدامه الصحافة وتوظيفها كإحدى وسائل الخطاب، لا يكشف إلا عن صوفيته في الصميم وإدراكه الواعي لقدرة التصوف على تحديث أدواته والتجاوب المستمر، ففي سيرة الصوفي الأبرز في التاريخ الليبي الإمام عبد السلام الأسمر ما يؤكد على قدرته على إنتاج شعر فصيح وبذائقة صوفية عالية، إلا أنه اتجه لاستخدام الشعر الملحون كوسيلة مُثلى للنفاذ لكافة شرائح المجتمع، تمكن من خلال تبسيط المعارف الصوفية العالية وإشاعتها كثقافة مجتمعية تَضمَّنَت حلولًا لأهم مشكلات قضايا عصره، خصوصًا ما يتعلق بالعقيدة والهوية، وهو ما نجده عند الشيخ القطعاني

---

(1) مجلة الأسوة الحسنة أسسها الشيخ القطعاني عام 1998م، واستمرت في الصدور حتى مطلع عام 2011م، حيث نشر فيها مقالاته في بابه الشهري الثابت «فيض الخاطر»، ولاحقًا أشرف على جمع مقالاته في تسعة كتب بحسب موضوعاتها، هي:
- سري للغاية (تصوف).
- الحب القذر (آراء واجتهادات في التراث الإسلامي).
- أكذوبة الدعوة للإسلام (دراسات إسلامية).
- إسلام للبيع (دراسات إسلامية).
- الإسلام هو الحل (دراسات إسلامية).
- موسوعة الأشراف (رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة).
- رحلات أحمد القطعاني (أدب).
- لماذا أبكيتم عصام (أدب).
- وداعًا أيتها الدموع (أدب).

الذي فضَّل ألا يحصر جهوده لمخاطبة شريحة العلماء والأكاديميين، بل النفاذ لكافة لشرائح المجتمع بوسيلة كـ«مجلة الأسوة الحسنة» التي يمكن أن تصل إلى كل بيت ويد، وبأسلوب صحافي نقل به قضايا كان تداولها ونقاشها إلى وقت قريب محصورًا في فئة معينة، بهدف مشاركتها للجميع لاتصالها المباشر بهم.

ففي إطار عمله المستمر على إحلال قيم منهجه الدعوي القائم على «المحبة والترغيب» كافح بشكل كبير من أجل تفكيك مخلفات وآثار منهج الترهيب، فإشاعة ثقافة حب الحياة في إطار الفكرة الصوفية القائمة على ضرورة تهيئة الإنسان لمهمة الاستخلاف في الأرض لإعمارها، ونقض في ذلك فكرة راسخة تقوم على مبدأ الاختيار والجبر، فالقضاء ما لا اختيار للإنسان فيه كطوله ولونه وجنسه، أما تفاصيل حياته الأخرى فهو من يصنع قدره فيها، وأن الإنسان وُلد ليعيش لا ليستعد للموت، بل وله «فرصة أخرى» حتى بعد موته، فلا حقيقة لعذاب القبر، وبشكل أشمل عمل على تصحيح مفهوم العذاب والعقاب، مؤكدًا أن «الخوف سبب رئيس في توقف تطور ورقي وتحرر وإبداع المجتمعات الإسلامية، وهو ينتشر عن طريق غارات ثقافية يومية تشنها على المواطن عدة جهات، فالأنظمة السياسية بحاجة لزرعه في قلوب المواطنين لتضمن عدم انتفاضهم ضدها، وفي المدرسة وفي الأسرة وفي الثقافة الدينية أيضا -للأسف- بنصوص ودروس ومحاضرات وفتاوى وخطب جمعة لا أعتقد أنها تستوعب فعلًا فلسفة العقاب أو فلسفة القدر في الإسلام، مما حَوَّل العلاقة بين المسلم وربه إلى علاقة خوف ورعب»، ولذلك يقول: «لذا جهدت جهدي أن أصحح هذه الثقافة السائدة، موضحًا أنها علاقة حب متبادل، ولا تسل عما عانيته وأعانيه من المغرضين القائلين بأنني أنكر العذاب وما ورد في القرآن الكريم بشأنه، وتشنيعهم عبر الإنترنت ومجالس السوء، وما يصل أيديهم من وسائل التعبير، بينما حقيقة خلافي معهم هي حول مفاهيم آيات العذاب وليس العذاب من عدمه».

لقد كتب وناقش العديد من القضايا بهدف تغيير المفاهيم المتصلة والمحيطة بها، كقضايا التراث الذي تحمله كتب التاريخ الإسلامي، وقضايا المرأة وضرورة إنصافها، والطفل والمؤسسة الزوجية، وقضايا الاقتصاد، والإرهاب والتطرف، والفن والموسيقى، وغيرها الكثير.

وما يثير الانتباه في شخصية الشيخ القطعاني، أنها قد توهم القارئ في بداية مطالعته لأعماله باقترابها من الأفكار التي تغص بها الساحة الإسلامية اليوم، من قِبل متطرفي الحداثة والعصرنة الداعية للثورة على الماضي ورفض كل التراث الإسلامي، لكن بمزيد القراءة والتفحص نكتشف فرادة في أعمال الشيخ القطعاني، فهي نتاج شخصية صوفية جمعت بين الأصالة والمعاصرة، تستند إلى خلفية معرفية وعلمية كبيرة تلقاها على يد شيوخه الذين درس عليهم الفقه وأصوله، والحديث وأصوله، والتفسير وأصوله، واللغة، والنحو، والمعقولات، والأدب، والتاريخ وغيرها، وانطلق منها نحو معاصرة محصنة بأصالة الإرث الإسلامي العتيد، ففي حين يوجه نقده لنصوص وردت في كتب الحديث الشريف يعقد مجالس لسماع ورواية الصحيح والسنن والمسانيد، بل ويوثق أسانيده فيها ويجيز طلابه بها، وحينما ينقد تقديس آراء واجتهادات الفقهاء، بل وربما يرد بعضها، يشدد في ذات الوقت على ضرورة احترامهم والاحتذاء والتأسي بهم وأنه «لا مذهب عن المذهب»، ويخصص كتبًا ومقالات في ذلك.

لكل ذلك خصص المركز الدورة الرابعة للمؤتمر السنوي عن الشيخ القطعاني، لبحث ودراسة تراثه المكتوب، سواء كتبه المستقلة أو مقالاته التي نشرها في مجلته «مجلة الأسوة الحسنة»، وبلغت الأعمال المجازة للنشر 22 عملًا.

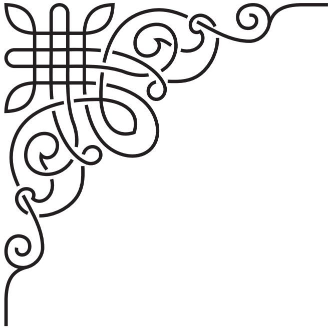
وفي هذه الدورة سلك المركز مسلكًا جديدًا في الإشراف على إعداد الأوراق المشاركة، بأن تكون في شكل مقالات بحثية تسهيلًا للاستفادة منها، وتيسيرًا على

القارئ في تناولها، بعيدًا عن ثقل إجراءات الأوراق البحثية، وإن كانت هذه المقالات وفرت شروط الاشتغال البحثي.

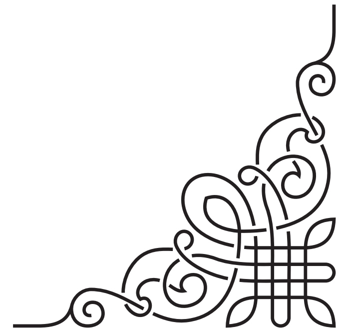
وتجدد رئاسة المركز شكرها العميق للسادة:

- د. عبد المحسن موسى العوكلي.
- الشيخ زين العابدين أحمد القطعاني.
- الشيخ محمد سلام كريد.
- الشيخ الرفاعي أحمد القطعاني.

لجهودهم الكبيرة في إنجاح الدورة الرابعة من دورات المؤتمر على التوالي، فجزاهم الله خيرًا.



من قضايا المجتمع
في فكر العلامة أحمد القطعاني



القضايا المجتمعية ومسارات البرهنة في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني

أ.د الخضر عبد الباقي محمد

مدير المركز النيجيري للبحوث العربية - نيجيريا

ملخص

يمثّل العلّامة الشيخ أحمد القطعاني (1956-2018م) واحدًا من أبرز رجال التصوف الذين جمعوا بين الصلاح والإصلاح معًا على المستوى الوطني الليبي والإقليمي المغاربي والعالم الإسلامي أجمع؛ حيث انقطع للعلم ونذر نفسه لخدمة الحديث الشريف ولإحياء أسانيده وله اهتمام كبير بالتاريخ وكَتَب عن علماء ليبيا وعن رجالاتها، دافع وناضل عن التصوف وعن شيوخه، له مؤلفات فوق المائة والخمسين كتابًا، ردّ الشيخ القطعاني الاعتبار العلمي لمكانة ليبيا في علم الأسانيد وغيره من الحقول المعرفية في العلوم الشرعية وفي مجال التزكية والسلوك، تميزت حياته بأنها مفعمة بتجارب ثرية في مجال الدعوة والتأليف وتربية العامة.

تهدف هذه الورقة المعنونة بـ «القضايا المجتمعية ومسارات البرهنة في المقالات الصحفية للشيخ القطعاني» للتعرف إلى التجربة الصحفية للشيخ أحمد القطعاني وللوقوف على أنواع القضايا ذات البعد المجتمعي التي تناولها الشيخ القطعاني في مقالاته الصحفية المتعددة كما تعرفت هذه الورقة على أنواع الاستمالات

الإقناعية المستخدمة في تلك المقالات من خلال تتبع مسارات البرهنة التي وظفها الشيخ للتأكيد على صحة ما ذهب إليه من آراء في تلك المقالات. وتكونت الورقة من: مقدمة ومحورين رئيسين وخاتمة. تناولت المقدمة دور رجال الدين والنخب الفكرية في عملية بثّ الوعي وتصحيح الأفكار في المجتمع، وتناول المحور الأول وهو مدخل نظري عام أدبيات الاتصال الإقناعي والمقال المقال الصحفي، فيما خصص المحور الثاني للإجراءات المنهجية المتبعة في الجزء التطبيقي عن الاستمالات والمسارات العامة للبرهنة والاستشهاد، وفي الخاتمة عرض لأهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: القضايا المجتمعية، الاستمالات، مسارات البرهنة، أحمد القطعاني.

المحور الأول
أدبيات الاتصال الإقناعي والمقال الصحفي

مهارات الاتصال الإقناعي:

تهدف العمليات الاتصالية في جميع مراحلها وفي أشكالها المتعددة إلى إحداث التأثير في المتلقي أو الجمهور عبر اتباع أساليب واتخاذ جملة من التدابير والتقنيات اللسانية للإقناع. على هذا الأساس انصبَّ اهتمام المعنيين بوسائل الإعلام والاتصال ومخاطبة الجمهور بتجويد الخطاب وبتنميق الجوانب الفنية للاتصال ولوسائله المتعددة، وفي مقدمتها مهارات الإقناع والتأثير والإقبال على تعلم فن الإقناع أو مهارات الإقناع أو الـ **Persuasion Skills**،[1] وتشير كلمة مهارات الإقناع

(1) مهارات الاتصال الفعال مع الآخرين، مدحت أبو نصر، المجموعة العربية للتدريب والنشر، أبو ظبي، ط2، 2000م، ص25

إلى مجموعة من القدرات التي يتمتّع بها الشخص، والتي تمكّنه من تغيير سلوكيات وقناعات وتصرّفات الآخرين تجاه فرد أو مجموعة أفراد أو أحداث أو فكرة معيّنة. وفي الغالب ما تتمّ عملية الإقناع من خلال إيصال رسالة أو مشاعر معيّنة أو معلومات أو منطق إلى الطرف الآخر أو مزيجًا من ذلك. والافتقار لمهارات الإقناع بالتأكيد يؤدي بالشخص في بعض الأحيان لاتباع أساليب خاطئة بهدف تغيير وجهات نظر الأطراف الأخرى مثل: الترهيب والتخويف والتهديد وقد تكون وسيلة الابتزاز، ولا شك أنها كلّها أساليب غير فعّالة للإقناع الطبيعي ولإحداث التغيير بشكل إيجابي، فالعديد من الدراسات النفسية والأبحاث المتخصصة في الاتصال والجمهور أثبتت أنّ الإنتاجية تكون دائمًا أعلى عندما تكون الانجازات للمهام قد تحققت انطلاقًا من الرغبة الشخصية الذاتية؛ لأنه قد يفعل الآخرون ما تطلبه منهم في حال استخدام القوّة معهم، لكن ذلك لن يكون إلاّ لفترة قصيرة؛ لأنه يكون مرتبطًا بوجود هذا الشخص أو الطرف القامع لحرياتهم. وفي اللحظة التي يبتعد فيها عنهم ستقلّ الإنتاجية ويتراجع كلّ شيء نظرًا لانعدام الحافز الشخصي. وفن الإقناع يشتغل في فضاء التأثير وفي منهجياته وفهم وجهات نظر الآخرين والتفاوض معهم للوصول إلى حلّ أو وجهة نظر مناسبة للطرفين[1].

الاستمالات الإقناعية في الاتصال:

تقوم وسائل الإعلامية باستخدام مجموعة من الاستمالات في رسائلها الإعلامية؛ بغرض إقناع الجماهير بالمعلومات الإعلامية المُقدمة، وتجعل الجمهور بذلك قادرين على التفاعل والتجاوب مع تلك المضامين الإعلامية وتستخدم في ذلك استمالات متعددة سواء كان ذلك في الحملات الإعلانية أو الإعلامية، منها[2]:

(1) الإقناع الاجتماعي : خلفيته النظرية وآلياته العملية، مصباح عامر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2000م، ص 40
(2) المصدر السابق، ص 55

الاستمالات العاطفية: والتي تركز على المشاعر العاطفية المتكونة لدى الإنسان ويتم صياغتها بمهارة عالية، كما قد تكون هذه الاستمالات غير منطقية بطبيعتها وهو ما يتطلب من الوسائل الإعلامية أن تقدم البراهين والأدلة، بالإضافة إلى البناء المنطقي في الرسائل الإعلامية بحيث يكون لها فعالية معينة.

استمالات التخويف: والتي تعتمد على إثارة الخوف لدى المتلقي، وخاصة فيما يتعلق بالمضامين الإعلامية المُقدمة، وتساهم في جعل المتلقي يقبل كافة التوصيات المتضمنة في الرسائل الإعلامية، ويجب الحرص على عدم المبالغة في استخدام استمالات التخويف؛ لأنها قد تساهم وتؤدي لآثار سلبية على الأهداف الإعلامية، ويتم استخدامها بنسب معينة متعلقة بأسلوب التخويف؛ ليجعل الجمهور المستهدف يهتم بالرسائل في أوقات معينة.

الاستمالات المنطقية: حيث يقصد بها قيام الرسائل الإعلامية بتقديم مجموعة من الاستمالات المنطقية، تهدف إلى إقناع الأفراد بالتفكير المنطقي حيال الموضوعات الإعلامية المُقدمة، وبالتالي فإنَّ فاعلية الاستمالات المنطقية تزداد من خلال اعتمادها على توظيف الدوافع الشخصية، بالإضافة إلى دراسة الاختلافات الفردية التي تؤثر على الاستمالات المنطقية، بحيث تكون درجة الاختلاف متعلقة بمجموعة من المستويات منها: المستوى التعليمي، الشخصي، الثقافي، وطبيعة الشخصية وأسلوب التفكير.

استمالات التلاعب بالهدف: تقوم بذكر الأهداف وتجعل الجمهور المستهدف يقوم باستخلاص النتائج الضمنية وفهم الأهداف، كما تعتمد هذه الاستمالات على درجة الذكاء والمعارف الموجودة للمتلقي والتي تساهم في قدرة الفرد على تحديد الأهمية الموضوعية للأفراد على حدٍ سواء.

استمالات رأي الأغلبية: وهي الأكثر استخدامًا في الرسائل الإعلامية بحيث تجعل الفرد يهتم بكافة ما يتعرض له على أن تكون الرسائل الإعلامية تتفق مع احتياجاته الفردية، كما تشير الدراسات في عِلْم الإعلام إلى أن الرسائل الإعلامية تكون أكثر فاعلية فيما يتعلق بالرأي أو السلوك الجماهيري.

ويعكس الاستشهاد بالأدلة والحجج والبراهين «أهم مسارات البرهنة المنطقية خاصة عند تناول موضوعات اجتماعية ذات طبيعة جدلية، كما أنّ من أبرز أوجه مسارات البرهنة عرض أهمية الحدث والحلول المقترحة، وهناك مسارات البرهنة غير المنطقية مثل: البرهنة الهجومية» وتجهيل مصادر المعلومات، وعرض وجهة نظر واحدة، ثم البرهنة الدفاعية، وكذلك استخدام صياغة إنشائية عامة.

المقال الصحفي والتغيير الاجتماعي:

المقال الصحفي شكل من أشكال قوالب النصوص الصحفية وهو من مواد الرأي، يكتب فيها صحفيون محترفون أو هواة أو مستكتبون، وهي على أنواع: مقال الرأي - الافتتاحي - والتحليلي - والنقدي وغيرها. والقاسم المشترك بينها أنها جميعًا تهتم بأمور حياتية ومعاشية يومية، قد يكون يوميًّا، أو ثلاث مرات في الأسبوع، أو أسبوعيًّا.. بالنسبة للصحف اليومية. أما المجلات، فحسب دورية صدورها[1]. ويعد المقال الصحفي واحدًا من مجموعة التمثلات الاجتماعية للثقافة السائدة في المجتمع، ويتكون من وحدات لغوية قوامها سلسلة من الجمل يحاول كاتبه إنتاجه بما يتلاءم مع ثقافته وأفكاره، وهذا المقال مجموعة من النصوص المكتوبة الهدف منها إيصال رسالة يؤمن بها كاتبه إلى المتلقي، وفي الغالب يتضمن دعوة من الكاتب إلى تبنِّي أفكار وسلوكيات أو اتجاهات معينة أو رفضها. يتم شحن تلك المقالات بمعانٍ وتقنيات فنية توظف فيها استمالات إقناعية عديدة.

---

(1) فن المقال الصحفي، سليمان فضالة، دار أسامة، نبلاء ناشرون، عمان، ط1، 2012م، ص 10

المحور الثاني
القضايا المجتمعية في مقالات الشيخ القطعاني:
الإجراءات المنهجية والتطبيقية
منهجية البحث وإجراءاته:

منهجية البحث: اتخذ هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي لمقاربة هذا الموضوع؛ نظرًا لقدرته على التوصيف الدقيق للمشكلة العلمية التي تتعرض له للوصول لنتائج واستنتاجات دقيقة، سواء من حيث سمات أو خصائص الظاهرة المدروسة.

مجتمع الدراسة: تحدد مجتمع هذا البحث في جميع المقالات الصحفية التي كتبها مولانا الشيخ أحمد القطعاني -رحمة الله عليه- والتي تصل للمئات، وهي في عمومها متفرقة في أعداد الصحف والمجلات الليبية، كما جمع بعضها ويجري العمل على جمع بعضها الآخر في كتاب.

عيّنة البحث: تحددت العينة التي قامت عليها معلومات هذا البحث والتي خضعت للتحليل بالفعل في 5 مقالات صحفية موجودة ضمن كتاب بعنوان «أكذوبة الدعوة للإسلام»[1] وتللك المقالات هي:

1. وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود[2].
2. الكتب الصفراء[3].

---

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م.
(2) المصدر السابق، ص3
(3) المصدر السابق، ص8

3 رسالة إلى طفل لم يولد بعد[1]1 .

4 أكذوبة الدعوة للإسلام[2].

5 الانتماء[3].

تم جمع بعضها، وتلك المقالات الخمس تقع ضمن العينات العمدية التي اختارها الباحث لاعتبارات منها:

1 أنها في موضوعات وقضايا اجتماعية متنوعة.

2 لكونها ضمن مجموعة المقالات المتتابعة والمتقاربة زمنيًّا، والتي تحمل أفكار مولانا الشيخ القطعاني في مراحل تطورها بشكل تدريجي متقارب.

3 لكونها تتناول موضوعات ذات طبيعة جدلية خلافية.

وهو طريقة منهجية مرتبة يقوم فيها الباحث بدراسة موضوع بهيئته الطبيعية، ويدعمه في ذلك القيام بجمع الكم الذي يراه مناسبًا من البيانات والمعلومات، ثم توضيح العلاقة بين متغيرات البحث في صورة أسئلة أو فروض بعد ذلك.

أداة البحث وجمع المعلومات: واستلزمت طبيعة البحث بهذه المنهجية الوصفية التحليلية استخدام أداة التحليل المحققة للهدف، والتي تناسب طبيعة البيانات المقصود جمعها، وتمثلت في صحيفة تحليل المضمون والتي استهدفت رصد وتحليل القضايا المجتمعية في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني، ولتتبع المسارات العامة للشواهد وللأدلة في البرهنة على صحة وجهة النظر المطروحة، علاوة على التعرف إلى الاستمالات المستخدمة فيها للإقناع، وقد تضمنت تلك الصحيفة 14 سؤالًا توزعت على أربعة محاور أساسية هي: محور المعلومات الأساسية للمقال 4 أسئلة، ومحور المعلومات عن القضايا والأفكار المتضمنة في

---

(1) المصدر السابق، ص12

(2) المصدر السابق ص27

(3) المصدر السابق ص32

المقال 3 أسئلة، ومحور المعلومات عن مسارات البرهنة للاستشهاد في المقال 5 أسئلة، وفي الأخير محور المعلومات المتصلة بحصر أنواع الاستمالات المستخدمة في المقال سؤال واحد.

أسئلة البحث: تمحورت أسئلة هذا البحث في ثلاث:

1. أسئلة مرتبطة بالقضايا المجتمعية في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني.
2. أسئلة مرتبطة بالاستمالات الإقناعية المستخدمة في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني.
3. أسئلة مرتبطة بالمسارات العامة للبرهنة والاستشهاد في المقالات الصحفية للشيخ أحمد القطعاني.

الجزء التطبيقي: مسارات البرهنة والاستمالات.

عنوان المقال الأول: تحسبهم أيقاظ وهم رقود

الفكرة الرئيسة للمقال:

نقد للأوضاع الاجتماعية والسياسية المتخلفة في البلدان العربية.

الأفكار الفرعية للمقال:

تضمن المقال الكثير من الأفكار الفرعية التي عرج عليها الشيخ خلال تناوله للموضوع الرئيس مثل: ظلم بعض كتب التاريخ للدولة العثمانية ـ دور الوعي والإدراك للهوية القومية في النهوض الحضاري للشعوب كحالات اليابان وغيرها – الإنكار على ظاهرة الخلافات والجدل العقيم بين المسلمين في الأمور الجانبية .

نوع موضوع المقال:

ينتمي هذا الموضوع للموضوعات السياسية والتاريخية في أبعادها الاجتماعية

مسارات البرهنة:

جنح المقال في معظم مساراته إلى إيراد الشواهد والبراهين ذات الصلة والملائمة بالموضوع، كما تتسم بالمنطقية والوضوح بالنسبة لطبيعة الجمهور العام الموجه إليه المقال، وهي في مجملها ملائمة ومناسبة للسياق، إلا استدلال واحد ورد في معرض الحديث عن نقد انتشار ظاهرة الجدل العقيم والخلافات الحادة بين المسلمين وتحديدًا العلماء، وعلى وجه الخصوص عندما أورد حديث ركوب سيدنا عمر لبساط سليمان، وهو استشهاد غير مناسب للسياق، ويقول: «وليس المواطن العربي عن هذا التخلف المزري ببعيد، حتى إنك تجد المئات من شبابنا الذين خيبوا آمالنا وقد شمروا سراويلهم وأعتقوا لحاهم وتجهزوا للحوار لمدة ساعات والعراك والاقتتال، ولو تحمسوا عُشر هذا للمصنع والحقل وإتقان العمل.. بدلاً من دراسة كتب ابن تيمية.. وتصحيح روايات ركوب سيدنا عمر بن الخطاب برفقة بعض الصحابة الكرام لبساط الريح الخاص بنبي الله سليمان، وتأكيدها باستماتة على المنابر، ويصنعون هم البوينغ والإيرباص والكونكورد والقطار الطائر على وسائد الريح»[1].

فوجه الاستدلال غير متسق بشكل متلائم مع السياق الذي يسير فيه الموضوع في فكرته وفلسفته، وهو الإنكار على انتشار ظاهرة الخلافات والجدل العقيم بين بعض طلبة العلم، بالإضافة إلى أنه لا يتوافق مع المنهج العام للشيخ ومكانته كرجل علم وعالم صوفي ومسند العصر في الحديث، فهذا الموضوع في مسائل علمية لأهل الاختصاص أقصد في الحكم على صحة الحديث من عدمه، والنقاشات الدائرة بين علماء الحديث والعقيدة وأهل الكلام بينما كلام الشيخ القطعاني -رحمه الله رحمة واسعة- كلام عن سلوك العامة من الناس.

---

(1) المصدر السابق، ص6

الاستمالات المستخدمة:

من حيث الاستمالات المستخدمة في هذا المقال فهي عديدة ومتنوعة، فهناك اعتماد كبير على الاستمالات المنطقية والتي منها:

1 قوله: «ولكن تقدمت بي السن وسكنت مرغمًا في وسادة واحدة مع جيوش الشيب الأبيض، التي تراكمت بتجاربها الحلوة والمرة ودروسها الطويلة المملة على رأسي حتى أثقلت ظهري وأوهنت جهدي، فمع كل شعرة بيضاء وافدة تزداد معرفة الإنسان وتقوى حواسه على الرؤية والسمع والحوار، وإذ بي أرى ما لم أكن أراه بوضوح يومًا»[1].

2 استمالة المقارنات بالمفارقات بمنطق التميز والتفوق للرجل الأبيض الأوربي الأشقر على ما دونه في قوله: «لم تلقَ قنابل ذرية على برلين لأن الرذاذ.. سينتقل إلى جاراتها الأوربيات فيؤذي ذوي الشعر الأشقر، أما بالنسبة لليابان فالأمر لا يهم لن الإنسان الناحل ذا العين الضيقة ليس بالتأكيد في مستوى الإنسان الأوربي»[2]. كما استخدم الشيخ استمالة المقارنة بالدعوة إلى وقفة للتأمل عندما قال: «ودعونا نتأمل برلين بعد مرور فقط 15 عامًا»[3].

3 استمالة الإقناع بالشواهد والإحصاءات نرى ذلك في قوله: «المنظر جميل وأخَّاذ كله قوة وحضارة وتقدم يجسده 35 مليون نسمة يعيشون على مساحة 891كم مربع هو إجمالي مساحة برلين التي يوجد بها 80 ألف حديقة عامة و135 مسرحًا و175 متحفًا منها وبها 1300 جسر تزين طرقاتها 400 ألف شجرة...الخ»[4] ونجد الطريقة نفسها عند الاستشهاد بالأرقام في نسبة إنفاق اليابان على البحث العلمي مقارنة بالدول العربية «وعلى ذلك الجامعات والإنفاق على البحث العلمي فإنه ربما

(1) المصدر السابق، ص 3
(2) المصدر السابق، ص5
(3) المصدر السابق، ص5
(4) المصدر السابق، ص4

كان من المخجل أن أقول لك: إن إنفاق اليابان على الجامعات والبحث العلمي يفوق إنفاق كل الدول العربية مجتمعة ب 150 مرة فقط..»[1].

4 الاستمالة التهكمية وجدت لها استخدامات كثيرة في المقال حيث قال: «إذ توجد بالولايات المتحدة الأمريكية 3500 جامعة وتوجد في كل الدول العربية من المحيط الثائر إلى الخليج الهادر 240 جامعة فقط .... هذا من ناحية الكَمِّ، أما من ناحية الكَيْفِ... حيث يجب ألا يتجاوز عدد الطلاب عالميًّا 15 طالبًا لكل أستاذ لا أن يكون المئات منهم في مدرج ليرددوا مثل الببغاوات معلومات عفى عليها الزمن»[2].

5 تم توظيف الاستمالة التضمينية التي تقوم على دفع المتلقي إلى استخلاص النتائج الضمنية أو إلى القيام برد الفعل المطلوب، كما ورد في قوله: «وأعتقد أننا بذلك نفهم جليًّا لماذا تسفك دماء المواطن العربي بل مبالاة في لبنان لا يتألم لذلك أحد في الدنيا إلا نحن، ويقتل الأطفال ويشرد مليون مواطن في جنوبه المجاهد وتهدم بيوتهم، وقبلهم الأمر نفسه في فلسطين والعراق... لأنّ الحقوق والعدل والإنصاف قيم نفيسة لا ينالها إلا من يستحقها، ونحن نطرق للأسف الشديد الباب الخطأ»[3].

مسارات البرهنة:

هناك توظيف عالٍ بل متميز لاستخدام مسارات البرهنة في المقال لدى الشيخ القطعاني من حيث تصنيفها وقوتها وصحتها وطبيعة الآراء ووجهات النظر المعروضة ونلحظ ذلك من خلال:

1 الاستشهاد بالمحسوسات من المصنوعات اليابانية حيث يقول: «انظر حولك وستجد مصنوعات اليابان هي ثيابك وسيارتك وبيتك ومحل عملك ودواؤك -لا سمح الله- إذا مرضت....»[4].

---

(1) المصدر السابق، ص5
(2) المصدر السابق، ص5
(3) المصدر السابق، ص6-7
(4) المصدر السابق، ص5

2 الجنوح نحو الاستشهاد بالمصطلحات العلمية الأكاديمية الدقيقة في السياق المتصل بالشأن الأكاديمي حيث يقول: «فإنني لا أعتقد أن كل جامعاتنا العربية العتيدة ترتقي إلى مستوى جامعة واحدة بالتعريف العلمي الصحيح ويكفي أن يصدر التقرير العالمي للجامعات والبحث العلمي لسنة 2005م وبه أفضل 500 جامعة على مستوى العالم وليس به جامعة عربية واحدة»[1].

3 اتسم المقال في جوانب المسار للبرهنة بالوضوح في تصويره للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في ألمانيا الشرقية قبل إعادة التوحيد حيث قال: «ولتأكيد الانفصال تم بناء جدار برلين لتصبح شِلْوَين ممزقين مختلفين في كل شيء: من نظام الحكم إلى التعليم إلى القيم إلى الاقتصاد، وعاشت سنين سوداء كالحة لم يرَ فيها الأخ أخاه والأم ابنتها، وجاع الشرقيون وسجنوا وامتهنوا وشبع الغربيون وأبدعوا وأنتجوا حتى سنة 1989م»[2].

4 حرص المقال في البرهنة على الاعتماد في شواهده على القوة المنطقية المقنعة، عبر التمهيد بمقدمات عقلانية تفضي إلى نتيجة منطقية كما ورد في قوله: «ولكن تقدمت بي السن وسكنت مرغمًا في وسادة واحدة مع جيوش الشيب الأبيض، التي تراكمت بتجاربها الحلوة والمرة ودروسها الطويلة المملة على رأسي، حتى أثقلت ظهري وأوهنت جهدي فمع كل شعرة بيضاء وافدة تزداد معرفة الإنسان وتقوى حواسه على الرؤية والسمع والحوار، وإذ بي أرى ما لم أكن أراه بوضوح يوما»[3].

المقال الثاني: الكتب الصفراء

الفكرة الرئيسة للمقال: التحذير من وصف الكتب الدينية بأنها صفراء بسبب

---

(1) المصدر السابق، ص5
(2) المصدر السابق، ص3-4
(3) المصدر السابق، ص3

اهتمامها بالدين والعقيدة، والتنبيه على خطورة الصحف غير الملتزمة بالقيم المجتمعية.

الأفكار الفرعية للمقال:

تناول المقال عدد من الأفكار التي يرى أنها بحاجة إلى التصحيح والتعديل في المجتمع، مثل: احترام الصحافة وتقديرها في المجتمع – أهمية قيام الصحافة بالدور المطلوب منها في التوعية والتثقيف وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة – الإشادة بقيمة التعددية في الآراء – الإنكار فكرة مصادرة الصحف أو إغلاقها – تشجيع الأسلوب والوسائل القانونية المشروعة في حالة الاستشكال على تصرف وسيلة إعلامية/ – اعتبار زيادة المؤسسات الإعلامية الصحفية مفخرة وإنجاز يحسب للمسؤولين – دعم التوجه والانفتاح نحو حرية الرأي والتعبير – دعوة للجمهور لممارسة النقد المجتمعي لوسائل الإعلام – تأكيد المسؤولية الاجتماعية للصحافة في مراقبة المجتمع، عبر تتبع أداء مختلف أجهزته ومؤسساته لدوره المنوط به.

نوع المقال: اجتماعي ثقافي.

الاستمالات المستخدمة:

وظف الكاتب في المقال مجموعة استمالات للإقناع بصحة وجهة النظر المطروحة، ولدعم ما ذهب إليه من أحكام واستنتاجات، ومن بينها:

1 استمالة التخويف بالمجهول وذلك عندما قال: «وأنا أعتقد أنّ تيار العولمة الجارف قادم لا محالة، وسيأخذنا معه إلى آخر النهر شئنا أم أبينا، وسنمر في طريقنا معه على حدائق أزهار ورياحين كما سنمر على مستنقعات عفنة»[1].

2 استمالة الجزم بقوة النتيجة وصحة المذهب، وذلك عند ما قال: «ولا سبيل للسلامة إلا الوعي الذي لن يكون إلا باحترامنا لكل رأي وإن خالفنا»[2].

---

(1) المصدر السابق، ص10

(2) المصدر السابق، ص 10

3 الاستمالة التضمينية بالدفع نحو الفعل حيث قال: «والكتاب هو الأب الحنون للصحافة، فهي من بين دفتيه نبعت وعن صفحاته نشأت، وكل كتاب هو قيمة بحد ذاته وافقك أو خالفك؛ فخذ من موافقك ما تحب واطلع على رأي مخالفك لتعرف مواقع قوته وضعفه لتستفيد منهما»[1].

4 وظف المقال الاستمالة العاطفية لإقناع القارئ عند قوله: «أما وسيلة النقد والتقويم والرد والإيضاح إن خرجت الصحيفة عن الصراط المستقيم فهي الصحافة ذاتها لا غير... فالشخص الوحيد المؤهل هو القارئ نفسه وإبداء الرأي حق طبيعي للمواطن..»[2].

5 استخدم المقال استمالة المقارنة المنطقية العاطفية عند الحديث عما تضمنت كتب التراث للمسلمين وما خلفته الحضارة الأوربية عندما قال: «دعونا نقارن بين هذه الكتب التي يسميها هؤلاء بالصفراء التي كفلت وحدة المسلمين طوال عمرها وعمرهم، واستوعبت حضارتهم ورسخت لسانهم وأدبهم ودافعت عن هويتهم، وشهدت لمجدهم وما قدموه هم[3] من مشاركات في مؤلفاتهم ومطبوعاتهم ولا ريب أنّ النتيجة لن تكون في صالحهم على الاطلاق»[4].

6 وذهب المقال إلى استخدام استمالة التلاعب بالهدف كنوع من الأساليب التهكمية لدفع القارئ للنظر فيما يطرحه المقال حيث يقول: «على رأي من يقيِّم الكتب بألوانها فلا ريب أنّ هذه الوثيقة الثمينة -وقد كتبت على هذا النوع من الورق- هي بلا شك كتاب أصفر بدرجة امتياز»[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 9
(2) المصدر السابق، ص 9
(3) المصدر السابق، ص 11
(4) المصدر السابق، ص 11
(5) المصدر السابق، ص11

مسارات البرهنة:

اتخذت مسارات البرهنة لهذا المقال منحًى متعددًا منها:

1 اعتماده الأدلة والبراهين المذكورة طابعًا منطقيًّا مباشرًا، مثل ما ذكر عن سبب الإقبال على الصحافة الصفراء قائلًا: «وللأسف فإنّ الصحافة الصفراء وهي بالمناسبة من أسرع المشاريع الاقتصادية تحقيقًا للثروات والغني؛ إذ يقبل عليها القراء لإشفاء غليلهم من مجتمع يجاهر بمخمليته ونعومته أمام من يشتهي الخبز اليابس أحيانًا، أو بما يدفعه لها أولئك مضطرين على شكل دعايات وإعلانان أو إعانات مباشرة...»[1].

2 من تلك المسارات التي وظفها المقال للبرهنة على صحة الرأي والمذهب الجنوح نحو استخدام الأدلة القوية والشواهد المحسوسة عندما قال: «فحتى الذين يعترضون على العولمة ويناصبونها العداء تراهم هم أحوج الناس إليها؛ فالانترنت والفضائيات والفاكس والمصارف العالمية صارت ضرورة لكل شخص ودولة»[2].

3 كما استخدم المقال للإقناع في مساراته للبرهنة درجة الأدلة المباشرة وهي تجربته الشخصية عندما قال: «ويحضرني وفد جرنا الحديث شاهد كريم لا يسعني إغفاله وهو تلك الوثيقة التاريخية القيمة التي قيدها الشيخ رحومه الصاري...وعلى رأي من يقيم الكتب بألوانها فلا ريب أن هذه الوثيقة الثمينة -وقد كتبت على هذا النوع من الورق- هي بلا شك كتاب أصفر بدرجة امتياز، ثم دعونا نقارن بين هذه الكتب التي يسميها هؤلاء بالصفراء التي كفلت وحدة المسلمين طوال عمرها وعمرهم، واستوعبت حضارتهم ورسخت لسانهم وأدبهم ودافعت عن هويتهم، وشهدت لمجدهم وما قدموه هم من مشاركات في مؤلفاتهم ومطبوعاتهم، ولا ريب أنّ النتيجة لن تكون في صالحهم على الإطلاق»[3].

(1) المصدر السابق، ص10
(2) المصدر السابق، ص10
(3) المصدر السابق، ص10-11

4 من الإيجابيات في المقال الاستخدام الواعي واليقظ للألفاظ والكلمات، مثل: الخيرون - الكتاب الأب الحنون - الإنسان الواعي المتحضر - المجتمعات الراقية - مسؤول فاضل.

5 التأدب واحترام الآخر القارئ بعدم اللجوء للألفاظ والمصطلحات الخشنة وغير المريحة في توصيف الآخر المختلف عن الكاتب.

المقال الثالث: رسالة إلى طفل لم يولد بعد ١

الفكرة الرئيسة للمقال: توقعات لمستقبل العالم والبشرية، وتحولات في مجموعة القيم

الأفكار الفرعية للمقال:

تناول المقال مجموعة أفكار فرعية في إطار الحديث عن مستقبل العالم ومنها:

- تحول العالم إلى شكل فوق خيال الإنسان.
- سيطرة المادة ومظاهر الحداثة على معظم جوانب الحياة.
- تحول الإنسان المتدين المحافظ إلى كائن غريب في ذلك العالم.
- الأمور التافهة ستسيطر على هموم الغالبية مثل: قضايا التجميل - الديكور - الشكليات.
- شيوع مظاهر الانحراف والتسيب في الحياة (المخدرات/ المسكرات).
- وجود الإسلام في حياة المسلمين لن يكون بعمق يذكر.
- عجز القانون أمام طوفان الخراب من الحروب والمواجهات.
- ظهور جماعات العنف والإرهاب بشكل منظم.

الاستمالات المستخدمة:

استخدم المقال عدة استمالات إقناعية لقبول ما يطرحه من آراء وقضايا منها:

1 اعتمد المقال في غالبية أطروحاته على استمالة التخويف بالمجهول وبالمستقبل حيث قال: «سيكون أول ظهورك أيها القادم المنتظر في الغرب، حيث

يجتمع الشمس والقمر ثم في أفريقيا، ثم تحل بديارنا نحن العرب عندما تتواصل الأمطار لستة أشهر بلا استئذان، كأمر واقع لا ينبغي مناقشته أو الجدال حوله»[1].

2 كما استخدم استمالة التأكيد والجزم بالقوة في الإشارة ما ستتحول إليه الأمور، وحالة التدين لدى الناس حيث قال: «إن زمانك هو قطعًا غير زماننا وحياتك هي غير حياتنا وقيمنا غير قيمك؛ فنحن يشكل الدين عندنا لحمنا ودمنا وهو عمودنا الفقري الذي نقف به وعليه، أما أنت فلن تدرس المادة الدينية»[2].

3 جنح المقال إلى استخدام الاستمالة التخويفية للآثار السلبية، وذلك عندما قال: «أما الزكاة فستتحول عندك إلى شكل هبات، تختلط نيتها بين الله تعالى والإعفاء من الضرائب التي ستكون كثيرة ومتراكمة ومحكمة في ذلك الوقت»[3].

4 واحتوى المقال على استخدام استمالة المقارنة بالمفارقة حيث قال: «أما أنت فلن تدرس المادة الدينية وسور القرآن الكريم ومبادئ نصوص الشرع الحنيف في المدارس والجامعات إلا كثقافة تاريخية عامة»[4].

5 وظهرت استمالة التخويف بالمجهول مجددًا في المقال عند القول: «وستتقلص الأسرة عندكم ليحذف منها الكثير من الأطراف، أولهم ابن العم من القبيلة...»[5].

مسارات البرهنة:

أخذت مسارات البرهنة لهذا المقال الجوانب التالية:

1 اتسمت طبيعة الشواهد بالتنوع ومعظم الأدلة ملائم لسياق الحديث في التنبؤات المستقبلية، حيث مالت إلى أن تكون خيالية علمية.

---

(1) المصدر السابق، ص 12
(2) المصدر السابق، ص12
(3) المصدر السابق، ص12
(4) المصدر السابق، ص12
(5) المصدر السابق، ص12

2 قامت كل تلك الاستمالات على التخويف والتهويل من المفاجآت التي تحملها الأزمنة القادمة.

3 لم يتوفر هذا المقال على القوة المعتادة في مسارات البرهنة من حيث درجة الأدلة؛ نظرًا لكونه يتحدث عن استشرافات وتكهنات مستقبلية.

4 هناك درجة كبيرة من الاعتماد على شواهد وأدلة غير محسوسة، معظمها أشبه ما يكون من وحي الخيال العلمي حيث قال: «وستتطور عندكم الخدمات الطبية والمستشفيات التي تكاد أن تصنع المستحيلات وتعالج كل شيء تقريبًا، وستختفي أمراض عديدة من حياتكم، كالسرطانات بأنواعها والإيدز والالتهاب الكبدي والسكري والأمراض الوراثية»[1]. وقال أيضًا: «حتى طعامكم هو غير طعامكم»[2].

عنوان المقال الرابع: أكذوبة الدعوة للإسلام

الفكرة الرئيسة للمقال: نقد لسلوك جمعيات دعوية تتستر بالدعوة وهي تمارس الدعاية للحكومات

الأفكار الفرعية:

احتوى المقال على مجموعة من الأفكار والقضايا الفرعية تطرق لها مثل:

1 ظاهرة الاتجاه بالدين.

2 ضرورة مراجعة وسائل وأساليب الدعوة للإسلام.

3 نقد لمنهجيات بعض الجامعات الإسلامية بسبب الانشغال بقضايا شكلية على حساب الجوهر.

4 انتقاد صريح للقنوات التلفزيونية الحكومية التي تطبِّل للسلطات.

5 نقد لممارسات سلوكية لطائفة الشيعة في ذكرى عاشوراء.

(1) المصدر السابق، ص13

(2) المصدر السابق، ص14

الاستمالات المستخدمة:

توفر في المقال استخدام بعض الاستمالات الإقناعية منها:

1 وظف المقال الاستمالة العاطفية القائمة على طلب استنتاج الحكم من القارئ عندما قال: «أنا لا أطلب منك شيئًا إلا أن تتخذ موقف المحايد المتجرد، وتنظر بإنصاف إلى أساليبنا الدعوية كأنك من فئة أو ملة أخرى -حاشاك- ثم احكم بنفسك ما تريد»[1].

2 استمالة المقارنة بالمفارقة بين موضوعات فتاوي علماء المسلمين وجهود التنصير والمنصرين حيث يقول: «تصور فتوى تأمر المسلم بإفساد أي ساعة معلقة في جدار المسجد... كل هذا التردي المفجع وأطنان غيره يقف في الميدان قبالة 17 مليون منصر مدعومين من أنظمة سياسية واقتصادية ومنظمات قوية وثرية...»[2].

3 كما لجأ المقال إلى الاستمالة العاطفية القائمة على طلب الفعل التفكيري للإقناع بوجهة النظر المطروحة عند ما قال: «وحتى أضعك في الصورة أكثر فإنني أختار لك كشريحة لبيان عمل مؤسسات التنصير في دولة واحدة تقيس عليها غيرها، هي دولة ساحل العاج البالغ عدد سكانها 15 مليون نسمة منهم 66٪ مسلمون و17٪ والباقي وثنيون، إذ أنشأت هناك المؤسسات التنصيرية 120 معهدًا مهنيًا وعيادة طبية و1000 مدرسة... وأترك لك تصور حصاد زرعها الشرير ذاك»[3].

4 كما وظف الاستمالة العاطفية المقارنة بالمفارقة نفسها عند الحديث والمقارنة بين الانفاق الإسرائيلي على البحث العلمي والإنفاق على البحث العلمي في الدول العربية[4].

(1) المصدر السابق، ص27
(2) المصدر السابق، ص30
(3) المصدر السابق، ص31
(4) المصدر السابق، ص29

مسارات البرهنة:

اتخذت البرهنة والاستشهاد على الأفكار المطروحة في المقال الأوجه التالية:

1. الاعتماد بدرجة كبيرة على عرض وجهات نظر متباينة ومتعددة مثال كلامه عن الفتاوي ومناهج الجامعات الإسلامية[1].

2. الجنوح نحو عرض الأدلة والشواهد المتصلة بالسياق الذي يجري فيه الحديث، وذلك عند ما قال: «تعال معي أريك الصورة أكثر وضوحًا مع أسفي الشديد مسبقًا إن لم تحز رضاك؛ فإنني أفعل ذلك لإيقاظك من سبات الغفلة اللذيذ الذي خدرتك به برامج التلفزيون في القنوات العربية عبر فقراتها الإسلامية المتعددة، وتطميناتها المستمرة لك أن الأمور بألف خير»[2]

3. اتخذت مسارات البرهنة منهج الاعتماد على إيراد الأرقام والإحصاءات لدعم ما يطرحه لإقناع القارئ «17 مليون منصر... يتبعون 233000 جمعية كنسية تنصيرية منها 4500 منظمة ترسل منصريها البالغ عددهم 398000 منصر للخارج، بينما يعمل 6 مليون منصر داخل أوطانهم ويصدرون 3100 مجلة تنصيرية.....»[3].

4. اعتمد المقال أيضًا في مسارات برهنته على صحة ما ذهب إليه اعتمد على سرد شواهد وأدلة محسوسة من مظاهر واقعية للخلافات الحاصلة في الساحة الإسلامية على خلفية أمور، وقضايا ليست بتلك الأهمية الكبيرة مثل «معارك دينية فقهية شديدة، وكتب ومؤلفات، بل ندوات جامعية، ومؤتمرات عن إباحة لبس ساعة اليد من عدمه ...»[4]

(1) المصدر السابق، ص28
(2) المصدر السابق، ص27
(3) المصدر السابق، ص 3-31
(4) المصدر السابق، ص28

عنوان المقال الخامس: الانتماء

الفكرة الرئيسة للمقال: تنمية حب الانتماء لدى المواطن.

الأفكار الفرعية للمقال:

1. ضرورة الاهتمام بالوطن وبقضاياه.
2. خطورة خيانة الوطن أو التآمر على مصالحه.
3. إحياء المفاهيم المعززة لقيم الانتماء للوطن.
4. الموقف الإيجابي بين الدين والانتماء للوطن.
5. دور رجال الدين في المصالحة بين الانتماء للوطن وللدين.

الاستمالات المستخدمة:

تحددت في جملة ما يلي:

1. الاستمالة العاطفية القائمة على تعزيز الاحتياجات النفسية للفرد مثل: حب الذات وتقدير الآخرين للذات، وفي ذلك قال: «الانتماء هو حصن الأمة... وهو غريزة طبيعية بثّها ﷻ في كونه، ورغم تظاهري باللامبالاة احترامًا للمجلس فإنني أفرح في باطني بذلك وأُسرّ إذ هو دلالة على وجود غريزة الانتماء المقدسة في وجدان الطفل، والتي من دونها هو لا يساوي شيئًا على الإطلاق»[1].

2. استخدام الاستمالة العاطفية القائمة على المنطق العقلاني في تجسيده وتصويره لمفهوم الانتماء «وتراب الوطن المقدس الغالي تسيل الدماء في سبيله أنهارًا، فإذا ما أخذته الرياح معها عن أديمه صار ذرة بغيضة يمسحها الناس متأففين متذمرين عن ثيابهم وأثاثهم»[2].

3. توظيف الاستمالة العاطفية القائمة على مخاطبة الوجدان؛ لتحريك كوامنه

(1) المصدر السابق، ص 32

(2) المصدر السابق، ص 32

نحو الهدف عبر خطاب بلاغي منمق «ترى يا انتماء هل سنعيش معجزة أخرى لك فينا من جديد، أم أن الأمر أكبر من ذلك بكثير»[1].

مسارات البرهنة:

تحددت مسارات البرهنة في المقال في التالي:

1 استخدام شواهد وبراهين محسوسة مباشرة الانتماء هو حصن الأمة المنيع... «وهو غريزة طبيعية بثها الله سبحانه وتعالى في كونه؛ فالحجر الصلب منيع ما دام ينتمي إلى بنيان الجبل مع بني جنسه، فإذا ما كسرته عنه صار حجرًا يستجمر به الناس في الخلاء ويمسحون به قاذوراتهم»[2].

2 اعتمد المقال في برهنته على إيراد الشواهد والتجارب التاريخية القريبة والمجاورة للملامح والبطولات في الدفاع عن الوطن والانتماء له: «وقد عاشت أمتنا فترة زاهية مشرقة متربعة فيها على قمة هرم الإنسانية عزة وتقدمًا... لقرون تلته استعمارات أجنبية بلغت 130 عامًا في الجزائر.. وبلادنا ليبيا»[3]، وقال أيضًا: «وقد عاصرت أنا وأبناء جيلي...»[4].

الخاتمة:

تناول هذا البحث موضوع القضايا المجتمعية لمسارات البرهنة في مقالات الشيخ أحمد القطعاني الصحفية؛ بهدف الوقوف على نوعية القضايا المجتمعية التي تناولتها تلك المقالات، وكذلك للتعرف على الاستمالات الإقناعية المستخدمة في تلك المقالات للتأثير وللإقناع بصحة وجهات النظر المطروحة، توقف البحث بالتتبع والتحليل لمضامين تلك المقالات لمعرفة المسارات العامة التي سلكها في

(1) المصدر السابق، ص 38
(2) المصدر السابق، ص 32
(3) المصدر السابق، ص 33
(4) المصدر السابق، ص 33

الاستشهاد للبرهنة ولتدعيم موقفها، اتخذ البحث منهجية الوصف التحليلي أساسيًا لمقاربة الموضوع وصحيفة تحليل المضمون أداة لجمع المعلومات. تضمنت تلك الصحيفة ثلاثة محاور وثلاثة عشر سؤالًا، وتكوَّن الهيكل العام للبحث من مقدمة وثلاثة محاور أساسية، يحمل المحور الأول عنوان: المدخل النظري وأدبيات الاتصال الإقناعي والمقال الصحفي، فيما تعرض الفصل الثاني وهو الجزء التطبيقي والتحليلي في البحث عن القضايا المجتمعية الاستمالات ومسارات البرهنة لعينة من مقالات الشيخ القطعاني. وخضعت للتحليل والتدقيق المضموني خمس مقالات صحفية متنوعة للشيخ أحمد القطعاني، وكانت من أهم النتائج التي توصل إليه ما يلي:

1 تنوعت القضايا المجتمعية للمقالات ما بين دينية وسياسية واقتصادية وثقافية وكذلك أخلاقية تربوية.

2 تصدرت الأفكار الإصلاحية والدعوة للمراجعات الإيجابية للكثير من المفاهيم والمواقف والسلوكيات المنتشرة في المجتمع، سواء في المجال الديني أو الثقافي أو السياسي.

3 جاء التأكيد واضحًا ومكررًا للدعوة إلى احترام التقاليد والأعراف والقيم التربوية المعززة للوطن وللشعور بالانتماء إليه.

4 درجت المقالات الخاضعة للتحليل في مسارات البرهنة والاستشهاد على عرض وجهات نظر متعددة في طروحاتها، وفي دعم وجهة نظر المقال بالأرقام وبالإحصائيات.

5 اتسمت الأدلة الواردة في تلك المقالات بالملائمة مع طبيعة الموضوعات المطروحة، كما اتسمت في مجملها بالوضوح بشكل يناسب ويساعد على الفهم والاستيعاب؛ بسبب اعتمادها على جوانب عقلانية غير فلسفية مما يعيق الوضوح والفهم.

6 التزمت عينة البحث من المقالات بالاستشهاد والبرهنة على طروحاتها بأدلة مباشرة في صميم تلك الموضوعات المثارة، ما عدا موضوع واحد كانت الأدلة غير مباشر وضعيف.

7 اعتمدت الأدلة والشواهد في البرهنة على أمثلة محسوسة من واقع الحياة العامة للجمهور المخاطب.

8 توفرت المقالات على توظيف عدة الاستمالات الإقناعية، حيث تصدرت الاستمالات العاطفية بأنواعها المختلفة كاستمالة الجزم بقوة النتيجة، وكذلك الاستمالة العاطفية القائمة على التخويف بالمجهول، والاستمالة العاطفية القائمة على تعزيز الاحتياجات النفسية للفرد، بالإضافة لتوظيف الاستمالة العاطفية القائمة على مخاطبة الوجدان لتحريك كوامنه نحو الهدف عبر خطاب بلاغي منمَّق.

9 من الإيجابيات في منهجية التعاطي والمعالجة في تلك المقالات الاستخدام الواعي واليقظ للألفاظ والكلمات مثل: الخيرون - الكتاب الأب الحنون - الإنسان الواعي المتحضر - المجتمعات الراقية - مسؤول فاضل. وكذلك التزام التأدب واحترام الآخر القارئ بعدم اللجوء للألفاظ والمصطلحات الخشنة وغير المريحة في توصيف الآخر المختلف عن الكاتب.

التنشئة الاجتماعية في فكر العلامة أحمد القطعاني

د. جمعة عمر فرج

أستاذ علم الاجتماع بجامعة الزيتونة - ليبيا

الملخص

إن عملية التنشئة الاجتماعية للفرد هي في غاية الأهمية بالنسبة لتطوير شخصيته وتكوين ذاته؛ فهي القاعدة الأساسية للضبط الاجتماعي الذي يضم مجموعة من المعايير والعقوبات السلوكية التي تعمل على دفع الفرد نحو التماثل المعياري، وعندما ينشأ الفرد على التماثل المعياري فإن ذلك يعني أنه اكتسب معايير وعقوبات مجتمعه من «أسرته، ومدرسته، ورفاقه» عندما يصبح متماثلًا ومنضبطًا ذاتيًّا واجتماعيًّا، فالتنشئة هنا لا تقوم فقط بربط المنشأ بمجتمعه بل تقوم بضبطه حسب ضوابط المجتمع التي أنابها لتقوم مقامها في تماثل أفراده، فهي عملية لا تتم في محيط الأسرة فقط بل بكافة جماعات المجتمع، ولكل جماعة أسلوبها الخاص بها في تنشئة أفرادها حسب نوعها وطبيعتها، لا تكرر ما تقوم به الجماعة التي سبقتها من أمور تنشئيه ومسؤوليات اجتماعية .

وفي هذا البحث تم تناول موضوع التنشئة الاجتماعية في فكر العلَّامة أحمد القطعاني، وقد هدف البحث إلى التعرف على التنشئة الاجتماعية الإسلامية، كيف

عالج العلَّامة القضايا المعاصرة في التنشئة الاجتماعية من المنظور الإسلامي، وتم استخدام المنهج الوصفي لعرض القضايا التي تخدم التنشئة الاجتماعية في المجتمع في فكر العلَّامة أحمد القطعاني.

كلمات مفتاحية: (أحمد القطعاني، التنشئة، الضبط الاجتماعي، الأسرة، المرأة، الأبناء)

مقدمة

عملية التنشئة الاجتماعية هي «عملية تعلم وتعليم وتربية، وتقوم على التفاعل الاجتماعي إلى إكساب الإنسان سلوكًا ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة، حتى يتمكن من مسايرة جماعته والتوافق الاجتماعي معها، وتكسبه الطابع الاجتماعي وتيسر له الاندماج في الحياة الاجتماعية العامة»[(1)]، ويفترض أن التنشئة تتأثر مباشرة بعوامل من داخل أحد الأبوين (شخصيته) ومن الطفل نفسه (الصفات الفردية للطفل) ومن البيئة الاجتماعية التي تتداخل فيها العلاقة بين الأبوين والطفل لاسيما العلاقة الزوجية، وشبكات العمل الاجتماعي، والتجارب الوظيفية للآباء[(2)]. فعلى الرغم من أن عملية التنشئة الاجتماعية تشتد في مرحلة الطفولة، فمن الخطأ الاعتقاد في أنها عملية تتوقف عند هذه المرحلة، إنما تستمر هذه العملية في مرحلة المراهقة، وحتى في مرحلة البلوغ.

وتلقى دراسة «جين بياجيه» الضوء على الدور الذي تلعبه البيئة الخارجية على الأسرة مثل جماعة اللعب وأثره على الطفل؛ إذ تمد جماعات اللعب الطفل بأول فرصة لدمج معايير السلوك الاجتماعي بفضل نموذج العلاقات الشخصية المتبادلة المميزة لمثل هذه المواقف؛ ذلك لأن علاقة الطفل بالآخرين في نطاق الأسرة عبارة

(1) الطفولة والتنشئة، عائشة السيار، أعمال المؤتمر الرابع للمرأة في الخليج والجزيرة العربية، المنعقد بين 15 – 18 ديسمبر 1986م، ص 198.
(2) سوء معاملة الطفل الكويتي: طرق الوقاية والعلاج، بدر العيسي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 66، السنة 17، ص 190.

عن علاقة تبعية ودونية، ولكن في نطاق جماعة اللعب تصطبغ هذه العلاقات بطابع التعاون والمساواة، ويعتبر امتثال الطفل في محيط الأسرة امتثالًا خارجيًّا وعادة ما ينظم من خلال سلطة البالغين. ولكن الامتثال في محيط جماعة اللعب، على خلاف ذلك، يتحقق داخليًّا عن القرار الحر للطفل بأن يطيع قواعد اللعب(1)، فجماعة الأقران هي المحطة الثانية التي يتعلم منها الإنسان بعد الأسرة والمدرسة والتي تسمي بثقافة الأطفال.

فالتنشئة الاجتماعية وفق ذلك كله عبارة عن تداخل لمفاهيم اجتماعية نفسية وتربوية تصب جميعها في إطار ثقافة المجتمع، وبالتالي فهي غرس ثقافي للأجيال من خلال آبائهم، وهي نقل للعناصر الثقافية بكل معانيها وبشقيها المادي واللامادي إلى الأبناء، وإذا ما كانت هذه التنشئة قويمة -إذا صحت التسمية- فإن الأبناء سيكونون متكيفين مع الوضع الاجتماعي السائد داخل المجتمع. ومن الممكن تجديد التعريف الذي استقاه الأنثروبولوجي نبيل صبحي حنا بأنها -أي التنشئة الاجتماعية- هي تدريب الطفل على التعامل الاجتماعي الناجح، فتبدأ الأسرة منذ نعومة أظافر الطفل بإدماجه في المجتمع عن طرق تلقينه واجباته نحو الآخرين، كما تطالبه بأن يطابق سلوكه التقاليد والعرف والسلوك الاجتماعي السائد المقبول، وهي جميعها عناصر ثقافية تنتقل للأطفال وتستمر معهم طيلة فترة حياتهم؛ لأنها قد ترسخت في بداية عمر الإنسان، فهي قواعد عامة من السلوك يستطيع الآباء تفعيلها بدور مميز، حتى تكون تنشئة اجتماعية ناجحة وسوية من خلال عملية تفاعل ثقافي مع المحيط المجتمعي، وأن أي خلل في عملية التنشئة الاجتماعية سيصاحبها بشكل قطعي سلوكًا متأثرًا بهذا الخلل باختلاف درجاته وتأثيراته مع العوامل الأخرى.

يعد الالتزام الديني من أبرز العناصر الاجتماعية التي تحاول التنشئة استهدافها؛

---

(1) دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، عبد الرزاق جلبي، دار النهضة العربية، بيروت، 1984م، ص 248.

لإكساب الأفراد السلوك والقيم الدينية، وهذا يعتبر من مهام المؤسسات الدينية في المجتمع، مع دور الأسرة والمؤسسات التعليمية.

ويعد الدين والالتزام الديني من القضايا الهامة التي يبحث فيها علم الاجتماع، ولقد ظهرت العديد من الآراء التي تناولت موضوع الدين والتدين في حياة الأفراد وتأثره وتكونه وفقًا لمؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة، وهذا البحث سوف يتناول فكر العلامة أحمد القطعاني في التربية والتنشئة الدينية في المجتمع.

أهداف البحث:

1. التعرف على التنشئة الاجتماعية الإسلامية.
2. التعرف على فكر العلَّامة أحمد القطعاني في التنشئة الاجتماعية.
3. التعرف على كيف عالج العلَّامة القضايا المعاصرة في التنشئة الاجتماعية من المنظور الإسلامي.

أهمية البحث:

إن دراسة الوظيفة الاجتماعية التي تقوم بها التنشئة الاجتماعية، وأثرها في غرس وخلق التوجهات الاجتماعية المختلفة عند الأفراد بوصفها الجزء أو الجانب الأهم في حياة الأفراد بجميع مراحلهم العمرية، مما يجعل هذا البحث يحمل في طياته العديد من الاستفسارات المهمة والتي تفتح الأبواب إمام العديد من الحقائق والأمور غير المعروفة لدي العديد من الأفراد؛ إذ تحتل التنشئة الاجتماعية وخاصة الجانب الديني فيها أهمية بالغة في حياة المجتمعات الإنسانية لما لها من دور بارز في تنشئة الفرد على الالتزام بالضوابط الدينية بما يعمل على تحقيق الاستقرار للمجتمع.

تساؤلات البحث:

1. كيف عالج العلَّامة أحمد القطعاني قضية التنشئة الاجتماعية في المجتمع من خلال مؤلفاته؟.

2 ما أهم الموضوعات التنشئة الاجتماعية التي تناولها العلامة في مؤلفاته؟.

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي كأحد المناهج المستخدمة في الأبحاث النظرية لوصف وتحليل موضوع التنشئة الاجتماعية في فكر العلامة أحمد القطعاني.

التنشئة الاجتماعية عند العلّامة أحمد القطعاني:

لم يتطرق أحمد القطعاني إلى مفهوم التنشئة الاجتماعية بشكله المعرفي والمتعارف عليه عند علماء الاجتماع والتربية؛ فقد تناول التنشئة الاجتماعية من خلال تعليم الأفراد كيف يتعاملون مع المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي يُنشَّأون فيه، وتعاليم الدين السمحة.

وتهدف التنشئة الاجتماعية عنده في أنها تتمثل في إعداد الفرد المؤمن وتدعيم القيم الروحية والدينية لديه، هي مجموعة من السمات التي يجب تنميتها من أجل بناء مجتمع قادر على الانخراط في المنظومة الاجتماعية والأخلاقية، كما يهدف إلى تكوين الإنسان المثالي الذي تتجسد فيه القيم الأخلاقية والدينية والحضارية، فالمسلم لا يستطيع أن يغير ما حوله إذا لم يتغير ما بنفسه، وكما تهدف التنشئة الاجتماعية عند العلّامة أحمد القطعاني إلى غرس الروح الإسلامية الأصيلة، والقيم الإسلامية التي لها علاقة وثيقة بالحاجات الإنسانية.

تربية الأبناء:

عن التربية الصحيحة للأبناء تخلق جيلًا واعيًا ومستقبلًا أفضل للأبناء، وكل أسرة تطمح أن تربي أبناءها تربية صالحة، ومما يساعد على تربيتهم وتنشئتهم بشكل سليم هو أن يكون للأسرة أهداف واقعية غير خيالية تتماشي مع خصوصيات مراحل

النمو واحتياجاتها، كتنمية خصال الخير فيه وتوجيهه لبناء شخصية سوية جسميًّا ونفسيًّا وروحيًّا وفكريًّا، فأسلوب التربية الأسرية هو المناخ العاطفي الشامل فيها.[1]

وقد اهتم الإسلام بالطفل واعتنى به عناية فائقة، وباعتبار مرحلة الطفولة هي المرحلة الأساسية في بناء شخصية الطفل، فقد أوجب الإسلام على الآباء توجيه أبنائهم توجيهًا سليمًا صحيحًا، وجعل ذلك فرضًا عليهم، بل وقد كفل الإسلام للطفل حقوقًا كثيرة تبدأ بالعناية به منذ هو في رحم أمه، حتى يولد ويشب رجلًا صالحًا، وقد أكّد على هذا الموضوع العلامة أحمد القطعاني في كتابه إسلام للبيع حيث قال: «أما أنتما أخي الأب وأختي الأم فعليكما مسؤولية جسيمة؛ إذ ينبغي أن تُعينا أولادكما على رضاكم بإحسان، وتربيتهم بالاجتهاد في إسعادهم وتنشئتهم على أصول التربية الإسلامية الفاضلة بالنصح والإرشاد، والتوجيه إلى جميل الشيم والطباع، كُونا في منزلة الأبوة المقدسة الأسوة الحسنة، فكم من أم جنت على ابنتها فأفسدت حياتها وسممت عيشتها وخربت بيتها، وكم من أب ألقى ابنه في غياهب الهلاك والمشقة.

أنصحكما بالعلم، فليست الأسرة فقط منزلًا وأثاثًا وطعامًا، وإنما يجب على الوالدين أن يتعلما كيف يربيا أولادهما، فلا يلقيا بهم إلى المهالك والمفاز»[2].

تنشئة الشباب:

يحث الإسلام على تنشئة الشباب تنشئة صالحة تنمي عندهم أفعال الخير والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة والصفات الحميد والرجولة والقوة والهمة العالية، وقد تناول العلّامة أحمد القطعاني هذا الموضوع في كتابة (الحب القذر) «الرجولة مزيج من ثلاثة عناصر هي: وفاء، ومواقف، ومسئولية»، كما حارب التشبه بالنساء والتخنث فيقول: «نحن نري اليوم مظاهر تنتشر في بلداننا شيئًا فشيئًا، فبعض

(1) العوامل المؤثرة في التنشئة الاجتماعية للأطفال، شيماء ناصر، مجلة الفرقان، جمعية احياء التراث الإسلامي، الكويت، العدد 925، 2107م، ص 35.

(2) اسلام للبيع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 79.

الشباب نسمعه يرقق صوته أو يطلي أظافره، ناهيك بظاهرة الأقراط التي يروج لها الإعلام الآن والتحلي بالذهب والمجوهرات».

التنشئة الدينية للشباب شاملة ومتوازية ومتكاملة ومتنوعة في أساليبها وتتطلب منهجًا ينطلق من خصائصها والاهتمام بالنواحي الدينية والأخلاقية في ضوء الكتاب والسنة؛ فابتعاد الشباب عن التنشئة الدينية يؤدي بهم إلى أن يكونوا ضعافًا أمام المغريات الدنيوية، والتي تفتح الباب علي مصراعيه للانحراف، فنجد العلّامة في كتابه يحارب العديد من الأفكار الخلافية التي تقود الشباب إلى الانحراف عن الدين الإسلامي، فيقول: «الإسلام ليس مظهرًا فقط، وإنما مظهر ومخبر، عقيدة وسلوك، ولا ينبغي أن تكون مثل هذه الموضوعات المتعلقة باللحية أو الثوب القصير أو الإسبال مصادر خلافات ومنازعات؛ فإن الإسلام أعمق من هذا كله»[1].

الأسرة:

هي النواة الأساسية في تكوين المجتمعات المسلمة، وتُبني على أساس ارتباط شرعي بين رجل وامرأة، وهي مُناطٌ بها مسؤولية التربية للنشء، وتوجيههم لما فيه صلاحهم وإعدادهم لتحمل المهام والوجبات التي يكلفون بها في جميع مراحل حياتهم[2].

وللأسرة أهمية كبير في الإسلام، فهي تعد اللبنة الأولى التي تنشأ فيها الأجيال، وتتولي تربية الأبناء حتى يصبح هؤلاء الأبناء أصحاب أُسر، ويتولى أفراد الأسرة المسؤوليات الاجتماعية، ولنجاح الأسرة ينبغي أن يكون الزوج والزوجة صالحان بالاعتماد علي التربية الإسلامية، وتوجيه الأفراد والمجتمع بالتمسك والاعتماد على العقيدة الإسلامية في حياتهم، وهذا ما تناوله العلّامة أحمد القطعاني في أحد كتاباته فيقول: «ويسوقنا ذلك إلى الأسرة وهي نواة المجتمع ولبه وهي التي إن صلحت

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 28.
(2) رفقا بالقوارير: نصائح للأزواج، أمة الله عبد المطلب، موقع المسجد النبوي، www.mkubo.org

صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله، ألا تحتاج وهي قطب الحياة وعمودها وسنامها إلي مظاهر جمالية أنيقة وزينة حانية ورقيقة بين أفرادها؛ لتزاد حبًّا وأنسًا وتنسجم مع منظومة الحياة الخالدة فلا تكون نشازًا ثقيلًا في جوقتها»[1].

المرأة:

تعد المرأة الصالحة أهم ركائز المجتمع، وهي العنصر الأساسي لقيام المجتمعات القوية والمتماسكة، من خلال دورها في تربية الأبناء وتوجيه الزوج في حياته؛ ولذلك فإن المرأة هي عمود الأسرة يقع عليها عبء تربية الأبناء، وفي الوقت الحالي تواجه المرأة ضغوط الحياة وصعوبتها، فهي إما أن تكون معول بناء للمجتمع إن كانت واعية لدورها وتربيتها إيمانية، قدوتها زوجات النبي ﷺ وزوجات الصحابة، فيكون المجتمع معتمدًا عليها وقاعدته الصلبة في التربية، أو تكون معول هدم لمجتمعها إذا كانت سطحية ومنحرفة قدوتها النساء المبتذلات كالمغنيات وعارضات الأزياء، وبهذا تكون قاعدة المجتمع ضعيفة منهارة.

وقد تناول العلامة هذا الموضوع في كتبه في العديد من المواضع، فقد قال: «تعدد خلق الله سبحانه كما شاء إذا خلق المرأة خصها بخلاصة جمال الكون، ففيها من الورود ورائحتها وتفتحها»[2].

«إن علاقة بين الرجل والمرأة خارج محراب الزوجية المقدس هي رذيلة يحاول مرتكبها أن يغطي جريمته النكراء بكذبة اسمها الحب، ثم جرف الإعلام الحديث ما تبقى من قيم حتى صدق السذج أنها حب بالفعل».

«للمرأة في الإسلام ما يليق بمكانتها السامية من اهتمام، فهي نصف المجتمع وشمس الأسرة وريحانة المنزل وبسمة الحياة وبهجتها، عظمها الإسلام أمًّا مقدسة وبث في ثنايا كتابه الكريم وسنه نبيه العظيم ﷺ تلك النفحات والطيبات المخبرات عن أمهات المؤمنين المعظمات»[3].

---

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 7.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص 47.

بر الوالدين:

إن بر الوالدين هو أقصى درجات الإحسان إليهما، فيدخل فيه جميع ما يجب من رعاية والعناية، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين حتى قرن الله تعالي الأمر بالإحسان إليهما بعبادته التي هي التوحيد والبراءة من الشرك اهتمامًا به وتعظيمًا له، فبرّ الوالدين من أهم القيم الإنسانية التي تبنى عليها المجتمعات، فكل الشرائع السماوية أكدت على أهميته ودوره في الحفاظ على الأخلاق، يؤكد العلّامة أحمد القطعاني على هذا الموضوع بقوله: «هنيئًا لك أيها البار بوالديه فقد أكرمه الله بعيد يحتفل بشخصك الكريم كل مسلم......إن عيد الأضحى هو اليوم العالمي لبر الوالدين، وهو اليوم الذي اختاره الله تعالى ليكرم فيه كل ابن بار بوالديه حيثما كان»[1]، وبقوله «أقول: إن من كفر بنعمة والديه عليه وهما السبب المباشر في ايجاده وحفظ حياته كان بنعمة الله أكفر»[2].

الضبط الاجتماعي:

يتميز الضبط الاجتماعي الذي يقره الدين الإسلامي بخصائص فريدة عن تلك الضوابط التي توجد في بعض الشرائع أو القوانين الوضعية، فالتشريع الإسلامي يستمد سلطته من الله ﷻ ويعتمد في سلطته وضوابطه على وازع الضمير في النفس الإنسانية، ويعمل كموجِّه للإنسان في تصرفاته، فيكون الضمير على يقظة في جميع الأوقات بأنه مراقب إلهيًّا في السر والعلن قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ **[التغابن: 4]**[3].

وما ينبغي الوقوف عليه هو قوة وأثر هذا الشكل من أشكال الضبط الاجتماعي،

---

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 74.
(2) نفس المصدر، ص 75.
(3) الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، خالد السالم، مكتبة القانون والاقتصاد للنشر والتوزيع، الرياض، 2000م، ص 36.

ودوام صلاحيته واستمرار مفعوله متى اتُّبع وفق ما جاء به، الأمر الذي لا يتوفر في بقية أشكال الضبط الاجتماعي.

ويبرز العلامة أحمد القطعاني أثر الدين وبالذات الدين الإسلامي كأداة ضبط فيما يشتمل عليه من تعاليم، تمثل في مجملها مجموعة من الضوابط تظهر في العبادات المتعلقة في العلاقة بين العبد وخالقه ﷻ، وفي المعاملات التي تعكس العلاقة بين الأفراد.

فالتزام الأفراد في المجتمع بما يفرضه الدين من قواعد وضوابط وأنماط للعقل والسلوك، وامتثالهم للأوامر والضوابط والنواهي بقدر ما تكون الرابطة بين الأفراد والجماعات أنضج وأقوى، وبذلك يشعر المجتمع بتماسكه ووحدته.

محاربة الفساد:

تشكل قضية محاربة الفساد أحد أبرز التحديات في كثير من المجتمعات؛ بسبب انتشاره الواسع فيها، وتعطيله لفرص التنمية والإصلاح السياسي والاقتصادي، فالمحافظة على المال العام من أوجب الواجبات وأعظم الطاعات، وخيانة ذلك من الفساد في الأرض، ومحاربة لله ورسوله ﷺ، وخيانة لولاة الأمور، وصاحبه متوعد بدخول النار.

وإن من أفضل الطرق لمكافحة الفساد التربية الإسلامية الجيدة، وأن يعوِّد الفرد نفسه على الرقابة الذاتية، فإذا أصلح الفرد نفسه صلح المجتمع، فالرقابة الذاتية تحمل على محاربة الفساد بقناعة دون الحاجة إلى روادع وقوانين وعقوبات التي يستطيع المفسد التحايل عليها بشتى الطرق، وإن أفضل طرق لمكافحة الفساد هو تقوى الله ﷻ، وخاصة من يتولي أمر الناس عليه أن يحرص على البعد عن الفساد بجميع أنواعه، ويتحقق ذلك باستشعار مراقبة الله ﷷ، وتنمية الأخلاق وتعزيز جوانبها بالأبعاد الشرعية، والرشاد والتوجيه والتوعية بالإحكام الشرعية، ففي القرآن

الكريم العديد من الآيات التي تذكر الفساد بين النهي والتذكير، فالنهي عن ارتكاب هذه الجريمة البشعة في حق المجتمع والفرد، والتذكير بأحوال الأمم السابقة التي فسدت فكان مآلها السقوط والاندثار والعذاب الأليم. لقد أفرد العلامة أحمد القطعاني فصلًا خاصًّا لمحاربة الفساد وذلك في كتابة إسلام للبيع، فقد قال فيه: «إن الفساد حرام حرام حرام ليس في الإسلام وحده بل في كل الشرائع السماوية، ويستوجب عذاب الدنيا قبل الآخرة، ولنحذر أن يصيبنا ما أصاب ثمود قوم سيدنا صالح، ومدين قوم سيدنا شعيب»[1].

الاهتمام بالبيئة:

إن الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها أصبح من الأمور التي يجب على جميع أفراد المجتمع أن يتكاتفوا لحمايتها، فالأمر أصبح مخيفًا للغاية في ظل تزايد المخاطر الناتجة على تلوث البيئة، حتي أن الحياة الإنسانية على الأرض أصبحت مهددة في حال استمرار معدلات التلوث البيئي في كل المجالات.

فالاهتمام بالبيئة ليس منحة من الفرد يتكرم بها، وإنما هي واجب وضرورة لتأمين حياته بالدرجة الأولى، فنظافتها تؤثر على الحياة والصحة تأثيرًا إيجابيًّا، فالعناية بالبيئة من الأمور الضرورية والهامة التي يجب على المجتمع وأفراده أن يسعى إليها، والشرائع السماوية تدعوا إلى ضرورة العمل على نظافة البيئة من حولنا حتى لا نكون كالمفسدين في الأرض، فهذه الموارد التي سخرها الله للإنسان نعمة من النعم التي يجب أن نحافظ عليها، وقد أولى العلّامة أحمد القطعاني عناية واضحة لهذه القضية في فكره فقد قال: «نظافة مدينتك هي باب صحتك التي ائتمنك الله عليها بمحافظتك على عافيتك وسلامتك من الأمراض وعيشك أنت وأسرتك في سعادة وعافية، ومسؤولية الرُّقي بهذا البلد هي على عاتق كل واحد فينا، وأننا نحن من

(1) اسلام للبيع، مصدر سابق، ص 5.

يستفيد من البلاد النظيفة والشجرة والمدارس الجميلة المنظمة وسواها، وما لم نفهم هذا جيدًا ونعمل به ونقنع أصدقاءنا وأقرباءنا به فإننا سنبقى ننظر شاشات الفضائيات متحسرين متمنين أن تمطر السماء ذهبًا وفضة، وهي لن تمطر إلا دموعًا تبكيها أسفًا وحزنًا على قوم يأمُلون ما لا يكون فيكونون ما لا يأمُلون»[1].

الخاتمة:

إن التنشئة الاجتماعية الإسلامية ضرورة إنسانية تسعى إلى المحافظة على النظام الاجتماعي والتوافق معه، فهي كذلك تقوي الرابطة الاجتماعية، وتحقق للمجتمع وحدته من خلال اتباع الأوامر واجتناب النواهي، كما أن التزام الأفراد في المجتمع بما يفرضه الدين من قواعد وضوابط وأنماط للعقل والسلوك، وامتثالهم للأوامر والضوابط والنواهي بقدر ما تكون الرابطة بين الأفراد والجماعات أنضج وأقوى؛ وبذلك يشعر المجتمع بتماسكه ووحدته.

الأسرة باعتبارها أهم المؤسسات الاجتماعية لها دور في التنشئة الاجتماعية الإسلامية التي يكتسب من خلالها الفرد المعرفة الدينية، وتزوده بالإجابة عن جميع الأسئلة الدينية التي تحتل أهمية كبيرة في بنائه الفكري؛ مما يبرز وبجلاء في الثقافة الإسلامية كون الدين مرتكز أساس في تكوينها وعليه قامت الحضارة الإسلامية، وليس أدل على ذلك ما كان عليه حال الأوائل من المسلمين عندما امتثلوا للأوامر واجتبوا النواهي، حتى أصبح الدين واقعًا ملموسًا في حياة المجتمع بمجالاتها المختلفة.

---

(1) نفس المصدر، ص 7 – 8.

قضايا المرأة في فكر العلّامة الشيخ أحمد القطعاني

د. بثينة قسم السيد عمر
أستاذ مساعد بجامعة البحر الأحمر- السودان

ملخص

تهدف الدراسة إلى بيان أهم القضايا التي تناولها العارف بالله الشيخ القطعاني، وتخص المرأة من وجهة نظر صوفية، وقد توصلت الدراسة إلى أن غاية الشيخ القطعاني هي معالجة القضايا الاجتماعية للمرأة ومشاكلها وهمومها، والسعي نحو تحريرها.

اعتمدت الدراسة على عدد من المحاور من بينها: التعريف بوضع المرأة والنظرة الصوفية إليها، وتناول أهم القضايا المعاشة في المجتمع ونظرته إلى المرأة، وتقديم بعض النماذج من خلال كتابات الشيخ القطعاني.

إن فكر الشيخ القطعاني قد حمل كثيرًا من المعاني والقيم الإسلامية النبيلة التي تسهم بدور فاعل في نشر الثقافة الإسلامية، وعمل على معالجة القضايا الاجتماعية من: انتهاك وظلم وتعتيم للمرأة في العالم الإسلامي العربي.

وتؤكد الدراسة على ضرورة الاهتمام بأطروحات الشيخ القطعاني، التي هي من صميم التعاليم الإسلامية، وإبرازها للمثقفين، وتوصي أيضًا بإقامة الندوات

العلمية المؤتمرات لمُدارسة فكر هذا العالِم المصلح، الذي يحمل في طياته الكثير من الحلول التي يحتاجها العالم الإسلامي المعاصر.

وقد اتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وسرد القضايا التي تخص المرأة ومعالجتها.

ومما دفعني لاختيار هذا الموضوع الكشف عن عالم المرأة، وبيان أشكال القمع التي تطالها، وما أعجبني أكثر وأن ألِجَ هذا المجال بأن المهتم بهذه القضايا هو رجل يرى المرأة بعين الإسلام، وهي نظرة إنصاف ورفق.

كلمات مفتاحية: أحمد القطعاني، المجتمع، المرأة، قضايا، معالجات.

مقدمة:

موضوع المرأة وما لاقته من عَنَت وتهميش في تاريخ تطور الحياة ونظرة المجتمع إليها في الماضي بل حتى الآن، ومهما نالت من مكانة عليّة مرموقة نافست صنوها الرجل في كل مجال - لم تتغير نظرة هذا المجتمع الذي ما يزال يتحفّظ على مساواتها بالرجل حتى وإن بزَّتْه وتقدمت الصفوف وأثبتت جدارتها. وفي هذا المقام أكاد أجزم أن من استشفّ وألمح لهذه المكانة الإنسانية السامية للمرأة ومنذ أمد بعيد هم السادة الصوفية المحققون، حتى أننا نجد أن تكنيتهم وإشاراتهم للذات الإلهية والذات المحمدية في هيامهم بها بالأنثى، كليلى والرباب ولبنى وعبلة وريا ودَعْد وكثير من أسماء الأنثى، فما الهدف من ذلك؟! إنه دون شك مكانة المرأة لديهم.

المرأة هي أكبر من استضعف في الأرض، ولكن الحمد لله موعود الحق والوعد الإلهي جاء مبشرًا بنصرتها من بعد هذا الاستضعاف في قرآن يتلى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: 5]، ومؤكد أن سبب هذا الاستضعاف يرجع إلى موروث الحياة في سير تطورها، وقسوتها التي لا تُنال إلا بالجهد الجهيد والمكابدة القاسية، فتكوين المرأة

العضوي لا يستقيم، بل قل يتعارض تمامًا مع تكوينها الجسدي هذا، فالحياة في كل مناحيها تحتاج لقوة العضل والساعد؛ وذلك السبب الأساسي في تفضيل الرجل على المرأة ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: 3]، ومن ظاهر الآية أن التفضيل كانت علته قوة الساعد والإنفاق وكلاهما حظ المرأة فيه كان منقوصًا مبخوسًا تمامًا، وذلك سبب مباشر لعادة وَأْد البنات في الجاهلية التي حرمها الإسلام، فضنك الحياة التي صارت فيه البنت عبئًا ثقيلًا على والدها أو كافلها، حتى مجرد أن يبشر بميلادها يتغير منه، وصوَّر ذلك القرآن الكريم في وصف بليغ: ﴿...وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: 59]، فنهاهم الإسلام بل حرمها عليهم ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: 31].

نظرة العلامة أحمد القطعاني للمرأة:

كما ذكرت لمح السادة الصوفية المحققون وضع ومستقبل ومآل المرأة عندما يقوى عودها، لا بقوة العضل لكن بقوة عقلها، فيكون عندها التمايز بالخلق والعقل، لا قوة الساعد، وعندئذ ستجد فرصتها وتنافس الرجال، فتكون صينة لنفسها، وسطوة القانون هي التي تحمي الرجل والمرأة، وقد ثبت ذلك في الكثير من الحالات بأن كانت الرئيسة والوزيرة والطبيبة والهندسة، وأثبتت ذاتها وجدارتها في كل مجال، فهل ما حققته امرأة اليوم ضد مفاهيم الدين؟ لا بل لعمري إن ذلك هو روح الدين، فالدين أهم أهدافه كرامة الإنسان من حيث هو إنسان كان رجلًا أو امرأة، فقد ثبت للناس جميعًا أن الفتاة كلما تعلمت كانت أحفظ لنفسها بالنسبة للجاهلة.

فمن هؤلاء المتصوفة العلّامة احمد القطعاني، فللمرأة حظ وفير في كتاباته وصرّح بمقامها ومكانتها، ومنه قوله «للمرأة في الإسلام ما يليق بمكانتها السامية

من اهتمام، فهي نصف المجتمع وشمس الأسرة، وريحانة المنزل وبسمة الحياة وبهجتها، عظّمها الإسلام أُمًّا مقدسة، وبث في ثنايا كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم ﷺ تلك النفحات الطيبات المخبرات عن أمهات المؤمنين المعظمات، ولا غرو فأول من آمن برسالة سيدنا رسول الله ﷺ من البشر كافة هي أمُّنا خديجة بنت خويلد، وكان من أوجه احترام الإسلام للنساء أن أشاد بذكرهن، وخصهن بسورة في القرآن الكريم باسمهن هي: سورة النساء»[1].

فينبه الشيخ القطعاني بأن أمر المرأة في المجتمع يعتبر أُسّ الكمال، برقيها ترتقي المجتمعات والشعوب، فمن أراد أن يعرف تقدم شعب أو علو مكانته فليبحث عن وضع المرأة فيه، ونظرة هذا المجتمع لها، فإن كانت عزيزة فيه سترى انعكاس هذه العزة على نشأة ورقي مجتمعها، فالمعلوم أنه (لا تلد النُّجُبَ إلا النُّجُبُ).

ويقول المفكر السوداني محمود محمد طه: «هذا باب المرأة وهو باب نحب أن يدخله الداخلون سجدًّا؛ ذلك لأنه يعالج شأنًا هو أخطر شئون الأرض على الإطلاق، والمرأة في الأرض كالقلب في الجسد، إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائره. إن المرأة في حقيقة النظام الاجتماعي المتمدين أولى بالعناية من الرجل إن صح أن هنالك أولية بينهما؛ ذلك لأنه يتأثر بها أكثر مما يؤثر فيها وإن خيّل له غروره غير ذلك.. وحين تعرف المرأة سبل المكارم تُنشي على سمتها الرجل طفلًا، وتحمله على جادتها زوجًا، وتغربه بها في جميع مسالك الحياة وهو أجنبي عنها. إن حواء حين أغرت آدم أغوته ثم لم يستعصم، وهي لم تغره إلا وهي تبغي به سبل الخير، ولكن جهلها كان وبالًا عليه وعليها، وهو لم يستعصم عن غوايتها، لإنها رسولة حياة تدعو إليها في إلحاح متصل، حتى لكأن كل جارحة في جسدها لسانا يلهج بالدعوة.. آدم طالب حياة في المكان الأول، وكل الناس طلّاب حياة، فمن لم يستجب للحياة لا يستجيب لشيء، ولو أن حواء عرفت سبيل الحياة لكانت دعوتها لآدم دعوة صالحة

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 47

لا غواية فيها ولا عصيان.. ولو تعلمت حواءاتنا لرشد آدمونا.. فإنك إن تُعلّم امرأة تعلم أمة، وإن تعلم رجلًا تعلم فردًا»(1).

وقبل الدخول في ثنايا هذه الدراسة لا بد لي أن أقدم للقارئ ملخّصًا موجزًا عن أهم القضايا في كتابي الشيخ القطعاني (وداعًا أيتها الدموع) و(الحب القذر) وكذلك (لماذا أبكيتم عصام؟)، ولعل مجمل أحداث الكتب هي لمُعاناة المرأة، فموضوعات قصص الشيخ القطعاني خاصة في كتاب (وداعًا أيتها الدموع) من صميم هموم الأنثى مثل القهر الذي يقع عليها نتيجة التقاليد والعادات الاجتماعية، وكذلك الخوف من الطلاق والنظرة القاسية من المجتمع والأسرة تجاه المطلقة، وكذلك معاناة الأطفال بسبب الطلاق، كما أنه يتناول قضية الاضطهاد وأيضًا الحرية.

لعل كتاب (وداعًا أيتها الدموع) يشخص الأزمة، وهي الحزن العميق الذي تغمره الدموع، فأول القضايا التي تناولتها:

القهر:

إن أوضح صور القهر في (وداعًا أيتها الدموع) متمثلة في قصة ربيعة التي أخذت من المجتمع وتجرعت كؤوسًا من الحنظل بسبب نظرة المجتمع إلى المطلقة، وتتضح هذه النظرة جليًّا في قوله: «ففي تلك الأيام كانت المطلقة مثل غراب مصاب بأنفلونزا الطيور لا صديقات لها ولا تحادثها النساء المتزوجات إلا مضطرات، أما الثيّبات غير المتزوجات فكانت علاقتها بهن أكثر حرمة من لحم الخنزير على المسلم، فلا يتبقى لها من جليس إلا العجائز وكبيرات السن فتشيخ مثلهن وهي في زهرة الشباب، كزهرة ربيعية نبتت في عز الخريف»(2).

فشخصية ربيعة تعاني الإحساس بالقهر نتيجة الظلم الذي وقع عليها من غير حول ولا قوة لها، وهو ظلم الزوج وأسرته حتى انتهى بطلاقها، ويبلغ القهر ذروته

(1) صحيفة الجمهورية السودانية، افتتاحية باب المرأة، العدد 25، 15 – 1 – 1954م
(2) وداعًا أيتها الدموع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 4

عندما تتفاجأ بأقسى أنواع القهر من والدها ووالدتها وأخواتها، فهذا حظ المطلقة حتى إن كانت غير مذنبة ليكتب لها البؤس والشقاء حتى انتهى بها المطاف إلى أن اختل عقلها، وتحولت تلك الزهرة إلى حطام إنسان، فتتجلى المأساة في محاولاتها البائسة لحل مشكلتها وذلك بعد أن تغيرت التقاليد قليلًا، لتذهب لمن جعلوا القرآن مهنة يسترزقون منها، تقول القصة: «...أنني سمعت أخيرًا أنها أنفقت الكثير والكثير على أولئك الذين امتهنوا تحويل مآسي ربيعة ومثيلاتها إلى نقود وسيارات ومساكن وثياب، إنهم مجموعة من الحذاق -هداهم الله- علموا أن في آيات القرآن الكريم ونصوص الأدعية ما يفك رصيدة أو يبطل سحرًا أو يحل معقودًا فاتخذوها مطية لنيل دنياهم، وما علم هؤلاء أن أسرار الله يهبها للطيبين الطاهرين ... لتحل بركة وشفاء وقضاء حاجات الناس»[1]، فالبطلة في هذه المعاناة حتى لفظت آخر أنفاسها.

والقارئ للقصة يعيش في أجواء القهر التي عاشتها (ربيعة)، فهذا المونولوج الذي يبدو داخلها يكشف بجدارة أبعاد الأزمة التي تعيشها الشخصية الرئيسة في القصة، لا بصفتها الشخصية فقط، وإنما باعتبارها رمزًا أو نموذجًا لتاريخ كامل من النساء المحرومات المقيدات والموؤدات .

ومن مظاهر القهر أيضًا في قصص الشيخ القطعاني صورة الرجل الظالم المهيمن بغير وجه حق، فيقول: «وطرقت الباب وانتظرت قليلًا لتفتح لي الباب طفلة في الثانية عشر من عمرها ذابلة مصفرة، نحيفة القوام، شعثاء الشعر حمراء العينين، ما أن طالعت منظرها الكئيب حتى تدفقت علي بحار الحزن والأسى من دون هوادة ... وسألت عنها فقيل لي: إن والدها توفي وارتحلت أمها المصرية إلى موطنها لتعيش مع أهلها، وضمها عمها إلى أسرته طمعًا في معاشها الضريبي، فاستولى عليه كله لا ينفق عليها منه شيئًا، ثم أجبرها هذا الظلوم الغشوم على ترك المدرسة، وتحولت

(1) المصدر السابق، ص 6

شيئًا فشيئًا إلى خادمة في المنزل تلبس رَثَّ الثياب وتكنس وتغسل وتطبخ وتنظف الأطفال، وركنت في زاوية الاهمال، وضعف جسمها الصغير من تحمل كل هذه الأشغال الشاقة المؤبدة، فانهدّت قواها واجتاحتها الأمراض تنهشها وتغرس أنيابها في جسدها النحيل، ثم تفارق هذه الفتاة عيني من يومها»[1].

وتتجلى رؤية المعناة والصراع النفسي واضحة في الصبية اليتيمة، فالصراع النفسي لا يتخذ شكل المواجهة والمجادلة وإنما يبدو في الصمت والخوف من معقبات الكلام، فنجده يستعطف القارئ، فكأن هذه الجزئية تحولت إلى مناحة تفطر القلب.

الصورة الأخرى من القهر هي سببه؛ لتجاوز المرأة التي تتجرأ لترضى بعلاقة مع زميل العمل من غير زواج، وذلك بعد اقناعها من زملائها وزميلاتها في العمل بأن الزواج في زمانهم لا يتم إلا بالحب أولًا فيقول: «ومن التي تتزوج يا مسكينة من دون حب مسبق اليوم؟ لا تكوني معقدة فأنت أكبر شقيقاتك وفي الثامنة والعشرين وأمثالك تزوجن وأنجبن ماذا تنتظرين تجاوبي معه ولن تخسري شيئًا»[2]، تتورط شخصية القصة في هذه العلاقة نتيجة الإحباط الشخصي. فالمرأة الضعيفة هي التي تسلّم نفسها للملذات والشهوات والكذب والرياء، وعندها تفقد النُّبل والقوة والشجاعة والصراحة. فالمرأة التي تعد رهينة هذه الأخلاق الدونية عاجزة عن التحرر وربما لا تريده.

فالمرأة المقدمة في هذه القصة هي امرأة مثقفة وهي تسعى لتأكيد وجودها في المجتمع بالاستقرار بالزواج والعيش بحياة مستقلة، ولكن ترى الباحثة بأن كل ما ذكر عن الشخصية أو البطلة من ثقافة وحظ تعليمي يكفل لها الوعي والإدراك وعدم الوقوع في الخطيئة.

(1) المصدر السابق، ص 21

(2) المصدر السابق، ص 42

أما ما ذكر من قهر بالنسبة لبطلة القصة هو ما حدث لها بعد أن قدمت كثيرًا من التنازلات كتعبير منها واقعي عن حبها لفتى أحلامها، وثقتها المطلقة فيه ... وأقنعت نفسها بأنها زوجته فعلًا! فوقع الذي يحذّر منه فيقول: «فكان إن غاب عنها ما تعودت النساء على معاناته كل شهر، ثم ابتدأت تشعر بغثيان وقَيْء وتعب، لم تكن قاصرًا فقد عرفت منذ البداية هذه الأعراض وأبلغت حبيب القلب بما تجد فطمأنها بأنه لن يتخلى عنها، وأنه مسرور بابنه منها، وواصل معها مشاوير الإثم وهي لا تريد أن تستمع لصوت عقلها الذي يرسل لها إشارات تحذيرية بين الفينة والأخرى، فتترجمها لحبيبها على شكل طلبات رقيقة ... بينما هو ينكب على مائدتها التهامًا ويعطي الوعود تلو الوعود، ويشرح ويحده عن ظروفه وأحواله وأبيه وأسرته، حتى تكورت بطنها للعيان لا تكاد تخفى، ولم تجد جوابًا على الأسئلة المنهالة عليها كالرصاص المنهمر. وصل الأمر للشرطة بالتحقيق معها وإبقائها بعيدًا عن الأهل حفاظًا عليها من البطش والنقمة، وجيء بحبيب القلب إلى مركز الشرطة وعقد عليها بعد شهر واحد من إنجابها لطفلة جميلة أسمتها: مستورة»[1].

يتضح من الفقرة السابقة القهر من رجل لا يقدم في الحياة سوى تلبية شهواته ورغباته، وامرأة في أسر لا انفكاك منه. فلُفظت من والديها عندما رجعت وابنتها في يدها فوالدها اسمعها كلامًا يذوب منه الحديد ووالدتها تبكي وتتنهّد حسرة على ابنتها التي خيبت آمالها، أما اخواتها فقد صارت وجوههم سوداء كالحة كالفحم، ويبلغ القهر قمته عندما وصل عدم القبول للطفلة البريئة «حتى الطفلة البريئة الجميلة جمال جَدْي الغزال في وادي الربيع (مستورة) لم تفلح ابتسامتها وبراءتها وحركاتها اللطيفة المتكررة في استمالة قلب أحد من الأسرة، حتى إن جنت بعض الشفقة عليها في مرض أو بكاء ومشهد طفولي جذاب انقلب إلى كره ومقت، بمجرد أن تأتي إلى أمها إحدى الجارات أو القريبات تنظر إليها وتقول أهذه ابنه! ... وتسكت فينهار

(1) المصدر السابق، ص 43

كل شيء، وأصبحت ضيفًا غير مرغوب فيه في المناسبات الاجتماعية، فهي كالشاة الجرباء لا يحادثها أو يجلس بجانبها أحد رغم ما تحاول أن تجتذب به الآخرين من التزامها بارتداء الحجاب ونبذ التبرج، والتدين والصلاة في أوقاتها أمامهم والحديث الملتزم»[1].

فترى الباحثة أن القهر الذي وقع لأم مستورة لا يغفره شيء كما وضح على لسان الراوي فالتزام الشخصية بالتعاليم القويمة لا يكفر لها وإن كان باب التوبة مفتوحًا، فهذه الشخصية تعاني الإحساس بالقهر وقلق الانتماء المحبط، فعاشت قهرًا متزايدًا ورفضًا اجتماعيًّا كاملًا، فلا هي شريفة ولا هي فاجرة ولا هي شابة تنتظر الزواج ولا هي مطلقة ولا هي أرملة، ولا هي مقبولة اجتماعيًّا ولا هي مرفوضة، ولا هي حية ولا هي ميتة ولا هي ابنة ناس ولا هي مقطوعة من شجرة.

يلتمس القارئ للقصة الصورة السالبة لكل من الرجل والمرأة والتي أثّرت بصورة مباشرة على المرأة فيظهر الرجل من خلال القصة باعتباره مغتصبًا، أما المرأة فهي مقموعة مقهورة، فيتدخل صوت التعقل والإنصاف من قبل العلّامة القطعاني لينبه أصحاب العقول الضعيفة بهذا الكنز وهذه الدُرر التي يجب صيانتها والمحافظة عليها، تمثلًا بقول الحبيب المصطفى ﷺ: «رفقًا بالقوارير»، فيقول في كتابه الحب القذر: «ضع المرأة أمامك ثم أنظر إلى نفسك فيها وسترى مخلوقًا بديعًا جميلًا، فصُن نعمة ربك ولا تفسدها»[2].

لقد أشار العلامة في الفقرة السابقة إلى وجوب صيانة النفس لتنعكس على المرأة وعفتها «عِفُّوا تَعُفَّ نساؤكم»، فلا بد من تطهير النفس وتنظيف الأواني من كدر النفوس وحب الشهوات، تحضر أبيات فإذا تحقق نال كل منا مراده وفي ذلك أبيات الشيخ النابلسي[3]:

(1) المصدر السابق، ص 43
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص 3
(3) ديوان النابلسي، مدونة الكترونية، Konouz.com

ونحـــن أهــل الصفــا لا نقبــل الكــدرا   أقبــل علينـــا صفيًّــا واســـمع الخبـــرا
وكـــن بأوصافنـــا فـــي القـــرب متصفًـــا   تنــل مـــرادك منـــا كيــف منــك جـــرى
واحـــذر مـــن الأمـــن فهـــو مهلكـــة   فاللـــه يمكـــر فاحســـب أنـــه مكـــرا

فلعل كدر النفوس هو الانغماس في الملذات، فجميع المتصوفة يدعون إلى التخلص من هذا الكدر، ويجاهدون للتحرر منه، ويكون هذا في التحرر من الخوف في جميع صوره، مثال: الخوف على الرزق والتمني والإرادة والطمع والجشع وكل معايب السلوك.

قضية الاضطهاد:

هذه القضية في كتاب (وداعًا أيتها الدموع) تتمثل في الظلم الذي وقع على (آمال) فآمال تُوفّي والدها وهي طفلة وتركتها أمها بعد وفاة والدها كما ردت إلى أهلها بالقاهرة، واحتضنها جدها وجدتها لتنعم بالسعادة ولكن للأسف غادراها سريعًا إلى رحمة مولاهم وتركاها لأعمامها الذين فرحوا بها قليلًا أول الأمر، ثم ملّوها وتقاذفوها كأنها كرة في أرجل طفل مشاكس، حتى استقرت أخيرًا في منزل عمها الأكبر. ومن هنا بدأ الاضطهاد؛ إذ ظلت هذه اليتيمة شغّالة بلا مقابل. تركت الدراسة لأنها لم تجد الرعاية والاهتمام لا من الأسرة ولا المدرسة. فيقول العلامة: «فقد تعثرت في دراستها ثم تركتها إلى غير رجعة للتفرغ للطبخ والكنس دواما كاملا ولتجلس على الأرض كل يوم بعد وجبة الغداء لساعتين متصلتين على الأقل لتغسل الأواني، ثم لترعى الأطفال إن خرجت أمهم بعد العصر لنزهة أو زيارة جارة، وتعد وجبة العشاء وهي فرحة لأنها ستتفرغ لمشاهدة التلفزيون هذا الأنيس الذي جعله الله سلوى للمتألمين والمثقلين بالأحزان لينسوا على شاشته همومهم ... فتجلس مع الأسرة وسط الأطفال في فرح وترقب، ولكن بنيتها وجسمها الصغير المنهك قبل أن تكتمل فرحتها، فلا تنتبه لنفسها إلا وهي توقظ أولاد عمها في الصباح ليستعدوا

للمدرسة، وتهيئ لهم إفطارهم وتقفل خلفهم الباب لتبدأ حلقة أخرى من مسلسل آلامها الأيدي»[1].

يتدخل صوت العلامة بأن الشخصية الرئيسة في القصة راضية مستسلمة لذلك بلا تذمر فيعلق بقوله : «القناعة بالشقاء أشد ألمًا من الشقاء نفسه»[2]، حرمانها من التعليم سبب التضييق الأسري هو جعلها حبيسة الجدران، وبالتالي شلّ قدراتها وحدَّ من تجربتها وأضعف من قيمة مواهبها الطبيعية، فمن خلال التعليم يمكن للمرأة أن تنهض بكافة المسئوليات وفي ذلك يقول الطهطاوي: «المرأة مثل الرجل سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجاتها كحاجاته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاتها كصفاته ... فإذا أمعن العقل النظر في أي وجه كان من الوجوه، في أي نسبة من النسب لم يجد إلا فرقًا يسيرًا يظهر في الذكورة والأنوثة»[3].

ويبلغ الاضطهاد ذروته عندما تم زواجها لأول طارق طلب يدها؛ وذلك لتتخلص منها زوجة العم التي كانت تتذمر من وجودها بالرغم من تفانيها في العمل، فزفت لأسرة فقيرة متواضعة، ولكن المفاجأة التي تنتظرها هي زوج منهزم، ورجال كالكلاب لا يعافون شيئًا ما دام قابلًا للمضغ، يتحرشون بها، وتشتكي كل يوم إلى ذلك الزوج ولا يعير انتباهًا، بل يبرر لهم بأن تلك عاداتهم ولا يقصدون شيئًا!، فتحارب لوحدها وتصيح في وجه هذا وتسب هؤلاء وتدفع عنها أولئك وهم يتمادون ويضحكون، والزوج الذي كانت تراه أسدًا لتحتمي به، صار على قلبها صقلًا فكرهته وتركته، وغادرت إلى دار عمها ولكن هيهات يقول العلّامة: «واشتكت لعمها وزوجته فوبخاها بشدة ونهراها وأعاداها مجبرة إلى دار زوجها، لتكون أضحوكة نساء القرية، فلا يوجد في الدنيا من هو أقسى على المرأة من المرأة، وتمادي أولئك في غَيِّهم وتعود الجيران على صياحها وسبابها لهم وضربها بالحجارة»[4].

(1) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 8
(2) المصدر السابق، ص 8
(3) رفاعة الطهطاوي، محمد عمارة، ص 338
(4) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 12

وتبلغ المأساة منتهاها بسرده «وإذا ما ساقتك الظروف لتك القرية فسترى عجوزًا فوق السبعين رغم أنها لم تتجاوز الأربعين عامًا من عمرها إلا بقليل، حافية مشققة القدمين، بالية الثياب شاحبة الوجه حمراء العينين نحيفة مقوسة الظهر مهشمة الأسنان شعثاء الشعر»[1].

ترى الباحثة أن هذا الجزء من القصة تمثلت فيه المأساة إلى ذروتها، فالعلّامة يقدم امرأة مقموعة مضطهدة ضمن المواصفات المطروحة عن حقوق المرأة، فتقف حائرة، تنظر حولها تبحث عن الرجل الذي تحتمي به فلا تجد إلا الذكر الأشم المغتصب لحقوقها، فينتج عن ذلك فقدانها الثقة في نفسها، فتستسلم لذلك خاضعة ذليلة، وليس لها غير ذلك سبيل؛ لأن المجتمع يحتاج إلى منقذ ليعترف بحقوق المرأة، وفي ذلك يقول القراي: «الاعتراف بإمكانيات المرأة وتطورها يستلزم إنصافها، وهذا الإنصاف لا يتم إلا إذا تغيرت المفاهيم السائدة، والثقافات والأعراف المسيطرة على الشعوب في المدى البعيد، وتغيرت القوانين التي تحكم المجتمعات في المدى القريب، لتقام على أساس المساواة التامة بين الرجل والمرأة في القيم الإنسانية والوضع الاجتماعي»[2].

اللوم كله يقع على المجتمع، كما أكد ذلك العلّامة بقوله: «الشيء الغريب أنك إذا نظرت إلى عيني آمال وجدتها لا تنظر إليك أو إلى أحد ممن هم أمامها وستتفاجأ بأن نظراتها خاوية فارغة، ترى هل ترى أمامها في تلك الساعة أهلها أم عمها أم زوجته أم زوجها أم تحت كلتا لأننا المجتمع الذي خذلها، وما وقف أحد معها في محنتها التي استغرقت عمرها بأكمله وتركتها حطام لا حياة فيه، الله وحده يعلم»[3].

فالمرأة الضعيفة هي الأمّة الضعيفة، التي كبلتها تقاليد غير صالحة في الحياة، قال جبران خليل جبران مصورًا حالة الأمة: «أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة

---

(1) المصدر السابق، ص 12

(2) الفكر الإسلامي وقضية المرأة، عمر القراي، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ط2، 2007م، ص 18

(3) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 12

المظلومة، أليست المرأة المتوجعة هي الأمة المتعذبة بين حكامها كهانها، أليست العواطف الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة إلى ظلمة القبر هي كالعواصف الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب، إن المرأة والأمّة بمنزلة الشعاع من السراج وهل شعاع السراج ضئيلًا إذا لم يكن زيته شحيحًا»[1].

تشبيه جبران جميل، فالتقاليد الاجتماعية لا تعطي المرأة حقها لتضيء الدرب بشعاعها للأجيال، القطعاني أثار موضوعًا ثرًّا يتعلق بعالم الأنثى كإنسان يسعى لتحقيق أحلامه وطموحاته في مجتمع لا يعترف بهذه الحقوق.

قضية الحرية:

الحرية هي التربة الصالحة لنمو شجرة السعادة، الحرية هي النضج وتحمل المسؤولية والقدرة على الحب والمشاركة، العبيد لا يحبون بل يخضعون ويسمون خضوعهم حبًّا وغرامًّا، وآخر يتمرد تمردًا إيجابيًّا بينما العبد سيتعبد لسلطة قديمة بسلطة جديدة جائرة بالتقاليد نتيجة ظروف اجتماعية صنعها بشر يخطئون ويصيبون، لكن العبث بالتقاليد يسمم ثمرة الحرية، ويسمم الحياة بأسرها، بعض التقاليد يجب أن يُجتث، وبعضها الآخر يجب أن يتطور، وبعضها يجب أن نحافظ عليه[2].

ترى الباحثة أن التعريف السابق للحرية هو النضج وتحمل المسؤولية هو تعريف دقيق، فلِكَيْ يكون الإنسان مسؤولًا عن تصرفاته لا بد من النضج والوعي لكي تنتهي حريته بحرية الآخرين.

فلا معنى للحياة من غير حرية فهي كجسم بلا روح، ولا معنى لها بلا حب لأنها تكون كالشجرة بغير أزهار ولا ثمار، فالحرية والبحث عنها بمنزلة انطلاق للمرأة، تمارس حريتها في التعبير عن المكنونات وحرية الاختيار وغير ذلك.

(1) المجموعة الكاملة: مؤلفات جبران خليل جبران المعربة عن الإنجليزية، تعريب أنطونيوس بشير، دار صادر، بيروت، 1964م، ص 23

(2) جان نعوم طنوس، دار المنهل، ط1، 2011م، ص 15 المرأة والحرية: دراسات في الرواية العربية النسائية.

فالعلّامة صور لنا واقع المرأة المعيش بكل حرية وصدق، فتمثلت قضية الحرية في كتابه (لماذا أبكيتم عصام؟) في حرية اختيار الزوج، بل الضغط النفسي والاجتماعي على البنت في إكراهها على الطلاق والزواج بمن تراه الأسرة مناسبًا، فالزواج في الشريعة هو شراكة بين شريكين متكافئين ومتساويين في الحقوق والواجبات، لا تقع فيه وصاية من الرجل على المرأة ولا من المرأة على الرجل.

ما يؤيد ما ذهبت إليه الباحثة ما جاء في المذهب الحنفي من حق التفويض في عقد الزواج، وأن تُستأذن البكر في الزواج[1].

ذُكر في كتاب (لماذا أبكيتم عصام؟) تحكم الأسرة في ابنتها وإكراهها على إنهاء زواجها الذي دام لفترة قصيرة؛ ليزوجوها بمن تراه الأسرة مناسبًا، خاصة أن زوجها سافر إلى منطقة حروب ومن المحتمل أن يكون ميتًا.

فبطلة القصة فاطمة ليس لديها أي حرية في البتِّ في أمر زوجها يقول السارد: «اسمعي يا بنت، من المؤكد أنه مات -الله يرحمه- منذ مدة طويلة لم نسمع عنه شيئًا، وأنت شابة في مقتبل العمر، ورمضان يلحّ على أبيك ليتزوجك فإلى متى ترفضين؟... ماما، قلت لك إنني لا أتصور نفسي زوجة لأي رجل في الدنيا سوى عصام، كما أنني ما زلت شرعًا زوجته فكيف أتزوج سواه وهو زوجي؟ ... والقهر لم يدم إلا شهرًا واحدًا فكيف تتشبثين به؟ فالحمد لله أنك لم تنجبي منه، أما موضوع الشرع فدعيه لنا، وسيقوم أبوك بالإجراءات الرسمية التي تسمح لك بالزواج مجددًا»[2].

فالضغط الأسري أجبرها على الاستسلام، وبالأصح أن الأسرة لم تكترث لرأيها؛ لأن لها مواصفات معينة لم تجدها في الزوج الأول، (فاطمة) ترفض ذلك لأن طيفًا يراودها باستمرار من عصام وتجد السلوى في رسائله «حبيبتي فاطمة ما زلت أذكر يوم رأيتك لأول مرة... رأيتك بين صديقاتك كنت متوهجة بينهن كقمر

(1) الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، محمد بن بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط2، 1997م، ص 102

(2) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 3

النصف، وهن من حولك كفوانيس خَبَتْ أنوارها، كجوهرة جميلة نفيسة وسط كسر من زجاج، آسف أن أقول هذا ولكنني معك ما تعودت إلا قول الحق، ثم رأيتك بعدها في أحلامي تنظرين إليّ بعينيك العميقتين... ما هو الذي يميزك عن غيرك من نساء الدنيا ويجعلك طاووسًا بين أنواع الطيور، وبدرًا بين الكواكب، أهو مسحة الطبيعة على محياك النقي؟ أم هدوؤك؟ أم أسلوب حديثك المُنْساب كنسيم شط الحمامة، أم تقاسيم وجهك المخملي البديع الذي يشبه قطعة موسيقية أخّاذه رائعة ترافق الحانها الحانية لكلمات قصيدة خالدة؟ أم كلها عُجنت معًا لتصوغ هذا المخلوق البديع الرائع فاطمة»[1].

فالبطلة تتقطع ألمًا بين هذا النزاع، وهي مكبّلة ومقيدة بقيود الأسرة التي تنظر وتهتم لرأي المجتمع، ذلك المجتمع الذي تحكمه التقاليد العجفاء العقيمة، وبين تلك الرسائل التي تذيب القلب محبة وشوقًا من قِبَل زوجها فتحمل كل هذا الأذى وتحمله من غير حول ولا قوة، وكما أشرت في بداية هذا البحث أن هذا التحمل أعطى المرأة مكانة، وأول من لمح هذه المكانة هم المتصوفة، فلا يظهر عليها ضجر ولا كدر، فتجد البطلة (فاطمة) خوفها من الأسرة والمجتمع جعلاها تخضع للقبول بالزواج بمن ليس أهلًا له، لتتفاجأ الأسرة بقدوم الزوج الذي ظن أنه مات وفسخ منه عقد الزواج وانتهت القصة بمأساة البطلة، ليتخيل القارئ ألوان العذاب الذي تعيشه في حياتها الزوجية، يمكن القول بأن الأسرة عطّلت تمامًا دور هذه المسكينة في الحياة والذي يعد تعطيلًا للمجتمع بأسره، فضلًا عن أنه عصيان لما أراد الله ورسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

تلك هي أهم القضايا في فكر العلّامة، وهي صيحات لطرح معاناة المرأة. وكما أشرت سابقًا أن العلّامة وضع معالجات لهذه المعضلات، والتي تسهم إسهامًا كبيرًا في الحلول إذا ما وجدتْ أذنًا صاغية.

(1) المصدر السابق، ص 3

معالجات العلامة القطعاني:

مما يثير الأعجاب في كتابات العلّامة هو طرح القضايا وطرح حلولها بصورة عادلة، وتعتقد الباحثة بأن هذه الحلول تسهم كثيرًا في معالجة كل ما تعانيه المرأة في المجتمع الشرقي فأول هذه المعالجات:

ثقافة التزين

فيقول العلامة: «إن أسرار التزين والتجمل في الكون هي أوسع وأجلّ من أن يحيط بها الكلم، ولكني أوجه كريم عنايتك إلى الزهور والورود وأنت تعلم -بلا شك- أنها ستتحول إلى ثمار لذيذة شهية، ترى لماذا ازَّيَّنت وصارت وردة زاهية بألوان وأحجام مختلفة؟ والجواب: أنها تفعل ذلك لتستحق شرف المساهمة في الحياة، وهذه الطيور المزركشة والحيوانات المنمقة والفراشات المرهوفة والمياه المتدفقة، إن هذا الجمال جميعه هو الحياة عينها فاعلم هذا وتيقنه لتعرف أهمية الزينة والتجمل»[1].

إذا تأملنا في حديث العلّامة أعلاه تتضح جليًّا الرؤيا الحكيمة وحكمة التزين في بعث الراحة النفسية والنقاء الذاتي، والسنة النبوية والقرآن الكريم يؤكدان ذلك في قول المصطفى ﷺ: «**إن الله جميل يحب الجمال**» والقرآن الكريم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [**الأعراف: 13**].

ويشير العلامة بأن ثقافة التزين لكلا الطرفين الرجل والمرأة فيقول: «لذا تجد أن الإسلام الذي أوجب على المرأة التزين لزوجها تتجمل له ألزمه هو الآخر أن يتزين لها ويتجمل، فقال الصحابي عبد الله بن عمر وقد وعي ببركة صحبة سيد الخلق ﷺ وآله أسرار الوجود ومعناه: «إنني أتجمّل لامرأتي كما تتجمل لي» وما أحسبني بعد هذا إلا أذيع سرًّا إذا ما أخبرتك أنني أكره الرجل أن يقتصد في تزينه على موقع عمله

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 7

أو سوقه فقط وأسأله قائلًا: أين المنزل من كل هذا؟ ألا تقضي أكثر من نصف حياتك في منزلك؟! أمن العدل أن تتجمل للأباعد وتترك هذه المزية الحضارية الإنسانية لأكثر الناس عليك حقًّا، أهلك وأسرتك؟»[1].

فمن الأمور والأشياء التي لا ينكرها عقل أن الإسلام دين النظافة والطهارة والجمال، ومن تأمل كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ يجد ذلك جليًّا وواضحًا، فكان من هدْيه ﷺ الاعتناء بتزيين نفسه وتهذيبها، وكذلك الاعتناء بنظافة جسمه وملابسه وشعره وغير ذلك.

والحقيقة أن الإنسان حسن المظهر وذو الرائحة الطيبة الجميلة يحبه الجميع ويألفونه، بل ويحبون مجالسته، والتحدث معه ولو لساعات طويلة بلا ملل ولا كلل، والعامل هنا نفسي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ ذلك لأن الرائحة الطيبة والتطيُّب هو غذاء الروح، يقول ابن القيم في ذلك: «لما كانت الرائحة الطيبة غذاء الروح والروح مطية القوى، والقوى تزداد بالطيب، وهو ينفع الدماغ والقلب وسائر الأعضاء الباطنية، ويفرح القلب ويسر النفس ويبسط الروح، وهو أصدق شيء للروح وأشده ملاءمة لها، وبينه وبين الروح الطيبة نسبة قريبة، كان أحد المحبوبَيْنِ من الدنيا إلى أطيب الطيبين صلوات الله عليه وسلامه»[2].

الثقة بالنفس

وفي هذا الجانب يدعو العلّامة معشر النساء الشرقيات إلى عدم الانزواء والدفاع عن مقدساتها وعن بيتها وزوجها وأولادها، وأن تعتز المرأة العربية المسلمة بعفتها وشرفها الذي يعتبر مزية تتفرد بها، كما ينبغي أن تذكر كل هذا من يعقد بينك وبينهن المقارنات وأوضح السر في وضاءة الوجه بقوله: «وعليك بسيد الزينة ومفتاح

(1) المصدر السابق، ص 7

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، 1998م، ج4، ص 256

الجمال والبهاء وهو وضوء الصلاة، فقد أثبتوا الآن أن للماء دورًا كبيرًا في ترطيب الوجه وتأخير الشيخوخة، مقاومة التجاعيد، كما أدلك على أكسير الملاحة والنضارة ألا وهو تلاوة حديث واحد على الأقل لنبيك سيدنا محمد ﷺ لقوله: «**نظر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها**»، ولا تغفلي الكحل فسيد الأنبياء محمد صل الله عليه وآله وسلم كان يتكحل ويقول: «**اكتحلوا بالإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر**» ثم أعمدي إلى صديقتك الخالدة أقصد المرآة وتفقدي مواقع ملاحتك على صفحتها»[1].

فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها لإعادة الثقة في النفس، ولو وعت حواء بذلك وعملت به لانتهت المشاكل وقلَّت نسبة الطلاق، وعاشت المجتمعات في سلام، ويكون حظها عند الزوج أن يرى تلك المحاسن المكنونة في كل إنسان.

فدعا إلى العناية بنفسها ونبذ البؤس والحزن وأن تكون لطيفة المعشر باسمة الثغر خفيفة الظل متغاضية الهفوات صفوحة عن الزلات تحسن السمع والحديث. هذه نصائح من أبٍ كريم حريص على مجمع النساء وحقًّا لا يتأتّى إلا من كريم.

فإذا مثلت هذه الصفات لجددت شباب زوجها واكتفى بجمالها عن مطالعة الغير، وتغنى بعفافها وجمالها كما تغنى عرب ما قبل الإسلام[2].

لقد أعجبتني لا سَقوط قناعها إذا مشتْ ولا بذات تلفُّتِ
أميمة لا يخزي نَثَاها حليلها إذا ذكر النسوان عفَّتْ وجلَّتِ
إذا هو أمسى آب قُرَّة عينه مآب السعيد لم يَسَلْ أين ظلَّتِ

لعل هذه الأبيات أحسن ما قيل في خَفَر النساء وعفتهن، وهي من شاعر جاهلي (الشّنْفَرَى)، فجاء الإسلام وهذب هذه المكارم، بل أتمها فأصبح لها بريق ولمعان، وبنت صرحًا عاليًا من الثقة بالنفس والطمأنينة، فكيف إذا تمثلتها نساؤنا المسلمات؟ ليكونُنَّ ملائكة تجسد الجمال والعفاف، كما جسدن ذلك بنات سيدنا شعيب عليه السلام،

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 11
(2) ديوان الشنفرى، جمعه وحققه إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م، ص 32

فعلق القطعاني بقوله: «وذكر سبحانه المرأة الابنة التي تتحمل المسؤولية كادحة إذا ما دعت الظروف عاملة حافظة لشرفها وسمعتها وسمعة أهلها، فحدثنا عن بنات سيدنا شعيب وقد اضطررن للعمل لكبر سن والدهما، فكن يرعين الشياه ولا يختلطن بالرجال في ابتذال وسفور ومجون، وإنما يقفن على جنب رفعة وعفة فقال ﷻ: ﴿...قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ **[القصص]**، حتى إذا اختار لها والدها من ارتضاه لها دينًا وخلقًا والتزامًا أطاعتْ وأنابتْ»[1].

فترى صور المرأة المكرمة في القرآن الكريم كرمز للشرف وأنموذجًا للفضيلة، هكذا أرادها الله سبحانه درة مصونة وجوهرة مكنونة.

التربية الوجدانية:

لعل المقصود بالتربية الوجدانية هي المشاعر المتبادلة بين الزوجين وفي محيط الأسرة، وقد لخصها من لا ينطق عن الهوى في صورة مثالية رفيعة المستوى تجسدت في المعاملة مع زوجاته، من بين صنوف هذه التربية الوجدانية والتي ذكرها العلاّمة القطعاني هي (قُبْلة الزوجية) وهي سنة مهجورة وجاء بحديث السيدة عائشة أم المؤمنين «**كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم**»، فعلق القطعاني بقوله: «إن هذه القُبلة المباركة بين الزوجين تعني الكثير والكثير، فهي أسلوب حضاري بديع رفيع للتعبير عن المشاعر الزوجية والتزام يومي ينبغي أن يحرص عليه الزوجان مع إطلالة كل صباح عليهما»[2].

فقد فسّرها القطعاني بأنها تبادل للرسائل بين الطرفين فمن الزوج «شكر وتقدير يومي لزوجته على ما تبذل من جهد في عمل المنزل الشاق وتوفير السكينة في أرجاء دارها»[3]، ومن الزوجة رسالة يومية صامتة غير منطوقة تقول فيها بأصدق عبارة لرفيق

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 48
(2) المصدر السابق، ص 16
(3) المصدر السابق، ص 16

دربها «أنت فقط من دون رجال الدنيا من أرتضيه شريكا لحياتي لا يملأ عيني احتراما وتقديرا سواك»[1]، وهي من «الزوجين معا إحياء لتلك العواطف الفتية الخجولة التي انتابتهما يوم جمع الله بينهما برباط الزوجية المقدس»[2].

تعتقد الباحثة أن هذا التفسير هو تأكيد للعلاقات السامية وحسن الاختيار، وتذكير بأنها سنة نبوية شريفة يثاب فاعلها ويؤجر بإذن الله.

ما ذكر في الفقرات السابقة كفيل بالحياة المستقرة الهادئة، فتكون الأسرة في حصن منيع من غوائل الدهر وتقلباته، كما هي حل جذري لكثير من المحرومات والمظلومات.

نتائج الدراسة:

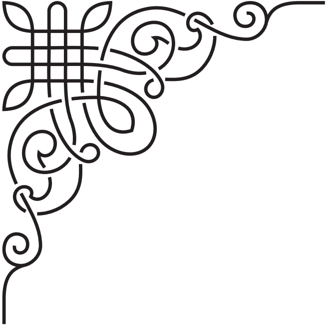
- قصص العلامة القطعاني مرتبطة ارتباطًا وثيقًا في نشأتها وتطورها بمعالجة القضايا الاجتماعية، وفي مطلعها قضايا المرأة ومشاكلها وهمومها، والسعي نحو تحريرها وانطلاقها في مجال الحياة الكريمة.
- لقد كرّس أغلب موضوعات القصص في تناوله لقضايا المرأة واهتماماتها بعلاقتها مع الرجل، وما يقع عليها من هذه العلاقة من قهر وانتهاك والحدِّ من حريتها.
- صاحب القضايا التي طرحها صوت الحكمة والتعقل في طرح الحلول لكثير من المشكلات التي تهدّ بنيان الأسرة.

وتوصي الدراسة بضرورة الاهتمام بالتوسع في دراسة هذا الفكر الثرِّ، للمتصوف العلّامة، والذي صبغ على التصوف هذا الثوب الجديد والفهم المعاصر للتصوف، وتوصي بإقامة الندوات العلمية والمؤتمرات لمُدارسة فكره.

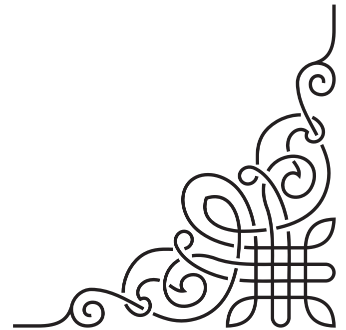
---

(1) المصدر السابق، ص 16

(2) المصدر السابق، ص 16



ملامح ومعالم في أدب العلامة أحمد القطعاني



شعر الشيخ أحمد القطعاني
قراءة في المحتوى والتعبير

د. أمين عودة

أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة آل البيت - الأردن

ملخص

ترمي هذه الورقة إلى الوقوف على شعر الشيخ أحمد القطعاني رحمه الله تعالى، ومقاربة مكوِّنين رئيسين فيه، يُعنى الأول بقراءة الموضوعات التي تجلت فيه، والأفكار الرئيسة المهيمنة التي شغل بها، ومدى انعكاس علوم الشيخ وأذواقه ومعارفه الدينية المتنوعة فيه. ويُعنى الآخر بمقاربة الملامح الأسلوبية والتناصية في شعره، ومقاربة بعض صوره الفنية وإيقاعاته.

كلمات مفتاحية: أحمد القطعاني، موضوعات، تناص، المحبين، البوح.

مقدمة

لم يكن الشيخ يُعنى بنظم الشعر كما كان يُعنى بسائر نشاطاته العلمية المتنوعة، وهو فيه مقلٌّ ليس بذي نفس طويل، ينظمه وقت سنوح الخاطر وفي أوقات متباعدة، وله في هذا ديوان مخطوط بعنوان «العرجون»، وهو قليل الصفحات، يشتمل على

مقطعات شعرية، وقصائد قد يبلغ عدد أبياتها عشرة، تزيد على ذلك أو تقل بعدد يسير[1].

والشيخ -كما يصرِّح في مقدمة ديوانه- شعره «أقرب إلى المواجيد منه إلى القصائد الشعرية المتعارف على أسلوبها ونظمها»[2].

وضمن المقدمة أيضًا، يشير إلى إعجابه بالمعارضات الشعرية، وذلك في سياق الحديث عن الشعر الصوفي، وتصرف شعرائه بما يقتبسونه من أشعار أسلافهم تقديمًا وتأخيرًا وتحويرًا، وتحويل بعض معانيها إلى ما يلائم مواجيدهم ومعارفهم الذوقية، وفي بعض ذلك يقول: «ومن أجمل المعارضات الصوفية نوع عظيم نادر عزيز، حتى إنك قلما تعثر له على شواهد، ويتمثل في إعادة ترتيب القصيدة الأصل بلا أي تغيير فيها على الإطلاق، لتتحول إلى موضوع جديد، كمعارضة ولي الله الشيخ برهان أبي الإخلاص أحمد الزرقاني لقصيدة الواردات العينية[3] الشهيرة للشيخ عبد الكريم الجيلي، ويتكون الأصل من (534) بيتًا من الشعر للجيلي، اختار منها الشيخ الزرقاني (163) بيتًا، مغيرًا في ترتيب أبياتها وبعض كلماتها في نصوصها، وأبقى موضوعها كما هو في الأصل، وهو التصوف، ولكن بطرح جديد مختلف، وهي مشهورة منشورة في ديوانه المطبوع المسمى ديوان أهل الذكر»[4]. ومثل هذا النمط من الكتابة الذي يتأسس على المعارضة والاقتباس والتضمين والتحوير، وكل ما يتصل باستدعاء نصوص سابقة أو معاصره، على نحو مباشر أو غير مباشر، في نصوص راهنة، يُدرس تحت عنوان: التعالق النصي أو التناص في سياق النقد الأدبي المعاصر.

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح منذ الفتح الإسلامي 21هـ/ 644م إلى سنة 1421هـ/ 2000م، أحمد القطعاني، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج4، ص416.

(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(3) مطلع القصيدة: فؤادٌ به شمسُ المحبَّةِ طالِعُ وليس لِنَجْمِ العَذْلِ فيهِ مواقعُ
ينظر: كتاب النادرات العينية، عبد الكريم الجيلي، تحقيق: يوسف زيدان، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1999م، ص61.

(4) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج4، ص417، 418.

وعلى الرغم من أن الشيخ القطعاني كان مقلًّا في نظمه للشعر، فإنه كان عاشقًا لشعر المديح النبوي الفصيح والموشحات وشعر المديح الشعبي بأنواعه، وكانت له عناية كبيرة بسماعه وتلقيه عن مشايخه، وحفظه وتوثيقه مع بيان المقامات الموسيقية التي تُنشد عليها القصائد، وأسماء من عُرِف من ناظمي القصائد من مشايخ الصوفية القدماء والمعاصرين. وقد وضع في هذا المضمار كتابًا بعنوان: «مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين»، جمع فيه (190) من القصائد والمقطعات والموشحات والشعر الشعبي، وفيه يقول: «أما هذا الكتاب، فهو هديتي لعشاق حضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولًا، الفانين في محبته، الوالهين في حضرته، المقتدين بهديه وسنن آله، المتمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها. وثانيًا: منهلٌ للمهتمين بهذا الفن، أداءً وتوثيقًا. وكل ما ستجده في هذا الكتاب وثَّقْتُ أخذه عن مشايخي في السماع، وبعض القصائد سمعتها بأكثر من لحن، فربما أشير للقمام الموسيقي أو الإيقاع الأفضل لها -في رأيي- من بينها. وجلُّ ما في هذا الكتاب لغيري وليس فيه من تأليفي سوى بضع قصائد معدودات أشرت إليها»[1]، ووزع مواده الشعرية على ثلاثة أبواب: الأول: خصَّصه للمدائح النبوية الشريفة التي تنشد في الموالد. والثاني: لقصائد السادة العيساوية. والثالث: لقصائد السادة الصوفية عمومًا[2].

وعُرف الشيخ القطعاني بمشاركته في الفنون الجميلة، كالفنون التشكيلية والموسيقية والمسرحية، وإدراكه لآثارها الإيجابية في ترقيق النفوس وتهذيب الأذواق والسمو بها، ومنه أنه كان مولعًا بأسلوب الفنان الهولندي العالمي «فينسينت فان كوخ»، وبالموسيقار «فريد الأطرش» وأضرابه، بل أسس متحفًا للفنون التشكيلية الليبية أسماه «قصر طيبة للفن التشكيلي الليبي»[3]، وكان يتقن العزف على الناي،

(1) مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2017م، ص6.

(2) المصدر السابق، ص6.

(3) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج4، ص 328.

وله دراية بالعزف على العود، واهتم بتربية الذائقة الأدبية والجمالية لدى مريديه فأسس بمجموعة منهم «فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية»، وكتب لهم ثماني مسرحيات[1]، وله أيضًا مقالات ضمَّنها رأيه واجتهاده في كيفية النظر إلى الفنون، وكيفية التعامل معها[2].

ولا مساغ للشك في أن هذا الفضاء السماعي الذي عاش فيه الشيخ القطعاني، وتضلَّع من محتوياته اللغوية والأسلوبية والتصويرية والدلالية والمقامية الإيقاعية، كان له أثر لا ينكر في تشكيل ذائقته الشعرية، ومشربه الفني في نظمه للقصائد الصوفية، تعبيرًا ومحتوًى.

موضوعاته الشعرية:

تدور أغلب موضوعات قصائد الشيخ القطعاني الشعرية في فلك الموضوعات الشعرية عند أغلب شعراء الصوفية، وعلى رأسها موضوعة الحب الإلهي، وما يتصل بها من معاني الغزل والشوق والوصال والهجر، وما يعتري المحبين من أحوال متباينة، يتقلَّبون فيها في أثناء مجاهداتهم ومعارجهم الروحية، وما يستجنُّ في قلوبهم إثر ذلك من أنوار الحبيب وارداته الغيبية، ويُعبَّر عنها بأساليب مباشرة صريحة أو بأساليب رمزية. ويعد المديح النبوي الشريف، كذلك، من الموضوعات المركزية التي تتعلق بها همم شعراء الصوفية بعامة، وقد شارك الشيخ القطعاني غيره في نظم بعض هذا المعاني بأسلوبه الخاص، إبداعًا ومعارضة.

---

(1) المصدر السابق، ج4، ص 318 وما بعدها.

(2) ينظر مقال «الفن وأحكام الشرع» ضمن كتاب الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 40. وأيضا مقال «قصة الناي» ضمن كتاب لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 72. وأيضا مثال «التصوف هو رائد المسرح في ليبيا» ضمن كتاب سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 12.

• أحوال المحبين:

الأحوال مدار من مدارات التصوف الحافَّة بالمقامات التي هي معارج روحية كسبية يسعى السالك إلى التحقق بها بالمجاهدة والتعمُّل، بدءًا بمقام التوبة، ومرورًا بمقامات أخرى كالورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل والمحبة، وسوى ذلك من مقامات تتفاوت في العدد والنوع تفاوتًا يسيرًا، وفق تصنيف كبار الصوفية لها. وأما الأحوال فهي مِنَحٌ وهبيةٌ لا تعمُّل فيها ولا تعمُّد في كسبها، تعرض للسالك في أثناء مجاهداته، وتتجلى محتوياتها فيما يهبه الله عَزَّوَجَلَّ من معانٍ ومشاعر تغمر قلب السالك كالشوق والوجد والطرب والقبض والبسط والخوف والرجاء والسكر والهيبة وسواها. ويعرِّف القاشاني الأحوال بقوله: «ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمُّل واجتلاب، كحزن، أو خوف، أو بسط، أو قبض، أو شوق، أو ذوق، ويزول بظهور صفات النفس، سواء أعقبه المِثْلُ أو لا، فإذا دام وصار مِلْكًا سُمِّي مقامًا»[1]، وفي سياق آخر يقول عن الأحوال: «هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثًا للعمل الصالح المزكِّي للنفس، المصفِّي للقلب، وإما نازلة من الحقِّ امتنانًا محضًا، وإنما سمِّيت أحوالًا لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد، إلى الصفات الحقِّيَّة ودرجات القرب، وذلك هو معنى الترقي»[2] .

وقد نظم القطعاني في التعبير عن بعض الأحوال الصوفية غير قصيدة ومقطعة، ومنها قصيدة سمَّاها «أحوال المحبين»[3]، نسقها في سبعة مقاطع مختلفة الروي والبحر، وفيها يقول:

---

(1) معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق القاشاني، تحقيق وتقديم وتعليق عبد العال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1992م، ص81.
(2) المصدر السابق، ص52.
(3) أُلْقِيت هذه القصيدة في مهرجان طرابلس الدولي للمديح النبوي في دورته السابعة، الواقعة في يومي الأربعاء والخميس
(7–8) ربيع الأنور 1426 هـ، الموافق 5–6/ 4/ 2006م.

الحال الأول

يا قلبُ، إنَّك بالأشواقِ مضرورُ ... فاصْبِرْ وهل ينفَعْكَ اليوم تصبيرُ
قد بُحْتَ بالسِّرِّ لا تخفيه عن أحدٍ ... حتَّى جَرَتْ لك في الحبِّ المقاديرُ
فَلْتَسْتُرِ الوجدَ حتَّى تهلكنَّ بهِ ... فالبَوْحُ موجٌ تعلوه الأعاصيرُ

الحال الثاني

يا حاملَ الحبِّ، دمع العَيْنِ ساكبُهُ ... والحبُّ حِمْلٌ أحْنَتْني ثواقلُهُ
أستمنحُ اللهَ مَنْ في النَّومِ طالعني ... يومَ اللقاءِ ونورُ الكونِ يسبقُهُ
حتَّى انتشيتُ وذاك الصوتُ يهتفُ بي ... ارفقْ بقلبك قد قامَتْ قيامتُهُ

الحال الثالث

ألا يا صاحبَ الفضلِ الغزيرِ ... ثلاثُ ثلاث وهنَّ من سعيري
فعزمي والعذولُ وصبرُ قلبي ... صغيرٌ في صغيرٍ في صغيرِ
كمالُك ثمَّ قدرُك ثمَّ حبِّي ... كبيرٌ في كبيرٍ في كبيرِ

الحال الرابع

كأنَّني قد فارقْتُ عالمَنا ... كيف؟ متى؟ ربكةٌ تحيِّرني
أجولُ في الحيِّ لا أرى بشرًا ... أشكو إليه ولا يحادثني
حتَّى إذا ما الغيرُ لاحَ لي ... عادَ إلى أصلِهِ وأخلفني
فهل جواب عمَّا عرى نظري ... فقد زاد بي الجوى وأتلفني؟

الحال الخامس

قسمًا بعشقٍ كالجديدِ الطارِفِ ... هذا محيَّاهُ فيا بدْرُ انْطَفِ
فالعينُ لا ترنو لغيرِ جمالِهِ ... والأُذْنُ غيرَ كلامِهِ لم تعرفِ
ذو طلعةٍ وسماء لم يرها ناظرٌ ... إلا ونادتها شمائلُها قِفِ

أســـرَ الفــؤادَ حبًّــا وأوقـــدَ مهجتـــي إلامَ أنـــت علـــى هـــواك معنِّفـــي
فلقـــد حبسْـــتُ عليـــه دمـــعَ صبابتـــي وأكادُ مـــن فـــرطِ الصبابـــةِ أختفـــي

الحال السادس

خيـامُ سـلمى مـع الأشـواقِ لـم تغِـبِ وذكرُهـا فـي لسـاني غيـرُ مقتضـبِ
ووجهُهـا نـورُ عينـي وهـي دانيـةٌ والوجـدُ مـا زادَ عنهـا غيـرُ محتسـبِ
لا أصغـي فيهـا لِـلاحٍ قـام يعذلنـي فغيـرُ طاعتهـا فـي الحـبِّ لـم تجِـبِ
رضاؤهـا والهـوى عـذبٌ كلاهمـا أمَّـا وصالُهـا فأشـفى مـن الوصَـبِ
فـإن دنَـتْ أو نـأَتْ حبِّـي كمـا عهـدَتْ تَبْيَـضُّ فيـه النواصـي وهـو كالذهـبِ

الحال السابع

زمـــنُ الشـــبابِ بحبِّهـــم أفنيتـــهُ والباقـــي فـــي شـــغلٍ بهـــم قَضَّيْتُـــهُ
كيـــف التباعـــدُ والدنـــوُّ وحبُّهـــمْ صـــرفٌ بأيَّـــام الرَّضـــاعِ شـــربتهُ
للــه حــبٌّ فــي الفــؤاد محلُّــهُ يــزداد عمقًــا كلَّمــا داويتــهُ
أتريـــد عـــن شـــغفٍ إليـــه تأكُّـــدًا لا والـــذي مشـــكاةُ درٍّ زيتـــهُ
فلـوِ انتبهْـتَ لـكلِّ خيـرٍ فـي الـورى فـاض مـن الخـلاق قلْـتُ: عَنَيْتُـهُ
وحـقِّ الهـوى لـو حـلَّ فـي ربعهـم ضيـفٌ لقمْـتُ مـن حفرتـي لبَّيْتُـهُ

ترتكز القصيدة على موضوع الحب الإلهي، وهو الموضوع الأثير لدى الصوفية. والحب له مراتب متفاوته عند المحبين[1]، وأحوالهم فيه مختلفة، وقد عبر الشيخ القطعاني عن تقلبه في بعض تِلْكم المراتب وذوقه لها، وللأحوال المصاحبة لها، ومراتب الحب التي وقف عليها فهي:

(1) صنفها ابن قيم الجوزية في عشر مراتب، وهي: العلاقة، والإرادة، والصبابة، والغرام، والوداد، والشغف، والعشق، والتتيِّم، والتعبد، والخلَّة. ينظر: مدارج السالكين في منازل السائرين، محمد بن أبي بكر بن الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2010م، ص768-771.

1 **الهوى**: أول مراتب الحب، وهو «ميل النفس، وقد يطلق ويراد به نفس المحبوب»[1]، ولا ريب في أن مفتاح الحب هو انقداح هذا الميل نحو موضوع الحب، وهو الرغبة التي تتولَّد في النفس تجاهه، ولا ينقدح هذا الميل إلا عن سابق اتصال معرفي بموضوعه، ثم يتسع باتساع المعرفة، ويرقى برقيها، إلى أن يتخلَّص من حظوظ النفس فيه، ويغدو الهوى حبًّا لذات المحبوب عينه، لا حظَّ للنفس فيه.

2 **الصبابة**: «وهي انصباب القلب إلى المحبوب بكلِّيَّته، فلا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور»[2]، فالشيخ هنا يعيش حالة الصبابة المصحوبة باستنزاف الدموع التي لا يذرفها إلا على محبوبه، بل إنه يستنزف جسده الذي غدا نحيلًا من شدَّة أثر الصبابة فيه.

3 **الشغف**: وهي مرتبة في الحب أعلى من الصبابة، والشغف هو تلبس الحب بشغاف القلب وتغليفه له، فيستولي عليه ويحجبه عن غيره. وقد ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30]، ويبدو أن شيخنا يعيش حالة الشغف هذه، وهي التي أضاءت بصيرة قلبه، وجعلته يستبصر الخير الفائض من الخلاق ﷻ والساري في ذرَّات الوجود.

4 **العشق**: وهي مرتبة أعلى من المراتب السابقة، وتشير إلى الإفراط في الحب، «فلا يوصف به الربُّ تعالى، ولا العبد في محبة ربه، وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه، كان في خفارة صدقه ومحبته»[3]، فالعشق لا يعدو كونه حالة استغراق شديدة في الحب قد تتجاوز ضوابط العقل، ومن علاماته عند الشيخ -هنا- أن عينيه لا تريان في الوجود سوى جمال المحبوب، وأن أذنيه لا تسمعان غير كلامه.

(1) روض المعاني ومجالس الأنس والتهاني: شرح الحكم الطِّيبية، عبد المحمود الطيبي، تحقيق عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، بيروت، 2019م، ص356.
(2) مدارج السالكين، مصدر سابق، ص768.
(3) مدراج السالكين، مصدر سابق، ص769.

هذه هي المراتب الحبية الأربعة التي أوردها الشيخ في قصيدته، وسلك في ضمن التعبير عنها أحواله فيها، مشيرًا إلى مقام الصبر الذي ينبغي أن يتحلى به الصوفي، لما يعانيه من أشواق ومواجيد، أو من صد ووصل تارة وتارة. وصبر المحبين ليس كصبر غيرهم، وفي هذا يقول يحيى بن معاذ الرازي (ت: 258هـ) «صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون!»[1]، ويروى أن رجلاً وقف على الشبلي (ت: 334هـ)، فقال: «أيُّ صبر أشد على الصابرين؟ فقال الصبر في الله، قال: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، قال: فالصبر مع الله، قال: لا، قال: فغضب الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: ويحك فأيش؟ قال: الصبر عن الله، عَزَّوَجَلَّ. فصرخ الشبلى صرخة كاد أن يتلف روحه»[2]، وقد صرح الصوفية بأن صبر المحبين لا ينبغي أن يظل طي الكتمان، ومن المستحسن عدم كتمانه؛ فالمحب الصادق لا طاقة له على تحمّل مفارقة المحبوب أو احتجابه عنه. والشيخ القطعاني في مقطع الحال الأول من قصيدته يتردد بين البوح والكتمان، فالبوح مقرون بعدم نفع الصبر أمام أمواج الشوق للمحبوب والوجد به، وعندئذٍ يفيض ببعض أسرار المحبة العرفانية.

• البوح بالسّرّ

قد يفضي البوح بالأسرار الإلهية إلى ما لا تحمد عقباه. وقد قال السهروردي المقتول (ت: 586هـ) في هذا المعنى:

بالسرِّ إن باحوا تُباحُ دماؤهُمْ ... وكذا دماءُ العاشقين تُباحُ

لا ذنْبَ للعشّاقِ إن غلبَ الهوى ... كتمانهُمْ فنما الغرامُ وباحوا[3]

---

(1) حاشية العلامة مصطفى العروسي المسمّاة نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا بن محمد الأنصاري، محمد العروسي، ضبطه وصححه: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2019م، ج3، ص152.

(2) الطوسي، أبو نصر السراج، اللمع، السراج الطوسي، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، 2016م، ص74.

(3) ديوان السهروردي المقتول، يحيى بن حبش السهروردي، صنعه وأصلحه وشرحه: د. كامل مصطفى الشيبي، مطبعة الرفاه، بغداد، 2005م، ص58-60.

ويقول الشيخ القطعاني في الحال الأول:

يا قلبُ، إنَّك بالأشواقِ مضرورُ فاصْبِرْ وهل ينفَعْكَ اليوم تصبيرُ
قد بُحْتَ بالسِّرِّ لا تخفيه عن أحدٍ حتَّى جَرَتْ لك في الحبِّ مقاديرُ
فَلْتَسْتُرِ الوجدَ حتَّى تهلكنَّ بهِ فالبَوْحُ موجٌ تعلوهُ الأعاصيرُ

وهو هنا يصرح بالضرر الذي يعانيه من الأشواق، ويدعو نفسه لمكابدة الصبر بُغية حفظ السر الذي بينه وبين المحبوب عن الأغيار، ويسأل سؤالًا مجازيًّا يفيد النفي؛ أي: لا ينفعك اليوم تصبير، مشيرًا إلى أنه قد باح بسرِّه المكتوم، مع أنه في البيت الثالث يحث نفسه على ضرورة ستر الوجد؛ لما في التصريح به من خطورة. والوجد على رأي القشيري (ت: 465هـ): «هو ما يجده الإنسان ويصيبه في قلبه من الأحوال من غير تطلب ولا تكلف. وقيل: الوجد مكاشفة الأسرار بمشاهدة المحبوب»[1]، وقيل: «إن الوجد مكاشفات من الحقِّ، ألا ترى أن أحدهم يكون ساكنًا، فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق؟! وقد يكون من هو أقوى منه ساكنًا في وجده، ولا يظهر منه شيء من ذلك. قال الله، تعالى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال2]»[2]، فالسر مرتبط بالوجد، والوجد محلُّ السرِّ ومحتواه. فما السر الذي باح به ثم تدارك نفسه وحثها على كتمانه؟ قد يكون هذا السر له علاقة بنوع المحبة التي بينه وبين الحق عَزَّ وَجَلَّ فالمحبة الوهبية تختلف عن المحبة الكسبية، وهي أعلى من الكسبية[3]، والحب فيها يكون من الله وفي الله وبالله ولله، ولا يشهد فيها المحب سوى وجه المحبوب متجليًّا في الكون. فهل هذا هو الذي يعنيه الشيخ بالسر، أم أنه يعني شهوده للَّطائف والواردات وحقائق المعارف الغيبية التي تتنزَّل عليه في

(1) التحبير في التذكير شرح أسماء الله الحسنى، عبد الكريم القشيري، وضع حواشيه: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص62.
(2) اللمع، مصدر سابق، ص413.
(3) حل الرموز وكشف الكنوز، علي بن محمود الشاهرودي، تحقيق السيد يوسف أحمد، كتاب – ناشرون، بيروت، 2013م، ص77.

أحواله؟ أم أنه يعني شيئًا آخر؟ وقد أشار الصوفية إلى معنى السر في بعض كلامهم، وفي ذلك يقول أبو سعيد بن أبي الخير (ت: 440هـ): «كلُّ قلب لا يكون فيه سرٌّ من الله، وليس له سرٌّ مع الله وسماع من كلام الله، فإن سبب ذلك أن هذا القلب خال من الإخلاص ... السر لطيفة من ألطاف الحقِّ على نحو ما يقول: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، وتلك اللطيفة تظهر بفضل الله تعالى ورحمته، لا بكسب العبد وعمله. ففي البداية يشعل في قلب العبد الحاجة والحزن والرغبة، ثم ينظر إليه بتلك الحاجة وذلك الحزن، فيضع بفضله ورحمته في قلبه لطفًا «لا يطَّلع عليه ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل»، ويقال لذلك اللطف سرُّ الله، وهذا هو الإخلاص ... إن ذلك السر الطاهر هو معشوق الموحِّدين، وذلك السرُّ قائم بنظر الحقِّ وللحقِّ، وهو من نصيب الخلق الطاهرين، ووديعة في هذا الجسد، وكلُّ من يملك هذا السرَّ إنسان، وكل من لا يملكه حيوان»[1]. والشيخ القطعاني كان ممَّن أودع الحقُّ عَزَّوَجَلَّ في قلوبهم الإخلاص الذي يطهِّر المسلك والروح، والذي يكون به الموحِّد موحِّدًا عن شهود وحقيقة، ومن ضمنه الإخلاص في المحبة.

وذكر الشيخ من الأحوال: الفناء في المحبوب والذهول عن النفس والغير، وعبَّر عن حالَي القرب والبعد، بالدنوِّ والنأي، وهو وإن لم يذكر حال الفناء صراحة، فقد صاغه في أبيات المقطعة الرابعة على نحو يشي به، وفيها يشير إلى استشعاره بمفارقة عالم الشهادة، ودخوله في وعي مفارق، ولا يدري كيف ومتى، وهذا الوعي المفارق حجب عنه رؤية الأغيار، لكنه لا يلبث أن يعود إلى ذاته الأرضية أو إلى حالة البقاء حيث الأغيار. ولا ريب في أن مثل هذا اللحظات الفنائية التي تلمُّ بالصوفي بين حين وآخر، تمكِّنه من ذوق شيء من حلاوة أنوار المحبوب التي تكتنف قلبه وروحه وتغيِّبه عما سواه، فيزداد تعلقه به ويشتد شوقه إليه كلما بارَحَتْه، ولهذا الأمر علاقة بثنائية

(1) أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد، محمد بن المنور، ترجمة إسعاد عبد الهادي قنديل، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص329-331.

القرب والبعد على نحو من الأنحاء؛ فالقرب فيه أنس ولذة، والبعد فيه ألم وعناء. وقد قيل في حال القرب إنه: «جمع الهمِّ بين يدي الله -سبحانه وتعالى- بالغيبة عما سواه»، وهو «الانقطاع عن كل شيء سوى الله»، وهو « تحصيل الولاية برفع الحجب وإخلاص العبودية لله»[1]، ويقول القشيري: «يقال: إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عطرتها بنفحات الأنس، فَيُسْقَوْن في نسيمها على الدوام»[2]. وأما البعد، فهو «عبارة عن بعد العبد عن المكاشفة والمشاهدة»[3]، وفي انقطاع العبد عن المشاهد والمكاشفة عناء وندب؛ ولهذا يميل إلى بثّ أشواقه ولواعجه في الشعر، كما يفعل أكثر الصوفية، وفي هذا المعنى أورد الشيخ زروق في القاعدة (137) من قواعده قوله: «التغزل والندب والإشارة والتعريج، دليل البعد عن وجود المشاهدة؛ إذ الجلال مانع من قيام النفس، والشعر من محامدها. ومَنْ ظهرَ نورُ الحقِّ على قلبه، لم يبقَ فيه نصيب لغيره، فيكون ما جاء عنهم أشهى إليه من الماء البارد»[4].

ومن البيِّن أن الشيخ القطعاني يجد في نظم أشعار الغزل متنفَّسًا، يبث فيها شيئًا من شكواه ووجده إثر انقطاع تجليات الحبيب التي أسرت فؤاده وأوقدت مهجته، غير مكترث بلوم اللائمين وعذل العاذلين، وهكذا تتجلى معاناة الشاعر إذ يكابد أحوال الحب الإلهي ومواجيده، فهو يتردد بين اتصال وانفصال، وهذه البينية هي التي تغذي جذوة الحب وتزيدها توهجًا.

• صفات المحبّين

يصوغ الشيخ القطعاني في قصيدة أخرى تتكون من سبعة مقاطع مختلفة البحور متنوعة الرويِّ، صفات المحبين، ويصف أحوالهم في الحب على نحو

(1) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، محمد بن عبد الكريم الكسنزان، دار المحبة، دمشق، دار آية، بيروت، ط1، 2005م، ج18، ص132، 134.
(2) لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، تقديم وتحقيق إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط3، 2000م، ج2، ص268.
(3) الموسوعة الصوفية، عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2003م، ص669.
(4) قواعد التصوف، أحمد زروق، تصحيح وتنقيح محمد زهري النجار، مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، ص85.

متدرج، من البداية إلى النهاية، مع أن الترقي في معراج الحب الإلهي لا قرار له. ومن المستحسن قبل أن نقف على محتويات القصيدة، أن نبحث في موضوع الحب ذاته، وأعني بذلك أن الصوفي عندما يتغزل، يتغزل بمن؟ ولمن يوجِّه خطابه الغزلي؟ نعم، تقدم القول بأن موضوعة الحب الإلهي أو حب الله عَزَّوَجَلَّ هو المراد من التغزل، ولكن إذا كان المراد هو التغزل بالذات الإلهية في مرائي تجلياتها، فعندئذ يكون كلامنا مقاربًا للصواب، وإذا كان المراد هو التغزل بالذات الإلهية المحضة من حيث هي هي، ودون تعلُّقات بالأسماء والصفات والأفعال، فيكون كلامنا عندئذٍ غير دقيق؛ لأن الذات من هذه الحيثية لا تدخل في حيز الإدراك والنعت، وإن كانت هي المقصودة، إلا من وراء حجاب؛ وحجابها هو الحقيقة المحمدية؛ وعليه، يكون موضوع الغزل بكل جزئياته ومحتوياته محمولًا على هذه الحقيقة القابلة للإدراك، «وهذه الحقيقة هي التي يعبرون عنها بالتعيُّن الأول، وهي غاية ما يصل إليه الواصلون من كُمَّل الرجال. وجميع ما تسمعه من تغزلاتهم وتشبيبهم ونسيبهم إنما هو فيها، ويسمونها ليلى وسلمى وسعدى والراح الخمر وغير ذلك»(1).

يفتتح الشيخ القطعاني قصيدة «صفات المحبين»(2)، بنعت بداياتهم في السلوك، ويضع عنوانا للصفة الأولى، وهو «بعد أن ذاق عرف»:

1. الصفة الأولى: من ذاق عرف

مـا زلْـتُ أسـمعُ بالهـوى فأُكَـذِّبُ ... وأرى السُّـهادَ وذا اللهيـبَ فأعْجَـبُ
حتَّـى اكتويْـتُ بجمـرِهِ وبنـارِهِ ... مـن قـال: قتَّـال الهـوى، لا يكـذِبُ

(1) نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة، أحمد محيي الدين الحسني الجزائري، المطبعة الأهلية، بيروت، 1324هـ، ص9.

(2) نظم هذه القصيدة في طيبة بطرابلس مساء الخميس: 4/ ربيع الأول/ 1428ه الموافق 22/ 3/ 2007م، وألقاها على هامش مهرجان طرابلس الدولي للمديح النبوي في دورته الثامنة، مساء السبت: 6/ ربيع الأول/ 1428هـ.

وهو في هذين البيتين يشير إلى نمطين من المعرفة، النمط الأول معرفة علم اليقين، وهو علم نظري يحصل بطريق الخبر والاستدلال البرهاني، والآخر حقُّ اليقين، وهو علم ذوقي يحصل بالحال لا بالقال؛ أي بعيش موضوع العلم ذاته، فالمحب في هذا السياق الشعري كانت لديه معلومات عن الحب، ولكنه لم يخض التجربة بنفسه ولم يذق معناها الوجودي، وينكر أحوال المحبين ويعجب منها، ولكنه عندما عاش حالة الحب وذاقها عرف معناها على حقيقة اليقين، أقرَّ بمزاعم المحبين وبأحوالهم القتَّالة. وفي هذا المعنى المرتبط بمعرفة حق اليقين، يشير الشيخ القطعاني في قصيدة أخرى بعنوان القصيدة المثمَّنة، إلى معاينته الأشواق ذوقًا وحالًا بقوله:

أُمْدُدْ بِوَصْلِكَ لي فهذا وقْتُهُ ... يكفي مِنَ الأشواقِ ما قد ذُقْتُهُ

2. الصفة الثانية: العجز عن الإدراك إدراك

يقولُ عصامٌ لو شرحْتَ لنا الهوى ... وواللهِ ما أدري لهُمْ كيفَ أشرحُ
ذهالٌ على عقلي طويلٌ مخيِّمٌ ... وقرعٌ على قلبي شديدٌ مُبَرِّحُ
إذا اشتدَّ حالي كان أحسنَ حيلتي ... وضعُ يدي فوقَ رأسي وأسرحُ

ولا شك في أن هذه الأبيات مرتبطة بالصفة الأولى، وهي: من ذاق عرف، فبعد ذوقِ الحبِّ ذوقَ حال وتجربة، يعسر على الذائق أن ينقل ذوقه إلى غيره على ما هو عليه، واللغة في مثل هذا السياق ستكون قاصرة على نقل مذاق الحب، فهي ليست سوى نظام رمزي من العلامات الصوتية أو المكتوبة تحيل على ما هو متصوَّر من دلالاتها في الذهن، وأما حقائق هذه الدلالات الوجودية فلا تُدرك إلا بعيش موضوعاتها في الواقع المعيش، فقول القائل - مثلًا- «ما أجمل رائحة هذه الوردة!» وذلك بعد أن يشم أريجها، ليس سوى تعبير عن حدث صاغة عبر لغته في جملة مفيدة، ولن تكون هذه الجملة قادرة على نقل أريج الوردة إلى حاسة الشم عند السامع، ولكنها ستكون قادرة على نقل دلالة الجملة فحسب، وهكذا، تعجز اللغة

عن إدراك الحقائق ذوقًا ونقلها كذلك. والظاهر أن الشيخ القطعاني قد استدخل مقولة «العجز عن الإدراك إدراك» في هذا السياق، ليوظفها في الإشارة إلى عجز المحبِّ عن إدراك كنه المحبوب وحقيقته العصية على النعت والقيد، والعجز عن الإدراك -هنا- يمثِّل الإدراك ذاته؛ إذ الكف عن محاولة إدراك ما لا سبيل إلى إدراكه، هو الإدراك عينه.

3. الصفة الثالثة: قلق واضطراب

بعد الاعتراف بالعجز عن إدراك ماهية المحبوب وكُنْهِه، لم يبق سوى أن يتحدث العاشق عن مظاهر الحب التي تتبدى عليه وآثاره التي تعتريه، وعن حكاياه وحكايا العاشقين التي لا يفتأ يرددها؛ لما فيها من تأنيس لقلبه، وتصبير له على احتمال ما يداخله من الأشواق والمواجيد وأمنيات اللقاء. يقول الشيخ القطعاني:

إليــك حكايــا العاشــقين ووصفهــمْ	**أُحَــدِثُ عنهــمْ إن أردْتَ حكاويــا**
أعلِّــل نفســي مــرَّةً بعــد مــرَّةٍ	**إذا أمَــلٌ مــن عنــد ســلمى بــدا ليــاذا**
وإن حدَّثونــي أنَّ ســيلينَ دارُهــا	**وصــوَّتَ ديــكُ الفجــرِ صــاحَ مناديــا**
ســأقفزُ مــن فــوقِ الفــراشِ بســرعةٍ	**أُيمِّــم نحــو الخُمْــسِ والفجــرُ ضاويــا**
ولكــنْ طريــق الخُمْــسِ حــالًا ســتنتهي	**تُرانــي أألقــى ســلمى أم لا ترانيــا**

4. الصفة الرابعة: ما كان لهم الخِيَرَة

يصرح الشيخ القطعاني في هذه الصفة أن المحبَّ لا اختيار له إذ يقع في الحبِّ، فهو في الأزل مختار لخوض هذه التجربة الروحية المقدَّرة عليه، وهو يستشعر أنه مسيَّر فيها لا مخيَّر، ومهما حاول التنصُّل من هذه المحبة وإنكارها، عاد إليها طائعًا، معلنًا استسلامه لسلطان الحبِّ وسطوته الجاذبة والقاهرة، وأمَّا تنصُّله من محبَّة المحبوب تارة وتارة، فهو تنصُّل ظاهري يدفع به القيل والقال وظنون العاذلين، وأما حقيقة الأمر فهو يدين بدين المحبَّة، ويتمذهب بمذهبها. يقول:

أخـادعُ نفسـي فألهـو وأعبَـثُ وأقْسِـمُ لا أحبِبْتُـهُ ثـمَّ أحْنَثُـذا
تكاثـرَ قـولُ النـاسِ فـيَّ وأطنبـوا وإلامَ أبقـى فـي اسـتتارٍ ألبـثُ
يا قـومُ، إنِّـي فـي هـواه مسـيَّرٌ أتـوبُ مـرارًا عـن هـواهُ وأنكـثُ
وذلـك دينـي مـا يـزالُ ومذهبـي فلـي أدعـو بلطـفٍ من اللـهِ يحـدثُ

وما ذكره الشيخ القطعاني هنا يتسق مع بيت ورد في قصيدته الأخرى «المثمَّنة»، وفيه يسند شوقه إلى إرادة محبوبه لا إلى إرادته، فهو مسوق به إليه. وفيه يقول:

أو قيـلَ مشـتاقٌ إليـك فقُـلْ لهُـمْ: أنْعِـمْ بـذا وأنـا الَّـذي شـوَّقْتُهُ

5. الصفة الخامسة: لا يشاركني في محبوبي أحد

على نسق شعراء الغزل العذري، يتوجه الشيخ بخطابه إلى محبوبته التي يكنِّي عنها بـ (لُبْنَى)، وهو حريص كل الحرص على ألا يطلع أحدٌ على حبه إياها، خشية الحسَّاد والعاذلين، ويطلب إليها أن تجود عليه بنظرة أخرى. والظاهر أن الشيخ قد تعرض لنفحة من نفحات الرحمن غشيت فؤاده في ذِكْرٍ أو خلوةٍ مع الحق -تعالى- لا يسعنا التكهن بها، أو أنه حظي بزيارة طيف الحبيب المصطفى صلَّى الله عليه وآله وسلم في يقظة أو منام، وها هو ذا يرجو أن تتكرَّر مثل هذه النفحات التي يعشقها ويعبر عنها من وراء قناع ليلى. يقول:

يا حبَّـةَ القلـبِ إنِّـي لا أناديـكِ وأقـولُ: يا لبنـى، أناديهـا وأعنيـكِ
خوفًـا عليـك مـن الآذانِ تسـمعني أو عيـنِ معيـانَ ترمينـي وترميـكِ
يا مهجـةَ الـروحِ جـودي إنِّـي منتظـرٌ إنجـازَ وعـدِكِ والحـالُ يُنبيـكِ
قالـوا: رأيتَهـا يومًـا محـضَ مصادفـةٍ وزعمـوا أنْ ذاك يكفينـي ويكفيـكِ
خـابَ العـذولُ وقـد زُرْتِ واحـدةً باللَّـهِ لا تجعليهـا بيضـةَ الديـكِ

6. الصفة السادسة: ثمَّ صار مجذوبًا

يبدو أن قصيدة «صفات المحبين» تمثِّل سيرة حب الشيخ القطعاني، وهي سيرة بدأها بالإنكار على المحبين، ثم لما أصابه ما أصابهم، وذاق ما ذاقوه، وتقلب في أحوال الشوق والصد والوصل، صدَّق وآمن، ثم اكتشف أنه مرادٌ لخوض أحوال المحبين، شاء أم أبى، ولما تمكَّن الحب منه، وسطعت بوارق من أنواره في فؤاده، غدا يطلب الانفراد بمحبوبه بعيدًا عن الأغيار. وقد أفضت به هذه الحال إلى الانجذاب الكلي للمحبوب والفناء فيه، والفناء يقتضي الذهول وذهاب العقل، وقد صرَّح بهذا قائلًا:

قد ضاعَ عقلي في هواكِ فردِّيهْ   فبأيِّ عقلٍ بعده أهواكِ

وقد قيل في علاقة الحب بالعقل:

يقولون لو دبَّرْتَ بالعقلِ حبَّها   ولا خيرَ في حبٍّ يُدَبَّر بالعقلِ[1]

7. الصفة الأخيرة: قصصهم هي كلُّ حياتهم وحياتهم هي كلُّ قصصهم

يختتم الشيخ القطعاني قصيدته بأبيات سبعة تحت هذه الصفة الأخيرة، وفيها يحكي حكاية حبه على الرغم من معارضة الأغيار ونُهي الناهين له عن تمثيل حبه وتصويره في شعر الغزل، وتتضمن حكايته الشعرية ذكر بعض أحواله مع محبوبه وبعض نعوته، فهو ذو قلب خصيب، وحسنه يذهل الناظرين، وألحاظه فواتك، ووصله شهد، وحبه له يزداد في القرب والبعد. وخلاصة هذا القسم الأخير ومغزاه يتجلَّيان في أن الصوفي لا يصدر فيما يحكيه إلا عن تجربة وذوق، فحكاياته تعبر تعبيرًا صادقًا عن تجربته الروحية، وعن ذوقه فيها. ويختم الشيخ القطعاني أبياته بإشارة واضحة إلى فنائه بالحقيقة المحمدية العلية، وهو بذلك يكشف عن وجه محبوبه الذي كان يخفيه وراء قناع لبنى وسلمى. يقول:

---

(1) زهر الآداب وثمر الألباب، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، ضبطه شرحه وعلق عليه وقدم له: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ج2، ص330

وأرواحنــا موصولــةٌ مــن روحِهــا وإنِّــي وســلمى فــي الحقيقــةِ واحــدُ

وهو بذلك يقرِّر ما جرت عليه سنة الصوفية الذين يرون أن حقيقة النبي الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم محض نور من الحق عَزَّوَجَلَّ، وهو نور سار في الوجود من عرشه إلى فرشه، لكن الغفلة والحجب التي تغشى النفوس هي التي تمنع من استبصار هذه الحقيقة وذوقها، وعندما تستيقظ النفس من غفلتها، وتبدد حُجُبَها بتوفيق من الله تعالى بالأذكار والخلوات والمجاهدات، تدرك ببصيرتها أن الكون بما فيه الإنسان منسوج من هذا النور، ومن هذا المنطلق يحق للشيخ القطعاني أن يقول: «أنا وسلمى في الحقيقة واحد» وذلك بعد أن غدا قلبه مرآة مجلوة ينعكس فيها هذا النور المحمدي المبارك.

ويُستنتج من هذا أن غزليات الشيخ القطعاني هي غزليات في هذا النور المحمدي أو هذه الحقيقة المحمدية التي شخَّصها النبي الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم في الزمان والمكان.

• جبر الخواطر

ثمة قول أورده العجلوني في كشف الخفاء وعلق عليه وهو: «ما عُبد الله بشيء -وفي لفظ أعظم- من جبر القلوب. قال في المقاصد: لا أعرفه في المرفوع، والمشهور على الألسنة: ما عُبد الله بشيء أفضل من جبر الخواطر، بدلَ القلوب»[1]، ولا مساغ للشك في أن جبر الخواطر من الأخلاق الإسلامية الرفيعة، وأجرها كبير عند الله تعالى، وقد حث الإسلام عليها؛ لما فيها من تطييب المنكسرة قلوبهم لسبب من الأسباب، وإدخال السرور عليهم بكلمة طيبة من لسان، أو بعون كريم من يد. وقد جرت للشيخ القطعاني قصة تندرج في هذا المعنى، ونظم في بعض أحداثها

(1) كشف الخفاء ومزيل الإلباس، إسماعيل العجلوني، تصحيح وتعليق أحمد القلاش، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، ودار الحديث، القاهرة، ج2، ص247.

شعرًا، وأنقل ما رواه الشيخ في أثناء مشاركته في أحد المؤتمرات الإسلامية بطهران، وما حدث مع مراسلة تلفزيونية إيرانية متدربة، تسعى لنقل بعض وقائع المؤتمر، وإجراء بعض المقابلات مع المشاركين، لكنها لم تحظ بمرادها كسائر المراسِلات والمراسلين الخبراء في هذا المجال، وانزوت كسيرة القلب تندب حظها وتخشى من فقدان وظيفتها.

يقول: «... عشرات مراسلي القنوات الفضائية والمسموعة والصحف التي كانت تتنافس وتتسابق كلها لتغطية المؤتمر وإجراء المقابلات والحوارات في الردهات والقاعات، وقد انتبهت بعد أكثر من عشر حوارات وتصريحات ولقاءات أنني تحولت إلى مادة إعلامية ينبغي على الجميع اصطيادها، فقررت الاعتذار. ولكنني رأيتها تبدو مكسورة الخاطر، بائسة نحيفة البدن، خمرية اللون، تشبه كثيرًا تلك الحبيبة الغائبة -نور الله مرقدها- في عينيها السوداوين وأنفها الأرنبي، وأسنانها ناصعة البياض. مهملة الثياب مغلوبة على أمرها، منزوية مع أجهزتها الإعلامية، حائرة فاقدة الحيلة، فقادتني مشاعري إليها مرغمًا لا أستطيع الرفض.

- السلام عليكم.

- أليكم السلام. **[ينقل الشيخ القطعاني بعض ما تتلفظ به الفتاة الإيرانية بالعربية بلهجتها]**

- ما اسمك يا ابنتي؟ وماذا تفعلين هنا؟

- اسمي أعظم، وأنا مراسلة تلفزيون تهت التمرين في الكِسم العربي، وقد بعثت القناة معي المتصوراتي أمس، فكان كل لقاءاتي وهواراتي سيئة فرفزوها، واليوم فرصة أخرى، من الصعب الحصول على العمل في الإيران.

- المشاركون في المؤتمر (130) مفكرًا إسلاميًّا من (45) دولة مختلفة، تستطيعين أن تجدي بينهم من يقدم لك مادة ممتازة ناجحة، فكيف ينجح الآخرون وأنت لا؟

– إنهم خبراء قدماء يعرفون الشخصيات الهامة التي يختارونها كما أن هواراتهم قوية، وأنا الذين أطلبهم للهوار ينظرون إلى ويتعزرون مني.

– ما رأيك أن تجري محاولة معي؟

– صحيح؟! مهدي مهدي، سرعت سرعت، الكاميرا. اجلس هنا تشريف حزرت عالم، سأسألك عن اسمك وبلدك ووزيفتك ورأيك في المؤتمر وفي إيران و ...

– لا لا، دعي زميلك مهدي يوقف التصوير واسمعي: اكتبي مني الأسئلة أولا، وتدربي معي على نطقها بالعربية، ثم اسأليها لي تحت الكاميرا. اسأليني أولا عن أثر النظم السياسية الحديثة السلبية على الثقافة الإسلامية، ثم التأثير المبرمج لمعاهدة يالطا على الدول الإسلامية، ثم آثار توظيف الخطاب الديني الطائفي في العراق ولبنان والباكستان، ثم التفاوت الكبير بين الفكر الإسلامي المطروح في كل المذاهب منذ مئات السنين ومسلم اليوم.

وتمَّ الحوار الذي استغرق نصف ساعة مجهدة، تعمدت أن أجعلها دسمة قوية حية، وكم أراحني أنها فرحت بعد أن شعرت بالنجاح، فكانت تشكر وتعيد الشكر بنشاط وسعادة غامرة، وقالت لي: حزرتكم عالم آية الله؟

وآية الله وحجة الله هي ألقاب علمية ... يستعملها الإيرانيون في مصطلحاتهم الدينية، فأخذت أوراقها التي كانت بيدها، وكتبت لها على واحدة منها:

قد كنْتُ أسمعُ في إيرانَ تسميةً   فذا آيةُ اللهِ وذاك حجةُ اللهِ
ما كنْتُ أدري لها معنًى يفسِّرُها   ولا استحوذَتْ في يومٍ على انتباهي
حتَّى أتيْتُ طهران وهي مربعةٌ   فيها رأيْتُ حسْنَ وجهِكِ الزَّاهي
فأيقنْتُ أنَّهم واللهِ ما نَصَفوا   أنت لوحدك أنت آيةُ اللهِ

فقرأتها واكتسى وجهها بحمرة قانية، وابتسمَتْ أولا ثم قهقهَتْ ضاحكة بصوت عال من كل قلبها ضحكة طفولية جميلة لا تُنسى، كانت خير مكافأة لي على الجهد المضني الذي بذلته معها، وشكرتني وأعادت الشكر مرات بشدة، ثم قفزت إلى الهاتف العمومي واتصلت بأهلها وقرأتها على أمها، وتركتها وأنا شاكر لله -تعالى- أنني أسعدتها بعد حزن. لقد شعرت أنني أسعدت من خلالها شبيهتها تلك المنعمة في روضتها العطرة، ومضيت لحالي وشعور رائع لم أحسَّه منذ أمد بعيد جدًّا يغمرني، ربما كان هو السعادة التي يتحدث عنها الناس»[1].

• شعره إلى بعض مريديه:

في بعض المناسبات، ولا سيما مناسبة المولد النبوي الشريف، ينظم الشيخ القطعاني بعض الأبيات أو المقطعات الشعرية، متوجِّها فيها إلى بعض مريديه، ومنهم الشيخ أسامة بن هامل أحد مريديه المقربين منه، يحثه على لزوم التمسك بمسلك أهل الله ومجاهدة النفس والهوى، وترك السوى للسوى، والتوجه إلى الحق تعالى والإخلاص في التعبد والمحبة؛ بغية التضلع من الأنوار النبوية والحقائق العرفانية، فكتب له قائلًا[2]:

عيـــنٌ لغيـــرِ حَيِّهـــمْ لا تنظـــرُ ... هـــذا الـــذي تحيـــا عليـــه وتُحشَـــرُ
لا يصحَـــبُ القطعانـــي إلا قاطـــعٌ ... عنـــه السِّـــوى، والغيـــرُ والمتغيِّـــرُ

ويشير الشيخ إلى الرابطة الروحية بين الشيخ والمريد، وهي رابطة موصولة بمنبعها النوراني الصادر من الذات النبوية الشريفة، وهي كفيلة بانتقال بعض أسرار

(1) رحلات أحمد القطعاني، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص12-14.

(2) من رسالة مركونة أرسلها لي أ. أسامة بن هامل، رئيس مركز العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بطرابلس - ليبيا، ص-10 11، مفيدًا بأن أصل هذه الأبيات والأبيات التي تليها عند د. عبد المحسن العوكلي المكلف من الشيخ القطعاني بجمع ديوانه: «العرجون».

الشيخ وأحواله الروحية إلى مريده الذي كمل استعداده لتلقي هذه الأسرار. ويقول في أبيات أخرى كتبها للشيخ أسامة بن هامل[1]:

يا لــو رأيْــتَ الفجــرَ عنــد بزوغِــهِ   عاينْــتَ طــيَّ المحْــوِ فــي الإدراجِ
فــي غمــرةِ الأكــوانِ فــاضَ حالُنــا   فكَســا البقــاعَ بنــورِهِ الوهَّــاجِ
نســقي المريــدَ بنظــرةٍ مــن سـرِّنا   ينســابُ فيهــا الفيــضُ كالأمــواجِ
وفيــك زَرَعنــا مــن جميــلِ عنايــةٍ   حســناءَ كالمصبــاحِ وســطَ زجــاجِ

وينبه مريده بن هامل إلى ضرورة لزوم الشيخ ومحبته، فمحبة الشيخ هي الطريق الموصل إلى محبة النبي الأعظم، صلى الله عليه وآله وسلم، فيقول له في مخاطبة أخرى[2]:

أيقِــنْ علــى حــبِّ الفقيــرِ فإنَّــهُ   أسْــقاكَ سِــرًّا والزمــانُ يجيــبُ

• سمات أسلوبية ورمزية وتعالقات نصية

تجدر الإشارة - هنا- إلى أن الشيخ القطعاني لم يلتزم في شعره العروض العربي التزامًا تامًّا، فتجد نظمه يتسق تارة وفق بحر من بحور الشعر العربي، وتارة ثانية يخلط بين البحور والتفاعيل، وتارة ثالثة لا يُلزم نفسه بأيٍّ من ذلك، ومثل هذا نجده عند بعض شعراء الصوفية، ولا سيَّما المعاصرون منهم، وتعليلهم لهذا الظاهرة أن مرادهم هو المعاني لا المباني، فما دامت المعاني قد أدت أغراضها فلا ضير فيما قد يلحق بعض المباني من خلل في أوزانها هنا وهناك.

يتعاقب على شعر الشيخ القطعاني أسلوبان تعبيريَّان عامَّان، الأول أسلوب مباشر في إبراز المعاني ووصف المشاعر والعواطف والأحوال والمظاهر، والآخر أسلوب غير مباشر، يتخذ من أسماء النساء رمزًا للمحبوب، سواء كان المقصود فيه مُسَمَّى النبي الأعظم محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم أو ذاته النورانية أو حقيقته

(1) المصدر السابق، ص11.
(2) المصدر السابق، ص12.

المحمدية العلية، التي ينظر إليها الصوفية على كونها الهيولى الأولى التي انبثقت عنها مراتب الوجود وممكناته، وهي في الوقت ذاته تشكل برزخًا بين الحق والخلق. وفي كلا الأسلوبين يوظف الشيخ لغة شعراء الغزل العذري، وتتقاطع صوره الشعرية بصورهم، ومعانيه بمعانيهم، وأساليبه بأساليبهم، وأما أسلوبه المباشر فينماز برقة ألفاظه ووضوح معانية وسلاسة تراكيبه في الأعم الأغلب، وهي سمة نجدها أيضا حاضرة في أسلوبه غير المباشر الذي يزيد على المباشر بتوظيفه الرمز الأنثوي. والمتأمل في الحقل المعجمي الأبرز في أغلب قصائده يجده مرتبطًا بكلمة واحدة: هي الحب، فالشوق والوصال والهوى والشغف العشق والصبابة والهجر والصد والقرب والبعد والشكوى والذهول والوجد والعذل والواشي والبكاء ومناجاة الحبيب والذكرى والقلب والفؤاد والعيون والألحاظ، ودوران بعض مشتقاتها، تشكل معجمًا لغويًّا ينسج منه الشيخ عباراته وصوره للدلالة على مدى انشغال فؤاده بمحبة الذات المحمدية، وتوقه الدائم لرؤية صورتها المشرقة بالأنوار والمفعمة بالأسرار.

وتشير سمة «التضاد» القائمة بين بعض ألفاظ هذا المعجم إلى أن الشيخ يعيش أحوالًا وجدانية تتراوح بين مد وجز، فهو موصول تارة، ومهجورة تارة أخرى، على أن هجر الحبيب لحبيبه في مثل هذا المضمار لا يكون إلا من أجل تحفيز الشوق وتجديد الوصال وتعميق المحبة. كما تتجلى سمة التضاد على نحو آخر في بعض الصور الفنية البديعية والتشبيهية، التي يراد منها التدليل على التقابل بين صورة المُحِبِّ وصورة المحبوب، فهو، أي المحب، ضعيف العزم، قليل الصبر، وأثر عَذُوله فيه محدود، ويقابله كمال المحبوب وقدره العظيم، ومحبته الكبيرة لمحبوبه، ويصوغ هذه المقابلة عبر تشبيه التسوية، الذي يشبِّه فيه العناصر التي يغلب عليها الطابع المعنوي بعنصر حسي وهو السعير، فيشبه العناصر الثلاثة الأولى، وهي قلة العزم وقلة الصبر وضعف أثر العذول فيه، مع ما يقابلها من كمال المحبوب وعظم قدره ومحبته الكبيرة له بالسعير، التي هي النار الشديدة الملتهبة، مشيرًا بذلك إلى أن

هذه المشبَّهات الموصوفة بالتضاد هي التي تذكي مشاعر المحبة وتعمِّقها، فيقول في بعض أشعاره:

ألا يا صاحبَ الفضلِ الغزيرِ ثلاثُ ثلاثَ وهنَّ من سعيري
فعزمي والعذولُ وصبرُ قلبي صغيرٌ في صغيرٍ في صغيرِ
كمالُك ثمَّ قدرُك ثمَّ حبِّي كبيرٌ في كبيرٍ في كبيرِ

وينسج من الاستعارات والتشبيهات ما يتسق مع طبيعة الأحوال التي يستشعرها، فيقول:

فَلْتَسْتُرِ الوجدَ حتَّى تهلكنَّ بهِ فالبَوْحُ موجٌ تعلوه الأعاصيرُ

فهو -هنا- يتحدث عن الوجد الصوفي، الذي هو شعور ووجدان قلبي، يتصف بالحركة والتَّفلُّت والتموُّج النفسي الداخلي، ويأتي باستعارة تجسيدية تمنح معنى الوجد كيانًا وجوديًّا حسيًّا قابلًا للتغطية والستر في قوله: « فَلْتَسْتُرُ الوجْدَ» ناقلًا إياه من محض وجدان قلبي إلى كيان يمكن لمسه باليد ورؤيته بالعين، وكذلك يفعل في التشبيه البليغ في قوله: « فالبَوْحُ موجٌ تعلوه الأعاصيرُ»؛ إذ يجسد خطورة البوح التي تحيط بمن يبوح بمواجيد المحبة الإلهية وأسرارها الممنوعة على الغير، على هيئة أمواج عاتية وأعاصير قد تطيح بمن يخوض في غمارها؛ وبهذا تغدو المعاني أظهر للمتلقي وأبلغ في التأثير فيه. يقول:

فَلْتَسْتُرِ الوجدَ حتَّى تهلكنَّ بهِ فالبَوْحُ موجٌ تعلوه الأعاصيرُ

وثمة نمط آخر في شعر الشيخ القطعاني، وهو «المعارضات الشعرية» وهي شكل من أشكال المحاكاة يقدم فها الشاعر الجديد قصيدته في ذات الإطار العروضي للقصيدة المعارَضة، بالإضافة إلى التقارب الموضوعي في مضمون القصيدتين، وهي ظاهرة أدبية قديمة في التراب العربي، لكن وكما سبق فإن هذا النمط الذي استخدمه الصوفية في المعارضة الشعرية يُدرس تحت عنوان: التعالق النصي أو التناص في سياق النقد الأدبي المعاصر. وقد جلب له الشيخ القطعاني في مقدمة ديوانه العديد

من الشواهد على نمط المعارضة في أشعار بعض المتصوفة، فالإضافة الى عمل أبو الإخلاص أحمد الزرقاني على قصيدة الواردات العينية لعبد الكريم الجيلي التي سبق الإشارة إليها، يذكّر الشيخ أيضًا بمعارضة الصوفي الكبير أحمد الرفاعي للشاعر شبيب بن البرصاء، التي قال فيها:

إذا جن ليلي هام قلبي بحبكم — أنُوح كما ناح الحمام المطوَّقُ
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى — وتحتي بحار بالأسى تتدفقُ
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها — تُفَك الأسارى دونه وهو موثقُ
فلا هو مقتول ففي القتل راحة — ولا هو ممنون عليه فيطلقُ

وينبه الشيخ القطعاني على أن البيتين الثالث والرابع في القصيدة لشبيب، وأن الرفاعي حقق «بهذه المعارضة تحديث نص ماجن متهتك اشتهر عند الأدباء والمثقفين بمعارضته بنقيض كريم»[1].

ومن شواهده مشاركة الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي في هذا النمط من الشعر الصوفي، ومنه قول شاعر عربي:

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت — أشكو من الطول ما أشكو من القصر

فعارضه ابن عربي قائلًا:

شغلي بها وصلت بالليل أو هجرت — فما أبالي أطال الليل أم قصرا[2]

وعن غرض الصوفية من هذا التصرف في قصائد غيرهم -خصوصًا الماجنة منها- هو أن «تنقلب على أيديهم إلى أشعار رائقة مهذبة يليق بالمرء إلقاؤها وسماعها».

ولهذا السبب شارك في هذا النمط من شعر الصوفية، يقول «فتراني سرت على دربهم المبارك فتجدني أخذ القصيدة منها وأدخل عليها معارضتي التي قد تكون أبياتًا وقد تكون كلمات المهم عندي أن أقلبها من معصية إلى طاعة، وليس هذا بالأمر الهين بالنسبة لي فتراه يستغرق مني العام والعامين أحيانًا».

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ومن شعره في هذا النمط قصيدة بعنوان «سجد الجمال» يقول فيها[1]:

سـجدَ الجمـالُ لنـورِ وجْـ ـهِـكِ واطمـأنَّ إلـى جمالـكْ
وتـعـطَّـرَتْ كـلُّ البـلا دِ مـن السـماءِ إلـى هنالـكْ
وعشـقْتُ وصْلَـكِ إذْ رأيـ ـتُـكِ واكتملْـتُ علـى كمالـكْ
يا عـاذلـي ليـس المُحِـبْ بُ، وإن تمكَّـنَ، مِـنْ أولئـكْ

فهو في هذا الأبيات يشير إلى سجود الجمال، من باب الاستعارة التشخيصية، لوجه المحبوبة التي من سماتها أنها جمَّلت الوجود بظهور نورها فيه، فثمة جمال مخلوق وهو جمال عالم الشهادة، وثمة جمال أزلي هو جمال الحق تعالى ونوره، وجماله هذا يتجلى في جمال مخلوقاته؛ وعليه فجمال المخلوق يتعبد في محراب جمال الخالق، وقد عارض الشيخ في هذه الأبيات الشعرية مقطعة لأبي نواس (ت: نحو 198هـ) يقول فيها[2]:

سـجدَ الجمـالُ لحسـنِ وجْـ ـهِـكِ واسـتراحَ إلـى جمالـكْ
وتشـوَّقَتْ حـورُ الجِنـا نِ مِـنَ الخلـودِ إلـى مِثالـكْ
فعشـقْتُ وجهـكِ إذْ رأيـ ـتُـكِ واعتمَـدْتُ علـى وصالـكْ
يا ظالمـي ليـس المُحِبْـ ـبُ، وإن تجلَّـدَ، مِـنْ رِجالِـكْ

فأبو نواس -هنا- يتحدث عن الجمال والعشق الأرضيين، وأما الشيخ القطعاني فيقتبس عنوان قصيدته من مطلع هذه الأبيات، ويستثمر الحديث عن الجمال والعشق عند أبي نواس، لكنه يحوِّر بعض كلمات المقطعة؛ ليصَّعَّد بها من العشق الأرضي إلى العشق الإلهي، وليُدل بها على جمال النور الإلهي الذي تجلى به على مخلوقاته مخرجًا إيَّاها من ظلمة العدم إلى نور الوجود.

(1) رحلات أحمد القطعاني، مصدر سابق، ص12-14.
(2) نسخة من القصيدة زودني بها أ. أسامة بن هامل، مؤرشفة لدى مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية من أصلها لدى د. عبد المحسن العوكلي المكلف من الشيخ القطعاني بجمع ديوانه «العرجون».

وخلاصة القول: إن الشيخ القطعاني لم يكن مهمومًا بنظم الشعر على النحو الذي عليه سائر الشعراء، ولعله كان يجد في تأليف بعض المسرحيات والانشغال ببعض الفنون الأخرى، تعويضًا عن هذا الإقلال في نظم القصائد، التي غالبًا ما كانت ترتبط بمناسبات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وبمناسبات أُخَر، كأن ينظم شعرًا يخص فيه بعض مريديه.

ووقف على وصف أحوال المحبين ومراتب المحبة، وذكر من مراتبها: الهوى والصبابة والشغف والعشق والغرام، ومن الأحوال: أحوال الفناء والقرب والبعد والشوق والوَجْد والجذب والمحو وسواها، كما تحدث عن أسرار المحبة الإلهية وعواقب البوح بها، وصفات المحبين وترقيهم في معارج الحب الإلهي. ولم يخلُ شعره من تصوير بعض المواقف الحياتية التي تعكس مدى إحساسه بالآخرين من ذوي القلوب المنكسرة، والتي تطلعنا على رهافة قلب الصوفي، وكيف يسعى إلى جبر خواطرهم وإدخال السرور على قلوبهم. وأما الجوانب الأسلوبية والفنية والإيقاعية في شعره، فقد تمثلت في استعمال الأسلوب المباشرة، ولا سيما في وصف المحبين ومواجيدهم وأحوالهم، وفي الأسلوب غير المباشر أو الرمزي الذي يتخذ من أسماء النساء قناعًا للإحالة على موضوع الحب الذي يتعين في الذات النبوية الشريفة، وبخاصة في حقيقتها النورانية الجامعة، وكيف استثمر التشابيه والاستعارات وبعض مظاهر التناصّ في التعبير عن المعاني العرفانية وتقريبها من الفهوم والمدارك. وأما الإيقاع الشعري فقد اتسم بالتنوع، فتجده تارة ينظم على بحر واحد ورَوِيّ واحد أو ينوع في حروف الروي، وتارة أخرى يخلط بين البحور التي قد يقع في بعضها خلل في الوزن.

مرتكزات أسلوبية في بنية المقال عند الشيخ أحمد القطعاني

أ.د عبد الباسط سلامة هيكل

أستاذ علوم العربية وآدابها بجامعة الأزهر- مصر

ملخّص

وظّف العلّامة الصوفي أحمد القطعاني المقال كفن تعبيري تلقائي عصري تطوّري؛ ليعبّر من خلاله عن أفكاره، فالمقال حامل ووسيط ناجح في نقل أفكار كاتبه إلى ذهن القارئ متى أجاد استخدام أدواته، وقد جاءت مقالات الشيخ القطعاني قطعة من روحه، تلك الروح الصوفية التي تبدو جلية في كتابات الشيخ، فقدّمته مقالاته من الوهلة الأولى، صاحب رؤية خاصة طامحة لصناعة رأي عام محبّ متسامح متصالح مع نفسه وغيره، موظفًا لغة مبسّطة أبعد ما تكون عن تضاريس الإغراب اللغوي الصارف للقارئ عن استكمال المقال، فمقالات الشيخ القطعاني جدْولٌ متفرع من نهر نتاجه الفكري الذي خاطب به جمهورًا عريضًا قصد إلى التأثير فيه وإقناعه بمعاني التصوف وسلمِ ترقّيه، فجاء خطابه في أغلبه تبسيطًا لمقامات الحبّ وسبيلًا إلى تحقيق التّواصل المعرفي والروحي.

قدّم الشيخ أحمد القطعاني رؤية تُحتذى على صعيد المضمون والشكل على حدّ سواء، وإذ كانت مقالات التصوف مسبوقة إلا أنني لا أستطيع أن ألحق مقالاته بسابق عليه، حيث إنّه أسس تيارًا مستقلًا في أسلوب المقال وبنائه يُحسب له، وسأتناول مظاهر تلك المرتكزات الأسلوبية في بنية المقال عند الشيخ القطعاني.

كلمات مفتاحية: السجال التعاوني إلى التداخل، تداولية لم تخلُ من المفارقة، التكرار الوظيفي، تصويرية رمزية لم تمنع الوصف، التكثيف والتركيز والتنويع، التضمين.

مقدمة

لازَمَ المقالُ الصحافة منذ ظهورها في القرن السادس عشر الميلادي على يد الفرنسي مونتي ثم على يد فرنسيس باكون في القرن التالي مستفيدًا من مقدرات الصحافة، وما تمتلكه من آليات قادرة على الوصول إلى القارئ في مختلف الأماكن، وزاد من ذلك وتيرة التطور التكنولوجي المتسارعة، وما صحِب ذلك من ظهور للصحافة الإلكترونية واسعة الانتشار، وللمقال جذور ضاربة في أعماق التاريخ، فقد عرفتْ الأمم السابقة من العرب واليونان فنونًا قريبة منه.

ومن الأسماء التي أوجدت لنفسها مكانة في فن المقال المؤرخ المصلح الصوفي العلَّامة أحمد القطعاني مسند الديار الليبية، وقد وُلد بدرنة 23 سبتمبر 1956م، وتلقى العلوم الشرعية على يد علماء البلاد في مختلف المناطق، لا سيما في مدينة درنة مسقط رأسه ومدينة بنغازي التي درس أيضًا في مدراسها الدراسة النظامية حتى أوفد للدراسة في بريطانيا عام 1978م، وعقب عودته عام 1981م عمل بالتدريس بمدن درنة وبنغازي وطبرق الليبية، وفي الأثناء أسس الزاوية العيساوية الأم في مدينة درنة، وفي عام 1994م منارة الصحابة للعلوم الشرعية بدرنة، بالإضافة لمؤسسات أهلية أخرى كمتحف سيلين للمقتنيات التاريخية، ومتحف قصر طيبة للفن التشكيلي

الليبي، واليوم الوطني للمسرح الليبي، ومكتبة تيجي الأهلية، وقدّم للمكتبة العربية قرابة السبعين دراسة بين بحث وكتاب، جمع في بعضها أسانيد المحدثين الليبيين، وكتب عدة أعمال أدبية، وله مئات اللقاءات والمحاضرات والدروس.

نشر العديد من المقالات على مدار رحلته الفكرية، فكتابَيْهِ «إسلام للبيع»، و«الحبّ القذر» هما مجموعة من المقالات التي نشرها في بابه الشهري الثابت «فيض الخاطر» في مجلة الأسوة الحسنة التي أسسها سنة 1998م وظلّت تصدر شهريًا لمدة 14 عامًا، حتى توقفت عام 2011م، عاش مصلحًا مربيًا منشغلًا بالكتابة حتى لبّى نداء ربّه راضيًا مرضيًا يوم 17 نوفمبر 2018م عن عمر ثلاث وستين عامًا.

وإذ كانت مقالات التصوف مسبوقة قبل مقالات الشيخ القطعاني إلا أنّه أسس لتيار مستقل في أسلوب المقال وبنائه يُحسب له، وهذا ما تسعى الدراسة إلى الكشف عنه بالوقوف عند المرتكزات الأسلوبية في مقالات الشيخ.

من السجال التعاوني إلى التداخل

مقالات السجال التعاوني هو نوع من الكتابات تأخذ منحًى تعاونيًّا، فكاتبه -على حد تعبير المفكر المغربي الدكتور طه عبد الرحمن- يتعاون كعارض مع المعروض عليه لإنشاء معرفة نظرية مشتركة، كفيلة بتقويم العرض وتحقيق الإقناع، واحترام خصائص مضبوطة، كالاستجابة، والاستشارة، والتقويم،[1] وعلى هذا الأساس يدخل العارض والمعترض في «حوارية» ذات مراتب تشترك جميعًا في كونها «فعاليات» خطابية، تفيد التداخل اللغوي، وتُوفّر للنص شروطه الاستدلالية، وهذا ما وفّر لمقالات الشيخ القطعاني سجالية محمودة، فهي سجالية ذات طابع منطقي وآليات حوار منضبطة، لا تتعدى سجاليته حدود النقض والتفنيد، ويُتجنب فيها

(1) الحوار أُفقًا للفكر، عبد الرحمن طه، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2013م، ص 8،7.

المساس بشخص المساجل، ومن ذلك ردّه على أحد خصوم الصوفية من الوهابيين، فيقول الشيخ القطعاني: «ونحن نتساءل متى وكيف علم -أرشده الله- أن التصوف قد اختفى وفُقِد، ومضى العاملون به المستمسكون بمنهجه المبنى على تعاليم الإسلام القائمون العابدون المستمسكون بالعروة الوثقى لا انفصام لها الملتزمون بالقرآن الحكيم وسنة الرسول الكريم ﷺ شرعة ومنهاجا، فإن هذه الشجرة الطيبة المباركة ما توقفت عن النمو وإتيان أكلها كل حين بإذن ربها في بستان المعرفة وحدائق اليقين»[1].

وهذا النمط من المقالات السجالية التي نراها عند الشيخ القطعاني يُعد استثناءً في عالم المقالات السجالية التي تتخذ عند غيره طابعًا سلبيًّا غالبًا، فيُسيطر عليها نزعة تجريحيه هجومية؛ لتُبرهن، لا على صحة الرأي أو خطئه، لكن على فساد أخلاق المعروض عليه/ المساجَل، وسوء نيّته، فهذا النوع من المقالات السجالية التي تأخذ شكل الحرب الكلامية حيث يكون فيها المتكلم جهير الصوت متخيلًا أن ثمة خطرًا على معتقداته وأفكاره، فيشتد السجال، وتقوى الملاسنة، ويكون الظَّفَر للأقوى تأثيرًا واستمالة، لا إقناعًا واستدلالًا، وللذي يُحسن التصرف في اللغة وإثارة مشاعر النقمة والضحك من خصمه، فتُبنى المقالة على أساس بياني تكون اللغة فيه سلاحًا رئيسا لمنازلة الخصم.

وفي مقابل بنية حوارية سجالية في مقالات الشيخ القطعاني ظهرت بنية التداخل بين الفنون السردية في مقالات الشيخ، فكثيرًا ما تداخلت مقالاته مع فن الأقصوصة، بل قصد إلى اتخاذها قناعًا تصويريًّا لِمَا كان يريد إيصاله في معالجته للقضايا الاجتماعية، ولعل هذا النزوع إلى التداخل سببه لغة الشيخ القطعاني الكارهة للغة التقريرية المباشرة، جانحة نحو لغة تصويرية موحية ممتزجة بتقنيات السرد المتنوعة من تداعي وتذكر وارتداد، وهذه القيمة المزجية بين فني المقال والأقصوصة تعكس

(1) الحجة المؤتاة في الرّد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله، أحمد القطعاني، دار جوامع الكلم، القاهرة، ط2، 1992م، ص 21.

ما تطوّرت إليه المقالة عند الشيخ القطعاني كفن يرفض الإطارية الثابتة/ النمذجة، فتتجاوز مقالاته الإطار التقليدي المعروف للمقال، الذي نراه يتداخل مع القصة القصيرة أو الخاطرة أو المذكرات أو الرسالة، مستفيدة مقالاته من معطيات وتقنيات كلّ لون أدبي تداخلت معه، ومن مقالاته التي تتقاطع مع الخاطرة في بنيتها، قوله:

«أخطر ما في الحقيقة هو أنّك قد تجدها فعلًا.. فالإنسان منّا يحب أن يسعى خلف الحقيقة ويعجبه أن يستشهد بها في أقواله ويجعلها شعارًا له في أحواله وأموره، ولكنه قلما يعلم أن الحقيقة جميلة برّاقة ما دامت بعيدة عنه أو فكرة أو قيمة معنوية تدور في خواطرنا وأحاديثنا، ولكن تتحول حياتك إلى جحيم مستعر - وقاك الله - يوم تجدها لأنك ستقف أمامها وجهًا لوجه أعزل عاريًا من كلّ شيء، وعندها فقط ستدرك من الأعماق خطورتها؛ إذ إن الحقيقة لا تخاف ولا تُحابي ولا تُجامل أحدًا كائنًا مَنْ كان، ولا تقبل الجدَّال وأنصاف الحلول وسيفها ماضٍ في يمينها تضرب به بلا تراجع ولا هوادة من حاد عن مضمونها ولو قيد أنملة، ومن منا سينجو عندها؟»[1]

وفي مناسبة أخرى كتب يقول: «أحبّ لك أن تُحرر بصرك من القيود؛ ليمتد خارج دائرة زمانك ومكانك فتكتشف قدرته الفائقة على رؤية الأمس واليوم والغد، فعندما فعلت أنا ذلك أحببت كثيرين وأجللتهم مقتنعًا مؤمنًا بصدق عواطفي نحوهم..»[2].

فيظهر في هذا النص بنية قائمة على السرعة ومحدودية المساحة، وهذه الجمل السريعة والمساحة الضيقة لم تأت على حساب المضمون وتقنيات الإقناع، فالنص ثري دلاليًا، فتميّزت مقالات الشيخ القطعاني بأنّها عندما تضيق مساحتها النصية فُتشبه الأقصوصة أو القصة القصيرة جدًّا تكون أبقى في الذهن بعد قراءتها وأكثر تأثيرًا في النفس وأقوى في الأسئلة التي تتركها في عقول متلقيها، نفّذ هذا كلّه الشيخ القطعاني بجمل سريعة قصيرة الحجم لكنها طويلة المدى باقية الأثر، ولعلّ هذا هو سرّ قبول

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، ص 2018م، ص 58.
(2) المصدر السابق، ص 27.

ورواج كتابات الشيخ القطعاني عند القارئ العربي، فمقالاته أشبه بهمسات في الأذن قصيرة ومؤثرة، لا تترك خيارًا للقارئ في أن يتوقف عن القراءة، فالأمر برمّته ومضة لا تحتمل التجزئة، فمقالاته مكثفة بالخيالات والانطباعات والرؤى والتوقعات والقرارات تتحرك كلماتها في مساحة محدودة بالغة التركيز، وكأنّه يصوغ خبرًا صحفيًّا.. من جانب آخر حققت بِنْية التداخل بين الأجناس النثرية في مقالات الشيخ القطعاني عبورًا نصيًّا إلى تأويلية لا متناهية الأبعاد تأخذ النفس في غير اتجاه.

تداولية لم تخلُ من المفارقة

توفّرت لمقالات الشيخ القطعاني بوصفها جنسًا أدبيًّا شروط التداول اللغوي الثلاثة:

النطقية: بتوظيف اللسان الطبيعي، وتحصيل صيغه الصرفية وقواعده النحوية وضبط دلالات ألفاظه في أثناء التبليغ والتقييم، فأسلوبه متميز قوى العبارة، محكم النسج، جميل السّبك.

الاجتماعية: بمشاركة الآخرين الحوار فيما يُفكر فيه ويعتقده حقيقة، ومن ثمّ تحقق البعد الاجتماعي في مقالاته، بلغة سلسة يستوعبها الجميع، ومن ذلك قوله: «إما أن نُعيد غرس شجرة الزواج في تربة الفطرة السوية وما تعوّدت عليه من سقاية بماء التسهيل وسماد اليسر التي طالما غذتها فأورقت وقوتها فأثمرت، أو أننا سنفتقد أغصانها في بساتيننا كما تفتقدها اليوم بساتين جيراننا»[1]، وقوله مضيفًا «تعتبر مؤسسة الزوجية من أقدم وأرقى المؤسسات الاجتماعية الهامة التي عرفها الإنسان، وهي تقوم على فكرة واقعية جدًّا فحواها: حاجة بنى البشر لبعضهم البعض لحفظ النوع وإعمار الكون واستمرار الحياة، حيث يعجز الفرد الواحد عن تحقيق ذلك؛ إذ هو وإن أوتي كل القوة والمال والنفوذ منفردًا مصيره الانقراض لا محالة»[2].

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 71.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الإقناعية: باعتماد أساليب الإمتاع قصد التأثير في المخاطب وتوجيه سلوكه، وتجسيد الأشياء للمخاطب كأنه يراها رأي العين، وهنا يكون التوسل بالأسلوب الحواري عفويًّا، أو لهدف جمالي محض، ولكنه توسل وظيفي أساسه التجسيد والتبسيط والتشخيص لتغيير التصور وتدعيم الفكر المراد نشره.

وساهم في مزيد من الإقناع المعلوماتية الحاضرة في مقالاته، التي تعكس ثقافة واسعة لدى الشيخ، منها إحصائيات تقابلية بين الواقع العربي والإسرائيلي في قوله: «الكارثة الحقيقية أنه في حين تنفق إسرائيل 500 دولار في العام الواحد للبحث العلمي على الفرد الإسرائيلي يُقابلها النظام العربي بإنفاق 8 دولار في العام نفسه، وفي حين تُنفق إسرائيل أيضًا 11200 دولار على تعليم كل فرد إسرائيلي سنويًّا يكتفى العرب بإنفاق 110 دولار على الفرد؛ لذا لم يكن مستغربًا أبدًا أن يصل إنتاج إسرائيل من البحث العلمي سنة 2006م إلى 120 مليار في حين لم تتجاوز كل الدول العربية مجتمعة 700 مليون دولار، وينظر من ندعوهم إلى الإسلام إلى هذا التخلف، ويقولون: نحترم كل ما تقولون عن دينكم وقيمه ومبادئه ولكننا لا نرى أثر ذلك عليكم في أي صعيد، ونحن نحتاج مصانع ومزارع وعلومًا لنطعم أولادنا، وليس عندكم من ذلك شيء فالمعذرة أن صممنا آذاننا عن دعوتكم»[1].

ولم تمنع تداولية لغة الشيخ القطعاني من الاعتماد على ظاهرة لغوية مثل (المفارقة) وهي طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى فيها مناقضًا أو مضادًا للكلمات، فيُلبس الفكرة ثوبًا ساخرًا يمنحها بُعدًا إقناعيًّا مضحكًا ومؤلمًا في وقت واحد، وتُحدث أثرًا بالغًا بأقل الكلمات، مُوفّرةً طاقة تعبيرية هائلة من السخرية، وتتخذ المفارقة إحدى صورتين لفظية وسياقية/ موقفية ومنها قوله: «أحب أن أصحبك إلى مدينة حقيقية ربما تكون رأيتها أو حتى سكنتها، أما أنا فأعرفها حيًّا حيًّا ومواطنًا مواطنًا، إنها مدينة نفترض أن عدد سُكّانها يقدر بنحو 1000 نسمة، رفضوا

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 29.

كل قياسات المهندسين وخرائطهم وبنى كل واحد منهم منزلًا حسب رغبته بأي صفة وحيثما شاء، ثم ضربوا عرض الحائط بأدوية الأطباء ومستشفياتهم وعياداتهم وصار كل واحد منهم يأخذ من الصيدليات العقاقير والدواء الذي يريد ويجري العمليات الجراحية لمن يشتكى، بل سنّ كل منهم لنفسه قانونًا خاصًا به، فهذا يُبيح السرقة وذاك يُجرمها وذاك يُجيز قطع الطريق وهذا يمنعه، ليس هذا فقط، بل تحوّل كل واحد منهم إلى مُعلّم له مدرسته الخاص به ومناهجه التعليمية وصار يمنح الشهادات والمؤهلات لمن أراد... وقس على ذلك سائر الحرف والصناعات والمهن. ولنفترض أن الظروف ساقتك إلى هذه المدينة، فما الحكم الذي ستطلقه عليها؟»[1].

التكرار الوظيفي

التكرار لا يقف عند كونه مجرد إعادة اللفظ أو العبارة بنصها في سياق واحد؛ لتقرير حقائق وتأكيدها وجعلها غاية في الدقة فحسب[2]، وإنما التكرار ظاهرة من ظواهر التماسك النصي اهتم به الشيخ القطعاني كأداة صياغة إقناعية لإبراز أوجه التنوع ، والتأكيد على المعنى، كما أنّها حملت موسيقى إيقاعات نغمية منتظمة تهدف إلى استمالة السامع، ومن أمثلة التوطين الرائع في ثنايا مقالاته تكرار كلمة «الطريق» في مقاله «عرفات» إحدى عشرة مرة[3].

والتكرار عنده ليس ظاهرة أسلوبية فحسب، بل تكرار موضوعي لبعض القضايا التي ألحّت عليه، وشغلت فكره، فيجنح أحيانًا إلى تكرار بعض الأفكار مرات عدة في لغة تصويرية تعتمد على صور بيانية جزئية متنوعة، وفي مقدمة الأفكار التي ألحّت عليه وشغلت بؤرة فكره التّصوف شغله الشاغل، فقدّم التّصوف كعلم يُناط به

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 60.
(2) التكرار كأسلوب بلاغي هو إعادة اللفظ أو العبارة بنصها في سياق واحد. يُنظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وآخرون، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1959م، ج2، ص 157.
(3) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 29، 30.

صقل القلب وتهذيب الطبع وتصفية الأخلاق، وتزكية النفس، وهو لُبّ الإخلاص في العبودية، والتطبيق العملي للكتاب والسنة، وهو مقام الإحسان في الإسلام، فنَيْل السعادة الأبدية يتطلب التصوّف الذي هو أصيل في الدين وليس مبتدعًا فيه، ويؤكد على ذلك بقول النبي ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[1]، وهي مجاهدة لا تأتي إلا عبر «علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها»، وهذا ما نقل الحافظ السيوطي عن الإمام أبي حامد الغزالي قوله بأنّه فرض عين[2].

وقد ميّزت مقالات الشيخ القطعاني بين نوعين من الصوفية: أولهما هم أهل الله وخاصته من ذوي الأدب الرفيع والسمو الأخلاقي، منهجهم الإخلاص والصدق ثم المراقبة والمشاهدة، وأنّ هذا الاسم اختص به أهل الورع والزهد والعبادة عندما ظهرت الفرق والشيع والأحزاب في الإسلام، فربط الشيخ بين ظهورهم وما عُرف به مسلمو الطبقة الأولى في القرن الأول الهجري من ورع.

وعلى نقيضهم نوع ثاني: هم دخلاء على التّصوف ليسوا بأهله، ولا من العالمين به، أجسادهم في القرن الخامس عشر الهجري وعقولهم في القرن الخامس عشر الميلادي، فكما حمل المشعوذ اسم الطبيب، والدّجال اسم الصالح، والجاهل اسم العالم حمل من ليسوا من أهل التصوف اسم الصوفية، وقد ربط الشيخ بين ظهورهم وتحوّل قبائل مغولية إلى الإسلام في القرن السادس الهجري.

تصويرية رمزية

تأثرت لغة الشيخ بصوفيته، ونزعته الفلسفية فنزعتْ لغته منزع لغة المتصوفين في عمقها، ورمزيتها الدلالية، فلم تخلُ من إشارية لغة المتصوفين، فلم يقل كلّ

(1) الحجة المؤتاة، مصدر سابق، ص 27.
(2) الأشباه والنظائر، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007م، ص504.

المسكوت عنه بل بعضه، فما الألفاظ إلا أستار ينسجها الإنسان بيديه؛ كي تكشف عن جانب من مكنون ضميره، فترمز أحيانًا وتُشير أحيانًا عندما تعجز عن الإفضاء عن عالم النفس، ورغم نظراته الصوفية والفلسفية العميقة لم يسقط في غموض الفلسفات، ولا إبهام النظريات، وإنما اعتمد على لغة أدبية تصويرية تُحيل المادة الجافة في الفلسفة إلى خبرة محسوسة مشاهدة على صفحات الرواية.

وقد اتسمت لغته السردية بقوة أسلوبية مستمدة من قوة الصور التي وظّفها توظيفًا جيدًا على المستوى الوصفي، فنقل المتلقي من المعنى الحرفي الضيق إلى عالم رَحْب من المعاني المجازية، وذلك باعتماده على لغة بيانية، تحرص على إحكام الصياغة اللغوية، والتأنق اللفظي، وتوظِّف التشبيه والاستعارة بكثرة لافتة -دون تكلف أو تعسف- لتوضيح المعاني وتجسيدها في صورة مادية محسوسة، فالكاتب أكثر من الاستعارة، واخترعها اختراعًا، ومنه قوله: «وسكت المسكينُ وقد قبض اليأس قلبه ونال الإحباط وخيبة الأمل منه كل مأخذ من هول ذكرياته التي تخنقه بيديها القاسيتين، والتي لن تتركه حتى تُرديه قتيلًا، وهو ينظر بعينين حزينتين ذابلتين بهما كل أسى الدنيا وآلامها إلى شاهد القبر الذي رآه منصور يحتضنه أول ما شاهده من بعيد»،[1] وقد نجح الكاتب في استخدام صوره البيانية بطريقة تخدم الأسلوب، ولا تنال من فنيته؛ إذ إن الصورة في مقالاته جمعت بين الفائدة النّصيّة، إلى جانب الروعة البيانية.

وقد انطوت لغته التصويرية على بعض المحسنات البديعية التي تفاوتت بين الرشاقة الفنية أحيانًا، والثقل المجهد لفنية النص أحيانًا أخرى، وبين كونها مفصّلة للمعنى، وكونها عراقيل لفظية تضعف تواصل القارئ مع النص، فمن الأولى السجع والازدواج في قوله: «أقسى دمعتين هما دمعة المظلوم ودمعة المحروم»[2]، ومن

(1) الحب القذر، ص5.

(2) لماذا أبكيتم عصام، مصدر سابق، ص 14.

الثانية السجع في قوله: «العلم لا يعرف الجمود والأسرار، ولا يأبه بالقيود والأسوار، ولا يحترم التقوقع والاحتكار، وكلّ من يعتقد غير ذلك لا يمت للعلم وأهله بصلة وإن حمل كلّ شهادات ومؤهلات العالم»(1).

من جانب آخر، لم تقف رمزية لغة الشيخ القطعاني حائلًا دون توظيفه للوصف، فنجده قد رسم صورة للأماكن بريشة قلمه، فأعاد تشكيل كينونة المكان بما يكشف أغوار النفس الإنسانية، فالمكان عنده يستمد قيمته من تجربة الإنسان نفسه، «كنتاج لفاعلية الخيال، وفاعلية الخيال لا تعنى نقل العالم أو نسخه، وإنما تعنى إعادة التشكيل، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر، والجمع بين العناصر المتضادة، أو المتباعدة في وحدة تصويرية»(2).

فيُعيد الشيخ القطعاني تشكيل ميدان الغزالة بوسط طرابلس، ويُغيّر من كينونته، ويُحوّله إلى مكان مختلف؛ كي نرى الشخصيات والواقع الثقافي من خلال المكان، مستفيدًا من العلاقة التبادلية الكامنة بين الشخصية والمكان حيث يُؤثر كلّ منهما في الآخر، فالمكان يكشف أغوار النفس الإنسانية، بينما يستمد المكان قيمته من خلال تجربة الإنسان فيه، فنرى المكان بنفس الشخصية لا بعينها مضطربًا، متناقضًا، شاحبًا، عليلًا، فيقول: «ميدان الغزالة بوسط طرابلس عند الساعة الثانية ظهرًا، والموظفون والطلاب في طريقهم إلى منازلهم والسيارات المزدحمة بالمئات وأربعة من رجال شرطة المرور يُنظمون حركة السير بلوائح سير صحيحة وقانونية فعلًا، ولكنها من أربع دول مختلفة؛ هذا يُوجب القيادة على شمال الطريق وذلك على يمينها، وهذا يمنع مرور السيارات الصغيرة، وذاك يسمح بها، ترى ما الذي يحدث؟»(3).

كذلك رسم الشيخ القطعاني صورة للأشخاص بريشة قلمه، فقدّمهم من الداخل قبل الخارج فرأينا شيخه الأستاذ مختار السباعي رَحِمَهُ اللهُ يُقدّمه من خلال

(1) المصدر السابق، ص65.
(2) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر العصفور، دار المعارف، القاهرة، ص35.
(3) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 59.

الموقف، فيقول: «شتاء سنة 1980م صحبة شيخي وأستاذي مختار السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاوية المرج العيساوية وهي عتيقة البناء قديمة الإنشاء، والبرد قارص وشيخي ناحل العود ضعيف البنية واهن القوى تثقله عباءته المصراتية السميكة التي يلفها حوله بإحكام، وقد كنت لطول الصحبة لا أحتاج أن يُخبرني حضرته بما يُريد، فأجلسته في المكان الذي يجب إذ يُفضّل عادة الجلوس في زاوية الحجرة، وقرّبت منه ما يحتاجه وطفق رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُحادث من حضر، فرأيت أعلى رأسه الشريف على الجدَّار خلفه حشرة كبيرة نوعًا في طريقها إلى عباءته فمددت يدي لأقتلها، وما كنت أعتقد أن يراها أو يرى ما أنوى فعله.

فقال: لا تفعل.

قلت: خفت أذاها عليك.

فقال: دعها، ففيها من الروح نفحة».

فكشف من خلال هذه اللقطة الوصفية السريعة أغوار نفس شيخه، قبل أن يكشف صورة شيخه من الخارج[1].

التكثيف والتركيز والتنويع

لم تُصب مقالات الشيخ القطعاني بالترهل اللفظي الباعث على الرتابة، فرغم تزاحم الأفكار في ذهنه، وتدافع هموم أمّته في نفسه مُلحّة في الظهور بين الحين والآخر إلا أنّه التزم بلغة سلسة عذبة مكثّفة مركّزة من شأنها ألا تضرّ بإحكام النسيج السردي لبنية مقالاته، بل تُساعد على إحكامها. ويظهر ذلك جليًّا مع «العنوان» أول ما تقع عليه عينُ القارئ، أول عتبات النص التي يخطو عبرها القارئ إلى عالم الكاتب، نجد الشيخ القطعاني تناص مع القرآن الكريم في عدد من عناوينه، مثل: **«يا أبت افعل ما تُؤمر»**[2]، **«يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس»**[3]، **«المصباح في زجاجة»**[4]، **«وأتوا البيوت**

(1) المصدر السابق، ص 54.
(2) المصدر السابق، ص3.
(3) المصدر السابق، ص15.
(4) المصدر السابق، ص81.

من أبوابها»[1]، واستخدم الاستفهامات أحيانًا، مثل «أين أنتم؟»[2]، «أهذا أنت أم قناع ترتديه؟»[3]، «الحضارة جنّة الدنيا ولكن كيف يدخل الجنة من لا يُؤمن بها ولا يعمل لها؟!»[4]، كما لجأ إلى الترميز في العنونة: وهو تكثيف الدلالة في المفردة أو التركيب لتقول الكثير من خلال القليل من المفردات، ومثال ذلك: «مسجد كبير اسمه وطن»[5]، «إنني تحت القناع»[6]، «ذئاب ترتدي الأثواب»[7]، «احذر إنها الأعماق»[8]، «إسلام للبيع»[9]، «الرجل العنكبوت»[10].

من جانب آخر نوّع الشيخ القطعاني بين الأساليب الخبرية والإنشائية على نحو يُثير الذهن ويجذب الانتباه، فجعل القارئ يفكّر معه من خلال السؤال، فكثيرًا ما اعتمد على الأساليب الإنشائية الاستفهامية ليس بغرض إثارة الحيرة والقلق والتخبط، وإنما بغرض البحث والتفكير وإعادة الاكتشاف لبعض الأفكار التي تمّ ترويجها بوصفها مسلمات دينية، والواقع أنها مسلمات زائفة تُحيط بها ضبابية فكرية تعوق حركة صاحبها الفكرية، أسئلة الشيخ من النوع المعلن الصريح فـ «طبيعة الأسئلة تحدد للقراءة آلياتها. ويكون الفارق بين السؤال المُعلن والسؤال المضمر أن آليات القراءة في الحالة الأولى تكون آليات واعية بذاتها، وقادرة على استنبات أسئلة جديدة تقوم بدورها بإعادة صياغة آليات القراءة، وبذلك تكون القراءة منتجة. أما

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) وداعًا أيتها الدموع، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 29.
(3) المصدر السابق، ص35.
(4) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 39.
(5) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 9.
(6) المصدر السابق، ص 60.
(7) المصدر السابق، ص 78.
(8) المصدر السابق، ص42.
(9) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 36.
(10) المصدر السابق، ص53.

آليات القراءة في حالة السؤال المضمر فتكون آليات مضمرة بدورها، تتظاهر غالبا بمظهر (الموضوعية) لإخفاء طابعها الأيديولوجي النفعي، وتقع من ثَمّ في أسر ضيق النظرة والتحيّز غير المشروع، وأحيانًا ما تتعقد القراءة فتطرح بعض الأسئلة وتضمر بعض الأسئلة، وعلى ذلك تزدوج آلياتها وتتناقض، فتكون قراءة منتجة على المستوى الجزئي، ومتحيّزة أيديولوجيًّا على المستوى الكلي العام»[1].

ومن أمثلة تلك الأسئلة المعلنة في مقالاته، التي لا تخلو من تأملات الصوفية، قوله: «ما هو الكون؟!

إنه جمال كله، إنه بحر هادر بلجته وبياض أمواجه وسماء زرقاء بسحبها بيضاء وسوداء وصحراء صفراء متموجة وشجر أخضر مورق وسهول عشبية خصبة ووديان ووهاد وربوع ونجوم وشمس وبدر وهلال وماء وحيوان وطائر وجماد إلى آخر ما أبدع الله سبحانه في ملكه إن جاز إحصاؤه وعده، وكله جميل بديع أخّاذ يسلب العقول الناظرة ويُبهر القلوب المتأملة فمن أين جاء أولئك بأن المظهر القبيح المتنافي مع أبسط قواعد التأنق والتجمل من الدين في شيء والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إن الله جميل يُحب الجمال**» رواه مسلم، بل إنني أوجه للذي يقول بذلك سؤالًا قرآنيًّا مفاده: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾»[2].

وقد تتوالى الاستفهامات في مقاله تعبيرًا عن حيرة المتسائل وتجلية لشخصيته المتطلعة إلى المعرفة، فرأينا عشرات الأسئلة في مقاله «لا يُفتى ومالك في المدينة»[3].

(1) إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 1996م، ص 6.
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص 5.
(3) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 60.

التضمين

أخيرًا، **التضمين**[1] «**التّناص**»[2] نجده الشيخ القطعاني أخذ وتداخل، وتأثر، واستلهم، وضمّن، واقتبس، وتناص - كل تلك المترادفات وغيرها.. - من ثقافات متنوعة، تبلورت في الثقافة الإسلامية المتمثلة في مصدريها الكتاب والسنة، فهما يُشكّلان المورد الأساسي لكتابات علماء الإسلام الأساسي الذي يستمدون منه صورهم، وينمّون أذواقهم، ويصقلون إحساسهم الجمالي ويرتقون به فيبدعون أجمل الأعمال الأدبية. وقد وظّف الشيخ القطعاني الآية، والحديث، والأثر في مقالاته على نحو واسع بما يجلِّي المعنى، ويقوى الفكرة، فيكثر في مقالاته الاستشهاد بالآية القرآنية، وعناوين بعض مقالاته هي آيات قرآنية، مثل: «**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**»، «**إلا كافة للناس**»، «**يا أبت افعل ما تُؤمر**»، «**يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس**»[3]، بل اشتمل المقال الواحد على العديد من الآيات بغية تأكيد مقاله بجملة من النصوص المقتبسة من القرآن، مثل مقاله «لمن نزل الفداء؟»[4]، كما أظهرت اقتباساته أثر تنوع الثقافات في تكوينه الفكري، منه قوله: «عندما فرض ماوتسي تونغ على الصينيين لباسًا موحدًا وفرضه على شعبه بالحديد والنار وروج له بكل وسائل الدعاية أذعن

(1) التضمين: اقتباس جزئي، أو كلي لعبارة ما، شعرًا أو قولًا مأثورًا، أو آية كريمة، أو حديثًا شريفًا يُوظفها الكاتب لغرضه على أن يبقى القول المقتبس معروفًا. يُنظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الحسن بن رشيق القيرواني، دار إحياء التراث، بيروت، ط3، 1999م، ج2، ص 84: 89.

(2) تداخل النصوص ببعضها عند الكاتب، والشاعر بخاصة طلبًا لتقوية الأثر، أو توسعًا في القول بالإحالة على نصوص أخرى. يُنظر: أدونيس منتحلًا، دراسة في الاستحواذ الأدبي وارتجالية الترجمة يسبقها ما هو التناص؟، كاظم جهاد، مكتبة مدبولي، 1993م. فالتناص يتضمن العلاقات بين نص ما، ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة، سواء بوساطة أو بغير وساطة». النص والخطاب والإجراء، روبرت دى بوجواند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998م، ص 104.

(3) يُنظر: إسلام للبيع، ص 3، 9، 15، 81.

(4) المصدر السابق، ص74.

الصينيون طوال فترة حكمه، وصاروا نسخة مكرره من بعضهم البعض، ولكن أين هي ثياب (ماو) التي التزم بها شعبه طوال فترة حكمه اليوم، إنها في المتاحف وترويها قصص التاريخ وعاد الصينيون إلى طبيعة خلق الله يرتدون ما يرغبون»[1].

من جانب آخر ظهرت الشواهد الشعرية بغزارة في مقالات الشيخ القطعاني، وهذه سمة تقليدية لدى الكتّاب ذوي الثقافة المتأصلة في التراث العربي الرصين، الذي يبلغ حفظ الشعر، وتمثل معانيه في عقولهم ووجدانهم حدًّا بعيدًا، وزاد على ذلك أننا أمام كاتب متصوّف ربطته علاقة روحية وثيقة بتراث متصوفة ليبيا، فكثيرًا ما استدعى أبياتهم الشعرية، ومنها قول الشيخ عبد السلام الباز:

يا حادي الركبان ... متى وصلت البان
أرح هناك العيس ... يا سيدي وبشر الخلان
لأجلكم سرنا ... شوقًا وقد طرنا
وفي الهوى حرنا ... يا سيدي وذو الهوى حيران
أرواحنا راحت ... شوقًا وقد ناحت
وباللقا ارتاحت ... يا سيدي وغابت الأشجان
لكم سلام الله ... يُهدى بروح الله
ما أقلق الأواه ... يا سيدي تباعد الخلّان[2].

(1) الحب القذر، ص٤.
(2) وداعًا أيتها الدموع، ص٧٥.

الأداء الفني في السرد القصصي القصير للعلامة أحمد القطعاني دراسة في المجموعة القصصية «وداعًا أيتها الدموع»

د. محمد نفاد

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - المغرب

مقدمة

القصة القصيرة هي: نوع من الأدب الذي يتضمن قصة خيالية أو واقعية قصيرة، تحكي عن حدث أو تجرِبة معينة بشكل محدود ومنتهٍ، وتستخدم أحيانًا لتسليط الضوء على نوع معين من المشاعر والأفكار، أو لإيصال رسالة محددة.

وتتميز القصة القصيرة بأنها تتطلب من الكاتب إيصال الأحداث والشخصيات والتطورات بشكل سريع وفعال؛ وذلك لأنه ليس هناك مساحة كافية للتعمق في التفاصيل. كما تتميز بالتركيز على الفكرة الرئيسة والملامح الرئيسة للشخصيات، وتعتمد على التحليل النفسي والعاطفي للشخصيات بشكل أكبر من الوصف الجسدي أو الخلفية التاريخية.

ونفترض في المجموعة القصصية «وداعًا أيتها الدموع» للعلَّامة أحمد القطعاني أن تعكس القصة القصيرة المجتمع عن طريق عرض الأحداث والشخصيات التي تعبر عن الثقافة والتقاليد والقيم الخاصة بالمجتمع، وأن يُقدِّم الكتاب المنظومة المجتمعية بأداء إبداعي يجعل القرَّاء ليسوا مجرد مستهلكين، وإنما مشاركون في البناء والكتابة. وسنعمل في هذه الدراسة التي تتناول المجموعة القصصية القصيرة على استجلاء بعض المظاهر الفنية، والمقومات الجمالية التي تميَّز به السرد.

وقد تسعفنا الدراسة السيميائية للعتبات في الوقوف على جزء من الجماليات السردية في النصوص المدروسة، كما أن البناء ينطوي على مكامن زاخرة بالتشكيل الفني عند الكاتب؛ لذا سنحاول استبصار الطريقة التي عبَّر بها عن رؤيته السردية، وربط ذلك بالموضوعات التي عكست المجتمع الليبي وثقافته وأخلاقه، وكذلك ربطها ببعض الاختلالات التي تعتري المجتمع في محاولة لإثارة الانتباه بمقصدية إصلاحية.

أولًا- مورفولوجية العتبات

نشتغل في هذا المحور على توزيع العلامات المضمنة في الغلاف، وتصنيفها في أنساق دالة، لعلها تفصح عن فرضيات صالحة أن تكون منطلق قراءة وتأويل المجموعة القصصية، وتساعد على تفكيك المتن السردي. ومن أنساق العتبات البارزة للرؤية البصرية في الغلاف:

1 نسق العنوان.

عنوان المجموعة القصصية «وداعًا أيتها الدموع» جملة فعلية كبرى مضمنة جملة فعلية قيدت المعنى والدلالة، فالأولى مكونة من أحادية لفظية (وداعًا)، وهو مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره (ودعت وداعًا)، والثانية قيد ذيل الجملة

الكبرى، وهي عبارة عن جملة إنشائية طلبية/ النداء، وتركبت من منادى (أية) الذي ينزل منزلة المنادى النكرة المقصودة، و (ها) التنبيه، والدموع بدل من (أية).

وقد توحي عبارة العنوان بإنهاء الأحزان والأتراح، ودخول مرحلة بديلة عن المنغصات، إلا أن النظر في الأنساق الأخرى في الغلاف تلوح بغير ذلك، بل قد تدل على وصول المكروه ذروته، والمعاناة سنامها، إلى درجة جفت الدموع، وتجمد الإحساس؛ فنسق العنوان لا يقدم فرضية واضحة دقيقة إلا بالتساند مع أنساق أخرى توجه المعنى.

2 نسق اللوحة.

لوحة الكتاب تندرج ضمن الفن التشكيلي، أبدعها فنان مدينة درنة التشكيلي الكبير الأستاذ «جمعه طاهر الشاعري». وقد استغرقت اللوحة واجهة الكتاب كلها، ومحورها أيقونتان تحاكيان الواقع؛ إذ يظهر وسط اللوحة طفلة في مقتبل ريعانها تحمل على ظهرها طفلًا غالب الظن أنه أخاها نظرًا لشبه الملامح بينهما، ومن خلال نظرة الفتاة المنكسرة، وإطراق الطفل رأسه، والأقدام الحافية، وكسرة الخبز... يبدو أن اللوحة تحاكي شيئًا واقعيًّا، وأنها تتصدر سردًا ينهل من الواقعية، ويؤكد هذه الفرضية نوعُ اللقطة متوسطة القرب من ذَاتَيْ الطفلة والطفل، وزاويةُ الرؤية من الأمام وفي نفس مستوى المشهد المُلْتَقَطِ، مما جعل الطفولة المنكسر تحتل حيزًا كبيرًا من فضاء اللوحة، فالصورة «لوحة تشكيلية ثمثِّل نصًّا بصريًّا ذا طبيعة أيقونية، ما دام يحيل على موضوعات قابلة لأن يتعرف عليها»[1]

وبناءً عليه، فإن اللوحة التشكيلية للفنان «جمعة طاهر الشاعري» من شأنها صياغة فرضية تساعد على توقع جزء من قضايا المجموعة القصصية.

(1) أحمد فرشوخ، تأويل النص الروائي السرد بين الثقافة والنسق، منشورات **Top Edition**، الطبعة 1، عام 2006م، ص 186.

3 نسق الألوان.

تهيمن على الصورة ألوانٌ قاتمة كالأسود والبني والأزرق... وهي في اللوحة متداخلة مع بعضها، وقد ساهمت الخلفية الناصعة -في جزء منها- في إبراز قتامة الألوان التي لف بها ملامح الأيقونات البشرية وأطمارهما، أما الإضاءة فهي مسلطة من فوق؛ فأنتجت ظلًّا أسود عمَّق الإحساس بالحزن والكآبة، وانسجم مع لفظة «الدموع» في العنوان.

4 نسق اللفظ.

أسس الغلاف مجموعة من الملفوظات اللغوية أبرزها العنوان الذي كُتب بخط أسود بارز أعلى الواجهة يسارًا لإثارة انتباه القارئ، وتكون أول إشارات التلقي البصري. وقد اختار المؤلف الصياغة الاستعارية بطاقتها الإيحائية وما لها من تبعات في التلقي، واستغراق المسافة الجمالية، فالملفوظ العنواني بهذا الشكل البصري واللفظي اختزل كثافة شعرية قوية، تتطلب من القارئ كفاية تفكيكية وتأويلية خاصة[1]. وعمد الكاتب إلى تجنيس نوع عمله الأدبي بعبارة (قصصٌ قصيرة)، والعبارة تصنيف للعمل وكشف للقارئ، وقد أردف التجنيس اسم الكاتب ودرجته العلمية (تأليف العلَّامة أحمد القطعاني)، وكلمة «العلَّامة» صفة مبالغة على وزن «فعَّالة» دالة على التبحر العلمي والموسوعية المعرفية.

كما دل نسق اللفظ في واجهة الكتاب على الناشر (دار بشرى وكلثوم)، أي أن العمل الأدبي صادر عن مؤسسة ثقافية لها لجانها في المراجعة والتدقيق والتحكيم، وهو ما يعطي مصداقية للعمل، ويشجع على تقبله من القراء والإقبال عليه. وساهم في تشكيل الخطاب اللغوي في الغلاف الإشارةُ إلى ترتيب الطبعة وتاريخها (الطبعة الأولى 1439هـ-2018-م)، فمثل هذه الإشارة تُحقِّب الإنتاج وتُؤرخه ضمن الأدب

(1) رشيد بنحدو، جمالية البين-بين في الرواية العربية، منشورات نادي الكتاب بالمغرب، مطبعة الكتاب، فاس، 2011م، ص 53.

العربي الليبي المعاصر ما بعد الربيع العربي. وحفاظًا على الملكية الفكرية، وصيانتها من أي سرقة أو استغلال خارج القواعد القانونية المعمول بها في مجال صناعة الكتابة والكتاب فقد رسمت دار النشر أسفل الواجهة عبارة (جميع الحقوق محفوظة).

وهكذا توزع نسق اللفظ/ العبارة في الغلاف الخارجي للكتاب بين العنونة والتجنيس ونسبة العمل إلى صاحبه والتنصيص على درجته العلمية، وكذا جهة النشر وتاريخ الطبع والحفاظ على الحقوق.

ثانيًا- ثيمات السرد، أنين مجتمع.

1 المرأة.

تكشف مجموعة القصص القصيرة «وداعًا أيتها الدموع» للكاتب «أحمد القطعاني» درجة امتلاك المبدع الرؤية السردية التي قاربت قضايا مجتمعية: كالطفولة، الفقر، الاستغلال، المرأة... وهذا الاختيار رؤية قصصية حداثية في الطرح والمعالجة، قياسًا إلى تفاعلية الأدب السردي القصصي القصير مع أنين الواقع وأفراحه وتطلعاته. غير أن تيمة المرأة وما يرتبط بها من قضايا وموضوعات شكلت العلامة البارزة في المجموعة القصصية القصيرة، فالكاتب حاول الإلمام بمستويات القهر والمعاناة المسلطة على رقبة المرأة الليبية، ومن خلالها المجتمعات العربية ذات الثقافة المشتركة، ورصد العَنَت النفسي والجسدي.

إن اختيار تيمة المرأة ومعاناتها مادةٌ سردية، ووعيٌ عميقٌ بمجموعة المسببات التي رمت المرأة إلى براثين الرعونة القهرية المسكوت عنها في المجتمعات التي قننت العنف ضد المرأة/ الفتاة، وشرَّعت له ما يبرره.

والمرأة/ الفتاة في المجموعة القصصية تتمظهر بعدة تجليات قهرية، حاولت المتون السردية النبش في مسبباتها وعوامل صناعتها، فطرحت المجموعة قضية «الانقطاع عن الدراسة»، وهي في الأصل نتيجة ظرف أو ظروف، لكنها في الوقت

ذاته أصلُ تبعات؛ فشخصية ربيعة في قصة «وداعًا أيتها الدموع» نموذج فتاة كأترابها اللواتي لحقتهن لعنة الخروج من حجرات الدراسة، يقول السارد: «وكبرت ربيعة وتوقفت عن الدراسة ككثيرات من بنات ذلك الجيل...»[1].

والطفلة «أمال» امرأة المستقبل وإن اختلفت مع «ربيعة» في السبب فالنتيجة واحدة، جاء في قصة «وحيدة في حقول الشوك» توصيف لبعض عوامل المغادرة «... ولأنها لم تجد وقتًا لتفتح كتابًا في المنزل أو تراجع درسًا، وتنقصها الكراسات في أحيان كثيرة والشنطة والثياب اللائقة، ولانشغال ولي الأمر عنها فقد أصبحت هدفًا دائمًا لنقمة المعلمة وعصاها الصلبة على كفيها الصغيرتين، توجعانها ضربًا بين الفينة والأخرى، وتوبخها بأقسى الألفاظ أمام زميلاتها الصغيرات، فقد تعثرت في دراستها ثم تركتها إلى غير رجعة وهي في الصف الرابع للتفرغ للطبخ والكنس...»[2].

هذه نماذج من المسببات للتسرب المدرسي لامرأة الغد، والحكم عليها بمظهر آخر من صور القهر؛ التفرغ لأعباء البيت. وفي تَسْرِيدِ الكاتب حياة الطفلة «آمال»:

«تعثرت في دراستها ثم تركتها إلى غير رجعة وهي في الصف الرابع للتفرغ للطبخ والكنس دوامًا كاملًا، ولتجلس على الأرض كل يوم بعد وجبة الغذاء لساعتين متصلتين على الأقل لتغسل الأواني، ثم لترعى الأطفال إن خرجت أمهم بعد العصر لنزهة أو زيارة جارة، وتعد وجبة العشاء وهي فرحة؛ لأنها ستتفرغ لمشاهدة التلفاز...»[3].

إن فعل الانقطاع عن الدراسة وَصَفِّ التحصيل عند الفتاة/ امرأة الغد مؤداه إلى جحيم البيت بتفاصيل الكنس والطبخ، والعيش على أمل «الطارق الأول»، فارس الحلم، الذي طالما حددت مواصفاته بدقة في أحلامها؛ فهو جميل المظهر،

---

(1) أحمد القطعاني، وداعًا أيتها الدموع (قصص قصيرة)، دار بشرى وكلثوم، الطبعة الأولى، 1439هـ – 2018م، ص 4.

(2) وداعًا أيتها الدموع (قصص قصيرة)، ص8.

(3) وداعًا أيتها الدموع، ص 8.

يمتلك سيارة من ماركة معينة تشبه لون السماء، أنيق... لكن كل ذلك تخلت عنه مع دروس الحياة لتتزوج أول طارق لباب الدار، أخذها إلى بيته ثم أرجعها إلى بيت أبيها بلقب «مطلقة» الذي صبغ كل حياتها بالسواد[1]. وهو نفس المصير الذي لاقته الشابة الموظفة في القصة القصيرة «دماء الخطيئة» مع شاب متمرن في التغرير بالفتيات، ثم بعدها:

«عقد عليها مرغمًا؛ خوف التبعات والسجن ولكنه طلقها بعد شهر واحد من إنجابها لطفلة جميلة أسمتها (مستورة)...»[2].

إن صورة المرأة المطلقة في المجتمع الليبي واكبته الصورة السردية الوصفية بأبلغ التشبيه والبيان. يقول الكاتب: «وأدركت على الفور أنه صار يكرهها ويكره اليوم الذي ولدت فيه، ويتمنى موتها اليوم قبل الغد... كرهتها شقيقاتها وحملنها مسؤولية إعراض الخُطَّاب عنهن، تجنبتها الفتيات بأمر أهلهن خوفًا عليهن من فسادها وسمعتها، وصار لحمها وعرضها موضوع حديثهن المفضل... كما أصبحت ضيفًا غير مرغوب فيه في المناسبات الاجتماعية السارة، فهي كالشاة الجرباء لا يحادثها أو يجلس بجانبها أحد رغم ما تحاول أن تجذب به الآخرين...»[3]. إن التجليات السالفة الذكر تعكس الصورة القاتمة تجاه المرأة، وتزداد قتامة بالمصير المأساوي؛ فالمرأة ربيعة ساء حالها واختل عقلها وتحولت تلك الزاهرة الناعمة إلى ذبول وحطام إنسان صار عبئًا على أسرتها، فألقوا بها في مستشفى الأمراض النفسية... وفي أحد الأيام لفظت أنفاسها وحيدة.

أما المرأة أمال ضحية عائلة تخلت عنها، وزوج لم يحسن القوامة تجاهها، فقد أصبحت عجوزًا فوق السبعين، رغم أنها لم تتجاوز الأربعين عامًا من عمرها إلا

(1) ينظر: وداعًا أيتها الدموع، 4.
(2) وداعًا أيتها الدموع، ص 45.
(3) وداعًا أيتها الدموع، ص 45-46.

بقليل، تجوب القرية حافية وبنظرات خاوية، تحرص على حقن الأنسولين وحبوب وأدوية عديدة من كيس لا يفارقها.

هذه عيّنة من الأنثى التي حُكم عليها بمغادرة صفوف الدراسة، وهو ما يعني الانقطاع عن العلم والمعرفة وتمرين الفكر وترويضه... وهو انقطاع عن مصاحبة الأتراب ومخالطة الأقران، حكم بالرباط في البيت للشقاء وانتظار الطارق المخلص.

2 الطفولة.

إن الطفل في هذه المجموعة القصصية يحس بألم الانفصال؛ لشعوره بقسوة الحاضر الذي يسومه استغلالًا ثم تهميشًا، ولعل أعقد أنواع العنف الذي يمكن أن يمارس على الطفل هو عنف أقرب الأقارب، فهو الضِّعف والأضعاف، وأظن أن هذه العبارة تختزل الحكم والنتيجة والأسباب، وتفسر الحالة المرضية لممارسة العنف، يقول الكاتب: «أهو أب فعلًا أم شيطان تجسد في صورة بشر؟! أيمتلك في جوفه العفن النتن أعضاء كباقي مخلوقات الله، أو قُدَّ قلبه من حجر وكبده من صوان وعواطفه من نار الجحيم؟!»[1].

هذه العبارة اجتزأناها من القصة القصيرة «إنهم يقتلون الآمال»، لطفل عبارة عن شمعة ذابلة نظرًا للحمل الذي ألزمه به والده، وهو جلب المال من السوق، يقصد السوق باكرًا ليحمل للباعة بضائعهم بأياديه الصغيرة على ظهره الغض، ثم ينتظر ارتفاع الشمس ليحمل للمشترين أغراضهم إلى سياراتهم أو منازلهم القريبة.

وقد أحسن الكاتب تعبيرًا حينما وظف أسلوب الاستفهام الإنكاري، فأخرج السؤال من دلالته الحرفية الحقيقية إلى القوة الإنجازية/ المجازية، دلالة على حجم اللامعقول وشدة الاستغراب من واقع مرير. و«لعل من أخصب الأنساق اللغوية نسق السؤال، فهو نسق تركيبي يخضع لبنيات لسانية وأبعاد تداولية خاصة، إنه نسق فلسفي

(1) وداعًا أيتها الدموع، ص 14.

وجودي أيضًا، مرتبط بالذات الجماعية في حركتها... وهنا تكون فلسفة التواصل إحدى تجليات فلسفة السؤال»[1].

ويكمن الإحساس بالغصة لما يرصد السرد «الانفصال عن الأصل المكاني»، وهذا الإحساس يتولد حينما تُزيح الظروفُ الإنسانَ إجبارًا وقهرًا عن المكان الذي يُفترض أن يكون فيه بلغة العقل، وقواعد المنطق، ورؤية الحكمة، وتضعه في إبدالات قَعرِية تعكس زِحاف بنية التفكير التي قادت إلى «اللامعقول» «ويجب أن نعلم جيدًا أن الإحصائية الدولية المعلنة لعدد الأطفال العرب العاملين في الوطن العربي والتي حددت عددهم بعشرة ملايين طفل تتراوح أعمارهم ما بين 14 – 16 عامًا (6 مليون من هم ذكور، و4مليون إناث) هي وصمة عار في جبين العرب جميعًا لن يغفرها لهم التاريخ...»[2].

إن المجموعة القصصية قدمت صورة مخالفة للطفولة التي عادة ما ارتبطت في الخيال الجمعي بالدلال واللعب ووردانية المستقبل، فالقاص «أحمد القطعاني» كسر أفق انتظار القارئ بتقنية سردية اعتمدت «التخييب»؛ لأن القصة نقبت عن الألم والمعاناة في موطن المرح والفرح. وكسر أفق الانتظار ينتقد الكاتب المجتمع الليبي، ومعه المجتمعات التي تستهوي انقطاع الأطفال عن الدراسة، أو استغلالهم في العمل المبكر بما لا يناسب عمرهم ولا قدراتهم البدنية واستعداداتهم النفسية.

إن السارد في نقده المجتمع اعتمد على آليتي: «الهدم والبناء»؛ هدْم التصورات المشروخة، وبناء العقل الذي هو جوهر تمرير الممارسة والسلوك المجتمعي. ومن ذلك هدم المقولة الموصوفة في المتن السردي بالحمق والغباء «أما تلك المقولة الغبية الحمقاء التي يرددها البعض بكل بلاهة وتسليم وقبول بقولهم: دعه يعمل ليتعود على

(1) أمجد مجدوب رشيد، السرد ومرايا الذاكرة، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، مطبعة وراقة بلال، فاس-المغرب، ص 47.
(2) وداعًا أيتها الدموع، ص 17

تحمل المسؤولية من صغره ويكون رجلًا. فأغلب ظني أنها مأخوذة عن فم إبليس نفسه لعنه الله، فأي مسؤولية هذه التي نلقي بها على كاهل طفل صغير لا يعرف حتى للفظها معنى؟!»[1] .

فالوصف الذي أحاطه الكاتب بهذه المقولة كفيل بجرحها وتثبيت معانيها، فمن جملة ما نعت به الكاتب هذا الذي يردده الناس (تلك المقولة الغبية –الحمقاء– يرددها البعض بكل بلاهة وتسليم –قبول بقولهم– فأغلب ظني أنها مأخوذة عن فم إبليس لعنه الله...).

وفي مقابل الهدم عمد إلى البناء المستنبط من الأصول التشريعية والقانونية، يقول: «وإن أردنا الطفل أن يكون رجلًا فطريقنا الوحيد إلى ذلك هو تفريغه للدراسة وتشجيعه على تكوين صداقات مع أقرانه..»[2]. وبين ثنائية الهدم والبناء اعتمد السارد على مجموعة من الدلائل والحجج: وهي حجج إحصائية، وقواعد قانونية، وأحداث تاريخية...

وهذه الإحصاءات والأرقام والتواريخ... التي استشهد بها الكاتب في السرد أخرجت النص من متعته الأدبية، وانزاحت به عن لذة الإبداع الأدبي، وبوّأت النص مكانة الخطابة والحجاج؛ لأن متعة القصة القصيرة تكمن في «الإضمار والحذف والتكثيف... وهي مقومات تيسِّر نقل الحدث إلى الذروة بالسرعة المطلوبة وتحقق العصف غير المتوقع لانتظار المتلقي، مع ما يخلفه الأثر من دهشة وإثارة أو غرابة»[3]، وأظن أن الإطناب في الحجج التاريخية والمقولات القانونية... يخلُّ بالتكثيف الذي هو أهم مقومات القصة القصيرة، وينفر من الاستطراد والشرح والتفصيل، لكن الذي

(1) وداعًا أيتها الدموع، ص 16

(2) وداعًا أيتها الدموع، ص 16.

(3) حميد ركاطة، جماليات القصة القصيرة جدًا، ج 2، وزارة الثقافة والاتصال قطاع الثقافة، 2019م، ص 54.

يشفع في هذا الاستطراد أن السارد لا ينقل الواقع فحسب، بل يعيد إنتاجه بحوافز تأملية.

غير أن هذه المنظومة الحجاجية في ثنايا النص مَقارعُ توقظ العقل من غفلة صناعة الضياع، وذبول شموع في عمر الزهور، كالقصة القصيرة «دموع لا تجف» الموثقة بالبنية الزمكانية لوقوع أحداثها «درنة 1988م» معلمة متبصرة لاحظت على وجه أحد تلاميذها في أوائل المرحلة الابتدائية كآبة وعزوفًا عن اللعب مع أقرانه، فلما اقتربت منه اكتشفت «أن زوجة أبيه وأباه أيضًا دائما الضرب والتوبيخ له بسبب تبوله في الفراش ثم إن زوجة أبيه - ويا ويل الطفل من زوجة الأب إن لم تخش الله - لجأت معه إلى طريقة أخرى لإيقافه عن ذلك؛ فكانت تحمي ملعقة في النار حتى تصير جمرة ملتهبة حمراء، وينزع أبوه عن الطفل ثوبه ويمسكه بقوة، ويفرج بين رجليه وتكويه هي بين أفخاذه...»[1].

3 صورة الفقد والفجيعة.

إن المجموعة القصصية «وداعًا أيتها الدموع» المواكبة لقضايا المجتمع الليبي تنحرف أحيانًا إلى ما هو فردي شخصي، تحاول أن تلم بشعور السارد وتعبر عن انكساراته. لما لا؟ والأدب والفن تعبير عن هموم الذات، وعواطفها، وتصوراتها، وسنلاحظ أن التجارب الذاتية في المجموعة القصصية تلونت بصبغة المعاناة، منها معاناة فاجعة الفقد، ويمكن أن نستشف جزئيات الصورة السردية من قصة: «حبيبتي»:

ففي القصة القصيرة الأولى تظهر الذات منكسرة من فقد/ موت حبة فؤاده «ابنته» وهي في زهرة الطفولة تتابع دراستها في الطور الإعدادي، مما خلَّف في نفسه علقمًا، يقول الكاتب: «نسيتي أن تخبريني يا (حبة الفؤاد) قبل رحيلك المرِّ كالحنظل عن المكان الذي تخفين فيه معاملك الخاصة لتكرير المياه؛ لأن الماء صار بعد رحيلك مرًّا لا يشرب، وكذلك وصفاتك السرية لصنع الطعام؛ لأنه لا شيء صار

(1) وداعًا أيتها الدموع، ص 22.

بعدك يؤكل، وفي النوم تحاصرني ذكرياتك فلا يلم بي إلا قليل بعد مشقة ليغادرني على وجل...»[1]. إن الموت بهذه المعاني ليس مأتمًا، ونحيبًا، وخيمة عزاء، بل أعمق من ذلك، هو كمد يحمله الفاقد بين ضلعيه، يُفقده الطَّعم والمشتهى، ويسدل على الفؤاد أسدال الحزن والمعاناة. فالقاصُّ انخرط في واقعه الوجودي، بتأثير من جهة أنه إنسان له كيانه الشعوري، وبذلك «كان الموت وهاجسه أهم المواضيع الوجودية التي ركز عليها وأولى لها اهتمامًا خاصًّا؛ رغبة منه في التعبير عن توتره تجاه الموت، وبغية التخلص من هذا التوتر والقلق الذي يشغل تفكيره والتخفيف من حدته، وتبليغ رسالة للقراء بتقبله»[2].

ثالثًا: الأداء الفني.

1 النموذج العاملي.

النموذج العاملي: إجراء سيميائي لتحليل الحكي، والعامل هو الذي يمتلك القدرة على الفعل والتأثير، وبالتالي هو قوة فاعلة تتجاوز الشخصية التي قد تحتكر منجز الفعل، ومنه قد يكون العامل شخصًا، أو مؤسسة، أو وسيلة، أو فكرة، أو كل ما يمكنه المساهمة في تنامي الأحداث. ويتشكل هذا النموذج من ستة مكونات، هي: المرسل والمرسل إليه، الذات والموضوع، المساعد والمعارض. وبين كل عاملين علاقة، وهي بالترتيب: علاقة الرغبة، علاقة التواصل، علاقة الصراع.

والسارد أحمد القطعاني في مجموعته القصصية اعتمد على تطبيق النموذج في بناء محكياته؛ لأنه رأى فيها متسعًا لتوليد أكبر عدد من الإمكانات السردية داخل القصة الواحدة. ففي قصة «دماء الخطيئة»[3] إذا اعتبرنا الشاب الموظف هو «الذات»،

---

(1) وداعًا أيتها الدموع، ص 25 – 26.
(2) نعيمة بن عروسة و أسماء خديم، سؤال الموت وقلق الوجود، مجلة الحوار الثقافي، العدد 10، يونيو 2021م، ص 6.
(3) وداعًا أيتها الدموع، ص 42 – 47.

فإن الموضوع المراد تحقيقه هو التغرير بالفتاة، والعلاقة بين العاملين علاقة «رغبة». والمرسل في هذه الحالة هو النزوة والشهوة وهو ما شجعه على الحيل للإيقاع بالشابة (مرسل إليه)، وبين العاملين علاقة تواصل. وقد ساعده في مكره امتلاكه ناصية الكلام الذي راكمه من تجربته في تعامله مع الفتيات وربطهن بشِراك كذبه، وعارضه في هذه المغامرة الشرطة وخوفه من التبعات القانونية، وهنا يظهر الصراع بين المساعد والمعارض.

يتضح لنا في البناء القصصي أداء فنيا قائما على تماسك علائقي، ولد مجموعة من الأدوار العاملية وفق تسلسل منطقي يتولى إنجاز الفعل أو الخضوع له. «فبنية العلاقات القائمة بين العوامل، ووفقًا لجريماس فإن دلالة السرد تدرك ككل من خلال هذه البنية»[1] وقد تمكن السارد من تجاوز الأداء التقليدي المتمحور حول الشخصية إلى دلالات الفعل والإنجاز والخضوع، وما ينتجه من علاقات التواصل والرغبة والصراع...

2 الخطاطة السردية.

إن الدراسة النقدية للمجموعة القصصية «وداعًا أيتها الدموع» تكشف الانسجام المقطعي، والتعالق بين الأحداث، فالسارد «أحمد القطعاني» لا ينتقل اعتباطًا بين مفاصل الحكي القصصي، وإنما يُخضعه لتسلسل منطقي وفق خطاطة سردية مُحبكة.

ويمكن استشفاف ذلك من خلال قصة «بنغازي 1981م»[2]، وهي ضمن مجموعة قصص قصيرة عنونها الكاتب بـ «دموع لا تجف»، فالقصة تبدأ باستهلال/ بداية (...انتظرت قليلًا لتفتح لي الباب طفلة في الثانية عشرة من عمرها ذابلة مصفرة، نحيفة القوام شَعْثَاء الشعر....)، ثم يذكر حدث التحول (وسألت عنها، فقيل لي:

---

(1) جيرارلد برنس، ترجمة عابد خزندار، المصطلح السردي، صدر عن جامعة نابراسكا بريس، الطبعة 1، 2003م، ص 18.

(2) وداعًا أيتها الدموع، ص 21.

إن والدها توفي وارتحلت أمها المصرية إلى موطنها لتعيش مع أهلها...)، وإذا كان هذا التحول عقدة في حد ذاته فإن السارد عمق العقدة وزاد أزمتها بمقاطع سردية منسجة الدلالة، ومتسلسلة في التقطيع الزمني (... وضمها عمها إلى أسرته طمعًا في معاشها)، والقاص «أحمد القطعاني» كعادته يختار النهايات المغلقة، ولا يترك للقارئ تأويل الخواتم أو تخمينها، فقد رسم النهاية تتميمًا لخطاطته السردية المحبكة (ثم أجبرها هذا الظلوم الغشوم على ترك المدرسة، وتحولت شيئًا فشيئًا إلى خادمة في المنزل، تلبس رث الثياب وتكنس وتغسل...).

إن الأداء الفني في المجموعة القصصية اتبع خطاطة سردية مدروسة، مكّن من الانتقال بالذات والشخوص داخل المتن المحكي من حال إلى حال أخرى، كما أنه مكّن من تداول القضايا والرؤى بين نقطتي البداية والنهاية، كما أسعفت التقنية السردية عند الكاتب من استدراج القارئ بين المقاطع السردية بما لا يخلق رتابة في العرض أو مللا في التلقي.

3 الوظائف التوثيقية.

أشرنا في مستهل هذه الدراسة إلى أن السرد عند الكاتب «أحمد القطعاني» يتميز بالواقعية، ويواكب المجتمع في قضاياه، من هنا انبثقت الوظيفة التوثيقية داخل ثنايا القص، وهي الوظيفة التي يتم بموجبها توثيق سمات، أو أعراف، أو خطاب الشخصيات...[1] وقد حفلت المجموعة القصصية بتجليات توثيقية، نذكر منها تحديد البنية الزمكانية لبعض القصص القصيرة بدقة (بنغازي 1970م - بنغازي 1981م - درنة 1988م - دسوق - مصر 1991م...)، كما وثقت المجموعة القصصية لبعض صلحاء البلد والوطنيين الذين عرفوا بمواقفهم تجاه الاستعمار «ياااه هذا قبر سيدي عبد الجليل الفزاني، رجل مبارك من أولياء الله الصالحين، قدم إلى مدينة درنة قادمًا

(1) يُنظر: جيرارلد برنس، ترجمة عابد خزندار، المصطلح السردي، صدر عن جامعة نابراسكا بريس، الطبعة 1، 2003م، ص33.

من واحة الغريفة في فزان بعد أن طلبته إدارة الاستعمار الفرنسي وقتها للعقوبة؛ بسبب مواقفه الوطنية فعاش في كهف في درنة محل تبرك العارفين بقدره واحترامهم لم يمتلك من حطام الفانية شيئًا حتى لقي وجه الله»[1].

إن المجموعة القصصية استطاعت الجمع بين بلاغتي الإمتاع بما فيها من أسلوبية الأداء السردي، وبلاغة الإخبار، والتسجيل التوثيقي بما توافر من إجابات على أسئلة تاريخية... فالمجموعة سجل توثيقي تحفل بمعارف مختلفة، منها ما يرتبط بالأعلام ومنها ما يمتد إلى العمران وإلى العادات والتقاليد... وهنا في هذه التقنية يتدخل المؤلف في الحكي بتعليق على الأحداث والوقائع المعروضة، وأحيانًا يسهب ويستطرد.

خاتمة.

كشفت الدراسة أن الفن القصصي القصير يتميز بخصوصيات فنية وإبداعية، سواء في التصميم البنائي، أو المستوى اللغوي وما ينطوي عنه من تصورات في التخييل. وقد تبين لنا من المشروع القصصي للسارد «أحمد القحطاني» مدى ارتباط الأدب بالواقع، والعمل على نقده ثم إصلاحه. فالفن القصصي عنده أداة للتعبير والتوجيه، واختياراته السردية وحبكة الخطاطة وسيلة للتأثير على القارئ وتعزيز التغيير الإيجابي.

وقد تميزت النصوص القصصية بميزة اللغة المزدوجة إبلاغية وتواصلية، أشرقت بتناصاتها، وتلوينات الحوار فيها، وكذا دقة الوصف بين الموضوعي والتعبيري؛ فتمكنت اللغة من بناء العالم المفترض عند القارئ/ المتلقي بلغة انزياحية ترميزية أحيانًا، وواقعية توثيقية أحيانًا أخرى.

(1) وداعًا أيتها الدموع، ص 15.

الأسلوب القصصيّ عند الشيخ أحمد القطعانيّ في كتابه: لماذا أبكيتم عصام؟

د. أحمد الجنابي
خبير لغوي - قطر

ملخص

اخترت كتاب «لماذا أبكيتم عصام؟» للشيخ أحمد القطعاني، ورأيت أن أدرسه أسلوبيًا، لأنه كتاب قصصي يبين الصنعة الأدبية لصاحبه، وقد كان اختيارًا موفقًا لأني تعرفت من خلاله إلى لون تأليفي جديد بالنسبة لي مما اعتدنا عليه من إصدارات الإمام المجدد القطعانيّ ودراساته وبحوثه، ثم إن اللون الآخر الذي بان لي هو أسلوب الفقيه عندما يكتب قصصًا، وهي التي تتطلب عناصر عدة، فقد اعتدنا أن نقرأ القصص لأدباء ولكن هذه المرة نقرأ قصصًا لفقهاء ومحدثين فكيف سيكون إخراجها فنيًا؟

ولإجراءات البحث كان لزامًا عليَّ أن أتناوله من خلال عتبات الكتاب بدءًا بعنوانه والمعلومات الفهرسية عنه، ومن ثَمَّ تناول القصص من خلال الأدب القصصي ولوازمه ومتعلقاته، وصولًا إلى البناء الفني للقصص، ومرورًا بلغة القصص وأسلوبها وطريقة عرضها، وأخيرًا وليس آخرًا موضوعات تلك القصص واختياراتها.

كلمات مفتاحية: (أحمد القطعاني، أدب، أعماق، اعترافات، قصاصات، الناي)

عتبات النص ودلالاتها

يطالعنا أولًا عنوان الكتاب: لماذا أبكيتمْ عصامَ؟

وهذا العنوان الملفت للنظر نحويًا؛ إذ الصياغة تتطلب أن يقال عنه: لماذا أبكيتم عصامًا؟ ولدينا في المكتبة العربية عنوانًا: مَنْ يَخَافُ عصامًا؟ من إصدارات دار العلم للملايين في 2003م، وهو من كتب الأطفال، والشاهد هو أن «عصامًا» ورد منوّنًا مصروفًا.

أما في الكتاب الذي بين أيدينا فقد جاء اسم «عصام» ممنوعًا من الصرف من غير علة ظاهرة أو سبب ما، وهذه مسألة خلافية في النحو العربيّ، فمذهب جمهور البصريين، وبه قال أبو موسى الحامض من الكوفيين، وتابعهم في ذلك جماعة من المتأخرين أن منع الاسم المصروف من الصرف غير جائز لا في النثر ولا في الشعر، وأما مذهب الكوفيين ومن وافقهم من البصريين والأخفش، وهو الظاهر من كلام ابن السراج، وبه قال أيضًا الفارسيّ وابن برهان، واختاره أكثر المتأخرين من أن منع الاسم المصروف من الصرف جائز في ضرورة الشعر خاصة، وذهب بعض المتأخرين كابن يعيش والمراديّ وخالد الأزهريّ إلى جواز منع الاسم المصروف من الصرف للضرورة إذا كان علمًا، وامتناعه في غير ذلك[1].

وكلمة عصام يجوز منعها من الصرف فلا تنوّن على مذهب الحكاية أيضًا، وهي إيراد اللفظ بحسب صيغتها، فتذكر كلمة «عصام» هكذا في حالة الرفع والنصب والجر والسكون، وهناك مسألة نحوية وتخريجة أخرى من خلال عبارة المتقدمين لألفاظ ترك صرفها لكثرة الاستعمال[2].

---

(1) مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين فيما يجوز ضرورة وأثر اختلاف الرواية فيه، عبد العزيز الدباسي، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، مج 6، العدد 28، ص 1079 – 1080.

(2) شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الإسترباذي، تحقيق محمد نور الحسن وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2000، ج1، ص 30.

ونلاحظ الفتحة الظاهرة في عنوان الكتاب على كلمة عصام: لماذا أبكيتمْ عصامَ؟ وهذه الحركة دلالة على وعي لغويّ وإشارة نحوية إلى أن كاتبها كان عامدًا وقاصدًا عدم تنوين الاسم «عصامًا» لسبب من الأسباب التي ذكرناها أو لغيره، وأما أسلوب الاستفهام في العنوان فهو من الأساليب الطلبية في اللغة العربية، وهو أسلوب شائق وجاذب.

والعنوان الثاني للكتاب كان تصنيفيًا، فقد جاء بعبارة: (قصصٌ قصيرةٌ)، وهذا تصنيف لعنوان الكتاب وموضوعه ضمن الأنواع التأليفية والكتب الأدبية، واكتفى المؤلف بذكر اسمه ولقبه فقط من دون ألقاب علمية ولا إضافات تعريفية فجاء على: (أحمد القطعاني)، ويظهر في الغلاف أيضًا اسم دار النشر، فـ(الناشر دار بشرى وكلثوم)، وهي دار للطباعة والنشر والتوزيع، وعلى الغلاف نجد رقم الطبعة وتاريخها وحقوق الملكية عل النحو الآتي: (الطبعة الأولى 1439هـ/ 2018م)، (جميع الحقوق محفوظة).

وهذه البيانات نفسها تكررت في الصفحة الأولى بعد الغلاف، ومن ثم خلا الكتاب من مقدمة، وفي الصفحة الثانية تُطالعنا ستة اقتباسات نصيّة من الكتاب، ومذيّلة باسم المؤلف الثلاثي واللقب هذه المرة: (أحمد سالم كريم القطعاني)، وهو أسلوب يلجأ إليه بعض المؤلفين في إيجاز اسمهم في صفحة العنوان والتوسع في الاسم وربما بشيء من السيرة العلمية في الصفحات الأخرى كصفحة المقدمة، أو إلحاق السيرة بآخر الكتاب كما هو الحال في الكتاب الذي بين أيدينا، أو وضع السيرة في صفحة الغلاف الأخير، من باب التعريف بالمؤلف والكاتب لمن أراد المزيد عن هذه الشخصية.

واستعرض الآن الاقتباسات الستة التي ظهرت في الصفحة الثانية من الكتاب على النحو الآتي:

ت	الاقتباس
1	ستبقى الكلمات هي بوابة العالم الحقيقي.
2	ترى أيهما يقتل الآخر، هل هو الذي يقتل الوقت أم الوقت هو الذي يقتل الحب؟
3	وأيهما وجد أولًا الألم أم الموسيقى؟
4	وهل الوقت يسرق العمر أم العمر هو الذي يسرق الوقت؟
5	وهل نستطيع أن نتذكر أشياء لم تحدث أصلًا؟
6	وهل الحركة هي عدوة التفكير؟

محتوى الكتاب:

الكتاب ذو الأربعة والتسعين صفحة يحتوي على خمس عشرة قصة أو موضوعًا، والقصة الأولى هي عنوان الكتاب، وفيما يلي عرض للعنوانات وأحجامها على ما يأتي:

ت	العنوان	الصفحة		عدد الصفحات
		من	إلى	
1	لماذا أبكيتم عصام؟	3	8	6
2	مسجد كبير اسمه الوطن	9	13	5
3	حارس الأحلام	14	20	7
4	مصطفى محمود إيمان بلا شك	21	26	6
5	هلم، أعرفك بهم	27	31	5
6	تاريخك الجميل القابع في متاحفهم	32	36	5
7	غريب في المنزل	37	41	5
8	احذر إنها الأعماق	42	47	6
9	قصاصات	48	53	6

10	اليوم الذي يلي الأمس	54	59	6
11	إنني تحت القاع	60	64	5
12	اعترافات	65	71	7
13	قصة ناي	72	77	6
14	ذئاب ترتدي الأثواب	78	80	3
15	صوت من الماضي	81	87	7

وهذه العناوين المصاغة من الكلمة والكلمتين إلى الثلاث والأربع والخمس كلمات تشكل مفاتيح لهذا الكتاب، وبُنيت بأسلوب راقٍ يدعو إلى قراءتها، وهي كلمات وجمل إنشائية وطلبية، وجاءت مناسبة جدًا للعمل القصصي في هذا الكتاب تحديدًا، ومتوازنة نوعًا ما من حيث حجم الصفحات والمساحة ما بين ثلاث إلى سبع صفحات كما نلاحظ في الجدول أعلاه.

البناء الفني لمحتوى الكتاب:

يتصدر العنوان الفرعي (عنوان القصة الواحدة) وسط أعلى الصفحة بخط غامق تحته خط، تتبعه مقدمة قصيرة تراوحت ما بين نصف السطر إلى الثلاثة سطور ونصف السطر، وقد خلت القصة الرابعة عشرة (ذئاب ترتدي الأثواب) من مقدمة، وتضمنت كل قصة عنوانات داخلية من ثلاث إلى اثني عشر عنوانًا غير مرقمة، وإنما بلون غامق مميز بوضوح داخل النص، وهذه العنوانات غير مرقمة عدا القصة الثامنة (احذر إنها الأعماق) فكانت مرقمة ترقيمًا عدديًا، والقصة الثانية عشرة (اعترافات) كانت مرقمة ترقيمً كتابيًا للاعترافات التسعة، ونلاحظ على القصة التاسعة أن عنواناتها كانت متفرعة لنقاط إضافية، وقد خلت القصص الثالثة والثالثة عشرة والرابعة عشرة من عنوانات داخلية.

وهذا يعني أن البناء الفني لم يكن على وتيرة واحدة، وقد حاول الكاتب نفسه أو دار النشر إخراج الكتاب على نسق شبه موحّد في التصميم من خلال العناية على الأقل بعنوان القصص، وأما بقية التفاصيل فتبدو أنها كتبت في أوقات متفرقة، أو أنها جمعت من أماكن متفرقة، بمعنى أن الكتاب لم يؤلف لأجل الفن القصصي، وإنما هي قصص متناثرة هنا وهناك ربما بعضها مطبوع في كتاب أو منشور في مقالة أو ما كان مخطوطًا لم ينشر فكان هذا المؤلَّف هو الجامع لها، ولا بأس من ذلك فهو تصنيف مفيد ونافع وجديد ومناسب جدًا بهذه الصورة الإخراجية الفنية الأدبية.

أما في كل قصة من قصص الكتاب فإن عناصر القصة القصيرة حاضرة من خلال محدودية الزمان والمكان والأشخاص والأحداث التي تتناسب مع حجم القصة وموضوعها وعنوانها، ومن ثم تناولها لموضوعات حياتية معاصرة، وأما الأسماء والمواقع والتواريخ فهي أقرب للواقعية منها إلى الخيالية أو الافتراضية، والقارئ لهذه القصص يجد كمية متدفقة من المشاعر والانفعالات والتأثر التي تظهر من خلال التعلق بالذاكرة أو من خلال متابعة القراءة والاسترسال فيها لكتاب متوسط الحجم.

إلا أنه من الجدير ذكره أن بعض القصص ليست قصصًا؛ وإنما هي مدونات مقالية أو موضوعات صحفية مثل الموضوع الثاني من الكتاب الذي كان بعنوان: (مسجد كبير اسمه الوطن)، وإن كان الجانب القصصي حاضر في بعض جزئياتها، وكذلك موضوع (مصطفى محمود، إيمان بلا شك)، وموضوع (هلم، أعرفك بهم)، وموضوع (تاريخك الجميل القابع في متاحفهم)، وموضوع: (احذر إنها الأعماق)، وموضوع (قصاصات) المتضمن خمس رؤى منامية، وموضوع (اليوم الذي يلي الأمس)، وموضوع (اعترافات) موضوع غير قصصي سوى الاعتراف الرابع منه.

فهذا يعني أن نصف الكتاب (متفرقًا) يعد من القصص القصيرة ويصنّف منها، وأما النصف الآخر فهو موضوعات متفرقة وعناوين شتى تدخل في باب المواعظ

والتجارب والنصائح والتاريخ القصصي والعلاقات بين الناس وعموم الحياة، وإن كان في بنائها شيء من العمل القصصي كما قلت سابقًا، فإضافتها لهذه المجموعة فيها وجه ارتباط، ولديها علاقة مباشرة وغير مباشرة مع المضمون العام، وأعتقد أن في كل موضوع سببًا لإضافته في هذا الكتاب وإن لم يذكر أو يصرّح به.

شواهد الكتاب:

الكتاب وإن كان سردً قصصيًا صرفًا في نصفيه، وأما نصفه الآخر فهو بلا شك مستند إلى مصادر ومراجع لم ينصّ عليها المؤلف لكنها ظاهرة في النقل والكلام، والكتاب متنوع الشواهد من التراث العربيّ والإسلاميّ.

ففي القصة الأولى نجد القاص القطعانيّ يستند إلى رسائل من «عصام» قادمة من تشاد بتواريخها الميلادية ثمانينيات القرن الماضي[1]،

والكتاب يتضمن العديد من الشواهد، وفي مقدمتها الآيات القرآنية فقد وردت ثلاث عشرة آية مع ذكر اسم السورة ورقم الآية، ويميز الشاهد القرآني بقوسين مزهرين وخط غامق[2]، وذيل آخر آية بصدق الله العظيم[3]، ويطالعنا حديث نبوي واحد مسند لراوييه[4]،

وقد جاءت مقدمة (قصة ناي) مقتصرة على شاهد ومقولة من ديوان المثنوي لجلال الدين الروميّ[5]، وهو مرجع مهم للطرق الصوفية كما نعلم، وعلاقة الناي بالريقة المولوية لا تخفى أيضًا، والشيء بالشيء يذكر فقد استشهد ببيتي الناي لجبران خليل جبران من قصيدة المواكب التي غنتها فيروز[6]، وأتى ببيتين عن الناي غناهما عبد الحليم حافظ مع ذكر اسم كاتبها وملحنها[7].

---

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018، صـ3-7.
(2) نفس المصدر، الصفحات: 25، 51، 68، 75، 80.
(3) نفس المصدر، صـ80.
(4) نفس المصدر، صـ13.
(5) نفس المصدر، صـ72.
(6) نفس المصدر، صـ75.
(7) نفس المصدر، صـ75-76.

ومن الشواهد الأخرى النصوص المترجمة من اللغة العربية وإليها، ففي الكتاب أبيات مترجمة من رباعيات عمر الخيام باللغة الفارسية إلى اللغة العربية لشاعر مصري وشاعر ليبي[1]، وترجم جملاً قصيرة من الإنجليزية إلى العربية[2]، وفي موضع ذكر كلمة: (كي بورد) من دون أن يترجمها وهي المعروفة بلوحة المفاتيح[3]، وكذلك كلمة: «مايسترو»[4]، وهو قائد الفرقة، وكلمة« فترينة»[5]، وهو كلمة إيطالية تعني واجهة زجاجية تعرض فيها الأشياء، وترجم لنا الشيخ القطعانيّ نصًا من المثنوي لابن الروميّ ثمانية عشر بيتًا باللغة العربية[6].

كشاف الكتاب:

في الحقيقة أن من يقرأ هذا الكتاب يحتاج إلى كشاف للعديد من للنصوص المستعملة والمتناولة؛ لأن القراء وأنا منهم من الممكن جدًا أن يكونوا غير ليبيين، ويمكن تحديد ذلك على ما يأتي:

1. المصطلحات المحلية الليبية، فمثلًا كلمة «الشنة الحمراء»[7]، وهي طاقية الرأس للرجال الليبيين، و«رياش».
2. معرفة أسماء الأماكن والبقاع غير المشهورة في ليبيا، مثلًا «الصابري»[8]، وهو حي من أحياء بنغازي، ومدينة «زوارة»[9]، وسوق احداش، ومدرسة التوريللي، وشارع التل، وجامع أبو خشيم، وجامع كاربورني[10].

---

(1) نفس المصدر، صـ28-29.
(2) نفس المصدر، الصفحات: 33، 34، 49.
(3) نفس المصدر، صـ58.
(4) نفس المصدر، صـ77.
(5) نفس المصدر، صـ72.
(6) نفس المصدر، صـ73.
(7) نفس المصدر، صـ85.
(8) نفس المصدر، صـ86، 82.
(9) نفس المصدر، صـ61.
(10) نفس المصدر، صـ82.

3 تشكيل بعض الكلمات بالحركات خاصة تلك التي تلتبس بغيرها، مثل عبارة: «لكم كبر في عينه»[1]، فهي: «لَكَمْ»، وليست «لَكُمْ» أو «لَكَمَ».

4 الوصفات الشعبية الست التي وردت في الكتاب لمعالجة بعض الأمراض والأوجاع والأسقام وبعض مكوناتها التي تحتاج إلى توضيح مثل: المشماش، القميلة، والزنجار، ونحوها[2].

أسلوب الكتاب:

تنوع أسلوب الكتاب بين نوعين من الأساليب العربية أحدهما الأسلوب القصصي في تناول الأحداث، والآخر الأسلوب الإنشائي في تناول الموضوعات والمعلومات، وكلا الأسلوبين بصبغة أدبية، ويمكن لي أن أسجل بعض الملاحظات على كلا الأسلوبين من خلال النقاط الآتية:

1 الكتاب مبني على لغة محترمة وأسلوب علمي متأدب وتربوي هادف حتى في وصف ما فيه خدش للحياء والأدب كان يمر بكل سلاسة، فمثلًا الجملة التي استوقفتني وهو يتحدث عن فتاة من فتيات الشوارع: «وأنجبت أولادًا تجرجرهم خلفها في الشوارع لا يعرفون غيرها أمًا وأبًا»[3].

2 الكتاب مرصع بالجزالة والاقتباسات الجميلة والتناص الرائع، فمثلًا عندما يقول: «كنت أسير الهوينى»[4]، و«ركني الشديد الآمن»[5]، وقوله: «بعواطف لو سكبت على أرض الصومال لصافح مقاتلوه بعضهم البعض في الشوارع»[6].

3 ورد اسم المؤلف في الكتاب كشخصية من الشخصيات واسم من الأسماء لا على أنه مؤلف هذه القصص وهذا الكتاب، وذلك في موضعين، أحدهما في

(1) نفس المصدر، صـ86.
(2) نفس المصدر، صـ83.
(3) نفس المصدر، صـ79.
(4) نفس المصدر، صـ78.
(5) نفس المصدر، صـ78.
(6) نفس المصدر، صـ67.

الاعتراف الرابع من قصة «اعترافات» حيث قال: «دع هذا العجوز أحمد القطعاني الذي خبر الدنيا ورأى وجهيها وعاش دهريها واكتوى بناريها يعترف لك»[1]، والآخر عندما كان يتحدث على لسان الناي فذكر أن صديقه أحمد القطعاني الذي ترجع صداقته به إلى زمن[2].

4 استخدم الكاتب أو القاص عبارات وجمل داعمة للبناء الفني القصصي والأدبي في خيال واسع وكبير، كقوله: «لا، بحجم قارة أفريقيا كلها»[3]، وكتشبيهاته الكثيرة ومنها قوله: «كأنها حبة بلح برلصي في آخر الموسم»، فما عرفت هذا النوع من التمر: البلح البرلصي إلا من خلال هذا الكتاب، وإلا من خلال هذه القصص، وعرفت فيما بعد القراءة أنه من تمور درنة، وقوله: «حنون المشاعر كأم رؤوم»[4]، هذا التشبيه الذي أجزم أنه لا يعرفه إلا القليل من الناس، والأم الرؤوم هي الأم الرؤوف الحنون العطوف، يقال: رئمت الأنثى ولدها إذا أحبته ولزمته وعطفت عليه.

5 اهتم الكاتب بالجمل الاعتراضية، وخص لها العلامة المناسبة لها، من ذلك مثلًا قوله: «ولكن قد تعثر عليهم الوحوش -آسف- أقصد الناس»[5]،

6 الكتاب مرصّع بالجناس والطباق والسجع وغيرهما من المحسنات اللفظية والمعنوية البديعة، فمن ذلك قوله: «قد تتكاثر الهموم وتتناقص الهمم»[6]، وقوله: «خير الدنيا في التعدد وشرها التفرد»[7].

7 وإن كان الكتاب كتب بلغة عربية فصحى إلا أنه لم يخلُ من عبارات وجمل

(1) نفس المصدر، صـ67.
(2) نفس المصدر، صـ77.
(3) نفس المصدر، صـ70.
(4) نفس المصدر، صـ61.
(5) نفس المصدر، صـ66.
(6) نفس المصدر، صـ43.
(7) نفس المصدر، صـ43.

باللهجة العامية الليبية، فمن ذلك قول الكاتب على لسان زوجة لزوجها: «عادل غير اسمعني أنا نحبك لكن انت تغيرت»[1].

8 يحسب للكاتب أنه أثرى العربية بأسلوبه من خلال العبارات الجميلة التي أحسبها جديدة وأنها لم تمرّ عليَّ سابقًا فيما قرأت واطلعت وبحثت، مثل قوله: «نحتاج أحيانًا أن نمشي في الظلام لنصل إلى الضوء»[2]، وقوله: «إن الذم يوّجه لمن انتكس بعد علو لا لمن ارتفع بعد سفل»[3]؛ فضلاً عن الاقتباسات الستة التي ظهرت في الصفحة الثانية من الكتاب، فهي صناعة أدبية راقية وعالية.

9 لم يخلُ الكتاب من ملاحظات لغوية تتعلق بالنحو والصرف والإملاء من الأمانة العلمية ذكرها، والدعوة لمراجعة الكتاب وتدقيقه لغويًا في الطبعات القادمة، فمن ذلك ما يأتي:

أ. قوله: «لا زلنا نعيش حياة الأدغال»[4]، وهنا مشكلة دخول «لا» على الفعل الماضي «زال» ولعلة صرفية يقال عنه عند الإسناد «زلنا»، فهنا يتحول الفعل الماضي مع «لا» إلى الدعاء أو تأكيد النفي، والسياق لا يتطلبه، فيقال: «ما زلنا»، أو «لا يزال».

ب. قوله: « أقول لك أن هناك قال ضار»[5]، وهنا ملاحظتان، إحداهما كسر همزة (إن) بعد القول «أقول»، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: 30]، والملاحظة الأخرى أن «هناك» ظرف مكان، والظرف شبه جملة من حقه أن يتقدم على اسم إن المنصوب، وصفته التابع له، فيقال: «أن هناك قتالًا ضاريًا».

(1) نفس المصدر، صـ64.
(2) نفس المصدر، صـ18.
(3) نفس المصدر، صـ24.
(4) نفس المصدر، صـ65.
(5) نفس المصدر، صـ65.

ج. ذكر الكاتب على لسان حكيم: «إذا أصريت على الانتقام فاحفر قبرين»[1]، والفعل «أصرَّ» يصاغ للمخاطب بلفظ: «أَصْرَرْتَ».

د. ذكر الكاتب أن «إنسان اليوم يفتقر إلى شي هام وأساسي هو الشعور بأنه جزء من الآخرين»[2]، فهنا نجد أن «شي» قد سهلت همزتها، والصواب: «شيء»، و«مهم» أفصح من «هام»، والأولى أن يقال: «أساس»، وليس «أساسي».

هـ. الأخطاء المطبعية قليلة جدًا وهذا يعني عناية المؤلف بكتابه من الناحية اللغوية، فقد مرّت عليّ كلمات محددة مثل: «ترى ما لحكمة الإلهية»[3]، والصواب: «الحكمة»، ومواضع متفرقه في إثبات تنوين النصب على وجه الخصوص، وبعض همزات الوصل والقطع وهمزة الم.

(1) نفس المصدر، صـ57.
(2) نفس المصدر، صـ56.
(3) نفس المصدر، صـ54.

البنية الفنية للمقالة الصحفية عند العلامة أحمد القطعاني «الحب القذر أُنموذجًا»، دراسة وصفية تحليلية

د. مصطفى سالم حبلوص

أستاذ بجامعة غريان- ليبيا

ملخص

وفد علينا فن المقالة من الغرب بُعيد نهضته الحضارية الحديثة، شأنه في ذلك شأن الفنون الأدبية من شعر، وقصة، ورواية، ومسرحية، فتبوَّأ مكانه، وصار علامة زمانه، وانتشر في الصحف السيارة انتشارًا منقطع النظير، فأقبل عليه القراء بشغف، واتخذه كتّاب العرب وأدباؤهم وسيلة لعرض أفكارهم وآرائهم، وهموم مواطنيهم؛ لعلهم يسبرون أغوار قضايا مجتمعاتهم ولربما يجدون لهموم مواطنيهم بلسما شافيا!.

أما شيخنا العلامة أحمد القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد اتخذ فن المقالة منبرًا للدعوة إلى مكارم الأخلاق والثبات على القيم الروحية للدين الإسلامي، واتباع سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ومحاربة الأفكار الهدامة التي طفقت تتسلل إلى مجتمعنا الليبي، والتي ما فتئت تروج لها بعض الصحف السيارة بشكل مبتذل مفضوح!.

ولغزارة نتاج شيخنا العلامة أحمد القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتميزه في هذا الفن، والذي ارتقى به شكلًا ومضمونًا، وخصّه بكتابين، هما: (الحب القذر) و(إسلام للبيع) لذلك

عزمت على دراسة فن المقالة عنده، واتخذت عنوانًا لورقتي البحثية المتواضعة: (البنية الفنية للمقالة الصحفية عند العلامة أحمد القطعاني، مقالة الحب القذر أُنموذجًا) دراسة وصفية تحليلية، والتي تتألف من مقدمة وخاتمة، وأربعة مطالب، وهي: المقالة الصحفية (المفهوم والنشأة)، ودلالة العنوان، وفكرة المقالة، والبناء الفني للمقالة.

أما الدراسات السابقة، فقد كان في طليعتها فن المقال لمحمد نجم، ودراسات في الفن الصحفي لإبراهيم إمام، وأدب عصر النهضة لشفيق البقاعي، وكذلك النقد الأدبي لعبد العزيز عتيق، والسيموطيقيا والعنونة لجميل حمداوي، فضلًا عن كتب البلاغة وغيرها من الكتب ذات الصلة بالدراسة، ولعل المتلقين والدارسين يجدون في هذه الورقة البحثية ما يفيد.

كلمات مفتاحية: أحمد القطعاني، المقالة، الحب القذر، الصحافية، البناء الفني، الدلالة.

المقالة الصحفية (المفهوم والنشأة)

أ- المقالة الصحفية لغة:

من المؤكد أن المقالة في إدراجها اللغوي، مشتقة من (القول) بمعنى الكلام، والمعاجم العربية وضعت مادة: مقال ضمن (قول) ووردت كلمة (مقال) بصيغة التذكير (مقال) وبصيغة التأنيث (مقالة) وجاءت في لسان العرب «قالَ يقولُ قَولًا وقِيلًا وقَولةً ومَقالًا ومَقالةً»[1] وهي مصدر ميمي، مستعمل ومتداول في وقتنا الحاضر.

ووردت كلمة (مقال) في شعر الحطيئة -وهو شاعر مخضرم- في قوله مستعطفًا خليفة المسلمين الفاروق عمر رضي الله عنه:

تحنّنْ عَليّ -هَداك المليك- فإنّ لكل مقامٍ مقالا[2].

أي أن لكل موقف أو حدث أو حال كلامًا ملائمًا له، فالمقال ينبغي أن يطابق

(1) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت، 1992م، مادة: (قول).
(2) ديوان الحطيئة، شرحه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت لبنان، 1996م، ص135.

مقتضى الحال كما وردت كلمة (مقالة) في شعر محمد بن حازم الباهلي -وهو شاعر عباسي- في قوله:

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائلِ[1].

ب- المقالة الصحفية اصطلاحًا:

المقالة في طبيعتها لا تعدو كونها فنًّا نثريًّا من فنون الأدب تقوم على ملاحظة الحياة وتدبر ظواهرها، وسبر أغوارها، وثمة عوامل فاعلة كانت وراء ظهور أدب المقالة، وفي طليعتها ملاءمة البيئة الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية لطبيعة فن المقال عينه.

وإذا كان النقاد يذهبون إلى أن المقالة «قطعة نثرية محددة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق، فإن شرطها الأول تكون تعبيرًا صادقًا عن شخصية الكاتب»[2].

أما إبراهيم إمام فيرى أن المقال الأدبي «يهدف إلى أغراض جمالية، ويتوخى درجة عالية من جمال التعبير، كما يتوخاها الأديب الذي يرى الجمال غاية في ذاته، وغرضًا يسعى إلى تحقيقه»[3] وهناك من يرى أن المقالة هي «قطعة مؤلفة متوسطة الطول، وتكون عادة منثورة في أسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد، وتعالج موضوعًا من الموضوعات ولكنها تعالجه على وجه الخصوص من ناحية تأثر الكاتب به»[4] ويرى عبدالعزيز عتيق: «أنها قطعة من النثر الفني يتحدث فيها الكاتب بنفسه، ويحكي تجربة مارسها، أو حادثًا وقع له، أو خاطرًا خطر له في موضوع من الموضوعات»[5].

---

(1) ديوان الباهلي، تحقيق محمد خير البقاعي، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1982م، ص81.

(2) فن المقالة، محمد نجم، ط4، بيروت، سنة 1975م، ص95.

(3) دراسات في الفن الصحفي، إبراهيم إمام، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة سنة 1970م، ص182.

(4) أدب عصر النهضة، شفيق البقاعي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، سنة 1990م، ص158.

(5) في النقد الأدبي، عبد العزيز عتيق، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1972م، ص229.

من خلال التعريفات السابقة؛ يتضح لنا جليًّا أن المقالة نص فني نثري قصير غير مطوّل يتناول موضوعًا واحدًا، يلم فيه ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو الأدبية، في أسلوب سهل اللفظ، بسيط العبارة بإيجاز غير مخلٍّ.

نشأة المقالة الصحفية

أول من كتب فن المقالة في الغرب هو الفرنسي (مونتين)[1] ثم جاء الإنجليزي (بيكون) فاقتفي أثره، ولم تعرف الثقافة الإنجليزية «كاتبًا آخر استطاع أن يحبك مقالاته ويدبجها كما فعل بيكون»[2].

وفي القرن التاسع عشر ظهرت المقالة الصحفية التي حلت محل المقالة الأدبية والعلمية، وانطلقت كالسهم تعنى بكل شأن من شؤون المجتمع، أو قضية من قضاياه[3].

وللمقالة جذور راسخة في تراثنا العربي القديم، وخير دليل على ذلك الرسائل الديوانية والإخوانية التي ظهرت بالعصر الأموي، وهي تمثل بذور «المقالة في الأدب العربي في القرن الثاني للهجرة، وتعد الرسائل العلمية والإخوانية من أحسن صورها»[4].

ثم تأتي رسائل الجاحظ في العصر العباسي لتؤكد فن المقالة في أسلوبها الفكاهي الظريف، وهذا ما فطن إليه المسعودي في مروجه بقوله: «وكتب الجاحظ -مع انحرافه المشهور- تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان؛ لأنه نظمها أَحْسَنَ نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أَجْزَلَ لفظ»[5].

---

(1) فن اصطلاحات الأدب العربي، ناصر الحاني، دار المعارف مصر، بدون تاريخ، ص101

(2) المصدر السابق، ص102.

(3) المصدر السابق، 102.

(4) فن المقالة، مصدر سابق، ص17.

(5) مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي المسعودي، ط3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت سنة 1978م، مج2، ص 123.

ثم انطلقت المقالة الفنية في عصرنا الحديث انطلاقة واسعة، وأخذت مكانتها بجدارة بين الفنون الأدبية، وانتشرت بسرعة فائقة من خلال الصحف السيارة، والمجلات الأدبية والعلمية، والمحاضرات التوعوية في جميع المجالات: تعليمة كانت، أم دعوية، أم صحية أم أمنية، أم اقتصادية!.

أما المقالة عند الدكتور الشيخ العلامة القطعاني، فتصدرت طليعة نتاجه الأدبي، بل نالت قسطًا وافرًا من اهتماماته، وشغلت حيزًا واسعًا من كتبه، وفي صدارتها كتابه: (الحب القذر) الذي ضمّ بين دفتيه: ثماني عشرة مقالة، تتسم بطابعها الدعوي؛ لأنها مقالات توعوية فكرية دينية صيغت بأسلوب أدبي ماتع، وكذلك كتابه: (إسلام للبيع) الذي يضم بين دفتيه أربع عشرة مقالة، تتناول موضوعات شتى مصبوغة بطابعها الدعوي الديني.

دلالة العنوان

عَنوَنَ شيخنا العلامة القطعاني رَحِمَهُ اللهُ مقالته: بـ (الحب القذر) وعنوان هذه المقالة ورد أيضًا عنوانًا لكتابه: (الحب القذر)[1] أما المقالة فكانت ردًا على أربع رسائل لأربع نساء يغدرن بأزواجهن نُشِرتها صحيفة الجماهيرية «في عددها رقم 4172 الصادر في 9/ 12/ 1371و.ر ... تحت عنوان : هل الرجال لا يمارسون الخيانة الزوجية؟!»[2].

جاء عنوان المقالة في كلمتين اثنتين: (الحب القذر) موحيتين بمضمونها، لا تنفصل عن مقدمتها أو صلبها أو خاتمتها، أما الحب في لسان العرب، فهو «نقيض البغض، والحب الوداد والمحبة»[3] وفي معجم مقاييس اللغة كلمة: حبّ: «الحاء،

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 1439هـ 2018م، ص 47.
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص51
(3) لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص288.

والباء أصول ثلاثة، أحدهما اللزوم والثبات، والآخر الحبّة من الشيء ذي الحَب، والثالث وصف القصر ... أما اللزوم فالحب والمحبة، اشتقاقه من أحبّه إذا لزِمَه»[1].

وردت كلمة : (حب) في القرآن الكريم خمس مرات : أولاهم في قوله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: 14] وثانيتهم في قوله تعالى ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: 32] وثالثتهم في قوله تعالى ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: 165] ورابعتهم في قوله تعالى ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30] وخامستهم في قوله تعالى ﴿حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: 20] كما وردت في العديد من الآيات القرآنية، تؤكد حب الله لعباده المؤمنين كقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54].

وردت كلمة (حب) أيضاً في الحديث النبوي الشريف في قوله ﷺ: «**جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها**»[2](10).

والمحبة عند الشيخ عبدالقادر الكيلاني من أقطاب الصوفية: «هي أمانة الله»[3](11) والحب عند الشيخ الصوفي سهل التستري: «هو الاقتداء بسنة النبي ﷺ»[4](11) والمحبة عند الإمام الغزالي «هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات»[5](12)

أما كلمة (القذر) فهي: «ضد النظافة، وشيء قذر بيّن القذارة»[6](13) وفي معجم مقاييس اللغة: «القاف، والذال، والراء كلمةٌ تدلُّ على خِلاف النَّظافة، يقال:

---

(1) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر سنة 1979م، ج2، ص26.

(2) شعب الإيمان، أبوبكر البيهقي، تحقيق محمد السعيد البسيوني، دار الكتب العلمية بيروت، 1410هـ، ج1، ص381.

(3) موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان، محمد بن الشيخ الكسنزان، دار المحبة دمشق، سنة 2005م، ج5، ص30.

(4) إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار المعرفة بيروت، د.ت، ج4، ص294.

(5) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين بيروت لبنان سنة1987م، ص787.

(6) معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج5، ص70.

شيء قَذِرٌ، بيِّن القَذَر وقَذِرت الشيء، واستقذرته، فإذا وجدتَه كذلك، قلت: أَقْذَرْتُه، وقَذِرْتُ الشّيءَ: كرهتُه».

ووردت كلمة (القاذورة) في الحديث النبوي في قوله ﷺ: **«فمن أصاب من هذه القاذورة شيئًا، فليستتر بستر الله»**[1].

بعد هذا السرد لمعاني كلمتي: (الحب القذر) يتضح جليًّا أن شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار هذا العنوان اختيارًا عن دراية وقصد، فضلًا عن تكرار ذكره في متن مقالته خمس مرات والدليل على ذلك قوله: «ينتصر الحب القذر»[2]، وذكره ثانية في قوله: «هو وجه آخر للحب القذر»[3]، وذكره ثالثة في قوله : «عواقب حبه القذر هذا»[4] وذكره رابعة في قوله: «ولكنه حب قذر»[5]، وأخيرًا ذكره في قوله: «وما الحاجة للحب القذر»[6].

وجاء العنوان من نعت ومنعوت (الحب القذر) لما فيه من دلالات صادمة: فالحب كلمة تختزل معاني الطهارة والمحبة، والعفة، بينما كلمة (القذر) نقيض ذلك، فهي قذارة ووساخة وابتذال، زد إلى ذلك أن كلمة (القذر) جاءت على صيغة المبالغة على وزن (فَعِل) ويؤتى بها للتأكيد والمبالغة؛ ومن هنا كانت دلالة الحب القذر، تفوق دلالة الزنا، بل تتعداها إلى كل ما هو حيواني شهواني، تأنف منه النفوس الطاهرة، ولا تقبل به الديانات السماوية قاطبة!.

وعلاقة العنوان بنصه علاقة وطيدة، كاشفة متميزة، وهي بنية دلالية موازية لبنية النص بحيث أصبحت «لغة العنوان تضيف دلالاتها المعجمية، والكامنة في الذاكرة

(1) شعب الإيمان، مصدر سابق، ج7، ص111.
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص49.
(3) المصدر السابق، ص49.
(4) المصدر السابق، ص49
(5) المصدر السابق، ص50.
(6) المصادر السابق، ص53.

الجمعية دلالات جديدة من خلال تعالقها مع سياق النص اللغوي الجمالي عن طريق الإيحاء والترميز لا المباشرة والتسطيح؛ مما ولّد حافزًا لدى المتلقي في البحث والتأمل لكشف المعنى، وخلخلة التصورات والدلالات الجامدة، والسطحية للغة العنوان»[1].

وهناك من حصر ظاهرة العنونة على الخطاب النثري لا غير؛ لكون العنوان أداة عقلية محيطة بالنص، وململمة لشتاته، ومنظمة لمتفرقاته في حين يبدو الشعر أكثر حرية دون انضباط ومن الصعب السيطرة على لغته من خلال عنوان وحيد؛ حيث: «إن النثر علميًّا كان أم أدبيًّا يتوفر دائمًا على العنوان، والعنوان من سمات النص النثري كيفما كان نوعه؛ لأن النثر قائم على الوصل والقواعد المنطقية، بينما الشعر يمكن أن يستغنى على العنوان، ما دام يستند إلى اللاانسجام، ويفتقر إلى الفكرة التركيبية التي توحّد شتات النص المبعثر؛ وبالتالي قد يكون مطلع القصيدة عنوانًا»[2].

إنّ العناوين تلعب دورًا غاية في الأهمية؛ لأن العنوان يلخّص قصة الخبر، ويبيّن للمتلقي هل الخبر يتصل بموضوع يهمه أم لا؟ كما أنه واجهة برّاقة للمقالة الصحفية، تستهوي المتلقين وتجذبهم للقراءة والاطلاع جذبًا سريعًا!.

فكرة المقالة

يبدو مضمون مقالة (الحب القذر) وفحواها أوضح ما يكون في التمهيد الذي استهل به الشيخ العلامة القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقالته بقوله: «إن أي علاقة بين الرجل والمرأة خارج محراب الزوجية المقدس؛ هي رذيلة يحاول مرتكبها أن يغطّي جريمته النكراء بكذبة اسمها الحب»[3].

---

(1) اللغة الشعرية وتجلياتها في الرواية العربية (1970-2000م)، ناصر عقوب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص156.

(2) السيموطيقيا والعنونة، جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، عدد 3 يناير/ مارس، سنة 1997م، ص98.

(3) الحب القذر، مصدر سابق، ص47.

مرّ بنا آنفًا أنّ هذه المقالة، كانت ردًّا على أربع رسائل وَرَدْنَ من أربع نسوة، تحت عنوان: هل الرجال لا يمارسون الخيانة الزوجية؟! وتأتي أهمية مقالة الشيخ القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكونها عينًا مراقبة قادرة على كشف الانحرافات كالترويج للمجون، والخلاعة، والبغاء بين المسلمين!.

سرعان ما ردّ شيخنا العلامة القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه (الوقاحة) المدعومة إعلاميًّا بمنطقٍ عقلاني مبتدأً بمكانة المرأة المسلمة الحَصان في القرآن الكريم؛ حيث أشاد الإسلام بذكر النساء «وخصهن بسورة في القرآن الكريم باسمهن، هي سورة النساء»[1] وفيها تبيان لسمو شرفهن، وعظيم كرامتهن، وقداسة حقوقهن.

ثم استعرض مكانة أمهات المؤمنين، وهنّ «أسوة حسنة ونبراسًا مشعًا، تهتدي به كل ماجدة من النساء وفاضلة»[2] وفي حقهن يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: 32]

ثم ذكر نموذجًا للمرأة الأم الحنون الرؤوم كما ورد وصفها في قوله تعالى ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7]، ثم اتبع -سبحانه وتعالى- المرأة الأم بالمرأة الأخت، مصورًا تضحيتها، وجهدها، وسعيها، وإخلاصها في قوله تعالى ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [القصص: 11 - 13]

(1) المصدر السابق، ص47.
(2) المصدر السابق، ص47.

ثم ذكر صورة المرأة الزوجة، وهو أطول أدوار المرأة عمرًا على مسرح الحياة حدثنا -سبحانه- عن نموذج كريم مثالي للزوجة المحبة لزوجها، الطالبة رضاه وراحته، المقدمة له على نفسها في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: 69-71]

ثم ختم شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمرأة الابنة فحدثنا عن بنات شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي تتحمل المسؤولية كادحة، إذا ما دعت الظروف، عاملة حافظة لشرفها، ولا يختلطن بالرجال في ابتذال، بل يقفن على جنب عفة ورفعة، كما صورهن القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23].

وبعد عرضه لهذه الصور المثلى للنساء المؤمنات الفضليات أردف قائلًا: «هكذا أرادها الله -سبحانه- درة مصونة، وجوهرة مكنونة سامية، عزيزة بعيدة عن طيش السمجاء، ونزوات الرعناء، وهوس الخبلاء ... نعم هكذا أرادها رب السماء، وما هكذا أرادها للأسف إعلاميو العرب»![1].

وما حذرنا منه شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أضحى منتشرًا بيننا تحت مفهوم الجندرية ومفهوم الجندر عرّفته منظمة الصحة العالمية على أنه: «المصطلح الذي يفيد استعماله وصف الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصفات مركبة اجتماعية، لا علاقة لها بالاختلافات العضوية»[2] بمعنى أن التكوين البيولوجي، سواء أكان للذكر أم للأنثى، ليس له علاقة باختيار النشاط الجنسي الذي يمارس، ويمكن وفق هذا التعريف أن

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص48.
(2) علم اجتماع الجندر، معن خليل العمر، سدني استراليا سنة 2014م، ص35.

يكون الرجل امرأة، وأن تكون المرأة رجلاً تتزوج امرأة من جنسها نفسه، وبهذا قد تكون غيّرت سماتها الاجتماعية، وكذلك بالنسبة للرجل.

وبالنظر للتعاريف السابقة للجندر؛ نستنتج أنّ الجندرية ليست مجرد كلمة عابرة أو مفهوم بسيط مغمور، لأن ظاهر أهدافها حقوق المرأة وكرامتها، أما باطنها، فهو هدم أركان الأسرة المسلمة والتشكيك بالمنظومة الإسلامية، وقيمها بشكل خاص، بل من أخطر ما يسعى إليه دعاة الجندرية؛ هو شيوع العلاقات الجنسية بين المجتمعات الإسلامية خارج رباط الزواج المقدس!.

لسان حال شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: هل يقبل أهل الإسلام والعلماء العاملين منهم بهرطقة الجندرة؟ وما تدعو إليه وسائل الإعلام والفضائيات، والصحف السيارة، فضلًا عن بعض الروايات الأدبية التي تجسّد مفهوم الجندرة بابتذالها وقذارتها، وتروّج لها وفي صدارتها رواية محمد النعاس: (خبز على طاولة الخال ميلاد) التي فازت بجائزة البوكر العربية لهذه السنة 2022م ولأصغر كاتب سنًّا في تاريخها. لقد قرأتها بشغف وإمعان، فأيقنت يقينًا لا لَبْس فيه لو أنها خلت من مستنقعات الرذيلة المبتذلة، لما فازت بجائزة قط!.

لقد تصدّى شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الأفكار الهدّامة، منذ كان طالبًا ببريطانيا بعيد منتصف سبعينات الفرن العشرين، وهذه الأفكار تسعى جاهدة لخلخلة منظومة القيم الإسلامية التي تنظم علاقة المرأة بالرجل، وهي نواة الأسرة المسلمة وفق شريعة ربانية سمحاء تحمي نسبهم، وتحفظ كرامتهم، وتصون عفتهم[1].

البناء الفني للمقالة

التزمت المقالة ببنية وحدتها العضوية، وظلت أجزاؤها مترابطة أوثق ترابطًا بما ذهب إليه نقاد الشعر من الدعوة للوحدة العضوية للقصيدة[2] لذا التزم شيخنا

(1) موسوعة القطعاني، الإسلام والمسلمون في ليبيا، أحمد القطعاني، الناشر الواثقون للمقاولات، حسين مسعود محمد، طرابلس ليبيا، سنة 2011م، ج4، ص242-243.

(2) مدارس النقد الأدبي الحديث، محمد خفاجي، الدار المصرية اللبنانية، سنة 1995م، ض144-149.

القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمراعاته للنسب بين أفكاره وشواهده؛ بحيث أصبحت مقالته متكاملة الأجزاء، متناسقة الشكل والمضمون، فضلًا عن ارتباط عناصرها ارتباطًا عضويًّا وثيقًا بعنوانها.

والدليل على ذلك قوله : «وتتمادى خيوط جرائم الإعلام، فتقدم لنا وسائله الابنة الوادعة وقد تعلّقت عواطفها بشاب، لا يريده أهلها، ولا يرغبونه لابنتهم واسمهم وأسرتهم، فتقترن به رغمًا عنهم، وينتصر الحب القذر في خاتمة المطاف»[1] ثم شرع يهاجم وسائل الإعلام لأنها هي المسؤولة الأولى على إشاعة الفاحشة بين شبان الأمة الإسلامية وشاباتها؛ حيث يقول: «إن أيدي الإعلام العربي المعاصر ملوثة بدماء الفضيلة، ملطخة بروث الرذيلة، وما نشاهده اليوم من مناظر وتصرفات في الجامعات والمدارس الثانوية، وحتى الإعدادية هو شاهد الإثبات الأول على هذه الجريمة النكراء جريمة الحب القذر»[2].

أما لغة المقالة، فكانت لينة رقيقة، ظريفة خفيفة، تتسم بفصاحة كلماتها، وروعة بيانها وقوة تأثيرها، كقوله في وصف المرأة المسلمة: «فهي نصف المجتمع، وشمس الأسرة وريحانة المنزل، وبسمة الحياة وبهجتها، عظّمها الإسلام أُمًّا مقدسة»[3] تنساب جمل هذه الفقرة انسيابًا سلسلًا متجانسة متناسقة، لا اضطراب فيها، ولا غموض.

وكذلك وصف المرأة المكرّمة كما أرادها الله –سبحانه– في قوله: «درة مصونة وجوهرة مكنونة، سامية عزيزة، بعيدة عن طيش السمجاء، ونزوات الرعناء، وهوس البخلاء ... نعم هكذا أرادها رب السماء»[4] يبدو إيقاع الجمل القصيرة، يشنّف أسماع المتلقين، بما فيه من إيقاع سريع، تتلقّفه آذانهم بشغف!.

اتخذ شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجمل الاسمية منهاجًا مطردًا –بالفقرتين السابقتين– لما فيها من دلالة اللزوم والثبات، وهذا مبتغاه ومسعاه، فضلًا عن كون

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص49.
(2) المصدر السابق، ص51.
(3) المصدر السابق، ص47.
(4) المصدر السابق، ص 48.

الجملة الاسمية «تحمل تأكيدًا لا تحمله الجملة الفعليّة»[1] فهو يرسم لمتلقيه سمات المرأة القدوة في الإسلام، والتي هي نصف المجتمع وريحانة المنزل، وبسمة الحياة، وهي أيضًا درة مصونة، وجوهرة مكنونة، أميرة مكرمة في بيتها!.

ثم إن الجملة الاسمية أضحت في حقلها الدلالي بنية تركيبية ومعنوية، تحيل على دلالة معنوية، تفيد الثبات والحسم الذي يقرر المجابهة والتصدي بلا تردد، وهذا ما ينسجم مع موقف شيخنا أحمد القطعاني رحمه الله الذي لا يعرف المهادنة، ولا أنصاف الحلول، فأحكامه قطعية وبخاصة في معالجة مثل هذه الدعوة الخبيثة للانحلال والتفسخ، والانسلاخ من القيم الروحية.

ثم يستعمل الجمل الطويلة -أحيانًا- لملاءمتها للشرح والتوضيح والإقناع؛ لأنها ترسم صورة أوضح ما تكون في شكلها الخبيث المنبوذ، ومن الدليل على ذلك قوله: «إن أي امرأة تخدع زوجها الذي طرق باب دارها بشرع الله، واقترن بها بشرع الله، وأمّنها على عرضه وأولاده وماله؛ هي مرضٌ فتّاك، وكل تغافل عن هذه الحقيقة، لا نجني من ورائه سوى الشوك والحصرم، ومبررات الحب لغير زوجها، والعلاقات السابقة مع حبيب القلب؛ هي مبررات تفوق الجريمة ذاتها»[2].

الجملة الأولى بالفقرة السابقة طويلة، وهي جملة اسمية مؤكدة، بدأت بقوله: (إنّ أي امرأة) وتنتهي في قوله :(هي مرض فتاك) جاءت في سطر ونصف تقريباً، وكذلك الجملة الثانية جاءت طويلة؛ إذ إنها بدأت بقوله: (وكل تغافل) وانتهت بقوله: (تفوق الجريمة ذاتها) والجمل الطويلة تسعى لإقناع المتلقين من خلال التبيان والتوضيح.

ثم يواصل شرحه وتحليله مستفيدًا من الجمل الطويلة بقوله: «وفي إظهار زانية بصورة المسكينة المجني عليها من قبل أسرتها، أو زوجها الذي لا يبدو مثل

---

(1) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن الميداني، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، مكة مكرمة سنة 1993م، ص141.
(2) المصدر السابق، ص52.

الحبيب الغالي، مما يدفعها للبحث بين أحضان من تفجر معه عن الحب والتقدير والاحترام؛ تشجيع للرذيلة مع سبق الإصرار والترصد خصوصًا إذا ما ضم ذلك إلى آلاف المغريات التي يبثها الإعلام العربي والأجنبي عبر قنواته المتعددة»[1].

الجملة الأولى بالفقرة السابقة جاءت طويلة كسابقتها، بدأت بقوله: (وفي إظهار زانية) وتنتهي في قوله: «تشجيعٌ للرذيلة مع سبق الإصرار والترصد»[2] وهذه المزواجة ما بين الجمل الاسمية القصيرة والطويلة، يستوجبها مقتضى الحال؛ فالمقالة تنشد الفضيلة والعفة، وتنفر من الجندرة والابتذال، ومقامها يتطلب ملامسة العواطف حينًا، ومداخلة الألباب أحيانًا أخرى!.

والجمل الاسمية هي السائدة والمهيمنة على أسلوبية مقالته، ومن الدليل على ذلك لا الحصر مطلع المقالة وصدارتها والني كانت جملة اسمية؛ حيث ابتدأها بقوله: «للمرأة في الإسلام ما يليق بمكانتها السامية من اهتمام، فهي نصف المجتمع»[3].

ثم اختتم مقالته بجملة اسمية مؤكدة أيضًا كما ورد في قوله: «إنها صورة الزناة البشعة، رسمها لنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بعدما أطلعه الله -سبحانه- عليها في علیائه في الإسراء والمعراج»[4] ولعل وراء ضآلة اعتماد شيخنا القطعاني رَحِمَهُ اللهُ على الجملة الفعلية لأنها تدل على التجدد والحدوث، بينما تدل الجملة الاسمية على الثبوت واللزوم، فهي أقوى دلالة في هذا الصدد من غيرها!.

أما أسلوبه، فينقسم إلى قسمين:

أ- **أولهما: الأسلوب الأدبي** الرفيع البديع الممتع «والجمال أبرز صفاته، وأظهر مميزاته ومنشأ جماله، لما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق»[5] كقوله في وصف

(1) المصدر السابق، ص52.

(2) المصدر السابق، ص52.

(3) المصدر السابق، ص47.

(4) الحب القذر، مصدر سابق، ص53.

(5) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي، تحقيق محمد التونجي، مؤسسة المعارف، بيروت لبنان، سنة 1999م، ص53.

المرأة المكرّمة : «درة مصونة، وجوهرة مكنونة، سامية عزيزة، بعيدة عن طيش السمجاء، ونزوات الرعناء، وهوس البخلاء»[1] ويكمن الجمال في الفقرة السابقة في روعة السجع الوارد في قوله: (درة مصونة وجوهرة مكنونة) لكونه سجعًا متوازيًا «وهو ما اتفقت فيه الفقرتان في الوزن والتقفية»[2] ثم يغير من نمط سجعه، فيقول: (بعيدة عن طيش السمجاء، ونزوات الرعناء، وهوس البخلاء) وهنا أسجع ما بين جمل ثلاث وقد ازدانت بسجعها، ولا يستحسن السجع إلا إذا جاء عفوًا، خاليًا من التكلف والتصنع، كما ورد في الأمثلة السابقة.

وأحيانًا يكمن الجمال التعبيري في الإتباع والمزاوجة بين الكلمات، كقوله منتقدًا الأفلام والمسلسلات العربية:« تدعونا جهارًا نهارًا للخروج من جلودنا»[3] وكذلك قوله في وصفه للمرأة الخائنة لزوجها: «وداست بقدمها النجسة الدنسة على قدسية دارها»[4].

لقد ازدانت مقالته بالجناس والطباق أيضًا كقوله: «وتتعاطف العواطف معها بفضل حنكة المخرج وحبكة المؤلف وأداء الممثل، فيقلبون الذئب إلى حمل، والضبع إلى أرنب والنجس إلى طاهر والحرام إلى حلال»[5] يبدو الجناس واضحًا جليًّا في الكلمات التالية: (تتعاطف العواطف، حنكة، حبكة) وهو جناس ناقص غير تام، ولا يخفى على دارس ما في الجناس من استدعاء لميل السامع؛ لأن النفس ترى حسن الإفادة، والصورة صورة تكرار وإعادة، ومن ثَمَّ تأخذها الدهشة والاستغراب.

أما الطِّباق، فيبدو أوضح ما يكون في قوله: (الذئب إلى حمل، والضبع إلى أرنب والنجس إلى طاهر، والحرام إلى الحلال، فهذه الثنائيات المتضادة، وهي من

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص48.
(2) جواهر البلاغة، مصدر سابق، ص433.
(3) الحب القذر، مصدر سابق، ص48.
(4) المصدر السابق، ص48.
(5) المصدر نفسه، ص49.

المحسنات البديعة تكمن روعتها في قولهم: وبضدها تتبين الأشياء، كما ورد في قول الشاعر دوقلة المنبجي:

ضِـــدّانِ لمَّـــا اســـتَجْمَعَا حَسُـــنَا والضِّـــدُ يُظْهِـــرُ حُسْـــنَهُ الضِّـــدُّ[1].

ب- **ثانيهما: الأسلوب الخطابي**، وهو يعتمد على «قوة المعاني والألفاظ، وقوة الحجّة والبرهان»[2] ويبدو ذلك بيّنًا جليًّا في قوله: «نحن أيها الإعلاميون لا نستطيع، إلا أن نكون مسلمين عربًا، لنا قيمنا وتقاليدنا التي إن خرجنا عنها فقدنا هويتنا، وضعنا بين الأمم، فاللهَ اللهَ في الفاحشة التي دخلت كل بيت على أيديكم»[3].

ثم يتوجّه بأسلوبه الخطابي لصحيفة الجماهيرية التي تروّج للموبقات بقوله: «يا صحيفة الجماهيرية تذكري أنك تصدرين في الجماهيرية، وليس في (لوس أنجلوس) أو (لاس فيقاس) يا صحيفة الجماهيرية أذكّرك بقوله تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ **[النور: 15]**، ولا حول ولا قوة، إلا بالله العلي العظيم»[4].

ومن جماليات هذا الأسلوب الممازجة بين ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام وشيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حافظ على هذا النسق، مستعملًا الاستفهام الإنكاري بعد أسلوبه الخبري كما ورد في قوله: «أحتقر من فرّط في عهد الزوجية المقدس، ولو جاء بالأعذار أطنانًا، ولست أرى له إلا ما أعده الله للزناة البغاة ... ثم لماذا ذاك كله؟ أليس في الحلال مندوحة عن كل هذا؟!»[5].

ويمازج أيضًا في أسلوبه الخطابي بين الأسلوبين: الخبري والإنشائي مرة أخرى نحو قوله: « فشرط موافقة المرأة على الزواج شرط نصّت عليه الشريعة

---

(1) القصيدة اليتيمة برواية القاضي علي بن المحسن التنوخي، صلاح الدين المنجد، ط3، دار الكتاب الجديد، بيروت سنة 1983م، ص30.
(2) جواهر البلاغة، مصدر سابق، ص53.
(3) الحب القذر، مصدر سابق، ص51.
(4) المصدر السابق، ص52.
(5) المصدر السابق، ص53.

الإسلامية، وكذلك خلعها إن أرادت الافتراق عمن لم توفَّق معه ... فما الحاجة للحب القذر؟!»[1].

بدأت الفقرة السابقة بأسلوب خبري بقوله: (فشرط موافقة المرأة) ثم أنهاها بأسلوب إنشائي استفهامي جميل بقوله: (فما الحاجة للحب القذر؟) وهذه الممازجة تعطي بُعدًا فنيًّا، يشي بروعة بيانه، ورصانة حججه، فضلًا عن سلامة ذوقه عند اختيار ألفاظه.

وخلاصة القول أبدع شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأسلوبه الأدبي فأمتع، وتأنق بأسلوبه الخطابي فأقنع.

الخاتمة

ركّز شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقالته موضوع الدراسة على ظاهرة غريبة ودخيلة على المجتمع الليبي المحافظ، والمتمسك بمعتقداته، وقيمه الدينية، وشرعت تتفشى هذه الظاهرة بين فئاته وشرائحه، ليس هذا فحسب، بل هناك من يروّج لها من الليبيين أنفسهم -رجالًا ونساءً- على حد سواء، وعبر الصحف السيارة.

فضح شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفكار الغرب الهدامة، منذ كان طالبًا ببريطانيا بُعيد منتصف سبعينات القرن الماضي، وهذه الأفكار تسعى جاهدة لخلخة منظومة القيم الإسلامية التي تنظم علاقة المرأة بالرجل، وهي نواة الأسرة المسلمة وفق شريعة ربانية سمحاء، تحمي نسبهم وتصون عفتهم.

وكان لعنوان مقالته الصحفية دلالات جديدة من خلال الإيحاء والترميز؛ الأمر الذي ولّد حافزًا لدى المتلقي في البحث والتأمل لكشف المعنى، علاوة على أن العنوان، يلخص قصة الخبر ويبين للمتلقي ما إذا كان الخير يتصل بموضوع يهمه، زد إلى ذلك أن العنوان واجهة برّاقة للمقالة الصحفية تستهوي القراء.

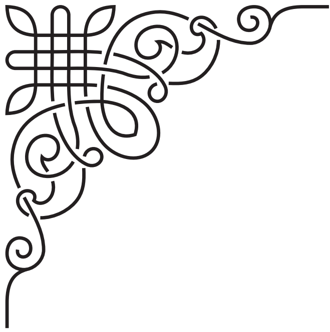
(1) المصدر السابق، ص53.

وما حذرنا منه شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصبح منتشرًا بين مجتمعاتنا الإسلامية تحت مفهوم الجندرية، ومن أخطرها ما يسعى إليه دعاتهم وهو شيوع العلاقات الجنسية في المجتمعات الإسلامية خارج رباط الزواج المقدس!.

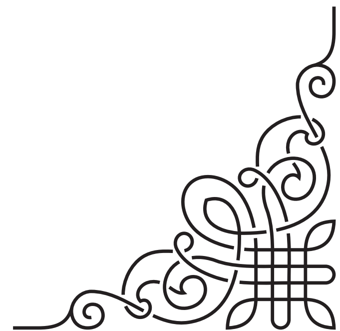
اعتمد شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سرد مقالته على أسلوبين: أولهما: الأسلوب الأدبي الرفيع، بما فيه من خيال رائع، وتصوير جميل، علاوة على ما ازدانت به مقالته من علم البديع بجناسه، وسجعه، وطباقهـ وثنائياته المتضادة.

وثانيهما: أسلوبه الخطابي التي اعتمد على قوة المعاني، والألفاظ وقوة الحجة، ومن جماليات هذا الأسلوب الممازجة بين ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام إنشائي؛ وخلاصة القول أبدع شيخنا القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأسلوبه الأدبي فأمتع، وتأنق في أسلوبه الخطابي فأقنع.

ونتاج شيخنا القطعاني في مجال المقالة الصحفية ثرٌّ وفير، ولم يدرس بعد، فهل يقيض الله له طالبًا من طلاب العلم الباحثين من يكشف عن إبداعه المستور، وينشره بين الناس في دراسة علمية متأنية، تكشف درره، وتحدد صوره، وتبيّن روعة مكنونه، وجمال بيانه، وقوة تعبيره!.



ملامح ومعالم في تصوف العلامة أحمد القطعاني



نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني

د. خالد التوزاني

رئيس المركز المغربي للاستثمار الثقافي - المملكة المغربية

ملخص

تروم هذه الدراسة الكشف عن ملامح نظرية الجمال الصوفي لدى العلّامة الشيخ أحمد القطعاني، وكيف كان مبدعًا في رؤيته المتفرّدة، من خلال الوقوف عند بعض مظاهر الجمال وتجلياته وأبعاده، عبر استدعاء شذرات من فكر الشيخ القطعاني وأقواله ومنهجه واهتماماته، للوصول إلى معالم نظرية جمالية وفلسفية، لها تطبيقاتها في التربية والتنمية والتفكير والتدبير، الشيء الذي يمكن أن يساعد في وضع تصور واضح ودقيق حول حقيقة البُعد الجمالي عند هذا العالِم الجليل الذي يستحق فكره وتراثه مزيدًا من العناية والاهتمام؛ لما فيه من قيم إنسانية كونية ومعانٍ سامية عميقة ترفع الهمم وتُعلي من شأن الإنسان الكامل، والذي لا يتحقّق وجوده إلا في مدار التخلق بالجمال المحمدي؛ بوصف الحضرة النبوية دائرة كل جمال وجلال وباب الولوج إلى حضرة الحق عبر الفناء في محبة خير الخلق.

كلمات مفتاحية: أحمد القطعاني، التصوف، الجمال، المحبة، التربية، التزكية

مقدمة

يمثل الجمال أحد أكثر المفاهيم اهتمامًا من لَدُن القدماء والمحدثين، فقد ناقشه الكثيرون من رؤىً متنوعة، ومن تخصصات مختلفة، حيث ارتبط بالقيم الإنسانية وبنظرة الإنسان للكون والوجود والحياة، ومن ثم فإن الإحاطة بكل ما كُتِب عن الجمال مهمة دونها خرط القتاد؛ لكثرة ما كُتب حوله، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فمن الدراسات التي اتخذت من الجمال موضوعًا لها، نستحضر كتاب «فلسفة الجمال» لمحمد علي[1]، وكتاب «بدائع الحكمة: فصول في علم الجمال وفلسفة الفن» لعبد الكريم اليافي[2]، وكتاب «الفن وعلم الاجتماع الجمالي» لعبد العزيز عزّت، وكتاب «الأسس النفسية للإبداع الفني» لمصطفى سويف، حيث شاع لفظ «علم الجمال» في الدراسات العربية بوصفه ترجمة لمصطلح «الإستطيقا» (**Aesthetics**) بالإنجليزية، و(**Esthetique**) بالفرنسية، إلى جانب عبارة أخرى هي فلسفة الجمال، أو نظرية الجمال، وهي التي اخترتُ توظيفها في هذه الدراسة (نظرية الجمال عند الشيخ القطعاني) مع التأكيد على أنّ الثقافة العربية الإسلامية لها خصوصياتها في رؤية الجمال، ولذلك لا يمكن قياس موضوع الجمال وفق ما جاء عند الغرب[3]، لارتباط هذا المفهوم بالقيم والهوية، وعلى رأسها مقام الإحسان أو التصوف الحق، باعتباره فلسفة الإسلام ومكونها الأخلاقي الفاعل في المجتمع.

لقد مثّلت نظرية الجمال الصوفي في فكر الشيخ القطعاني جوهر هذا الفكر وأساسه؛ لأنها تستهدف تربية الإنسان وتزكية نفسه، والسمو بأخلاقه وإصلاح سلوكه

---

(1) صدر عام 1993، عن دار المعرفة الجامعية، بالإسكندرية. ويتضمن قائمة وافرة بالمراجع المتخصصة في الجمال.

(2) بدائع الحكمة: فصول في علم الجمال وفلسفة الفن، عبد الكريم اليافي، دار طلاس، سوريا، ط1، 1999م.

(3) من أمثلة الدراسات الغربية، نستحضر كتاب: هيجل، 1988م، المدخل إلى علم الجمال، ترجمة: جورج طرابيشي، ط3، بيروت، دار الطليعة.

بمنهج يجمع بين المحبة والجمال وما ينتجه من جلال ووقار، وأثر محمود في الواقع؛ ولذلك يتقاطع فكر الشيخ القطعاني في كثير من الجوانب مع علم السلوك الذي يعني أيضًا علم التزكية أو التصوف السّني القائم على محبة النبي ﷺ نبعِ الجمال والجلال، يقول الشيخ القطعاني: «والإصلاح وطلب الأكمل سِمةٌ الإنسان العاقل المتحضّر وهو منهج التصوف الذي لم ولا ولن نحيد عنه»(1). فما هي رؤية الشيخ القطعاني للجمال؟ وكيف يرتقي بمنهج المحبة من مستويات المألوف إلى نمط من الحياة الطيبة والجميلة؟ وما هي تجليّات الجمال الصوفي في فكره وسلوكه وآثاره؟.

هذه التساؤلات وغيرها، هي ما سنحاول مقاربتها انطلاقًا من مؤلفات الشيخ أحمد القطعاني، من أجل استنباط رؤيته الجمالية للجمال ذاته، وكيف كان مبدعًا في تلك الرؤية المتفرّدة، حيث نهدف إلى الوقوف عند بعض مظاهره وتجلياته وأبعاده، عبر استدعاء شذرات من فكر الشيخ وأقواله ومنهجه واهتماماته ودراسة البعد الجمالي فيها، للوصول إلى معالم نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني، وتطبيقاته في التربية والتزكية، الشيء الذي يمكن أن يساعد في وضع تصوّر واضح ودقيق حول حقيقة البُعد الجمالي عند أتباع هذا العالم الجليل الذي يستحق فكره وتراثه مزيدًا من العناية والاهتمام؛ لما فيه من قيم إنسانية كونية ومعانٍ سامية عميقة ترفع الهمم وتعلي من شأن الإنسان الكامل، والذي لا يتحقّق وجوده إلا في مدار التخلّق بالجمال المحمدي؛ بوصف الحضرة النبوية دائرة كل جمال وجلال وباب الولوج إلى حضرة الحق عبر الفناء في محبة خير الخلق.

ولا شك أن مقاربة نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني ستتيح إمكانية تدقيق النظر حول الفكر القطعاني وخاصة في الفترة المعاصرة التي عرفت تطورًا ملحوظًا في مختلف المجالات الفكرية والمادية، واقتضت تفاعل علماء الأمة الإسلامية بالتعبير عن رؤاهم واستثمار نتائج العلوم في إثبات حقائق الإيمان، علمًا

(1) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشري وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 18.

أن وظيفة البحث العلمي تكمُن في تصحيح المسارات وتدقيق المفاهيم من أجل التأثير في واقع الأمة بما يخدم وحدتها وحضارتها، خاصة إذا علِمنا أن كثيرًا من المصطلحات اليوم قد شابها الكثير من الالتباس بفعل تسطيح معانيها أو تشويهها، ويعتبر مفهوم التصوف والجمال من المصطلحات التي تحتاج إلى وقفات تأمل وتدبّر استنادًا إلى منابع اللغة والبيان؛ للوقوف على المعاني الأصيلة، ولا مشاحة في الاصطلاح، فالحق ما وافق الكتاب والسنة، وفي البحث العلمي لا بد من الاحتكام إلى معايير علمية في رؤية الظواهر والقضايا دون أي خلفية إيديولوجية أو تحيّز؛ لأنَّ الغاية هي إظهار الحق أينما كان، ولا شك أن في فكر الشيخ القطعاني الكثير من الذخائر النفيسة المرتبطة بالتصوف والجمال، والتي تستحق فعلًا أن تُعْرَف وتُدرس؛ لتعمّ فائدتها البشرية ولتنتفع به الإنسانية جمعاء، وخاصة في السياق المعاصر الذي يشهد تنامي مظاهر القبح وطمْس معالم الجمال الروحي والفكري بسبب هيمنة التيارات المادية.

التصوف جمال الروح

يعتبر مفهوم الجمال من أبرز المفاهيم الأصيلة داخل فضاء الثقافة العربية الإسلامية، وحيث إن التصوف والجمال مفهومان دالّان على المعنى نفسه، بل ومقترنان بالكمال، فإن هذا البحث يركّز على نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني، من خلال تتبع أصول هذه النظرية وتجلياتها في حياة وفكر الشيخ القطعاني، ثم بيان أهمية منهجه الصوفي في إصلاح السلوك، وكيف أنّه شكّل أحد وسائل التربية الأكثر تأثيرًا في الثقافة العربية الإسلامية، بما يقدّمه من مداخل أساسية للإصلاح والتربية وباعتباره خزّانًا معرفيًّا وأخلاقيًّا يملك القدرة النظرية والتطبيقية للإسهام في إصلاح واقع الفرد والمجتمع في عالم اليوم أيضًا، ونظرًا لإسهاماته التاريخية في الفترات السابقة، من أجل الارتقاء بالنفس والروح، عبر أدوات التخلية

والتحلية والذكر والمجاهدة، وغيرها من الأدوات التي تدخل ضمن برنامج متكامل لتزكية النفس وإصلاح القلب، عبر بناء الإنسان الكامل الذي يتخذ الرسول ﷺ أسوة حسنة وقدوة مُثلى لا يزيغ عن سُنَّتِه الغرّاء إلا هالك.

إن الجمع بين مطالب الدين والدنيا، وعالم الغيب والشهادة - هو غاية الجمال الصوفي، أي بناء شخصية مسلمة سوية، وهو ما يطلق عليه في أدبيات الصوفية بالإنسان الكامل. ولذلك فإن استحضار الأبعاد الجمالية للتصوف يمكن أن يفيد مناهج التربية المعاصرة، باقتراح وسائل جديدة وأدوات فاعلة ومؤثرة، تملك القدرة على تقليص مساحة السلوكيات السلبية، وتعزيز أنماط جديدة من الفعل الفردي والاجتماعي المنسجم مع روح الدين، في جماليات مظاهر الحياة برمتها.

لا شك أن الاهتمام بالتصوف قديم، فقد تناوله بالدرس والتحليل العلماء والمؤرخون العرب والمسلمون مثل: الطوسي، والكلاباذي، والقشيري، وغيرهم، كما ألف فيه الفلاسفة مثل: ابن سينا، والغزالي، وابن خلدون، وغيرهم، وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام، إضافة إلى جهود المستشرقين، أمثال: ماسينيون، ونيكلسون، وغيرهما. ولم يتفق هؤلاء على رأي واحد، حيث اختلفت الآراء وتباينت التصورات حول التصوف الذي أثار العديد من النقاشات والسجالات ووجهات النظر؛ المنصفة حينًا، والمجحفة أحيانًا أخرى، وكتب فيه الكثيرون إلى حد يصعب فيه قراءة كل ما كتب حوله. ومن ثَمَّ غير مُجْدٍ التطرق إلى جرد تعاريف التصوف وتتبع مفاهيمه وإشكالاته في تفاصيلها الدقيقة، فهي كثيرة ومتشعبة، وقد استقلت بحوث بهذه المهمة[1]، غير أن ما لا يدرك كله لا يُترك جله، حيث يبدو لزامًا معرفة

(1) ينظر على سبيل المثال: تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى القرن الثاني، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1978م. وكذلك: معلمة التصوف الإسلامي، (3 أجزاء)، عبد العزيز بنعبد الله، دار نشر المعرفة، الرباط، ط1، 2001م. وأيضًا: التصوف الإسلامي: حقيقته وتاريخه ودوره الحضاري، عزمي طه السيد أحمد، المؤسسة العربية الدولية للنشر وللتوزيع، عمان، ط2، 2004م.

رؤية الشيخ أحمد القطعاني للتصوف، خاصة إذا علِمنا أن مفهوم التصوف زئبقي، يتلون تبعًا لتنوع التجارب الصوفية واختلافها، إلى درجة أن كل متصوف يمكن أن نجد له تعريفًا للتصوف خاصًا به يتفرد به دون غيره من الصوفية، وهكذا فنجد من الباحثين من يفضل استعمال كلمات أخرى بديلة للتصوف ولكنها أصيلة في الكتاب والسنة، مثل: الإحسان والتزكية والتربية والسلوك والأخلاق.. وهذا الاختلاف يعني تعدد المواقف بشأن التصوف، ويدعو الشيخ أحمد القطعاني إلى ضرورة التمييز في التصوف بين السليم والمشوّه، وبين الصحيح والفاسد، من أجل استثمار أفضل ما في التصوف وهو الطموح للأفضل من أجل حياة سعيدة، حيث يقول في سياق انتقاده للجمود التي تعرفه الكثير من الزوايا والطرق الصوفية:

إن «التطلع إلى الأفضل والعمل على تحقيق أكبر قدر من الطموحات والأماني هو سمة الإنسان المتحضر الناضج الناجح الذي يجب أن يعيش سعيدًا هو وأسرته في مجتمعه الآمن الهنيء. وليس يعيب المرء أن ينظر حوله في تجارب غيره، من بني جنسه فما وجده ضارًا اجتنبه، وما وجده نافعا اقتبسه؛ فلو مات الطموح في الإنسان صار ميتًا وإن حمل بطاقة شخصية وجواز سفر وداوم في عمله من الساعة الثامنة صباحًا إلى الثانية بعد الظهر»(1)، ولذلك فالتصوف عند الشيخ القطعاني: «حياة سعيدة متوازنة، وآفاق فكرية وثقافية واسعة، وعلم ومعرفة، وعمل بأوامر الشرع الكريم ونواهيه، وريادة وسمو»(2).

إن «التصوف نشاط إنساني بطبعه؛ لذا فهو يتأثر بالمناخ العام لمجتمعه سلبًا وإيجابًا، فتراه يزدهر ويربع أحيانًا ويخبو ويجمد أحيانًا أخرى مترافقًا في ذلك مع بيئته وظروفها. والتصوف مدارات متفقة الهدف مختلفة الأساليب؛ فهو آونة يعمر المساجد بالعلم والذكر والدرس، وتارة يرابط على الثغور لصد الهجومات التنصيرية

(1) سري للغاية، مصدر سابق، ص 53.
(2) المصدر السابق، ص16.

خصوصًا بعد سقوط الأندلس حتى سُمي بعض هذه الرباطات بأسماء من أنشأها أو عمّرها من المتصوفين: كسيدي محمد الأندلسي في تاجورا، وسيدي بن مرابط في مصراته، وسيدي بوعزه في درنه، وسيدي بن غازي في بنغازي. وأحيانًا يؤلف الكتب وينشر الثقافة الإسلامية كابن غلبون وكتابه (التذكار) وأحمد البهلول وتخميساته العظيمة، وأخرى يحمل السيف ويمتطي الجواد مدافعًا عن وطنه وهويته: كشيخ الشهداء عمر المختار والشهيد الفضيل بو عمر قادة الجهاد ضد الإيطاليين الغزاة والشهيد عبد القادر مسعود محرر قلعة القاهرة من الاحتلال الفرنسي. ولكنك تجده في آونة أخرى، للأسف، ينكفئ عن أهدافه ويتقهقر عن إنجازاته ويجمد عن سعيه ويتوقف عن سيره»[1].

لقد نظر الشيخ أحمد القطعاني إلى التصوف نظرة عميقة تتسم بالشمول، لما فيها من أبعاد جمالية وتربوية وإصلاحية ترتقي بالإنسان المسلم إلى أعلى درجات التحضّر والرقي، حيث يقول: «ولن تجد صوفيًّا تربّى على أيدي المتصوفين ونشأ في رحاب حلقات الذكر ومجالس العلم منحرفًا أو ضامرًا لشرّ أو رذيلة، والأمر نفسه مع المؤسسات الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة بفروعها؛ إذ يوكل بها نشر الثقافة الصالحة وبث القيم الطيبة وتنفق الدول على ذلك كمًّا كثيرًا من ميزانيتها، وما يقوم به التصوف الذي يعتبر ثمرة أرقى التجارب الإنسانية ألا وهي ثقافة الإسلام، فتراه يؤدي دوره الإرشادي التربوي مباشرة مما يعود بنتائج أجدى وأنفع»[2]. وبذلك يكون يؤسس التصوف لجمال الروح، وتفيض على حياة الإنسان بالجمال والجلال، في كل نشاطاته وهواياته وفي سائر أعماله ومجالات تدخله بل وفي رؤيته للمخلوقات وتفسيره لوقائع الكون وأحداث الحياة، وسوف نتتبع بعضها عند الشيخ القطعاني.

---

(1) المصدر السابق، ص 18.

(2) المصدر السابق، ص 43.

المتاحف وتربية الحسّ الجمالي عند الشيخ القطعاني:

ولما كان الجمال رؤيةً ومنهجًا في فكر الشيخ القطعاني، فإن المتتبع لاهتمامات هذا العالِم الجليل يلمسُ للجمال تجليات وافرة في سلوكه وأنشطته، فضلًا عن أقواله وأفكاره، مما نجده مدوّنًا في كتبه ومؤلفاته، ومما نراه في سلوكه وتعاملاته اليومية ضمن دائرة علاقاته الواسعة، حتى إن رصد تجليات الجمال في فكره وسلوكه دونه خرط القتاد، لصعوبة الفصل بين الجمال وحياة الشيخ القطعاني، فقد كان حريصًا على تمثّل معاني الجمال ومظاهره باختيار أعذب الألفاظ وأجمل السلوكيات وأفضل الأعمال، مصداقًا لقول قدوته في السلوك محمد رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ**»(1)، ومن اهتماماته الجمالية التي تدل على حسّ جماليّ وإحساس ذوقي رفيع، نستحضر ولَعَه بالمتاحف:

كان للشيخ القطعاني اهتمام واضح بالمتاحف، نظرًا لكونها تمثل جزءًا من الحضارة العربية والإسلامية بل والحضارة الإنسانية بشكل عام، ولا شك أن «الإطار الحضاري بكل محتوياته متصلٌ بذوق الجمال، بل إنَّ الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة.. إن الجمال هو وجه الوطن في العالم، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا»(2)، وإيمانًا بقيمة هذا الجمال الذي يمثّل وجه الوطن، فقد قام الشيخ القطعاني بتشجيع إنشاء المتاحف العامة والخاصة، ومنها «متحف سيلين الأهلي» للأعمال التاريخية، والذي أسّسه سنة 2002م، ثم «متحف قصر طيبة للفن التشكيلي الليبي» الذي أسّسه في بيته الخاص بطرابلس عام 2007م، حيث يقول واصفًا بعض محتويات هذ المتحف: «يحتوي لوحات فنية أصلية وهي تتجاوز الآن 40 لوحة تشكيلية أصلية كلها لفنانين ليبيين باستثناء واحدة بريشة فنان هنقاري اسمه

---

(1) رواه مسلم.

(2) مشكلة الثقافة، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط16، 2004م، ص 85.

جورج فانشيف أهدانيها في شهر 4/ 2008م وأحاول جاهدًا تطويره وزيادة عدد مقتنياته»[1]، ولم يكتفِ بهذا المتحف الخاص، وإنما أسّس متحفًا آخر هو «المتحف التاريخي الأهلي»، وقد أشار إلى علاقة المتاحف برؤيته للجمال وللحضارة الليبية في موسوعته، ومما ورد فيها متحدثًا عن سبب اهتمامه: «منذ أن كنت صبيًا يافعًا وأنا أحرص على زيارة مدينة شحات الأثرية وكبرت وكبِر معي سؤال ما فتئ يشغلني ويلح عليّ ويدفعني بقوة لزيارة المتاحف تلو المتاحف حيثما وجدتها واستطعت إلى ذلك سبيلًا، يقول: أين يكمن سر الجمال؟».

«لذا حرصت دائمًا على زيارة متاحف كل بلد أزوره لاعتقادي أن جزءًا من الجواب يكمُن في رَدَهَاتها، وزرت منها الكثير والكثير جدًّا، زرت اللوفر في باريس ومتاحف أمريكا وإيران وبريطانيا ومالطا وأوروبا وآسيا عمومًا، إضافة لمتاحف ليبيا والدول العربية التي قدر الله لي زيارتها، وها أنا وَهَن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا وما وجدت للسؤال جوابً؛ لذا لا تستغرب أن تراني أهتم بتأسيس متحف في ليبيا»[2].

وكان من ثمرات هذا الاهتمام بالمتاحف، أن أسّس الشيخ القطعاني سنة 2008م اليوم الوطني للمسرح على مستوى ليبيا بمناسبة مرور قرن على أول عرض مسرحي ليبي حديث موثق، منح فيه شهادات تقديرية لغالب فناني البلاد، كما أبدع بعض المسرحيات، ومنها مسرحية بعنوان «فتح مكة»[3] وهي مسرحية ذات رؤيا تتحدث عن فتح مكة لقلوب الناس وعن أساليب الدعوة الإسلامية الخالدة وآراء كبار مفكري العالم وأدبائه وأعلامه فيها وتقبل عقول الناس وانشراح قلوبهم لها، وقد تم

(1) موسوعة القطعاني، الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 12هـ 644-م إلى سنة1421هـ 2000-م، أحمد القطعاني، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، 2013م، ج 4، ص 329.

(2) المصدر السابق، ج 4، ص 303.

(3) كتبها عام 1997م، وهي مطبوعة.

تقديم العرض الأول لهذه المسرحية بمناسبة ذكرى فتح مكة التي كانت على الأبواب على مسرح الفنان محمد عبد الهادي بدرنه في 16/ رمضان/ 1418هـ الموافق 15/ 1/ 1998م أداء طلاب وطالبات منارة الصحابة للعلوم الشرعية وإخراج الفنان منصور سرقيوه، وله مسرحية أخرى موسومة بـ «سجين بلا قضبان»، وهي تندرج ضمن (مسرح الطفل) ألفها سنة 2006م.

ثم قدم العرض الثاني لها مساء يوم الخميس 09/ 10/ 2008م في اليوم الوطني للمسرح في ليبيا وذلك بمناسبة مرور 100 عام على تأسيس المسرح الليبي الحديث، أدّتها على مسرح الكشاف بطرابلس فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية بالتعاون في عرضها مع العديد من الفرق الفنية الليبية المماثلة وإخراج الفنان صالح بوالسنون.

ولا يخفى للمتأمل ما تعنيه المتاحف من دلالات عميقة ترتبط بالهوية والثقافة والتراث، وغايات تربوية تستهدف تنمية الحسّ الجمالي والارتقاء بالذوق الفني لدى الأجيال، فالمتاحف ليست مجرد وسيلة لحفظ ذاكرة الشعوب وثقافة المجتمعات بقدر ما هي مدرسة قائمة بذاتها، ناطقة بالمعاني والإشارات، والأمة التي لا تهتم بماضيها الجميل، لن تبني مستقبلًا أجمل؛ ولذلك كان العلّامة الشيخ القطعاني على وعي حضاري وجمالي بقيمة المتاحف ووظائفها، وهو ما يفسر اهتمامه بها.

المحبة: كونية الجمال الصوفي عند الشيخ القطعاني

وكما يملك الإنسان «غريزة جسديةً تُنشِئُ شهواته المادية التي تشدّه إلى العالم المرئي، فكذلك يملكُ فطرةً روحيةً تُنشِئُ أشواقه الروحيةَ التي تصِلُهُ بالعالمِ الغيبيّ»[1]، وهذا الجمع بين عالمي الغيب والشهادة، هو ما يحقق للمرء الاستقرار

(1) روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2012م، ص 63.

النفسي عبر الأنس بالله واستحضار معيته؛ ولذلك فإن «التوليف بين الجوهر الروحاني في الإنسان، وبين البحث عن الاستئناس والاطمئنان بالله، هو باب الولوج إلى مدينة التصوف»[1]. ولم يكن التصوف إلا محاولة لبلوغ الكمال وتذوق الجمال الكوني في مختلف أبعاده وتجلياته، وهو ما يعني كونية الجمال الصوفي وارتباطه بقبول الآخر المختلف، بل وبمحبته وإكرامه، وهو ما سنلمسه بوضوح في نظرية الجمال الصوفي عند الشيخ القطعاني، والتي تحمل الكثير من مقومات الإبداع على غرار ما طبع التصوف من فهوم وإشارات، ومنها قوله: «إن الله يؤمن بي وبك وبه حتى إن لم نؤمن نحن به، وهذا معنى اسمه تعالى المؤمن كما أفهمه»[2]، ومنها ما له صلة بالتربية والتلطّف في معاملة الناشئة، كقوله: «إنما سمي الطفل طفلًا لتطفّله على القلوب يدخلها بلا استئذان ويفعل بها ما يشاء فلا يردّه أحد»[3]. وهناك مداخل كثيرة لولوج عوالم الجمال الصوفي الكوني عند العلّامة الشيخ القطعاني، ومنها المحبة التي تمثل ذروة سنام هذا الجمال وثمرته.

تمثل المحبة عند الشيخ القطعاني أحد تجليات الجمال الصوفي في بُعده الكوني؛ جمال الروح الذي يفيض على الجوارح بسلوك المحبة الشاملة لسائر المخلوقات والموجودات، وكما أنَّ رحمة الله وسعت كل شيء، فالمحبة عند الصوفي تسع كل شيء، لتعكِس شُكرَ المتصوف لخالقه، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، ولتعكس بذلك كونية التصوف وأنه شامل للوجود برمته. ولم تكن المحبة عند الشيخ القطعاني مجرد شعور داخلي أو إحساس عاطفي، وإنما تمثل سلوكًا عمليًّا، وورِدًا يوميًّا لتثبيت معاني المحبة في النفوس، ولذلك أسّس الشيخ القطعاني وِردًا سمّاه «ورد المحبة» وقد ذكره في كتابه «الغوث

(1) الصوفي والآخر: دراسات نقدية في الفكر الإسلامي المقارن، عبد السلام الغرميني، دار المدارس، المغرب، ط1، 2000م، ص 53.
(2) لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 52.
(3) وداعًا أيتها الدموع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 22.

في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث»[1]، إذ جعلَ المحبة أساس الطريقة العيساوية في الوصول إلى المأمول[2]، تلك المحبة التي تسع الجميع دون أي تمييز مهما كان، دينيًّا أو عرقيًّا أو ثقافيًّا، بل وتسع المخالف أيضًا، والعجيب أنها تسع كذلك المسيئين لنا، وهذا السلوك يمثل صلب التصوف الحق، ومنتهى الجمال المطلق، وضمن هذا السياق يقول الشيخ القطعاني: «ويتسع ورد المحبة ليشمل كل أهل الملة الإسلامية الكريمة وإن آذنونا باليد أو اللسان أو خالفونا في الرأي وقالوا فينا ما يُكره فالحب في الله بالله لله شاملٌ غير مقيّد، والمحبون يحبّون الوجود كله لا يفرّقون بين مظاهر قبيحة في أنظار الناس أو حسنة، إذ جمال الحقّ مبثوث في الحجر والمدر والشجر والجفاف والخصب والجبال والرياض، فالكون جملة واحدة، وهو عالم الظهور الإلهي بالصفات والعلم، فليس هناك ما يُحبّ أو ما لا يُحبّ، وإنما هناك ما يُجتنب وما لا يُجتنب حسب ما جاءت به الشريعة الغراء»[3]، وهذا يعني أن الجمال الإلهي هو مصدر كل جمال ظاهر في الكون، إنها بلسان الشيخ القطعاني: «دفء للأوصال الباردة وشفاء للأسقام الكائدة وضياء ينير للسائرين طريقهم وأمل في غد مشرق بعد ليل بهيم، إنها أرزاق وأثمار وأشجار، إنها حياة»[4].

وتلتقي نظرية الشيخ القطعاني للجمال الصوفي مع رؤية كبار الصوفية في تاريخ التصوف الإسلامي، فهذا ابن عربي الحاتمي يرى أن جمال الموجودات مستمدّ من جمال خالقها، فالله جميل، وقد خلق العالم على صورته[5]، لأنه يحب الجمال، فكان العالمُ كله جميلاً، ولذلك فحقيقة الجمال في الكون ليست أصيلة فيه، وإنما

(1) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط3، 2017م.
(2) المصدر السابق، ص 167.
(3) المصدر السابق، ص 168.
(4) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 37.
(5) بدائع الحكمة: فصول في علم الجمال وفلسفة الفن، مصدر سابق، ص 141.

هي معارة من مصدر التجلي الإلهي، وهو ما يؤكده شيخ شعراء الصوفية ابن الفارض في تائيته الكبرى المسماة «نظم السلوك»:

فكلّ مليح حُسْنُه من جمالها ... معارٌ له بل حُسْنُ كلِّ مليحةِ[1]
وتظهر للعشاق في كل مظهرٍ ... من اللبس في أشكال حسنٍ بديعةِ
ففي مرة لبنى وأخرى بُثينة ... وآونة تُدْعَى بعزة، عزَّتِ[2]

فالجمال محبوب، وهو الذي يعشقه العشاق الذين يهيمون في حب مولاهم الحق سبحانه وتعالى، ولذلك لا عجب أن يكون للشيخ القطعاني ورد للمحبة يختصر المسافات في الوصول إلى المحبوب.

ولذلك يرتبط الجمال عند الشيخ القطعاني بالمحبة، فالجمال محبوب وموصل للحبيبِ نبعُ الجمال كُلّه، وهذا يعني أن الجمال منهج تربوي عند الشيخ القطعاني، يقول في كتابه «الغوث»:

«والجمال عندنا مُقدّمٌ على الجلال، فنُذكِّرُ بالجنة ونعيمها ونُرغّبُ في سلوك طريقها ونشر على الأسماع ما أعدّ الله تعالى لعباده الصالحين وأتباع ملة سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلّم من: زرابيّ مبثوثة، وسُرُرٍ مرفوعة، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، وولدان مخلدين يطوفون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيّرون، وجنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين قطوفها دانية وأنهارها جارية»[3].

يمثل منهج الشيخ القطعاني في تفضيل الجمال أسلوبًا تربويًّا، له فائدة عملية، وتأثير مباشر في المتلقي بتشويقه وجعله يقبل على السلوك بشغف ومحبة، ذلك أن «النفس لا تميل ولا تعشق وتهيم إلا بالجمال»[4]، فيكون ذلك مقدمة للوصول إلى

(1) ديوان ابن الفارض، صححه وضبطه: إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1980م، 38.
(2) المصدر السابق، ص 39.
(3) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 167.
(4) روضة التعريف بالحب الشريف، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي، بيروت، 1966م، ص 291.

الجليل بوصفه جميلًا خارقًا ولا متناهيًا، أو أنه أعلى درجات الجميل[1]، يؤدي إلى الشعور بالهيبة[2]، أما إحساس الجمال فيرتبط بمشاعر الأنس والمحبة والاغتباط والراحة.

وبما أن السلوك الذي يكون منبعه المحبة، يأتي صادقًا وعلى السّجية دون تكلف، فإنَّ الكُلفة تزول والمشقة تضمحل في حضور المحبة، وهو ما يفسر قول الرسول ﷺ لبلال: «**أرحنا بها يا بلال**»[3]، لتغدو العبادة راحة وجمالاً تأنسُ إليه النفس وتشتاق إليه؛ ولذلك يركّز الشيخ القطعاني في منهجه الصوفي على ما يُحبّب العبد في مولاه ليهيّج قلبه لرضاه حتى يزيد شوقه إليه فيطيعه محبةً ويبحث عن ما يحبه، إنَّ المحب لما يحب مطيع، وضمن هذا المعنى يوضح الشيخ القطعاني منهجه قائلاَ: «ونأتي من الحديث الشريف بكل ما يُحبّب العبد في مولاه وما يحبه مولاه ويهيّجه لرضاه فإذا ما تمكّن حب الله في قلب السالك ولو على أقل ما يمكن نضع بين يديه قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ **[آل عمران]** وما نزال نكشف له كل يوم المزيد عن فضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشيمه العلية وأخلاقه الكريمة ورتبته القدسية ومزاياه الجسيمة ومنزلته العلوية ونسكب بين يديه من عاطر سيرته صلى الله عليه وآله وسلم ما يجعله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من أهله وماله وولده والناس أجمعين»[4]. وهذا المنهج من صميم علم التزكية الدالّ على أن الشيخ القطعاني من المربين الكبار الذين يملكون القدرة على استمالة القلوب، بالترغيب والتحبيب، وليس الترهيب والتهديد، فالسلوك الذي يكون دافعه الحب يأتي نقيًّا خالصًا وعلى قدر كبير من الحياء والخشية، وقد كان

(1) الجميل في العصور الحديثة، دمشق، فؤاد مرعي، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، العدد المزدوج: 300-301، سنة 1987م، ص 82.
(2) البنية الجمالية في الفكر العربي - الإسلامي، سعد الدين كليب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ط1، 1997م، ص 191.
(3) رواه أبو داود.
(4) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 167-168.

الشيخ القطعاني على وعي بهذا المنهج القويم في التربية الإيمانية الراسخة، إذ يقول: «ومن علامة مُحبّ الله تعالى أن يُحبّب عباده في مولاه سبحانه بصبر وسياسة وعلم وحلم وكياسة، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**حبّبوا الله إلى عباده يحبّكم الله**» **رواه الطبراني والضياء**»[1]، وبالطبع هذا المنهج يقتضي علمًا واسعًا، وكما أنَّ الله يُعبَدُ بالعلم، فكذلك تربية العُبّادِ والزُّهاد تكون بالعلم؛ ولذلك فإن التصوف حسب الشيخ القطعاني «علم وليس جهلًا، عطاء وليس خمولًا، نقاء وليس كدرًا، حضارة ورفعة وسمو فكري وإخلاص تعبّدي»[2].

هكذا، تلتقي رؤية الشيخ القطعاني للجمال مع ما يراه كبار الصوفية، ومنهم الكلاباذي الذي يقول: فإن الصوفي العارف لا يرى شيئًا إلا ويرى الله فيه، أو يرى الله قبله[3]؛ لأنه مستغرق في محبة الخالق فلا يرى غيره، ويترجمه الشوق والحنين إلى العالم الأول الذي كان فيه الإنسان، في عالم الذّرّ الذي سمعنا فيه الميثاق الإلهي بين الله وعباده بعبارة: ألستُ بربكم؟، وبالإجابة: بلى. وهو العالَمُ الذي تُقابله الجنة التي يحظى سكانها بتأمل الجمال المطلق، ولذة المشاهدة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: 22-23]، يقول ابن عربي: «يقوم أهل جنات الأعمال إلى الكثيب، وهو كثيب من المسك الأبيض.. فيأتيهم رسول من الله يقول لهم: تأهبوا لرؤية ربكم جلّ جلاله.. فيتأهبون فيتجلى الحقّ جلاله»[4].

المحبة: فناء في جمال المحبوب

تقود المحبة إلى الفناء في جمال الحضرة الإلهية، وفرط الشوق إليها؛ فينتج عنها سلوك الرحمة بالخلق وسائر الموجودات، يقول الشيخ القطعاني: «ويزيد اتساع

(1) المصدر السابق، ص 176.
(2) سري للغاية، مصدر سابق، ص 19.
(3) التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر الكلاباذي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط3، 1992م، ص 78.
(4) نحو نظرية في الجمال عند الصوفية، الندوة الثامنة حول «الفن والتصوف»، سعاد الحكيم، معهد سرفانتيس، المتحف الوطني، دمشق، 2001م، ص 8.

ورد الحب في الله لينتج فيما بعد التخلّق بالرحمة، روى الشيخان عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء». والرحمة هي روح الشريعة المحمدية من دون الشرائع، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، فيرحم الطائع والعاصي والقريب والبعيد وليشمل الرحمة بالحيوان الأعجم والطائر الضعيف فقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمن عُذب بالنار أو نُعم بالجنة في مخلوق ضعيف»[1]، ويستدل بحديث سجن الهرة، وحديث المرأة المومس، وحديث دعاء الكلب لساقيه، وغير ذلك من أخبار الرحمة بالضعفاء، وخاصة الرفق بالحيوان. والأسوة الحسنة في هذا الرفق واللين هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقول الشيخ القطعاني: «فنحن على سُنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا نتقوّى على ضعيف قط، ولا نصيد الصيد بأيدينا، وإن أُحضِر لنا أكلنا منه»[2].

ويؤكد الشيخ القطعاني أهمية «محبة الله» قائلًا: «ذرة من الحب في الله أفضل من عبادة العمر»[3]، ولذلك لا يرى محبوبًا في الحقيقة إلا الله تعالى الذي يستحق المحبة كلها، يقول الشيخ القطعاني: «ولا محبوب في الحقيقة عند أهل التحقيق إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه، وكل المحبوبات المحمودة إنما هي محبة في الحقيقة لله تعالى كحب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإخوانه من الأنبياء والأولياء والعلماء والصلحاء والإخوان وأوجه الخير؛ لأنهم ما أحبوا إلا لعلاقتهم بالله تعالى»[4].

إن سبيل المحبة الموصلة للمحبوب، والتي هي وسيلة وغاية في الآن نفسه، تمثل منهجًا إصلاحيًّا عند الشيخ القطعاني؛ لأن المحبة بوصفها شعورًا داخليًّا

(1) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 169.
(2) المصدر السابق، ص 172.
(3) المصدر السابق، ص 172.
(4) المصدر السابق، ص 172-173.

وإحساسًا باطنيًّا محلّه القلب، مثل مكونات الإيمان تقتضي تصديق العمل وإلا لم توصف بأنها محبة، وهذا يذكرنا بقول الإمام الشافعي:

تَعْصِي الإلهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ   هذا محالٌ في القياس بديعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ   إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ
في كلِّ يومٍ يبتديكَ بنعمةٍ   منهُ وأنتَ لشكرِ ذاكَ مضيعُ

ولذلك لا بد للمحبة من أن تُثمر العمل، «وإنما المحبة على قدر الإيمان»[1]، وهو ما يدعو إليه الشيخ القطعاني، عندما يقول: «وطريق محبة الله هي الطاعات وإردافها بالنوافل»[2]، ويستدل على الصلة الوثيقة بين المحبة والطاعة، بالحديث القدسي: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[3].

إن فرائض العبادات وإن كانت استجابةً للأوامر والنواهي، فهي واجبة، ومن حقوق الله على عباده، ولكن النوافل وإن كانت طاعة أيضًا، فهي تعبّر عن نوع من التقرب إلى الله محبةً واختيارًا، وليس إلزامًا واضطرارًا مثل سائر الفرائض؛ ولذلك فإن استدامة هذه النوافل يوصل للمحبوب بلا شك، ولذلك يُقَسّمُ الشيخ القطعاني «حب الله» إلى نوعين، فيقول: «وحب الله تعالى ينقسم إلى عامٍّ: وهو امتثال الأمر، وخاص: وهو حبّ الذات الإلهية العلية، وهو موهبة محضة ليس للعبد في اكتسابها نصيب.. وحقيقتها أن تهب كلّك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء»[4]، وهذا منتهى الفناء في المحبوب، وهو جمال المحبة الصوفية، ولذلك يستحضر الشيخ القطعاني

(1) المصدر السابق، ص 176.
(2) المصدر السابق، ص 173.
(3) رواه البخاري.
(4) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 173.

نماذج من أقوال أئمة الصوفية مثل: البسطامي والسري السقطي والشاذلي والحلاج، كما يستحضر بعض المواقف التي تعبّر عن فرط المحبة، ومنها أنّ بعض المحبين ممن لا شُغل له ولا شاغل إلا حبيبه، قيل له: من أين أقبلت؟ قال: من عند الحبيب؟ قيل له: وإلى أين تريد؟ قال: إلى قرب الحبيب. قيل له: وما تشتهي؟ قال: لقاء الحبيب. قيل له: وما قُوتك؟ قال: ذكرُ الحبيب. قيل له: وما شربك؟ قال: الشوق إلى الحبيب. قيل له: وما تلبس؟ قال: ستر الحبيب. قيل له: فلم أصفر وجهك؟ قال: من فراق الحبيب. قيل له: إلى متى تقول: الحبيب الحبيب؟ قال: إلى أن أرى وجه الحبيب[1]. فالحب يفعل بالقلب العجائب، «أيها الحب ويلك، ستُحاسب يومًا حسابًا شديدًا على ما عاثت يداك في القلوب الغافلة»[2]، ومعناه: لا يليق الحب إلا للحبيب وهو الحق سبحانه وخير خلقه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأما ما سواهما ففرع عن الأصل، ومؤدّي إليهما، وغير هذا الحب، مجرد ألم وعذاب، حيث «تكون الخطيئة عندما لا نعرف كيف نحبّ»[3]، و«لو كنتَ أيها الحب رجلاً لتقرّبتُ بدمك إلى الله ومنعتُ القطعان من دفع ديتك»[4].

ولأنَّ منهج المربي الشيخ القطعاني يقوم على الكتاب والسنة، فهو يؤكد أن حب الله يأتي من بوابة حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيرى أن «محبة الرسول فرض واجب وشرط لازم من شروط الإيمان، لا يكمل إيمان من فقده، قال صلى الله عليه وآله وسلم منبهًا له دالاً عليه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» رواه البخاري ومسلم.. سيدي يا رسول الله:

فما نظرتْ من بعدِكَ مُقلتي — إلى أحدٍ إلا وشخصُك ماثلُ
وما غمضتُ إلا رأيتك في الكرى — كأنّك بين الجفن والعين نازلُ»[5]

(1) المصدر السابق، ص 175.
(2) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 48.
(3) المصدر السابق، ص 50.
(4) المصدر السابق، ص 72.
(5) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 176.

وهذا المنهج مطابق لما في التصوف السُّني من تأكيد على التزام الكتاب والسنة ونبذ البدع، كما قال الإمام الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام»[1]، «فالطريق إلى الله تعالى من غير النبيِّ ﷺ مَسْدودٌ، والداخلُ من غير بابهِ مَرْدودٌ»[2]، وكما قال الشيخ أحمد التيجاني: «وهو ﷺ وآله باب الله الأعظم، فمَن رامَ من السالكينَ الدخول على الله تعالى في حضرة جلاله وقدسه مُعرضًا عن حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم طُرِدَ ولُعِنَ وسُدّت عليه الطرق والأبواب، ورُدّ بِعصا الأدب إلى إسطبل الدواب»[3].

ولذلك جعل الشيخ القطعاني حقيقة محبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي «اتباعه واعتقاد نصرته والذبّ عن سُنّته والانقياد لها وهيبة مخالفته ودوام ذكره وإيثاره والشوق إليه ومواطأة القلب على ما يحبّ ويكره وتمني حضور حياته فيبذل ماله ونفسه دونه ويفديه بالغالي والنفيس»[4]. فلا تكون الطريقة واصلةً وموصلةً إلا إذا ركبت سفينة محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك يرى الشيخ القطعاني أن «كل من انتسب للطريقة العيساوية العلية وسار على نهجها صار من المعنيين مباشرة بقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]»[5]، وهو ما يعني أن يغرق المحب في بحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

يقول الشيخ القطعاني: «قال بهجة الخاطر ومنية الخواطر سيدي الإمام الكامل

---

(1) الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، 1989م، ص 79.

(2) رسالة الاستبصار على الطاعن المعثار، ضمن مصنف «الثغر الباسم»، أبو سالم العياشي، تحقيق ودراسة: محمد بزي، أطروحة لنيل الدكتوراه، 2005م، المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز فاس.

(3) الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، مصدر سابق، ص 180.

(4) المصدر السابق، ص 177.

(5) المصدر السابق، ص 177.

محمد بن عيسى ﷺ: كيف تشرق ذات بأنوار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم تفعل ما كانت تفعله الذات الشريفة؟

رضي الله عند سيدي ومولاي شيخ مشايخ الإسلام يا من قيل فيك: جميع الأولياء شربوا من بحر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والشيخ ابن عيسى غرق فيه»[1].

حيث يظهر في كلام الشيخ القطعاني الأدب الجم في حضرة الشيوخ الأولياء وتقديره لجناب النبي وتعظيمه لقدره؛ إذ محبة الرسول الكريم هي رأس المال، وهي المعوّل عليه كما قال الإمام سيدي محمد بن سليمان الجزولي:

وليس لي عملٌ ألقى العليمَ به سوى محبّتك العُظمى وإيماني

وبالطبع، تقتضي محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، محبة كل منتسب إليه، من آل بيته والصالحين المحبين، وهو ما يختم به الشيخ القطعاني حديثه عن ورد المحبة، ليبلغ بهذا المنهج منتهى جماله في ترقيق القلوب لتهفو شوقًا لمن كان بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

مدرسة الحب والجمال

من النماذج التي أسهم الشيخ القطعاني في إبرازها والتنظير لها بضوابط وسمات، هي الطريقة العيساوية، فقد كان للشيخ اهتمام جليّ بها، كما تدل على ذلك جملة من مؤلفاته التي خصّ بها هذه الطريقة ومؤسِّسها الشيخ محمد بن عيسى الغوث، وذلك لما طبع هذه الطريقة من مقومات روحية وتربوية تنسجم مع رؤية الشيخ القطعاني للجمال وللمحبة باعتبارها منهجًا تربويًّا أصيلًا، أو كما وصفها الشيخ القطعاني بمدرسة الحب والجمال، في قوله: «نحن العيساوية محبّون جماليون بالمطلق نيةً وقولًا وفعلًا تبعًا لمدرستنا الرشيدة؛ إذ لكل طريقة صوفية خصائصها المميزة، أما

(1) المصدر السابق، ص 177.

مدرستنا العيساوية فلها خاصيتان اثنتان فقط متداخلتان متكاملتان يميزانها ويشكلان أساليب التربية والسلوك الباطنة فيها»[1]، ويتعلق الأمر بالحب والجمال.

أما الحب، فيرى الشيخ القطعاني أنه أساس الطريقة الصوفية العيساوية في الوصول إلى المأمول، وهو بصورته الكاملة حب الله تعالى ورسله وأنبيائه وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحب آله الكرام والأولياء والصالحين وشعائر الدين ومشاعره وحب الخلق وحب الطبيعة، بما يعنيه ذلك من وسائل للوصول إلى تحقيق هذا المطلب.

ويستدل ببعض أقوال الشيخ الكامل، في تأكيد منهج المحبة والصفاء، وأنها شعار دائم لمن أراد أن ينعم بأنعم الله في الدارين، خاصةً وأنّ الحبّ لا ميزان له، فكل لغة قد تكذب إلا لغة القلوب، يقول الشيخ الكامل: «إذا أحببت فاستفت قلبك، وإذا أحسست بالبغض والكراهية فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، فنحن قوم لا نكره أحدًا والكراهية ليست من شيمتنا وطبيعتها»[2].

وفيما يرتبط بالخاصية الثانية، فهي الجمال، حيث يرى الشيخ القطعاني أن الطريقة العيساوية طريقة جمالية المشرب بالأساس، أي أنّ هذه الطريقة تُبشّر ولا تُنفِّر، تُرغِّب ولا تُرهِّب، تُيسِّر ولا تُعسِّر، تُقرّب ولا تُبعِّد، تجبر ولا تكسر، تقدم الشكر على الصبر، والعفو على الظفر، والرجاء على الخوف، والفرح على الحزن، والنصيحة على الأذية، ولا تُكّفر أحدًا ولو كان رابطه بالدين شعرة واحدة[3]. ويبدو واضحًا البعد الجمالي في منهج هذه الطريقة الصوفية، ذلك أن كل مقومات الفرح والاستبشار والأمل حاضرة فيها، وهو ما يمنح الآخر الأمان، فتتدفّق أحاسيس الود والحنان، وتسري في النفس مشاعر الأنس بالله والرحمة بالخلق أجمعين، وهو ما

(1) أعلام الطريقة العيساوية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2019م، ص 32-33.
(2) المصدر السابق، ص 33.
(3) المصدر السابق، ص 34.

يبني مجتمعًا متماسكًا ومتسامحًا؛ ولذلك كان الشيخ محمد بن عيسى يوصي مريديه بضرورة محبة الخلق والرحمة بهم، يقول:

أوصيكَ أيها المريدُ الصادقْ بالبرّ والحنان والتصادِقْ
واحببْ إخوانك فلا تُغادر لحُبّهم فعجّلن وبادِرْ
لتدخل في زُمرة أهل المُحبّين في ظلّ عرشِ ربنا فكُنْ فطينْ[1]
بسُنّة الرسول والكِتاب فإن تمسّكتَ فلا عِتابْ

إنَّ الحب والجمال هما عماد الطريقة العيساوية وأساسها المعنوي، وهو مما يُتذوّق بالروح ولا يوصف بالعبارة أو يُعرف بالإشارة، وإنما صفاءٌ مقيمٌ وحبٌّ مكين، والتزامٌ متينٌ بهدي النبيّ الأمين، وهو ما حرص الشيخ القطعاني على بيانه من خلال الجمع بين العقيدة والسلوك، ولا يتحقّق هذا الجمع إلا بربط العلم بالعمل، وهو الجانب الظاهر في الطريقة العيساوية؛ أي «أن تتعلّم وتعمل بما تتعلّم وتحمد الله على أن علّمك ووفقك للعمل وتستغفر مما كنت عليه قبل أن تتعلّم، وبذا تكون في ترقٍّ مستمر»[2].

جمالية أدب القطعاني

ومما يُظهِرُ جمالية المنهج الصوفي عند الشيخ القطعاني، هو لغته الأدبية الساحرة والمؤثرة، والتي تأخذ بلبّ القارئ؛ لعذوبة ألفاظها وكونها تُخاطِبُ الرُّوح، فتتسلّلُ إلى القلوب بيُسرٍ وسهولة، بل وتجعل العين قبل القلب تخشع فتدمع شوقًا للعلي القدير، ومثالُ هذه اللغة، ما ختم به كتابه: «الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث»، ومما جاء فيه هذه المقاطع:

«يا مَن سَطَحَ الأرض على الماء، وشدّ الماء على الهواء، واختار لنفسه أحسن الأسماء، احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بكنفك الذي لا يُرام ولا يُضام،

(1) المصدر السابق، ص 34.
(2) المصدر السابق، ص 35.

وارحمنا بقدرتك علينا، ولا تكلنا إلى أنفسنا فأنت رجاؤنا، يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام»[1].

«سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، أعفّرُ وجهي في التراب لسيدي، وحقّ لوجه سيدي أن تُعفَّرَ الوجوه لوجهه، وهذه يدي التي جنيتُ بها على نفسي، فيا عظيم هل يغفر الذنب العظيم، إلا الرب العظيم، فاغفر لي الذنب العظيم»[2].

والحقّ أن «حسن الختام» الذي ختم به كتابه الغوث، يمثل أدبًا وجدانيًّا وروحيًّا في قمة الجمال الأدبي والفني، ويزيده جمالًا أدب الشيخ القطعاني في حضرة الحق سبحانه وهو يدعوه ويتذّلل إليه، ليتّحد حال الدعاء بمقام الانكسار، ويتحقّق المقصود في بلوغ القرب من باب الدعاء الذي هو مخ العبادة، فنقرأ هذا الأدب الجم المقرون بلغة البيان وقد امتلك الشيخ ناصية اللغة فانسابت الألفاظ أكثر عذوبة ورِقّة:

«سُدّ خللي واغفر زللي واقبل عِللي، فقد خلوت بكتابك وعرضته على نفسي، فوجدتني متصفًا بكل ذميمة، ووجدتك موصوفًا بكل كريمة، وحاشا الكريم الرؤوف الرحيم، أن يرُدَّ عبدَهُ الذليل الضعيف عن بابه، وإن تجاوز الحدّ وفاقت ذنوبه عند حفظتك العدّ»[3].

كما تتجلى جماليات الأدب الصوفي عند الشيخ القطعاني في كثير من قصائده الشعرية، والتي نختار منها ما له صلة بالمحبة، ويتعلق الأمر بقصيدة تحمل عنوان «أحوال المحبين»[4]، وقد جعلها في سبع مقاطع، كل مقطع يمثل حالاً من أحوال المحبين، دون وضع عنوان لكل حال، وهي إشارة مقصودة من الشيخ القطعاني في أنّ الحال ومضة سريعة الزوال والتحوّل، فهي وِجدٌ يتدفّق، قد يرتقي إلى مقام أو صفة ثابتة.

(1) المصدر السابق، ص 255.
(2) المصدر السابق، ص 256.
(3) المصدر السابق، ص 256.
(4) شارك بها الشيخ القطعاني في مهرجان طرابلس الدولي للمديح النبوي في دروته السابعة التي وافقت يومي الأربعاء والخميس 7 – 8 / ربيع الأنور 1426 هـ الموافق 5 – 6 / 4 / 2006م.

ومما ورد فيها:

خيام سلمى مع الأشــواق لم تغبِ   وذكرها في لســاني غير مقتضبِ
ووجـهـهـــا نـورعيني وهـي دانــية   والـوجد مـا زاد عـنها غير مـــحتسبِ
لا أصـغي فـيها لـلاحٍ قـام يــعذلني   فـغير طـاعتها فـــي الحب لم تجب
رضـاؤهـا والـهـوى عــذب كـلاهــما   أمـا وصـالها فـأشفى مـن الــوصب
فـإن دنـت أو نـأت حـــبي كما عهدت   تبيض فيه النواصي وهو كالذهــب

وللشيخ القطعاني قصيدة أخرى موسومة بـ «صفات المحبين»(1)، تفيض جمالاً وحبًّا صافيًّا، وقد ذكر فيها سبع مقاطع هي سبعة صفات: بعدَ أنْ ذاقَ عرفْ، والعجزُ عن الإدراكِ إدراك، وقلقٌ واضطراب، وما كانَ لهم الخِيَرة، ولا يشاركني في محبوبي أحد، وثم صار مجذوبًا، ثم قصصهم هي كل حياتهم وحياتهم هي كل قصصهم.

ومما ورد فيها:

يا حبــةَ القلــبِ إنـــي لا أنــاديكِ   وأقـــولُ يا لُبنــى أنــاديها وأعــنيكِ
خـــوفًا عليــكِ مـــن الأذانِ تسـمعُني   أوعيـــنُ مِعيـــانٍ تـــرميني وتـــرميكِ
يا مُهجـةَ الـروحِ جـودي إنـي منتظـرٌ   إنجـــازَ وَعـــدكِ والحـــالُ يُنبيــكِ
قالــوا: رأيتَهـا يومًـا محـضَ مُصادفـةٍ   وزعمـــوا أن ذاكَ يكفينـــي ويكفيــكِ
خـــابَ العــذولُ قـــد زرتِ واحـــدةً   باللــهِ لا تجعلــيها بيــضةَ الـــديكِ

إذ لا يخفى ما في القصيدتين من تأثر واضح بالكتابات الصوفية، وخاصة الشعر الصوفي عند كبار المتصوفة، مثل ابن الفارض وابن عربي، وغيرهما ممن وظفوا الغزل في تعبيرهم عن الفناء في محبة الله، والاشتياق الدائم إليه.

وتظهر جماليات أدب الشيخ القطعاني أيضًا في نثره، فمقالاته تفيض عذوبة ويسرًا، مثلما نقرأ في كتابه «الحب القذر»، ومثلما نجد في كثير من قصصه، ومنها

(1) نظمها في طيبة بطرابلس مساء الخميس 4 ربيع الأول 1428 هـ الموافق 22 / 3 / 2007م، وألقاها على هامش مهرجان طرابلس الدولي للمديح النبوي في دروته الثامنة مساء السبت 6 ربيع الأول 1428هـ.

«لماذا أبكيتم عصام؟»، و «وداعًا أيتها الدموع»، ففضلًا عن جمالية الأسلوب، هناك بلاغتي الإمتاع والإقناع، وكثافة الصور الشعرية، والتي لا تقتصر على قصائده، وإنما يوظفها في نثره أيضًا، بشكل يأسر القارئ ويبلغ المعنى الواسع في ألفاظ موجزة، وكأنه مَلَك جوامع الكلِم، فلا يجد عناء في البوح والتعبير، ومِن تلك الصور الشعرية في نثره، وهي كثيرة، نستحضر هذا المقطع: «لا يخلو مكان في جسمي من طعنة حادة أو جرح غائر، مضغتني الدنيا بأضراسها الصلبة القاسية، ثم قذفتني لطاحونة الهموم والأحزان تسحقني»[1].

يجمع أدب الشيخ القطعاني بين جماليتي اللغة والفكر، هناك لغة خاصة جدًّا رافعة للذوق الفني والحسّ الجمالي، وثمة فكر عميق رافع للهمم والمعالي، نص القطعاني يبني ويرقّي، إذ يتأكد جليًّا أن الشيخ القطعاني لا يكتب لتسلية القارئ أو تدوين الأفكار، وإنما له رسالة سامية وشاملة، تكمن في الارتقاء بالمتلقي وتهذيبه، ومن وراء ذلك خدمة المجتمع للنهوض بأوضاع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهو ما دفع الشيخ القطعاني لتبني منهج الرفق واللين، في علاج كثير من الظواهر المعنوية والمادية، ويمثل «الحب» أداة من أدوات هذا المنهج، يقول الشيخ القطعاني في مجموعته القصصية «لماذا أبكيتم عصام؟»: الحب كالمطر تنتفع به كل أرض على قدر خصوبتها، فما أسهل أن يحب المرء، ولكن ما أصعب أن يجد من يستحق حبه[2].

ولذلك فإن الكتابة بالحب، كتابة من العمق، تجعل الأثر المكتوب خالدًا ومؤثرًا، ويتسلّل إلى قلب القارئ وعقله، فيُحدث التغيير المنشود، وهذا النمط من الكتابة وإن كان بسيطًا في نظر صاحبه الشيخ القطعاني، فهو كبير عند القراء، يقول الشيخ القطعاني متحدثًا عن بعض أسرار الكتابة عنده: «طالما سألني السائلون ورغب

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 46.
(2) المصدر السابق، ص 4.

مني الراغبون أن أريهم كيف أكتب، وأعتقد أن الأوان قد آن لأفصح لهم عن أسرار قلمي وأوراقي وهي وإن كانت أسرارًا صغيرة وبسيطة إلا أنني أعتقد أنها ستضيف إليهم شيئًا جديدًا ينفعهم، فخلاصة ما في الأمر أنني إطلاقًا لا أكتب من السطح أو عنه بل من مكان آخر أقصى من ذلك بكثير وأبعد غورًا اسمه: الأعماق، وقد حان وقت الذهاب إلى الأعماق، فثمة أمور مذهلة هناك»[1]. وبالفعل فإنّ الناظر في أدب القطعاني سوف يجد بحورًا من الجمال لا تنتهي إلا لتبدأ، ولا تغرب إلا لشرق مع كل قراءة جديدة.

في جمالية المظهر والمخبر: رؤية متفردة للجمال

يفتتح الشيخ القطعاني كتابه: «الحب القذر» بمقال عنوانه: «مَن حرّم زينة الله؟»، ليؤكد فيه أهمية الاهتمام بجمالية المظهر والتزين بأحسن اللباس، وهو الأصل في تعامل الإنسان مع نفسه، ولكن عرفت الإنسانية انتكاسة حضارية وخاصة في المجتمعات الإسلامية التي ربطت التدين بنوع معين من اللباس، استجابة لفقه جامد متحجّر لا يصلح إلا لزمانه، وهو ما يتناقض مع روح الشريعة الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان، والتي تحث على التزين والاهتمام بالجمال؛ جمال الظاهر وجمال الباطن.

وهكذا يعارض الشيخ القطعاني فكرة وجود «لباس إسلامي ولباس غير إسلامي»، ويؤكد أن «اللباس ثقافة» لها صلة بالأعراف والتقاليد ولا علاقة له بالدين، يقول: «فالإسلام لم يفصّل علينا ثيابًا تطول أو تقصر أو جلابية وطاقية، فالالتزام بلباس موحد لا يتغيّر وتقييم الناس بموجبه، تأباه الفطرة السوية وينبو عنه المنطق السليم وطبيعة خلقة الإنسان التي تأبى القيود والقوالب وترغب التحرر والانطلاق»[2].

(1) المصدر السابق، ص 42.
(2) الحبّ القذر: فقه مستنير، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 4.

ولذلك فإنّ الشريعة السمحة إنما جاءت بضوابط عامة مثل ستر العورة بثوب لا يصف البدن ولا يشف عما تحته مراعيًا العرف الذي لا يحلّ حرامًا أو يحرّم حلالًا مع معرفة حدود عورة المرأة وحدود عورة الرجل، بالإضافة إلى إظهار المسلم ذَكرًا كان أو أنثى في منظر حسن جميل[1].

يدافع الشيخ القطعاني عن ثقافة التجمّل، فيرى أنَّ كل صور الحياة مليئة بمعاني الجمال، ليعرف المرء أهمية الزينة والتجمّل، يقول: «من المُخجل المُحزن أن نرى ثقافة التأنق والتجمل قد انحطت في مجتمعنا ونبذها الجميع خلف ظهورهم. ويسوقنا ذلك إلى الأسرة وهي نواة المجتمع ولبّه وهي التي إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت فسد المجتمع كله، ألا تحتاج وهي قطب الحياة وعمودها وسنامها إلى مظاهر جمالية أنيقة وزينة حانية رقيقة بين أفرادها لتزداد حيا وأنسًا وتنسجم مع منظومة الحياة الخالدة فلا تكون نشازًا ثقيلًا في جوقتها»[2].

ففي نظر الشيخ القطعاني التربية الجمالية ترتبط بالتنشئة الاجتماعية وخصوصًا تنمية الحس الجمالي عند الأطفال في أُسَرهم التي تعودهم على العناية بالهندام والاهتمام بنظافة اللباس وأناقته، حيث يقول: «وألحّ على أن ننقل ثقافة اللباس الأنيق إلى أبنائنا فلا يخرجون إلى المدرسة أو إلى الشارع إلا في ثياب جميلة أنيقة... وإن لم نرتقِ نحن خير أمة أخرجت للناس بالذوق الجمالي، فمن؟»[3].

ولأن الأسرة هي عماد التربية الجمالية في المجتمع، فقد كانت للشيخ القطعاني رؤية متفرّدة للمرأة، بوصفها أساس البيت والمعوّل عليه في إبداع الجمال فيه، فقد خصّها الله «بخلاصة جمال الكون؛ ففيها من الورود رائحتها وتفتحها، ومن العصافير شقشقتها وتغريدها، ومن الغزلان لطفها ورشاقتها، ومن الأرض عطاؤها

(1) المصدر السابق، ص 4-5.
(2) المصدر السابق، ص 7.
(3) المصدر السابق، ص 8.

وخصوبتها، ومن الشجرة التفافها وتشابكها، ومن البدور نورها وطلعتها، ومن النحلة عسلها وزخرفتها..، وإلى آخر ما في كونه سبحانه من جمال وعذوبة»[1]، ولذلك يدعو الشيخ القطعاني المرأة، والرجل على حد سواء، إلى العناية بجمال المظهر لتقرّ عين الواحد منهما بالآخر، ولكي ينظر الرجل لزوجته فيُسرّ بها؛ فيكون ذلك باعثًا على الاستقرار ودوام المودة والرحمة واستمرار الألفة والوداد، وفي ذلك درء لمفاسد العصر من تبرّج وسفور يقود إلى هدم البيوت. كما يدعو الشيخ القطعاني إلى تحصين هذه المودة بتبادل الهدايا وإحياء قُبْلة الزوجية وهي سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من أمارات المحبة والسرور، فهي «أسلوب حضاري بديع رفيع للتعبير عن مشاعر الزوجية المقدسة والتزام يومي ينبغي أن يحرص عليه الزوجان مع إطلالة كل صباح عليهما»[2].

وبأسلوب تربوي وإصلاحي جذّاب ومحبّب يصوّر الشيخ القطعاني الحياة الزوجية السعيدة تصويرًا جماليًّا بديعًا، يرتقي بهذه الحياة من المستوى المألوف والعادي، إلى مدارج السمو والكمال اللامتناهي، باستحضار بعض مظاهر تعامل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع بعض زوجاته، حيث الحب الخالص والمودة المثلى بين الزوجين، ولا يغفل الشيخ القطعاني عن تمرير الرسائل في ثنايا تشويق القارئ لهذه الحياة الطيبة، من قبيل تيسير الزواج وإظهار الفرح والتزين والعفة، وغير ذلك مما لا بد منه لاستدامة الحياة الزوجية، وقد خصّص لهذه القضايا أكثر من مقال في كتابه (الحب القذر: فقه مستنير)[3].

ولما كان الجمال ظاهرًا وباطنًا، فقد كانت للشيخ القطعاني لمسات إشارية في غاية الجمال، تروم الجمع بين جمال الباطن وتأنّق الظاهر، ومنها حديثه عن وضوء

(1) المصدر السابق، ص 9.
(2) المصدر السابق، ص 16.
(3) ومن ذلك المقالات الآتية: «دموع الفرح»، و «هي لن تعود إليه»، و«الحب القذر».

الصلاة بوصفه «سيد الزينة ومفتاح الجمال والبهاء»[1]، وحديثه عن تلاوة الحديث لأنه «يكسب الوجه وسائر البدن نضارة»[2]، فما بالك بالقرآن الذي هو نبع الجمال كله. كما لم يَفُتِ الشيخ القطعاني أن يحسم في موضوع أنماط اللباس، وقضية إعفاء اللحية.. وغيرها من الموضوعات التي أثارت الكثير من الجدل بين الفقهاء في عصرنا الحالي، فيقول: إن «الإسلام ليس مظهرًا فقط، وإنما هو مظهر ومخبر، عقيدة وسلوك، لا ينبغي أن تكون مثل هذه الموضوعات المتعلقة باللحية أو الثوب القصير أو الإسبال، مصادر خلافات ومنازعات، فإن الإسلام أعمق من ذلك كله»[3]. فعندما وصف الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، لم يركّز على لباسه، وهو بدون شك جميل، حسب معايير عصره، وإنما ركّز على جوهر الدين، وهو الخلق الرفيع، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]، ولذلك يدعو الشيخ القطعاني إلى التركيز على الأهم وأن «نوفر الجهد والوقت الذي نبذله في هذه المواضيع السطحية لآيات كريمة وأحاديث شريفة تدعو إلى الوحدة وتحذر من الفرقة»[4]، كقوله تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103]، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

لغة الحب في جمالية الأيدي

ومما يصنع الوحدة بين الناس ويؤلف بين القلوب، ما أسماه الشيخ القطعاني بـ «لغة الحب»، وهي اللغة الوحيدة التي لا تحتاج ترجمانًا، أداتها الأيدي، يقول الشيخ القطعاني: «أما لغة الحب الطبيعية التي يتكلمها الناس جميعًا بإتقان لأنهم ببساطة يولدون بها، وهي لا تحتاج منهم تعليمًا في المدارس والجامعات أو إيضاحًا أو ترجمة

(1) الحبّ القذر: فقه مستنير، مصدر سابق، ص 11.
(2) المصدر السابق، ص 11.
(3) المصدر السابق، ص 28.
(4) المصدر السابق، ص 28.

فهي لغة الأيدي»[1]، حيث إن «تبادل المصافحة يمثل دليل على الحب والمودة؛ لأنه إذا ما تلامست الأكف والتقت الأيدي ترجم ذلك في بواطننا من غير أن ننتبه إلى التقاء القلبين وتصافحهما، ويقوم فينا الخطيب أو الشاعر أو المبدع أو الرياضي أو أي إنسان سواهم ممن استحقوا عواطفنا ومودتنا فلا نجد ما نعبّر به عن حبنا لهم إلا بالتصفيق وهو من مفردات لغة الأيدي، والمبايعة في الله التي هي أصدق العهود وآكد الوعود بين نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الكرام وأولياء الله الصالحين وراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بعده وتلامذتهم لا تتم إلا بالأيدي ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: 10]، حتى المتشاحنين يتبادلون المصافحة إذا ما اصطلحا بعد خصام وأبعد الله الشيطان من بينهما»[2].

وليست الأيدي مجرد وسيلة للتعبير عن المحبة، ولكنها أيضًا تكشف الكثير عن حالات القلب مما لا يستطيع المرء البوح به، يقول الشيخ القطعاني: «أكفّ البشر لها لغة، إنني أشبّهها بـ (كي بورد) الإنسان، فإنك أحيانًا تصافح إنسانًا فتشعر بالحزن وأحيانًا الغضب وأحيانًا الحياء، كل ذلك ينتقل عبر المصافحة بالأكف ومنها وعبرها تنتقل الأحوال والمشاعر»[3].

وهكذا ينظر الشيخ القطعاني للأيدي نظرة جمالية وفلسفية عميقة، ترتقي بالأيدي من مستوى العضو العادي إلى تلك الأداة العجيبة التي تتحقق بها رسالة المؤمن في نشر الأمان والمحبة، فالمؤمن من أمِنَه الناس، والمسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، فضلًا عن إبداع الجمال في الكون عبر هذه الأيدي العجيبة، «فالفنون الإنسانية الرائعة الراقية من: رسم ونحت وخط وشعر وأدب ونثر كانت عبارة عن معانٍ في أذهان أصحابها لا وجود مادي لها، ولولا الأيدي ما وُلِدت في عالم الحسّ

(1) المصدر السابق، ص 103.
(2) المصدر السابق، ص 103.
(3) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 58-59.

والنظر ولا لمست ولا خُلّدت ولا سُمِعت ولا عُرِفت، إذ هي الابن الشرعي البكر للغة الأيدي، والموسيقى كذلك هي من نتاج الأيدي بل إنَّ أوّل لحن موسيقى عزفه الإنسان على وجه الأرض كان هو التصفيق بكفّيه»[1].

ويبدو جليًّا حضور الإبداع في رؤية جمالية لغة الأيدي، فهو موضوع متفرّد ويقتضي حقيقةً الكثير من التأمل؛ لأن حياة الإنسان كلها قائمة على عمل الأيدي، ولذلك فإن نظرية الشيخ القطعاني للغة الحب تحمل الكثير من مقومات الإبداع والتجديد، في إعادة توجيه نظر القراء والمتلقين إلى قيمة الأيدي وأهميتها ومدى قوة تأثيرها؛ لأن الإنسان أحيانًا كثيرة وبسبب الألفة والاعتياد يفقد الإحساس بالجمال، بل ويفقد الإحساس بالمعنى، فتأتي تصرفاته على السجية والطبع، دون أي إحساس بالامتنان للخالق وشكره على نعمه، ودون استثمار هذه النعمة الكبرى في شكر الله، عبر تحسين العمل وتجويده، استجابة لأمر الله تعالى في شكره بالعمل: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: 13]، ولذلك كان الشيخ القطعاني على وعي جمالي متسع الأفق وحسّ إنساني منفتح على المستقبل، لأن بوابة ارتقاء الإنسان تكمن في إحسان العمل بالأيدي، وما ذلك العمل إلا تصديقٌ لأركان الإيمان، فيحقّق المرء الانسجام بين العقل والقلب، وبين الجسد والروح، والخيال والواقع، الشيء الذي يصنع الجمال ويُبهر العالمين، وقد كان المجتمع الإسلامي أولى من غيره بهذا الإنجاز، وفق ما أقر به القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [**آل عمران**: 110].

إنها رؤية حكيمة تدل على بصيرة مؤيدة بإلهام الحق وبتوفيقه سبحانه، كما تعكس تبحّرًا في العلوم الدينية والدنيوية، وتكشف عن بلوغ الشيخ القطعاني درجة الاجتهاد، ويظهر أثر ذلك في رؤيته الجمالية للأشياء والظواهر ونشاطات الحياة، ومنها الفنون الجميلة وغيرها من مجالات الإبداع في فن الحياة وفن العيش.

(1) الحبّ القذر: فقه مستنير، مصدر سابق، ص 104.

يرى الشيخ القطعاني أن الفن «لغة تعبيرية استخدمها الإنسان منذ القدم، ليترجم بها مشاعره وأحاسيسه، وهو حاجة ضرورية للإنسان كالماء والطعام»[1]، حيث إن «تعبير الإنسان عن مشاعره هو ما يسمى بالفن، إذ فطر الله النفس البشرية على حب كل جميل والنفور من كل قبيح، والفن له علاقة ماسة بمشاعر الجمال والقبح»[2].

ويتحدث الشيخ القطعاني عن أوجه الخلاف بين الفقهاء حول بعض أنواع الفنون، وعلى رأسها الرسم والنحت والموسيقى والغناء والسينما والمسرح والرقص، والتي تمثل في نظره نشاطًا إنسانيًّا ينبغي أن يحتم إلى الميزان الدقيق في حياة المسلم وهو عرضها على أحكام الشرع الخمسة التي هي الفرض والحرام والمندوب والمكروه والمباح، بحيث يتقلّب الفعل ضمن هذه الأحكام حسب المقصد والنية منه، ولذلك ينبغي الحذر من إطلاق أحكام عامة لا تستند إلى دليل شرعي، ويستعرض بعض الأمثلة ليؤكد أنه قد آن الأوان للأصوات التي تحارب الفن باسم الإسلام أن تعيد ترتيب أحكامها[3]، فالفن منحة ربانية «يهبها الخالق سبحانه لكل إنسان بصور متفاوتة تختلف بين فرد وآخر ويخصّ سبحانه البعض بقدرات ومهارات لإبداع أشياء تحمل قيمة جمالية»[4]، بل إن «هناك علاقة تكاملية بين الحق والجمال الذي يدركه الإنسان فطرة بحواسه؛ العين تدرك المنظر الجميل، والأذن تميل للصوت الحسن، والأنف يشم الرائحة الزكية، واليد تحس الملمس الندي، واللسان يتذوق الطعم اللذيذ، والحق هو خلاصة الجمال وواجب الفن الصحيح أن يجمع بين الجمال والحق»[5]، وبذلك يأخذ الفن مكانة كبيرة في حياة المسلم، وتستعيد الفنون الجميلة قيمتها انطلاقًا من هذه الرؤية الجمالية للعالم.

(1) المصدر السابق، ص 40.
(2) المصدر السابق، ص 45.
(3) المصدر السابق، ص 42.
(4) المصدر السابق، ص 40.
(5) المصدر السابق، ص 45.

خاتمة:

بعد هذه الرحلة الجميلة في بستان عوارف الشيخ العلّامة أحمد القطعاني، وتتبع مظاهر الجمال في رؤيته للكون والوجود، نخلص إلى أنَّ نظرية الجمال الصوفي لدى القطعاني تتسم بالعمق والشمول، وتحتل فيها المحبة مكانة كبيرة، لأنَّ الجمال ثمرة المحبة، كما قيل:

وَعَيـنُ الرِضـا عَـن كُلِّ عَيبٍ كَليلَـةٌ وَلَكِـنَّ عَينَ السُـخطِ تُبدي المَسـاوِيا

حيث يتحوّل الحب في نظرية الجمال عند الشيخ القطعاني إلى رؤية للآخرين وللعالم من حولنا، إذ يقول: «نحن نرى الآخرين بما نحب أن نراهم عليه»[1]، وكلما كان المرء جميلًا، رأى الوجود جميلًا، وهكذا يرى الشيخ القطعاني أن الكون كله جمال، «إنّ الزينة والجمال هما الأصل في الكون، والقبح شيء من صنع المحدثات طارئ فيه»[2]، فالله جميل يحب الجمال، ومن أسمائه الحسنى «الجميل»، كما أن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم اتفق جميع واصفيه على أنه جميل، بل في منتهى الجمال والبهاء، وإنّ مظاهر الكون من مخلوقات وموجودات «وإن اختلفت كثيرًا وتباينت نجدها قد اتفقت في شيء واحد وهو تلك المسحة الجمالية الملازمة لها الغالبة على الكون كله»[3]، وهي تحمل إشارات محبة من الله، تبعث برسالة الجمال إلى الإنسان ليتخلّق بسلوك الجمال حسًّا ومعنىً، حيث صلة الوثيقة بين الرحمة والحب والجمال.

تبين من خلال هذه الدراسة، أن نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني تحمل أبعادًا تربوية وإصلاحية تروم الارتقاء بحياة الفرد وإعداد مجتمع متحضّر يُقدّر قيمة الجمال حسًّا ومعنىً، ظاهرًا وباطنًا، وهي جوهر الفكرة الصوفية القائمة على

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 5.
(2) الحبّ القذر: فقه مستنير، مصدر سابق، ص 5.
(3) المصدر السابق، ص 10.

الجمال الروحي الذي يفيض على الجوارح جمالًا في القول والعمل وفي مراقبة الخواطر، فالتصوف كما قيل هو «الدخول في كل خلق سَنِيّ، والخروج من كل خلق دَنِيّ»(1)، وهو ما يتقاطع مع رؤية الشيخ القطعاني للتصوف والجمال.

إذا اشترك البشر جميعًا في النشأة الأولى المرتبطة بصنع الله للجسد، فَهُمْ -ولا شك- اختلفوا في مقامات التجمّل بصفات المقربين، ومن ثم سَعى المنهج الجمالي عند الشيخ القطعاني إلى صناعة إنسان كامل، بعد كمال التقويم، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: 4]، حيث ينبغي العناية بالمظهر والمخبر، بتمثل صفات الجمال، والتكمّل بأركان الإيمان وسمات العمل الصالح، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: 5-6]. ولذلك، شاع تعريف البشر فيما بينهم ذكرُ تقويم الأذهان لا تقويم الأبدان، فالأول إذا ارتبط بالإيمان كان تكمّلًا، والثاني يقتضي الجمع بين التزيّن الظاهري والتجمّل الباطني، حتى يستكمل المرء إنسانيته، ويصعد من درك السفلية، إلى سلم الخصوصية فيبلغ منتهى الجمال باقتفاء أثر صفوة الصفوة مَنْ كان أفضلَ خلق اللهِ على الإطلاق نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بشهادة الحق تعالى عندما مدح نبيه الكريم فقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]. فالتصوف الحق «هو اتباع الرسول ﷺ، وأداء الفرائض، وتوفية الأعمال، وتصفية الأحوال»(2)، ولذلك جاءت رؤية الشيخ القطعاني للجمال منسجمة مع روح الإسلام في منبعه الصافي.

أخيرًا، يمكن القول بأن نظرية الجمال الصوفي لدى الشيخ القطعاني، تتسم بالعمق والشمول، وتنهل من علوم شتى، دينية ودنيوية، مما يجعلها نظرية قابلة

---

(1) اللمع في التصوف، السراج الطوسي، تحقيق وتقديم: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصدر، مكتبة المثنى، بغداد، 1960م، ص 45.

(2) مصادر العلوم في الفكر الصوفي، عبد الكبير العلوي المدغري، سلسلة الدروس الحسنية، المغرب، الرباط، ط1، 1993م، ص 23.

للتنزيل في مجالات التربية والتعليم وإصلاح الفرد والمجتمع، بل واعتبارها دبلوماسية ناعمة قادرة على التأثير في النفوس وتقريب وجهات النظر وحل كثير من المشكلات النفسية والسلوكية الشائعة في المجتمعات الإنسانية اليوم؛ لأنها نظرية تقوم على محبة الخلق وإتقان لغة الحب حيث الرحمة، ومنها ذلك الشعور المتصل بالأمن النفسي والاطمئنان الداخلي والتوازن العاطفي والحسّ الوجداني المرهف، تلك السمات التي تجعل صاحبها لا يظلم أبدًا ولا يغدر ولا يخون ولا يكره أحدًا، وإنما مُحِبٌّ للجميع ولو لمن أساء إليه، فخيره إلى الناس موصول دائمًا سواء اعترفوا أو أنكروا، وسواء بادلوه الإحسان أو قابلوه بالقطيعة والجفاء، يظل ثابتًا على العهد، مُرسلًا للخير لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا، وإنما يسقي بعطائه كل شيء، كما قال سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد: الصوفي «كالأرض، يطؤها البر والفاجر، وكالسماء تُظلّ كل شيء، وكالمطر يسقي كل شيء»[1]، وذلك منتهى الجمال الصوفي الذي يتبناه العلّامة الشيخ أحمد القطعاني ويدعو إليه من خلال جملة من مؤلفاته، والتي تمثل إرثًا إنسانيًّا زاخرًا بالكثير من المعاني والقيم والدلالات، ويقتضي تراثه العلمي الزاخر المزيد من الدراسات من أجل استلهام رؤًى ونظريات جديدة، تسهم في الارتقاء بالمجتمع وتحقّق النهضة المنشودة، ضمن سياق عالمي يتسم بالاختلاف والتنوع، ولا بقاء فيه إلا للأصلح والأنفع والأجمل، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

(1) معراج التشوف إلى حقائق التصوف، أحمد بن عجيبة، جمع وتقديم: العمراني الخالدي عبد السلام، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1999م، ص 69.

الشيخ المربي في فكر الشيخ أحمد القطعاني: خصاله وأدواره الحضارية والثقافية

د. صابر سويسي

أستاذ بجامعة صفاقس- تونس

ملخّص

من المتداول والمعلوم في مصادر التّصوّف التأسيسيّة أنّ الشّيخ الصّوفي مربٍّ يتولّى مرافقة المريد في خطواته الأولى نحو ربّه، يدرّبه ويعلّمه وينصحه ويفسّر ما قد يعرض له من خواطر ورؤىً، ويذلّل له العقبات لسعة علمه واطّلاعه على الظّاهر والباطن، ومن هنا كانت طاعة المريد لشيخه واجبة ولا حقّ له في الاعتراض أو التّردّد، وتطوّرت هذه الصّلة لتحمل صورًا من التّقليد لسلوك الشّيخ وطقوسه أو طرائق تعبّده، وأضحى الانتساب إلى هذا الشّيخ شرفًا يطلبه المريد. ولكن بقيت العلاقة تعليميّة تربويّة أخلاقيّة بالأساس، وإن انزلقت أحيانًا إلى ضرب من تقديس الشّيخ، إلّا أنّنا مع المفكر الشيخ أحمد القطعاني نلاحظ تطوّر هذه العلاقة وانفتاحها على مجالات كثيرة تجعل التّصوّف حيًّا فاعلًا في بيئته، يتجاوز حلقة المريدين ليكون عنصرًا من

عناصر بناء الهويّة وتقبّل الآخر، والإسهام في المجالين الحضاري والثقافي، لقد عمّق المفكّر أحمد القطعاني الأبعاد الإنسانيّة للشّيخ والتّصوّف في آن، وحاول إحياء دورهما الفعّال لا في المجتمع والتّاريخ اللّيبيّين فحسب، وإنّما في الكون عامّة.

وهذا ما سنحاول تتبّعه ببيان خصوصيّة تمثّل المفكّر أحمد القطعاني لشروط الشّيخ أو خصاله ووظائفه، خاصّة أنّه استحضر علامات فاصلة من رجال ونساء كانوا منارات بارزة في تاريخ التصوّف بليبيا، وبيّن أثرهم الدّيني والعلمي والثّقافي والسّياسي؛ ليؤكّد أنّ عرض سيرهم أو التّأريخ لهم ليس من باب الترف الفكري وإنّما هو إعادة اعتبار لما قدّموه لليبيا وللإنسانيّة جمعاء، فضلًا عن أنّهم فتحوا الباب أمام فهم حيّ وبنّاء للتّصوّف يقطع الصّلة بالجمود والتّقليد ويتطلّع إلى الارتقاء بالإنسان والمجتمع.

الكلمات المفاتيح: أحمد القطعاني، الزوايا، الطّرق الصّوفيّة، الإنسان، الأخلاق، الإصلاح، الهويّة، الثقافة.

مقدّمة

لا يحتاج الباحث في التّصوّف إلى كبير جهد ليدرك المكانة التي جعلها الصّوفيّة للشّيخ، سواء في التجربة الفرديّة أو الجماعيّة أو الطّرقيّة، فهو مرشد المريد في البدايات وهو النّاصح المصوّب لانزلاقات محتملة في مختلف مراحل الطّريق إلى الله، وهو القدوة والمثال الذي يحتذى، ولم تكن هذه المنزلة لتنحصر في المجال الصّوفي، وإنّما اتّسعت لتصبح ظاهرة مؤثّرة في الحياة العقائديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والنّفسيّة، فما يدركه الشّيخ من معرفة ربّانيّة وصفاء واستقامة وكرامات يكسبه سلطة ونفوذًا لا حدّ لهما، قد تتجاوزان أحيانًا ما يفترض أنّه سلطان مطلق للحكّام؛ لأنّ مصدر هذه السلطة روحاني إلهي لا يتاح لعموم النّاس، وإنّما يهبه الله لخاصة من اصطفاهم وحباهم بمحبّته. ولذلك قال أبو سهل الصعلوكي:

«من قال لأستاذه لماذا فإنّه لا يفلح أبدًا»[1] وقال أبو علي الدقاق: «من صحب شيخا من الشّيوخ، ثمّ اعترض عليه بقلبه فقد نقض عهد الصحبة، ووجبت عليه التّوبة»[2]، وقال أبو القاسم القشيري: «يجب على المريد أن يتأدّب بشيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا، هذا أبو يزيد البسطامي يقول من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان»[3].

إلاّ أنّ هذا التّأثير لم يكن ليبرز بالشكل الكافي عبر التاريخ وكاد يقتصر على مناسبات بعينها يُقصد فيها الشّيخ طلبًا لدعمٍ عبر الدّعاء أو عبر كرامة من الكرامات أو علم ينتفع به يختصّ به دون غيره، وفي أحيان كثيرة نجد أخبارًا عن شيوخ من الصّوفيّة بادروا من تلقاء أنفسهم بحركة أو فعل لدفع بلاء أو خطر يهدّد عامّة المسلمين. ولعلّ الهمّ الأكبر الذي انشغل به الشّيخ في التّجربة الصّوفيّة هو بالأساس تربية المريدين، تربية أخلاقيّة تنشد الاستقامة وتتغيّا القرب من الله، وقد يكون هذا سببًا في اعتقاد درج تداوله واستقرّ في المتخيّل الجمعي مداره على وصل الشّيخ بأنموذج في الصلاح والتّقوى وفصله عن مجتمعه لدواعٍ كثيرة من أهمّها: أنّ الصلاح قرين النّأي عن الدّنيا وشواغلها والاستغراق في عبادة الله بدوام ذكره والفناء عن سواه.

وفي هذا السّياق يتنزّل تناول الشيخ أحمد القطعاني للتّصوّف ومنزلة الشّيخ فيه؛ إذ يحاول في عدد من كتاباته إصلاح ما اختلّ بوصل الصّوفيّة بواقعهم، وتأكيد أهمّيّة الأدوار أو الوظائف التي يطلب منهم وجوبًا أداؤها أو الانخراط فيها، فلا معنى للتّصوّف إن انعزل عن بيئته واختار له نهجًا موازيًا لها يعلن من خلاله موقفه الرّافض للواقع المعيش واليومي. إنّه في نظره جوهر عمليّة النّهوض ومحورها، وهو ما يبرّر حشده لأمثلة كثيرة عن إسهام صوفيّة كبار من ليبيا في تطوير بلدهم وغيرها من

(1) الرسالة القشيريّة، أبو القاسم القشيري، دار صادر، بيروت، ط1، 2001م، ص222.
(2) لمصدر السابق، ص 222.
(3) المصدر السابق، ص 255-254.

البلدان التي زاروها وتركوا بصماتهم فيها وخلّد أهلها مآثرهم، واستنكر الشّيخ أحمد القطعاني جهل اللّيبيّين بهم ونسيانهم أو إهمال البحث في آثارهم ومقالاتهم؛ لذا آلى على نفسه التّأريخ لهم وذكر فضائلهم رجالًا ونساءً على حدّ سواء، فجميعهم جزء لا يتجزّأ من ذاكرة ليبيا وتاريخها وهويّتها.

إنّ الإصلاح من هذه الزّاوية في فكر الشّيخ أحمد القطعاني محاولة جادّة لبناء رؤية جديدة لدور الشّيخ والتّصوّف عامة. وهي رؤية دلّت على تشبّعه بالفكر الصوفي وانفتاحه على متغيّرات العصر، خاصة ما تعلّق منها بمجال الثقافة والمعرفة، فضلًا عن تسلّحه بنظرة نقديّة ثاقبة وجريئة، وهو ما سنعمل على إبرازه من خلال التركيز على طبيعة تمثّله لشروط إدراك مرتبة الشيخ وأهمّ الأدوار الحضاريّة والثّقافيّة التي يفترض أن تكون منوطة بعهدته، وتؤكّد انغراسه في واقعه وعمق ارتباطه به محلّيًّا وإنسانيًّا.

من شروط التّأهيل لرتبة الشّيخ:

لئن لم يخصّص الشّيخ أحمد القطعاني فصلًا أو كتابًا لضبط شروط بلوغ درجة الشّيخ في المجال الصّوفي، فإنّ المتتبّع لمختلف كتاباته في هذا السّياق يمكنه أن يدرك وعيه بقيمة الشّيخ ووظيفته، وإلحاحه على جملة من الخصال التي يفترض توفّرها فيه ليكون أهلًا لهذه المرتبة، ويمكن أن نميّز فيها بين صنفين:

صنف دأب استحضاره في التّراث الصّوفي ولم يخل منه كتاب أو مصنّف، وصنف نستشفّه من حرص الشّيخ أحمد القطعاني على وصل التّصوّف بالواقع المعاصر وتأكيد وجوب إسهامه فيه.

أمّا الصّنف الأوّل: فيغلب فيه الجانب العرفاني من جهة والأخلاقي من جهة ثانية، وكلاهما متّصل بالآخر، والمطلوب فيه أساسا السّير «على سنن الدّين واتّباع الشّرع الحكيم ولزوم طريقة الصّالحين وآثار العابدين واستقامة أهل الورع والدّين

من المقتفين لخطى سيّد المرسلين، ودرس سيرتهم واحتذاء سبيلهم؛ لأنّهم أنموذج مُثُل الإسلام العليا»[1]، فذلك شرط الاستقامة ومبلغ السّعادة وكمال الإيمان، وهو ما يبرّر بل يوجب تخليد مآثر الصّالحين وتدوين أخبارهم ونشرها؛ لأنّها توفّر مادّة ثريّة وقيّمة لعامّة المسلمين بها يعتبرون ومنها يقدّون نماذج في الصّلاح والتّقوى يتّخذونها قدوة يطمحون إدراك مراتبها. وقد انخرط الشيخ أحمد القطعاني في هذا النّشاط التّأريخي لكثير من مشايخ الصّوفيّة اللّيبيّين وعيًا منه بأهمّيّة هؤلاء لا في الدّعوة إلى الدّين فحسب، وإنّما في توجيه عامّة المسلمين وإرشادهم إلى طرائق الخير والإيمان السّليم والكامل، فضلًا عن سبل تطوير وضعيّتهم والنّهوض بوطنهم والاعتزاز بالانتماء إليه (وهو مدار الصّنف الثّاني من خصال الشّيخ)، نجد ذلك في مواضع كثيرة من كتاباته لعلّ أبرزها الكتاب الذي خصّ به الشّيخ محمّد بن عيسى وكتاب «سرّي للغاية» حيث جمع كثيرًا من أخبار شيوخ التّصوّف بليبيا وعرّف بهم وبعدد من خصالهم، وفي مقدّمة هذه الخصال نجد «قوّة اليقين والصّبر على الأخذ والعطاء»[2] لثقل الأمانة والمسؤوليّة التي يفترض أن تناط بعهدة الشيخ، وذروتها تختزل في مقام الإحسان؛ إذ توكل إليه مهمّة الأخذ بيد السّالك وتربيته على أن يبلغ هذا المقام، فعلى هذا النّحو يفهم العلّامة أحمد القطعاني التّصوّف، ويتجلّى ذلك في قوله: «إنّ التّصوّف منهج الأبرار ومرفأ الأمان، وهو أعظم طرق السّير إلى الله تعالى، وهو طريق كلّه جدّ واجتهاد وقوّة إيمان وسعة علم وكثرة عمل وأخلاق جميلة ومعاملة حسنة ورعاية لحدود الله، وتنتهي كلّها في أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[3].

ونفهم من خلاله أنّ الشّيخ لا يكون شيخًا إلّا إذا ارتقى إلى مقام الإحسان، وكان دائم الاستحضار لربّه عارفًا به مراعيًا لحسن الأدب في حضرته، وهذا لا يتأتّى

(1) الشيخ الكامل محمّد بن عيسى، أحمد القطعاني، دار الكتاب اللّيبي، بنغازي، ط1، 1992م، ص7-8.
(2) المصدر السابق، ص 9.
(3) المصدر السابق، ص 13.

إلّا لمن خاض التّجربة الصّوفيّة وخبر تفاصيلها وأسرارها، وعلم عيوب نفسه وعللها ودواءها، وأخذ الطّريق عن «شيخ عارف مربٍّ عرف الطّريق وخبر مآمنها ومهالكها»[1]، فإذ ذاك يتمكّن من تحصيل المعرفة الضّروريّة التي تجعله قادرًا على أداء دوره التّربوي والرّوحي؛ إذ «الشّيخ مثله كمثل الطّبيب قد عرف الطّبّ أوّلًا والمقدرة على التّطبيب ثانيًا، قادر على قطع حديث النّفس واقتلاع أمراضها ومفاسدها، عالم بكيفيّة إحلال الأوصاف الحميدة محلّها على قدم النّبيّ ﷺ في تربيته لصحابته وتأديبهم بالآداب الرّوحيّة السّامية»[2]. وهو «حصن الأمان من وسوسة الشّيطان وخدع النّفس، وبه نيل الرّقي إلى مقامات اليقين ومنازل الواصلين»[3]. فاستوجب من ثمّ طاعة مريديه له طاعة تامّة «فيكون المريد بين يدي الشّيخ كالميّت بين يدي الغاسل، لا يأتي فعلًا إلّا بإذنه، ولا يقدم على أمر عظيم أو حقير إلّا برأيه حتّى تتآلف روح الشّيخ بروحه تآلفًا ربّانيًّا»[4]. وتخضع هذه الطّاعة لضوابط وطقوس تشكّل أساس بيعة المريد لشيخه التي تمثّل رباطًا أو عقدًا مقدّسًا وجب الالتزام به لتحقيق المقصد الأسمى وهو القرب من الله. ومن هنا تكون مهمّة الشّيخ أن يصنع من المريد شيخًا جديدًا، أي أنموذجًا في الصّلاح وحسن الخلق والاستقامة. وهو المسؤول عن إجازته بأن يأذن له ليتصدّر الطّريق ويشرف على تربية مريدين جدد[5]، ولا يعني هذا ضرورة حصر وظيفة الشّيخ الصّوفي في البعد التربوي الرّوحي؛ إذ نجد له من المهامّ ما لا حصر له وهو ما يقتضي توفّر شروط أخرى فيه لا تقلّ أهمّيّة عن هذا البعد.

وأمّا الصّنف الثّاني من الشّروط أو الخصال التي يفترض توفّرها أيضا في الشّيخ حسب العلامة أحمد القطعاني، فإنّنا نذكر ضرورة ارتباط هذا الشّيخ بعصره

(1) الحجة المؤتاه في الرّدّ على صاحب كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله، أحمد القطعاني، مكتبة النّجاح، دار جوامع الكلم، مصر، ط2، 1992م، ص 128.
(2) المصدر السابق، ص 129.
(3) الشيخ الكامل محمّد بن عيسى، مصدر سابق، ص 14.
(4) الحجة المؤتاه في الرّدّ على صاحب كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله، مصدر سابق، ص 125.
(5) المصدر السابق، ص 132.

ومجتمعه، ومعايشته لهمومه وشواغله، وعدم الانصراف إلى العزلة والاكتفاء بموقف المشاهد اللامبالي أو المستقيل. وهذا يعني أنّ المتصوّف الحقيقي وفق تصوّره يجب أن يكون إيجابيًّا فاعلًا وبنّاءً، ولهذا نجده ينتقد وضع الزّوايا في عصره ويدعو إلى التفكير في سبل النّهوض بوظيفتها لتكون عاملًا من عوامل التقدّم الحضاري لا عنصرًا من عناصر الجمود والتّخلّف[1]. ولتحقيق هذا الغرض وجب أن يكون الشّيخ ملمًّا بعدد من معارف عصره وعلومه، وألا يكون تكوينه مقتصرًا على العلوم الدّينيّة أو الشّرعيّة، فضلًا عن مواكبته مختلف الأحداث التي تقع في العالم من حوله. فمثل هذه المعارف تعزّز درايته بطبائع مريديه وطرائق التفاعل معهم وفهم ما قد يعتمل بقلوبهم وأذهانهم، وتشخيص العلل الصّحيح هو الطريق المثلى لمعالجتها، وفاقد الشيء لا يعطيه. هذا إضافة إلى ما قد تقدّمه هذه المعارف من نفع لمجتمعه وبيئته، ويؤكّد الشّيخ أحمد القطعاني «أنّ مشايخ التّصوّف العارفين الحاملين للواء الإسلام عبر العصور هم أكثر النّاس علمًا، وأوضحهم نهجًا، وأعظمهم فضلًا، وأسراهم في الأمّة روحًا، كم هدى الله بهم من ضالّ، وأيّد بهم من حقّ، وحمى بهم عرين الإسلام ودفع بهم الأعداء قديمًا وحديثًا»[2]. وهو ما يؤكّد تجاوزهم لدور تربية المريدين وانفتاحهم على هموم عصرهم ومتطلّباته.

إنّ العلّامة أحمد القطعاني يؤسّس لشيخ صوفيّ جديد يختلف عمّا ألفه أبناء عصره من تمثّلات لا ترى الصّوفيّة إلّا حلقات ذكر وسماع أو دعاء في زوايا يتلون أورادهم، ويؤدّون طقوسهم، ويتداولون من أخبار الكرامات والخوارق ما يسلب العقول ويفتن القلوب بما فيها من غريب وعجيب، وهي تمثّلات صدر كثير منها عن جهل بحقيقة الشّيخ في المجال الصّوفي ودوره التاريخي في شدّ أزر بني قومه والإسهام في البناء الحضاري والإنساني. وإذا كانت الخصال الأولى نافعة في تهيئة المريدين

(1) سرّي للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 51-53.
(2) الحجة المؤتاه في الرّدّ على صاحب كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله، مصدر سابق، ص 131.

للتّرقّي الرّوحي والأخلاقي، فإنّ الخصال الثّانية ذات أبعاد اجتماعيّة وإنسانيّة تتجاوز المحلّيّة إلى الكونيّة، وهي بمنزلة التّربية الجماعيّة لتهذيب الذّوق والسّموّ بالإنسانيّ فينا، مع ما يحمله ذلك من قيم التّسامح والتّعاون والإخاء والحبّ[1].

إنّ العبادة بهذا المعنى ليست مجرّد طقوس تؤدّى أو أوراد وأذكار تتلى، وإنّما هي خلق يُبنى، وفعل يُنجز لغاية تعمير الكون، وهو مضمون الأمانة التي يفترض أنّ آدم وبنيه قد تحمّلوها.

الوظائف الحضاريّة والثّقافيّة للشّيخ الصّوفيّ:

تتنوّع الوظائف التي يسندها العلّامة أحمد القطعاني إلى شيخ الصّوفيّة بتنوّع حاجات مجتمعه ومتطلّباته، من هنا نفهم حرصه على تتبّع كثير من الظّواهر السّلبيّة التي لحقت التّصوّف في زمنه، ومحاولته تقديم الحلول التي تعالج ما فسد وتقوّم ما اعوجّ. ومن بين هذه الظّواهر ما آل إليه وضع الزّوايا والرّباطات والطّرق الصّوفيّة من عزلة وجمود ورتابة كاد التّصوّف بموجبها يصبح مجالًا مغلقًا لأداء مجموعة من الطّقوس الدّوريّة التي قد تحقّق ضربًا من الامتلاء الرّوحي ولكنّها تجعل أصحابها على هامش مجتمعهم لا نفع ولا إضافة لهم فيه[2]. يقول الشّيخ أحمد القطعاني في هذا السّياق: «أنا في أشدّ التّعجّب والأسف ممّا عليه زوايانا وطرقنا الصّوفيّة اليوم من جمود وتقوقع، مبنى قديم وربّما نهدمه لنشيد جديدًا مكانه، ونجتمع فيه ليلتي الاثنين والجمعة لنقرأ حزبًا ونقيم حلقة ذكر نلحقها بقصائد ومدايح ويذهب كلّ منّا في حال سبيله»[3]. وهو ما جعل سهام النّقد والاعتراض توجّه إلى الصّوفيّة، وترى في

(1) يقول الشيخ أحمد القطعاني: «نحن نمثّل تراثًا إسلاميًّا عظيمًا، ونجسّد أمانة حضاريّة كبيرة، ونحمل على عواتقنا مهمّة إنسانيّة ضخمة تتمثّل في نشر قيم الدّين الإسلامي الحنيف المتمثّلة في العلم والمعرفة والتّسامح وحبّ الإنسان لأخيه الإنسان وسوق النّفع للآخرين وإثراء مجتمعاتنا ثقافيًّا وخلقيًّا ومدّيد العون للمحتاج والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر». سرّي للغاية، مصدر سابق، ص 36.

(2) سرّي للغاية، مصدر سابق، ص 56.

(3) المصدر السابق، ص 53.

كثرة الطّرق تشرذمًا وتفرقة وخَلْقًا لضغائن وأحقاد قد تعصف بوحدة المسلمين وتزيد من ضعفهم وتخلّفهم. ويعتبر العلّامة القطعاني أنّ مثل هذا الاعتقاد صادر عن جهل بالطّرق الصّوفيّة ومشايخها، ولكنّ تواصل الحال على ما هو عليه في عصره قد يبرّره لأنّ الطّرق فعلًا تعيش أزمة تتحمّل نصيبًا وافرًا منها؛ لأنّها جعلت أنشطتها مناسباتيّة واحتفاليّة أكثر من حرصها على تنويع طرائق حضورها وفعلها في مجتمعها. وهو ما قد يسلب تنوّعها واختلافها قيمته وجدواه، وبدل أن تكون «إثراء للحركة الفكريّة الإسلاميّة وروافد تغذّي نهر الحضارة والعلم»[1] تصبح نسخًا مكرّرة متجانسة في الجمود والمحاكاة الجوفاء خارج سياق التّاريخ، بل خارج التّصوّف نفس؛ لأنّ سلوكها الرّتيب والشّكلي على هذا النّحو «لا يمتّ للتّصوّف بصلة من قريب أو بعيد، بل هو تخلّف يدعو للخجل وتأخّر يندى له الجبين»[2].

وكان لزامًا من ثَمَّ إيجاد الحلول لتجاوز الأزمة التي تعيشها الزّوايا والتّجربة الصوفيّة عامّة، وهو ما عبّر عنه الشيخ أحمد القطعاني في أكثر من موضع في كتاباته وخاصّة كتابه «سرّي للغاية»، ففيه يمكن أن نتبيّن حقيقة منهجه الإصلاحي فكرًا وفعلًا، وخاصّة حين يذكر شيوخ التّصوّف ومآثرهم أو منجزاتهم التي تجاوزت الإطار الفردي لتلتحم بالهمّ الجماعي والإنساني، وتؤكّد قيمة الوظائف والأدوار الحضاريّة والثّقافيّة التي وجب أن ينخرطوا فيها، ويولوها ما تحتاج من عناية واهتمام. وهذا نابع من عميق إيمانه بأنّ الطّرق الصّوفيّة وإن اختلفت أساليبها وتعدّدت اتجاهاتها فإنّ هدفها واحد[3] وعليه يقوم البناء الحضاري والإنساني.

فالشّيخ الصّوفي مكلّف بالإضافة إلى دوره التربوي الرّوحي بالتّوعية والإصلاح. ومثلما يُعنى بالمريد ويرافقه في طريقه إلى الله بإرشاده إلى المنهج

(1) الحجة المؤتاه في الرّدّ على صاحب كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله، مصدر سابق، ص 150.
(2) سرّي للغاية، مصدر سابق، ص 53.
(3) المصدر السابق، ص 18.

الأمثل للاستقامة والصّلاح، وجب أن يلتفت إلى مجتمعه ويعمل على النّهوض به فكرًا وممارسة. والوظيفتان متكاملتان مترابطتان أشدّ الارتباط؛ لأنّ تربية المريدين على نهج أخلاقيّ متين هو نهج النبوّة المحمّديّة، من شأنه تكوين أجيال من الصّلحاء المتبنّين لقيم إنسانيّة سامية قوامها المحبّة الخالصة التي تجمع وتوحّد، ولا تفرّق وتشتّت، هي محبّة إلهيّة تعزّز روابط الإخاء والتّعاون وتسمو على أشكال الاختلاف والتّنوّع وتعوّض من ثمّ روابط أخرى مثل الدّم أو الانتماء العشائري أو القبلي.. ومن مهامّ الشّيخ الأولى تنمية هذه المحبّة ورعايتها وتحصينها لتثمر فرديًّا وجماعيًّا، فبها يصفو قلب المريد ويدرك الكمال، وبه نفهم جزءًا من دلالات تصدير الشيخ أحمد القطعاني كتابه «سرّي للغاية» بقوله: «أضع جانبًا كلّ ما جاء في مصادر العلم لأقول.. إنّ الشّيخ المربّي، هو: رجل حامل مرآة صقيلة يضعها أمام المريد فيرى المريد فيها نفسه»[1]. ومثال المرآة الصقيلة متواتر في التراث الصوفي، وعادة ما يكون قلب الصّوفي نفسه هو هذه المرآة التي يتعهدها بالعناية والمراقبة لتبقى صافية صقيلة تتجلّى فيها حقائق الألوهيّة. وهي في كلام الشيخ أحمد القطعاني وسيلة تتيح للمريد أن يرى فيها حقيقته دون اعوجاج أو تشويه والعهدة ملقاة على شيخه في المحافظة عليها صافية صقيلة، فهو من يريه نفسه وعيوبها ويهديه إلى سبل إصلاحها، وهو أيضًا من يكتشف مواهبه وطاقاته ويصقلها وينمّيها ويحفّزها لتفيض على من حولها وتنفع، فـ«إحدى أهمّ مهامّ الزّاوية من خلال الشّيخ المربّي أينما وحيثما وجد ألا وهي اكتشاف مواهب وملكات المريدين وتنميتها وصقلها وتشجيعها والدّفع بها إيجابًا بما يحقّق طموحاتهم الظّاهرة والباطنة، فالدّرر هم والملتقط هو»، وهذا يؤكّد مرّة أخرى أهمّيّة الدّور الذي يقوم به الشّيخ في التّجربة الصّوفيّة، وتزداد قيمته إذا علمنا أنّ المنتسبين إلى الزّوايا الصّوفيّة بالآلاف[2]، وهو كمّ ضخم ليس من اليسير تدبيره.

---

(1) المصدر السابق، ص 2.

(2) المصدر السابق، ص 15. يقول الشّيخ أحمد القطعاني: «وينتسب إلى الزّوايا الصّوفيّة في بلادنا آلاف المريدين».

ومن ثمّ فإنّ القيام بهذه الوظيفة الإصلاحيّة والتّوعويّة حمل ثقيل ومسؤوليّة كبرى، وقد يكون من باب الطّوباويّة الاعتقاد في قدرة شيخ مفرد على تحقيقه، وهو ما انتبه إليه الشّيخ أحمد القطعاني ودلّ على عمق فكره السّياسي والاجتماعي ووعيه بمتطلّبات تكوين الدّولة وكيفيّة اشتغالها؛ لذا نجده ينادي بضرورة التّعامل المؤسّساتي بين الطّرق الصّوفيّة ومجتمعها، فـ«ما من مؤسّسة في المجتمع لو تتبّعتها جميعًا إلّا ويتكامل معها التّصوّف إيجابًا، وأنّه يقوم بدور هام وفعّال موازٍ لها»[1]. ويقتضي نجاح التّصوّف في هذا الباب إخضاعه إلى تنظيم هيكليّ ييسّر طرائق تسييره ويحافظ على تماسكه ويطوّر من إمكاناته، لهذا ثمّن الشّيخ أحمد القطعاني إنشاء مجلس عامّ للتّصوّف الإسلامي بليبيا ودافع عليه ونبّه إلى ضرورة أن يتولّى الإشراف عليه أهل الاختصاص -أي بعض مشايخ التّصوّف- لكونهم ضمانة وحماية من الفساد والإفساد. إلّا أنّ الخطوة الأولى حسب الشيخ أحمد القطعاني في إصلاح الزّوايا والطّرق الصّوفيّة تتمثّل في الإصلاح الدّاخلي وفق شروط يضبطها مفصّلة، ونذكر في مقدّمتها تأهيل شيوخها ليكونوا فعلًا متوفّرين على الشروط المطلوبة لتسيير الطّريقة التي يشرفون عليها، وتدبير حال المريدين المنتسبين إليها، وقد أوردنا جانبًا من هذه الشّروط التي يختزل جانبًا منها قول الشيخ أحمد القطعاني: «العلم الواسع بأمور الدّين وأحكام الشّريعة وحسن السّمعة والمقدرة على رأس الشّروط الواجب توافرها في شيخ الطّريقة»[2]. وقد يكون ذلك درءًا أو تجنّبًا لأشكال من السّلوك تواترت في عدد من الطّرق الصّوفيّة من أخطرها الوراثة المبنيّة على القرابة الدّمويّة لمنصب شيخ الطّريقة بعيدًا عن معايير الكفاءة والعلم.. لذلك كثيرًا ما وصل العلّامة أحمد القطعاني الشّيخ بالرّسول محمّد ﷺ وألحّ على ضرورة أن يكون محتذيًا به مقتديًا بمنهاجه وهو ما يستوجب أن يكون محيطًا بسنّته عالمًا بشريعته. فـ«الشّيخ المربّي

(1) المصدر السابق، ص 44.
(2) المصدر السابق، ص 47-48.

على قدم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، متّبع لسنّته منتهج لكريم سيرته، فوجب أن تحوي شخصيّته هذه المقدرة التّربويّة القويمة»[1]. إلاّ أنّه أضاف نوعًا آخر من المقدرة التي وجب توفّرها في الشّيخ ولا تخلو من طرافة دالّة على حرص العلّامة أحمد القطعاني على فكرة المأسسة وضرورة تطوير أساليب العمل داخل الزّوايا والطّرق الصّوفيّة، هذا النّوع الجديد يهمّ المقدرة الإداريّة والتّوثيقيّة لشيخ الطّريقة فضلًا عن الالتزام بتقديم خطّة أو برنامج عمل يحمل أبعادًا إنسانيّة واجتماعيّة وثقافيّة وعلميّة يعكس حقيقة انخراط الطّريقة الصّوفيّة شيخًا ومريدين في مختلف الأنشطة التي يحتاجها مجتمعهم، ويخضع تطبيق هذا البرنامج للمراقبة والمتابعة والمحاسبة عبر عقد «اجتماع سنويّ عالي المستوى رسميًّا ليُعرف ما تمّ إنجازه لتشجيعه وما تعذّر لإزالة العراقيل التي تحول دونه، وما قصّر أو تقاعس فيه لتحميل المسؤوليّة»[2]، وهو ما يكرّس النّقد البنّاء والحوار الجادّ والمثمر داخل الطّريقة الصّوفيّة، على الأقلّ من ناحية التّسيير والإدارة.

أمّا الشّرط الثّاني فحسن توزيع المهامّ داخل الطّريقة، بحيث يسمح الشّيخ لمريديه بتوظيف طاقاتهم وتعزيز ثقتهم في قدراتهم حين يمنحهم الفرصة لتسيير بعض الأنشطة ومتابعتها، ولكن ما نوع الأنشطة التي يمكن أن تنجز داخل زاوية أو طريقة صوفيّة؟

الإجابة عن هذا السّؤال حاضرة في فكر الشّيخ أحمد القطعاني وتؤكّد مرّة أخرى عمق رؤيته الإصلاحيّة والحضاريّة، وهو ينطلق دومًا من ظواهر عاينها في زمنه بليبيا ولكنّه ليس حصريًّا فيها بل هو ظاهرة اكتسحت جميع البلاد الإسلاميّة وتبعث على الأسى والأسف؛ لأنّها كانت علامة على التّخلّف وتردّي الأوضاع نتيجة عوامل كثيرة منها «أنّ المساجد والزّوايا وأضرحة الصّالحين والمعالم الإسلاميّة

(1) المصدر السابق، ص 16.
(2) المصدر السابق، ص 46.

عامّة هي هدف مباشر لكلّ برنامج تنصيريّ عادة فإنّ المآذن تهدم والقباب تدكّ وأضرحة الصّالحين ومشاهدهم ومزاراتهم تسوّى بالأرض»[1]. ولكن هذا لا يعني التفصّي أو التّملّص من المسؤوليّة عن هذا الوضع الذي آل إليه التّصوّف، فالنّاظر في الأنشطة التي تمارس داخل الزّوايا والطّرق الصّوفيّة يمكنه أن يتبيّن بوضوح مآلاتها ولا يعلّق آمالا البتّة على تطوّرها أو فاعليّتها، فهي إلى الجمود أميل، ولهذا عبّر الشّيخ أحمد القطعاني عن حزنه بقوله: «يحزنني كثيرًا ذلك المنظر الكئيب لزاوية يجتمع بها مريدون على شيخهم يقرؤون الحزب ويضربون الدّفوف لسنين وما زاد أحدهم علمًا أو عملًا على يوم انتسابه للزّاوية خطوة واحدة»[2]. وهو مشهد متواتر يكشف استقالة الطرق الصوفيّة وعزوفها عن أداء دورها الاجتماعي والحضاري وطبيعيّ أن تكون النتيجة عزلتها عن واقعها.

والحلّ حسب الشّيخ القطعاني موجود ومتاح لمن أراد إلى ذلك سبيلًا تشهد به التّجربة التّاريخيّة لنماذج من مشايخ التّصوّف كانت لهم مشاركة فاعلة في مجتمعاتهم سواء في الذّود عنها والدّفاع عن مصالحها، أو توعيتها وحثّها على الارتقاء بأوضاعها وتحفيزها على ذلك بل قيادتها فيه[3]، أو كذلك في تمثيلها خير تمثيل لما يتمتّع به من سنيّ الخصال وطيّب الأخلاق «فقد نال الصّوفيّ بجدارة شرف تمثيل بلاده إنسانيًّا»[4]. ولعلّ هذا من عوامل تزايد إقبال النّاس على الطّرق الصّوفيّة واعتناقهم الإسلام دينًا، فـ«ثلاثة أرباع من اعتنق الإسلام في الفترة الأخيرة كان على أيدي الطّرق الصّوفيّة»[5]. والاعتبار من هؤلاء باستدعاء مآثرهم واتخاذهم أنموذجًا يحتذى يمكن أن يشجّع على تغيير وضع الزّوايا والنّهوض بها فضلًا عن حلول أخرى هي في

(1) المصدر السابق، ص 6.
(2) المصدر السابق، ص 16.
(3) المصدر السابق، ص 18.
(4) المصدر السابق، ص 23.
(5) المصدر السابق، ص 34.

نظر الشيخ أحمد القطعاني أكثر نجاعة وإثمارًا، وتتمثّل أساسًا في تنويع أنشطة الزوايا بانفتاحها على ثقافة عصرها وانغراسها فيها، فما الذي يمنع من ممارسة نشاط أدبي أو علميّ أو اجتماعيّ أو اقتصاديّ.. داخل الزاوية وفي محيطها؟ و«لماذا تخلو زوايانا من المكتبات وأرفف الكتب والنّدوات العلميّة والدّروس النّافعة واستضافة العلماء والمثقّفين في شتّى التّخصّصات للاستماع منهم ومحاورتهم؟»[1] وما الذي يمنع من الانخراط في حملات توعويّة لمقاومة آفات نخرت المجتمع وعصفت بأحلام شبابه مثل المخدّرات والخمور والسّرقات؟[2] ما الذي يمنع من مؤازرة الطّرق الصّوفيّة ومنتسبيها لنشاط المجتمع المدني في عدد من الحملات[3] التي ينظّمها مثل حملات النّظافة والتّشجير والتّضامن... ولم لا تكون للزّوايا والطّرق الصّوفيّة مستشفياتها وعياداتها الخيريّة، فتقدّم العون للفقراء والمحتاجين[4]..؟

لقد آن الأوان حسب الشّيخ أحمد القطعاني «لنعيد النّظر في دور الزّوايا الصّوفيّة»[5] وذلك بانفتاحها على شواغل عصرها وإسهامها في تقديم الحلول؛ لأنّ جمودها يعطّل كلّ حركة إصلاحيّة، ويكرّس تأخّرها «عمليًّا وفكريًّا وحضاريًّا»[6] و«الإصلاح وطلب الأكمل سمة الإنسان العاقل المتحضّر وهو منهج التّصوّف الذي لم ولا ولن يحيد عنه»[7]. ويكشف كلامه مرّة أخرى عن فهم جديد وعميق وحيّ للتّصوّف يختزله قوله: «التّصوّف حياة سعيدة متوازنة، وآفاق فكريّة وثقافيّة واسعة، وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشّرع الكريم ونواهيه وريادة وسموّ»[8]. فهو

(1) المصدر السابق، ص 17.
(2) المصدر السابق، ص 50.
(3) المصدر السابق، ص 50.
(4) المصدر السابق، ص 56.
(5) المصدر السابق، ص 56.
(6) المصدر السابق، ص 56.
(7) المصدر السابق، ص 18.
(8) المصدر السابق، ص 16.

منهج في الحياة وأمل في المستقبل يجمع بين العلم والعمل ويطمح إلى الارتقاء بمرتبة الإنسان وتطوير قدراته. لهذا إذا انفتحت الزاوية أو الطّريقة الصّوفيّة على ثقافة عصرها وكثّفت من أنشطتها بما يعكس طبيعة هذه الثّقافة، أمكن لها أن تنمّي حقيقة ملكات مريديها أو المنتسبين إليها، والدّور ههنا -كما أسلفنا- منوط بعهدة الشّيخ؛ لأنّ سلوكه مع المريد هو الكفيل بتحقيق هذا الهدف، يقول الشّيخ أحمد القطعاني ناصحًا شيخ الطّريقة الصّوفيّة إلى التّعامل الأمثل مع مريديه، وهو تعامل يراعي العامل النّفسي والبيداغوجي وينمّ عن خبرة عالية: «قلّد ذلك النّشِط ذا الملكة القياديّة أعمالًا وحمّله أثقـالا ولا تراجعه أو تخطّئه في ملأ، وتكفيك الإشارة إلى الصّواب من طرف خفيّ، وسيكون كما تحبّ بل ربّما فوق ما تحبّ، قسّم المسؤوليّات في الزّاوية ووزّعها فاجعل فيها من المريدين مسؤولًا عن النّشاط الأدبي وآخر عن العلاقات الاجتماعيّة وستجد نفسك أدّيت واجبك وربّيت رجالًا»[1].

بذلك تصبح الزّاوية مثالًا مصغّرًا للمجتمع، أو كأنّها حاضنة تصنع مجتمع الغد المنشود، وتربّيه على روح المبادرة، وتعزّز ثقته في قدراته بتأهيل كفاءته ليصبح عنصرًا نافعًا وفعّالًا، وهي إذ ذاك توازي الأسرة والمدرسة بل لعلّها تفوقهما من حيث الأثر والنّجاعة. وللشّيخ حينها أن يتولّى مهام الأب والأمّ والمعلّم في آنٍ، بسعة اطّلاعه وحسن تدبيره لحياة مريديه ورعايته لمواهبهم وقدرته على صقلها وتوجيهها لتحقّق المقاصد المرجوّة منها.

هذه النّظرة إلى الزّاوية غايتها إصلاحها وتعزيز انفتاحها على مجتمعها بتحويلها إلى ضرب من المؤسّسات العصريّة التي «تستلهم تلك المبادئ السّامية والقيم النّبيلة بما يوافق إنسانًا يعيش في القرن الحادي والعشرين»[2]. ولتدعيم هذه النّظرة يستدعي الشيخ أحمد القطعاني أمثلة كثيرة دالّة على عمق أثر التّصوّف في المجتمع اللّيبي، نكتفي منها بمثالين اثنين:

---

(1) المصدر السابق، ص 16.
(2) المصدر السابق، ص 57.

- أوّلهما أنّ «التّصوّف هو رائد المسرح في ليبيا»[1] ويوثّق ذلك بذكر أعلام كبار في التّصوّف الليبي مثل الشيخ رجب البكّوش «مؤسّس المسرح في بنغازي»[2] و«شيخ الطّريقة القادريّة في طرابلس عبد الله جمال الدّين الميلادي مؤسّس المسرح الغنائي اللّيبي»[3]. ولا أحد ينكر قيمة الفنّ المسرحي وأثره في المجتمع، والطّريف أنّ الشّيخين المذكورين لم يقتصرا على لون واحد من هذا الفنّ بل كان لكلّ منهما طابعه الخاص بين الغنائي والفكاهي والملتزم تأليفًا وتمثيلًا وإخراجًا.. وعالجت المسرحيّات المقدّمة قضايا كثيرة كان لها وقعها في المجتمع اللّيبي منها ما اتّصل بمقاومة المستعمر ومنها ما تناول مسائل اجتماعيّة وتربويّة وأخلاقيّة.

- وثانيهما أنّ التّصوّف مقوِّم رئيس من مقوّمات هويّة المجتمع اللّيبي وذاكرته، و«إنّ بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدوّن تراجمهم ويعتزّ بمآثرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجوديّة هامًّا»[4]. واستحضار شيوخ التّصوّف اللّيبيّين وذكر فضائلهم يتنزّل في هذا الباب وغايته إحياء ذكراهم وبيان عميق إسهامهم في إصلاح أحوال مجتمعاتهم والنّهوض بها فـ«ما هؤلاء الأفاضل من رموز التّصوّف في بلادنا كسيدي عبد السّلام الأسمر، وسيدي عبد الواحد الدّكالي، وسيدي أحمد زروق، وسيدي حامد الحضيري وغيرهم ممّن تنتشر مزاراتهم في ربوع بلادنا إلّا مجدّدون كرام نبذوا عن التّصوّف في عصورهم ما شانه وحلّوه بما زانه، ولازالت بصماتهم ظاهرة في مجتمعنا الصّوفي نجدها في دراستنا لكتبهم ومؤلّفاتهم ونتناقلها في سير حيواتهم وأبيات نظمهم وقصائد أشعارهم»[5]. وذكرهم على هذا النّحو يحمل دعوة صريحة إلى إصلاح حال التّصوّف في القرن الحادي والعشرين ليكون عنصرًا إيجابيًّا

(1) المصدر السابق، ص 12.
(2) المصدر السابق، ص 12.
(3) المصدر السابق، ص 12.
(4) المصدر السابق، ص 6.
(5) المصدر السابق، ص 18.

في نهضة ليبيا وتقدّمها في المستويين الثّقافي والحضاري، فضلًا عن كونه عامًلا موحّدًا للّيبيّين وعلامة على العمق التّاريخي لهويّتهم. ويرى الشّيخ أحمد القطعاني أنّ المناخ الاجتماعي والثّقافي والمعرفي المتوفّر في ليبيا اليوم هو أنسب مناخ للإصلاح والتّجديد ولا بدّ من استثماره لما فيه خير ليبيا ونماؤها وازدهارها، وليس مسموحًا أن يتواصل وضع الزّوايا المزري على ما هو عليه، إذ يقول: «لم يكن إصلاح المنهج الصّوفي في يوم من الأيّام سهلًا ميسّرًا في مجتمعنا قطّ أفضل منه اليوم، فمرض الأمّيّة الذي عانت منه ليبيا عبر قرون من الفقر والعوز والحروب ذهب بفضل الله إلى غير رجعة، والعلم في وقتنا بحمد الله في كلّ منزل.. كلّ هذا يدعونا للاستفادة القصوى من هذا المناخ الجيّد وإعادة النّظر في سير زوايانا وتقييم مناهجنا الصّوفيّة وتطوير أساليبها ورسم أهداف علميّة وثقافيّة ثمّ صوفيّة في كلّ زاوية ثمّ لنسعى إلى تحقيقها ونبذ ما لا يتّفق وروح التّصوّف وآدابه»[1].

وهو ما يفترض تعزيزه وتأكيده لا عند اللّيبيّين فحسب وإنّما في كامل ربوع العالم العربي، يقول الشّيخ أحمد القطعاني: «يعتبر التّصوّف من عوامل وحدتنا العربيّة التي يجب أن نوليها قدرًا من الاهتمام يليق بها خصوصًا وقد نجح في تحقيق نسيج وحدوي عربي عجزت عنه كلّ مؤتمرات القمّة العربيّة وجامعة الدّول العربيّة واجتماعات وزرائها ولجانها المتعدّدة، وذلك أنّك تجد الصّوفيّ في الطّريقة القادريّة مثلًا من أمّ درمان ويزور شيخه سيدي عبد القادر الجيلاني في بغداد ويحضر في طرابلس حلقات الذّكر مع متصوّفيها ويتمازج معهم كأنّه عاش كلّ عمره بينهم، والصّوفي في الطّريقة العروسيّة من صفاقس يزور شيخه سيدي عبد السّلام الأسمر في زليتن ويحضر في الإسكندريّة حلق الذّكر واجتماعات متصوّفيها، كلّ هذا في يسر وانسياب بلا أيّ نظر لفوارق إقليميّة ضيّقة أو اقتصاديّة مؤقّتة أو اجتماعيّة طارئة»[2].

(1) المصدر السابق، ص 19.
(2) المصدر السابق، ص 20.

خاتمة:

تجاوز خطاب الشّيخ أحمد القطعاني مجرّد الخواطر أو الردود ليشفّ عن رؤية إصلاحيّة عميقة تستهدف المتصوّف والمسلم اللّيبيّ بدءًا وتتغيّا التقدّم الحضاري والنّهضة عامّة، قد يكون منطلقها محلّيًّا ولكنّ آثارها ونتائجها تحمل أبعادًا عربيّة قوميّة وأخرى إنسانيّة وكونيّة، وهذا يتنزّل في سياق إيمانه ووعيه بدور الشّيخ الصّوفي الحقّ الذي وجب أن يضطلع به صلب مجتمعه لا طريقته فحسب. وإذا كان من الطّبيعيّ أن يتأثّر التّصوّف من حيث هو نشاط بشري بواقع مجتمعه إيجابًا وسلبًا، فإنّ مهمّة الشّيخ تكمن في عمله الدّؤوب على تخفيف حدّة كلّ أثر سلبيّ محتمل وسعيه إلى حماية التّصوّف والمجتمع على حدّ سواء من الجمود والجهل والخمول والتّخلّف والسّموّ بهما فكريًّا وروحيًّا وأخلاقيًّا. ومن الطّريف أنّ الشّيخ أحمد القطعاني قد انخرط عمليًّا في إنجاز مخطّطه الإصلاحي ودلّت على ذلك كتاباته في لغة بسيطة وهادئة رصينة، لم تخلُ من نقد واستشراف للمستقبل وتثمين للمنجز الإيجابي وتحفيز عليه. فقد قدّم تعريفه للتّصوّف، وشخّص علله في عصره، واقترح البدائل والحلول التي ترتقي به حقيقة، وتخلّصه من أزمته، وراوح بين استدعاء تجارب شيوخ من التصوّف سابقين له وآخرين معاصرين استلهم من تجاربهم الإصلاحيّة وأفكارهم الرّائدة ما أكّد من خلاله ثراء التّجربة الصّوفيّة وحيويّتها وقدرتها الهائلة على تحقيق ما عجزت عنه تجارب دينيّة وفلسفيّة وسياسيّة واقتصاديّة.. في باب التّجديد والإصلاح. وهو ما دعاه إلى استنكار إهمال مبحث التّصوّف في الجامعات اللّيبيّة عمدًا من طرف بعض الأكاديميّين الذين اتّخذوا موقفًا رافضًا ومعارضًا له، إذ يقول: «لقد أضاع هذا الموقف المتخلّف على البلاد مصالح علميّة وثقافيّة عديدة، وصرف طلّابًا ومهتمّين وباحثين عن تاريخ بلادهم وتراثهم وثقافة مجتمعهم»[1]. تمامًا مثل إنكاره إهمال ما يسمّى بـ«السّياحة

(1) المصدر السابق، ص 9.

الدّينيّة»[1] بعدم استثمار مزارات كبار الصّوفيّة وأضرحتهم أو زواياهم والتغافل عن إدراجها ضمن المسالك السّياحيّة، على الرّغم ممّا يمكن أن يقدّمه ذلك من إضافة لمصادر الدّخل القومي فضلًا عن التعريف بالهويّة العلميّة والدّينيّة لليبيا إقليميًّا ودوليًّا. فالتّصوّف في نظره يخترق جميع المجالات الثّقافيّة والتّاريخيّة والاجتماعيّة في ليبيا باعتباره جزءًا لا يتجزّأ من هويّتها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن غير المعقول أن يجحد دوره أو تهمّش منزلته أو يقع تغييبه. ومن رام الإصلاح والتّقدّم حقيقة وجب عليه ضرورة الانتباه إلى التّجربة الصّوفيّة لما تقدّمه من إمكانات وقيم ترتقي بالإنسان وتحقّق توازنه وسعادته.

(1) المصدر السابق، ص 48.

التربية والتصوف في فكر الشيخ أحمد القطعاني
قراءة في بعض آثاره

د. ميلود حميدات
أستاذ بجامعة عمار ثليجي - الجزائر

ملخص

نتناول في هذه الدراسة مفكرًا ومصلحًا ومعلمًا وصوفيًّا بارزًا، هو الشيخ العلَّامة أحمد القطعاني الذي ترك تراثًا مهمًّا، تمثَّل فيما ألّفه من كتب قيمة تناولت مجالات مختلفة، وما قدمه من محاضرات ودروس وندوات؛ إذ أردنا من خلال هذه الورقة أن ندرس أهم ما تناوله في بعض هذه المصادر، ألا وهو التصوف الذي كان أحد أبرز مكونات شخصيته، والذي أراد من خلاله إصلاح التصوف مما نُسب إليه من ممارسات خاطئة، وتقديم صورته الحقيقية كما عرفه سلف الأمة، تصوفًا سنيًّا مقبولًا.

ولما كان التصوف سلوكًا وممارسة، تنتقل من الشيوخ إلى التلاميذ فإن التصوف تربية، لذلك تناولنا التربية عند الشيخ القطعاني باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من التصوف، وهي وسيلته الأولى لنقل التجربة الصوفية وممارستها، وعليه يرتبط التصوف بالتربية، ويعتبرها أداته ووسيلته المثلى لتحقيق أهدافه، ممثلة في تكوين

المسلم الصالح الملتزم بتعاليم دينه، والمواطن المخلص لمجتمعه، والإنسان القدوة في سلوكه.

كما أن الشيخ القطعاني مارس التربية والتدريس من خلال عمله في التعليم، وفي الزاوية التي أنشأها في مسقط رأسه درنة، ومنه فإن تناول التربية والتصوف عند الشيخ القطعاني سيغطي أهم مجالات فكره؛ لأنه عاش لهذه المهمة النبيلة وهي إصلاح التصوف، وتربية المجتمع على القيم الإسلامية السمحاء، وكل ذلك في إطار الدعوة إلى دين الحق، وهو أسمى هدف يمكن أن يسعى إليه المسلم، فما بالك إن كان الأمر يتعلق بعالم دين متمكن من التفسير، والحديث والفقه والتصوف، والتاريخ والثقافة الإسلامية خصوصًا، والفكر المعاصر عمومًا.

الكلمات المفتاحية: أحمد القطعاني، التربية، التصوف، الإصلاح، التربية الصوفية.

مقدمة

نتساءل في هذه الورقة البحثية عن المجهود التربوي الذي قدمه الشيخ القطعاني في كتبه، من خلال التطرق إلى أهم مبحثين في فكر الشيخ القطعاني، ألا وهما: التربية والتصوف، متسائلين في البداية عمن هو الشيخ أحمد القطعاني؟ ثم عن ماهية التربية التي نادى بها الشيخ وما مجالاتها؟ وما هو التصوف الذي دافع عنه، وما علاقته بالتربية؟.

تلكم هي التساؤلات التي سنحاول الإجابة عليها، متطرقين لها في فصلين: أحدهما عن التربية، والأخر عن التصوف، مبرزين في تحليلنا العلاقة بينهما، مستخدمين منهجًا تحليليًّا وصفيًّا، من خلال التطرق إلى بعض كتب الشيخ القطعاني، التي ضمنها فكره، والذي هو في الحقيقة عمل تربوي بامتياز، قصد منه الشيخ تنبيه الأمة والنصيحة لها، وتقديم دروس للشباب ليتسلح بها في غمار الحياة.

وقد كان الشيخ يعمل على النهوض بالأمة، وكان يتألم لما كانت تعانيها مجتمعاتنا العربية، من تخلف وتأخر عن ركب الحضارة؛ ولذلك قدم نقدًا موضوعيًّا دعمه بأمثلة من الواقع، وأدلة علمية استشهد بها لتأكيد مواقفه. واستخدم أسلوبًا بسيطًا يفهمه الجميع، ويصل بأيسر الطرق إلى المتلقي، في لغة سهلة واضحة لا لبس فيها.

ولد الشيخ أحمد القطعاني في درنة في (23/ 09/ 1956م) وتوفي بتونس (17/ 11/ 2018م) اسمه أحمد سالم كريم راقي من فخضة بوسعيدة في قبيلة القطعان، واشتهر بأحمد القطعاني سيرته عطرة، ومسيرته مثمرة، وانجازاته مبتكرة، لقد تلقى العلم في المدارس الحكومية في بنغازي، ثم لزم العلماء فتلقى عنهم التفسير والحديث والفقه المالكي والتصوف، وقد نبغ في كل تلك العلوم، ثم أُرسل في بعثة دراسية إلى بريطانيا، ولما عاد أسس زاوية في درنة، وقام بالتدريس فيها كما درس في المدارس الحكومية، وله إبداعات في مجال الآداب والفنون؛ إذ أنتجت بعض أعماله كمسرحيات، ومن نشاطاته تأسيس مدرسة لدراسة الحديث الشريف دراية ورواية، وصار من أكبر علماء الحديث الشريف في ليبيا وفي العالم الإسلامي.

كما أنه من كبار العلماء المتخصصين في قضايا التنصير والتبشير في العالم، وله نشاطات دعوية كثيرة في هذا المجال؛ إذ تعمل كثير من الهيئات الإسلامية في أمريكا وأوروبا، وفق توجيهاته ومحاضراته عن النشاطات التنصيرية، كما أسس مجلة شهرية هي الأسوة الحسنة ضمنها الكثير من مقالاته، كما ساهم في إنشاء المكتبات والمتاحف والفرق المسرحية، التي تهتم بإحياء وحفظ التراث الليبي.[1]

وقد كلّلت رحلاته بشهادات في التربية من مؤسسات تربوية بريطانية عريقة، مما جعله يستوعب علوم التربية ويتفوق فيها، ويمارسها في الواقع معلمًا ومربيًا وداعية وشيخًا، وينجح في مهماته في كل هذه الأدوار.

---

(1) ينظر موقع طيوب، 17 نوفمبر 2019، ترجمة فضيلة المحدث المؤرخ مسند الديار الليبية علامة ليبيا الكبير الشيخ أحمد القطعاني، تم الدخول إلى الموقع بتاريخ 13/ 12/ 2022، المتاح على الرابط: https://tieob.com/archives/41282

إذا كانت التربية هي تهذيب الأخلاق وتزويد النشء بالقيم الفاضلة، ليكون الفرد مواطنًا صالحًا في مجتمعه، فإن التصوف يشمل التربية الصحيحة، ليكون فردًا صالحًا مع نفسه وأمته، وأيضًا ملتزمًا مع ربه، لينجح في الدنيا والأخرة؛ لذلك فالتربية والتصوف متداخلان متكاملان، هكذا كان ينظر الشيخ للتصوف.

لقد قضى الشيخ القطعاني كل عمره في تأدية واجب التربية في إطار التزامه الصوفي، أي كان شيخًا صوفيًّا عالمًا بأصول التصوف، ومعلمًا ملتزمًا يجسد مبادى التربية في سلوكه، ونموذجًا للمربي والمعلم المتميز من خلال كتبه، أو سلوكه وخطبه ورحلاته، لقد أعطى للتصوف صورته التربوية الحقيقية، التي ينبغي أن يلتزم بها من يسلك طريق التصوف، ملتزمًا في ذاته، ومربيًا لغيره في كل ما يقوم به من أعمال.

المبحث الأول
التربية في فكر الشيخ أحمد القطعاني

التربية عملية تقويم مستمرة للسلوك، من خلال استبدال الفضائل بالرذائل، كما يستدعي الأمر وجود معلم أو مربٍ، يساعد في تحقيق أهداف التربية في مراحل التعلم المختلفة؛ إذ ترتبط التربية بالتصوف في علاقة وثيقة بينهما، فليس التصوف أكثر من تربية روحية سامية.

وإذا كانت التربية تهتم بإكساب الإنسان العادات الحسنة، فإن التصوف يهدف زيادة على ذلك إلى تربية وتزكية النفس بالفضائل، فتكون تربية كاملة تربي وتهذب سلوك الجوارح، وتزكي وتصفي النفس أيضًا.

ومنه نستنتج أهمية التربية لأنها أساس تحقيق إنسانية الإنسان، وتميّزه عن سائر الكائنات، فالإنسان بالتربية والأخلاق يحقق ذاته، ويتفوق على أقرانه، وهو

تعبير دقيق، أكدته المدارس التربوية الحديثة التي ربطت بين عدم التربية، وجنوح الأشخاص إلى العدوانية والعنف، والجريمة، والتوحش والبهيمية. فالتربية هي التي تعطي للإنسان تميزه الأخلاقي والإنساني.

لذلك يجد المتأمل في كتب الشيخ القطعاني بُعدًا تربويًّا عميقًا، ورسالة تعليمية تربوية بامتياز، وتعاليم ودروس مستمدة من الفكر الإسلامي، وتعبر عن اجتهادات الشيخ وجهوده، في تقديم فكر إسلامي ميسر وعملي، وفق منظور عقلاني مستنير، يراعي متطلبات العصر، ويستجيب للمستجدات العلمية، والثورة التكنولوجية التي يعرفها العالم ككل، دون أن يتجاوز ثوابت الفكر الإسلامي، وإنما تبيّن صلاحيته لكل عصر.

كما يظهر أيضًا تمكن الشيخ من الثقافة الغربية، واطلاعه على ما وصلت إليه المجتمعات الأوربية من تقدم. كما أنه عالم بثقافته الإسلامية، مجتهد متمكن من علوم الدين، مستخدمًا في كل ذلك الحجة والبرهان، من الأدلة الشرعية، أو الوقائع الوضعية؛ مما يجعل من أفكاره أكثر إبداعًا، وإقناعًا، وقد غطت أغلب مجالات التربية، وسنتطرق لأهم المجالات التربوية التي تناولها، ولا ندّعي أننا نتناولها كلها؛ لأن ذلك يتطلب وقتًا أطول، وجهدًا أكبر نتمنى أن يكمله الباحثون في فكره.

التربية الاجتماعية: يتكلم الشيخ في التربية الاجتماعية بكل تفاصيلها، من التربية البيئية أو المدنية كما يصطلح عليها، موضحًا ومبرزًا سبق الإسلام في ذلك، من احترام وتسخير الطبيعة للبناء والتعمير لا لهدم والتدمير، حاثًّا على رعاية الحيوان والنبات والمحيط الذي نعيش فيه، مقارنًا ذلك بما هو موجود في الأمم الأخرى، ونجاحها في تهذيب سلوك مواطنيها، تجاه بيئتهم ومحيطهم الطبيعي والاجتماعي.

التربية المدنية: يتكلم الشيخ عن التربية المدنية فيبين ضرورة الاهتمام بتربية الذوق لدى المواطن، بحيث يهتم بمحيطه وبيئته، ومظهره وهندامه، ويتطرق في ذلك

إلى مظهر المسلم العربي، خاصة في ثقافة اللباس، فيبين الشيخ في هذ المقام أنه من الواجب ألا نربط الدين بلباس معين.

إذ تعود الناس في بلادنا العربية أن يلبس المتدين جلابية ويغطي رأسه، بل عملت السينما والتلفزيون على تمثيل أسلافنا في الحضارة الإسلامية بتلك الصورة، والحقيقة التي يوضحها الشيخ أن أوامر الدين لا تحدد لباسًا بعينه، أو لونًا معينًا، وإنما تبين أن يكون اللباس ساترًا للإنسان لا يكشف جسمه، وله بعد ذلك أن يختار ما شاء من الثياب.

ويلحُّ الشيخ أن تكون الثياب جميلة وأنيقة، وألا يقتصر ذلك على لباس العمل، وإنما حتى لباس البيت؛ إذ كما يحب الرجل أن يرى زوجته تتزين له بأحسن ما لديها، فعليه أيضًا أن يتجمل لها وهو حق لها عليه، مما يزيد التفاهم والمحبة بينهما.

كما تتناول دعوة الشيخ التربية الجمالية: أي الاهتمام بجمال الصورة وجمال المكان والبيئة التي نعيش فيها؛ لأن ديننا يحثنا على ذلك. وتربية المرأة على الاهتمام بنفسها، وأن تكون مراعية لمظهرها حريصة على صون بيتها، وزوجها وأن تبدو بصورة جميلة في لباسها وشكلها، حيث إن نظر إليها سرته.[1]

ويؤكد على ذلك بقوله: «ولهذا السبب وغيره فإنني كثيرًا ما ألح على من يسمع مني، أن يكون للزوج ثيابًا منزلية أنيقة، مما يعلم أنه يبدو فيها حسن الصورة والهيئة ينام فيها مع زوجته في فراشهما، ويسير بها في منزله حتى أكاد أجعل ذلك واجبًا. وألح على أن ننقل إلى أبنائنا ثقافة اللباس الأنيق، فلا يخرجون إلى المدرسة أو إلى الشارع إلا في ثياب جميلة وأنيقة»[2]. وبذلك نرقى بالذوق الجمالي لخير أمة أخرجت للناس.

أما التربية الدينية: فالواجب على المسلم عدم التجرؤ على الدين؛ إذ لاحظ الشيخ أن من الغريب أن يتجرأ العامة، ومن هب ودب على التكلم في الدين، وإطلاق

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 9.
(2) المصدر السابق، ص 8.

الأحكام دون علم أو دراية. وهو أمر عظيم وليس هيّنًا، إذ يضرب الشيخ لنا مثالًا في الصميم، وهو أنك لو سألت أحدهم في موضوع هيّن كإصلاح البيت، أو غيره لقال لك ليس تخصصي وعليك بصاحب المهنة، هذا في قضايا الدنيا البسيطة.

أما إذا تعلق الأمر بالدين والفتوى، وهي أمور عظيمة يرتبط بها مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، تجده يتجرأ ويطلق الأحكام، وينصب نفسه عالمًا بأمور الدين وهو أمر عجب.

وهو ما يؤكده الشيخ بعباراته الدقيقة: «لا أدري لماذا يسلم الناس للطبيب أجسادهم ليعالجهم إذا ما أصابهم المرض، وللمهندس منازلهم إذا ما أرادوا البناء والسكنى، وللمحامي مصائرهم إذا ما تخاصموا، حتى إذا تعلق الأمر بأهم ما في حياتهم، وهو دينهم تطاولوا جميعًا للاعتداء على حرم الشرع الشريف بالفتوى على جهل»[1].

وعليه فاحترام قداسة الدين، وتجنب الخوض فيما ليس لك به علم أمر واجب، يؤكده الشيخ ويلح عليه، مبينًا في نفس الوقت أن الإسلام دين للناس كافة، وهو ليس حكرًا على أمة بعينها؛ فيجب احترام ذلك.

عالمية الإسلام: الدعوة إلى احترام عالمية الإسلام وتجنب احتكاره وعربنته، فالإسلام دين عالمي جاء لهداية البشرية، وهو ليس موجهًا لأمة بعينها «فالذي يجب أن نفهمه ونتيقنه أن عربنة الإسلام تفقده أهم خصائصه ألا وهي عالميته، وأنه ليس لنا وحدنا فقط بني يعرب حكرًا علينا، بل نحن جزء صغير محدود فقط من شموليته اللامتناهية، وأن الله تعالى أراده للناس كافة، بكل لغاتهم وأجناسهم وتاريخهم وأفكارهم، ونحن من هؤلاء الناس، ولسنا ولم ولن نكون كل الناس»[2].

لأن احتكارنا كأمة للإسلام لا يخدمنا ولا يخدم الإسلام، فالإسلام شرّفنا وأعزّنا، ولكننا لم نشرفه وننصره كما ينبغي «كما أنني أجزم أن الزمن الذي كنا نُفصل

---

(1) اسلام للبيع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 67.
(2) المصدر السابق، ص 9.

فيه الإسلام على مقاسنا العربي الفضفاض، قد ذهب إلى غير رجعة، خصوصًا وأننا لم ندعم وجهة نظرنا هذه بأي إنجاز مشرف، فكريًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا فيما خلا المظالم والتخلف فيما بيننا، والتفجير وقتل الأبرياء فيما بيننا وبين الأخر»[1].

فعلينا أن نصحح أخطائنا ولا ننسب الدين لنا وحدنا، إذ «يجب أن نعترف أننا نحن العرب قد صبغنا الإسلام بثقافتنا العربية وموروثاتنا الثقافية، وقلنا إنها الإسلام وتقبلها الأبناء منا عن الآباء، كحقائق لا تقبل النقاش ولا الجدال، والواقع أنها ليست كذلك ولا ولن تكون»[2].

إذ نسبنا بعض اجتهادات الأفراد إلى الاسلام، فشوهنا الدين باجتهاداتنا وفتاوينا، ووقفنا بتلك الدعاوى ضد حقائق علمية أقرها العقل والواقع والتجربة، وبذلك أسأنا للدين، وجعلنا الأعداء يستغلون ذلك للطعن في الإسلام، والإسلام من ذلك براء.

وكان مِن بيننا مَن يكفر مَن يقول بأن الأرض تدور حول نفسها، وأن الهاتف في بداية ظهوره حرام بدعوى أنه يحمل صوت الشيطان، وحرّموا التصوير الفوتوغرافي والإنترنت والكمبيوتر والسيارات، وحتى الديموقراطية التي تمثل حقوق المواطن اعتبرت بدعة غربية محرمة، وإنما يجب الخضوع لولي الأمر، حتى ولو كان مستبدًّا حتى يرضى الله عنا، وهي أمور ليست من الدين في شيء.[3]

ولحسن الحظ أن شعوبًا مسلمة غير عربية لم تتأثر بأخطائنا، وما زالت وفية لعقيدتها، ملتزمة بإسلامها، وما زال الإسلام ينتشر في العالم، وذلك بفضل الكثير من الخيرين الذين يقدمون بسلوكهم، وأخلاقهم أروع الصور عن الإسلام، وفي مجالات الحياة المختلفة.

---

(1) المصدر السابق، ص11
(2) المصدر السابق، ص 12.
(3) المصدر السابق، ص 14.

وكما انتشر الإسلام لدى هذه الشعوب من أخلاق التجار المسلمين، فنحن مطالبون بأن نحمل الإسلام في سلوكنا ومعاملاتنا وأخلاقنا، لننصره ونؤدي واجب الدعوة، لا أن نحتكره وندعي أنه لنا بأفواهنا، دون أن نمارسه في حياتنا، ونصحح ذلك القول الذي قاله أحد الأجانب الذين أسلموا: الحمد لله الذي عرفنا بالإسلام قبل أن نعرف المسلمين، ليصبح الحمد لله الذي عرفنا بالإسلام والمسلمين، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس.

التربية الأسرية: كما يتناول الشيخ التربية الأسرية بكل جوانبها، من تربية الطفل فيخصص لها حيزًا مهمًّا في كتاباته معتبرًا العناية بالنشء من أهم وظائف الأسرة الحيوية، كما يتناول التربية الزوجية لبناء مجتمع سليم وصالح.

ويتطرق بتوسع للتربية الزوجية مبينًا أن حسن العلاقة بين الزوجين، ونشأة الارتباط من البداية على أسس صحيحة كفيل ببناء أسرة سعيدة، تنجب أبناء ينشؤون في بيئة سليمة مفعمة بالمودة والرحمة والتفاهم، فينعكس ذلك عليهم إيجابًا، على العكس لو بنيت الأسرة على احتقار المرأة وإهانتها، وعلى التعسف في العلاقة الزوجية بفرضها على المرأة دون إرادتها، واعتبارها مجرد آلة للإنجاب والخدمة، دون حقوق ولا احترام، فكيف يكون أبناؤها في هذه الوضعية.

وهل ينتظر من الزوجة أن تقوم بوظيفتها التربوية على أكمل وجه وهي فاقدة لأبسط حقوقها، وهو اختيار شريك حياتها الذي تنجب معه الأبناء، وتنشئهم نشأة صحيحة، «وهناك تأكيد على مبدأ الايجاب والقبول من الطرفين، فالإرغام والإجبار مرفوضين مهما كانت الأسباب والدوافع»[1] فهيهات أن ينتج نشء صالح من تربة غير صالحة، وقاعدة هشة، غير مؤسسة على أسس متينة.

تربية الأبناء: يدعو الشيخ إلى ضرورة الاعتناء بالأولاد لأنهم أمانة في أعناق آبائهم، وهم زينة الحياة الدنيا، وقرة عين أوليائهم؛ لذا تعد تربيتهم ورعايتهم أسمى

(1) المصدر السابق، ص71.

الواجبات الشرعية، إذ تؤكدها حتى القوانين الوضعية، ويقدم الشيخ رسائل مهمة في تربية النشء.

كما يقدم الشيخ وصايا للأبناء في زمن غيرته التكنولوجيا، ووسائل الاتصال الحديثة، من تليفزيون وهاتف وإنترنت وألعاب، أصبحت تأخذ منا اهتمام أبنائنا وتأسرهم بإغراءاتها التي لا تقاوم؛ لذا علينا أن نستمع لمطالبهم، ونناقشهم ونهتم بأفكارهم، ولا نحرمهم من ممارسة مواهبهم المشروعة، بل نساعدهم في تحقيقها.

ويدرك الشيخ الحقائق العلمية، ويؤكد على احترامها، مثل تعليم الطفل بعد سن السادسة، حتى يصير دماغه جاهزًا للاستيعاب والتمدرس، وقد أكد على ذلك الإسلام وتوصل إليه، وأقرته بعض دول الغرب وأكده العلم الحديث.[1]

وينبغي أن تتولى الأسرة تربية الطفل في السنوات الأولى، من الدرس القرآني وقصة إسماعيل عليه السلام، كما يتطرق الشيخ إلى ضرورة منع تشغيل الأطفال، واستغلالهم من طرف أسرهم أو المجتمع،[2] وهو أمر جرمته القوانين الدولية أيضًا.

كما يتطرق الشيخ إلى ضرورة تبصير الأبناء بما يقوم به آباؤهم؛ ليشعروا بمدى الحب والتفاني، والأعمال التي يبذلها الأولياء تجاه صغارهم، ومتى أدرك الأبناء ذلك، بادلوا أباءهم نفس المشاعر، ومن آداب التربية أن يعي الابن كدَّ والديه وعملهم من أجل إسعاده، وتحقيق مطالبه بكل حب وعطف وحنان.[3]

ويوظف الشيخ في هذا المقام من القصص القرآني، وخاصة أبعاد قصة سيدنا ابراهيم مع ابنه إسماعيل، وطاعة ابراهيم لربه، ثم طاعة إسماعيل لأبيه، وعلينا استلهام العبر من مناسبة عيد الأضحى، وطاعة الوالدين التي يكافئ عليها الأبناء لا محالة.[4]

التربية الزوجية: بل لا يتوانى الشيخ في التأكيد على ضرورة احترام وصيانة نظام

(1) المصدر السابق، ص16.
(2) المصدر السابق، ص 17.
(3) المصدر السابق، ص 18.
(4) المصدر السابق، ص 77.

الزواج، الذي أقره الإسلام، «وقد احترمت الأديان كل الأديان مؤسسة الزواج هذه، وحرصت على تأكيد وجودها، وأحاطتها بأسوار العناية والتنظيم والرعاية»[1].

ولإعطاء قداسة للزواج يتناول الشيخ التربية الزوجية الصحيحة، التي تبدأ منذ الاختيار الصحيح والمتوافق للزوجين، ويتطرق للعلاقة بين الزوجين فيبين ضرورة التمتع بما أحل الله للزوجين من صور التمتع، فلا حرج في أن تتزين وتتطيب الزوجة لزوجها، وعلى الزوج ألا يعامل زوجته بعنف وترفّع، فالمودة والرحمة مطلوبة حتى في العلاقة الحميمية.

وألا يغفل حق المرأة في التمتع؛ لأنها شريك في العلاقة، وقد بالغ البعض دون فهم صحيح للدين إلى تحريم كثير من الأمور على المرأة، كأن تتزين لزوجها أو تطلق شعرها أو تضع العطور، وهي أمور غير صحيحة، فقد كان رسول الله ﷺ وهو قدوتنا، يغتسل في إناء واحد مع زوجته، كما كان يقبّل زوجاته.

كما نهى عن أن يقع الرجل على زوجته كالحيوان، حيث يقول: «لا يقعن أحدكم على امراته كالبهيمة، وليكن بينهما رسول، قيل وما الرسول؟ قال: القبلة والكلام (رواه الديلمي)»[2]وأن يحترم حق الزوجة عليه في اسعادها، وأن يستخدم الأساليب المشروعة، من ملاطفة ومداعبة ومودة ومحبة.

وقد دلت الدراسات الحديثة على أن السعادة الزوجية مرهونة بالتوافق في العلاقة الحميمية بين الزوجين، وأن كثير من المشاكل والنكد والطلاق، وحتى الخيانة الزوجية من الطرفين، ناتجة عن عدم التكافؤ، والتوافق في العلاقة بين الزوجين.

ولنتصور ما يلحق الأسر من مآسي ومشاكل، وفتن وجرائم، إذا لم تؤسس الأسر على قواعد صحيحة، وإذا لم تبنى العلاقات بين أفرادها على التفاهم والإحسان،

(1) المصدر السابق، ص 71.
(2) المصدر السابق، ص 75.

إذ يضيع الأبناء ويكونون أقرب إلى الانحراف في حالة انهيار نظام الأسرة، والذي يلحق الضرر بالنظام الاجتماعي ككل.

ويبين الشيخ ما جَدَّ على مؤسسة الزواج من مشاكل، نتيجة الطفرة التكنولوجية، والتطور المادي والتكنولوجي، وتسارع الاتصال والتواصل بين المجتمعات، أصبحت مؤسسة الزواج مهددة بمظاهر سلبية كثيرة، وهي المغالاة في المهور وطلب السكن الخاص والحصول على مستلزماته، مما صعب الزواج وأدى إلى تأخره وسقوط الشباب في العنوسة، وعرف المجتمع العربي أنواع من الزواج الغريبة، كالزواج العرفي والسري والمخادنة والمسيار، وفيها تفقد المرأة والأبناء حقوقهم.[1]

كما انتشرت الآفات الاجتماعية وأصبح الطلاق هينًا، وكثيرًا ما يكون لأهون الأسباب، وما ينجر عنه من مشاكل للمرأة وضياع للأبناء.[2]

وعلينا زيادة على إجراء الكشف الطبي للمقبلين على الزواج، يستحسن أن تقوم هيئات متخصصة بتقديم دروس تحسيسية للأسر الجديدة، والمقبلين على الزواج لتوعيتهم، وقد يساهم ذلك في التقليل من نسبة الطلاق المرتفعة.[3]

ويقدم الشيخ الحل لهذه المعضلة موضحا أن: «كل التعقيدات الزوجية اجتماعيًّا واقتصاديًّا أو فطريًّا، أو فهمًا مشوشًا لنصوص الدين الحنيف، هي سُم زُعاف يفتك بنا ببطء، فاليسر والحفاظ على واقعية وبشرية الزواج، ضمن ما تميل له الفطرة وتشتهيه، وداخل حدود التيسير والسعة، هو فقط الذي سيكفل لهذه المؤسسة البقاء».[4]

ولا يغفل الشيخ أساليب التعامل التي تزيد العلاقة الزوجية متانة، وتربط الزوجين بحبل المحبة والمودة، وهو حسن المعاشرة والاهتمام بمطالب الزوجة،

---

(1) المصدر السابق، ص 72.
(2) المصدر السابق، ص 73.
(3) المصدر السابق، ص 56.
(4) المصدر السابق، ص 76.

وحسن المخاطبة والتودد والاهتمام بالمظهر والهندام، وأن ذلك كفيل بتوفير جو من الدفء وتحقيق السعادة الزوجية.

كما تتحمل المرأة جزء من المسؤولية إذا كانت لا تهتم بمظهرها، وقد ينفر منها زوجها، أو يفكر في غيرها، مع وجود المغريات من النساء، في الشارع وعلى الشاشات، وقد يصل الأمر إلى الطلاق، الذي هو منتشر في البلاد العربية؛ لأن المرأة غفلت عن الحديث النبوي الذي يصف المرأة الصالحة، وإذا نظر إليها سرته، وصار إذا نظر اليها أرهبته بإهمالها لنفسها.

لذلك أفتى الشيخ للمرأة بأن تتزين، وتسبغ شعرها، وتصلح أسنانها، بل اعتبرها أثمة إذا تسببت بهذا الإهمال، في ارتكاب زوجها للحرام، قائلا: «نعم أنا أفتي بكل ذلك لأنني لا أحب أن يرى الزوج في زوجته إلا أحلى صورة، وأبهى حلة، لتستمر الأسرة وتتحاب، وتؤدي وظيفتها، وتنجح في مهمتها المقدسة، وأخاف إن لم تفعل الزوجة ذلك لزوجها، أن تكون آثمة بدفعه إن كان ضعيف الايمان، إلى إشباع غرائزه حيث لا يرضى الله».[1]

ويؤكد الشيخ أن المرأة تملك مفاتيح سعادتها، وسر صون زوجها إذا أحسنت التصرف في التعامل في إبراز جمالها لزوجها[2] وبذلك تحافظ على بيتها، وتَسعد وتُسعد زوجها، وهو ما ينعكس دون شك إيجابًا على الأبناء؛ لأن العلاقة وطبيعتها بين الزوجين تؤثر على الأولاد، وتوفر لهم البيئة الحاضنة لنمو سليم.

كما تشكو بعض النساء من العنف الأسري، الذي يبرره بعض الرجال عن جهل، بأن الدين يبيح ضرب الزوجة لتأديبها، وهو ما يرد عليه الشيخ ويجتهد في تفسير النشوز الذي تضرب عليه المرأة، فيعتبره خروج عن الطبيعة المألوفة للعلاقة، وهو أمر نادر الحدوث.

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 13.
(2) المصدر السابق، ص 12.

وعليه فالأصل ألا تضرب المرأة في الحالات العادية، كما أنه لا يعقل أن تضرب المرأة لأسباب أخرى، ثم يطلب منها أن تسلم نفسها لزوجها طائعة راضية وتمتعه بنفسها، وترعاه بعواطفها وهو أمر لا يستقيم إذ: «لا يلومن أولئك إلا أنفسهم إذا ما تفقدوا نساءهم، فوجدوهن أجسادًا فاترة ميتة، لا حياة فيها ولا عاطفة؛ إذ كيف يطلب منها أن تتناسى صفعاته على وجهها في الصباح، وركلاته على جسدها...ثم يهيم به فؤادها وينطق بحبه لسانها».(1)

فالأولى المعاملة الطيبة والرعاية لما تتمتع به المرأة من رقة ونعومة، حتى تبادل بعلها نفس الشعور «فشتان بين زهرة أرغمت على التفتح قسرًا، وأخرى رعيت وأهتم بها حتى تفتحت».(2)

وقد أكد الشيخ على قداسة العلاقة بين الزوج وزوجته، وواجب رعايتها ويكفينا قدوة نبينا ﷺ مع أمنا عائشة، وكيف أعطانا دروسًا في المحبة والمودة ولين الجانب والعطف، وحسن المعاملة ورقي التصرف.

بل يؤكد الشيخ على قبلة الزوجية تلك السنة المهجورة، «لأن تلك القبلة المباركة بين الزوجين في الشهر المبارك، تعني الكثير والكثير فهي أسلوب حضاري بديع رفيع، للتعبير عن مشاعر الزوجية المقدسة، والتزام يومي ينبغي أن يحرص عليه الزوجان.. فهي من الزوج شكر وتقدير لزوجته على ما تبذله من جهد.. ومن الزوجة.. عهد أمان وإخلاص ووفاء.. ومن الزوجين إحياء لتلك العواطف الفتية.. يوم جمع الله بينهما برباط الزوجية المقدس».(3)

فعلينا أن ندرك ونقدس تلك العلاقة السامية، ونحترم فيها الزوجة التي تدخل زوجها إلى ذلك المحراب المقدس، فتصونه وتحبه وتحفظه وتعطيه كل شيء،

(1) المصدر السابق، ص 101.
(2) المصدر السابق، ص 101.
(3) ا المصدر السابق، ص 16.

فواجب عليه أن يرد الجميل ويحفظها كما حفظته، ويرفعها كما رفعته، ويقدرها كما قدرته، ويدرك قيمة تلك النعمة ألا وهي الزوجة الصالحة.[1]

التربية بالقصص القرآني: أخذ العبرة من الأحداث السابقة: ينبهنا الشيخ بشرح دقيق ومفصل للقصص القرآني، ويستخدمه كأسلوب تربوي فعال لهدايتنا، وهو أسلوب قرآني تمثل في القصص التي أخبرنا بها القرآن الكريم لنتعلم منها ونعتبر، وهو أسلوب تربوي فعال؛ لأنه يعطيك الحدث إن كان صوابًا أو خطأً، ويبين لك ما حدث والعواقب والنتائج، وما عليك إلا الامتثال وأخذ العبرة والعمل بها، بالاقتداء بالفضائل وتجنب الرذائل.

كما كان لتمكنه من علوم الدين الأثر الفعال، في قراءته وتقديمه للقصص القرآني بأسلوب شيق، مبرزًا الحكمة والعبر من المناسبات الدينية، والآيات القرآنية، والسيرة النبوية، مقتديًا بالمعلم الأول الذي جاء لهداية البشرية، كل ذلك في لغة ميسرة مفهومة، خالية من الطلاسم والمبهمات التي نبهنا إلى ضرورة تجنبها، وتخليص الكتب الدينية منها حتى نيسر للناس فهم دينهم.

يستخدم الشيخ في أسلوبه التربوي القصص القرآني لتعليم النشء، ويضرب لنا مثلًا في درس قرآني مهم، هو قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل، وكيف كانت العلاقة بين الوالد وولده، وكيف كانت طاعة الابن لأبيه الذي صدّق الرؤيا، وكيف فداه ربه بذبح عظيم.

ثم يتناول الشيخ كيف تتحول القصة من امتحان رباني عسير، إلى فرح كبير، تتجلى فيه فرحة العيد، ومعاني العيد من تكافل وتعاون، وترابط بين أفراد المجتمع من أغنياء وفقراء، ويرتبط كل ذلك بركن هام من أركان الإسلام الذي هو الحج، الذي يجتمع فيه المسلمون على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم وكبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم، ورئيسهم ومرؤوسيهم، الكل سواسية ليشهدوا منافع لهم، وليتوحدوا في

---

(1) المصدر السابق، ص 17.

مشهد واحد، ليوحدوا الله فيه، ويُتموا مناسكهم في صعيد واحد، لا فضل فيه لأحد على الآخر، إلا بالتقوى والعمل الصالح.

ويرى الشيخ ضرورة استغلال هذا المحفل العظيم، الذي هو الحج في توحيد كلمة المسلمين اجتماعيًّا؛ لأنه يجمع كل الأمم الإسلامية، واقتصاديًّا لمساعدة الدول المسلمة الفقيرة بالأضاحي، وأموال الزكاة، للتمكين للمسلمين، وتقوية كلمتهم، والمساهمة في نشر الإسلام، ببناء المساجد والمستشفيات والمدارس والسدود والطرق، لنكون أمة واحدة بحق، متعاونة على البر والتقوى، ومتكافلة بين أبنائها في عالم لا يرحم الضعفاء.

كما يتناول في أسلوبه التربوي المناسبات الدينية العظيمة، وكيف يجب أن تكون محطات مهمة للتعلم وأخذ الدروس؛ لأن الله فرضها كعبادات لنتعلم منها ونستفيد منها في حياتنا، وفي معاملاتنا، وسلوكنا مع بعضنا البعض، ويأخذ الشيخ العبر التي علينا أخذها من عبادة عظيمة عند الله ألا وهي الصوم، في شهر من أعظم الأشهر عند الله وهو رمضان، الذي أنزل فيه القرآن، وكله عبادة وشحن للإيمان، ليترقى فيه الإنسان، وينال من الخيرات ألوان، والذي فيه ليلة القدر، التي هي ثقيلة في الميزان، لمن نالها بإحسان؛ لذا يجب ألا يغفل المسلم عن استغلال هذه العبادة العظيمة في التعلم والعبادة، وتعليم الأبناء.

إذ يمسك الإنسان نفسه عن لذات البطن والفرج، ولسانه وجوارحه عن الموبقات، ويكثر من العبادات، من صلاة وزكاة، وذكر وصدقات، وينتظر المكافئات بعد تأدية الواجبات، لينال من الله الفضل والدرجات، وتحل عليه البركات، بعد جهد وإخلاص في المعاملات، وذلك وعد الله الذي اخبرت به كثير من الآيات.

«إن حكمة الصوم التربوية تجعله سفينة النجاة للإنسانية اليوم، بكل أعراقها ودياناتها وجنسياتها، ليهذب طباعها ويصلح مسارها، بعد أن عمّ الأرض طوفان المادة وقانون تبادل المصالح، واستهانة الإنسان بأخيه الإنسان، وانحطاط الأخلاق،

واستباحة الأعراض والانكباب على الشهوات والملذات، وتشتيت الأسرة وتهديم بنيانها».[1]

توحيد الإنسانية في مواجهة الخطر: يتكلم الشيخ عن الدروس والعبر التي يجب أن يأخذها الإنسان من القصص القرآني، إذ إن الأوبئة التي انتشرت وغزت العالم ولم تردها حدود، ولم تردعها لا قوة ولا جنود، وهي أمراض فتاكة تنقلها مخلوقات ضعيفة، ولا تكاد ترى هي الفيروسات والجراثيم، وقد ذكر الشيخ أنفلونزا الطيور والخنازير، وجنون البقر وقد قتلت ملايين الناس، ولم تفرق بين قوي أو ضعيف، ولم تستثن بلدًا دون غيره، ويكفي في ذلك عبرة لمن يعتبر.

«فها هو الطير يعود من جديد ليعلم الأحفاد درسًا قيّمًا مفاده: أن هذا العالم بقاراته الست ومليارات سكانه الستة، إما أن يرتفع معًا وإما أن ينهار معًا، وما اختلاف الأموال والألوان والألسن، إلا أسباب تقارب وتآلف، وأن هذه الحدود بين الدول والفوارق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هي كذبة تاريخية غير محترمة من أحد من مخلوقات الله تعالى قاطبة، باستثناء الذي وصفه بالظلوم الجهول.. وأنه آن للعالم أن ينفتح على بعضه يتعاون ويتعايش».[2]

وانتشار أنفلونزا الطيور والخنازير، فالوباء لا يستثني أحد ولا يحترم حدود ولا يخشى دول بعينها فالإنسانية موحدة في المعاناة، كما تضرب الأعاصير والأوبئة دون تمييز، بل الكل سواسية، ومع ذلك لا يعتبر الإنسان من كل هذه الأحداث.[3]

وعلى الدول أن تتوحد في مواجهة الكوارث والأوبئة ومن باب أولى الدول العربية، والعالم المتقدم يجب أن ينظر إلى الدول الفقيرة، ويساعدها في مقاومة الأمراض، لكيلا تنتشر وعلى الجميع التعاون في ذلك من باب أخلاقي وإنساني،

---

(1) المصدر السابق، ص15.
(2) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 18.
(3) المصدر السابق، ص 19.

وقد أبان الشيخ القطعاني عن بصيرة ثاقبة، ورؤية صادقة في تحليله لأسباب الأوبئة، وانتشارها في كل العالم وضرورة التكاتف لمواجهتها، وما يحصل في أيامنا هذه من انتشار الكوفيد خير دليل على نظرته الصحيحة.

تربية الشباب على الاعتدال والتسامح: يحذر الشيخ الشباب من التطرف والتزمُّت، ويدعوهم إلى استغلال شبابهم وحيويتهم وصحتهم، فيما ينفع أمتهم وبلدانهم، بالتزود بالعلم والمعرفة من طب وهندسة، وكيمياء ورياضيات، وأن يكونوا بذلك منتجين ومفيدين.

وأن لا يتناولوا الدين من زاوية الانعزال عن المجتمع، والاهتمام بمظاهر الأمور وادعاء التدين بلبس وشكل معين، وانكار الغير، وتكفير مخالفيهم والاعتقاد أنهم على حق وغيرهم على باطل؛ لأن ذلك مدعاة للفتنة والإرهاب والاقتتال بين أبناء الأمة الواحدة، وتشتيت للمجتمع وتضييع لمصالحه، وإساءة لدينهم؛ لأن الأصل في الإسلام هو الاعتدال والوسطية، والتسامح والعالمية، فعلى الشباب العربي المسلم أن يتحلى بهذه الصفات، وأن يدعو إلى دينه بهذه القيم، ليضمن له الانتشار والاحترام من الأمم الأخرى.

ويشير الشيخ إلى الخطر الكبير في تزمّت شريحة هامة من الأمة، التي هي الشباب وانشغالها عن دورها الرائد في تقدم مجتمعاتنا، والتزود بالعلم والعمل لرفعة وازدهار أوطانها، إذ «ليس المواطن العربي عن هذا التخلف المزري ببعيد، حتى أنك تجد المئات من شبابنا الذين خيبوا آمالنا، قد شمروا عن سراويلهم وعتقوا لحيهم، وتجهزوا للحوار لمدة ساعات، والعراك والاقتتال وتكفير مقاتليهم».[1]

ويضيف الشيخ ناصحًا الشباب الذي تعول عليه الأمة، بالعمل وتجنب التزمت والتطرف وأنه لو كان «هذا الحماس للمصنع والحقل، وإتقان العمل والتفوق في الدراسة، وانكبوا على دراسة كتب الطب والهندسة، والفيزياء والكيمياء والمحاسبة

(1) المصدر السابق، ص 6.

وسواها من علوم العصر، بدلًا من كتب ابن تيمية ومؤلفات محمد بن عبد الوهاب لكنا في غير حالنا اليوم».[1]

كما يؤكد الشيخ على ضرورة استخدام الخطاب الديني المحفز والمشجع، خاصة مع الشباب وعدم تيئيسهم من شبابهم، وقتل أملهم في الحياة، بملء أذهانهم بثقافة الموت، وإلهاء الشباب بقضايا عذاب القبر، وتلون ثعابين القبور، وهي ثقافة منفّرة لا تخدم المسلم، فما بالك إن كان شابًا موفور الصحة مقبلًا على الحياة، فمن باب أولى أن يستغل شبابه فيما ينفعه وينفع مجتمعه، وأن يعيش حياته وأن يتمتع بطيبات الرزق وبشبابه، دون أن يكون في ذلك معصية، أو تجاوز لحدود الله.[2]

التربية المسجدية: لذلك يلح الشيخ أن يقوم المسجد بوظيفته التربوية، زيادة على دوره الديني والثقافي، وهو الدور الضروري للمسجد كمؤسسة دينية اجتماعية، فيعدد الشيخ المهام التي يجب أن يضطلع بها المسجد، متمنيًا في نفس الوقت على القائمين على المساجد، أن يبادروا من باب الدعوة إلى مجموعة من المهام، التي تجعل من المسجد منارة للعلم والتعليم، وهي:

- أن تكون خطبة الجمعة بالإنجليزية والفرنسية لتمكين الأجانب ممن لا يتقنون العربية من الاستفادة.
- واستخدام لغة الاشارة للصم، لتمكين هذه الفئة من فهم دينها.
- تقديم الخطبة بخطيب يلبس لباسًا عصريًا؛ لأن ذلك يبين عالمية الدين وصلاحه لكل عصر.
- استثمار أموال الزكاة، وجمعها في مشاريع اقتصادية واجتماعية كبرى.
- وكما هو معمول به تقديم الجوائز لحفظة القرآن، ويستحسن أيضًا أن تخصص جوائز للمبدعين والمتميزين اقتصاديًا من أصحاب المشاريع، والذين

(1) المصدر السابق، ص 6.
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص 82.

يراعون القيم الأخلاقية في أعمالهم. وهي فكرة قيمة لتشجيع الذين يقدمون خدمات مفيدة للمجتمع، ويتميزون بمراعاة الصالح العام، ويتقنون ويخلصون في عملهم.[1]

- كما يجب أن يقوم المسجد بوظيفته الاجتماعية، بجمع الصدقات والخيرات من الميسورين، وتقسيمها على المعوزين. وينتبه الشيخ إلى أمر آخر وهو:

- ضرورة مراعاة الإجراءات الصحية اللازمة، لمنع انتقال العدوى والأمراض نتيجة الشرب من الجرار وأواني الماء في المساجد، واستخدام أدوات ذات استخدام فردي ثم ترمى؛ لأن حياة الإنسان وسلامته فوق كل اعتبار.[2]

وتنبه الشيخ لذلك دليل على فراسته، وما يحدث في أيامنا من انتقال عدوى الكوفيد خير دليل. وبذلك يؤدي المسجد دوره الديني والتربوي والاجتماعي، والاقتصادي على أكمل وجه.

التربية العلمية: لا سبيل إلى التقدم، والخروج من تخلفنا سوى التزود بالمعرفة العلمية، هذا ما يؤكده الشيخ، ويدعو إلى الأخذ بأسباب التطور والازدهار، ويحدد المخرج من حالة التأخر الحضاري، مبينًا «أن الباب الوحيد الذي نخرج به من التخلف إلى التقدم ومن التردي إلى القوة، ومن الظلام إلى النور هو باب العلم، وينبغي أن نعلم هذا جيدًا ونعمل له وبه، وننظر إلى من حولنا وما يفعلونه في هذا الصدد».[3]

ويدلل الشيخ على ذلك بأمثلة عن عمل الأمم الأخرى، فيما يتعلق بالبحث العلمي، فمثلًا ما تطبعه اليونان وهو بلد أوربي صغير من المطبوعات، يعادل ما تطبعه الدول العربية مجتمعة في سنة.[4]

ولكن لا يعني ذلك الانسلاخ من حضارتنا، وتقليد الغرب في كل شيء، ويحذر الشيخ من السقوط في التبعية والتقليد الأعمى للسلوكيات الخاطئة، والتأثر بالغرب

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، مصدر سابق، ص 55، 56.
(2) المصدر السابق، ص 56،57.
(3) المصدر السابق، ص42.
(4) المصدر السابق، ص43.

والخجل من كل ما هو أصلي أو عربي، وذلك مع ظهور دعاة التغريب، ودعوتهم للتخلص من عاداتنا الإسلامية، وتبني أخلاق الغرب؛ وذلك لأنهم يعتقدون أنه السبيل لتقدم مجتمعاتنا.[1]

وبذلك يؤكد الشيخ أن مستقبلنا بأيدينا وما علينا إلا الإخلاص، لتحقيق ما تصبو إليه أمتنا بالعلم والعمل، والتخطيط السليم.

التربية على الوسطية والاعتدال: يؤكد الشيخ على عالمية الرسالة المحمدية، كما يدعو إلى ضرورة غرس ثقافة التسامح والوسطية، وتجنب التزمُّت والمغالاة، كما يدعو إلى احترام قيم المجتمع وتراثه من دون الانغلاق والتطرف، أو رفض القيم والسقوط في التبعية والتغريب.

إذ علينا احترام القيم التي ورثناها من آبائنا، وقد جاء «بعض المشككين وهم من المتزمتين فكفروا الأمة، ولم ينج منهم لا مسجد ولا زاوية. أما دعاة الحداثة فاعتبروا قيمنا تخلف وعدم مسايرة للعصر ومتطلباته، وأباحوا المحرمات والرذائل، واعتبروه من العصرنة والتقدم».[2]

فكلا الموقفين صارا وبالًا على أمتنا، والصراع بين الفريقين أخّر كثيرًا إمكانية النهوض، وعطل مشاريع الإقلاع الحضاري، وأدخل الأمة في تخلف وضياع؛ لأن صراع الأفكار الداخلي لم يسمح بتوحيد الجهد ومعالجة الأزمات الاجتماعية، والفكرية والاقتصادية للمجتمعات العربية.

التربية الفنية: تتباهى الأمم بما أنتجته من آداب وفنون تعبر عن الحاجات الذوقية، وعن المشاعر والوجدانيات، وعن حياة الناس وكيف كانت وكيف تطورت، وتتناقل الأجيال تلك الثقافات والفنون، المعبرة عن ماضيها وحاضرها، بل تعتز

(1) المصدر السابق، ص 32.
(2) المصدر السابق، ص 50.

وتفتخر الأمم بتراثها الفني، وتحفظه في المتاحف والمراكز المتخصصة، وتجلب تلك الأماكن السياح، وتدر على تلك الدول أموالا طائلة.

لذلك يستغرب الشيخ القطعاني إهمال أمتنا للفنون المباحة، والتي ليس فيها معصية، بل تعبّر عن الأمة وجهادها، أو تحفظ تاريخها ونضالها، والتي تدخل في ثقافة المجتمع، ولذلك يعتبر «أمة بلا فنون خرساء، وفنون بلا أمة عمياء».(1)

ويبين الشيخ أن «الفن مثله مثل أي نشاط إنساني آخر في الدنيا يحتكم إلى الميزان الدقيق، الذي ينبغي أن يكون هو الفيصل في حياة المسلم، وهو عرضه على أحكام الشرع الخمسة التي هي: الفرض، الحرام، المندوب، المكروه، المباح».(2)

ويرى أن الشرع بريء من تحريم الفنون إجمالًا، ولا يجوز عنده تعميم الأحكام، بل توضع على الميزان الذي سلف ذكره وتقاس، لتكون الإباحة، أو التحريم، لأن بعض الفنون مباحة خاصة التي تعبر عن ذوق الناس.

ومجتمعاتنا غنية بطبوعها الثقافية المختلفة والثرية، وبفنونها المتنوعة والراقية، التي تعبر عن أفراحها وتقاليدها؛ لذا من باب أولى أن تهتم الأمة بموروثها الفني والثقافي، وتساهم في حمايته وتطويره، إذ تساهم الفنون والثقافة في حفظ هوية الأمة، وإبراز تميزها وإبداعها. لذلك يقول الشيخ: «إنه آن للأصوات التي تحارب الفن باسم الإسلام أن تعيد ترتيب أحكامهم».(3)

ولذلك عرف عن الشيخ تأسيسه لفرقة مسرحية تقدم أعمالا هادفة، وقد كرم الفنانين الليبيين، كما له أعمال تبرز تاريخ وتراث ليبيا، كما عرف عنه تأليفه لعدة أعمال مسرحية، كما أهتم بالمديح الديني وله في ذلك قصائد، وديوان شعر، وعمل على تنظيم مسابقات للإنشاد الديني تقدم جوائز، وشارك فيها المتسابقون من كل

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص40.
(2) المصدر السابق، ص 40، 41.
(3) المصدر السابق، ص 46.

العالم، كما أشرف على إنشاء متحف قصر طيبة للفن التشكيلي الليبي، كما أن له أعمالًا بارزة في الأدب وتاريخ ليبيا، وبذلك انتصر لضرورة إحياء الفنون والآداب في المجتمع الإسلامي؛ لأنها تعبر عن رقي الثقافة العربية، وإبداع وحيوية وجدان الأمة.(1)

المبحث الثاني
التصوف في فكر الشيخ أحمد القطعاني

ماهية التصوف: لا يمكن الكلام عن التصوف إذا لم نعرفه، ونحدد طبيعته وسر ظهوره، وأصله، ولتحقيق ذلك نستشهد بشهادة العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، وهي كافية وافية للإجابة على تساؤلاتنا، إذ تُعرّف التصوف، وتُبين من كان يمارسه، وتشرح طبيعته، وأسباب ظهوره، وتحدد أصل التسمية.

حيث يقول (ابن خلدون) عن التصوف: «هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسّلف.

فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة...والأظهر إن

(1) ينظر موقع طيوب، 17 نوفمبر 2019، ترجمة فضيلة المحدث المؤرخ مسند الديار الليبية علامة ليبيا الكبير الشيخ أحمد القطعاني، تم الدخول إلى الموقع بتاريخ 13/ 12/ 2022، المتاح على الرابط: https://tieob.com/archives/41282

قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس، في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف» .[1]

يقول السهروردي (449-487هـ) عن الصوفية: «فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا شواغل الدنيا بتحقيق الزهد انفتحت مسامّ بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم وأعانهم على ذلك زهدهم في الدنيا».[2]

إصلاح التصوف: يعد الشيخ القطعاني عَلَمًا من أعلام التصوف السني، وقد عمل على إصلاح التصوف، والدفاع عنه وإبراز مراميه، مبينًا أصول التصوف الصحيح، منتقدًا بعض السلوكات التي يقوم بها العامة باسم التصوف، موضحًا أنها لا تمثل التصوف، وإنما هي جزء من تقاليد وطقوس تعودها الناس وصارت جزءًا من عاداتهم الاجتماعية.

وقد أسس بنفسه زاوية بدرنة بليبيا، وأشرف على نشاطها في تربية وتعليم التلاميذ أصول الدين، وحفظ كتاب الله، وتدريس المواد العلمية أيضًا، وهي نظرة تجديد لوظيفة الزاوية، لتساهم في تكوين واكتشاف المبدعين والمواهب في جميع المجالات.

فالتصوف عند الشيخ ممارسة روحية سامية، تقوم على التقرب من الله، والاجتهاد في العبادة والصوم والصلاة والذكر، والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذات مادية، وإنما تطويع النفس على تجنب الرذائل، والتحلي بالفضائل، وقد كان هذا سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وكثير من المسلمين.

فقد انبرى الشيخ للدفاع عن التصوف وبيّن أهميته للفرد والجماعة، منتقدًا ما لحق بالتصوف من ممارسات خاطئة وفهم سطحي، وتشويه مقصود من تيارات

(1) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص 467.
(2) عوارف المعارف، شهاب الدين عمر السهروردي، على هامش إحياء علوم الدين، عالم الكتب، دمشق، ج1، ص197.

متزمتة، أو من العامة الذين حصروا التصوف في طقوس غريبة لا تمت له بصلة، وعمل الشيخ على إظهار التصوف السني الحقيقي، الذي كان عليه السلف الصالح من زهد وتعبد والتزام واستقامة، ليكونوا قدوة تتربى الأمة من خلالها.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن التصوف حمى الدين من الأحكام المجحفة، وحفظ للإسلام تسامحه وإنسانيته وعالميته، في وقت شوهت التيارات المتزمتة، والجماعات المتطرفة الدين حتى كاد أن يفقد سماحته، وارتبط لدى الأمم الأخرى بالتطرف والإرهاب، خاصة عند المجتمعات الغربية، وارتبط هذا التصور الخاطئ لدى كثير من غير المسلمين، مع عمل الدوائر الصهيونية والصليبية على بقاء تلك النظرة لكل ما له صلة بالإسلام.

وهذا الأمر وقع قديمًا وحديثًا، حيث عمل المتصوفة في كل زمان ومكان، على حفظ صورة الإسلام المتسامح والعالمي والتزموا بذلك حتى ولو أدى ذلك إلى تضحيتهم بأرواحهم، زهدًا في الدنيا وتقربًا من الله، وصدقًا في الممارسة، وتأكيدًا على التزامهم بمذهبهم في حب الله، وإيمانًا منهم بتجربتهم الروحية السامية؛ لذا ربطنا في هذه الورقة بين أمرين مترابطين متداخلين هما التربية والتصوف.

العلاقة بين التصوف والتربية: والملاحظ لأعمال الشيخ القطعاني أنه ربط بين التصوف والتربية، باعتباره مربيًا عارفًا بأصول التدريس، كما أكد على الربط بين العلم والتصوف، «العلم والتصوف توأمان ولدا من رحم واحد فعلامَ نفرق بينهما؟».[1]

التصوف تربية للنفس وتصفية لها بحيث تترقى إلى أعلى الدرجات، من التزكية والنقاء والتجلي والصفاء، وبذلك يصبح التصوف أرقي أنواع التربية وأعظم أشكالها؛ لأنه يصل بصاحبه إلى أسمي المقامات. لذلك لا يمكن أن نفصل التربية عن التصوف؛ إذ يبدأ التصوف ممارسة عملية تربوية للجوارح حتى تستقيم، وتزكية

(1) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص17.

للنفس حتى تطهر، وكل ذلك من خلال الصوم والصلاة والذكر وغيرها من العبادات، وأيضًا الاستقامة في المعاملات مع جميع المخلوقات، من إنسان وحيوان أو نبات.

وما يؤكد ذلك نقد الشيخ لتعامل الناس مع البيئة ومحيطهم الاجتماعي، وتفريطهم في نظافة مدنهم، وتصرفاتهم العنيفة مع الحيوان، وتحطيمهم للمستلزمات الاجتماعية كالإنارة ومحطات التلفون والأشجار وغيرها، على الرغم من أن ديننا يحثنا على المحافظة على الطبيعة، وتعمير الأرض وينهانا عن الفساد.

وذلك من أخلاق المسلم وتعاليم دينه تحثه على ذلك؛ إذ يتعجب الشيخ من «أننا نحن من يستفيد من البلاد النظيفة، والشجرة والمدارس الجميلة والمنظمة وسواها، وما لم نفهم هذا جيدًا، ونعمل به ونقنع به أصدقاءنا وأقرباءنا به، فإننا سنبقى ننظر في شاشات الفضائيات متحسرين، متمنيين أن تمطر السماء ذهبًا وفضة، وهي لن تمطر إلا دموعًا نبكيها أسفًا وحزنًا، على قوم يأملون ما لا يكون فيكونون ما لا يأملون».[(1)]

وما يؤكد العلاقة بين التصوف والتربية قول أحد كبار الصوفية، الشيخ أبو حامد الغزالي: «أنّه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربٍ، ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته، ويجعل مكانها خلقًا حسنًا، ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته، ويكمل ريعه، ولا بد للسالك من شيخ يؤدبه ويرشده إلى سبيل الله تعالى».[(2)]

وبالتالي نكون أمام تربية متكاملة للإنسان نفسًا وجسدًا، ونتجنب التربية المبنية على المظاهر المصطنعة، والمجاملات الكاذبة، وإظهار أفعال تخالف بواطنها، وإنما تربية صادقة ظاهرًا وباطنًا.

تصحيح النظرة السلبية للتصوف: يرى الشيخ أن البعض يسيء للتصوف ويحكم عليه أحكامًا مسبقة، من غير علم ولا دليل، ويتصيد العثرات، ويلتقط الهفوات من

---

(1) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 8

(2) رسالة أيها الولد، أبو حامد الغزالي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2003م، ص169.

تصرفات العامة، ويحسبونه على التصوف معممين الأحكام في تعسف وتسرع «لأن أنفس المغرضين جبلت على الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة، فإنهم يوارون إنجازات التصوف في مجتمعه، علميًا وجهاديًّا وخلقيًّا وحضاريًّا ويقصونها عن البحث، وينظرون إلى سلبيات ألصقها به بعض كارهيه ومنتحليه، جهلًا به ظلمًا أو عدوانًا».[1]

ولما كانت مجتمعاتنا تعاني التخلف، والإنسان ابن بيئته الاجتماعية، فهو يتأثر ويؤثر في محيطه، وكما هو الحال في «التصوف كنشاط إنساني بطبعه لذا فهو يتأثر بالمناخ العام لمجتمعه سلبًا أو إيجابًا، فتراه يزدهر ويرتفع أحيانًا، ويخبو ويجمد أحيانًا أخرى، مترافقًا في ذلك مع بيئته وظروفها».[2]

لذا يعمل الشيخ على إصلاح التصوف مما لحق به من مظاهر غريبة، وسلوكات مشينة، ويبيّن أهمية التصوف في مجتمعاتنا، مبرزًا أهمية الزاوية، كمؤسسة اجتماعية ناشطة، قديمًا وحديثًا، اجتماعيًّا ودينيًّا واقتصاديًّا، والأهداف الروحية والتربوية للتصوف، ودوره في تعليم وتوحيد الأمة، والدفاع عنها ضد الغزاة.[3]

وقد أرّخ الشيخ للتصوف والصوفية، وتتبع تاريخ علماء التصوف وشيوخه في ليبيا عبر التاريخ، وبيّن جهودهم وأعمالهم، كما أنه تتلمذ على كبار شيوخ التصوف في عصره؛ ولذا كان عالما بالتصوف وقيمته، ودوره في المجتمعات الإسلامية، كما مارس التصوف مريدًا ثم مؤسسًا للزاوية، ومعلمًا ومربيًا وشيخًا فيها، مما مكّنه من معرفة التصوف عن قرب وبالممارسة.

الزاوية مؤسسة تربوية: عليها أن تبادر إلى ذلك من خلال نشاطها، وذلك لالتقاط الدرر واكتشاف المواهب، وهي مهمة الشيخ الصوفي، اقتداءًا برسول الله ﷺ كما يرى الشيخ، ويجب أن تكون نافعة للمجتمع، منتجة للكفاءات.[4]

(1) سري للغاية، مصدر سابق، ص 18.
(2) المصدر السابق، ص18.
(3) المصدر السابق، ص19.
(4) المصدر السابق، ص 15.

ويدعو الشيخ القائمين على الزوايا أن يكونوا خير المربين والمعلمين للمريدين، فيكتشفون مواهبهم ويرعون إبداعاتهم إذ يقول: «أخي الحبيب يا من وضع الله في عنقك مسؤولية الزاوية، انظر في المريدين المجتمعين عليك ادرس فكرهم، اسبر غورهم، جالس كل واحد منهم على حدة، اساله تلميحًا أو تصريحًا، حادثه اعرف مكنون مواهبه، وخصائص طباعه وميوله، فهذه أول خطوة في الطريق.. حاضًّا له على الانتقال من طور التمني إلى طور العمل، ثم انظر عمله.. وشجعه على التحسين والتطوير».[1]

وهو بذلك يؤكد على الوظيفة التربوية والتعليمية العلمية للزوايا، ويجعل منها مراكز لاكتشاف المواهب والمتفوقين، ومؤسسات تساعد في تكوين مريديها علميًّا ودينيًّا واجتماعيًّا، لتساهم إيجابيًّا في تطور المجتمع وتنمية البلاد.

لأن التصوف عند الشيخ: «حياة سعيدة متوازنة وآفاق فكرية وثقافية واسعة، وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشرع الكريم ونواهيه، وريادة وسمو فعلامَ نغفل عن كل هذا، ونكتفي بقشور لا تمت للجوهر بصلة؟!».[2]

كما يعتبر التصوف صمام أمان للمجتمع ضد الآفات الاجتماعية، ويحمي مريديه من الرذائل، ويربيهم على الفضائل، فالتصوف ومؤسسات المجتمع تسعى لحماية الجميع من الانحراف، وبالتالي يربي الأفراد ويجعل منهم مواطنين صالحين.[3]

التصوف ووحدة الأمة: يؤكد الشيخ على أن التصوف كفيل بتوحيد الأمة الإسلامية؛ لأن المتصوفة على اختلاف بلدانهم وانتماءاتهم، يكاد يتفقون في كل شيء فعباداتهم واحدة، هي الزهد والتقرب إلى الخالق، بالعبادات وحلقات الذكر والصلاة.

---

(1) المصدر السابق، ص 15.

(2) المصدر السابق، ص 16.

(3) المصدر السابق، ص 43.

ولو تنقل أي متصوف في البلاد العربية يجد الزوايا مفتوحة ترحب به، ولن يجد أي اختلاف في المعاملات والعبادات، التي يؤدونها مع ما ألفه في بلاده، ولذلك وحد التصوف بين أفراد وجماعات التصوف في العالم العربي والإسلامي، وهو ما عجزت عنه مؤتمرات الجامعة العربية، واجتماعات الاتحاد الإسلامي.

ولذلك ما تفرقه السياسة والمذهبية والوطنية الضيقة، يجمعه التصوف في رحابه، وفي خطابه، وفي أفراده، وفي مراكزه وفي دعوته التي يعبر عنها الشيخ: «ويعتبر التصوف من عوامل وحدتنا العربية، التي يجب أن نوليها قدرًا من الاهتمام يليق بها خصوصًا وقد نجح في تحقيق نسيج وحدوي عربي، عجزت عنه كل مؤتمرات القمة العربية، وجامعة الدول العربية واجتماعات وزرائها ولجانها المتعددة».[1]

فالتصوف يجمع ولا يفرق الأمة، كنا قد أشرنا إلى ذلك في مقال لنا بعنوان: بُعد الوحدة في الفكر الصوفي وذلك من خلال قطب من أقطاب التصوف وهو أبو حامد الغزالي.

وهو موقف قديم سار عليه كبار الصوفية فها هو أبو حامد الغزالي يؤكده في رحلاته، بين أقطار العالم الإسلامي من طوس في إيران إلى دمشق فمكة فالقاهرة، وكأنه في بلاده وبين أفراد عائلته، ولا يشعر بالغربة في كل مكان يدخله الصوفي ويجد فيه مؤسسة صوفية، هي الزوايا، ومريدون يجتمعون على ذكر الله والصلاة على النبي، والقيام بواجباتهم الدينية، وخدمة الضيوف والزوار، وهو دور رائد ومهم، وواجب يرى الشيخ القطعاني أنه: «يجب أن يكون ذلك حال الزاوية ومريديها»[2]

والمتصوف الملتزم خير سفير لبلاده؛ إذ تجد الصوفي ينتقل من زاوية إلى أخرى في العالم العربي، ويجد نفسه في حلقات الذكر في كل مكان، وجواز سفره هو تصوفه الذي يفتح له كل الأبواب، وإذا قصد البلاد الغربية فهو خير سفير لبلده بالتزامه

(1) المصدر السابق، ص 20.
(2) المصدر السابق، ص16.

وأخلاقه، ولا يبحث عن أماكن القمار واللهو، كما يفعل بعض العرب مسيئين بذلك لأوطانهم ولدينهم.[1]

ومما يزيد الأمر خطورة إذا كان هؤلاء العرب مسؤولين في بلدانهم، إذ يعمل الغرب على استغلال هفواتهم ونزواتهم، في الضغط عليهم وابتزازهم، وتحقيق مكتسبات لبلدانهم الغربية على حساب مصالح البلاد العربية، وعلى استقلال قراراتها السياسية، وحماية مصالحها الاقتصادية والتجارية.

والمتأمل للتصوف عند الشيخ القطعاني يدرك دون عناء أنه ليس الغرض منه الانغلاق على الذات، وتجنب المجتمع، بل كان التصوف عنده في صميم عملية الإصلاح والتربية التي كان ينادي بها، على المستوى العام، وهو عامل تجديد للقيم، وأداة توحيد للأمة، وعلى المستوى الخاص محاولة إيجاد مجتمع فاضل، بإصلاح أحواله.

لأنه لم يكن ممكنًا لأي مذهب أو فرقة أن تعيد الوحدة للمسلمين، نظرًا إلى الانقسام الحاد في المذاهب والعقائد، في العالم العربي على الخصوص، والعالم الإسلامي على العموم، في حين أن الحركة الصوفية التي تخاطب قلوب الناس، عالمهم وعاميهم دون تمييز، أفضل الوسائل وأسهل الطرق لتحقيق هذا الهدف، وخاصة مع إدراك القطعاني لخطر التخلف الذي تعيشه الدول العربية، والإسلامية وتربص الأعداء بها.

التصوف والدفاع عن الأوطان: يؤكد الشيخ القطعاني على أهمية التصوف في حماية الأوطان، والدفاع عن البلاد ضد الغزاة؛ إذ كانت الزوايا ثغور لحماية الحدود، أو رباط يقيم فيها المجاهدون ويزودون منها بالطعام والسلاح، ويحاربون ويقاومون الاحتلال.

(1) المصدر السابق، ص 20، 21

وكثير من الزوايا كانت في الأصل رباطًا، تحولت مع مرور الوقت إلى زوايا، والمعروف أن للرباط في تاريخ الإسلام مكانة مقدسة، إذ هو الثكنة التي تحمي الثغور الإسلامية من خطر الهجمات الصليبية، ومحاولات الغزو الاستعمارية، وأغلب المقاومات الشعبية كانت انطلاقًا من هذه الزوايا، كما عرف على أتباع الزوايا الصوفية مقاومة الاستعمار في الشمال الإفريقي، وهو ما قام به الصوفية أمثال: لالة فاطمة نسومر، والمقراني، والأمير عبد القادر في الجزائر، والشيخ عمر المختار في ليبيا وغيرهم كثير، وبذلك لعبت الزوايا دورين مهمين: حماية الهوية العربية الإسلامية من محاولات الاحتلال لطمسها، بالتعليم والدعوة، والجهاد بالسلاح لإخراج الاحتلال من الأوطان.

ويُجمل الشيخ في هذه العبارات مهمة التصوف، ومقاصده والتاريخ يخبرنا أن التصوف لم يكن بعيدًا يومًا عن حياة الناس، أو منعزلًا عن حاجاتهم وتطلعاتهم، بل كان في صميم وجودهم، ولما كان «التصوف مدارس متفقة الهدف مختلفة الأساليب، فهو آونة يعمر المساجد بالعلم والذكر والدرس، وتارة يرابط على الثغور لصد الهجومات التنصيرية.. حتى سُمي بعض هذه الرباطات بأسماء من أنشأها أو عمّرها من المتصوفين. وأحيانًا يؤلف الكتب وينشر الثقافة الإسلامية.. وأخرى يحمل السيف ويمتطي الجواد ليدافع عن وطنه.. ولكنك تجده في آونة أخرى وللأسف ينكفي عن أهدافه، ويتقهقر عن إنجازاته ويجمد عن سعيه، ويتوقف عن سيره»[1]

كما أننا نستنتج كما قال الشيخ أن التصوف يرقى برقي المجتمع، ويتخلف بتخلفه، فالإنسان هو الذي بيده أن ينصر الفكرة، أو ينكفئ بها، وعليه فان إصلاح التصوف يأتي من إصلاح المجتمع، وسلوكات الناس، والتصوف كمبادئ وقيم، وكممارسة كفيل بتغيير سلوك وأخلاق الناس إلى الأفضل؛ لأن رعاية الناس لله

(1) المصدر السابق، ص 18.

في أفعالهم وأقوالهم يعود بالخير على المجتمع، ويصلح حاله وينتهي الصراع على المصالح الخاصة، وتغلب المصالح العامة، ويأخذ كل ذي حق حقه، دون أن يطمع في حق غيره.

التصوف والدعوة لنشر الإسلام: لقد لعب الشيخ دورًا رائدًا في نشر الإسلام في العالم من خلال التصوف، وزاويته بدرنة، وما قام به من رحلات إلى كثير من الدول والقاء المحاضرات، والندوات، وتنظيمه للمسابقات، وتكريمه للقادمين من كل دول العالم بالجوائز وحثهم على الدعوة للدين، ورعايته للجمعيات والهيئات الإسلامية المنتشرة في كل قارات العالم، وتصديه للحملات التبشيرية والتنصيرية، ونجاحه في توعية المسلمين بذلك، كما تميزت محاضرات الشيخ بدعوته للتعايش والاحترام والتسامح بين جميع البشر.

وكثيرًا ما كان الخطاب الصوفي المعتدل والمتسامح وسيلة مثلى لنشر مبادئ الدين السمحة لدى الشعوب المختلفة، تكفي الإشارة هنا إلى ما قامت به الحركات الصوفية الحديثة والقديمة، سواءًا في ليبيا، أو في شمال إفريقيا عمومًا، والذي كان هدفها ومنهجها واحد، في نشر الإسلام في إفريقيا السوداء؛ إذ نجحت في هداية شعوب كثيرة كانت وثنية، ببنائها للزوايا ودور العلم ومساعدة تلك الشعوب في اعتناق الإسلام، نذكر على سبيل الذكر المهدية والسنوسية والتجانية، وغيرها من المدارس الصوفية التي عرّفت تلك الأمم الافريقية بسماحة الإسلام، وقارنوا ذلك بما جاءت به الدول الغربية الاستعمارية، التي استعمرت تلك الشعوب واستعبدتها، وباعت أفرادها في سوق الرِّق، ونقلت اليد العاملة إلى أوربا وأمريكا كعبيد، كما نهبت خيرات تلك البلاد.

بينما قدم الإسلام لتلك الشعوب أرقى قيم التسامح والمساواة، فوجدت فيه غذاءًا لتعطشهم الروحي، وحلًّا لمعضلات المجتمع النفسية، وكبحًا لتسلط المطالب والغرائز المادية، فتحررت تلك الشعوب من عبودية المادة، وساهمت تلك القيم

في تحريرهم من الاستعمار الغربي، لقد وجد الذين تعرفوا على روحانية الإسلام من خلال التصوف، أروع صفحات التضحية والإخلاص، وأنبل صفات الزهد والتقشف، وأسمى شيم الجود والعطاء، وأرقى أشكال الالتزام السلوكي، أفعالًا وأقوالًا وأعمالًا، التي قدمها كبار الصوفية كأمثال الشيخ القطعاني، ممن تركوا تراثًا إبداعيًّا ثريًّا ومتنوعًا، أبان عن وجه ناصع للسلم والتسامح والإنسانية في الاسلام.

كما يجمع المتصوفة، وفلاسفة التربية في الإسلام، على ربط العملية التربوية بالأخلاق، بل شاع في الأدبيات العربية أنه لا علم بدون أخلاق، أما مصطلح تربية فحتى في الاستعمال الدارج يعني أخلاق، ومتربي يعني متخلق، كما أن التربية عملية تواكب الإنسان من ميلاده إلى وفاته.

هذا الموقف الأخلاقي الذي سار عليه المتصوفون المسلمون مستمد دون شك من الإسلام، الذي يجعل من الأفعال الأخلاقية أساس العبادات والأعمال، بل يجعل من المعاملة أساس الدين في حد ذاته، وليس مقصودًا من المعاملة أكثر من الأخلاق، والفضيلة التي يجب على المسلم أن يعامل بها غيره من الموجودات، بشرًا كانوا، أو حيوانات أو طبيعة.

لقد ركّز الشيخ القطعاني على التربية والأخلاق، تلك الأخلاق السامية التي جعل الدين منها أساس الثواب، وشدّد على ذلك فجعل العبادات بين العبد وخالقه، وهو يكافئ عليها، أما المعاملات فهي بين العباد، بعضهم البعض، وبينهم وبين كل ما يحيط بهم، ويقتص من العبد إن أخذ حق غيره، ما لم يسامح صاحب الحق، بل حتى حقوق الكائنات الأخرى، فقد نهي الشرع عن تعذيب أو قتل الحيوان، أو قطع نبات دون وجه حق، وهي نظرة سامية هادفة إلى مجتمع فاضل، عادل تحترم فيه حقوق الجميع، ضعيفًا كان أو قويًّا.

ويرى المتصوفة أنهم يستمدون ذلك من مشكاة النبوة، التي لخّصت أهدافها

في تربية وتهذيب أخلاق البشر، في قول الرسول الكريم ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأَتَمِّمَ مَكارِمِ الأَخْلاقِ**».[1]

خاتمة:

لقد جمع الشيخ بين روح الأصالة والمعاصرة في إطار التسامح والاعتدال، حيث تمكن من علوم الدين، واستوعب تراث الأجداد، فكان داعية وفقيهًا وصوفيًّا متمكنًا بأسلوبه وتفهمه لروح العصر، وتبدل الأحوال في ظل العولمة وتطور وسائل الاتصال، وتكنولوجيا المعلومات فكان يخاطب الأجيال الحالية باللغة التي يفهمونها، والأمثلة الواقعية العلمية التي يدركونها، ويضرب لهم الأمثال من الأحداث التي يعيشونها، ليكون قريبًا من فكرهم وتصوراتهم، ويستطيع بذلك إقناعهم والتأثير فيهم.

كما كان الشيخ عالم دين، وفقيهًا متمكنًا من الفقه المالكي، وقد انبرى للفتوى فكانت له اجتهاداته، وإضافاته المهمة في هذا المجال، وقد مكنته ثقافته الواسعة، واطلاعه على المستجدات، وفهمه للثقافة المعاصرة، وما حملته التكنولوجيا الحديثة، كما مكنته رحلاته من معرفة الثقافة الغربية، فكان ابن عصره متفهمًا له، ومستوعبًا لتطلعات المجتمع العربي المعاصر، وفئة الشباب على الخصوص.

إن المشروع الإصلاحي الأخلاقي التربوي الذي بدأه المتصوفة، والذي تجسد بشكل مؤسس في مؤلف (الغزالي) الضخم (إحياء علوم الدين) كان مصدر إلهام لكل الأدب التربوي والأخلاقي الذي جاء بعده، ومازال حيًّا يؤثر وله السبق في طرح مشكلة الإنسان والأخلاق، كأساس الحل للأزمة في مجتمعنا المعاصر، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن كثيرًا من المشاريع النهضوية الحديثة، تتبنى الطرح الأخلاقي لتجاوز الأزمة.

---

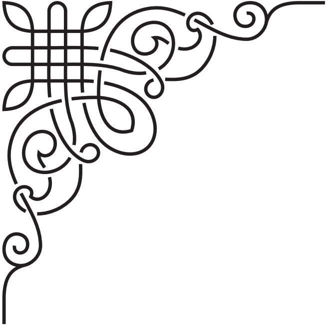
(1) رواه أحمد والبيهقي والحاكم.

والمتتبع لأعمال العلَّامة أحمد القطعاني في مجالي التصوف والتربية، وكتبه الكثيرة في مجالات عديدة ومتنوعة، ففي الفقه له اجتهادات جديدة، كما له إسهامات في الأدب والمسرح والتاريخ، كما مارس التعليم والتربية في المدرسة وفي الزاوية - يجعلنا نستنتج دون شك أنه صاحب مشروع أخلاقي وتربوي، معاصر عقلاني ومستنير وهادف، ظهرت لنا بعض معالم هذا المشروع النهضوي.

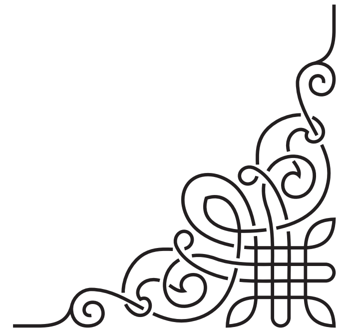
وذلك في تناولنا لبعض المواقف التي تناولها الشيخ في تربية اللبنة الأولى للمجتمع التي هي الأسرة، ثم المجتمع، فالأمة بأكملها، واهتمامه بالشباب على الخصوص، وعليه فالباحثون مطالبون اليوم بإبراز ملامح هذا المشروع من خلال البحث الأكاديمي الجاد، الذي يتتبع كل أعمال الشيخ التي تتميز بالكثرة والتنوع والإبداع.

لقد كان الشيخ يكتب بقلبه لا بقلمه فقط فكان الصدق والتجرد، والدعوة إلى الله والنصح للأمة، والعمل على التربية الصحيحة للنشء على الأخلاق الفاضلة، وتعاليم الإسلام السمحاء، في إطار الالتزام بالتصوف السني الصحيح الذي كان عليه سلف الأمة.

في الأخير لا يسعنا إلا أن نقول: إن التربية الصحيحة تصوف، والتصوف الحقيقي تربية وإن هدفهما واحد، هو بناء الإنسان الصالح مع نفسه ومع ربه ومع مجتمعه، من خلال التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، مما ينعكس إيجابًا على المجتمع، بالازدهار والتطور في كل المجالات، وهذا ما سعى الشيخ لتجسيده في أعماله ومؤلفاته، وهو عمل رائد، نسأل الله أن يكون الشيخ مأجورًا عليه خير أجر، وأن ينال به عند ربه أعلى الدرجات، إنه سميع مجيب للدعوات.



قراءات في بعض كتب الشيخ القطعاني





جهود العلامة أحمد القطعاني في الدفاع عن العقيدة الإسلامية
(رؤية تحليلية لكتابَيْ: موسوعة الأشراف، وخصائص السيرة النبوية الشريفة)

رانيا عاطف

باحثة في مرحلة الماجستير بجامعة المنيا - مصر

الملخص

طالما شغلت قضية الدفاع عن العقيدة الإسلامية والرد على مخالفيها الكثير من المفكرين على مدى تاريخ الفكر الإسلامي، وقد بُذلت في سبيل تحقيق هذا الهدف الكثير من الجهود، إلا أن الناظر إلى جهود المفكر والعلامة الشيخ القطعاني في هذا الميدان يجده قد اتخذ لنفسه طريقًا مختلفًا عما سار عليه معظم المفكرين؛ حيث كان دفاعه عن العقيدة الإسلامية انطلاقًا من تناوله لسيرة النبي ﷺ وخصاله الشريفة، وذلك لقناعة الشيخ بأن من عرف نبي الإسلام حق المعرفة عرف حقيقة الإسلام وأدرك سماحته؛ لذلك جاءت هذه الورقة البحثية لتتناول جهود الشيخ القطعاني في

الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ونشر الفكر الإسلامي الوسطي المستنير والتصدي لشتى أنواع التطرف من خلال كتابَيْه: موسوعة الأشراف، وخصائص السيرة النبوية الشريفة. وقد حاولت من خلال هذه الدراسة الإجابة على السؤال التالي: إلى أي مدًى استطاع العلامة القطعاني الدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال تناوله لسيرة النبي وخصائصه؟.

كما سعيت إلى التأكيد على أن رسالة الإسلام الخالدة، وما اشتملت عليه من قيم ومُثل عليا مثل احترام حقوق الأخر المختلف وصون كرامة الإنسان - ليس فقط لكونه مسلمًا بل لكونه إنسانًا خُلق ليُحترم فهو خليفة الله في أرضه، وليس ذلك فحسب بل الرحمة والرفق بالحيوان أيضًا؛ وذلك لأنه كائن حي يشعر ويتألم، ولم تقف رسالة الإسلام عند هذا الحد بكل تأكيد، بل كانت رسالة سامية استطاعت أن تثبت للعالم بأكمله أنها رسالة سلام للبشرية جمعاء، جاءت لتحترم الإنسان وتحفظ له كرامته، كما حثَّ الإسلام الإنسان المسلم على حفظ حقوق بيئته، حيث كانت وصية رسولنا الكريم لأصحابه عندما يخرجون للجهاد في سبيل الله: لا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا امرأة ولا صبيًا ولا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا ولا مريضًا، ولا تمثلوا بالجثث، ولا تسرفوا في القتل، ولا تهدموا معبدًا، ولا تخربوا بناءً عامرًا، حتى البعير والبقر لا تذبح إلا للأكل.

الكلمات المفتاحية: العقيدة الإسلامية - السنة النبوية - الكرامة الإنسانية - الخصال المحمدية - الديانات غير السماوية.

مقدمة

يُعدُّ العلَّامة الدكتور أحمد القطعاني (1956م - 2018م) واحدًا من أهم رموز التصوف المعاصر، ومن أكبر الدعاة لتجديد التصوف وضرورة مواكبته لروح الحضارة المعاصرة، وهو مصلح كبير منطلقه التصوف كوسيلة للإصلاح الفكري،

وقد ظهر هذا واضحًا من خلال مؤلفاته، سواء على المستوى النظري أو حتى على المستوى التطبيقي، فعلى المستوى النظري ترك لنا الشيخ أكثر من 80 مؤلَّفًا، كل منهم له قيمته كوسيلة للإصلاح الفكري والدفاع عن العقيدة الإسلامية، أما على المستوى التطبيقي فقد تجلى ذلك في المؤسسات التي أطلقها كالمتحف التاريخي، ومتحف قصر طيبة للأعمال التشكيلية، وفرقة غفران للأعمال المسرحية والفنية، وعدد من المكتبات بتنظيم عصري متقدم، أما عن مجال الدعوة فقد كانت للعلامة القطعاني جهود كبيرة في هذا الجانب حيث أنشأ الكثير من المؤسسات البحثية والأكاديمية، كجامعة المدينة بأتلانتا، وكلية الدراسات الإسلامية في جوهانسبرغ وغيرها، وقد عرف العلامة القطعاني بتنويره وتحرره، فهو من كبار الدعاة لإعادة قراءة التراث الإسلامي وتطويره ليواكب ما فرضه علينا الواقع المعاصر من تطورات وتغيرات فكرية وعلمية وسلوكية، خاصة أنه فقيه ومحدِّث له أسانيده ورواياته العالية لكتب التراث الإسلامي، وإلى جانب ذلك كله فهو أديب ومؤرخ غزير الإنتاج، فقد كتب الشيخ عدة مقالات في مجلة كان قد أسسها عام 1998م، وهى مجلة «الأسوة الحسنة»، وقد أصدرها بشكل شهري لمدة أربعة عشر عامًا دون توقف، واختار لنفسه فيها بابًا ثابتًا، أسماه «فيض الخاطر»، وقد نشرت هذه المقالات في كتب بحسب موضوعاتها، ومنها كتاب «موسوعة الأشرف».

وإضافة لمقالاته في كتاب «موسوعة الاشراف»، جاء كتابه «خصائص السيرة النبوية»، وفيه عرض الشيخ رؤيته حول الكيفية الصحيحة لدراسة وفهم السيرة النبوية، وقد كان اهتمام الشيخ بتناول السيرة النبوية انطلاقًا من قناعته بأن الفهم الصحيح لسيرة النبي وحياته هو الوسيلة الأكثر أهمية التي يمكن للمسلم من خلالها الدفاع عن العقيدة الإسلامية والرد على مخالفيها.

أما عن جهود الشيخ في نشر الفكر المستنير فقد أسس عام 1994م المعهد الديني الثانوي المعروف باسم «منارة الصحابة للعلوم الشرعية» وكان مقره مدينة درنه

بليبيا لتدريس العلوم الاسلامية، وتولى إدارته حتى عام 2003م، حيث تفرغ لأعماله الدعوية والفكرية، ومنها إصداره مجلة الأسوة الحسنة[1].

هناك جانب آخر في حياة النبي على صلة وثيقة بالسيرة النبوية ولا يقل أهمية عنها اهتم به الشيخ القطعاني، وهو جانب القصائد الصوفية، حيث قام الشيخ بجمع الكثير من قصائد مديح النبي المتداولة وضمها في كتابه «مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين»[2]، وقد شارك في هذا الكتاب بقصائد من نظمه، كما أنه حقق أشهر دواوين مديح النبي ومنها على سبيل المثال: ديوان الإمام البهلول[3]، وهو ديوان مقسم على الحروف الهجائية، ولم تقتصر جهود الشيخ القطعاني عند هذا الحد من الاهتمام بسيرة النبي وحياته بل تعددت اهتماماته سعيًا لتجديد الفكر الإسلامي وانطلاقًا من قناعته بضرورة مواكبته لروح العصر بوجه عام ودفاعًا عن العقيدة الإسلامية بوجه خاص.

تميز نتاج الشيخ القطعاني بأنه يدور حول جانب مهم، وهو قضية التدوين الصوفي للسيرة النبوية، ويبدو مضمون فكرة الشيخ القطعاني في إبراز دور السادة الصوفية في هذا الميدان، من خلال اشتغاله على جمع متون القصائد الصوفية وكتب الصلوات على النبي ﷺ، وأبرزها اهتمامه بكتاب «دلائل الخيرات»، حيث يهدف الشيخ إلى التنبيه على طريقة ورؤية السادة الصوفية في تدوين السيرة النبوية، التي تقوم أساسًا على التركيز على محور السيرة النبوية وهو النبي ﷺ، وربط قلب المريد بمركز السيرة ﷺ دون الحاجة لإغراقه بالتفاصيل عن غزواته وغيرها من الجوانب، وتكمن فائدة ربط قلب المريد بالنبي بجعله محور حياة المريد؛ فيلجأ للصلاة عليه

(1) المشرف العام، سيرة الشيخ أحمد القطعاني، طيوب، 17 نوفمبر،2019م. (تم الدخول بتاريخ 27 أكتوبر 2022م) https://tieob.com/archives/41282

(2) صدر الطبعة الأولى من الكتاب عن دار بشرى وكلثوم عام 2017.

(3) صدر لهذا لكتاب 22 طبعة باسم «ديوان البهلول» بتقديم وإسناد وتصحيح وضبط الشيخ أحمد القطعاني، أولها عام 1999، وآخرها عام 2016م.

في قضاء الحوائج، ودفع الكروب مثلًا، بل وفي جميع تفاصيل الحياة، فإذا ما ارتبط المريد بالنبي سيبحث بالضرورة عن التفاصيل الأخرى في حياته ﷺ، وتكون هذه نتيجة حتمية لتعلق المحب بمحبوبه فيهتم بمعرفة أدق تفاصيل حياة محبوبه.

ولاتساع اشتغاله على التنبيه على هذا المضمون في المدونات الصوفية للسيرة النبوية، وهو تنبيه لم يُسبق إليه، وكذلك لغزارة إنتاجه الفكري القيم - حاولت أن أركز اهتمامي في هذه الورقة على مؤلَّفيْنِ فقط من أعماله وهما: كتاب «موسوعة الأشراف»[1]، وكتاب «خصائص السيرة النبوية»[2]؛ وذلك لبيان جهود الشيخ في الدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال الفهم الصحيح لسيرة النبي ﷺ وحياته، والإجابة على السؤال المهم الذي من أجله كانت هذه الدراسة وهو: علام اعتمد الشيخ القطعاني في دفاعه عن العقيدة الإسلامية ورده على مخالفيها؟ وكيف كان الفهم الصحيح للسيرة النبوية الشريفة والخصائص المحمدية هما وسيلتَيِ الدفاع الأكثر أهمية عن العقيدة الإسلامية من وجهة نظر الشيخ القطعاني؟.

لتحقيق هذا الهدف قمت بتقسيم الدراسة إلى أربعة محاور رئيسة وهى كالآتي: جاء المحور الأول بعنوان (الاحتفال بمولد النبي وسيلة دفاع قوية عن العقيدة الإسلامية)، ومن خلال هذا المحور كانت الإجابة على سؤال مهم وهو: كيف يمكن أن يكون الاحتفال بمولد النبي من وجهة نظر القطعاني وسيلة دفاع قوية عن العقيدة الإسلامية؟، كما جاء المحور الثاني بعنوان (الخصائص المحمدية كوسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية)، أما المحور الثالث فقد جاء بعنوان (إن الدين عند الله الإسلام) ليظهر كيف كانت هذه الآية وسيلة قوية للرد على مخالفي العقيدة الإسلامية

(1) صدرت الطبعة الأولى للكتاب عن دار بشرى وكلثوم، عام 2017م، وهو مجموع مقالات الشيخ القطعاني التي نشرها في مجلة الأسوة الحسنة في السيرة النبوية.
(2) صدر الكتاب عن دار بشرى وكلثوم عام 2007م، وأصله بحث مقدم للمؤتمر الدولي العشرون للوحدة الإسلامية، طهران، عام 2007م.

من وجهة نظر الشيخ القطعاني، ثم جاء المحور الرابع ليناقش عناصر بناء المجتمع الناهض، وذلك لبحث العناصر التي يرتكز عليها المجتمع الإسلامي الناهض.

المحور الأول

الاحتفال بمولد النبي وسيلة دفاع قوية عن العقيدة الإسلامية.

يقول العلامة القطعاني: إن من نعم الله على عباده أن بعث فيهم رسولًا منهم حاز كل صفات الكمال والجمال، وجعله لهم أسوة حسنة يستلهمون منه القوة في مجمع الأقوياء، والعزة في عالم العظماء، والقدوة الصالحة الطيبة للدين والدنيا معًا. ولن نجد في خلق الله قط -ولو نقَّبنا في تاريخ الإنسانية ملايين الأعوام- عظيمًا أحاطت شخصيته الكاملة الفاضلة بكل أطوار الحياة وحققت جميع المُثل والكمالات والقيم الإنسانية سوى سيدنا محمد ﷺ وآله، حتى لم يجد واصفه ما ينعته به سوى قوله: «كان خلقه القرآن»[1].

هنا نجد السؤال التالي الذي يتم طرحه وتكراره من قبل البعض وهو: أليس الرسول محمدًا هو رسولًا اصطفاه الله لهداية أمته، فيجب أن يكون على هذه الدرجة من الكمال إذن، فصفاته هذه تعد أمرًا طبيعيًا بالنسبة لكونه رسولًا من قبل الله عَزَّوَجَلَّ؟.

إن الرد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة التي تشبهه يكمن في بيان الفرق بين صفات سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ، وصفات من سبقه من الأنبياء والرسل، حقيقة لقد أرسل الله الرسل لهداية أممهم وليكونوا خير قدوة لهم أقوالًا وأفعالًا، وكانوا بالفعل أكملهم صفاتًا وأفضلهم أخلاقًا، ولكن كل رسول قد أُرسل

(1) موسوعة الأشراف: رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2017م، ص 18.

في أمة بعينها قد اصطفاه الله لهداية قومه فحسب، أما سيدنا محمد رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام فقد بعث للبشرية جمعاء، فكانت رسالته للناس كافة ولم تقتصر فقط على أمة بعينها أو فترة زمنية دون غيرها؛ وذلك ما جعل الحاجة ماسة لأن تكون سيرته عامة شاملة وصفاته جامعة لكل مراتب الكمال، لتتأسى به الأمم والأجناس في كل زمان ومكان، فرسالته لم تقتصر على جنس أو زمن أو مكان بعينه، وذلك ما استوجب الكمال في صفات النبي ﷺ لتواكب جميع الأمم على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما عن تواضعه وزهده وقناعته فكان رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في كمال صفاته آية، حيث وصفه الشيخ القطعاني فقال: «هو شرف المسلمين الفخيم وفخرهم العظيم، حيث كان يرقد على الحصير حتى يترك أثرًا في جنبه الشريف، ويتوسد رأسه الكريم الليف، وفي أمته تيجان كسرى وأمراء الزمان، وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع، وتمضي ثلاثة أهِلَّة على أهْلِه ولا يوقدون في دارهم نارًا، وإنما طعامهم الأسودان: التمر والماء، وجالت خيول أصحابه في عروش قيصر منتصرة»(1).

أما عن الاحتفال بمولد الرسول ﷺ، فقد نجد سؤالًا يُطرح دائمًا من قبل بعض مخالفي العقيدة الإسلامية أو حتى من قبل بعض ضعاف القلوب والإيمان وهو: لماذا الاحتفال بمولد النبي؟ وهنا يرد العلامة القطعاني قائلًا: «لقد احتفل الكون حيوانه نباته وجماده بميلاد رسول الله ﷺ وآله، تدلت وتعانقت الكواكب واستنار الحرم المشرف بوهاد مكة المكرمة، وسطع النور منها إلى قصور قيصر بالشام ونُكِّست الأصنام وانطفأت النار المعبودة من دون الله المشتعلة في بلاد فارس منذ آلاف السنين، وجفت بحيرة ضخمة كانت من معالم بلاد فارس، بل وانشق إيوان كسرى نفسه وتهدمت بعض شُرفاته، وفاض وادي سماوة بوادي جارف، وما عُهد هذا منه

(1) المصدر السابق، ص 18، 19.

قط، وتباشرت الدواب ناطقة فكيف لا يحتفل بميلاده الإنسان، كيف؟!»[1]، ويدلل الشيخ على صدق تلك الأحداث بتجربة خاصة له فيقول: «ما زرت رسول الله ﷺ وآله في مدينته المنورة قط إلا خشعت نفسي وذاب وجداني، وهام قلبي وانبهر عقلي وتلعثم لساني، وغمرني من جلال الحال وجماله ما أفقدني الصلة بمن وما حولي رغم مغالبتي، وما مشيت فيها قط إلا حافيًا ولو انتعلت في مدينة رسول الله ﷺ وآله لرأيت نفسي مرتكبًا كبيرة، فتراب الحبيب أحب إليّ من كنوز العالم، وغبارها ألذ على قلبي من أنفس عطور الدنيا وأطيب ورودها وأعبق رياحينها»[2].

فهذا عن حال الشيخ القطعاني عندما كان يزور رسول الله ﷺ في مدينته، وتأدبه معه بالأفعال وليس فقط بمجرد الأقوال، متكاملًا مع الدنيا بأسرها التي عبرت عن سرورها بمقدم وميلاد سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ، وكيف لا وهو ميلاد هادي الأمم ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور.

والاحتفال بميلاد سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد ﷺ وسيلة قوية للدفاع عن العقيدة الإسلامية؛ بالاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه والسير وفق سنته، فها هو المخالف للعقيدة الإسلامية عندما ينظر إلى حال المسلم المُتمسك بسنة نبيه وأخلاقه الفاضلة فيجد منه استقامة واعتدال وتوسط دون تكلف ورفض التطرف، وسيسأل نفسه إذا كان هذا هو حال المُقتدي بالنبي محمد فما هو حال القدوة نفسها؟ وذلك ما سيدفعه بالطبع للبحث والقراءة عن حياة النبي وصفاته وأخلاقه، وبذا سيكون الاحتفاء بمولده ﷺ وسيلة لإصلاح فكره وتهذيب نفسه، وبالتالي فهو أفضل الوسائل للدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال سلوك المسلم وأخلاقه، كما أن الاحتفال بميلاد الرسول ﷺ يمكن أن يكون وسيلة للتخلص من التطرف الفكري بشكل عام والتطرف الديني بشكل خاص، فما كان هذا الشخص المُتطرف

(1) المصدر السابق، ص 19.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

سوى شخص أمسك بطرف الأمر وما توسط فيه، نتيجة عدم المعرفة بجوهر العقيدة الإسلامية، والاحتفال بميلاد النبي في هذه الحالة يكون سببًا في نشر الفكر الإسلامي الوسطي الصحيح، وإقناع هؤلاء المتطرفين بأن العقيدة الإسلامية في جوهرها تدعو للمحبة والسلام والإخاء بين أبناء المجتمع الواحد، لا إفراط فيها ولا تفريط.

ومن هنا أنبه إلى أن أعمال وكتابات الصوفية تظهر فيها ملامح قوية لشكل من التدوين الصوفي للسيرة النبوية، تتجاوز الكتابة إلى الفعل والعمل، فنجد الشيخ القطعاني يعبر بعد حديثه عن النبي ﷺ وصفاته وكماله بتجربته الشخصية واصفًا حاله عند زيارته له ﷺ، فأحوال المحبة الصادقة التي يصل إليها الصوفي مع محبوبه ﷺ تنبع من استقرار قيمة المحبة في قلبه التي لا تسمح بوجود نقيضها فيه، ونقيض المحبة الكره الذي ينتج نفسيات تتشكل فيها أصناف التطرف الذي لا مكان ولا أساس ومنطلق له في عقيدتنا الإسلامية.

المحور الثاني

الخصائص المحمدية كوسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية.

أما عن خصال النبي ﷺ فهي وحدها تكفي كأقوى وسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية والرد على مخالفيها؛ لذا نجد اهتمامًا كبير للشيخ القطعاني بها في كتبه، ومنها قوله: «ما عرفت الخليقة إنسانًا كاملًا في خلقه وخلقته كسيدنا محمد فهو أفضل الخلق وأكملهم وأعظمهم، ولو تقصيت آلاف كتب سيرته لما خرجت من فضيلة إلا لأفضل منها، وما أعجبتك منه منقبة إلا لقيت فيه أكبر منها؛ إذ ما خلق الله سبحانه في الأنس والملائكة والجان وفي كل ما برأ وذرأ خلقًا أفضل من نبيه محمد ﷺ وآله، ولا يحيط قلم في الدنيا ولا قرطاس بمكارمه ﷺ وآله، وإنما نذكر ذرة من عباب هذه

المجرة عسى أن نتأسى بها في حياتنا ونقتدي. فقد كان ﷺ وآله خير الناس لا يمد عينيه إلى زينة الدنيا، يلبس ما وجد ويأكل مع الفقراء والمساكين ويقول: «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد». وكان في بيته أشد حياءً من العاتق في خدرها، يكرم أهل الفضل ولا يقطع على أحد حديثه ولا يجفو على أحد بكلام ولا يقول إلا حقًّا، ضحكه التبسم يعفو ويصفح ولا يجزي بالسيئة السيئة، مُقبل على عبادة ربه ليله ونهاره، وما مد يده بالأذية قط وما ضرب امرأة ولا خادمًا قط، يقوم مع صاحب الحاجة فيقضي حاجته، ويجلس حيث انتهى به المجلس بلا أي تمييز على أصحابه، يعطي كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه، أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضًا، لا يؤذي من يؤذيه ولا يتكلم فيما لا يعنيه ولا يذكر أحد بغيبة ولا يشمت بمصيبة»[1].

وهي خصال وصفات حقيق بمن اتصف بها أن تكون رسالته سامية صادقة، كما أنها خير وسيلة للدفاع عنه ﷺ من شانئيه، والساعين لتشويه صورة الإسلام وعقيدته بصنع المثالب في سيرته العطرة ﷺ.

لكن الشيخ القطعاني لا يكتفي بسرد صفاته وخصاله ﷺ للتأكيد على سموه في القلوب، بل ينبه على ملمح آخر نجده هامًّا في مقام الدفاع عن العقيدة، ويتعلق بمعجراته ﷺ، وأول ما نقف عنده أن الشيخ القطعاني لم يكن مجرد سارد لتلك المعجزات، بل يذهب بنا بعيدًا عن قضية تعداد المعجزات إلى الاشتغال في حقل من حقول الدفاع عن النبي والعقيدة، ويمثل هذا الحقل جانبًا مهمًّا في شخصية الشيخ القطعاني التي لا بد من إفرادها بالدراسة، وهو اشتغاله بعلم «دلائل النبوة»، إذ نجده في بعض كتبه ومقالاته يروي أحاديث ووقائع نبوية صحيحة كدليل ناصع على صدق دعوته ﷺ، يفحم كل جاحد أو معاند مارق، أما المؤمنون الصادقون فيزدادون حبًّا إلى حبهم.

(1) موسوعة الأشراف، مصدر سابق، ص 39، 40.

ومما يرويه الشيخ القطعاني في كتبه ومقالاته أخبار النبي ﷺ المعجز عن المغيبات، كحديثه عن انتشار وسائل المواصلات الحديثة من طائرات وسيارات وحافلات وقطارات وسفن، ومنه قوله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان وتزوي الأرض زويًا)، وتقارب الزمان يعني قصر الوقت المستغرق في السفر، وزوي الأرض أي تقاربها بهذه المواصلات من بعضها البعض، وكذلك إخباره عما سيكون من المدارس والمعاهد والجامعات وتوسع التعليم وكثرة المتعلمين مستشهدًا بالحديث القدسي الذي أخرجه الدرامي وأبو نعيم: (إن الله قد أبث العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير، فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم)[1] .

بل وينقل لنا الشيخ القطعاني من صحاح الأحاديث ما يؤكد صدق نبوته ﷺ، كحديثه ﷺ عن الكثير من الأحداث والتطورات التي يشهدها عالمنا اليوم، التي ما زال العلم الحديث يومًا بعد يوم يكشف لنا صحتها، ومنها ما ذكره إما رمزًا أو بشكل صريح، حيث وصف النبي زماننا هذا أبلغ وصف ذاكرًا تطور الطباعة وظهور آلات التصوير الفوتوغرافي والهندسة وأدوات البناء الحديثة، فيقول (من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة -فذكرها إلى أن قال- وحُليت المصاحف وصُورت المساجد وطُولت المنائر -المآذن-)، فحُليت المصاحف بالطبع الحديث الملون المزخرف، وصُورت المساجد بأجهزة التصوير الحديثة، وطُولت المآذن بالهندسة واستعمال الحديد والخرسانات[2] .

وفي عمل الشيخ القطعاني تحديث لعلم دلائل النبوة، ولنا أن نتصور أن ندلل لغير المسلم على نبوته ﷺ بانشقاق القمر أو بالإسراء أو بغيرها من معجزاته التي سمع بها القاصي والداني دون أن تحدث كبير أثر في السامعين؛ ولذا نجد الشيخ

(1) المصدر السابق، ص 41.
(2) المصدر السابق، ص 41، 42.

القطعاني يذهب إلى مخاطبة أهل عصره بما لديهم من مكتشفات عصرية هم من اكتشفوها ليدلل لهم على صدق نبوته ﷺ، وهذا ما أعنيه بتحديث وتجديد الشيخ القطعاني لعلم دلائل النبوة ولفت الأنظار إلى استمرار أهميته وضرورته.

ولا أدل على أن الشيخ القطعاني قصد بعمله هذا تحديث وتجديد علم دلائل النبوة من قوله «وخصه سبحانه بأنواع المعجزات الباهرات، ومن إخباره عما سيكون في الزمان بعده ليكون **دليلًا** على صدق دعوته ناصعًا يفحم كل معابر جاحد أو معاند مارق»[1]، وفي موضع آخر يقول بعد أن سرد عددًا من النصوص الحديثية: «لعلك أخي اطلعت فقط على هذه القطرة من **دلائل نبوة** نبيك الكريم»[2].

وبعمق فهم الداعي الصوفي إلى الله على أساس الحب، يذهب بالسامع بعد إثبات نبوة الحبيب المصطفى ﷺ إلى مستوىً آخر من الخطاب قوامه طريقة الصوفية في تدوين السيرة النبوية، يركز فيه على ربط القلب بمركز السيرة، وهو النبي ﷺ، ومنبهًا على أن نتيجة الدفاع على النبي والعقيدة يجب أن يكون ثمرتها الحب، فيقول «ولعلك أخي اطلعت على هذه القطرة من دلائل نبوة نبيك الكريم، فهام قلبك برسولك سيدنا محمد ﷺ وآله حبًّا ووجدت في نفسك الطيبة رغبة في مزيد التقرب إلى حضرته الشريفة، وطمحت إلى رؤية طلعته البهية والفوز به اليوم وغدا؛ لذا فلك عندي نصيحة ثمينة نفيسة هي حديث شريف رواه جبر في القربة وابن الفاكهاني وابن وداعة والدمياطي والنبهاني والقطب عبد الوهاب الشعراني يقول: يقول رسول الله ﷺ وآله (من قال اللهم صلي على روح محمد في الأرواح وعلى جسده في الأجساد وعلى قبره في القبور رآني في منامه ومن رآني في منامه رآني يوم القيامة ومن رآني يوم القيامة شفعت له ومن شفعت له شرب من حوضي وحرم جسده على النار)»[3].

---

(1) المصدر السابق، ص 40.
(2) المصدر السابق، ص 42.
(3) المصدر السابق، ص 42.

وإذا كان هذا هو حال المسلم وتمنيه رؤية نبيه في الدنيا والآخرة وشفاعته ﷺ لمن يراه فهذا يعد أمرًا طبيعيًا، فما حال غير المسلم الذي يسمع بمثل هذا الصفات والمعجزات؟ بالتأكيد سينهض لمعرفة المزيد عن صفات نبي الإسلام وأدق تفاصيل حياته، وهذا هو الهدف المنشود والدرع الواقي الذي به يصد الخطر عن العقيدة الإسلامية، فمن عرف نبي الإسلام حق المعرفة لم يرتض لنفسه غير الإسلام دينًا.

وبالنظر إلى هذه الصفات وتلك المعجزات التي اختص بها الله رسوله الكريم، نجد أنها تعد أقوى وسيلة دفاع عن العقيدة الإسلامية؛ إذ كيف لدين وجدت فيه مثل هذه الظواهر العلمية التي ما زال العلم الحديث يرفع عنها الستار يومًا بعد يوم أن يحارب؟ وكيف لنبي كان خلقه القرآن وهو الإنسان الكامل في أخلاقه وخلقته إلا يكون دليلًا كافيًا لإقناع مخالفي العقيدة الإسلامية بالأفعال وليس فقط بمجرد الأقوال؟، وذلك ما حدث بالفعل مرارًا وتكرارًا في فترة حياة النبي وتعايشه مع أصحاب الديانات الأخرى، وحفظ حقوقهم كاملة كمواطنين داخل الدولة الإسلامية، وأيضًا ظهر هذا واضحًا أثناء فترة حكم أصحابه من بعده الذين تتلمذوا على يدي رسول الله واهتدوا بهديه، وقد كانت الصفات المحمدية وسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية إلى يومنا هذا وستظل هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك من خلال اقتداء كل مسلم بأخلاق نبينا وحبيبنا والاهتداء بهديه والسير وفق سنته ﷺ، لنرسل بذلك أعظم رسالة للبشرية جمعاء، وهى أن الإسلام دين سلام ومحبة ورحمة واحترام للآخر المختلف، سواء فكرًا أو عقيدةً، وأن أي فكر مُتطرف يسعى لتخريب لا لتعمير وبناء ليس من الإسلام في شيء ولا صلة له به.

المحور الثالث

إن الدين عند الله الإسلام.

كانت هذه الآية الكريمة هي نقطة انطلاق العلامة القطعاني للدفاع عن العقيدة الإسلامية ودليله الواضح الذي استند إليه ومضى في مؤلفاته ليؤكده ويبرهن عليه، حيث نجده يبتدئ كتابه «موسوعة الأشرف» بعرض الانتقاد الأشهر الذي طالما وجه للإسلام والمسلمين فيقول: «يصرون على ترديد جملة فحواها أن رجلًا يدعى محمدًا، وجد منذ مئات السنين في صحراء الجزيرة العربية ألّف كتابًا من رأسه أسماه القرآن، وأسس دينًا جديدًا وأسماه الإسلام»[1]، وناقش هذه المقولة «بمقارنة بين رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأديان أسسها بشر موجودة الآن بمراجعها ومعتنقيها وبإمكانكم مراجعتها بحثها ودراستها بكل يسر وسهولة فإن ماثلته أو حتى شابهته ولو من بعيد سلمنا لهذا الكلام وقلنا هو مصدر بشري واحد، وإن رأينا اختلافًا في الأصل والفروع، أي عقيدة وشريعة وأخلاقًا، فلا دخل حينئذٍ للبشر في الموضوع، وكفوا عن طعن لا يستند للبحث العلمي في دين محمد»[2].

يقول الشيخ القطعاني: «وُجدت الأديان على الأرض من حيث التسلسل التاريخي بوجود الإنسان فيها أي منذ أن هبط سلفنا الأول آدم وحواء إلى الأرض، كما أن كثيرًا من الظواهر أو الممارسات التي يمارسها الناس لا يمكن فهمها إلا بالرجوع إلى هذه الأديان، ولكن كثيرًا ما انحرف الإنسان بالأديان وحرف نصوصها عن عمدٍ أو جهلٍ أو طلبًا لمصلحة خاصة أو درءًا لمضرة تطاله؛ مما استوجب بعث الرسل للرجوع بالخليقة لدين الحق سبحانه وخاتمهم وإمامهم وسيدهم سيدنا

(1) المصدر السابق، ص 3.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

محمد ﷺ. وبالإضافة إلى الأديان السماوية الثلاثة وهي الإسلام ويبلغ تعداد معتنقيه اليوم حسبما أعلن في هذا العام 2010م مليار ونصف المليار تقريبًا أي ربع سكان العالم، والمسيحية واليهودية، توجد أديان أخرى موجودة الآن وأتباعها بعشرات ومئات الملايين، أما ما انقرض منها فهو أضعافها»[1]، ولكنه في كتابه هذا (موسوعة الأشراف) بعرض الموجود بالفعل ولن يخوض فيما انقرض منها، فتناول أولًا قارة آسيا؛ حيث وجدها تحتوي ديانات كبيرة وصغيرة وآلاف الآلهة والأرباب، وفيها ديانات العالم الصحيحة والباطلة وادعاء الألوهية، ، ويسرد أشهر هذه الديانات وأكبرها:

- الديانة البرهمية (الهندوس):

سميت هذه الديانة بالبرهمية نسبة إلى براهما التي هي عندهم الروح العليا الخالدة للكون، وقد تسمى ديانتهم أحيانًا باسم الهندوكية أو الهندوسية وإن كانوا فيما بينهم يستخدمون لفظ (دراما) الذي يعني نهج الحياة، أو التفكير والحياة، وتسمى هذه الديانة أيضًا بالفيدية وكلمة فيدا تعني: القانون أو العلم أو المعرفة، وهي ديانة قديمة جدًا وجدت في آسيا قبل عصر سيدنا موسى بألف عام على الأقل، وللبرهمية أربعة كتب مقدسة وهى: الريجا فيدا، والساما فيدا، والباجورا فيدا، والأثارا فيدا.

وتتلخص قصة هذا الدين في أنه وجدت بيضة طافية على الماء في العماء منذ البدء فانشقت هذه البيضة وخرج منها الإله براهما منشئ الوجود كله من وجهة نظر أتباع هذه الديانة والذي هو بدء الخليقة، وبذلك حسب قولهم قد وُجد الحل لمشكلة أصل الوجود أو العلة الأولى التي طالما ظلت تؤرق الفلاسفة على مدى العصور، وسيعيش براهما 100 سنة وكل نهار من أيام هذه السنة مقداره 4.320.000.000 سنة حسب تقويمنا الشمسي أي 365 يومًا، وفي نهاية كل نهار ينتهي عالم من العالمين ليستريح براهما ليلة واحدة لينشئ بعدها عالمًا آخر جديدًا، وهم يتوارثون عقائدهم

(1) المصدر السابق، ص 4، 5.

وشرائع ديانتهم عبر اليوبا نيشاد وهي مكونة من كلمتين، يوبا بمعنى (قريب) وشاد بمعنى (يجلس)، ويعنون بها أن تجلس بالقرب من المعلم لتتلقى منه تأملات تعتبر من الأسرار التي لا يعرفها إلا كبارهم، وهم يرون الدنيا شرًا وخداعًا، ورغم أن براهما لديهم له ثلاث حالات وهي: براهما مُوجد العالم، ومشنو حافظ العالم، وسيفا مُهلك العالم، إلا أن ذلك لم يمنعهم من اتخاذ آلهة أخرى أقل مكانة من براهما[1].

كان هذا مثالًا موجزًا لديانة من بين آلاف الديانات التي اهتم الشيخ القطعاني بتتبع تاريخها ومسار تطورها وانتشارها ومراجعها وأدبياتها بدقة، ويبدو أنه ركز على الموجودة منها حتى اليوم، فلم يذكر بالإضافة للبرهمية إلا الديانة (البوذية) وديانة (السيخ) وعرض أيضًا أفكارها وأهم أدبياتها وكتبها وعقائدها[2].

أما عن الديانات الموجود في قارة أفريقيا، فتتبع الكثير منها، مؤكدًا أن الإسلام أكبرها، فقد انتشر في البلاد العربية والشمال الأفريقي منذ عصر الفتوحات الإسلامية، أما في عمق أفريقيا فقد كان الفضل في انتشاره للطرق الصوفية، وبفعل أخلاق شيوخها وطرقهم في الدعوة؛ حيث إنهم لم يناكفوا أحدًا، فقد أحبت أفريقيا الإسلام خاصة أن الأفريقي العاشق بطبعه للموسيقى قد وجد في حلقات الذكر الصوفي والسماع ما يشبع فطرته، فتغلغل الإسلام على أيدي السادة المتصوفين في أفريقيا.

إلا أن انتشار الاسلام لا يعني بالتأكيد أن قارة أفريقيا كلها مسلمة، ففيها المسيحية وعشرات الديانات المحلية الأخرى التي تتوفر على عقائد، منها اعتقاد اتباع بعض الديانات المحلية بوجود كائن أعلى مجهول عادة ما يسمونه (موجابي) يتقربون إليه بعبادة الأصنام والأنصاب والحيوانات المتعددة، وهو المتحكم في الكون بأكمله، وبعضها مرتبط بالطبيعة فتوجد في مفرداتهم التعبدية: السماء والشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد والأرض والنبات والحيوانات المختلفة[3].

(1) المصدر السابق، نفس الصفحات.
(2) المصدر السابق، ص 8 وما بعدها.
(3) المصدر السابق، ص 14.

وأثناء رصده لتلك الديانات ودراسته لمعتقداتهم ومراجعهم يلاحظ الشيخ القطعاني اختلافًا بينها وبين الديانات في آسيا التي ينتسب إليها مئات الملايين، ففي أفريقيا إذا ما استثنينا الديانات السماوية الثلاث فإن الديانات فيها غير واسعة الانتشار، وتكاد تكون كل ديانة من هذه الديانات خاصة بقبيلة بعينها لا تخرج عنها، حيث يكتفي أبناء هذه القبيلة بالانتماء لها وممارستها ولا يهتمون بنشرها[1].

ومن أشهر الديانات التي درسها وتتبعها الشيخ القطعاني، ديانتي (الميرو) و(الكيكويو) المنتشرتين في كينيا، وديانة (الجالا) في أثيوبيا، وديانة (تشابا) المنتشرة في تنزانيا، وديانة (البامبوت) وكلها مرتبطة بـ (موجابي) الذي يعتقدون أنه نزل من السماء[2].

ويؤكد الشيخ القطعاني أنه بالرغم من استمرار وجود هذه الديانات في أفريقيا وما حظيت به من ازدهار، إلا أن دورها بدأ في التضاؤل؛ يتضاءل نتيجة لمجموعة من العوامل التي ذكر منها[3]:

1. دخول عوامل التحديث وارتياد أفراد القارة الأفريقية للمدارس والجامعات.
2. عجز هذه الديانات عن إيجاد حلول وإجابات للمشكلات المعاصرة.
3. عدم قابلية نصوصها للتجديد وتشبثها بالماضي وتمسكها بتراث الأسلاف.
4. عدم وجود فكرة الدعوة في أدبياتها، فلم يكن من سماتها الانتشار على نطاق أوسع من القبيلة المعتنقة لأي ديانة من هذه الديانات.

ويبدو أن غرض الشيخ القطعاني من خلال عرض هذه الديانات ومعتقداتها وكتبها، ونشوئها وتطورها أراد منه أن يوازن كل ذي عقل بينها وبين دين الإسلام الحنيف، فكيف لعاقل أن يرتضي لنفسه إحدى هذه الديانات عقيدة وإيمانًا؟ خصوصًا في ظل الانتشار الكبير لوسائل المعرفة والعلوم الدينية؟.

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، ص 15 وما بعدها.
(3) المصدر السابق، ص 17.

وإثارة مثل هذه الأسئلة لا يعني مصادرة حق وحرية الاعتقاد لكل ذي عقيدة، ففكرة قبول الاختلاف والتعايش مع الآخر هذا أمر مسلَّم به، ومقبول تمامًا لدي كل مسلم عاقل متفهم لأسس ومبادئ دينه الإسلامي الوسطي الصحيح، ولا خلاف أبدًا على هذا القول؛ لذلك فأتباع هذه الديانات من غير المسلمين سواء معتنقي الديانات السماوية الأخرى أم غير السماوية لهم ما يريدون، ويحق لهم اختيار عقيدتهم وممارسة شعائرهم بكامل حريتهم، إلا أنه بجانب تلك الحرية أيضًا عليهم السعي لمعرفة أسس ومبادئ العقيدة الإسلامية، فمعرفتهم بها ستكون لا محالة سببًا كافيًا لاعتناقهم الدين الإسلامي، أو على أقل تقدير ستكون معرفتهم الصحيحة بجوهر هذا الدين كافية لتصحيح هذه الصور الخاطئة التي قد يكوّنها هؤلاء الأشخاص عن الإسلام نتيجة عدم العلم الصحيح به، أما عن الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]، فهي أقوى دليل يمكن أن يستند إليه المسلم للرد على مخالفيه بجانب الأدلة العقلية؛ إذ لا يُعقل أبدًا ومن غير المنطقي أن نجد إنسانًا عاقلًا مكلفًا يسجد لشمس أو لقمر أو حتى لصنم، بعدما أنعم الله على عباده بنعمة الإسلام وارتضى له الإسلام دينًا، وليس ذلك فحسب بل في ظل هذه الحقائق التي يظهرها لنا العلم الحديث يومًا بعد يوم، والتي نجدها بالفعل مدونة في سنة نبينا ﷺ، أليست هذه المعجزات هي في جوهرها دليلًا كافيًا على أنه لا صحة لدين غير الإسلام، وهذا ما يجب أن يكون.

المحور الرابع
عناصر بناء المجتمع الناهض.

طالما واجه المجتمع الإسلامي نقدًا واتهامًا باطلًا من قِبَل بعض مخالفي العقيدة الإسلامية، ويتمثل هذا النقد في أن الدين الإسلامي هو دين تواكل وتأخّر،

ولا يحث على العمل بل يقنع دائمًا أبناءه بالتقليد والتبعية دون السعي إلى الإتيان بجديد، كان للشيخ القطعاني ردًا كافيًا وافيًا على هذا الاتهام الباطل الذي لا أساس له ولا دليل عليه، فيؤكد أن سيدنا محمد ﷺ ركز في بواكير الدعوة للإسلام على تربية الرجال والنساء والأطفال «التربية النموذجية والمتكاملة التي لا تفريط فيها ولا إفراط والتي أهلت هؤلاء الصفوة السابقة لتكوين نواة مجتمع مثالي صار مقنعا لكل صديق وعدو»[1]، ويشرح أسس بناء المجتمع الناهض في عهده ﷺ بأنها قامت «على عنصري معادلة الحياة الخالدين وهما: التربية المتكلفة بعنصر المعنى، والتعليم المتكفل بعنصر المادة بكافة أساسياتهما»[2].

التربية:

تكفلت بالمعنى المتمثل في الإيمان بالقلب والعمل بالشرائع، وأداء العبادات والتلبس بالأخلاق والقيم الفاضلة، والإعانة بأموال الزكاة والصدقات للفقراء والأيتام والمعوِزين وما في حكمها[3].

التعليم:

تكفل بالمادة من صناعة وزراعة وإعداد آلة حرب للدفاع عن النفس والمعتقد، وتشيّد اقتصاد مزدهر ونظم مالية متكاملة، وصون النساء والأقارب والضعفة والأيتام، وأخذ بأسباب الحضارة والتقدم[4].

وعلاوة على أن تنبيه الشيخ القطعاني على أن تكامل هذين العنصرين هما جوهر الفكر الدعوي الإسلامي، يشير إلى أن هذا التكامل بين العنصرين أعطى «صورة صادقة مشرقة لكل من أراد أن يعرف عن الإسلام أو يعتنقه» وبسببه فقد «دخل الناس في دين الله أفواجًا».

---

(1) خصائص السيرة النبوية الشريفة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2007م، ص 1.
(2) المصدر السابق، ص 3.
(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(4) المصدر السابق، ص 3.

نتائج الدراسة:

من خلال هذه العرض السابق يمكننا القول بأن:

- سر نجاح أي عقيدة يكمن بكل تأكيد في صدق وإصرار ونجاح مَن اعتنقها وعمل بها، وكانت هذه الحقيقة هي الدافع وراء اهتمام العلامة القطعاني بحياة النبي ﷺ، وتركيزه الشديد على صفاته واتخاذ ذلك وسيلة قوية للدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد مخالفيها، وليس ذلك فحسب بل أيضًا اتخذ القطعاني من حياة النبي ﷺ وصفاته أعظم وسيلة لتقويم مسار الفكر الإسلامي المتطرف والعودة به إلى مساره الصحيح، وقد كان صدق وإصرار رسولنا الكريم ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين من أهم أسس وحيثيات نجاح الدعوة واتساع رقعة الدولة الإسلامية وترامي أطرافها.

- عندما كان لكل فعل رد فعل كان من الطبيعي والمقبول عقليًا ومنطقيًا أن تنتشر الدعوة الإسلامية بهذا القدر في جميع أنحاء العالم؛ وذلك لما عرف عن نبي الإسلام من مكارم الأخلاق، وفي الوقت نفسه كان من غير المنطقي وما لا يقبله عقل بشري أن نجد أشخاصًا ممن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام يتخذون لأنفسهم طريقًا لا يرتضيه لهم الإسلام نفسه من تطرف، سواء كان هذا التطرف دينيًا أو فكريًا أو غير ذلك من أنواع التطرف المختلفة؛ لذا جاءت جهود الشيخ القطعاني لصد خطر هذا التطرف وذلك من خلال بيان جوهر الدين الإسلامي الصحيح.

- إن رسالة الإسلام الخالدة وما اشتملت عليه من قيم ومُثل عليا مثل: احترام حقوق الأخر المختلف وصون كرامة الإنسان، ليس فقط لكونه مسلمًا بل لكونه إنسانًا خُلق ليُحترم فهو خليفة الله في أرضه، وليس ذلك فحسب بل الرحمة والرفق بالحيوان أيضًا؛ وذلك لأنه كائن حي يشعر ويتألم، ولم تقف رسالة الإسلام عند هذا الحد بكل تأكيد، بل كانت رسالة سامية استطاعت أن تثبت للعالم بأكمله أنها رسالة

سلام للبشرية جمعاء، جاءت لتحترم الإنسان وتحفظ له كرامته، كما حث الإسلام الإنسان المسلم على حفظ حقوق بيئته، حيث كانت وصية رسولنا الكريم لأصحابه عندما يخرجون للجهاد في سبيل الله: لا تقطعوا شجرة، ولا تقتلوا امرأة ولا صبيًا ولا وليدًا ولا شيخًا كبيرًا ولا مريضًا، ولا تمثلوا بالجثث، ولا تسرفوا في القتل، ولا تهدموا معبدًا ولا تخربوا بناءً عامرًا، حتى البعير والبقر لا تذبح إلا للأكل.

- كانت حياة النبي ﷺ وصفاته وسيرته العطرة، هي الروح المتجددة للدعوة إلى الإسلام، وفي الوقت نفسه وسيلة الدفاع عنه، فما من بشر عاقل مهما كان حجم بُغضه للإسلام والمسلمين وقُدر له أن يقرأ سيرة النبي إلا وتبدل هذا الشعور لديه، بل ورغب في الاستزادة من المعرفة لحقيقة هذا الدين وسيرة وصفات نبيه، كما أنها تعد وسيلة بها يقوى إيمان المؤمن ويزداد يقينًا وقربًا من الله عَزَّوَجَلَّ وتعلقًا برسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

- يرى الشيخ القطعاني أن الإسلام يتعرض الآن لهجمات كثيرة، إلا أنه يمكن صد كل هذه الهجمات من خلال التفاهم بين الإسلام ومخالفيه أيًا كانوا من هم على أساس من التسامح والعدل؛ إذ إن الإسلام هو دين العدل والرحمة، وقد نص القرآن الكريم على ذلك كما نص أيضًا على احترام حقوق المرأة في الإرث والتملك، وقد تم تطبيق هذه القوانين والعمل بها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، أي قبل أن تعرف أو تطبق هذه القوانين في أي مكان آخر في العالم، وهذه رسالة قوية لمن يعادون الإسلام وهم لا يعرفون شيئًا عنه، أو حتى بعض المسلمين الذين فهموا دينهم فهمًا خاطئًا، بأنه لا عدل ولا حرية ولا تسامح ولا احترام لحقوق الإنسان وكرامته إلا تحت سماء الإسلام.

- لم يكن ديننا الإسلامي مجرد دين عبادات فحسب، بل هو دين معاملات وبناء المجتمعات، فقد وضع لنا منهجًا للتربية الصحيحة، فالمجتمع الناهض هو المجتمع الذي يقوم على عنصرين كلاهما على درجة واحدة من الأهمية، وهما:

التربية المتكلفة بعنصر المعنى، والتعليم المتكفل بعنصر المادة بكافة أساسياتهما. ويعد ذلك هو جوهر الدين الإسلامي، وهو أبلغ رد على من يوجهون اتهامات كاذبة للدين الإسلامي، من بينها أنه دين تواكل وتكاسل فما دليلكم على ذلك؟ والدولة الإسلامية كانت تعيش أزهى وأبهى عصور التقدم في شتى مجالات الحياة من علوم وصناعات وتجارة وفتوحات إسلامية جديدة في الوقت الذي كان فيه العالم بأكمله غارقًا في بحور الجهل والظلام.

- أخيرًا ترى كاتبة هذه الأسطر أنه ما دام العقل هو مناط التكليف الذي أعلى الإسلام مكانته وحث على إعماله بالنظر والتدبر في مخلوقات الله، والدين الإسلامي هو الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده - فلا يوجد تعارض بين الجانبين؛ لأن مصدرهم واحد وهو الله سبحانه، فللإنسان الحق في النظر كيفما شاء ولا مانع من الاختلاف، فهو سنة كونية فُطر الناس عليها، ولكن الهدف المنشود هو أن يكون هذا الاختلاف طريقًا مؤديًا للتكامل والائتلاف، وهذا هو هدف الإسلام وغايته التي يجب أن نسعى جميعًا لتحقيقه.

دفاعًا عن التّصوّف من خلال ردود العلّامة القطعاني على كتاب (إلى التّصوّف يا عباد اللّه)

د. نور الدين المكش

أستاذ بجامعة صفاقس- تونس

الملخص

لم يكن التّصوّف ببُعديْهِ: النظري والعملي مرحبًا به من قِبَل بعض الفرق والمذاهب الإسلامية منذ النشأة وإلى اليوم. فإذا عدنا إلى التاريخ عثرنا على شواهد عدّة تثبت ما كِيل للتصوف وأهله من تُهم بلغت حدّ التكفير والتبديع، وكان من نتائج هذه التهم، بصرف النظر عن مدى وجاهتها، إلى إهدار دم عديد الصوفية، وبالفعل فقد قُتل العديد منهم بسبب أفكارهم ومعتقداتهم التي لم تَرُق إلى بعض الفقهاء والمتكلمين من الحنابلة بالخصوص. ولعلّ من أشدّ المعارضين للتصوف قديمًا الشيخ أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ويبدو أن معاداة التّصوّف وأعلامه مستمرة إلى اليوم، ولعلّ أحسن مثال على محاربة الصوفية ما حمله كتاب «**إلى التّصوّف يا عباد الله**» للشيخ الوهابي أبي بكر الجزائري، فقد كال من خلاله من التّهم للتصوف وأهله ما لم يسبقه إليه أي خصم من خصوم الصوفية، قُدامى ومحدثين.

هذه الاتّهامات المغرضة لم تمرّ مرور الكرام؛ ذلك أنّ علّامة ليبيا الصوفي الشيخ أحمد القطعاني (1956م2018-م)، تولّى الردّ على مغالطات أبي بكر الجزائري، فبيّن حقيقة التّصوّف وجوهره وردّ الشّبهات عن حياضه، من خلال كتابه القيّم «**الحجة المؤتاة في الرّدّ على صاحب كتاب (إلى التّصوّف يا عباد الله)**».

وسنخوض من خلال هذه الورقة البحثية في أهمّ التّهم التي وصم بها الشيخ الجزائري التّصوّف والصوفية، ومختلف الرّدود الصادرة عن العلامة القطعاني دحضًا لتلك التّهم ودفاعًا عن التّصوّف وأهله، وسنسلك في ذلك منهجًا بنيويًّا يقوم على العرض والتحليل والنقد.

الكلمات المفاتيح: التّصوّف، العلّامة القطعاني، الشيخ أبو بكر الجزائري، الوهّابية، الحجة، الشبهات.

المقدمة

ليس من الغريب ولا من الجديد أن يُقدح في التّصوّف والصوفية، فمذ نشأته في القرن الثاني من الهجرة لم يكن يُنظر إلى هذا العلم الشرعي المستحدث بعين الرضا، فعدّه بعضهم بدعًا وضلالات ووصم المنتسبين إليه بالمبتدعة والملاحدة. وقد ظلت هذه التهم حيّة عابرة للزمن، لا تكاد تخبو حتى تطفو من جديد أكثر حدّة ومغالاة، وحسبنا دليلًا ما ورد في كتاب أحد رموز الوهابية المعاصرة من اتهامات خطيرة لا تقدح في عقيدة الصوفية فقط، بل طعنت كذلك في وطنيتهم برميهم بالعمالة للمستعمر الأجنبي. قام الكتاب على إبراز مسائل النّزاع والخلاف الّتي يراها هو وقبيله في التّصوّف والمتصوفة، وذكر أدلّته على خطئها، فما ترك شاردة ولا واردة تقدح في التّصوّف إلّا ذكرها فيه، وقد صنّف أحد أعلام التّصوّف المعاصر وهو الشّيخ أحمد القطعاني[1] كتابًا في الردّ عليه وسمه «الحجّة المؤتاة في الرّدّ على صاحب كتاب (إلى التّصوّف يا عباد الله)».

(1) الحجة المؤتاة في الرّدّ على صاحب كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله، أحمد القطعاني، دار جوامع الكلم، القاهرة، ط2، 1992م.

فبم تتّهم الطائفة الوهابية التّصوّف والصوفية؟ وإلى أيّ مدى تصحّ هذه التّهم؟ وهل من أدلة قاطعة تثبت مزاعم من أطلقها؟

هذه الأسئلة وغيرها ستشكل مدار بحثنا في هذه الورقة، وذلك بتفحّص الجدل الحادّ بين شيخ وهّابي يتهم ويتحامل، وشيخ صوفي يردّ التهم ويقوّض أطروحة خصمه، بناءً على معرفة واسعة بالمقالات الصوفية وتعويلًا على حجج قاطعة من الكتاب والسنة والتاريخ.

وسيتناول البحث أهم النقاط الخلافية بين الشيخين مع التركيز على مضامين ردود العلّامة القطعاني والحجج التي عوّل عليها في ردوده تلك.

بعد الاطّلاع على المصنَّفين تبيّن لنا أنّ أهمّ مطاعن الشيخ الجزائري في التّصوّف وأهله هي:

1. **التّصوّف والصوفية خطر داهم على الإسلام والمسلمين.**
2. **التّصوّف بدعة والصوفية مبتدعة.**
3. **الصوفية عملاء للمستعمر الأجنبي.**
4. **التباس العلاقة بين الشيخ والمريد.**
5. **العلم الكشفي بين النفي والإثبات.**

لم يكن الشيخ القطعاني بصفته عالمًا صوفيًّا ومتصوفًا أن يقبل مثل هذه التُّهم، فراح يردّ عليها نقطة نقطة مستعينًا بسعة معرفته بالعلم الصوفي وبتاريخه وسير أعلامه، ومتسلحًا بعدة حِجاجية متعددة ومتنوعة. وهو ما سيلمسه القارئ من خلال هذا البحث.

1 هل يشكل التّصوّف والصوفية فعلًا خطرًا على الإسلام؟

إنّ التّصوّف رافد مهمّ من روافد الثّقافة الإسلاميّة لا يقلّ مكانة وأهميّة عن

سائر العلوم الإسلامية من فقه وكلام وأصول وتفسير وغيرها. وقد عدّه ابن خلدون «من العلوم الشّرعيّة الحادثة في الملة»[1].

وهو من العلوم العمليّة الّتي ترسم أمام الإنسان المسلم طريق التّرقّي الرّوحي والخلقي والمعرفي، وبالرّغم من الأدوار المهمّة الّتي اضطلع بها منذ النّشأة وإلى اليوم فإن أوساطًا إسلاميّة كثيرة لم تكن تنظر للتّصوّف ببُعديْه النّظري والعلمي بعين الرّضا، حتّى أنّ عديد الفقهاء والمتكلّمين من مختلف الفرق والمذاهب أدانوا التّصوّف وكفّروا أهله وأهدروا دمهم[2].

ويبدو أنّ الحملة على الصّوفيّة لن تنتهي بدليل أنّه إلى اليوم ما زالت عديد الأوساط توجّه سهامها إليهم بتعلّة أنّهم يشكّلون خطرًا على الإسلام والمسلمين بما يروّجون من بدع وضلالات، ولعلّ أحسن مثال على محاربة التّصوّف: الحملة الشّعواء الّتي سلّطها أحد رموز السّلفية المعاصرة، وهو الشّيخ أبو بكر جابر الجزائري الّذي ألّف كتابًا في التّشهير بالتّصوّف وأهله أسماه «إلى التّصوّف يا عباد الله فإنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرّتين».

تشكّل كتاب «الحجّة المؤتاة في الرد على كتاب إلى التّصوّف يا عباد الله..» من مقدّمة وثلاثة فصول كانت بمنزلة الرّدّ الإجمالي على اتّهامات السّلفيّة التّصوّف والصّوفيّة. ويتّضح من المقدّمة الهامّة الّتي افتتح بها الشّيخ القطعاني كتابه «الحجّة المؤتاة» أنّها بمنزلة الرّدّ الصريح على خصوم التّصوّف وأعداء الصّوفيّة ممن لم يدركوا حقيقة هذا العلم ومعدن علمائه، فراحوا يكيلون لهم التّهم جزافًا بلا حجّة ولا دليل.

---

(1) المقدّمة، عبد الرحمن بن خلدون، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط2، 2005م، ص 399.

(2) نذكر مثلاً: الحلاج (309هـ) وشهاب الدّين يحيا السّهروردي (ت 586هـ) وعيْن القضاة الهمذاني (ت 525هـ) الّذين قتلوا بسبب معتقداتهم وآرائهم.

أثبت الشّيخ القطعاني من خلال مقدّمته حقيقة علم التّصوّف فأكّد أنّه من أشرف العلوم الشّرعيّة وأنفعها؛ نظرًا لدوره في تربية النّفوس وصقل القلوب وتهذيب الطّباع، والتّرقّي بالمريدين من وضع الحيوان إلى مقام الإنسان، فقد قال في هذا الشّأن: «... فعلم التّصوّف من أشرف العلوم الشّريفة وأنفع المعارف السّامية المنيفة، رفيع القدر حميد الأثر يزكي النّفوس ويصقل القلوب ويهذّب الطّباع، يسير بالرّوح إلى باريها ويحدو بها إلى خالقها يستبدل الخبيث بالطّيب والسيّئ بالحسن»[1].

وأمام ما يتّهم به التّصوّف من كونه بدعًا وضلالات كان لا بدّ للشّيخ القطعاني أن يرفع اللّبس ويَردّ التّهمة الأخطر ليثبت أنّ التّصوّف سنة وليس بدعة؛ فهو مقيّد بالكتاب والسّنّة نابع من جوهر الإسلام وتعاليمه السّمحة، والتّصوّف هو لُبّ الإخلاص في العبوديّة وهو التّطبيق العملي للكتاب والسّنّة أسوة بالصّحابة والتّابعين.

وإذا كان علم التّصوّف بهذه الرّفعة وبهذا الشّأن فلا شكّ في أن يتميّز أهلوه بقوّة الإيمان وسموّ الأخلاق وحسن السّير، على خلاف ما يزعم خصومهم من الوهّابيّة، يقول: «وأهله هم أهل الله وخاصّته الدّالون عليه تعالى الواقفون بالإخلاص بين يديه في الفرق والجمع والعطاء والمنع. أهل الأدب الرّفيع الرّاقي والسّمو الأخلاقي، طريقهم أصوب الطّرق ومنهجهم الإخلاص والصّدق. ولو جمع عقل كلّ ذي عقل وحكمه ليحسّنوا ما هم عليه ما وجدوا إلى ذلك طريقًا، فقد تشبّعت بواطنهم وظواهرهم بنور الهداية المحمدي وما بعده نور ولا هدي»[2].

ولم ينس في مقدمته أن يذكّر بموقف أعلام الحنبليّة من أمثال ابن تيميّة (ت 728هـ) وتلميذة ابن القيم الجوزية (ت 751هـ) من التّصوّف، فقد كانا من أشدّ أعداء المتصوّفة، عداء وصل حدّ التّكفير والتبديع والدّعوة إلى التّصفية الفكريّة والجسديّة. ولما كانت الوهابيّة المعاصرة سليلة الحنبليّة، فإن علماءها قد نهجوا

(1) الحجة المؤتاة، مصدر سابق، ص 4.
(2) المصدر السابق، ص 5.

أسلوب أسلافهم في رمي التّصوّف والصّوفية بأبشع صنوف التّهم، وهو دليل في نظر الشّيخ القطعاني على تحجّرهم وتمسكهم بالقشور دون اللّب، «وقد وصل الجمود والتحجّر والتّموقع بهؤلاء إلى محاولة سلخ جسد الإسلام عن روحه فأصبح لا شغل لهم ولا شاغل إلّا إلقاء المحاضرات والدّروس وتسْويد الصّحف ونشر الكتب وإلقاء الخطب الطنّانة الرّنانة لمدّة الساعات والساعات، للقدح في السّادة الصّوفيّة أو لإثبات أنّ الحلاج كان كافرًا أو أن ابن عربي كان مشركًا أو أن ابن الفارض يدين بالحلول أو أن البدوي على خطأ أو أن الجيلاني مشكوك في أمره»[1].

وتبلغ نقمته على بعض رموز الوهابيّة المعاصرة أوجها حين يتّهمهم بالماضويّة وينعت مواقفهم من الصّوفيّة بالتّفاهة والكذب «نعم لقد كان موقف ما يسمّى بالعلماء من هؤلاء الوهابيّين المعاصرين تافهًا فارغًا وأجوف، أجسادهم في القرن الخامس عشر الهجريّ وعقولهم في القرن الخامس عشر الميلادي، وامتلأت المكتبة العربيّة بالكتب والرّسائل الّتي يسهرون على تسطيرها وحشيت بالأراجيف والكذب على السّادة الصّوفيّة ومشكّكة في منهجهم الّذي هو منهج الصّحابة والسّلف الصّالح»[2].

وإذا كانت المقدّمة بمنزلة الرّدّ المجمل على ما يكال للتّصوّف وأهله من تهم خطيرة فإن الفصول الثّلاثة الّتي جاءت بمنزلة الرّدّ المفصّل على تلك التّهم، والتي من ضمنها، كما ذكرنا، اعتبار الشّيخ أبي بكر الجزائري عودة التّصوّف خطرًا على الإسلام والمسلمين.

استهلّ المؤلّف الفصل الأوّل من كتاب «الحجّة المؤتاة» بإيراد فقرة من كتاب «إلى التّصوّف يا عباد الله» تكشف أسف صاحبها على عودة التّصوّف من جديد، وأنّ هذه العودة غير المتوقّعة تشكل خطرًا على الإسلام والمسلمين، لا يستفيد منها سوى جيوش المستعمرين. وممّا قال متّهمًا «وبعد فإنّه -ويا للأسف الشّديد- قد ظهرت الدّعوة للتّصوف من جديد وبعد أن ظنّ المصلحون أنّها قد مضت فلا ترجع وماتت

(1) المصدر السابق، ص 10.
(2) المصدر السابق، ص 15.

فلم تنشر، وذلك بعد أن أظهروا زيفها وكشفوا عوارها وأزاحوا ستارها ممّا تخفى وراءها من جيوش الخراب والدّمار. تلك الجيوش الكافرة الفاجرة الّتي ما فتئت تضرب في جسم أمّة الإسلام حتّى مزّقته أشلاء وطرحته لكلاب الاستعمار أجزاءً»[1].

في ردّه على ما جاء في هذه الفقرة أشار الشّيخ القطعاني أنّ شجرة التّصوّف لم تتوقّف يومًا عن النّمو. ولإثبات هذه الحقيقة التاريخيّة استدعى حديثًا نبويًّا نصّه: «**لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرة من على الحق لا يضرّهم من خذلهم حتّى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[2].

وإذا كان الشيخ أبو بكر الجزائري يرى في التّصوّف خطرًا على أمّة الإسلام فإنّ الشّيخ القطعاني يرى عكس ذلك تمامًا؛ إذ أشاد بفضل علم التّصوّف وعلو شأن أهله.

ولإثبات هذا الفضل استدعى الشّيخ القطعاني شهادات لعدد كبير من أعلام الفكر الإسلامي المشهود لهم بالقدر والصدق والعلم الغزير، من أمثال الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ) وعبد القاهر البغدادي (ت 429هـ) وأبي القاسم القشيري (465هـ)، وحجّة الإسلامي أبي حامد الغزالي (ت 505هـ) والعز بن عبد السّلام (ت 660هـ)، وتاج الدّين السبكي (ت 808هـ) والمحدّث جلال الّذين السّيوطي (911هـ)، وشيخ الأزهر عبد الحليم محمود (1910م1978-م)، والشّيخ محمّد متولي الشّعراوي (1911م1998-م). وقد أجمعوا على أنّ التّصوّف من أسمى درجات العبادة والتّمسّك بالكتاب والسّنّة وسيرة السّلف، القولية والفعليّة، وأنّه بريء ممّا يلصق به من تهمّ باطلة، لا سند لها من دليل نقلي ولا عقلي.

2 التّصوّف بدعة أم سنّة؟

يرى صاحب كتاب «إلى التّصوّف يا عباد الله» أنّ التّعريف الصّحيح للتّصوّف هو أنّه «بدعة ضلالة من أشرّ البدع وأكثرها إضلالًا وأكبرها ضلالة»[3].

(1) المصدر السابق، ص 20.
(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.
(3) الحجّة المؤتاة، مصدر سابق، ص 77.

لا شكّ في أنّ هذه التّهمة من أخطر التّهم الموجّهة إلى التّصوّف بالنّظر إلى ما يترتّب عليها من نتيجة أخطر تضع الصّوفيّة داخل دائرة الفرق الضّالة أو المبتدعة؛ ولذلك وجدنا الشّيخ القطعاني قد بذل كثيرًا من الجهود الفكريّة لردّ هذه الشّبهة، وإثبات أنّ التّصوّف مقيّد بالكتاب والسّنّة، وأنّ موقف الخصم يفتقر إلى الحجّة الثّابتة والبرهان القاطع، ما يجعل اتّهامه مجرّد رجم بالغَيب. ولدحض هذه المغالطة الّتي تمسّ من جوهر العقائد الصّوفيّة، أولى الشّيخ القطعاني المسألة ما تستحقّ من بيان وتوضيح واحتجاج، فبدأ ردّه بتصحيح مفهوم التّصوّف مبنًى ومعنًى فذهب إلى أنّه «علم يعرف به كيفيّة تصفية الباطن من عيوب النّفس وصفاتها المذمومة: كالحقد والحسد والعلوّ وحبّ الثّناء والكبر والرّياء والبخل وغيرها. ومبناه: على التّمسّك بآداب الشّرع والتّباعد عن الشّبهات وحفظ الحواس وعدِّ الأنفاس والتحرّز من الغفلات... وفائدته: إصلاح الإنسان ظاهرًا وباطنًا»[1].

ولتأكيد البعد الرّوحي والتّربوي والإصلاحي للتّصوّف احتجّ بعدد التّعريفات الصادرة عن كبار الصّوفيّة استقاها من أمّهات كتب التّصوّف من أمثال الرّسالة القشيريّة لأبي القاسم القشيري (ت 465هـ) وتذكرة الأولياء لفريد الدّين العطار (ت 618هـ) وعوارف المعارف لشهاب الدّين السهروردي (ت 632هـ). وليس في هذه التعريفات المتعدّدة ما تشتمّ منه رائحة المخالفة لتعاليم الإسلام ولسيرة النّبيّ وصحابته ما يثبت أن التّصوّف -وعلى خلاف رأي الوهّابيّة عمومًا- من العلوم الشّرعيّة الإسلاميّة بشهادة شاهدين عدلين: الكتاب والسّنّة.

وبناءً على ما سبق خرج الشّيخ القطعاني بخلاصة مهمّة تثبت سنيّة التّصوّف استنادًا إلى قول الشّيخ الجزائري نفسه، حتّى لكأنّ قوله شهادة من خصم فكري تبرّئ التّصوّف من شبهة البدع والضلالات. يقول: «وأمّا تعريفه (الضمير يعود على أبي بكر الجزائري) للتّصوّف بأنّه بدعة من شرّ البدع... فنجيب عنه بكلامه هو. فقد

(1) المصدر السابق، ص 88.

قال إنّ تعاريف التّصوّف بلغت ألفين، وبما أنّها كلّها قالت عكس ما قال فأصبح من الواجب أن نأخذ بقوْل الألفين لاستحالة جهلهم وتواطئهم على الكذب، وهم في أزمنة مختلفة ونترك تعريفه الّذي انفرد به»[1].

إنّ إجماع التّعريفات على سنيّة التّصوّف لهي من أقوى الحجج الّتي عوّل عليها الشّيخ القطعاني في دحض أطروحة خصمه وإثبات أطروحته. واعتقد أنّه بما أورده من حجج وشواهد نقليّة وتاريخيّة قد نجح في دفع التّهمة وتبرئة التّصوّف وأهله من وصمة التّبديع والتّضليل المسلّطة عليهم من خصومهم السّلفيّة قديمًا وحديثًا.

ومن مآخذ صاحب الردّ على المردود عليه أنّه فاقد للحجّة، ومضطرب الأفكار ومتناقضها، وقليل العلم وراجم بالغيب.

3 اتّهام الصّوفيّة بالعمالة ومهادنة الاستعمار:

إنّ من التّهم الشّائعة الّتي يرمي بها الوهّابيون الصّوفيّة العمالة للاستعمار والقعود عن المقاومة والجهاد، وقد اتّبع الشيخ الوهابي الجزائري مسلك أسلافه في تأكيد هذا الاتهام «وما أن نشر الله أمّة الإسلام بعد موتها، وعادت إلى الحياة بعد مفارقتها، ورآها العدوّ الثّالوث المركّب من اليهود والمجوس والنّصارى، رآها وقد تحرّرت ديارها وتخلّصت من نير الاستعمار الغربي بلادها وأقطارها، فلم يعد فيها سلطة لكافر ولا سلطان لكفّار، آلمها تحرّرها وأكربها وأحزنها خلاصها واستقلالها حتّى راح يبحث عن عملائه الأقدمين وجنوده المخلصين من دعاة التّصوّف وأدعياء المتصوّفين، فأخذ يجمع شتاتهم ويحرّك طلائعهم ويدفع بهم إلى المعركة لضرب أمّة الإسلام مرّة أخرى ليوهنوها ويضعفوها، ويومها يضعها مرّة أخرى تحت كَلْكَه ليمتصّ دمها ويأكل لحمها وعظمها كما فعل بها في المرّة الأولى»[2].

---

(1) المصدر السابق، ص 79.
(2) المصدر السابق، ص29.

وللردّ على هذه التّهمة لاذ الشّيخ القطعاني بالتّاريخ ليورد أمثلة عدّة عن جهاد الصّوفيّة ومواجهتهم للأعداء قديمًا وحديثًا.

فمن الشّواهد النّاطقة عن الجهاد الصّوفي ضدّ المستعمر تجربة الصّوفي الشّيخ أحمد البدوي (1200م-1276م) الّذي جعل من مريديه وأتباعه كتيبة عسكريّة شاركت في الحروب الصّليبيّة ذَودًا عن بلاد الإسلام. ولعب الدّور الجهادي نفسه الصّوفي الجليل الشّيخ أبو الحسن الشّاذلي (1196م-1258م) فقد كان -وقد تجاوز السّتّين- مقاومًا للصّليبيين لِما كان يغرسه في قلوب الجنود من مبشرات بالنّصر القريب.

أمّا حديثا ومع موجة الاستعمار الغربي الّذي عقب تراجع نفوذ الرّجل المريض في البلاد العربيّة الإسلاميّة، فيشهد التاريخ بنضالات رموز صوفيّة عديدين لعلّ أشهرهم الصّوفي الأمير عبد القادر الجزائري(1898م-1982م) الّذي ترك لنا أرقى صور الجهاد ضدّ المستعمر الفرنسي لبلاد الجزائر اعترف بها الأعداء[1] قبل الأصدقاء.

ولإثبات الحجّة على خصمه وإبطال أطروحته في اتّهام الصّوفيّة بالعمالة يورد شهادة أحد المؤرّخين المحدثين: «إنّ زعماء الطّرق الصّوفيّة قد ظلّوا غير معترفين بالاحتلال الفرنسي ومن ثمّ دارت معارك عنيفة بين القوّات الفرنسية والمحاربين الجزائريين في بلاد القبائل، انتهت بإخضاع هذه البلاد سنة 1857م»[2].

وواجه صوفيّة تونس المستعمر الفرنسي؛ إذ كانوا من المساهمين في المقاومة، وهو ما أكّده الباحث رأفت الشّيخ، إذ قال: «إن الثّورة في تونس ضدّ الاحتلال الفرنسي تزعّمها رجال الدّين وأصحاب الطّرق الصّوفيّة الّذين اعتبروا الثّورة ضدّ الفرنسيين

---

(1) راجع مثلاً: الكونت سفري، الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربيّة وسلطان الأرباض الجزائريّة.
(2) تاريخ العرب الحديث، رأفت الشيخ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1994م، ص 406.

جهادًا إسلاميًّا واتّخذت الثّورة من مدينة القيروان ذات التّاريخ الإسلامي العتيد مركزًا لها»[1].

أمّا في ليبيا فقد قدّم الشيخ السبعيني عمر المختار أحسن الأمثلة على مجاهدة الصّوفيّة الاحتلال الإيطالي وحسبنا شهادة أحد الأغراب، وهو القائد العالم الإيطالي الجنرال «رود ولفوغراسياني» في بيان له عن المعارك الّتي دارت بين جنوده والقائد عمر المختار: «إنّ عمر المختار يختلف عن الآخرين فهو شيخ متديّن بدون شكّ قاسٍ وشديد ومتعصّب للدّين ورحيم عند القدرة، ذنبه الوحيد أنّه يكرهنا كثيرًا، وفي بعض الأوقات يسلّط علينا لسانه، ويعاملنا بغلظة مثل الجبليين، كان دائمًا مضادًّا لنا ولسياستنا في كلّ الأحوال، لا يلين أبدًا ولا يهادن إلّا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخُن مبادئه فهو دائمًا موضع الاحترام، رغم التصرّفات الّتي تحدث منه في غير صالحنا»[2].

إن هذه الشهادات التاريخية لحجّة دامغة تدحض ما ذهب إليه الشّيخ الوهابي من اتّهام للصّوفيّة بالعمالة ومهادنة المستعمرين الغربيين.

ولمزيد دحض هذه التّهمة استدعى المؤلّف نوعًا آخر من أنواع الجهاد، كان له في السّابق أكبر الأثر في حفظ حدود بلاد المسلمين من الغازي والمعتدي، وهو الرّباط. والمعلوم أنّ جلّ المرابطين كانوا من الصّوفيّة، ولهذا السّبب صارت لفظة مرابط علمًا على الصّوفيّة وأولياء الله عامّة في المغرب العربي.

ولتأكيد هذا اللّون من المجاهدة يستشهد الشّيخ القطعاني بما جاء على لسان المؤرّخ علي مصطفى المصراتي (1992م2021-م)، إذ يقول: «يؤكّد -يعني الرّباط- نوعًا من المواجهة والمصارعة ولونا من ألوان الفروسيّة والجهاد المقدّس

---

(1) المصدر السابق، ص 409.

(2) برقة الهادئة، رودلفو غراسياني، ترجمة إبراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الأندلس للطباعة والنشر، بنغازي، ط3، 1980م، ص 370.

يصوّر ويؤكّد هذا كثرة المزارات والأضرحة للأولياء والمتصوّفة على شطّ البحر على السّاحل، فهي في الواقع أماكن للرّباطات وثكنات للمجاهدين»[1]. ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه: «هذا يدلّ على أنّ الصّوفيّة وأصحاب هذه المزارات لم يكونوا غالبًا من دعاة الهروب والسّلبيّة بل هم يحملون السّلاح ويجاهدون في سبيل الله والوطن»[2].

وفي نهاية الرّدّ ينتهي بنتيجة مهمّة يقول فيها: «وبعد فقد تجلّى تجلّي الشّمس في رائعة الضّحى دور الصّوفيّة الأماجد في الدّفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين ومقاومة جيوش الاستعمار الغربي المشرك»[3].

ومن المطاعن الّتي توجّه إلى الصّوفيّة كذلك: الغلُوّ في خضوع المريد إلى الشّيخ إلى درجة التّقديس والتّأليه. فكيف ردّ العلامة القطعاني على هذه التهمة؟

4 الشّيخ والمريد: أيّة علاقة؟

إنّ صلة الشّيخ بالمريد من المسائل الخلافيّة داخل الطّيف الصّوفي نفسه؛ إذ من الصّوفيّة من لا يشترط مرافقة شيخ المريد أثناء تجربته الرّوحيّة، في حين نجد طائفة أخرى تلزم المريد باتّباع تعاليم شيخ مُربٍّ، ييسّر له بلوغ المقصود؛ خشية أن تزلّ به القدم أو يتوقّف دون أن يحقّق مبتغاه. ونظرًا لخلافية المسألة استفتي ابن خلدون (ت 808هـ) في حكم حاجة المريد إلى الشّيخ في كتاب وسمه «شفاء السّائل وتهذيب المسائل»[4].

من الواضح أنّ هذه العلاقة يلفّها، إلى اليوم كثير من اللّبس والغموض جعل خصوم الصّوفيّة يتّهمونهم بعبادة الشّيوخ وتقديسهم أحياءً وأمواتًا، والاعتقاد

---

(1) مؤرّخون من ليبيا مؤلفاتهم ومناهجهم، ليبيا، علي مصطفى المصراتي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، طرابلس، ط2، 2002م، ص 88.
(2) المصدر السابق، ص 96.
(3) الحجّة المؤتاة، مصدر سابق، ص 41.
(4) شفاء السّائل وتهذيب المسائل، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1996م.

في قدرتهم على الشّفاعة لمريديهم، ومن ثَمّ إدْخالهم الجنّة. ولئنّ صدرت هذه الاتهامات منذ أن اشتدّ عود التّصوّف الطُّرقي وارتقى الشّيخ إلى أسمى المراتب، فإنّ من المحدَثين من لا يزال يكرّر الاتّهامات نفسها، ومنهم مصنّف كتاب «إلى التّصوّف يا عباد الله» فقد جاء على لسانه ما يلي: «افتراء الشّيخ على المريد بأن يُخلّصه من الشّدائد وينقذه من المهالك متى استعان به وناداه، كما يحضر له عند الموت فيلقّنه الشّهادتيْن ويخاصم عند قبره الملكَيْن وأخيرًا يشفع له يوم القيامة، فيجوز على الصّراط بمعيّة الشّيخ ويدخل الجنّة بشفاعته. فهذا من الشّيخ زيادة على أنّه افتراء وكذب لا يحل مثله ولا يجوز بحال من الأحوال، فإنّ فيه تضليل المسلم والتغرير به وحمله على اعتقاد الباطل والعمل بموجبه، الأمر الّذي قد يفْضي به إلى الشّرك والكفر...»[1].

في ردّه على هذه الأقاويل أشار الشّيخ القطعاني أنّ ما ورد على لسان الوهّابي الشّيخ أبي بكر الجزائري هو «التضليل بعينه والغشّ بذاته»[2]، وتفصيلاً لردّه بيّن أنّ إنقاذ الشّيخ للمريد عند الشّدائد وتلقينه الشّهادتين عند الفزع وسؤال الملكين مسألة خلافية، اعتقدها بعضهم وخالفها بعضهم الآخر، وبما أنّها من المسائل الخلافيّة فلا يجوز في نظر الشّيخ القطعاني أن يقال فيها «أنّها تؤدّي إلى الشّرك أو أنّها شرك»[3].

إنّ الاستغاثة بالشّيوخ ظاهرة دينيّة عامّة لدى المسلمين، دون أن يعني ذلك أنّهم يعتقدون أنّ بمقدور الشّيخ أن يفعل ما يريد مستقلًا عن قدرة الله، فالشّيخ إنّما يفعل ما يفعل بإقدار الله وإمداده، فهو ليس قادرًا بنفسه بل بربّه.

وعليه يرى الشّيخ القطعاني ردًّا على موقف خصمه وتصويبًا له أنّ «لا حول ولا قوّة لمخلوق إلّا بالخالق»[4]. يترتّب على هذه المقالة العقديّة الأساسيّة أنّ شفاعة

(1) الحجّة المؤتاة، مصدر سابق، ص 114.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(3) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(4) المصدر السابق، ص 116.

الشّيخ المريد ليست فعلًا صادرًا عنه بمعزل عن الإرادة الإلهيّة، وإنّما هو فعل إلهي يجريه الله بواسطة أحد أوليائه المقرّبين، وكلّ من اعتقد خلاف ذلك فهو مشرك. يقول في هذا السّياق: «... وأمّا إن كان قد فعل الفعل بإفاضة الله تعالى وإمداده -وهو الصّحيح- فتصبح إغاثة الشّيخ الحيّ لمريده وتخليصه من الشّدائد وإنقاذه من المهالك لا جدال فيها؛ إذ لا حدّ لإقدار الله تعالى للعبد ولا مدًى»[1].

ويذهب العلّامة القطعاني أبعد من ذلك حين يقرّ أنّ الله قادر على إقدار الحيّ مثلما هو قادر على إقدار الميّت، لذلك لا يعتبر التّوسّل بالأموات من الأولياء ضربًا من الشّرك أو الخروج عن العقيدة الإسلاميّة.

وفي ذلك يقول ردّا على خصمه: «فإن قال قائل إنّ الله تعالى يُقدر الولي الحيّ دون الميّت، فيجاب عليه بأنّ من أقدر الحيّ لا يعجز عن إقدار الميت، خاصّة إذا علمنا أنّ الرّوح تزداد قوّة بالموت بتحرّرها من أسر البدن وشهوات النّفس»[2].

ويلتجئ الشّيخ القطعاني إلى حجيّة إجماع الأئمّة ليثبت جواز إنقاذ الشّيخ المريد من المهلكات والشّفاعة له. «... فإنقاذ المريد من المهلكات وتخليصه من الشّدائد من ضمن الكرامات الّتي أجمعت الأمّة على جوازها ووقوعها والاستغاثة بالولي كما قلنا – هي استغاثة به على ما أقدره الله عليه ولا شبهة في هذا»[3].

ومن جملة الكرامات الّتي يجريها الله على أيدي أوليائه الشّفاعة للمريدين، فيما يرى الشّيخ القطعاني، مخالفًا موقف الشّيخ الوهّابي الّذي ذهب إلى أنّ شفاعة الشّيخ في مريده افتراء وكذب. وقد احتجّ الشّيخ القطعاني لإثبات أطروحته بالنّصّ القرآني وبالحديث النّبوي[4]، وبرأي بعض العلماء ومنهم شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري (1784م–1860م) وهو الشّيخ التّاسع عشر من شيوخ الأزهر، فقد أثر عنه

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، ص 117.
(3) المصدر السابق، ص 119.
(4) المصدر السابق، ص 121، 122.

قوله: «يشفع وغيره -صلى الله عليه وسلم- ممّن ارتضاه الله من الأخيار كالأنبياء والمرسلين والملائكة والصّحابة والشّهداء والعلماء العاملين والأولياء»[1].

وأورد عديد الشّواهد التّاريخيّة الّتي تثبت حصول الشّفاعة من الأنبياء والأولياء[2].

ووقف الشّيخ القطعاني مطوّلًا عند علاقة الشّيخ بالمريد لينفي كلّ التّهم الّتي أطلقها الشّيخ الجزائري بلا دليل، من نوع أن شيوخ الطّرق جهلة وأنّهم يستغلّون سلطتهم لابتزاز مريديهم، وأنّ من المريدين من يحلف بالله كذبًا ومنهم «من يخاف الشّيخ ويرهبه أكثر ممّا يخاف الله ويرهبه»[3].

ومن أهمّ المسائل الخلافيّة بين الصّوفيّة والسلفيّة الوهابيّة: العلم الكشفي أو الباطني الّذي يقول به أهل التّصوّف وهو عندهم من أصول الطريقة. ولكن السّلفيّة تنفي حصول هذا النّوع من العلم في حين يصرّ الصّوفيّة على جواز حصوله.

5 العلم الكشفي بين النفي والإثبات:

يطعن صاحب كتاب «إلى التّصوّف يا عباد» على الصّوفيّة قولهم بالعلم الكشفي. وفي ذلك يقول: «إنّ الكشف وإن كان أحد أصول الطّرق الصّوفيّة فهو في الواقع غاية لما يصبو إليه المريد، ومن أجله قَبِل الخلوة وحشر نفسه فيها واطّرح بين يدي الشّيخ متخليًّا عن كلّ شيء حتّى إرادته وعقله في سبيل الحصول على أن يصبح من أهل الكشف، وحقيقة الكشف عند الصّوفيّة: هي أن يكشف القلب من أنوار الغيوب ما ينال به الصّوفي من المعارف ما لا يناله العقل منها»[4].

---

(1) تحفة المريد على جوهرة التّوحيد، إبراهيم الباجوري، تصحيح وضبط عبد الله الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2004م، ص 206.
(2) الحجّة المؤتاة، مصدر سابق، ص 117.
(3) المصدر السابق، ص 167.
(4) المصدر السابق، ص 226.

في ردّه على هذه الشبهة، ورفعًا للّبس الحاصل في ذهن المصنّف، أكّد الشّيخ القطعاني ما يلي:

- إنّ الغاية من الخلوة تصفية باطن المريد من الأكدار، فمن عمَّر ظاهره باتّباع السّنّة وباطنه بدوام المراقبة لا تكاد تخطئ له فراسة.

- ليس كلّ من أطاع شيخه تخلّى عن إرادته وعقله؛ لأنّ في طاعة الشّيخ طاعة لله ورسوله.

- إنّ الكشف هو شكل من أشكال قوّة الفراسة والمعرفة الذّوقيّة المباشرة الّتي يتلقّاها المريد وهبًا ونفثًا في القلب.

وينفي الشّيخ الجزائري أن يكون القلب قادرًا على كشف ما يعجز عنه العقل، يقول في ذلك: «إنّ إدراك ما وراء العقل بواسطة الكشف محال، وهم يرونه من باب الجائز الممكن وهي مكابرة خادعة إذ كلّ ما كان من وراء العقل إدراكه محال؛ إذ المدركات من سائر الكائنات لا يتمّ إدراكها وتصوّرها إلّا بالعقل»[1].

جاء ردّ الشّيخ القطعاني واضحًا وهو أنّ «القلب وسيلة المعرفة المثلى»[2].

فمعرفة الحواس ظنيّة والعقل له حدّ معلوم لا يمكن تجاوزه مهما بلغ من قوّة الذّكاء وجودة الفهم وحسن الملكة. فلا تحصل المعرفة القطعيّة إلّا من مصدر ما بعد العقل وهو القلب.

ويكون هذا العلم في شكل أنوار يقذفها الله في قلب الصّوفي مثلما حدث مع أبي حامد الغزالي. ولإثبات صحّة هذا العلم القلبي الباطني، استحضر العلاّمة القطعاني جملة من الحجج النّقليّة والتّاريخيّة، كإلهامه تعالى أُمَّ موسى أن تلقي ابنها في اليمّ، والسيّدة مريم أن تهزّ جذع النّخلة. ومن الأدلّة كذلك الرّؤيا الصّالحة الّتي قد

(1) المصدر السابق، ص 228.
(2) المصدر السابق، نفس الصفحة.

تكون صريحة أو في ثوب رمزي وهي في موضوعها إخبار عن غيب يتقاصر العقل عنه ضرورة.

هكذا ينتصر الشّيخ القطعاني بصفته صوفيًّا للقلب وسيلة لإدراك أسرار الغيب الّتي هي عصيّة عن مدركات العقل، مؤكّدًا «أنّ السّبيل إلى معرفة ما بعد العقل شيء آخر سوى العقل، إنّه الإلهام أو الكشف أو التّحديث»[1].

الخاتمة:

لقد تبيّنا من خلال الاطّلاع على كتاب «إلى التّصوّف يا عباد الله» كمّ التّهم الّتي كالها مصنّفه للتّصوّف وأهله وتأكّدنا أنّها تُهم تفتقر إلى الإثباتات والأدلة، وهي ناجمة إمّا عن جهل أو سوء فهم أو رغبة في إقصاء كلّ من يخالفه الرّأي والموقف. والحال أنّ الحقيقة ليست مِلكًا لطرف دون آخر وليس لفرقة أو مذهب أن يزعم أنّه يحتكر الحقيقة المطلقة وأنّ غيره على خطأ.

وبدت جلّ ردود الشّيخ القطعاني موسومة بالدّقّة والموضوعيّة مسْنُودة بالحجّة والدّليل بعيدًا عن ضروب التّحامل والرّجم بالغيب وتكفير المخالف في الرّأي، فعلى خلاف الشّيخ الجزائري الّذي كفّر الصّوفيّة وبدّعهم لم نعثر على قرينة واحدة تدلّ على تكفير الشّيخ القطعاني الصّوفي للعقائد والآراء السّلفيّة، ما يشف على فكر متسامح مؤمن بحريّة الاختلاف وبثقافة التّعايش بين الفرق والمذاهب مهما اختلفت بهم السّبل.

ومن الطرافة والجدّة في ردود العلّامة القطعاني نزعته الموضوعية، وسعة معارفه وغزارة علومه فهو الفقيه والمحدّث والمتكلّم والمؤرّخ والفيلسوف والعالم الصّوفي، وهي خصال أهّلته لإفحام الخصم وإقناع المتلقي ببراءة التّصوّف والصّوفيّة من كلّ التّهم الواهية المغرضة.

---

(1) المصدر السابق، نفس الصفحة.

واستطاع كذلك بفضل سعة اطّلاعه على المقالات الصّوفيّة وحسن إلمامه بتاريخ التّصوّف وبسير أعلامه -أن يقدّم الوجه المشرق والمعتدل لتصوّف سنّي يستطيع أن يحتلّ له موقعًا في التّجارب الدّينيّة المعاصرة، وأن يمثّل حلًّا للفراغ الرّوحي الذي يكابده المسلم في زمن الحداثة وما بعدها.

في التصدي لمعضلة التطرف الديني
(رسائل الشيخ أحمد القطعاني نموذجًا)

د. منتصر حمادة
مركز المغرب الأقصى للدراسات والأبحاث - المغرب

لم تسلم الطرق الصوفية أو العمل الصوفي من معضلة المابعديّات، والتي نعاينها في المنطقة العربية والعالم الإسلامي مع بعض أنماط التديّن، من قبيل الحديث عن ما بعد السلفية أو ما بعد الإسلام السياسي، بصرف النظر عن حضور مؤشر المابعديات هذا، لكن الشاهد هنا أن العمل الصوفي يمر من تحديات وإكراهات موزعة مع تفرعات إيجابية وسلبية، تفسر من جهة اعتناق بعض الأوربيين وغيرهم للإسلام عبر بوابة التصوف، هذا عن الشق الإيجابي ضمن أمثلة أخرى من قبيل انفتاح نسبة من شعوب المنطقة على التصوف، لكن تفسر من جهة ثانية انفصال بعض أتباع العمل الصوفي، حتى لو تعلق الأمر بنسبة قليلة أو متواضعة – عن الانتماء للطرق الصوفية بالتحديد، دون أن يُفيد ذلك الانفصال عن العمل الصوفي، ومن هنا الحديث عن «ما بعد الطرقية»، وإن كانت الظاهرة في مرحلة جنينية، ويصعب التكهّن بمصيرها، لكن نعتقد أن مواقف الرموز الصوفية في المنطقة توجد ضمن المحددات المؤثرة في مصير الظاهرة سالفة الذكر.

في هذا السياق نتوقف عند نموذج تطبيقي من هذه المواقف، ويهم آراء واجتهادات الصوفي الليبي أحمد القطعاني، صاحب العديد من الإصدارات من كتب ورسائل، ونتوقف هنا عند نموذج من هذه الرسائل؛ لأنها تحيل على معضلة حقيقية مرت منها الطرق الصوفية خلال العقد الماضي، مباشرة بعد اندلاع أحداث يناير 2011م في المنطقة، أي أحداث «الربيع العربي» عند البعض أو أحداث «الفوضة الخلّاقة» عند البعض الآخر.

نقول هذا أخذًا بعين الاعتبار مقتضى فرضية مفادها: أن تلك الأحداث ساهمت في إحداث تحولات لدى الفاعلين في الخطاب الديني، ونقصد بالخطاب الديني في هذا السياق، جميع الفاعلين الدينيين، سواء تعلق الأمر بأداء المؤسسات الدينية التابعة للدولة الوطنية، أو قل: المؤسسات المعنية بصيانة السياسات العامة لدول المنطقة، أو الخطب الديني المُجسّد في الحركات الإسلامية، بتفرعاتها الثلاثة: الدعوية والسياسية والقتالية أو المسماة «جهادية»، ومعها التيارات السلفية، وبالطبع الطرق الصوفية.

بالعودة إلى الرسالة المعنية هنا بالمقالة، وتهم إحدى أعمال الشيخ أحمد القطعاني، فقد جاءت تحت عنوان «حي على الجحاد»، ومؤرخة في 30 تموز/ يوليو 2003م، ومن المهم جدًّا استحضار السياق الزمني المرتبط بنشر المقالة، أي في صيف 2003م، سنتان تقريبًا بعد منعطف اعتداءات نيويورك وواشنطن في 11 أيلول/ سبتمبر 2001م.

الموضوع الذي تطرق إليه الشيخ أحمد القطعاني موضوع حساس جدًّا حينها على أكثر من صعيد، خاصة أن المنطقة العربية كانت تعيش على إيقاع ضغوط أمريكية بخصوص تعديل المناهج التعليمية ومنها المناهج الدينية، إضافة إلى شنّ الإدارة الأمريكية حربًا مفتوحة في أفغانستان، وكانت هذه الحرب سببًا لظهور جديد من «الأفغان العرب» بعد الجيل الأول الذي ظهر بُعيد الغزو السوفياتي لأفغانستان في

سنة 1979م، وبالرغم من ذلك يُحسبُ للشيخ أحمد القطعاني خوض هذه المغامرة.

افتتح مقاله بتوضيح لُبس قد يسقط فيه قارئ الرسالة بخصوص ثنائية الجهاد والجحاد، معتبرًا أن الحديث عن الحجاد لا يفيد أننا إزاء خطأ مطبعي؛ لأن هذه الأخيرة «تفيد إنكار الشيء مع العلم بوجوده، تمامًا كمن يرى بأم عينه مليوني حاج على عرفات ويقول: لم يعد على الإسلام حقيقة سواي وأصحابي، فهو من أرباب الجحاد بلا شك».

عرّج الشيخ أحمد القطعاني بعد بعض تبعات العديد من الاعتداءات الإرهابية التي مرت منها المنطقة مباشرة بعد اعتداءات نيويورك وواشنطن، سواء في السعودية أو المغرب، منتقدًا المتورطين في هذه الاعتداءات، وقاصدًا بذلك التيارات الإسلامية التكفيرية بالتحديد.

استعرض الشيخ أحمد القطعاني بعد ذلك تجربة سابقة له بخصوص مناظرة أحد رموز الخطاب الإسلامي الحركي في نسخته المتطرفة أو المتشددة، وجرى ذلك بمصر في مسجد سيد المرسلين بالعاصمة المصرية القاهرة، وبالتحديد في حي إمبابة الذي يُعتبر من أحياء الهامش والفقر، وكان يتميز بحضور وازن للجماعات الإسلامية، ومن القضايا التي تطرقت إليها المناظرة، مسألة استباحة أموال غير المسلمين في مصر وسلبها، مستشهدًا بفتوى (أو رأي فقهي في الواقع، لا يهم إلا صاحبه) صدرت عن الشيخ عمر عبد الرحمن، زعيم تنظيم «الجهاد» حينها، والذي أفتى بحرمة ذلك، فكان تفاعل أحد رموز التطرف الديني في المسجد نفسه، إخبار أتباعه بإيقاف المناظر بحجة أن الشيخ أحمد القطعاني قبوري، في إحالة على مرجعيته الصوفية، وهذه تهمة جاهزة عند أغلب أتباع التديّن السلفي الوهابي، مع أن المقصود هنا لا يخرج عن زيارة قبور الأولياء والصالحين، لولا أن تزييف الوعي الذي مارسته العديد من الجماعات الإسلامية في المنطقة العربية خلال العقود الماضية - أنتج لنا خطاب التشدد هذا، الشاذ ثقافيًّا عن هوية ومعالم تديّن أغلب شعوب المنطقة نفسها.

الملاحظ في السياق التاريخي للمناظرة، أنها جرت بين 1991م و1992م، أي عقد قبل منعطف اعتداءات نيويورك وواشنطن، حيث كانت الجماعات الإسلامية تشتغل في الهامش، بعيدًا عن أعين المسؤولين، ويُحسب للشيخ أحمد القطعاني في هذه الجزئية، أنه كان منخرطًا نظريًّا وعمليًّا في التصدي النظري لخطاب هؤلاء، بخلاف العديد من الرموز الدينية، بما فيها رموز المؤسسات الدينية؛ لأننا لم نعاين انخراط هؤلاء إلا بعد منعطف اعتداءات 11 سبتمبر من جهة، وبدرجة متواضعة حينها، قبل معاينة تحول كَمّي ونوعي سنوات قليلة بعد منعطف أحداث 2011م، لكن جرت تحولات صادمة مست العديد من دول المنطقة، بسبب توظيف بعض القوى الإقليمية للوزن الإسلامي الحركي، في سياق تفعيل صراعات استراتيجية بين بعض هذه الدول، ومن نتائج هذا العبث باسم الدين أننا سنعاين انضمام بعض الدول العربية إلى خانة الدول الفاشلة، وتوجد اليمن في مقدمة هذه الدول ضمن أمثلة أخرى.

نقرأ في الرسالة نفسها (والتي تستحق أن تدرس في المؤسسات الدينية لكي يأخذ طلبة العلم في هذه المؤسسات فكرة حول أدوار العمل الصوفي) تحذيرات صريحة بخصوص تبعات انتشار الفكر الديني «المتطرف ومساوئه وما يجره على المسلمين من ويلات وهلاك»، مذكرًا القارئ بأن أصل هذه المعضلة بما صدر يومًا عن محمد بن عبد الوهاب الذي يرى في كتاب له يحمل بعنوان «كشف الشبهات» أن «شرك المسلمين أغلظ من شرك عبادة الأصنام»، إلى غاية محطة تأليف كتاب «الفريضة الغائبة» للداعية المصري المتشدد عبد السلام فرج، مؤسس أعنف الجماعات الإسلامية المتطرفة في العصر الحديث، وأعمال أخرى صدرت عن الحركات الإسلامية المتشددة أو المتطرفة.

من بوسعه أن ينكر أهمية العمل الصوفي في التصدي لخطاب التطرف

الممارسة باسم الإسلام؟ ومن بوسعه أن ينكر القلاقل النظرية والميدانية التي تسببت فيها العديد من الجماعات الإسلامية في المنطقة، قبل وبعد أحداث 2011م؟.

رسالة الشيخ أحمد القطعاني ضمن رسائل وكتب أخرى تعتبر نموذجًا تطبيقيًّا، بخصوص أهمية المسؤولية الأخلاقية والعلمية الملقاة على عاتق العديد من الرموز الصوفية في المنطقة العربية على الأقل، وبالأحرى رموز العمل الصوفي في محور طنجة ــ جاكارتا، بخصوص مواجهة شتى الانحرافات الفكرية والسلوكية، سواء كانت صادرة عن مرجعية دينية أو عن مرجعية مادية (من قبيل المرجعية «الحداثية» أو «العلمانية»).

بل نزعم أن تحديات المابعديات سالفة الذكر أعلاه، ومعضلة «سيولة المفاهيم» بتعبير عالم الاجتماع زيغمونت باومان، أو ميوعتها، ظواهر الإلحاد النفسي أو الإلحاد الثقافي، ضمن قلاقل وتحديات أخرى تواجهها المنطقة العربية، تفرض المزيد من اليقظة عند أهل العمل الصوفي، وهم أهل لذلك، ومنذ قرون مضت.

والله أعلم.

قراءة في كتاب (وداعًا أيتها الدموع) قصص قصيرة للشيخ / أحمد القطعاني

د. علي محمد عليان الخطيب

أستاذ بجامعة المنيا - مصر

الملخص

لما كان كتاب «وداعًا أيتها الدموع - قصص قصيرة» الذي ألّفه الشيخ القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة المهمة التي مرّ بها الشيخ القطعاني عبر مراحل حياته بداية من طفولته حتى وفاته عام 2018م، فقد استنتج الباحث أن غرض الشيخ القطعاني ليس فقط سردها من أجل التسلية ومعرفة محتوياتها ولكن من أجل تدبر العظات والمعاني التي تنطوي عليها. تنحصر هذه القصص في ثلاث عشرة قصة جاءت مرتبة على النحو الآتي: وداعًا أيتها الدموع، وحيدة في حقول الشوك، إنهم يقتلون الآمال، دموع لا تجف، حبيبتي، أهذا أنت أم قناع ترتديه؟، أين أنتم؟، هي، دماء الخطيئة، خيرية، عيد، الجدار الناقص، والأستاذة أمينة.

أراد الباحث أن يستنطق كل قصة من هذه القصص من أجل معرفة العِبَر والعظة التي يريد أن يخبرنا بها الشيخ القطعاني، خصوصًا وأننا نرى أن الشيخ القطعاني لم

يعرض -كما قلنا- هذه القصص للتسلية كما يظن بعض الناس، وإنما لكي ينقل لنا مجموعة من العظات والعِبَر التي يمكننا أن نتعلم منها عبر مراحل حياتنا المختلفة، علاوة على ذلك، فإن الباحث يرى أن معظم العبر والعظات التي يريد أن ينقلها لنا الشيخ القطعاني لنا لها أساس قويم في كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ﷺ ومن ثَمَّ جاءت هذه الدراسة التي بين أيدينا من أجل تحقيق الهدف الذي ذكره الباحث من ذي قبل.

الكلمات المفتاحية: حقول الشوك، حبيبتي، دماء الخطيئة، خيرية، عيد، الجدار الناقص، سالم.

المقدمة

تم نشر كتاب «وداعًا أيتها الدموع - قصص قصيرة» بدار بشرى وكلثوم عام (1439هـ/ 2018م). ولقد ألف الشيخ العديد من المؤلفات الأخرى، منها على سبيل المثال لا الحصر: مختارات من غناوي البادية (أدب شعبي الذي ألفه العلّامة عام1972م)، والقطب الأنور عبد السلام الأسمر الذي ألفه عام 1992م، والأربعون العيساوية الذي تم جمعه عام 2018م ...إلخ.

ويقع كتاب «وداعًا أيتها الدموع - قصص قصيرة» في 83 صفحة من القطع الكبير. وإذا كان الشيخ القطعاني -كما قلنا من قبل- لم يسرد القصص بهدف التسلية، وإنما لكي يرسي بعض القيم الإيجابية التي ينبغي علينا التحلي بها (العظات والعبر)، فإنه لم يُشر إشارة صريحة ومباشرة إلى تلك القيم والمبادئ التي ينبغي علينا التحلي بها، وإنما جعل القارئ يستنتج هذه القيم والمبادئ من خلال قراءته لكل قصة.. وعلى أية حال، فإن الباحث يرى أن الشيخ القطعاني ينظر إلى الدنيا على أنها فانية وفي مقابل ذلك ينظر إلى الآخرة على أنها دار بقاء وخلود، وسوف يحقق فيها الإنسان ما لم يحققه في دنياه؛ إذ ينظر الشيخ القطعاني إلى الدينا على أنها دار زائلة

فانية تعطي البشر وعودًا كثيرة، ولكنها -للأسف- لا تفي لبعض البشر إلا بوعد واحد فحسب، بل وعيد واحد وهو العذاب الدنيوي. وتأكيدًا على صدق هذا الادعاء الذي يزعمه الباحث، نجده يرى أن الشيخ القطعاني قد اهتم في كتابه الذي نحن بصدده بسرد مجموعة من القصص القصيرة الواقعية التي عاصرها الشيخ بنفسه، والتي تؤكد جميعها على صدق زعمه سالف الذكر.

لذا جاءت هذه الدراسة من أجل التعرف على فكر الشيخ القطعاني من خلال تحليل قصص «وداعًا أيتها الدموع - قصص قصيرة»، وكذا من أجل عرض ما يحويه الكتاب من قصص قصيرة حدثت بالفعل، وما ترنو إليه هذه القصص القصيرة الواقعية من معانٍ وقيم بليغة ينبغي علينا تأملها لمعرفة طبيعة الدنيا الفانية. وتحقيقًا لهذا الهدف الذي ينشده الباحث فسوف يعتمد في هذه الدراسة على المنهج التحليلي؛ من أجل تحليل هذه القصص القصيرة الواقعية التي سردها الشيخ القطعاني، ومعرفة بعض القيم البليغة التي تهدف إليها كل قصة من القصص القصيرة الواقعية التي سردها الشيخ القطعاني في كتابه سالف الذكر.

قصة «وداعًا أيتها الدموع».

يرى الباحث أنه من الممكن أن نتعلم من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يوجهها لنا الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- الاهتمام بجيراننا مثلما يخبرنا ربنا ﷻ في كتابه الكريم، ورسوله الكريم ﷺ في كثير من الأحاديث النبوية.

- حرص النساء، ولا سيما الطالبات في مراحل حياتهن التعليمية المختلفة، على أن يخفضن من أصواتهن عندما يتواجدن في الأماكن العامة.

- التأنّي في اختيار أزواج بناتنا، والتأكيد على أن المعيار المناسب للزوج الملائم هو الدين، وليس المال كما يتوهم الكثير من البشر.

- الإقرار بأن كافة العادات والتقاليد والأعراف يمكن أن تتغير من وقت لآخر، ولعل ما يؤكد على ذلك هو أن أسرة «ربيعة» بطلة هذه القصة والتي كانت -كما سوف نرى عبر السطور الآتية- تمنع «ربيعة» من الخروج من البيت بعد طلاقها من زوجها، ولكن مع مرور الوقت وتغير بعض العادات والتقاليد والأعراف سمحت أسرة «ربيعة» لـ «ربيعة» بالخروج من البيت، كما سمحت لها الظهور بملابس جيدة خلاف ما كانت عليه «ربيعة» من ذي قبل.

- الصبر على البلاء، والإيمان بالله ﷻ، وعدم اللجوء إلى السحرة والنظر إليهم على أنهم المنقذون للبشر مما قد يصيبهم من هم وغم وحزن ...إلخ.

- الرضا بالقدر خيره وشره، وما قسم الله لنا وأن نعيش حياتنا كما هي، وألا نجري وراء السراب الخادع.

حقًا هذه هي القيم التي يستنتجها الباحث من قصة «ربيعة» التي تدور أحداثها حول فتاة تدعى «ربيعة»، ولكنها للأسف ليست بـ «ربيعة»؛ ذلك لأن الشيخ القطعاني يرى أن كل حياتها كانت عناءً؛ لذا قررت «ربيعة» قطع علاقتها بالمجتمع الذي كان لا يقدرها كما ينبغي أن تكون.

ثم يصف لنا شيخنا القطعاني «ربيعة»، حيث يخبرنا بأنها كانت في ريعان الصبا ذات وجه خمري لطيف، وتسير مع صديقاتها ويتحدثن في كل شيء، وكان شيخنا القطعاني تلميذًا في الصفوف الابتدائية يسير معهن، غير أنهن لا ينتبهن له أصلًا، وكان يعرف عنهن كل شيء دون أن يدرين.

غير أن الشيخ القطعاني قد أخبرنا باختلاف بطلة هذه القصة «ربيعة» عن بقية صديقاتها، حيث كانت تهتم به، ولكن «ربيعة» كبِرت وتوقفت عن الدراسة مثلها في ذلك مثل العديد من الطالبات الأخريات في ذلك الوقت؛ انتظارًا لابن الحلال وحلم

كل فتاة الذي تحلم به على أن يكون مثلًا: جميل الشكل ولديه سيارة ويرتدي ملابس أنيقة ويمتلك منزلًا جميلًا...إلخ.

غير أن «ربيعة» تزوجت من أول طارق لباب دارهم، وأخذها إلى بيته فترة بسيطة جدًا، ورجعت بلقب «مطلقة»، ذلك اللقب الذي غير حياتها رأسًا على عقب؛ حيث عاشت حياتها -بعد رجوعها من بيت زوجها- حياة جعلتها غريبة حتى على نفسها؛ ذلك لأن المجتمع قد ابتعد عنها وكأنها مصابة بمرض معدٍ والعياذ بالله، وهذا هو ما أكدت عليه «ربيعة» ولا سيما عندما تقابلت مع الشيخ القطعاني حينما كان عائدًا من مدرسته الإعدادية.

ثم أصبح الشيخ القطعاني لا يراها؛ نظرًا لانتقاله إلى «درنة»، ولكنه أخبرنا بأنها قد تغيرت بعض الشيء نظرًا لتغير عادات مجتمعها، حيث سمح لها بالخروج واللبس إلى حد ما ...إلخ.

وفي إحدى المرات رآها الشيخ القطعاني مصادفة، غير أنه حاول الابتعاد عنها حتى لا تراه؛ وحيث كانت في أسوأ حالاتها، وكأنها متسولة على قارعة الطريق، إذ تبدلت أحوالها لدرجة أنها كانت تكلم نفسها وتشير بأيديها منفعلة وكأنها في حوار ساخن مع آخرين ولم يهتم بها أحد قط، فأودعوها في مستشفى الأمراض النفسية ونسوها هناك. ثم في أحد الأيام لفظت آخر أنفاسها وحيدة في منزل أسرتها القديم وارتاحت وأراحت الجميع.

قصة «وحيدة في حقول الشوك».

يستنتج الباحث من هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يوجهها لنا الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- ينبغي على الزوجة أن تصبر على موت زوجها -لا قدر الله- وأن تكافح من أجل تربية أولادها، وألا تتركهم مهما كلفها الأمر.

- أن يهتم المعلم بترغيب التلاميذ فيه؛ وإلا فكيف يريد المعلم أن يعلم تلاميذه وهم له كارهون؟.

- ألا ينساق الزوج وراء الآخرين، وأن يكون رجلًا بمعنى الكلمة أمام زوجته، وأن يكون غيورًا على أهل بيته، وألا يكون ضعيف الشخصية كما سوف نرى خلال هذه القصة.

- الاستماع إلى أبنائنا وبناتنا جيدًا ولا سيما عندما يكون لديهم بعض المشكلات؛ حيث إن الباحث يرى أنه لو استمع عم «آمال» بطلة هذه القصة لها ونصحها لكانت حياتها قد تغيرت كثيرًا عما حدث لها.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من خلال قراءته لقصة «وحيدة في حقول الشوك» التي تدور أحداثها حول الطفلة «آمال» التي تحاول أن تتذكر ملامح أمها الحقيقية إلا أنها لم تستطع، حيث رجعت أمها -بعد وفاة والدها- إلى القاهرة، وتركت «آمال» في عامها الثاني وديعة عند أهل زوجها، وتحديدًا عند جدها وجدتها من ناحية الأب، ولكنهما للأسف غادراها سريعًا وتركاها لأعمامها وعماتها الذين فرحوا بها في البداية، ولكنهم لم يرغبوا في إقامتها معهم فيما بعد.

ونظرًا لأن «آمال» لم تجد وقتًا للاهتمام بالتعليم فكانت دائمًا ما تعاقبها المعلمة وتوبخها بأقصى الألفاظ، الأمر الذي أدى إلى تغيبها عن دراستها وتركها للتعليم في سنٍّ مبكرة، وتحديدًا حينما كانت في الصف الرابع الابتدائي، وتفرغت لعمل المنزل وخدمة عمها وزوجته وأولادهما بكل ما تحويه الكلمة من معنىً. وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يعاملونها معاملة سيئة ولا يهتمون بها مطلقًا، ورغم ذلك لم تتألم أو تتذمر بل كانت سعيدة وعلى الرغم من تفانيها في عملها كشغالة مجانية في بيت عمها، إلا أنهم منُّوا عليها وزوجوها لأول طارق باب وقد فرحت به كثيرًا، وكان

متزوجًا من ابنة عمه التي طلقها بعد عدة أشهر، ولكنه كان رجلًا ضعيف الشخصية ولا يغار على أهل بيته، وهذا كان سببًا مباشرًا في كونها مطمعًا لكثير من أهله رغم كونها متوسطة الجمال، حيث كانوا يغازلونها وكانت تخبره بما يحدث معها وما تتعرض له من معاكسات، غير أنه كان لا يبالي بكلامها على الإطلاق. وللأسف لم يتحسن وضع زوجها فكرهته كرهًا مقيتًا، وبدورها تركت بيت زوجها على أمل أن ينصفها غير أنه وللأسف لم يستمع لها مطلقًا بل أجبرها على الرجوع إلى زوجها، فكبرت فوق سنها لدرجة أن من ينظر إليها يحسب أنها فوق السبعين عامًا رغم أنها لا تتجاوز الأربعين عامًا من عمرها، كما أصيبت بالكثير من الأمراض المزمنة وظلت على تلك الحال عمرها بأكمله.

قصة «إنهم يقتلون الآمال».

توصل الباحث من خلال تلك القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يحثنا عليها الشيخ القطعاني؛ كي نتبعها في حياتنا، لعل من أبرزها:

- الاهتمام بأطفالنا وأن نهيئ لهم كافة السبل لكي يعيشوا حياتهم، أقصد حياة المرح واللعب، وألا نجبرهم على العمل وعدم استمتاعهم بطفولتهم؛ ذلك لأن الطفل غير ملزم شرعًا أو قانونًا بالإنفاق على الأسرة، وإنما يتوجب على رب الأسرة -وتحديدًا الرجل- أن ينفق على أسرته وأطفاله. علاوة على ذلك، ينبغي علينا أن نعلم بأن إنفاق الطفل على أسرته من بيع الدخان أو سواه يعد عملًا لم يقره شرع الله على الإطلاق. وهذا هو ما حثنا عليه رسولنا الكريم ﷺ حينما قال: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول، وشر الناس المضيق على أهله**».

- الإقرار بأن أطفالنا أمانة ينبغي علينا المحافظة عليهم، وأننا سوف نحاسب عليهم حال تقصيرنا معهم. من ثم ينبغي علينا توجيههم إلى السلوك القويم، وتدريبهم

على التعامل مع الحياة العصرية بحواسبها وشبكات الإنترنت وفضائياتها المرئية، ومطالعة الكتب والصحف والتردد على المكتبات والمتاحف.

- الوقوف بجوار المظلوم ومحاولة نصرته.

- الاهتمام بتربية النشء؛ حتى لا يفسد الجيل وتنهار آمال البلاد، وحتى لا تظهر السرقات داخل المجتمع، وجنوح الأحداث وتعاطي المخدرات وحبوب الهلوسة. من ثم ينبغي علينا حثّ أطفالنا على التسلح بالعلم والإيمان ومعرفة أمور دينهم من صلاة وصيام وتلاوة لكتاب الله، وتقوية ملكاتهم وقدراتهم في مجال العمل المرموق المحترم.

هذه هي القيم التي استنتجها الباحث من القصة التي تدور أحداثها حول طفل لا يتجاوز الأربعة عشر عامًا من عمره، وقد ظهرت عليه آثار التعب والإرهاق الشديدين؛ نظرًا لعمله الشاق في السوق، حيث كان يعمل حمّالًا يحمل البضاعة على ظهره. ولكن في إحدى المرات قد اعترض طريقه بعض الشباب وأخذوا منه ما معه من مال وضربوه ضربًا مبرحًا، من ثم طلب هذا الطفل من الشيخ القطعاني أن يذهب معه إلى هؤلاء الشباب كي يساعده على استعادة ما أخذوه منه وفروا به؛ ذلك لأنه لو لم يرجع ومعه المال (سبعة دنانير) سوف يضربه والده ويعاقبه عقابًا شديدًا.

وللأسف كان والده معلمًا؛ لذا تعجب الشيخ القطعاني من أمر والده، وسأل نفسه سؤالًا مهمًا مؤداه: ماذا يفعل هذا المعلم المجرم مع تلاميذه خصوصًا وأنه حول ابنه البائس إلى كائن غريب لا يعرف في حياته التي لا ربيع فيها إلا الخريف، ولا يرى الألوان إلا اللون الأسود، ولا يشم أي رائحة فيها إلا رائحة القمامة. لذا وجدنا الشيخ القطعاني لم يتحمل هذا الموقف الفظيع الذي يجعلنا نحرم أطفالنا من طفولتهم ونجبرهم على العمل منذ نعومة أظافرهم. وبالتالي وجدنا الشيخ القطعاني يتوقف عن الكتابة في هذه القصة، ويبعد كثيرًا عن هذا العالم القاسي الذي وقوده الأطفال والحجارة.

قصة «دموع لا تجف».

يتوصل الباحث من خلال هذه القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- عدم التجبُّر على مخلوقات الله تعالى والاستعلاء عليهم ولا سيما كبار السن والأطفال والسيدات.
- التضحية بكل ما هو غالٍ وثمين من أجل أمان وسلامة أبنائنا.
- عدم حرمان أبنائنا الصغار من حقهم في التعليم.
- ينبغي أن نعلم أن زوجة الأب لا تحب أبناء زوجها على الإطلاق.
- تشجيع كل رجل أو امرأة فقيرة تبيع في الأسواق؛ من أجل أن تنفق على أولادها. من ثم يجب علينا ألا نبخس من ثمن بضاعاتهم شيئًا بل نعطيهم ثمنها وأكثر حتى ندخل السرور والفرح عليهم، وهذا هو ما حدث بالفعل مع الشيخ القطعاني -كما سوف نرى- عندما اشترى من السيدة التي كانت بسوق «دسوق» بجمهورية مصر العربية.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من قصة «دموع لا تجف» التي تدور أحداثها حول أربعة أمور مهمة مرّ بها الشيخ القطعاني، جاءت مرتبة على النحو التالي: الأمر الأول: وهو الذي حدث معه في بنغازي عام1970م، والذي يدور حول بائع مسكين كفيف من بنغازي تقوده ابنته التي لا تتجاوز العاشرة من عمرها، حيث كان ينادي على بضاعته التي يحملها وكانت ابنته ترى له. وفي يوم كالح لا صبح له، مرت سيارة مسرعة يقودها شاب متهور لا يحسب للناس حسابًا ولا يقيم لهم وزنًا فصدم البائع المسكين فتناثرت بضاعته على الأرض وتحت عجلات سيارته.

وللأسف كان الرجل يزحف على ركبتيه -والدماء تغطي وجهه- لا ليجمع بضاعته أو يداوي جراحه، وإنما ليبحث عن ابنته، والابنة المسكينة طريحة الأرض لا تحرك ساكنًا، وبشق الأنفس استطاع والدها من الوصول إليها فاحتضنها وانهار باكيًا.

أما الأمر الثاني: فقد حدث في بنغازي أيضًا ولكن في عام 1981م، وتدور أحداثه حول ذهاب الشيخ القطعاني إلى رجل كان للشيخ حاجة عنده، وكان ذلك الرجل يسكن مع شقيق الشيخ القطعاني. ومهما يكن من أمر، فلما ذهب الشيخ القطعاني إلى ذلك الرجل إذا بطفلة في الثانية عشرة من عمرها تفتح له الباب وتقول له: إن والدي قد توفي ورحلت أمي إلى جمهورية مصر العربية موطنها الأصلي، وأنا أعيش مع عمي الذي يجبرني على العيش معه، ويجبرني على ترك مدرستي. من ثم، تسبب عمها في تحولها من طفلة بريئة إلى خادمة له، ذلك الأمر الذي نتج عنه إصابتها بكل أمراض الدنيا.

ويتمثل الأمر الثالث: الذي حدث في درنة عام 1988م، والذي تدور أحداثه حول معلمة في درنة كانت تخشى ربَّها، فلاحظت أن أحد تلاميذها في أوائل المرحلة الابتدائية لا يتجاوب مع زملائه ولا يلعب معهم ويحرك رجليه بصعوبة بالغة. فحاولت المعلمة سؤال التلميذ عن: ما السبب الذي أدى بك إلى هذه الحال؟، فقال التلميذ: إن زوجة أبي وأبي يضرباني بسبب تبولي اللاإرادي. وبالتالي، أخبرت المعلمة المديرة فاستدعت والد الطفل، إلا أنه رد عليهم وباستنكار: هذا ابني وليس لكم دخل بي في تربيته!.

أما الأمر الرابع والأخير: فقد حدث مع الشيخ القطعاني أثناء زيارته لمصر، وتحديدًا في مدينة «دسوق» عام 1991م، حيث كان الشيخ القطعاني في زيارة لمصر لزيارة أولياء الله الصالحين، وتحديدًا في دسوق فلاحظ أن هناك شابة تجلس بالسوق في العشرين من عمرها مهلهلة الثياب حافية القدمين تبيع قلالًا فخارية للشرب، فنادى عليها فجاءت إليه مسرعة. وما أن جاءت إليه حتى وجد في عينها آثارًا

للحزن والمرض واليأس فاشترى منها قلالًا لا يعرف عددها وأعطاها مبلغًا من المال لا يعرف قدره، ففرحت به وقالت كلامًا لم يكن يعرفه لأنه كان مشغولًا بالألم النفسي الذي حدث له عندما رأى هذه الشابة بهذا المنظر البائس.

قصة «حبيبتي».

يستنتج الباحث من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي أخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- إن فقدان الولد -لا قدر الله- يعد من أصعب المصائب التي يتعرض لها بعض البشر.

- ضرورة المحافظة على أبنائنا؛ إذ إنهم نعمة الله التي ينبغي علينا شكرها، كما ينبغي علينا ألا نقسو على أبنائنا وأن نشبعهم حبًا وحنانًا وودًّا وأمانًا، وأن نحتضنهم لأنهم زينة الحياة الدينا.

- أن نختار لبناتنا من يداوم المحافظة على حفظ كتاب الله؛ ذلك لأن كتاب الله أثمن من المال والذهب بل ومن كنوز الدينا كلها.

- عدم الاعتراض على حكمة الله، والرضا بقضائه وقدره خيره وشره، والصبر على بلائه والشكر لجوده.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من قصة «حبيبتي» التي تدور أحداثها حول «هاجر» أبنة الشيخ القطعاني التي ولدت عام 1991م، ولكنها فارقت الحياة بعد نجاحها في الصف الثالث الإعدادي، الأمر الذي غير مجرى حياة الشيخ القطعاني من الأحسن إلى الأسوأ. والجدير بالذكر أن الشيخ القطعاني قد حزن على فراق ابنته حزنًا شديدًا لدرجة أنه بعد موتها طلب منها أن تسامحه إن كان قد قصر في حقها يومًا، كما قرر ترك منزله لأنه كان يحمل ذكريات جميلة مع ابنته (هاجر).

قصة «أهذا أنت أم قناع ترتديه؟».

توصل الباحث من خلال هذه القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يخيرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- أن الإنسان وحده -أيّ إنسان- هو أكثر البشر معرفة بذاته، فقد يكون الإنسان سعيدًا أو حزينًا ولا يشعر به أحد إلا ذاته. من ثم، فإن ما يظهر من الإنسان من تصرفات سواء أكانت سلبية أو إيجابية، لا يمكن أن تعبر عما بداخله في بعض الأحايين.

- ينبغي علينا حسن الظن بالآخرين.

- ألا نغتاب أحدًا في غيابه؛ ذلك لأن مثل هذا التصرف يجعلنا نقترف إثمًا عظيمًا، وهذا هو ما حذر منه رسولنا الكريم ﷺ.

هذه هي القيم التي استنتجها الباحث من قصة «أهذا أنت أم قناع ترتديه؟» والتي تدور أحداثها حول قصة يرويها الشيخ القطعاني تتخذ صورًا عديدة، من أبرز هذه الصور: الصورة الأولى: وهي التي تتعلق بشاب يبلغ الثلاثين من عمره، وكان متحيرًا في سلوك أمه؛ نظرًا لما كان يسمعه عنها، لدرجة أنه فكر في قتلها، ولكنه لم يجد الفرصة لإنجاز ذلك. من ثم، طلب ذلك الشاب من الشيخ القطعاني أن يساعده في منع كل من يتحدث عن أمه، حيث توجه الشيخ القطعاني إلى الذين يتحدثون عن أمه، بيد أنهم قالوا للشيخ القطعاني إنهم لا يتحدثون عن أمه خصوصًا وأنها امرأة عجوز ووقور وتقارب السبعين من عمرها، وكل ما يقوله ابنها الشاب هو مجرد خيال محض. لذا طلبوا من الشيخ القطعاني أن يعرض ذلك الشاب على شيخ فسافر به أخوه إلى أحد السحرة، غير أنه لم يجد الساحر في منزله.

ومع مرور الوقت ساءت حالة ذلك الشاب الصحية حتى اضطر أهله لحجزه في دار موصدة لا يخرج منها، فصارت حياته الخاصة أشبه بحياة البذخ والسفر ولكنه

عالم خاص به لا يشاركه فيه سواه، أما في عالم الواقع فأهله يستعدون للسفر به إلى الخارج ويحملونه للمصوراتي لتجديد جواز سفره فصارت صورته جميلة جدًا وهو جالس أمام الكاميرا أنيق الهندام والواقع عكس ذلك تمامًا.

أما الصورة الثانية: من القصة التي يرويها الشيخ القطعاني فتتعلق بـ «امرأة» ذات وجه غير متناسق وكثير التجاعيد وغير متزنة فهي تارة تقذف الأحجار على المارة، وتشتمهم بأقذع الألفاظ تارة أخرى. وإن أطفالها الثلاثة قد تعودوا سلوكها الغريب، ولكن جارهم البدين الذي كانت تكرهه كان يفسد خلوتها. وذات مرة أخذ ابنها وحمله إلى منزله حيث قامت ابنته بغسل شعره ورجليه وخرج الطفل في يد جارهم وهو مطمئن ليلتقط له صورة في بداية عامه الدراسي الأول، وأعطاه تلك الصورة وهو فرح وقد خرجت تلك الصورة في شكل جميل.

قصة «أين أنتم؟».

يستنتج الباحث من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- مهما عشنا في الدنيا، فسوف نرحل منها لا محالة.
- الموت هو سر خفي لا نعرف حقيقته حتى أيامنا تلك.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من قصة «أين أنتم؟» التي تدور أحداثها حول رغبة الشيخ القطعاني في زيارة المقابر، خصوصًا وأنه كان يتقابل هناك مع الكثير من أقربائه وأصحابه وأحبابه الذين سبقوه إلى دار البقاء، كما كان يتقابل مع ابنته التي ماتت غريقة في سن الرابعة عشرة من عمرها.

قصة «هي».

يتوصل الباحث من خلال هذه القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- ينبغي علينا التوجه إلى الله، خصوصًا كلما تضيق علينا الدنيا.
- ينبغي علينا التأمل في أحاديث رسول الله ﷺ لما فيها من راحة نفسية ولا سيما عندما نمرّ بكرب شديد.

حقًا، هذه هي القيم التي يستنتجها الباحث من قصة «هي» والتي تدور أحداثها حول ابنة الشيخ القطعاني «أمل» التي كانت تعمل طبيبة، والتي كان يحكي لها الشيخ القطعاني همومه وما يعانيه من ظلمة ووحشة من ليله الطويل الذي لا ينتهي. وعلى الرغم من ذلك، فكلما كان يضيق صدره يتأمل في أحاديث رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنه كان ينظر إلى تلك الأحاديث على أنها الصدر الحنون الذي يلقي عليه المكروبون رؤوسهم ليبكوا حتى يُذهب الله عنهم ما يشكون منه.

قصة «دماء الخطيئة».

يستنتج الباحث من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- تجنب رفقاء السوء.
- ضرورة متابعة أولادنا وبناتنا أولًا بأول.

- استحالة إقامة علاقة حب مع أشخاص غرباء إلا في إطار شرعي وقانوني وأمام الأسرة وفي وضح النهار حتى لا تحدث الكارثة.

- أن نغفر لكل من يقع في الخطيئة -شريطة إعلانه الصريح للتوبة-؛ ذلك لأن الله نفسه غفور ورحيم يغفر لكل من يخطئ ويقع في الرذيلة.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من خلال هذه القصة المعنونة بـ «دماء الخطيئة» والتي تدور أحداثها حول «شابة» عمرها ثمانية وعشرون عامًا يغازلها شاب آخر، ولكنها لا تهتم به في بداية الأمر، غير أنه يصر على التقرب منها وإقامة علاقة معها خصوصًا وأن لديه خبرة -لابأس بها- في التأنق بالثياب الحديثة وتمشيط شعره بالكريمات، وحفظ الأغاني الرومانسية وحفظ أسماء المطربين والمطربات.

غير أن هذه الفتاة أخبرت صديقاتها بهذا، فنصحوها بضرورة التجاوب مع هذا الشاب، بل قُمْن بتشجيعها على ذلك بحجة أنه لا زواج دون حب، ولا يصح الزواج دون حب أولًا.

لذا استمعت الشابة لهن، وتجاوبت مع هذا الشاب الأنيق وتقابلا سويًا وأخبرها بعواطفه الجياشة تجاهها، فوقعت معه في الرذيلة، ثم بدأت تشعر بغثيان وقيء وتعب، فأبلغت حبيب القلب بأنها قد حملت منه ووعدها بأنه سوف يكون قريبًا منها ولا يتخلى عنها على الإطلاق. غير أنه سرعان ما يحاول الابتعاد عنها ولم يُعْرها اهتمامًا. فأبلغت أسرتها والشرطة معًا، حيث دونت له في قسم الشرطة محضرًا، فحضر وتزوجها ولكنه طلقها بعد شهر واحد فقط من إنجابها لطفلة جميلة اسمها «مستورة». وبدورها عادت إلى بيت والدها، ولكنها رأت عجب العجاب، حيث كان ينفر منها كل أفراد أسرتها وأصدقائها وجيرانها. كما أصبحت ضيفًا غير مرغوب فيه في كل المناسبات الاجتماعية، فمرضت وماتت وتركت ابنتها «مستورة».

قصة «خيرية»

يستنتج الباحث من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- الإنسان وحده هو الذي يشعر بنفسه، أما الآخرون فلا يشعرون به أصلًا.

- ينبغي علينا الولاء التام لمن نحب، ففي هذه القصة -التي سوف نتحدث عنها عبر السطور الآتية- نجد أنه على الرغم من قرب انتهاء أجل «خيرية» بطلة هذه القصة، إلا أنها قد ضمت محفظتها على صدرها بقوة؛ حتى لا يأخذها منها أي شخص ويعرف ما بداخلها من ذكريات جميلة مع مَنْ تحب، إلا أن الموت منعها من تحقيق رغبتها تلك.

هذه هي القيم التي توصل إليها الباحث من خلال هذه القصة المعنونة بـ «خيرية»، والتي تدور أحداثها حول «خالة» الشيخ القطعاني أخت أمه، وهي «خيرية» التي أصيبت بجلطة، وعانت منها لمدة خمسة عشر عامًا وكانت لا تستطيع أن تتحرك أو تتكلم، حيث كانت مستلقية على ظهرها طوال هذه الفترة، وعلى صدرها محفظة لا نعرف ما بداخلها. وكانت تحب زوجها وهو يحبها كثيرًا «عبد الباسط»، ولكنه مات بعد زواجهما بثلاث سنوات، وقد أنجبت منه ابنة تدعى «ليلى» وابنًا يدعى «نويجي»، ثم تعرضت لوعكة صحية فماتت ولم تترك وراءها إلا محفظتها، فقام الأهل بفتحها ولم يجدوا فيها مالًا كما كانوا يظنون، ولكنهم وجدوا فيها رسائل حب متبادلة بينها وبين زوجها.

قصة «عيد».

توصل الباحث من خلال هذه القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يريد أن يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- أن نبرّ آباءنا في حياتهم وكذا بعد مماتهم.

- أن نترك أحزاننا جانبًا، وأن نعيش أيامنا بحلوها ومرها، وألا نتذكر الأحزان وقت الأعياد؛ ذلك لأنه في يوم العيد يتحتم علينا أن نفرح وندخل السعادة والسرور على أهل بيتنا وكل من نعرفهم.

- يتحتم علينا معرفة أن النساء أنواع: نوع يسعدك بصحبته ويشقيك إلى الأبد بفراقه، ونوع آخر يشقيك بصحبته ويسعدك إلى الأبد بفراقه.

هذه هي القيم التي يستنتجها الباحث من خلال هذه القصة المعنونة بـ «عيد»، والتي تدور أحداثها حول «منصور» الذي كان وما يزال يبرّ والده حتى مماته، حيث كلما ضاقت عليه الدنيا يزور والده في قبره، ويتحدث معه وكأنه حي. وفي إحدى زياراته المتكررة لأبيه يجد رجلًا أنيقًا عمره ما يقارب السبعين اسمه «عيد». وعلى أية حال، يجلس «منصور» على مقربة من هذا الرجل فيسأله «منصور»: لماذا تأتي إلى المقابر؟، فيرد عليه ويقول: لكي أزور قبر «مريم» التي كانت خطيبة أخي الرجل المسن الذي مات في حادث، أي أخو «عيد»، لذا تزوجت من شخص آخر وأنجبت منه «ابنًا»، ثم هجرها زوجها، وظلت «مريم» مع الرجل المسن إلى أن توفيت في عمر السابعة والأربعين من عمرها.

وكانت «مريم» قد اتفقت مع أخت هذا الرجل المسن «سليمة» على فتح مطعم لصنع المأكولات، وبالفعل تم هذا فقرروا جميعا شراء منزل يعيشون فيه مع بعضهم

البعض، ولكن الموت فرق بينهم، فقد ماتت «مريم» وسافر ابنها للعمل في البترول، ثم ماتت «سليمة».

كما أن الرجل المسن قد طلق زوجته بعد تسعة أعوام من الزواج، والتي لم تنجب شيئًا، ولكنها تزوجت بعده، وأنجبت غير أنها توفيت بعد زواجها الثاني، والجميع مدفون في نفس المكان، لدرجة أن الرجل المسن كان يكره الأعياد؛ نظرًا لموت كل رفقائه وكونه يعيش وحيدًا.

ومع مرور الوقت دخل هذا الرجل المسن في علاقة عاطفية مع امرأة أخرى، وكانت تحبه حبًا جمًا، وتزوج منها وعاش معها أجمل أيام حياته، فتوجهت لزيارة بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، ولكنها توفيت هي وابنها في شهره السادس أثناء رجوعها من أداء فريضة الحج، فحزن عليها حزنًا شديدًا.

قصة «الجدار الناقص».

يستنتج الباحث من خلال هذه القصة عددًا من القيم المهمة التي يريد أن يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- ينبغي على الإنسان ألا يحزن، وهذا يتطلب منه أن يسلم أموره كلها لله فحسب.

- أن نضع في حسباننا أن كثرة الهم والحزن يجعلان الإنسان يتوهم أمورًا غريبة.

تلك هي القيم التي توصل إليها الباحث من خلال هذه القصة المعنونة بـ «الجدار الناقص»، والتي تدور أحداثها حول امرأة عمرها ما يقارب الأربعين أو يزيد

قليلًا، وكانت نحيفة البنية، طويلة القامة يظهر على وجهها آثار التعب والإرهاق الشديدين. وعلى أية حال، فقد جاءت هذه المرأة إلى الشيخ القطعاني لكي تشكو الظلم الذي وقع عليها من أشقائها ومعلماتها وزميلاتها في المدرسة عندما كانت طالبة، حيث كانوا يسخرون من ثيابها ومنظرها وضعف استيعابها، ومن زوجها الذي لم ترَ منه إلا كل قسوة، ومن أولادها الذين كبروا ويعاملونها معاملة سيئة جدًا، كما لو كانت مثل الكلب الأجرب.

وقد جاءت هذه المرأة إلى الشيخ القطعاني لكي تخبره بالرؤية التي تراها في نومها، وهي أنها في بيت كبير وحجراته خالية الأثاث، ولكن توجد به مرآة دائرية معلقة في أحد الجدران، وهناك أيضًا امرأة لا تبتسم ولا تتكلم وإنما هي صامتة جامدة الملامح بلا أي تغيير على وجهها المألوف لها جيدًا، غير أنها لا تعرف من هي؟ وأين عرفتها؟ وكيف ومتى عرفتها؟، كما لا تستطيع أن تحدد اسمها رغم معرفتها الأكيدة لها. وهي تمسك بيدها اليمنى مفتاحًا واليد الأخرى كف طفلة أكبر من العاشرة وتناديها باسمها، ثم تردد وتقول: «أنا عطشانة اسقيني». ثم تحاول المرأة تلبية طلبها، ولكنها لم تستطع؛ إذ تجد المسافة بينهما كبيرة. ثم قفزوا جميعًا في الهاوية وهم في أشد الخوف والهلع ويطلبون يد العون، لتجد الطفلة متعلقة بعرق شجرة وتمسك بثوبها وتشده بقوة ويأخذها ويقعون جميعًا في الهاوية. أما المرأة فإنها ملقاة على الأرض تتخبط في دمائها، وأما المفتاح الذي كان في يدها اليمنى فقد انتقل ليكون في يدها اليسرى وهي لا تدري كيف حدث هذا؟.

غير أن الشيخ القطعاني سألها: أرجوك تذكري من هذه المرأة؟، فتذكرت وقالت: أنا يا سيدي الشيخ، حيث كنت ملقاه على الأرض ودمي ينزف، لدرجة أن الثوب الذي كنت أرتديه في الرؤيا عرفته. أما الطفلة فما زالت واقفة عند رأس جثتها النازفة وتقول لي: «أنا عطشانة اسقيني». ثم قال لها الشيخ القطعاني: هل من الممكن

أن تصفي الطفلة؟، فقالت أشعر بكونها مخلوقًا غريبًا يثير الاشمئزاز يظهر لي في صورة طفلة بريئة.

قصة «الأستاذة أمينة الفرع».

توصل الباحث من خلال هذه القصة إلى عدد من القيم المهمة التي يريد أن يخبرنا بها الشيخ القطعاني، لعل من أبرزها:

- قد نودع بعض الأحبة بسبب موتهم، ولكنهم يظلون بجوارنا جميعًا، لأن أرواحهم تعانقنا.
- مهما حاول الإنسان ترك الماضي وتجاهله، فلا يمكن للماضي ذاته أن يتركه.
- يظل قلب الإنسان مستمرًا في النبض والحب، حتى لو مات.

هذه هي القيم التي يستنتجها الباحث من خلال تلك القصة المعنونة بـ «الأستاذة أمينة الفرع»، التي تدور أحداثها حول السيدة «أمينة» التي كانت تعمل في مركز يمنح القروض للمقترضين، وتتميز هذه المرأة بأنها كانت تخدم الكل بحكم أن كل ما يطلب منها الخدمة يسكن على مقربة منها من ناحية، وأن الجميع يعيشون في مكان واحد وتجمعهم علاقات وطيدة من ناحية أخرى. وعلى أية حال، ففي إحدى المرات دخل عليها رجل يدعي «سالم» كان يريد أن ينهي طلبًا خاصًا بابن عمه بشأن اقتراض ابن عمه مبلغًا من المال من المركز الذي تعمل به الأستاذة «أمينة». ولما حضر إليها تذكرت قصة حبها القديمة مع «صالح» رحمة الله عليه، لدرجة أنها أطلقت العنان لنفسها وتخيلت أنها تقابلت معه وحدثت قصة حب واقعية. غير أن السيد «صالح» لم ينه الطلب الذي جاء من أجله، حيث طلبت منه الحضور في يوم آخر لاستكمال الأوراق الخاصة بطلب ابن عمه، توطئة لأخذ القرض الذي أتي من أجله.

وعند مجيئه في المرة الثانية أسرعت «أمينة» إليه واحتضنته فاجتمع كل من يعمل معها، وقالوا للرجل «سالم»: إنها تمر بظروف نفسية صعبة وحالات اكتئاب وبكاء شديدين، فاستر عليها؛ لأنها عندما حضنتك كانت تعتقد أنك حبيبها «صالح» رحمة الله عليه، فرد السيد «سالم» وقال: الكل عندما يراني يتذكر «صالحًا» رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث كان يشبهني كثيرًا، لدرجة أن الجميع يعتقدون أنه قريبي.

الخاتمة:

توصل الباحث من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة مهمة من النتائج، لعل من أبرزها ما يلي:

- قدم الشيخ القطعاني مجموعة من القصص التي مرّ بها عبر مراحل حياته بدءًا من الطفولة حتى الشيخوخة؛ كي نستفيد منها من ناحية، وكي تذكرنا بضرورة الالتزام بالتعاليم التي يأمرنا بها الله ورسوله ﷺ من ناحية أخرى.

- يتساءل الباحث: لماذا خلا كتاب الشيخ القطعاني المعنون بـ «وداعًا أيتها الدموع: قصص قصيرة» من وضع مقدمة؟ هل لأنه ليس بحثًا أكاديميًّا أو دراسة؟ وأن هدفه كان الانتقال بالقارئ مباشرة إلى القصص التي ترك للقارئ أن يستنتج العظات الكامنة فيها؟.

- استنتج الباحث أن الشيخ القطعاني لم يهتم -عمدًا- في كتابه المعنون بـ « وداعًا أيتها الدموع - قصص قصيرة» بكتابة الخاتمة؛ وذلك من أجل أن يجعل القارئ يستنتج العبرة أو العظة التي يمكن أن يتوصل إليها من خلال قراءته للقصة من ناحية، وكي يطلق العنان للقراء بأن يستنتجوا ما يشاءون من العبر والعظات التي تتلاءم معهم كأشخاص، وكذا التي تتلاءم مع مجتمعاتهم من ناحية أخرى.

- لاحظ الباحث أن الشيخ القطعاني ينظر إلى الدنيا على أنها دار شقاء وهمٍّ، وأن السعادة الحقَّة سوف تكون في الآخرة دار البقاء، وهذا ما أكده الشيخ القطعاني

من خلال مقولته الشهيرة التي كان يرددها كثيرًا في كتابه المعنون بـ «وداعًا أيتها الدموع – قصص قصيرة»، وتحديدًا المقولة التي تنص على «تعطي الدنيا للأحياء فيها وعودًا كثيرة، ولكنها لا تفي لبعضهم إلا بوعد واحد فقط هو العذاب ... فيا ويلهم».

• يلاحظ الباحث أن جميع القصص التي تضمنها كتاب الشيخ القطعاني قد حدثت عبر مراحل زمنية متعددة من ناحية، كما كانت متعلقة بمواقف حياتية واجتماعية وإنسانية مرّ بها الشيخ القطعاني أو أحد الأشخاص الذين تربطهم به أو لا تربطهم به علاقة من ناحية أخرى، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشيخ القطعاني أراد أن يقدم لنا خلاصة العظات والعبر التي استفاد منها، والتي ينبغي علينا الاستفادة منها مثله.

• وأخيرًا، يلاحظ الباحث أن الشيخ القطعاني يتميز بنزعته الصوفية المحضة عبر عرضه لكتابه «وداعًا أيتها الدموع – قصص قصيرة»، ذلك لأننا نراه يشير لنا من خلال كل قصة يسردها إلى أن الدنيا دار فناء، في حين أن الآخرة هي دار البقاء.

كتاب: أعلام الطريقة العيساوية للشيخ أحمد القطعاني
قراءة وعرض

د. عبد العزيز عموري
باحث في قضايا التاريخ الديني - المغرب

ملخص

حاولنا من خلال هذا الورقة قراءة مضامين كتاب: أعلام الطريقة العيساوية للمؤرخ العلّامة أحمد القطعاني، قراءة تركيبية لفصول ومحاور هذا الكتاب، وفق أربعة محاور أساسية. ويندرج هذا المؤلف ضمن سلسلة الدراسات والمؤلفات التي يصدرها مركز العلّامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بليبيا.

كلمات مفتاحية: التصوف، الطريقة العيساوية، ليبيا.

مقدمة

صدر للمؤرخ العلّامة أحمد القطعاني، سنة 2019م كتاب بعنوان (أعلام الطريقة العيساوية)، عن دار النشر بشرى وكلثوم، يقع في 408 صفحة. استهله الشيخ بمقدمة عامة، موضحًا فيها حدود هذا المؤلف من حيث عدم شموليته لجميع أعلام

هذه الطريقة الصوفية، وذلك راجع لطول عمر الطريقة (خمسة قرون متتالية) وكثرة الآخذين عنها وعن شيوخها، وبواعث اتجاهه للنبش في تاريخ الزمن الطويل لهذه الطريقة، حيث أجملها في افتقاد الخزانة التاريخية الصوفية لكتاب يؤرخ للمدرسة العيساوية الصوفية وخريجيها. وعن باقي محتويات الكتاب، فقد جعلها مؤرخنا في أربعين موضوعًا، قبل أن يختتمه بسرد لمجموعة مصادر تاريخية تهم الطريقة العيساوية.

يعد هذا المؤلف إضافة علمية ونوعية ليس فقط للخزانة الليبية، بل للخزانة المغاربية عمومًا، لسد النقص الحاصل في تاريخ التصوف المغربي عامة والطريقة العيساوية على وجه الخصوص، التي عمرت طويلًا في الزمن التاريخي المغربي. وسنحاول من خلال هذه القراءة، التي نتشرف بتقديمها، أن نكشف من خلالها عن الأهمية التاريخية لهذا الكتاب كمدخل للحديث عن زاوية وطريقة اكتسبت مكانة مرموقة في السياق الصوفي المغربي، ولما كان هذا دافعنا من تسطير هذه القراءة، فقد جعلناها في أربعة محاور أساسية:

المحور الأول
على مستوى المضامين

تنبع أهمية الكتاب الذي بين أيدينا من كونه يضم تعريفًا بأربعين عَلَمًا (40) ينتمون للطريقة العيساوية، رتبهم المؤرخ القطعاني زمنيًّا، ذاكرًا انتماءاتهم الجغرافية المشكلة من عشرة دول هي: المغرب، ليبيا، الجزائر، تونس، الشام، مصر، تركيا، أمريكا، إيطاليا، فرنسا. وهي محاولة من المؤلف للتأريخ للطريقة العيساوية من بوابة الشخصيات التي صنعت مجدها وشهرتها، وجعلتها تتبوّأ مكانة مرموقة في المشهد الصوفي المغاربي، وضبط انتشارها وأسانيدها وامتداداتها الجغرافية، وهذا مع العلم

أن هذه الطريقة التي عمرت لأكثر من خمسة قرون متتالية أكبر من أن تحصر في هذا العدد من الأعلام، والحال أن أكبر معوِّق اعترض صاحب الكتاب، كما يقول هو نفسه في مقدمته[1]، إشكال المصادر التي قد تكون شحيحة، وحتى إن وجدت فهي قاصرة عن الإمساك بخيط تطور الطريقة العيساوية. ومع ذلك يظل الخليط البشري المنتمي للطريقة العيساوية أُسّ الارتكاز في قوة التصوف العيساوي، وضامن استمرارها وانتشارها في المجتمعات التي احتضنت هؤلاء الأعلام.

وقد كان من الطبيعي أن يستهل مؤرخنا كتابه بترجمة مستفيضة لشيخ الطريقة[2]، باعتباره مؤسسها وبانيها[3]، وقد جاءت هذه الترجمة شكلاً ومضمونًا تعبيرًا أمينًا

(1) أعلام الطريقة العيساوية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2019م، ص 8

(2) المصدر السابق، ص 54

(3) ترجم للشيخ الكامل محمد بن عيسى، شيخ الطريقة العيساوية، أكثر من مصدر تاريخي، منها:
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، الشفشاوني ابن عسكر، ص: 75،76.
- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، الفاسي محمد المهدي، ص: 62، 64.
- النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل سيدي محمد بن عيسى، الغزال أحمد بن المهدي.
- ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجدوب، عبد الرحمان الفاسي، ص 63، 96، مخطوط.
- سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية، المنالي الزبادي محمد بن علي، مخطوط.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحـــاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني، طبعة حجرية؛ ج 2.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري، ج6.
- الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم التعارجي السملالي، ج5، ص: 126، 128.
- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان، ج 4، ص 12،11.
- رسالة مخطوطة في مناقب الشيخ الكامل، الغالي العمراني، مخطوط خاص.
- الأنيس الجليل في طريقة ومناقب سيدي محمد بنعيسى القطب الكامل، أحمد الخليفي.
- الشيخ الكامل محمد بن عيسى، أحمد القطعاني.
- معلمة المغرب، 19/ 6545 عبد القادر سعود: الفهدي أبو عبد الله.

على الرغم من كثرة الكتب المناقبية التي تصدت لترجمة هذا الشيخ، فإنها لم تخرج عن نطاق إبراز مكانته الصوفية وأهميته بين خريجي المدرسة الجزولية، ولهذا ظلت جوانب عديدة من سيرته يكتنفها الغموض، وتلك خاصية مشتركة بين كتب التراجم التي غالبًا ما تغفل الجوانب الدنيوية=

عن الأهمية الكبيرة التي احتلها الشيخ سيدي محمد بن عيسى في الوسط الصوفي المغربي، في ظرفية تاريخية جد حرجة بالنسبة لتاريخ المغرب، قبل أن يخوض في حديث تحليلي حول شيوخ التربية الذين تتلمذ على يديهم وأخذ الإذن منهم، وسند الطريقة العيساوية، وتأسيسه لزاويته التي ستصبح منارة صوفية لم ينقطع توهجها منذ أن غرست جذورها في التربة المغربية، ثم العالمية بعد ذلك، بفضل تعاليم هذا الشيخ ونصائحه لمريديه وأتباعه، حيث كانت نبراسًا اهتدوا به في درب السلوك الصوفي.

على هذا النسق، سار الشيخ القطعاني في التعريف بالطريقة العيساوية، من خلال التطرق إلى الشيوخ المقربين من مؤسس الطريقة والذين أخذوا عنه السند وتتلمذوا على يديه، وكان من بينهم الشيخ يوسف الفجيجي[1]، أحد أعضاء مجلس العشرة الذي كان يقود الطريقة في سنواتها الأولى، ومعروف عنه، حسب ما وصلنا عن طريق صاحب «النور الشامل»، أنه كان يساعد سيدي محمد بن عيسى في تدبير شؤون الزاوية، من استقبال للمريدين، وتوفير حاجياتهم، وهو الذي يشير إليه المهدي الغزال في «نوره»: «بكونه يتوفر على تقاييد مهمة، دون فيها كرامات شيخه»، وهي التي نقل عنها كثيرًا، إلا أن هذه الكناشة مفقودة كغيرها من تقاييد عيساوية كثيرة لم يصل إلينا منها سوى اسمها.

ومن أقرب المقربين للشيخ الكامل ذكر المؤلف أيضًا الشيخ أبو الرواين المحجوب[2]، صاحب البركة والكرامة، رئيس مجلس العشرة وأصغر أعضائه

= في حياة الأشخاص، مركزة على أنشطته الدينية وحسب، مما يفرض على أي باحث في قضايا التاريخ الديني، تدعيمها بمصادر أخرى إذا ما أراد تكوين صورة شاملة عن هاته الشخصية الصوفية.

(1) ينظر النور الشامل في مناقب فحل الرجال الكامل سيدي محمد بن عيسى، أحمد الغزال، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة، ط1، 1348هـ، ، ص: 8، 13، 24.

(2) سماه ابن عسكر في دوحة الناشر «محمد» ينظر دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ابن عسكر الشفشاوني، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط2، 1976، ص79. وسماه الفاسي بـ «أبو العباس أحمد» ينظر ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ولما لهما من الأتباع محمد المهدي الفاسي، تحقيق عبد الحي العمراوي، د.ن، 1989م، ص 109. وسماه محمد اليفراني بـ«أبي المحجوب» =

سنًّا[1]، فالشيخ أبو الرواين من أخص تلامذة الشيخ محمد بن عيسى بالنظر لقربه الكبير منه وحبه وإخلاصه لشيخه، وملازمته إياه لفترة طويلة، منذ أن لقيه إلى حين وفاته، إذ كان مكلفًا بالإشراف على رعاية زوار الزاوية وضيوفها العابرين، وهو الدور الذي أهله لاحتلال مكانة متقدمة في تراتبية الطائفة، واعتبارًا لمكانته تلك فقد احتل حيزًا وافرًا في الذاكرة العيساوية إلى وقتنا الراهن.

ومن الشخصيات الأخرى التي أتى على ذكرها المؤرخ صاحب الكتاب نجد الشيخ سيدي محمد بن عمر المختاري، يصفه المؤلف بكونه أكثر مريدي الشيخ الكامل نشاطًا في نشر الطريقة وتعاليمها.

ولم يفُتِ المؤرخ القطعاني الحديث عن وارث سر الشيخ الكامل سيدي الشيخ عيسى المهدي الابن البكر الوحيد لشيخ الطريقة، والذي يعتبر الحلقة الرابطة في سلسلة النسب الكاملي[2]، وقد نال شرف القيادة من بعده بالنظر لكونه كان فقيهًا تقيًّا ومربيًا في الآن نفسه. وتنبع أهمية حديث مؤرخنا عن الشيخ عيسى المهدي، من منطلق أن كتب التراجم لم توفِ هذا الشيخ حقه رغم أهميته في سلسلة سند الطريقة، وتبوِّئه لمنصب كبير في الهرم التنظيمي للزاوية العيساوية، إذ خلف والده في تسيير شؤونها وشؤون مريديها وأتباعها، وهي المهمة التي حقق فيها نجاحًا باهرًا بإسهامه في توطيد ركائز الطريقة ومدّ جذورها في مختلف فئات المجتمع، في ظرفية تاريخية جد حرجة، استعرضت تفاصيلها كتب تاريخ المغرب، سياسيًّا (الصراع السعدي الوطاسي)، واجتماعيًّا واقتصاديًّا (توالي سنوات المجاعة والأوبئة وما خلفته من مآسي لم يسلم منها لا البشر ولا الشجر).

= ينظر نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي، محمد الصغير اليفرني، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت. وراجع ايضا معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، مادة «أبو الرواين أحمد بن حسني»، 13/ 4462.

(1) أعلام الطريقة العيساوية، مصدر سابق، ص 71.

(2) سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية، محمد المنالي الزبادي، م، خ، ع، الرباط رقم ك 247، ص 203.

وفضلًا عما أورده المؤرخ القطعاني عن هذه الشخصية العيساوية الكبيرة، يمكن لي إضافة بعض المعطيات التي بدت لي مهمة في سياق تسليط الضوء على هذه الشخصية العيساوية:

- القدرة الفائقة للشيخ عيسى المهدي في تسيير شؤون الطائفة، التي بلغت آنئذ شهرة متسعة الأطراف، وهذه القدرة راجعة بالأساس إلى العناية التي لحقها من قبل أبيه، الذي تعهده بالتربية مذ كان صغيرًا، ولعله بذلك كان يهيئه لتحمل المسؤولية الروحية من بعده.

- نشوء عيسى المهدي وترعرعه في أسرة دينية، متتبعًا لخطوات والده في نهوضه وقيامه بتدريس العلوم الدينية، أكسبه رصيدًا معرفيًّا كبيرًا، استحق به أحقيته في الإدارة الروحية للزاوية والتصدر لدروس الوعظ والإرشاد والتي درج الشيخ الكامل على تنظيمها في رحاب زاويته، سواء عندما كانت في درب الفتيان بمدينة مكناسة الزيتون، أو عندما انتقل إلى خارج سور المدينة.

- تسلم المشيخة جاء استجابة أولًا لمقتضيات أعراف الصوفية، وثانيًا أنه بلغ حسب منطوق النص، مراتب عليا في مجال التصوف: «وقد فتح الله عليه بالولاية، وحصل منها الحظ الوافر»، وبقدر ما تدل هذه الأوصاف على علوّ مقامه في عالم الولاية، فإنها تحدد المواصفات التي على ضوئها استحق قيادة الزاوية.

يبدو إذن أن مؤهلات الشيخ عيسى المهدي كانت وراء استحقاقه هذا المنصب الروحي -مسؤولية قيادة الطريقة بعد أبيه- بكل ما يتطلبه هذا الأمر من كفاءة واقتدار، خاصة وأن الزاوية بلغت شأنًا كبيرًا في عهد والده، ولم يكن للشيخ عيسى المهدي أن يتفوق في مهمته بالاقتدار المشار إليه، لولا أنه تلقى المساعدة الكاملة من خواص أبيه المقربين الذين عاملوه معاملتهم لأبيه من قبل، حيث كان: «-معظّمًا لأهل الخصوصية من أصحاب أبيه، يُلاينهم، وينزلهم منازلهم، ولا يتعداهم في أمر من الأمور-، منزلًا عندهم منزلة شيخهم»، وبسبب العناية التي أحاطوه بها غدا هذا الشيخ أحد أقطاب

التصوف في القرن 10هـ/ 16م، يشهد له عيساوة في مصادرهم الضنينة بمجهوداته في سبيل الوصول بطريقته إلى مستوى الاستجابة لمتطلبات الظرفية التاريخية التي ظهرت فيها.

على هذا المنوال سار المؤرخ القطعاني في تخطيط ورقات كتابه، إذ يذكر أعلام الطريقة، وسندهم، ومشايخهم، وحياتهم، ومماتهم، وكراماتهم، ورتبهم ترتيبًا زمنيًّا، وصولًا إلى المؤلف[1]، لما لا والشيخ القطعاني تتلمذ وأخذ علي يد كبار الأشياخ في الطريقة بليبيا ومكناس مهد العيساوية ومنارتها العالية، ليأخذ الإذن من كبار شيوخها لتأسيس الزاوية العيساوية الأم بالقطر الليبي الشقيق في بداية ثمانينيات القرن الماضي[2]، ليرسم بذلك لهذه الطريقة خطًّا كرونولوجيا أماط اللثام عما غيب في كتب التاريخ عن هذه الطريقة وإشعاعها ودورها في الحياة الصوفية ليس فقط ببلاد المغرب، بل في عموم أقطار المغرب العربي. هكذا نجد المؤلف القطعاني في كافة محاور الكتاب يستحضر إسهامات هؤلاء الشيوخ الأفذاذ من أجل الاحتفاء بمتعة قراءة تاريخ الطريقة العيساوية.

المحور الثاني

القيمة التاريخية والعلمية لكتاب المؤرخ أحمد القطعاني

لعل من بين البواعث التي دفعتنا إلى اختيار تقديم كتاب «أعلام الطريقة العيساوية» لصاحبه الصوفي الكبير الشيخ أحمد القطعاني[3] كإسهام منا في الكتاب

(1) أعني الشيخ القطعاني المؤرخ الذي نحتفي به في هذه القراءة، والذي كان له الباع الطويل في توطيد أركان الطريقة العيساوية في القطر الليبي.
(2) أعلام الطريقة العيساوية، مصدر سابق، ص 321
(3) لهذا الشيخ عدة مؤلفات تؤرخ للطريقة العيساوية منها:
- الشيخ الكامل محمد بن عيسى. =

الجماعي الذي يعتزم مركز العلّامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بليبيا تخصيصه لهذه الشخصية المحورية في تاريخ التصوف بالقطر الليبي، يمكن ذكر:

1 القيمة التاريخية التي يتصف بها الكتاب، والتي تعود إلى المعلومات التي انفرد بها، ثم الكم الكبير من الأعلام المنتمية للطريقة العيساوية التي عمل المؤلف على إدراجها بين ثنايا هذا المصدر. بالإضافة إلى كون الكتاب -وهذا هو الأهم- يتمم ثغرات ونواقص الدراسات السابقة التي أنجزت حول هذه الطريقة الصوفية[1]، والتي كثيرًا ما كانت تركز على شخصية الشيخ المؤسس، الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى، من دون الحديث بإسهاب عن باقي مشايخ الطريقة، وذلك راجع لقلة المعلومات عنهم، إن لم نقل شحَّها، مع استثناءات طفيفة تتعلق بتوفر معلومات خاصة ببعض الشيوخ من قبيل أبي الرواين، والشيخ عيسى المهدي، كشخصيتين كان لهما تأثير كبير في الطائفة، قد يعادل في بعض الجوانب وزن الشيخ المؤسس ذاته.

من هذه الزاوية أعتبر الكتاب الذي بين أيدينا فاتحة أمل كبيرة من شأنها تتميم ما عجزنا وعجز عنه آخرون في توفير معطيات قمينة بالإمساك بخيط تطور الطريقة العيساوية، فضلًا عن كون الشيخ القطعاني يعتبر صوت العيساويين من زاوية نظر تاريخية، من خلال سعيه الحثيث لنقل أخبار هذه الطريقة من العدم إلى العلن، وانتشالها من بؤرة النسيان إلى دائرة الضوء.

2 شخصية صاحب الكتاب، والكتاب في حد ذاته، كمصدر يمكن إدراجه ضمن دائرة الكتابات العيساوية، ذات الفائدة المطلقة في وضع اليد على بعض القضايا

= - الغوث في اوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث.
- أعلام الطريقة العيساوية.
- الأربعون العيساوية.
- الإجازات العشر.

(1) سبق لنا وأن تقدمنا بأطروحة دكتوراه في التاريخ بكلية الآداب - سايس بمدينة فاس المغربية سنة 2004م، موضوعها التطور التاريخي للزاوية العيساوية منذ التأسيس إلى حدود القرن التاسع عشر.

التي لم يرد ذكرها في المضان التاريخية المغربية. وهذا الكتاب ينضاف إلى مصادر تاريخية سابقة تأتي في الدرجة نفسها من الأهمية بالنسبة لموضوع الطريقة العيساوية، طبعًا مع بعض التفاوتات المصدرية، ومن بينها «النور الشامل لمناقب فحل الرجال الكامل»[1]، و «سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية»[2].

3 كتاب «أعلام الطريقة العيساوية» جاء ليرتق ثغرة، كثيرًا ما عانى منها الباحثون في مجال الدراسات التاريخية التي عنت بتتبع التصوف المغربي، وتحديدًا من ولج غمار دراسة ما يصطلح عليه بـ «التصوف الشعبي»، وليقدم خدمة جليلة لعموم الباحثين والمهتمين بقضايا التصوف المغربي خاصة، والمغاربي بشكل عام. والحال أن هذه الرغبة لم تكن بالأمر الهين، كما كشف عن ذلك المؤرخ القطعاني، بل جعلته يكابد الصعاب ويعاني الأمرّين، في استقصاء المادة التاريخية، التي أتصور أنها كانت متناثرة بين المظان التاريخية، لتحقيق الهدف المنشود، ألا وهو الكتابة عن أربعين عَلَمًا من أعلام الطريقة، من مختلف الفئات والأوضاع الاجتماعية الثقافية والفكرية، وحتى الجغرافية، وهو ما توفق فيه هذا المؤرخ، حيث جعلنا نمسك بخيط التطور التاريخي لهذه الطريقة الصوفية، ونفتح بابها على مصراعيه، لنطل من خلاله على من صنع مجدها، وجعلها علامة فارقة في تاريخ التصوف، ولنستكْنِه أساسيات تطورها زمنيًّا ومكانيًّا، وبشريًّا.

4 بقي أن أشير إلى أن الكتاب الذي بين أيدينا، يمكن إدراجه ضمن جنس التراجم والأعلام، كحقل معرفي من حقول التاريخ الإنساني، اكتسبت أهميتها من كونها تتضمن تعاريف لشخصيات وأعلام من فقهاء ومتصوفة وأدباء، بما هم حلقات من التاريخ الحضاري العام في شتى أبعاده؛ لذلك شكلت هذه المؤلفات إحدى أهم

---

(1) لصاحبة أحمد المهدي الغزال الحميري (ت 1191هـ/ 1778م)، مطبعة الصدق الخيرية، 1348هـ/ 1929م.

(2) لصاحبه المنالي الزبادي (ت 1209هـ)، مخطوط بالخزانة العامة الرباط، رقم ك.247. وقد تم تحقيق هذا المخطوط على يد عبد الحي اليملاحي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2012م.

روافد المعرفة التاريخية، خاصة وأنها تنقل للقارئ مجموعة أحداث ووقائع قد تكون مباشرة وقد تكون مضمرة بين ثنايا التراجم، وتكشف الغطاء عن مجموعة من معطيات ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية وفكرية، كثيرًا ما يتم تجاهلها في كتب التاريخ العام، هذا ناهيك عن تحديد السياقات التاريخية للعصور والفترات التي عاشها الأعلام، واستكناه ما عاشته من ظواهر وقضايا وتحولات.

المحور الثالث

جدوى دراسة الطريقة العيساوية وأعلامها:

ما جدوى أن يطرح باحث ما اليوم سؤال عن جدوى دراسة طريقة صوفية؟ قبل أن نتصدى للجواب عن هذا السؤال، يتعين علينا أولًا الإشارة إلى أن الأمر ليس ترفًا زائدًا يحضر عند الباحث في قضايا التاريخ الصوفي بالمغرب، بل هو نتيجة للانغماس المتواصل في دراسة التاريخ والاحتكاك بمختلف قضاياه، حيث يفرض الأمر علينا الوقوف وقفة كل مرة وحين، وقد تأخذ المسألة راهنيتها كلما طرح بين أيدينا مؤلف جديد في مجال الدراسات التاريخية ذات الصلة بالطرق الصوفية، مثلما عليه الحال مع كتاب المؤرخ أحمد القطعاني، موضوع هذه القراءة.

وعلى هذا الأساس، يمكننا القول إن التناول الأكاديمي للطريقة العيساوية يفيدنا في استرجاع الحديث عن:

أولًا: التقسيمات الإجرائية التي وضعها الرواد الأوائل لتاريخ التصوف في المغرب، بدءًا من النزعات الزهدية التي غطت مدة زمنية ليست بالهينة (امتدت من الفتح الإسلامي إلى حدود القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي)، وهي الفترة التي يقول المؤرخون إنها شهدت قطيعة مع النزعة الزهدية الفردانية، إلى نهج

آخر موحد. ومعلوم أن المؤسسون الأوائل للطائفات والطرق الصوفية الأولى قد تخرجوا من هذه المدرسة. وقد توج هذا المسار ببروز الطريقة الشاذلية التي نسخت ما قبلها من الطرق والأفكار والتوجهات والسلوكات، وغدت المهيمنة في عالم التصوف في المغرب (ابتداءً من القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي)، فترة ظهور ما يعرف تاريخيًّا بالتجديد الجزولي والزروقي، ومعلوم أيضًا أن الجزولية هي الأساس الروحي للطريقة العيساوية إبّان التأسيس في القرن العاشر الهجري، الزمن الذي بدأ فيه نشاط العيساويين[1].

ثانيًا: التعرف على طريقة صوفية استطاعت أن تفرض نفسها في المجتمع المغربي، بإسناد من قاعدة اجتماعية عريضة، أهّلتها للحفاظ على وجودها واستمرارها في وسط صوفي يعج بالمنافسة الشديدة بين مكونات المشهد الصوفي العام بالمغرب، ومن تم تنشيط المجال الذي وجدت فيه روحيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا.

وفي غمرة اهتمامنا بالموضوع، انهمكنا في إعادة ترتيب «أحجار الدومينو»، كيف لا وقد صرنا مقتنعين بأن الطريقة العيساوية، شكلت ومنذ تأسيسها في بداية القرن السادس عشر الميلادي القرن العاشر الهجري بمدينة مكناسة الزيتون، قوة روحية كبيرة في المجتمع المغربي، واستطاعت أن تصل بإشعاعها إلى بلدان مجاورة للمغرب: الجزائر، تونس، ليبيا، من خلال الفروع التي أسسها أتباعه ومريدوه.

إن لمن شأن كتاب الشيخ أحمد القطعاني أن يساهم إلى جانب باقي الدراسات التي أنجزت من ذي قبل، في رد الاعتبار لهذا المكون الصوفي، طريقة وزاوية، ظلت مغيبة من دائرة التأليف التاريخي، وهو وضع لا يتوافق البتة مع تلك الأدوار التي كانت تضطلع بها لفائدة مختلف الفئات الاجتماعية دينيًّا واجتماعيًّا، وفي مختلف المجالات الجغرافية التي وضعت فيها لبناتها.

---

(1) قراءة في كتاب التصوف والبدعة بالمغرب، طائفة العكاكزة لعبد الله نجمي، أحمد الوراث، مجلة المناهل، نوفمبر 2001م، منشورات وزارة الثقافة والاتصال بالمغرب، عدد مزدوج 64-65، ص 582-598.

المحور الرابع
في الحاجة إلى نفس أحمد القطعاني

دراسة المؤرخ أحمد القطعاني انضافت إلى دراسات تاريخية أنجزت حديثًا عن هذه الطريقة ، كل واحد فيها أدلى بدلوه، وقدم استنتاجات حولها، لكن الجديد في الموضوع أن ما ميّز مؤرخنا أنه أخذنا للسفر عبر رحلة طويلة من زمن الطريقة العيساوية، رحلة كلها متعة ونبش في تضاريس طريقة صوفية أنتجت جيلًا ممتدًا في الزمن من الأعلام والشخصيات الصوفية المنتفعة ببركة شيوخ الطريقة، ولعمري إن هذا السفر وحده كافٍ ليضفي على مؤلفنا ميزة ما بعدها ميزة بالاعتماد على كثير من المصادر التي استقى منها المؤرخ الأخبار عن الأعلام التي وردت بين دفتي الكتاب، الذي أعتبره ليس مجرد إنتاج لكلام أكاديمي، بقدر ما هو تفصيل ما أحوج الكتابة الصوفية إليه في النفاذ إلى عمق الطريقة العيساوية ونهجها الصوفي، مع العلم أنه ثقل لا يطاق و لا يحتمل، ولا يدرك صعوبته سوى الباحثين في حقل التصوف، وبالنظر لهذا الثقل حق لمؤرخنا ولمؤلفه أن ينال مصاف العارفين بشؤون وقضايا الطريقة العيساوية وما تطرحه من إشكالات وأسئلة، خاصة لما يتعلق بتتبع خيط الشخصيات التي انتفعت ببركة شيوخ الطريقة.

إنها الشخصيات التي تميط اللثام على قدم هذه الطريقة ورسوخ شيوخها في عالم التصوف، واستقطابها لأنظار شيوخ كُثُر، منهم من عمل على نشر أسس ومبادئ النهج الصوفي العيساوي بالانتماء إلى الطريقة، ومنهم من اتخذ الشيخ الكامل واسطة في بلوغ مرتبة الولاية. المهم أن الكل استفاد من الصيت الذي بلغته الزاوية آنئد، ومن

ورع وتقوى شيخ شهير من مثل: الشيخ محمد بن عيسى ووارث سره الشيخ عيسى المهدي.

لكن التجلي الرئيس الذي عزز قيمة من هذا الكتاب، ودفعنا إلى محاولة تقديمه للقراء إلى جانب ما أوردناه سابقًا، كان هو تصديه لجانب ما ظل بعيدًا عن التناول التاريخي عند الباحثين الذين خاضوا مغامرة البحث التاريخي في شؤون وقضايا الطريقة العيساوية، ونعني به التأريخ لسلسلة شيوخ وأعلام الطريقة، بالنظر للندرة في أخبار الطريقة التي تشترك فيها المصادر التاريخية المغربية، والعيساويين أنفسهم، إذ من خلال الاطلاع على ما وصلنا من آثارهم، نقف على فراغ كبير على هذا الصعيد، وهو موقع لا يتوافق نهائيًّا مع تاريخ طريقة صوفية اضطلعت بأدوار جسيمة في تفعيل المجالات التي انتمت إليها، وسجلت حضورًا بارزًا في مختلف مناحي الحياة روحيًّا، واجتماعيًّا، عبر مشاركتها في التخفيف من وطأة الندرة والكفاف الذي ميز كثير من العصور، ناهيك عن توفير ملاذات آمنة للناس في وقت كان الخوف من المجهول سيدًا، الخوف الذي غدته كثرة الأزمات التي توالت على امتداد الخريطة المغربية، وجعلت الإنسان المغربي يتطلع إلى أي حماية حتى ولو كانت معنوية، ويعارك بشتى السبل للبقاء حيًّا.

لذا نبادر إلى القول -**وبدون أدنى تردد**- إن مؤرخنا مهّد من خلال كتابه هذا السبيل أمام الباحثين للتغلب على نقص المادة المصدرية الخاصة بالبنية البشرية التي تصدت لإدارة الطريقة، وشيوخها البارزين الذين سجل لهم التاريخ حضورًا متميزًا؛ لذلك فكتاب «أعلام الطريقة العيساوية» إنما جاء ليسدّ فجوة من الفراغ في أخبار الطريقة ومنعرجاتها الحاسمة ونقاطها الغامضة، وليزيح بعض الغموض عن العيساويين وأخبارهم الأقل تناولًا في المظانّ، والأقل بحثًا، وليضيف إلى الأبحاث السابقة ما غفلت عن تناوله، إما عجزًا أو عدم رغبة، بالتالي يظل الكتاب خير معبر عن التاريخ العيساوي، وربما صدىً للفعل التاريخي العيساوي في شموليته.

خاتمة:

ومجمل القول لا بد من الاعتراف بأهمية وقيمة هذا العمل الرصين في سياق التناول التاريخي للطريقة العيساوية، والمتجسد في غنى وتنوع المعلومات التي أوردها المؤرخ القطعاني عن هذه الطريقة العيساوية، التي استطاعت أن تنحت تجربة لها أصولها وقواعدها، ومارس شيوخها تأثيرًا بالغًا على عامة الناس؛ إذ غدت القناة التي صبت فيها مختلف شرائح المجتمع همومها ومآسيها، هذا إن دل على شي فإنما يدل على أن دور العيساوية كان مطلوبًا لذاته، سواء في فترات الاستقرار السياسي، أو في اللحظات التي تراجعت فيها سلطة الدولة المركزية، وبهذا المعنى تحولت الطريقة وأعلامها من وعاء يشتمل على أشياء إلى بناء يحتمل معاني ويحمل دلالات.

ولم يكن لهذه الطريقة أن تحوز هذه المكانة لولا أنها اعتمدت على نهج صوفي قائم على المزاوجة بين «المحبة» كمبدأ، و«الحضرة» كسلوك صوفي، واستلهام ما هو مألوف في التصوف المغربي عامة، وابتداع أساليب تأطيرية تتناسب وطبيعة الوسط الحضري الذي احتضن الطريقة.

وإذا كانت باقي الدراسات التي تناولت بالدرس والتحليل السلوك الصوفي العيساوي قد ركزت على شخصية الشيخ المؤسس دون باقي المشايخ والأعلام، فإن المؤلف الجليل الشيخ أحمد القطعاني استطاع من خلال كتابه هذا الإجابة عن الكثير من الإشكالات، وسدّ العديد من الفجوات والثغرات، من خلال رحلته الزمنية في مسار تطور هذه الطريقة، ناقلًا إلينا سلسلة المشايخ الذين أتوا من بعد الشيخ المؤسس الشيخ سيدي محمد بن عيسى، ممن علا كعبهم في حياة هذه المؤسسة الصوفية. وقد سبق وأن أوضحنا أن أخبار الأعلام وأدوارهم تعاني من غياب كبير بين المتون التاريخية، وحتى ما كتب عنها إنما زاد من غموض تاريخ الطريقة وأخبار الشيوخ العيساويين.

فهل آن الأوان بعد كتاب أعلام الطريقة العيساوية، لإعلان تاريخ عيساوي جديد ينشغل فيه المؤرخ بضبط سلسلة شيوخ هذه الطريقة، ومنحنيات تاريخها؟ وهل ستكون مناسبة أخرى لمحاولة تأريخية جديدة ومجددة؟، بعدما نجح أحمد القطعاني في تسطير خط زمني قمين بالكشف عن خصائص وسمات البنية البشرية التي تصدت للقيادة وإدارة الطريقة، ونشر المنهاج الصوفي العيساوي في المجتمع.

الشيء المؤكد أن كتاب الشيخ القطعاني سيساهم ولا شك في الإطلال على ما وراء الجدار في تجربة تاريخ هذا المركز الصوفي وتطوره.

ثبت ببعض المصادر التي نقلت أخبار الطريقة العيساوية لشيخها سيدي محمد بن عيسى:

- المصادر المخطوطة:

- ✓ الإسماعيلي الحسني: رسالة مخطوطة في سيرة الشيخ محمد بن عيسى
- ✓ العمراني الحسني الفاسي محمد الحبيب بن محمد الغالي: رسالة مخطوطة في مناقب الشيخ الكامل، فرغ من تأليفه عام 1321هـ.
- ✓ الفاسي عبد الرحمان بن عبد القادر (ت 1096هـ/ 1685م): ابتهاج القلوب بخير الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجدوب، م، خ، ع، الرباط رقم ك 326.
- ✓ الفاسي محمد المهدي: (ت 1109هـ/ 1698م): تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية، م، خ، ع رقم 76، الرباط.
- ✓ المسعودي: نبراس الأنس على حزب غوث مكناس.
- ✓ المنالي الزبادي محمد بن علي (ت 1209هـ/ 1794م): سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية، م، خ، ع، الرباط رقم ك 247.

- المصادر المطبوعة:

- ✓ الإدريسي الشيباني أحمد: مصابيح البشرية في أنباء خير البرية، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987م.

- ✓ يوسف بن يحيى بن عيسى التادلي (ت 617هـ/ 1220م): **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط 1982م.
- ✓ داوود محمد: **تاريخ تطوان**، المجلد الثالث، المجلد السابع، المطبعة الملكية الرباط، 1990م، منشورات كلية الآداب الرباط 1962م، المطبعة المهدية تطوان.
- ✓ الدكالي محمد بن علي السلوي (ت 1364هـ/ 1945م): **الإتحاف الوجيز**، تحقيق مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة الصبيحية بسلا، مطبعة المعارف الرباط، 1986م.
- ✓ ابن زيدان عبد الرحمان بن محمد العلوي المكناسي (ت 1365هـ/ 1946م): **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، أربعة أجزاء، مطابع إيديال، الطبعة الثانية، 1990، الدار البيضاء.
- ✓ السملالي العباس بن إبراهيم المراكشي (ت 1378هـ/ 1958م): **الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الجزء الثالث والخامس والسادس الرباط 1976م.
- ✓ الشفشاوني ابن عسكر (ت 986 هـ/ 1578م): **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق: محمد حجي، 1976، الطبعة الثانية، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر سلسلة تراجم 1 الرباط 1976.
- ✓ ابن عيشون محمد بن محمد الشراط (ت 1109هـ/ 1697م): **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الأولى 1999، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.
- ✓ الغزال أحمد بن المهدي (ت 1191هـ/ 1178م): **النور الشامل في مناقب فحل**

الرجال الكامل سيدي محمد بن عيسى، الطبعة الأولى، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة 1348هـ.

- ✓ الفاسي محمد العربي بن أبي المحاسن يوسف (ت 1052هـ/ 1642م): **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، طبعة حجرية بفاس 1324هـ/ 1906م.
- ✓ الفاسي محمد المهدي: (ت 1109هـ/ 1698م): **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الأتباع**، تحقيق: عبد الحي العمراوي: 1989م.
- ✓ القادري محمد بن الطيب (ت 1187هـ / 1773م): **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**: تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر أربعة أجزاء سلسلة التراجم 3، (الجزء الأول) 1977، (الجزء الثاني) (1982)، (الجزء الثالث) 1986، (الجزء الرابع)، 1988م.
- ✓ **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى 1983م.
- ✓ الكانوني محمد بن أحمد العبدي الأسفي: (ت 1357هـ/ 1938م) **آسفي وما إليه قديمًا وحديثًا**، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1934م.
- ✓ الكتاني بن جعفر بن إدريس (ت 1345هـ/ 1927م): **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس**، مطبعة حجرية بفاس 1318هـ/ 1900م، ثلاثة أجزاء، مكتبة ابن سودة فاس.
- ✓ الناصري أحمد بن خالد السلوي (ت 1315هـ/ 1897م): **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف، جعفر الناصري ومحمد الناصري، الأجزاء 4-8، الطبعة الثانية الدار البيضاء، مطبعة دار الكتاب 1954م.

- ✓ اليفراني محمد الحاج الصغير بن محمد المراكشي (ت 1140هـ/ 1727-1728م): **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مكتبة الطالب، الرباط، دون تاريخ.

- الدراسات العربية:

- ✓ الخليفي محمد: **الأنيس الجليل في طريقة ومناقب سيدي محمد بن عيسى القطب الكامل**، طنجة1990م.
- ✓ القطعاني أحمد سالم كريم:
- ✓ **الشيخ الكامل محمد بن عيسى**، ليبيا 1992م.
- ✓ **الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى**، مكتبة جمهورية مصر، القاهرة 1995م.
- ✓ **حراس العقيدة**، الطبعة الأولى 1999، نشر مكتبة النجاح طرابلس ليبيا.
- ✓ الشاذلي عبد اللطيف: **التصوف والمجتمع**، نماذج من القرن العاشر الهجري، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، سلا 1989م.
- ✓ لوطورنو روجيه: **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988م.
- ✓ الملحوني عبد الرحمن: **الحكايات الشعبية إشراقات من أدب السلوك**، الجزء الأول، 1997م، مراكش،
- ✓ الورراث أحمد:
- ✓ **الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن 16م**، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، 1988م، مرقونة بكلية الآداب فاس.
- ✓ **الأولياء والمتصوفة ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن 17-18م**، أطروحة دولة في التاريخ مرقونة 1998، كلية الآداب عين الشق، الدار البيضاء.
- ✓ الطريقة الجزولية، **التصوف والشرف والسلطة في المغرب الحديث**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2010.

✓ عبد القادر سعود: مادة: **الفهدي أبو عبد الله**، معلمة المغرب، 19 / 6545، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.

✓ أحمد الوارث: مادة: «التباع»، معلمة المغرب، 7 / 2256، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.

✓ عبد الله نجمي: مادة: «**أبو الرواين أحمد بن حسني**»، معلمة المغرب، 13 / 4462، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.

✓ محمد حجي: مادة «**أحمد الحارثي السفياني**»، معلمة المغرب، ج 10/ 3275، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، سلا.

✓ أحمد الوارث: مادة «**الصغير السهلي**»، معلمة المغرب، ج 15/ 514، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.

- الدراسات الأجنبية:

✓ **Déppond et Coppolni et Xavier, Alger, 1897. Confréries religieuses Musulmanes.**

✓ **Doutté (Edmond), imp. . Martin frères. 1900 les aissaouas à tlemcen.**

✓ **Brunel (René), Essai sur la confrérie des Aissaouas, Paris, librairie orientaliste, Paul Guenther.**

✓ **« La hadra des ISAWA, Cérémonie religieuse où spectacle » , Annuaire de l'Afrique du Nord, XXIII, 1984.**

✓ **Delens André : « la fête des Aissaouas à Meknès » . Revue France Maroc, Janvier 1918.**

✓ **Drague George : « A propos des Aissaouas ». Revue Afrique-Asie, 1960. 99-Dupac Jule : « Les légendes de Sidi Aissa Patron des Aissaouas ». Revue France Maroc, Mars 1925.**

- ✓ Lemanski : « Hypnotisme et Aissaouas ». Revue tunisienne, Organe de l'institut de Carthage, Tome V, N° 171898-.
- ✓ Prosper Ricard :« le Mouloud à Fès» ,Revue France Maroc Mars 1917.
- ✓ Rinn (louis) : Marabout et khouan, Alger, 1884.
- ✓ Paquignon (Paul) : « le Mouloud au Maroc, Note sur les Aissaouas et les Hamadcha », Revue Monde Musulman, 1911
- ✓ Davase (Jules) : Les Aissaouas où les charmeurs de serpents ,1897
- ✓ Déppond octave et Coppolani (X) : les confréries religieuses musulmanes, Alger, 1879

«موسوعة القطعاني» قراءة للوجه الآخر للتاريخ الليبي

أ. أسامة بن هامل
رئيس مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية – ليبيا

ملخص:

يشكل الشيخ القطعاني منعطفًا مهمًّا في تاريخ التصوف بشكل عام، والتصوف الليبي بشكل خاص، فهو من المنافحين عن التصوف وأصالته في الفكر الإسلامي، ومن أبرز المنادين بضرورة إحيائه واستعادة دوره كفاعل مهم يمكن من خلاله مواجهة العديد من التحديات والمستجدات وإيجاد الحلول المناسبة والناجزة لها، مستشهدًا في ذلك بأدواره الحضارية الكبيرة في تفاصيل التاريخ الليبي والعربي والإسلامي.

لقد كتب الشيخ[1] العديد من المؤلفات، وخطب وحاضر في العديد من المناسبات في ليبيا وفي العديد من الأقطار والبلدان حول العالم، للتأكيد على قدرة الصوفيين على جواب أسئلة أزمانهم، وفقًا للتصور الذي يطرحه حول ديناميكية التصوف القادرة على التماهي مع مشكلات كل عصر بطرح مشاريع إصلاحية، مستشهدًا بالعديد من الأمثلة الناجحة التي فرضت نفسها في واقع تاريخ ليبيا، ومبْرِزًا خلالها أدوار الصوفيين كفاعلين في خلفيات حَرَاك المجتمع على مرّ تاريخه،

(1) من الآن وحتى نهاية هذه المقالة سأستخدم اختصار «الشيخ» للدلالة على حديثي عن العلاَّمة أحمد القطعاني.

وجوانب أهملتها كتب التاريخ التقليدية والرسمية التي غرقت في تدوين تاريخ البلاط والسلاطين والدول المتوالية على البلاد.

كلمات مفتاحية: القطعاني، الموسوعة، التاريخ، المدونة، التصوف، ليبيا.

والحقيقة التي يدركها الواقف معي على أعمال الشيخ التاريخية أنها تستدعي دراسات أوسع وأعمق؛ ولذا يصعب في هذا المقال تناول رؤيته الخاصة به لقراءة التاريخ الليبي المغايرة للقراءات السائدة في الدراسات والأبحاث الليبية الأخرى، فأعماله -حسب رأيي- تفتح أبوابًا واسعة لمجالات البحث الأخرى، لصلة القضايا التي طرقها وأرّخ لها بميادين البحث في: الاجتماع والجغرافيا والأنثروبولوجيا والاقتصاد والقانون وغيرها، وبفروعها النظرية والمعرفية والديمغرافية والاقتصادية والحضرية والريفية والسياسية وغيرها، وكل ذلك يستدعي توسعًا لا تستوعبه مساحة هذا المقال.

لكل ذلك سيكون حديثي مركّزًا حول نماذج من القضايا التي تناولها الشيخ في أحد أهم أعماله، وهي موسوعة التاريخية «موسوعة القطعاني: تاريخ ليبيا الإسلامي منذ الفتح الإسلامي وحتى عام 2000م»[1]، وسأجتهد في التوسع في بحث بعضها لتوضيح ما أرمي إليه من أنّ فهم الخلفيات الصوفية للكثير من الأحداث والوقائع والشخصيات في التاريخ الليبي يساعد بشكل كبير في تفسيرها، وبغياب تلك الخلفيات ترتبك قراءاتنا الصحيحة لها.

التصوف عند الشيخ القطعاني

وقبل كل شيء وحتى لا يختلط على القارئ معنى التصوف لدى الشيخ بما انطبع في الأذهان من تصورات سلبية؛ بسبب ما يُشاهد من ممارسات عامة المنتسبين للطرق الصوفية - لا بد من الوقوف مليًّا أمام ما يعنيه الشيخ بالتصوف، فهو عنده «مدرسة إصلاحية وهو ما فهمته بعد دراستي أعلامه ومناهج طرقه، فرأيت ذلك بوضوح وما أنا إلا سائر على نهجهم العميم مقتدٍ بسلوكهم القويم»[2]، واستنادًا

(1) طبعت طبعتها الأولى عام 2011م بدار الغريب بالقاهرة، في أربعة مجلدات، وهي الطبعة التي سنعتمد عليها في دراستنا هذه.

(2) موسوعة القطعاني، ج4، ص 243.

لدراساته المعقمّة للتاريخ الليبي أطلق مقولته التي صدّر بها موسوعته: «تاريخ ليبيا هو تاريخ التصوف»(1)، وعمل على إثباتها في أجزائها الأربعة بالأدلة والشواهد الصريحة.

التصوف شكل ثقافة البلاد وبنى هويتها

لم يكتفِ الشيخ بالعمل على التأصيل الشرعي لقضايا التصوف في إطار دفاعه عن أصالة التصوف في الفكر الإسلامي(2)، بل كثّف جهوده في أعمال أخرى لتأصيل التصوف تاريخيًّا في عمق جذور تاريخ ليبيا، فنّبه على ارتباط أضرحة الصحابة بمعاقل التصوف المتناثرة حولهم(3)، وتوسع بشكل كبير في شرح وتوثيق أصول الثقافة الليبية الثلاث: المذهب المالكي والاعتقاد الأشعري والتصوف، فاعتنى في الأصل الأول بدراسة تاريخ العالم الطرابلسي علي بن زياد (ت 183هـ)؛ كونه «أول أهل الرواية والإسناد في كل المغرب العربي وعميدهم ورائدهم ومعبِّد طريقهم ومنتهى علومهم وأسانيدهم، وأول من أدخل موطأ الامام مالك والمذهب المالكي إلى المغرب العربي، أول من فسّر في المغرب العربي قول مالك وما كانوا يعرفونه»(4)، وفي الأصل الثاني اعتنى بدراسة تاريخ العالم الطرابلسي عبد الله الشعاب (ت 243هـ)، وأثبت أنه أول رموز التصوف في كل إفريقيا(5)، وقريبًا من الفترة التي ظهر فيها الشيخين:

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 7.

(2) من كتب العلاّمة القطعاني المعروفة في الدفاع عن التصوف «الحجة المؤتاة في الرد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله»، صدرت أولى طبعاته في مصر عام 1991م، ثم تكاثرت طباعته حتى زادت عن 15 طبعة في مختلف البلدان العربية والإسلامية.

(3) للتوسع في هذه القضية ينظر كتاب الشيخ القطعاني: الإهابة بمن دفن في البلاد الليبية من الصحابة، مكتبة النجاح، طرابلس، 1994م.

(4) موسوعة القطعاني، ج2، ص 185.

(5) ينظر موسوعة القطعاني، ج1، ص 69 وما بعدها، فقد عقد الشيخ القطعاني فيها مبحثًا مطولاً أثبت فيه أن عبد الله الشعاب هو أول صوفي في كل أفريقيا بعد أن دحض فيه حجج المؤرخين التي تتحدث عن أن أول صوفي ظهر في إفريقيا هو ذو النون المصري في مصر، مشيرًا إلى أن معاصرة الشعاب لذي النون المصري لا تخدم افتراض أنّ التصوف ظهر في ليبيا ومصر في آن واحد، =

ابن زياد والشعاب رصد محطات بدء انتشار الاعتقاد الأشعري وهو الأصل الثالث.

وسار تشكل الثقافة الليبية وبناء هويتها فيما بعد بالتدرج حتى انصهر في بوتقة واحدة في العصور التالية، ويشهد لذلك كتاب «قواعد التصوف» للإمام زرُّوق، الذي كشف في عملية أصولية عن الصلة الوثيقة بين المذهب المالكي والاعتقاد الأشعري والتصوف، وإن كان بقية عنوان هذا الكتاب: «على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة» يوضح مقصد الإمام زرُّوق منه، إلا أننا نلاحظ أنه استخدم فيه تعبير «الطريقة» دون تعبير «الطرق»، للدلالة على أن مضمون كل الطرق الصوفية في ليبيا قد أصبح واحدًا من خلال استمرارها على أُسس الأصول الثلاث، ويظهر ذلك أكثر جلاءً في عنونته لكتابه بـ «قواعد التصوف» لا بقواعد الطريقة الزرُّوقية.

واستمرت عناية الشيخ القطعاني بدارسة هذه الجوانب الخاصة بالمدرسة الصوفية الليبية، مبينًا العديد من العوامل التي سهلت استقرارها على أسس الأصول الثلاث، ومنها أنها مدرسة تميزت بعملية نقد ومراجعة مستمرة للحافظ على نقاء أصولها، وتنقية وسطها من الشوائب الدخيلة عليها، ومن أشهر شواهد ذلك كُتب الإمام زرُّوق مثل كتاب «عدة المريد الصادق» الذي ردّ فيه على الشبه الداخلة على التصوف التي أحدثها بعض المنتسبين للطرق في التصوف الليبي، وهذه المراجعات رافقتها ثقافة أخرى كان لها دورها المهم في استمرار مركزية الأصول الثلاث في عملية البناء المتواصل لهوية البلاد، وهي ثقافة الحوار والنقاش، ومن أمثلتها المناظرات التي

= فالعوامل التي توفرت في طرابلس للشعاب ساعدته على نشر التصوف فيها، بخلاف ذي النون الذي عاش وسط تضييق كبير من قبل السلطة وظروف لم تساعده على نشر التصوف، أما في المغرب فلم يظهر التصوف إلا في القرن السادس الهجري على يد الشيخ أحمد بن العريف، وفي الأندلس في القرن الرابع العجري على يد ابن مسرة، وبعدهما ظهر في تونس والجزائر. وفي موضع آخر يضيف الشيخ القطعاني دليلًا على عَرَاقة التصوف في ليبيا وقدمه ببقائه مستمرًا ومسندًا بسلسلة من الرواة منذ عصر الشعاب وحتى العصر الحالي؛ إذ يؤكد انفراده بروايته لسند صوفي ليبي متصل بالشعاب. للتوسع حول هذا السند، ينظر: أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2021م، ج2، ص 351.

امتلأت بها سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر مع معارضيه[1]، والحوارات الواسعة التي دارت بين أتباع الطريقة الناصرية من جانب وأتباع الطريقتين العروسية والمدنية من جانب آخر[2]. وبسبب التزام المدرسة الليبية خطًّا واحدًا ومتطورًا في ذات الآن، لم يخرج المنتج الليبي من حقول الفقه والعقيدة والتصوف في الأغلب مع تطور مضطرد في مضمونه.

«التراجم»، و«الأسانيد» من الوثائق البديلة في موسوعة القطعاني

للشيخ القطعاني منهجه الخاص في الكتابة التاريخية، فهو يقرأ التاريخ من منظور صوفي عميق؛ إذ يضع التصوف الإنسان في مركز الحدث وتدور عليه كافة أحداثه[3]، ولذا فهم يقرأون التاريخ من خلاله عكس مدارس التاريخ الأخرى التي تعتبر الأحداث هي من تؤثر في الإنسان وتوجه مواقفه وتصنع واقعه بفعل العديد من العوامل المتفرقة أو المجتمعة.

وتتجلّى مركزية الإنسان في الحدث التاريخي لدى الشيخ القطعاني في اعتماده طريقة «التراجم»[4] للشخصيات والأفراد الفاعلين أساسًا في الكتابة التاريخية،

---

(1) مناظرات الشيخ سالم بن طاهر والشيخ سالم الحامدي والشيخ محمد الحطاب والشيخ سالم السنهوري والشيخ كريم الدين البرموني وغيرهم مع الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، للتوسع ينظر: تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت

(2) سنتعرض لها بشيء من التفصيل في آخر هذه المقالة.

(3) ينظر على سبيل المثال كتاب: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، للقطب الصوفي عبد الكريم الجيلي، وقد صدر الكتاب في عدة طبعات آخرها طبعة دار الكتب العلمية بلبنان عام 2021م.

(4) ترجم الشيخ القطعاني في موسوعته عبر أجزائها الأربعة لـ 700 شخصية، كما أفرد كتبًا مستقلة للترجمة لبعض الأعلام، كالقطب الأنور عبد السلام الأسمر، والشيخ الكامل محمد بن عيسى، والداني المدني محمد حسن بن ظافر المدني، والوارث النبوي أحمد بن مصطفى العلوي، ودليل الخيرات محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات وغيرها، كما جمع عددًا من تراجم الأعلام في كتب أخرى، ككتاب حراس العقيدة الذي حوى 29 ترجمة لأعلام من المغرب العربي، وأعلام الطريقة العيساوية حوى تراجم أربعين عَلَمًا من مختلف الأقطار الإسلامية، وكلها كتب مطبوعة.

ويصرح بذلك في قوله في مقدمة الموسوعة «والسيرة الصوفية الذاتية أو الترجمة وفق الاصطلاح ليست غاية في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لفهم التطور الديني الاجتماعي والاطلاع على التاريخ الفعلي الحي عبر مَنْ عاشوه وأفرزتهم بيئته وأنتجهم زمنه، لا التاريخ الميت الذي يتعامل مع الإنسان كرقم أو قالب جبس أو قيمة مادية فالإنسان أي إنسان حيثما ومتى كان أكبر من هذا، وشتان بين أن ننظر إلى الإنسان من خلال التاريخ وأن ننظر إلى التاريخ من خلال الإنسان»[1].

ومناقشة مسألة ما تتميز به الموسوعة عن مدونات التاريخ الإسلامي التي اعتمدت الترجمة أصلًا في كتابتها، تخرجنا عما نحن فيه من حديث حول كيفية تناول الشيخ للتاريخ الليبي من المصادر البديلة، لكن لا بأس من مرور سريع على تراجم الموسوعة لندرك أن طريقة الشيخ في كتابتها ليست جامدة مثل الصياغات التي عرفتها كتب التراجم الليبية وغير الليبية الأخرى، سيرًا على نهج أصحاب كتب الطبقات والتراجم الكلاسيكية[2]، بل نجد في مضمونها تحديثًا، فقد حافظ الشيخ على الأُطُر المتعارف عليها في الترجمة إلا أنه ضمنّها شخصيات من كافة الشرائح كالصحفيين والموسيقيين والتربويين ورجال الإصلاح وغيرهم الكثير، فلم تقتصر على الترجمة للأعلام في تخصصات العلوم الشرعية كالفقهاء وغيرهم، ما يكشف عن ملمح من ملامح التجديد في الكتابة التاريخية لدى الشيخ القطعاني.

ويضاف إلى ذلك ملمح آخر يتعلق بنقل الفعل والفاعل في كل المجالات وتنوعها وعملها في تشكُّل كل مناحي الحياة، وبذلك تمكن الشيخ من تحويل هذه الشخصيات من مجرد سرْد في قالب جامد إلى وثائق بديلة يمكن استنطاقها لإزالة الكثير من الغموض المحيط بمراحل حركة وتطور تاريخ البلاد، كما سنرى لاحقًا عند الحديث عن أدوارهم في جانب العمران والاجتماع والاقتصاد وغيرها.

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 8.

(2) من أهم كتب التراجم الليبية: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار للشيخ محمد خليل بن غلبون، والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ونفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، كليهما للشيخ أحمد النائب، وأعلام ليبيا للشيخ الطاهر الزاوي.

وإلى جانب وثيقة «التراجم»، نجد الشيخ عمل على استخراج وثيقة أخرى تتكامل مع التراجم، وهي وثيقة «الأسانيد»[1] التي كان له الريادة والتفرد في استخراجها من ثنايا مصادر وكتب العلوم الإسلامية، موظِّفًا في ذلك درايته الموسوعية بعلوم الحديث الشريف التي يُعَدُّ الإسناد من فروعها، فاستخرج العشرات من الأسانيد الليبية.

وكأمثلة تطبيقية على تكامل الوثيقتين، لنا أن ننظر في ترجمته للشيخين ابن زياد والشعاب، لنجد أنهما لم تكونا سردًا لتفاصيل حياتهما فقط، بل فيهما ربط بقضية بداية تشكّل الهوية الليبية كما أسلفنا، وبالتوازي استخرج أسانيد تصله بهما عبر سلسلة من الشخصيات في سلسلة من الرواة تمرّ بشكل تصاعدي في دوائر متفاعلة ومتداخلة محكمة.

وخلال تصاعد سَنَدَيْه عموديًّا وصولًا إلى ابن زياد والشعاب، ينشر الشيخ السند أفقيًّا ليمرّ بأكثر من منطقة ليبية بحسب الأماكن التي عاش فيها رجال السند، محكِمًا بذلك ربط هذه الأسانيد وتراجم رجالها بشكل عمودي وأفقي، وخلق بهذا التشابك العمودي والأفقي «شبكة» سنتحدث عنها ببعض التفصيل قريبًا، لكن ما يهمنا في هذه «الشبكة» الآن أن الشيخ أخرج السند من ليبيا في بعض حلقات السند ليمرّ به في مراكز العلم بالأقطار الإسلامية والعربية المجاورة والبعيدة بواسطة رواية أحد رجال السند من الليبيين عن علماء مصر أو تونس أو المغرب أو في المشرق لتعود مجددًا

(1) السند هو سلسلة من الرواة يروون عن بعضهم البعض خبرًا أو حدثًا أو كتابًا (فلان عن فلان عن فلان إلى منتهى السند). ويُعدُّ كتاب «أوبة المهاجر وتوبة الهاجر» من أكبر أثبات الشيخ القطعاني؛ إذ ضمنه كل أسانيده التي استخرجها ومروياته، وصدر الكتاب في جزءين عن دار بشرى وكلثوم ومركز الشيخ القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بطرابلس عام 2021م. وخصص له المؤتمر الدولي عن العلّامة القطعاني دورته السنوية الثالثة التي انعقدت عام 2021 تحت شعار (علم الأثبات والمشيخات والفهارس ودور «ثبت أوبة المهاجر وتوبة الهاجر» في استمراره) بمشاركة 16 باحثًا من تسع دول هي: ليبيا وتونس والمغرب وموريتانيا ومصر والأردن والعراق وتركيا وأمريكا، وقد صدرت أعمال المؤتمر في مجلد عام 2013م.

إلى الديار الليبية[1]، بقصد ربط تشكل هوية الليبيين في السياق العربي والإسلامي المجاور، ما يعني أيضًا وعْيه بخطورة الحديث عن الهويات القُطْرية المنفصلة عن محيطها العربي والإسلامي.

وحتى لا يفهم القارئ أن عمل الشيخ يندرج فيما يعرف بالهوية الدينية، بالنظر إلى الشخصيات التي تنتهي لها أسانيده وتمثل الفقه والتصوف وغيرها من مجالات الاشتغال في الحقول الإسلامية التخصصية، لا بد من التنبيه إلى أن أسانيده شملت أيضًا رواية معارف أخرى، منها أسانيد تصله بالأدباء والموسيقيين والمسرحيين والمؤرخين والقُرّاء[2]، وشملت أيضًا رواية كل المنتج الثقافي الليبي من خلال أسانيده التي تصله بمؤلفي الكتب والمتون الليبية بمختلف فنونها وتخصصها، ودلل

(1) ومثاله سند الشعاب الذي استخرجه الشيخ القعاني، ويبدأ منه ليتسلسل تتابع راوية ثمانية ليبيين ثم يخرج إلى مصر برواية المكني الطرابلسي عن علي الأجهوري، ثم يرجع لليبيا براوية الأجهوري عن كريم الدين البرموني، ثم يرجع إلى مصر براوية البرموني عن الجمال الأرميوني ليعود بعد أربعة شيوخ مصريين إلى ليبيا مجددًا من طريق أبي الفضل أحمد التغاتي الليبي ويستمر في التسلسل الليبي عبر خمسة ليبيين حتى يصل إلى الإمام الشعاب. للتوسع ينظر: أوبة المهاجر، ج2، ص 350. ويلاحظ أنه كان بإمكان الشيخ القطعاني أن يسلسل السند في أقطار عربية أخرى، لكنه ركز على تضمين المصريين في تسلسله الليبي لما للشعاب من علاقة زمنية في أسبقية الظهور بالتصوف في ليبيا مع الإمام ذي النون المصري، حيث صحح الشيخ القطعاني خطأ أسبقية ذي النون على الشعاب على الرغم من تعاصرهما، وبذا تكون ليبيا في أول سُلّم ظهور التصوف في كل إفريقيا وتليها مصر، وهو السبب في اعتقادي الذي حدا بالشيخ القطعاني أن يسلسل في السند شخصيات من مصر.

(2) ومنها استخراجه أسانيد لرواية النصوص الأدبية كديوان البلهول والمسلسل بالأدباء الدراونة والكثير من الأدباء، وروايته للفنون والموسيقى وطبوعها ونصوصها، وأسانيد تصله برموز المسرح كروايته عن رجب البكوش وجمال الدين الميلادي، الصحفيين كالنائب والبوصيري، والوراقين وناشري الكتب كصباكه وبريون، وأسانيد تصله بأهم المؤرخين ومنتجاتهم كابن غلبون والنائب وأحمد بن عبد الدائم وعبد السلام بن عثمان. للتوسع ينظر أوبة المهاجر بجزءيه ففيه هذه الروايات وغيرها الكثير من رواياته وأسانيده الأخرى. كما أنه حقق كتب بعض المؤرخين كـ «فتح العليم» لعبد السلام بن عثمان، بل حتى الأدب الشعبي رواه عن أقطابه وجمعه في كتب مستقلة مثل كتاب «مختارات من غناوي البادية» (مطبوع) وكتاب «منتخبات زهر الخمائل من قصائد الشعر الشعبي للأواخر والأوائل» (مخطوط).

على ذلك أن من بين أهداف استخراجاته لتلك الأسانيد أن تكون وعاءً لنقل كل المحمول الثقافي والوجداني في الثقافة الليبية.

أوسع وأقدم «شبكة اجتماعية»

واعتقد أن سؤالًا سيترتب على ما سبق يمكن أن يثيره القارئ، مفاده: ما نتيجة اشتغال الشيخ على هاتين الوثيقتين «التراجم» و«الأسانيد»؟. والجواب على ذلك يكمُن في النظرة الشاملة لمجموع الأسانيد التي استخرجها الشيخ لنرى أنه أوجد من خلالها أطول وأوسع «شبكة مجتمعية» في تاريخ ليبيا، فتشابك الأسانيد في الاتجاهين العمودي والأفقي يظهرها كشبكة مترابطة ومحكمة، ولا يخفى أن نقاط الاتصال في هذه الشبكة -وهم شخصيات الإسناد- ينتقل عبرهم محمول ثقافي ضمن ما يتلقونه من بعضهم البعض، وتزيد أهمية هذه الشبكات إذا طالعنا ثقافات شخصياتها في تراجمهم التي عمل الشيخ فيها على إبراز أبعاد مختلفة فيهم، فبعضهم مثقف أو فقيه أو محدث أو مؤرخ أو مجاهد أو معلم أو أديب وشاعر، أو إصلاحي في مجالات المجتمع أو صحافي وهكذا.

وهذه الشبكات التي أوجدها واستخرجها الشيخ من الأهمية بمكان، فهي تُمكننا من معرفة صور من التفاعل والتلاقح المعرفي بين الأجيال الليبية من خلال جمع المنتج الثقافي لشخصيات كل جيل من أجيال السند وتحليله، ليكشف لنا عن أنواع وأشكال التفاعل العلمي والثقافي في كل مرحلة من مرحل تاريخ البلاد، ومن أهم صور التفاعل الثقافي في كل جيل كُتب الشروحات التي يقوم فيها عالم ما بشرح متْن ألّفه عالم معاصر له[1]، وكُتب النقد والردود[2].

---

(1) كشرح ابن غلبون لقصيدة معاصره أحمد بن عبد الدائم التي قام عليها كتابه «التذكار»، وشرح علي بن الصادق الجبالي لمتن العزية للبهلول، وغيرها الكثير.

(2) كالردود التي كتبها عبد السلام بن عثمان وعلي بن عبد الصادق على بعضهم وسنتعرض لهما لاحقًا.

أما في التعاقب العمودي في الأسانيد فيُمَكِنُنا من رصد كيفية تفاعل كل جيل مع منتجات الجيل الذي سبقه، حيث يضيف اللاحق للسابق بما يمثل عملية تطوير ثقافي متلاحق[1]، خصوصًا إذا ذكّرنا مجددًا بأن منتجات الشخصيات التي ركّز عليها الشيخ في اتصالات أسانيده لا تنحصر في حقل معرفي ما كالفقه والعقيدة، بل تشمل مجالات الأدب والشعر والفنون ومناهج التأليف والفلك والحساب وغيرها من حقول العلوم الإسلامية.

وهذا التنوع في المنتج الثقافي لدى المثقفين والعلماء الأوائل حقيقة واقعة، فمثلًا كتب النوازل الفقهية تصنَّف في العادة ضمن علوم الفقه[2]، لكن النوازل في الحقيقة تعكس صورًا من الحياة الاجتماعية والجوانب النفسية والاقتصادية؛ كون الأسئلة التي ترد للمفتي نابعة من واقع المُستفتي، وبالتالي يمكن رصد تطور الحياة في مختلف الجوانب من خلال قراءة نصوص النوازل باختلاف فترات تدوينها، كما أن نصوص الأدب هي الأخرى تعبر عن نفسية الأديب ضمن ظروفه التي تعكس تفاصيل عن عصره، وتحكي صورًا وجوانب من حياة الأديب، ويعتبر الأدب قناة اتصال مهمة بين الأجيال لنقل موروث متداول يضيف عليه كل جيل بحسب متطلبات وقته.

باعتقادي أن الشمول الذي يتصف به عمل الشيخ في التراجم والأسانيد سدَّ معضلة الفجوات الزمنية التي تعانيها كتب التاريخ التقليدية، وأبان عن وجود نظام

(1) ككتب الشروحات التي يشرح فيها اللاحق كتب السابق وأمثلتها من الكثرة بمكان، والتكميلات ككتاب «ذيل الميعار» لعبد السلام بن عثمان على المعيار المعرب للونشريسي، وكتاب اليواقيت الثمينة لمحمد بشير المدني غطى فيه الفترات التي أعقبت مؤلفي الطبقات المالكية، وفي الأدب والشعر الفصيح والعامي يستدرك اللاحق على السابق ويكمل أو يعارض الثاني الأول، وغيرها من الفنون التي تشكل سلسلة معرفية بتعاقبها واستمرارها.

(2) ألف الكثير من الليبيين في هذا الحقل المعرفي، كالشيخ علي بن أبي بكر الحضيري صاحب الأجوبة، والشيخ محمد صالح الأوجلي صاحب السدير الفائح المنتخب، والشيح محمد بن عمر السوداني صاحب النوازل، والشيخ محمد كامل بن مصطفى صاحب الفتاوى الطرابلسية وغيرها.

ثقافي بوصفه كُلًّا غير مُجزَّأ كما يظهر في الكتب الأخرى[1]، والأهم هو ردم الفجوة بين الآني والماضي باستمرار التدفق الثقافي من خلال سلاسل الأسانيد، وبين المروي والفعلي أي بين الأقوال المروية وأثرها الفعلي في حياة الناس.

ومن الأهمية بمكان أن نتوقف عند بُعد مهم في شخصيات هذه الأسانيد، فتراجمهم في الموسوعة تظهر أن جميعهم من الصوفيين وتدور أعمالهم حول التصوف، وهو ما يتكامل مع جهود الشيخ في بيان أن التصوف لا علاقة له بما ارتبط في الأذهان من سلبية وانعزال، بل هو نظام شامل لكل فعل وحركة في خلفيات أي منجر في تاريخ البلاد، وهو ما يصرح به في قوله إن الصوفيين هم «القادة الفعليين لمسيرة حضارتها (يقصد ليبيا) على كافة الأصعدة منذ وُجد الإسلام على أرضها كانوا دائمًا من رجال التصوف، ولا تكاد تجد مجالًا علميًّا أو اجتماعيًّا أو ثقافيًّا لم يكونوا هم بُناته ومؤسسوه، وواضعوا لَبِنَته الأولى»، وليس ذلك بالأمر الهيّن خصوصًا وأن البلاد تقع «بين مركزي استقطاب علمي وحضاري كبيرين هما مصر بأزهرها وتونس بزيتونته، ولولا هؤلاء الرجال الذين أوجدوا هذا التاريخ الحافل المميز على كافة الأصعدة في ليبيا لكان من الطبيعي جدًّا أن تطغى هذه المراكز الحضارية المتقدمة جدًّا والمزدهرة على حضارة هذا الجزء من بلاد الإسلام، ويصبح بلا هوية»[2].

المدونة الصوفية من أهم مصادر التاريخ الليبي

يرسم الشيخ في موسوعته مسارًا للكتابة التاريخية لا يزال بِكرًا في فضاء البحث التاريخي في ليبيا، مستخدمًا فيه مصادره الخاصة، سواء التي عمل على بنائها من واقع درايته ومشاركته الواسعة في العلوم الإسلامية -كوثيقتي التراجم والأسانيد- أو المصادر التي بدأ بعض الباحثين في التاريخ بوصفها بـ «المصادر البديلة» ككتب

(1) تعتني كتب التراجم بتصنيف الشخصيات بحسب انتمائها للمكان أو للتخصص العلمي، مثلاً طبقات الفقهاء أو طبقات الأدباء، أو طبقات الأطباء وغيرها.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 81

الرحلات والجغرافيا والنوازل الفقهية والسِّيَر والمناقب والنصوص الأدبية؛ كونها تعكس واقعًا اجتماعيًّا أفرزته شروط تاريخية معينة. وما يميز مصادر الموسوعة أنها صوفية اللُّحْمة والسَّدَى، فخلافًا لمؤلفي وكتّاب رحلات وجغرافيا ونوازل وسير الأقطار الأخرى، فإن مؤلفيها وكتّابها في ليبيا كلهم صوفيين كما سيتبين لاحقًا؛ ما يجعل منتجهم لا يخرج من دائرة الثقافة الصوفية، وإضافة لقدرة الشيخ الفائقة على قراءتها قراءة صحيحة، فهو يمتلك القدرة أيضًا على نقدها ومراجعتها وردِّ ما يخالف فيها الصواب والواقع، على الرغم من تبجيله الكامل لأصحابها كونهم من الصوفيين.

إن موضوعية الشيخ في التعامل مع المدونات الصوفية جعلته يقف في منتصف مسافة المتعاملين معها، بين رافضها بالمطلق بسبب ما تحكيه في بعض الأحيان من وقائع مغلَّفة بالكرامات والغيبيات، وبين من يقدس كل ما فيها ويقبله وإن خالف المنطق والواقع، ومن هنا تأتي أهمية الموسوعة وأهمية مصادرها التي تقدم قراءة مغايرة للتاريخ الليبي، وهو أمر يُفضي بنا إلى سؤال: إلى أي مدارس الكتابة التاريخية ينتمي الشيخ القطعاني؟. وقد يشوش على الناظر في الموسوعة أن أعمال الشيخ الكاشفة عن وجود فاعلين في حركة تاريخ البلاد قد تضعه ضمن مدارس كتابة التاريخ الغربية الحديثة، كمدرسة الحَوْلِيّات مثلًا التي وصل صداها إلى جامعاتنا ومؤسساتنا البحثية، بل بات أغلب منتجاتها تصدر وفق مناهج تفكير هذه المدرسة، إلا أنه عند المتمعِّن أكثر في أعمال الشيخ يرى اختلافًا كبيرًا بينها وبين مناهج بحث وتفكير المدارس الغربية الحديثة التي باتت تعتمدها أوساطنا البحثية والأكاديمية، لعدة أسباب، منها:

1. أن تلك المدارس الحديثة ترفض أن تكون السير والتراجم أو ما يطلقون عليه مسمى «البيوغرافيا» جزءًا من التاريخ، والشيخ يعتمد التراجم أساسًا في كتابة التاريخ.

2 أن المدارس الغربية الحديثة تُعنى بما تسميه التاريخ من الأسفل والفئات المهمّشة، ولكن طريقة الشيخ في عرض صور الحياة التي لم تكتبها مدونات التاريخ الكلاسيكية من واقع المجتمع تختلف، فهو يؤرخ لحركة التاريخ وفقًا للنظرية الصوفية في الإصلاح التي تقوم على التغيير من القاعدة (المجتمع) لا من رأس الهرم (السلطة) لكنه لا يفصل واقع المجتمع عن سياق التأثيرات السياسية، كما أنه لا يعتبر الفاعلين في المجتمع مهمّشين كما تصفهم المدارس الغربية انطلاقًا من رفضها الكامل لكتب التاريخ الكلاسيكية؛ كونها كتبت في بلاط السلطان ومن أجله، بل يصف الشيخ أولئك الفاعلين بالقادة الفعليين لا المهمّشين.

وبالمختصر، فالشيخ لا يخرج عن سياق خط الكتابة التاريخية لدى الصوفيين، وإن جاز لنا التعبير فهو من أقطاب مدرسة كتابة التاريخ الصوفية.

ورجوعًا للحديث عن المدونة الصوفية، فهي كما تبدو من خلال موسوعة الشيخ لها لونها الخاص في الكتابة والتوثيق، لكن الموانع الكثيفة حولها حجبت الكثيرين عن الاستفادة منها، إما بنبذها بسبب ما تحتويه من أخبار على صلة بالغيبيات مما يخالف قناعات واعتقاد قِطاع عريض من الباحثين؛ ولذا يعتبرها بعضهم دليلًا على التردّي الثقافي والفقر المعرفي والتخلّف الاجتماعي، أو بالإخلال بوحدة صورتها بإقطاع أجزاء منها كما يظهر في تحقيقات بعض الأكاديميين المحسوبين على التصوف بحجة أنها مدسوسة على الأصل وأنها تخالف المبادئ والأسس التي قام عليها التصوف. وهو ما يميز تعامل الشيخ القطعاني مع المدونة الصوفية وفقًا لمنهجية واعية بأهمية ما تتوفر عليه النصوص الصوفية من حقائق ووقائع يمكن أن تسدّ فجوات كبيرة في تاريخ البلاد، وفي العديد من القضايا المتصلة بشكل وثيق بأنماط الحياة وعاداتها وتقاليدها، وأصناف السكان وتوزيعهم والقبائل وتنقلاتهم، والأقليات كأهل الذمة والرقيق، وظاهرة الأُسر العلمية، والأوبئة والمجاعات، والأسواق وأنواعها وكيفية البيع والشراء وأنواع المعروضات، والحِرَف وأصحابها،

والزراعة والماء، بل وحتى المؤسسات المسكوت عنها التي تعكس صورًا من علاقة السلطة بشرائح المجتمع كالسجون والمعتقلات والضرائب.

ولا اعتقد أن عرض كل ذلك ممكن في هذه المقال، لكن يمكن الاقتصار على بعضها وترتيبها في عدة جوانب:

الجانب العمراني

عقد الشيخ في مقدمة الموسوعة مبحثًا خاصًّا بـ«العمران والجغرافيا»[1] تضمن مقاربات طبونيمية مهمة جدًّا للمدن والمناطق الليبية وأسمائها وعلاقتها بالصوفيين الذين سكنوها، كاشفًا عن جانب لا يزال مغيبًا في الدراسات الليبية، ويتعلق بسُكنى الصوفيين في فراغات وفضاءات في مختلف بقاع البلاد، وكيف شكل سُكناهم في تلك البقاع عامل جذب سكاني ونمو مضطرد لتتحول إلى مناطق ويزداد بعضها توسعًا لتتحول إلى مدن؟.

ويسرد الشيخ أمثلة على ذلك تكشف في طيّاتها أن اختيار الصوفيين لمواقع سُكناهم في فراغات وفضاءات لم يكن صدفة أو لغرض الابتعاد والانعزال عن المجتمع كما يشاع، بل وفق تخطيط مسبق، فأغلب مواقعهم تتوفر فيها معطيات أوّلية للاستقرار، كمرور طرقات التجارة بها ووجود مصادر للماء وقيام أنشطة زراعية أو صناعية، فيوظف الصوفيين كل هذه العوامل وغيرها ويؤسسون زواياهم فيها التي تضمن عوامل أخرى من أهمها الأمن بما يحظى به الصوفيين من مكانة واحترام خاص في أوساط المجتمع[2]، وهو عامل مهم في خلق ظروف الاستقرار؛ فتتحول الزوايا إلى محطات أساسية تتوقف عندها قوافل التجار لما تجده فيها من أمانٍ وقِرى ودُور للضيافة، كما أن الوظائف الأخرى التي تؤديها الزاوية كالتعليم وما توفره من فُرص العيش تمثل عوامل جذب سكاني في المنطقة، وتزداد أهميتها إذ المعروف

---

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 82: 87.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 96 وما بعدها.

أن اللصوص وقطاع الطرق يتحاشون المرور بها لما استقر من الثقافات من تهيب المساس بجوار الأولياء وأتباعهم.

وأجرى الشيخ إحصاءً للمدن الليبية التي تسمت بأسماء الصوفيين، وذكر منها 92 منطقة ومدينة ليبية[1]، أشهرها مدينة الزاوية غرب طرابلس التي تأسست حول زاوية أولاد سنان، ومدينة الجغبوب التي تأسست حول زاوية أسسها سيدي محمد بن عيسى السنوسي، ومنطقة طبقة التي تأسست حول زاوية أسسها سيدي محمد الأزهري الجروي، ومنطقة الساعدية جنوب طرابلس تأسست حول زاوية صوفية للطريقة الساعدية، ومنطقة سيدي الشويرف، ومنطقة سيدي بشر.

بل ويشير الشيخ إلى دور آخر للصوفيين يتعلق بجهودهم في عمليات التوسع السكاني حول المناطق الآهلة، فيختار بعضهم مناطق مجاورة لبعض المدن للسُّكنى فيها وبناء زاوية توفر أغلب ما مرّ من عوامل الاستقرار، وبمرور الوقت تتوسع المناطق الجديدة لتتصل بالمناطق الآهلة وتحدث نموًا سكانيًّا وعمرانيًّا كبيرًا، ومن أمثلتها إقامة الشيخ إبراهيم المحجوب في منطقة مجاورة لمدينة مصراته وبناء زاويته الشهيرة التي تحولت إلى أهم المدارس العلمية في البلاد، وصارت المنطقة بمرور الوقت جزءًا مهمًّا من مدينة مصراته ورافدًا لها وتُعرف حتى الآن بمنطقة المحجوب. ومن الأمثلة القريبة من منطقة المحجوب منطقة الجديد في سبها التي تأسست حول زاوية سيدي عبد الله النعمي، ومنطقة بوعيسى غرب طرابلس التي تأسست حول زاوية سيدي بوعيسى سهل، ومدينة العجيلات التي تأسست حول زاوية سيدي محمد بوعجيلة حركات، وغيرها من الأمثلة.

وبالإضافة للتأسيس والتوسع السكاني يضيف الشيخ دورًا آخر للصوفية في مجال العمران، ويتعلق بإحياء مدن ذات عمق تاريخي وحضاري كادت أن تندثر كمدينة «بنغازي» التي كانت تعرف بـ «برنيق» ومرت بالعديد من الأسباب والعوامل

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 84 وما بعدها.

التي دفعت بها إلى الهامش وشارفت على الاندثار، حتى سكنها سيدي حسن بن غازي[1] فاستأنف فيها طورًا من أطوارها الحضارية. بل ويرصد الشيخ مواصلة الصوفيين مهمة إحياء المدينة بعد سيدي حسن بن غازي بعمليات توسيع رُقعتها، فالمواقع الصوفية المنتشرة في المدينة في امتدادات مختلفة تشير إلى ذلك، حيث يعزّز كل صوفي ظروف الاستقرار في مكان سكناه في وسط المدينة أو أطرافها وتنمو حولها تجمُّعات سكانية كامتداد لسكان وسط المدينة، ويدعو الشيخ القارئ إلى استعراض أسماء أحياء مدينة بنغازي الحالية ليكتشف أنها نسبة لأولئك الصوفيين: كحي سيدي خريبيش، وسيدي الشريف، وسيدي خليفة، وسيدي عبد العاطي، وسيدي علي الوحيشي، وسيدي حسين، وسيدي الهواري، وسيدي بالخير، سيدي بن عيسى، سيدي الدراوي، سيدي سالم، سيدي الشابي، سيدي غريبيل، سيدي حسين، سيدي داود. وإن كنا لا نمتلك التفاصيل حول شكل تلك العوامل والظروف التي وفّرها أولئك الصوفيين في مناطق سُكناهم، إلا أنه في أقل الأحوال تجاوزنا المنظور الديني المتشدد تجاه أضرحة أولئك الصوفيين واكتشاف أبعاد جديدة لتلك الأضرحة.

ومن الأمثلة الأخرى التي يسوقها الشيخ مثال مدينة البيضاء شرق البلاد التي كانت تعرف بـ «بني الزرقاء» قبل أن تعدو عليها عوامل الفناء، فأسس فيها الشيخ محمد بن علي السنوسي زاويته الأُولى التي عرفت باسم «الزاوية البيضاء»، فاجتذبت حولها عناصر سكانية وافدة ومحلية وبمرور الوقت تجددت فيها الحياة، بل تحولت إلى حاضرة علمية وأخذت اسمها من الزاوية وتعرف حتى اليوم بالبيضاء.

(1) حسن بن غازي نجل المجاهد المعروف محمد بن حسن العادل الملقب بالمغازي لكثرة جهاده، استقر الشيخ حسن في بنغازي وكان حيًّا بها عام سنة 665هـ/ 1267م، ودفن في رباط أسسه محاذيًا لمرسى المدينة. ومرّ علي على رباطه وضريحه الكثير من الرحالين المغاربة ورسموا اسم المدينة بـ «ابن غازي»، قبل تسهل وتنطق بنغازي، وقد توسع الشيخ القطعاني في ترجمته وناقش آراء بعض المؤرخين في أصل تسمية المدينة ببنغازي. ينتظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص 264 وما بعدها.

وفي طرابلس حاضرة البلاد ترتبط أغلب أحيائها بالصوفيين: كسيدي الهاني، وسيدي المصري، وسيدي عبد الجليل، وسيدي الهدار، والشيخة راضية، وسيدي الأندلسي، وغيرها الكثير، وهم دلائل أخرى على ممارسة الصوفية لوظائف تتعلق بالتوسع السكاني.

وربما يمكننا المتابعة على هذه الأمثلة؛ لندلل على أن اختيار الصوفيين لمواقع سُكناهم كان يجري وفق تخطيط ودراية، ولم يكن محض صدفة أو لغرض الانعزال عن الناس، بل ضِمْن مشاريع إصلاحية صوفية تتعدد أوجهها ومجالات عملها، فالشيخ محمد الجروي الأزهري[1] اختار منطقة طبقة مقرًّا لسكناه وزاويته، فعلى الرغم من أنها كانت فراغًا وقت سكناه فيها إلا أننا نلاحظ أنها منطقة تتقاطع فيها طرقات التجارة، فوفَّر فيها استقراره ظروف الأمان لما تحظى به شخصيته من احترام واسع في أوساط المناطق المحيطة، وصارت زاويته محطة رئيسة لتوقف التجار لما توفره الزاوية من دور للضيافة وسُقيا ورِفادة وغيرها، وإضافة للوظيفة التعليمية التي تؤديها الزاوية وجد سكان المناطق المجاورة فرصًا للاستقرار في المنطقة الجديدة، وبمرور الزمن تحلَّقت دُور السكان حول دُور تلاميذه وأُسرهم الذين لحقوا بالشيخ الأزهري أول تأسيسه للزاوية.

وربما يفيدنا أيضًا في التعرّف على طرق اختيار الصوفيين لمواقع استقرارهم، ما نجده في سيرة الشيخ محمد بن علي السنوسي من أنه شكل لجنة يترأسها أهم تلاميذه وهو الشيخ عمران بن بركة للبحث عن فضاء يؤسس فيه معقله الصوفي الرئيس، وبعد دراسات اختارت تلك اللجنة «أرض الجغابيب» مقرًّا للزاوية السنوسية

(1) محمد الأزهري الجريوي، تخرج في زوايا غرب البلاد على يد علمائها، وتعلم وأخذ الطريقة السنوسية على يد مؤسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي، وأسس زاوية طبقة سنة 1272هـ وذاع صيته في المناطق والقبائل حتى اشتهر بـ «عالم طبقة» ولقبه شيخه السنوسي بـ «الأزهري» على الرغم من عدم رحلته إلى الأزهر، له كُنّاش تضمن وقائع تاريخية، وعدد من المناظيم الشعرية أحدها في ضد الغزو الفرنسي لتونس، توفي عام 1322هـ/ 1904م. ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 587.

الرئيسة، وبدأت عملية إعمارها بحفر سلسلة من الآبار تصل الجغبوب بالمناطق البعيدة والقريبة، ثم بناء الزاوية وتوفير بِنًى أوّلية لأنشطة صناعية وزراعية، بعد أن كانت موقعًا يتحصن فيه قُطّاع الطرق الذين يتهددون قوافل التجارة والمارّة، أقول ربما يفيدنا هذا في التعرف على طرق شبيهة اختار الصوفيون على أساسها المناطق التي سكنوها.

ومما يستفاد من المدونات الصوفية التي استند إليها الشيخ كأهم مصادر موسوعته، كيفية تخطيط المناطق التي تحول الكثير منها بعد فترات إلى مدن، فكتب النوازل والفتاوى تتحدث عن شروط خاصة لا بد أن تتوفر لإقامة صلاة الجمعة في التمركزات السكانية الجديدة، بخلاف صلاة الأوقات التي تقام بأي عدد، وغيرها من المعلومات المهمة التي يمكن استخراجها من ثنايا تفاصيل النوازل التي تسجلها تلك الكتب لتعكس صورًا غائبة حول تطور المجتمعات السكانية الحديثة، فإلى جانب دقة اختيارهم لمواقع سُكناهم، تكون أُولى خطواتهم بناء الزاوية ومن ثَمَّ المرافق المهمة للضيافة والسُّقيا والإقامة وغيرها، وحول الزاوية تتكوّن الحلقة الأولى من السكان وهم في العادة من مريدي وطلاب شيخ الزاوية وأسرهم، وهو أمر في غاية الأهمية؛ إذ يضمن الالتزام الأخلاقي والسلوك الصوفي الذي يعيش وَفْقه تلاميذ وطلاب شيخ الزاوية عاملًا يشجع الناس على التوافد للسُّكنى. ومركزية الزاوية في تأسس المدن هو ما يفسر وجودها في قلب التجمعات السكانية في الغالب، بينما يكون المسجد الجامع بعيدًا عن موقع الزاوية بمسافة؛ إذ لا تسمح شروط إقامة صلاة الجمعة بإقامتها إلا في وسط سكاني بعدد معين من السكان القارِّين، وهو ما يتوفر إلا بعد فترات من النمو السكاني حول الزاوية، وربما يوسع بيت الصلاة في الزاوية في فترات لاحقة ويحول إلى مسجد جامع، وليس هذا بالأمر الهيّن فلم تسمح شروط إقامة صلاة الجمعة بإقامتها في زاوية سيدي عبد السلام الأسمر إلا بعد أزيد من 100 عام بعد

وفاة مؤسسها، كما يفهم ذلك من سؤال الشيخ أبو راوي(1)، شيخ الطريقة العروسية وشيخ الزاوية في زمنه، للفقيه المغربي أبو سالم العياشي حول جواز إقامة الجمعة في الزاوية، وربما يفيد زمن السؤال في التعرف على المدة التي يمكن ان يستغرقها التطور العمراني حول الزوايا في المرحلة الأولى من تشكُّل المناطق(2).

إن الصور التي تجليها الموسوعة عديدة، ويوفر لنا ربط أجزاء هذه الصور معلومات إضافية، فمثلًا يمكن رسم خارطة أوّلية من واقع المدن والمناطق والزوايا التي أحصتها الموسوعة لتعرف على التطور والنمو السكاني في البلاد، فتاريخ تأسس الزوايا يمكِّننا من ترتيب سُلّم تأسس المدن والمناطق بحسب زمن تأسسها. واستنادًا لمواقع الزوايا يمكننا التعرف على أنشطة طرقات التجارية وخطوط تنقلاتها باعتبارها محطات مهمة تتوقف عندها قوافل التجارة.

إن رسم خارطة توزع الزوايا ومواقعها يفيدنا أيضًا في التعرّف على الجانب الدفاعي للمدن الكبرى، فرصد مواقع الرباطات الصوفية المحيطة بطرابلس يضيف بُعدًا جديدًا يمكن بناء دراسات عليه لمعرفة الأسباب التي ضَمِنت لطرابلس أداء أدوار حضارية متعاقبة دون انقطاع، فلنا أن نتخيل تلك الخارطة الدفاعية بداية من ساحل البحر وتحديدًا من رباط الأندلسي بتاجوراء ومرور برباطي الشعاب والهدار، ووصولًا

(1) عبد الله أبو راوي من أحفاد الأمام الأسمر، ولد بزليتن وأخذ عن علمائها وعلماء تاجوراء وطرابلس، وتصدر لمشيخة الطريقة العروسية وبذل جهودًا كبيرة في تنقيتها مما شابها، فاتجه لأخذ الطريقة العروسية عنه أبرز علماء عصره؛ ولذا يسميه الشيخ القطعاني بـ «الأسمر الصغير»، حرص الكثير من العلماء المارين بليبيا على لقائه، وانتشر صدى شخصيته وآرائه وأفكاره حتى وصل امتداد زواياه العروسية إلى تونس، ترك العديد من المؤلفات، وتوفي تونس بجرية سنة 1088هـ/ 1677م. ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 169 وما بعدها.

(2) أقام الإمام عبد السلام الأسمر زاويته في أطراف مدينة زليتن، لا كما يتصور البعض أنها في قلب المدينة كما هي اليوم. ولا بد من التنبيه إلى أن زاوية الإمام الأسمر تعرّضت في حياة مؤسسها وبعده للعديد من الهجمات والفتن ما تسبب في تذبذب نسب ارتفاع وانخفاض السكان حولها، وبالتالي قد لا يصلح هذا المثال للقياس، كما أن النمو السكاني حول الزوايا يختلف من منطقة إلى أخرى بحسب المعطيات والظروف المحيطة بالمنطقة.

إلى رباط سيدي عبد الجليل، وفي العمق الداخلي تتوزع مواقع الزوايا بشكل دقيق لتشكّل حصنًا دفاعيًّا لصد الغارات الداخلية، كزاوية سيدي أبو عجيلة بالعجيلات التي تقع في نطاق يربطها بزوايا سيدي بن سهل وأولاد سنان غرب طرابلس، وصولًا إلى زاوية سيدي بوجعفر في جنزور التي كانت على صلة وثيقة ومتينة بزوايا الجبل الغربي كزاوية سيدي بوماضي، وزوايا شرق طرابلس، وأهمها زاويتي سيدي زرُّوق وسيدي عبد السلام الأسمر، وكلها ملامح يمكن تطويرها ضمن دراسات تهدف للتعرف على المزيد مما أهملته كتب التاريخ التقليدية كأسباب توسع الرقعة السكانية حول طرابلس.

الجانب الاجتماعي والثقافي

والسؤال الذي قد يُثار: ما دور الصوفيين بعد تأسيسهم للمناطق والمدن، خصوصًا على صعيد الحياة الاجتماعية؟. وفي الواقع لا تتوفر الكثير من المعلومات للجواب عن هذا السؤال، لكن ما لا شك فيه أن تشكّل الحياة الاجتماعية في تلك المناطق ارتبط في المرحلة الأولى بمؤسسيها الصوفيين، ولنا أن نتكهَّن طريقة تشكل العناصر الأولية للحياة الاجتماعية من خلال استعراض سريع للعملية التربوية وفقًا للسلوك الصوفي، فما دامت تلك المناطق تأسست حول الزوايا الصوفية لا بد وأن يكون مجتمعها الأول قائم على علاقة الشيخ بالمريد، حيث تمر العملية التربوية وفقًا السلوك الصوفي بثلاث مراحل هي «التخلّي والتحلّي والتجلّي»، وإن كانت هذه المراحل الثلاث تحصرها العديد من الدراسات في السلوك الصوفي على المستوى الفردي، حيث يعمل الشيخ المربي على تخلية مريديه من الصفات الذميمة، ويحليهم مكانها بالصفات الكريمة لتكون بالتالي النتيجة في التجلي بكمٍّ من المعارف الصوفية الخاصة، إلا أن الشيخ القطعاني يلفت إلى مستوىً آخر تتصل فيه آثار تلك العملية السلوكية الصوفية بالمجتمع كنتيجة طبيعية لتخلي أفراده عن ذميم الأخلاق وتحليهم

بكريمها، وبالتالي «تجلي» نتيجة تلك العملية السلوكية في مجموعها في علاج أي ظاهرة مجتمعية سلبية من خلال التأثير المباشر للمجموعات الصوفية التي تكوِّن الحلقة الأولى حول الزوايا كمفرز طبيعي للتربية المباشرة للشيخ المربي لتلاميذه في الزاوية، وهي حَجَر أساس تشكّل المناطق الجديدة كما أسلفنا.

ويمكننا فهم أثر تلك العملية السلوكية بشكل أوضح إذا ما قرأنا قواعد السلوك الصوفي بشكل شامل، لنفهم مقاصد الشيخ القطعاني من أن العملية التربوية الصوفية لا تستهدف الفرد فقط، بل تسير في مستويين متوازيين للعمل على الفرد والمجتمع في ذات الوقت، فمن تلك القواعد، قاعدة «الصحبة» التي ينتج عنها ما يعرّفه الصوفية بـ «إخوان الطريقة»، وهم مجموعة النخبة الذين تربَّوا على يد الشيخ الصوفي المربي بشكل مباشر ويشكّل مجموعهم أول مجال تظهر فيه أفكار الشيخ المربي ورؤاه الإصلاحية، وفي مجتمع «الإخوان» ينخرط السالك الصوفي الجديد من خلال «الصحبة» ليتعايش في هذا الوسط الجديد بقيمه وسلوكياته بشكل عملي تطبيقي، ويشكّل مجموع ذلك المنتج مجتمعًا مثاليًّا مصغرًا محور حركته «الزاوية» حجرِ أساس ذلك المجتمع الذي يأخذ في التوسع بمرور الوقت بسبب الجذب السكاني حول الزاوية.

إذًا عملية السلوك الصوفي تسير بالتوازي لبناء الإنسان والأوطان، لكن هل من تفاصيل مزيدة على ما سبق، خصوصًا وأن بعض الدراسات اكتفت بنقل صور عن بعض المصادر عن نجاح الطريقة السنوسية في القضاء على بعض الانحرافات -كظاهرة السطو وقطع الطريق- في الجغبوب بعد بناء الزاوية السنوسية فيها، فتلك الدراسات لم تتوسع لتبين لنا كيف تحول مجتمع الجغبوب على يد السنوسيين إلى مجتمع تجاوز أثره المدينة ليعم كافة الإقليم بل خارج البلاد عبر مئات الزوايا، وكيف حمل المريد السنوسي أينما حل في ليبيا أو خارجها ذات القيم الصوفية فكان رسولًا

لطريقته يبثُّ أخلاقها وقيمها، حتى أنك لا تفرّق بين عادات وسلوكيات وأنماط عيش المناطق التي انتشرت فيها السنوسية على تباعدها وتوزعها داخل البلاد وخارجها.

ويمكننا جمع ما توفّر من معطيات حول أعمال السنوسيين وتكثيفها بهدف رسم صورة أولية، كنجاحهم في إنهاء حالة الاحتراب والسطو المسلح لدى القبائل البدوية التي اعتادت على أن يكون السطو مصدرًا لدخولها ودعم اقتصادياتها، وهو ما يفتح لنا أفقًا للبحث عن جواب سؤال قد نثيره ويتصل بهذا الجانب، وهو: ما هو البديل الاقتصادي الذي قدمته السنوسية إلى تلك القبائل لتتحول بعد أن كانوا مجموعات متناحرة تتناقض القيم في أوساطها، فبينما تشتهر بالكرم ونجدة المستغيث تستسهل في ذات الوقت النهب والسطو والغارات على بعضها البعض؟ فربما نصل إلى جواب يستند إلى ما توفّر من ملامح انتعاش اقتصادي في تلك الفترة قائم على بعث فكرة التبادل التجاري وتنشيطه بين برقة مثلًا ومصر عبر العديد من الزوايا السنوسية، وهذا يعني أن السنوسية كانت واعية منذ البداية بالوظيفة الاقتصادية لزواياها، ويفيدنا بشكل أساسي ما توفّره الموسوعة من معلومات حول زاوية حمام مريوط السنوسية الواقعة بين ليبيا ومصر؛ إذ يؤكد الشيخ القطعاني على أهميتها كأحد خطوط الاتصال الاقتصادي بين برقة ومصر، بقوله: إن لتلك الزاوية «أهمية اقتصادية كبيرة عند بدو ليبيا الشرقيين؛ إذ دأبوا على سَوْق أغنامهم من البطنان برًّا على الأقدام عبر مراحل وطرق يعرفونها للبيع في سُوق الحمام بأسعار مناسبة ويزوِّد هذا السُّوق بدوره كلّ القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن المجاورة باللحوم»[1]، بل واهتم الشيخ محمد بن علي السنوسي بشكل أساسي بهذه الزاوية، وتواجد فيها عديد المرات حتى أن «الصورة الفوتوغرافية الوحيدة» للشيخ السنوسي «ويظهر بها مرتديًا لجرد ثقيل من الصوف أخذت له بحمام مريوط»[2].

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج 3، ص 187.
(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

ومن الملاحظات التي يجب التوقف عندها في مكافحة الصوفية لظاهرة السطو وقطع الطريق أنها لم تكن بقوة السلاح، فيبدو أن من فوائد تأمين الزوايا لطرقات التجارة أنها شجعت قُطّاع الطرق على ترك النَّهْب والسرقة والإغارة على قوافل التجارة من خلال ما قدمته وسائل للعيش الهادئ المستقر وفتح الباب أمامهم لتعلم المِهَن والحِرَف وأنشطة الفلاحة، بالإضافة لنهج مهم تنتهجه الطرق الصوفية ضمن مشاريعها الإصلاحية ويتعلق بمبدأ الفرح بـ «التائب» وتقديم كل التسهيلات لانخراطه في مجتمع «الإخوان» حيث يتكفَّل أسلوب «الصحبة» بتصحيح سلوكيات التائب المنحرفة.

وفي إطار تأكيدي على أهمية تفكيك الاصطلاحات الصوفية لاستخراج ما تكتنزه من معانٍ، أَلْفِت الانتباه إلى استخدام صوفي فريد لكلمة «الفقر» وأثر هذا الاستخدام في تغيير الكثير من السلوكيات ذات الاتصال المباشر بأوضاع شريحة مجتمعية واسعة، ما يكشف لنا عن جلالة وريادة أعمالهم في المستوى الاجتماعي، فلا تخفى الدلالة الظاهرة لـ «الفقر» ذات الصلة بالشائع من عَوَز وفُقدان مصادر الدَّخْل والجوع وانعدام فرص التعليم والخدمات الإنسانية، وما يترتب على كل ذلك من تمييز اجتماعي، لكن من ريادة أساليب التربية الصوفية أن تنقلب معاني هذه اللفظة للدلالة على مراتب عالية في مجتمع «الإخوان» وتنحسر معها كل الدلالات ذات الصفة السلبية في سلوكيات المجتمع الصوفي، بالإضافة إلى ما يوفره وصف «الفقير» في السلوك الصوفي من دعم نفسي للشرائح التي فقدت فرص العمل والتعليم والدخل الاقتصادي ومحو التمييز. ويُستخدم مصطلح الفقر على نطاق واسع في أدبيات الصوفية، فـ «الفقراء» هم مجموع إخوان الشيخ المربي، وحملت الكثير من كتبهم هذا الاسم، ومنها الوصية الكبرى لسيدي عبد السلام الأسمر التي سماها «الوصية الكبرى لمن أراد الدخول في طريقتنا مع الفُقَرا»، بل واستخدم الشيخ

القطعاني هذا الوصف للدلالة على سموّ ورفعة اجتماعات مريديه في زواياهم[1]، لكن هذا لا يعني أن الصوفيين يرسخون معاني الفقر السلبية في مريديهم ويشجعونهم على العيش في مستوىً اقتصادي متدنٍ، بل على العكس يدفعون مريديهم لرفع مستوياتهم الاقتصادية بكل مظاهره، حتى في لباسه كما سيتبين لاحقًا من أمْرِ الشيخ عبد السلام الأسمر مريديه بلُبس فاخر الثياب واستخدام أنواع العطور والمنظفات. وبالعموم فللصوفية اهتمام كبير بتوظيف المسميات والتعبيرات والأسماء في إشاعة ثقافات ذات مدلول إيجابي في أوساط المجتمع، كما اشتهروا بتغيير أسماء أبرز المريدين: كتغيير الشيخ أحمد الشريف بالبقال اسم تلميذه الشيخ عبد الرحمن بالأعور إلى بالأشهر وصار علما عليه[2]، وغيّر الشيخ عبد الحفيظ النعاس لقب الشيخ محمد خرّاب بـ «عمّار»[3]، وغيّر الشيخ محمد بن علي السنوسي لقب تلميذه أبو الحكم المغبوب بالمحبوب[4]، وغيّر حفيده الشيخ أحمد الشريف السنوسي اسم منطقة مصيعد الحدودية مع مصر إلى امساعد[5].

ولا يبدو كافيًا ما أشارت إليه بعض الدراسات حول الدور العلمي للزوايا، فهناك المزيد مما يجب تسليط الضوء عليه في ثنايا الوقائع والأحداث التي تتحفظ بها المدونات الصوفية، ومنها أن الشيخ الأزهري الجروي، امتد أثره من خلال زاويته في طبقة إلى داخل سكان جبل نفوسة، بل تصدر للإفتاء في كامل المنطقة، ما يعني أنّ تأثير منهجه الإصلاحي تمكّن من تغيير الأفكار والسلوكيات في الأنسجة والبِنَى

---

(1) للشيخ القطعاني كتاب اسماه «مجالس الفقراء» ضمّن فيه الكثير من الأمثلة التي ترقى بمستوى مجالس مريديه، وطالبهم بالنسج على منوال تلك الأمثلة في مجالسهم لتواكب كل جديد ومعاصر في كل المستويات الثقافية والعملية والاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بالتراث والتاريخ والأدب والفكر والاجتماع وغيرها.

(2) موسوعة القطعاني، ج2، ص 44.

(3) المصدر نفسه، ج2، ص 75.

(4) المصدر نفسه، ج2، 532.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 86.

الاجتماعية لتلك الناحية شديدة الاختلاف العِرْقي لحد تعصبها للمذهب الإباضي للحفاظ على وجودها، وقبول تلك الأنحاء لفتواه المالكية يؤشر على ذلك، ويجب علينا النفاذ أكثر لمعرفة ماذا يعني قبول سكان تلك الناحية لآراء المذهب المالكي؟، والتعرض بالدراسة لقاعدة فقهية تميز بها السادة المالكيون عن غيرهم، وأرى أن وعي السادة الصوفية بهذه الآلية ملمح آخر يجب العناية بدراسته أيضًا، وأقصد بتلك الآلية «مراعاة العُرْف والعادة» الذي يعتبرها المالكية بشكل كبير خصوصًا في تصوّر المسألة الفقهية وتنزيلها على الواقع.

وما دمنا نتحدث عن مكتبات الزوايا، فيجب التوقف مليًّا عند نوع من التأليف الصوفي يعرف في أدبيات علوم الإسناد بـ«المُناولات»، وإن كانت المكتبات الصوفية حفظت لنا نصوص هذا النوع من التأليف الصوفي، إلا أن المهم هنا هو رصد تطبيقاته في الواقع وأثره في أوساط المجتمع.

والمُناولات هي أحد فنون علوم الإسناد، يناول فيها الشيخ أحد مقتنياته لمريده، وبدوره يناولها المريد لمن بعده عند جلوسه محلَّ شيخه وهكذا دَوَالَيْك في سلسلة رواة تمرُّ على عشرات الحلقات وتربط الحاضر بالماضي واليوم بالغد، وقد أولى الشيخ القطعاني المُناولات اهتمامًا كبيرًا، فرغم شهرة كتاب «المسلسلات العشر» للشيخ محمد بن علي السنوسي، إلا أن الشيخ ينبِّه على قِدَم الاهتمام الليبي بهذا الفن من التأليف من خلال تأليف الشيخ عبد السلام الأسمر في القرن العاشر الهجري أوّل الأثبات الليبية وهو كتاب حيث «الأنوار السنية»، ثم توالى التأليف في هذا الفن وصولًا إلى الشيخ القطعاني نفسه الذي توسع في التأليف فيه حتى بلغت 12 كتابا[1]، روى فيها الكثير جدًّا من المُناولات الصوفية في إطار أعماله المتصلة

(1) وهي:
نوار العشية أسانيدنا في حديث الرحمة المسلسل بالأولية.
كرائم المسلسلات.
غنائم المسلسلات. =

بتوضيح جوانب من تشكّل وبناء الهُوية في البلاد، وعمله على تعزيزها واستمرارها من خلال روايته لهذه المُناولات، بل وإجازته فيها للكثير من مريديه.

ومن أشهر أمثلة المُناولات، مناولة: العمامة والعكّاز والقَلَنْسُوة والسبحة والخرقة[1]، وعلاوة على ما يبرزه هذا النوع من التقاليد الصوفية من عنايتهم بإشاعة الأذواق الرفيعة في المجتمع، حيث تكون تلك الملبوسات والمقتنيات التي يناولها الشيخ للمريد في العادة من النوع الفاخر والحديث بحسب زمن المناولة وعصرها، نلاحظ أيضًا أن مجموع تلك الملبوسات : العمامة، والعكاز، والسبحة، تعكس صورة من يلبسها بأنه شخصية متصدرة في مجتمعها، كما أنها أسلوب تربوي صوفي راقٍ؛ إذ تخلق في وجدان المريد ثقة كبيرة تدفعه لتولي المسؤوليات والتصدر في المجالس للمشاركة في هموم المجتمع ووضع الحلول له، خصوصًا وأنه لبسها على يد شخصية متميزة كشيخه الصوفي ذي المكانة البارزة في محيطه.

= أوبة المهاجر وتوبة الهاجر.
إجازة الشيخ أحمد القطعاني في الأربعين القادرية.
الإجازات العشر.
الأربعون العيساوية.
ثلاثيات البخاري.
دليل الخيرات محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات.
مولد البرزنجي.
منظومة أهل بدر.
رائية الشريشي.

(1) الخرقة هي «ما يلبسه المريد من يد شيخه» ينظر: اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق القاشاني، دار المنار، القاهرة، 1992م، ص 178. وقال الحافظ القسطلاني: «أهل هذا الشأن اتخذوا لبس الخرقة شعارًا للأبرار، ودِثَارًا للمقربين الأبرار، وعَلَمًا على طهارة الأسرار، وسُلّمًا إلى نيل الأماني والأوطار» ينظر: ارتفاع الرتبة باللباس والصحبة، للحافظ القسطلاني، ضمن كتاب رسائل في لبس الخرقة في السلوك الصوفي، تصحيح وتعليق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 20. وتسمى الخرقة في ليبيا بـ «الدربالة» ولكثرة تعلق الليبيين بها ألف الشيخ عثمان بن دلة البكاي كناشة سماها «الدربالة». ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص60.

ويذكر الشيخ القطعاني مسلسلًا إسناديًّا آخر يرتبط بهذه المُناولات يكشف عن عناية الصوفيين بنوع فريد من أنواع التوثيق والأرشفة الذهنية لجوانب من التاريخ الليبي، وهو المسلسل الإسنادي برواية «النظرة» و«الرؤية»[1]، حيث يتوجَّب على المريد ضرورة ملاحظة شيخه في كل أحواله وتفاصيله في إطار الاقتداء والتأسِّي به، فيتسلسل ما يره ويصفه في شيخه بسند متصل عبر فترات زمنية طويلة، ومن فوائد هذا النوع من الأسانيد توثيقهم لصفات وسمات وهيئات وألْبِسَة شيوخ الطريق وعلاماتهم البارزة التي تعكس في الغالب أساليب تربوية يصعب توثيقها كتابة بدقة، ولهذه المرويات الإسنادية انعكاس واضح في مدوناتهم المكتوبة فلا تخلو ترجمة لصوفي ليبي من وصفه وصفًا دقيقًا، خصوصًا لباسه وسمته وتفاصيل أخرى حوله.

وباعتقادي أن أقل ما يستفاد من هذا النوع من المسلسلات هو رصد ملامح الحياة الشخصية للقادة وتأثيراتهم في مجتمعاتهم والتفاصيل الحضارية والثقافية للإنسان عبر تطوراته المختلفة، ومن ريادة الشيخ في عنايته بها النوع من الروايات استخراجه لأسانيد لها تمرُّ بأكثر من شخصية ليبية عبر مختلفة الأزمة والأمكنة، ما يزيد من أهمية شبكات الإسناد التي عمل على إيجادها كوثائق مهمة في بُعْدها الاجتماعي.

وما دمنا نتحدث عن جانب الذوق والحس الجمالي الذي سعى الصوفية في تربيته حسًّا أساسيًّا في التكوين الوجداني في الفرد والمجتمع، فلا بد من التوقف عند اهتمام آخر لدى الشيخ القطعاني، ضمن أعماله الخاصة بخلق «شبكات اجتماعية» من خلال وثيقتي: الترجمة والأسانيد، وأعني حرصه الكبير على توثيق كل ما يتصل بالمرويات الليبية في مجال الموسيقى والفنون والآداب بمختلف أنواعها، وإن كان بعض الباحثين اهتمَّ بدور الزوايا في الحفاظ على الطبوع الموسيقية الليبية في الموشحات والنوبات وغيرها، إلا أن ضرورة استمرار تدفق هذا المحمول الثقافي عبر

(1) ينتظر: أوبة المهاجر، ج2، ص 7.

الأسانيد الروائية هو أحد الأوجه التي انفرد الشيخ بالعناية بها، خصوصًا وأن التوثيق الكتابي للنصوص الموسيقية والفنية لا يفيد بشكل كبير في غياب الأداء العملي، الذي عناه الشيخ بـ «السماع»، وأفرد له فصولًا من كُتبه[1]، بل كتاب خاص بذلك عَنْوَنه بـ «مواجيد المحبين»[2]، وأكثر من ذلك كان هذا الكتاب موضوعًا لجلسات عملية عقدها لتعليم الأداء الفني الليبي.

وتبدو أهداف الشيخ في عنايته بتوثيق أسانيد المرويات الفنية الليبية ورواياتها بالتعليم المباشر، على صلة بالموقف الصوفي من قضية الفنون التي يتجاوزون فيها ضيق النظرة الفقهية الأصولية حيث تحرِّم شريحة واسعة من الفقهاء الموسيقى، والعمق الصوفي في العناية بالموسيقى والفنون يهدف إلى صحة تشكّل ذهنيات ونفسيات الفرد وانعكاس ذلك في صورة المجتمع لخلوّه من التعقيدات المفضية إلى ثقافة العنف، فالشيخ بتجربته الصوفية الفريدة نبّه على إدراك الصوفية لدور الفنون وتجلياتها على العقول والنفوس في ترسخ قيم التسامح والتعايش وقبول الآخر، ومنه قوله: «يُعدُّ التصوف الرائد الأهم للتربية الروحية، وتزكية النفس، ونشر الحب، وثقافة التسامح، والسلام الداخلي مع الآخر في الفكر الإسلامي على مرِّ مراحله ورجاله، والعودة إليه أراها المنقذ الوحيد من ثقافة العنف وعقائد التطرف ومنابع الإرهاب التي تجتاح الثقافة الإسلامية والمسلمين، وتعيث فيه فسادًا وإفسادًا وتشويهًا»[3]، وهو نص يحفزنا على الحفر في الذهنيات بشكل أكبر، ولسوف نكتشف أن أصول ثقافة التسامح والتعايش التي كوّنت الطابع الأغلب لحياة الليبيين يقف ورائها الصوفيون.

لقد وثق الشيخ القطعاني 190 نصًا أدبيًّا صوفيًّا ليبيًّا من «نوبات نوبات المالوف الأندلسي والموشحات والقصائد والمدايح النبوية والابتهالات والإنشادات الصوفية

---

(1) أوبة المهاجر، مصدر سابق، ج2، ص 490. وخلال هذا الكتاب روى الكثير من المتون الفنية والأدبية في شكل مقطوعات ودواوين ونصوص منثورة.

(2) مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين، أحمد القطعاني، صدرت طبعته الأولى عن دار بشرى وكلثوم، طرابلس، عام 2017م، ص 38.

(3) مواجيد المحبين، المصدر نفسه، أحمد القطعاني، ص 38.

والعروبيات بأوزانها وألحانها وطبوعها (أي مقاماتها) والاستفتاح والابتداء والطالع والطالع المكرر والدخول والدخول من طبعه أي: على نفس مقامه، والرجوع والخماري والبرول من طبعه أو من غير طبعه، والبرول المثلث وبرول الذيل والهروب والخفيف»[1] رواها بالسماع والممارسة عن 22 أستاذًا من أساتذته الذين «أخذوا بالتواتر عن الطبقة التي سبقتهم عن التي سبقت، في تسلسل تواتري بالسماع منهم أصلًا وتوثيقًا»[2].

وليست أهمية تلك للتصوف عند الشيخ في أنها «سماعات انقرضت أو كادت تنقرض»[3] فقط، بل لأنها تمثل أغلب الموروث الفني الليبي، فأساتذته الـ 22 نجد أنهم من: طرابلس، وبنغازي، ودرنة، ومصراته، وسبها، وتاجوراء، وطرابلس، وزاوية المحجوب، فقد جمع من خلالهم أغلب الموروث الليبي الفني والموسيقي بألحانه وطبوعه، وربطه بجذوره القديمة من خلال عشرات الأسانيد التي تمرُّ عبر العديد من المراحل التاريخية.

بل وحتى الصور والمجالات والأغراض الأخرى للأدب الليبي، نثرًا ونظمًا، فصيحًا وملحونًا وعاميًّا، نجد أنه منتج صوفي في تأسيسه وتطوره، فالشيخ يكشف خلفيات التكوين الصوفي لدى أغلب الأدباء الليبيين، كأحمد الشارف شيخ الشعراء في ليبيا الذي كان شيخًا للطريقة السعدية في ليبيا، وحفظ له العديد من نصوصه الشعرية التي لم تنشر من قبل[4]، ومصطفى بن زكري من رجال الطريقة القادرية، وأحمد الفقيه حسن صاحب النادي الأدبي في طرابلس، بل قلّما يوجد رمز من رموز

---

(1) أوبة المهاجر، مصدر سابق، ج2، ص 490.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(3) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(4) انظر ترجمة الشارف وعلاقته بالتصوف ومشيخته للطريقة السعدية، والكثير من نصوصه الشعرية التي لم تنشر قبل: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج3، ص 306.

الأدب الليبي وإلا وتجده صوفيًّا[1]، وهي خلفيات مهمة أزعم أنها مهمة في إطار القراءة الصحيحة للمنتج الأدبي الليبي.

وفي سياق تأكيده على قدرة المتصوفة على التماهي مع مستجدات العصر واستخدام أدواته الحضارية، يضرب الشيخ أمثلة على تواجد المتصوفة في الليبيين من بين أوائل من أسَّس للصحافة والمسرح، من خلال عدد من الأسماء التي وإن كانت ليست مجهولة بل معروفة في الدراسات التي أرخت للصحافة والمسرح، إلا أن الجديد والمهم هو إظهار صلة هؤلاء الفاعلين بالتصوف، كالأستاذ عبد الله بانون صاحب صحيفة العدل الأسبوعية التي صدرت عام 1919م كان شيخ الطريقة العيساوية، والشيخ محمد البوصيري صاحب صحيفة الترقي التي أصدرها عام 1897م، كأول صحيفة سياسية بليبيا، تبيّن هو الآخر أنه صوفي في الصميم، والشيخ محمد ابن المؤرخ أحمد النائب الذي أصدر صحيفة الكشافة اليومية عام 1908م كان صوفيًّا على الطريقة المدنية، والشيخ محمد ظافر المدني الذي أصدر صحيفة الوقت الأسبوعية عام 1920م كان من شيوخ الطريقة المدنية.

أما المسرح فلا خلاف أن رجب البكوش مؤسس المسرح في بنغازي، لكن ما خفي في شخصيته أنه كان من شيوخ الطريقة الرفاعية البارزين في الوسط الصوفي[2]، كما أن مؤسس أول فرقة مسرحية في مصراته الشيخ محمود السباعي من رجال الطريقة العيساوية[3]، فضلاً عن الشيخ جمال الدين الميلادي من أبرز شيوخ الطريقة القادرية، صاحب أول مسرحية غنائية وجدت في ليبيا، قبل أن يعرضها مريدوه في زاوية الفنيدقة القادرية بطرابلس عام 1920م، كما لا يخفى أنه من روّاد حركة الموسيقى بدوره المعروف، بل ومن روّاد الصحافة إذ أسَّس عام 1921م صحيفة الإصلاح نصف الشهرية[4].

(1) ينتظر مبحث الأدب في: موسوعة القطعاني، ج1، ص 99 وما بعدها.
(2) ينظر مبحث المسرح: موسوعة القطعاني، ج1، ص 121 وما بعدها.
(3) المصدر نفسه، نفس الصفحات.
(4) المصدر نفسه، نفس الصفحات.

وحتى مدوَّنات التاريخ الليبي المعروفة، يكشف الشيخ أن أصحابها من الصوفيين أيضًا، كحَوْلِية البهلول الصوفي المعروف، وقصيدة الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري وهو من رجال الطريقة السعيدية، والتذكار للشيخ محمد خليل بن غلبون من رجال الطريقة الناصرية، وكُنَّاش الشيخ محمد النعاس التاجوري شيخ الطريقة العروسية، والمنهل العذب للشيخ أحمد النائب من رجال الطريقة المدنية البارزين.

أما في جانب المرأة فتبرز أهمية ما تكشفه المدوّنات الصوفية في حديثها عنها أنها انفردت بالكثير من التفاصيل في حياة المرأة وترجمت للكثير من النساء الليبيات البارزات، ما يسد نقصًا كبيرًا في تاريخ المرأة الذي أغفلته كُتب التاريخ التقليدية. وفي الموسوعة وثَّق الشيخ القطعاني تراجم أكثر من 28 امرأة ليبية موزعة على عشرة قرون، استنادًا إلى معلومات روتها المدوّنات الصوفية أو النساء اللاتي انفرد بالترجمة لهن في موسوعته، وفي أغلب تلك التراجم تفاصيل حول أدوار مميزة لعبتها النساء الليبيات.

ومن أمثلة تراجم النساء في الموسوعة، ترجمة السيدة سمدونة (ت قبل 375هـ)[1] التي تظهر ترجمتها تبوّأها مكانة في صدارة المشهد الثقافي والعلمي في طرابلس، فقد تولّت رئاسة رباط الإمام الشعاب الذي كان يُعَدُّ أهم مراكز الثقافة والعلم في المنطقة، ويبدو أنها كانت تعقد فيه مجالس على صلة بثقافة عصرها استدعت انتباه شخصيات علمية مرموقة في مراكز العلم الكبرى في الأقطار المجاورة، فمما تحدثنا عنه المصادر في ترجمة سمدونة: أن العالم التونسي المعروف محرز بن خلف كان يتردد على مجلسها، ونستفيد من انطباعه الذي حمله عن سمدونة، أنها بلغت شَأْوًا يضاهي كبار الرموز العلمية والثقافية في تاريخ الإسلام، بل فاقت الفضيل بن عياض أكثر رموز الإسلام شهرة، فعندما رجع بن خلف من رحلة الحج إلى تونس سُئل عمن

(1) موسوعة القطعاني، ج1، ص 224.

لقي من الصالحين، فقال: «رأيت في طرابلس رجلًا وامرأة أما الرجل فأبو عثمان بن سعيد الحشاني وأما المرأة فسمدونة، ما الفضيل عياض بأفضل منهم»[1]، وغَنِيّ عن البيان أنه مرّ في رحلته إلى الحج بمعاقل ومراكز العلم في مصر وصولًا إلى الحجاز ولقي فيها الكثير من الصالحين، إلا أنه لم يذكر من النساء إلا سمدونة.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن ترجمة سمدونة تعكس لنا مكانة ثقافية كبيرة تبوّأها «رباط الشعاب»، فمحرز بن خلف، وأبو نزار البرقي اللذين كانا يترددان على مجالس سمدونة في رباط الشعاب، لم يكونا من المرابطين المجاهدين ليقصدوا الرباط، كما أنهما لم يكونا في مرحلة طلب علم عندما جاءا إلى سمدونة، بل كانوا من علماء عصرهم في ذلك الوقت، ما يعني أن الرباط كان له وظائف أخرى ثقافية وعلمية أخرى غير ظيفة الجهاد والمرابطة، وما من سبب يدعوهم لزيارة سمدونة إلا أنها كانت من المثقفات والمفكّرات البارزات وفقًا للوضع العلمي والثقافي في عصرها.

وغير بعيد عن الفترة التي عاشت فيها سمدونة، يكشف لنا الشيخ القطعاني عن سيدة ليبية أخرى، عاشت في القرن السابع الهجري، وشاركت في تطوّر المستوى المعرفي في مدينة غدامس وثرائها العلمي، حتى أن صيتها وصل صداه إلى عواصم الفكر والثقافة الإسلامية واستدعى أن يقصدها علم إسلامي شهير كمحيي الدين بن عربي (ت 638) في مدينة غدامس عام 597هـ[2]، الذي بلغ تأثُّره بها إلى حد تخليده لها بقصيدتين من عالى قصائده في ديوانه «ترجمان الأشواق»، ويصفها الشيخ بـ «سيدة وقتها عِلْمًا وعملًا وصلاحًا ومعرفة»[3]، فـلا بد أن «امرأة تعاطي ابن عربي الحقائق وتلهمه القصائد لا ريب أنها على مستواه ويا لمستواها الذي تقاصرت بل قصرت بل خجلت بل عجزت عنه همم الرجال واجتهادات الأعيان»[4].

(1) تفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) عن لقاء ابن عربي بالسيدة لبنى الغدامسية في غدامس، ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص 245.
(3) المصدر نفسه، ج1، 246.
(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

وتبرز تراجم نساء أُخريات تنوعًا في أدوار المرأة الصوفية الليبية، كما في ترجمة الشيخ للسيدة راقبة بنت أبي الإسعاد الحضيري التي ضربت مثالًا في رقي الحوار الأسري المثمر مع زوجها الشيخ محمد بن المختار الحضيري، وإن كان من أظهر ثمراته ابنهما الشيخ حسن بن محمد الحضيري المشارك في نشر الإسلام في النيجر وتشاد، إلا أن في ثنايا ترجمتها ما يؤكد مشاركتها في نشر ثقافة أسرتها الرفيعة في أوساط الأُسر في مجتمعها.

وإن كانت الكتابات التاريخية التقليدية تعطي صورًا سيئة عن أوضاع المرأة في عهد الدولة القرمانلية، إلا أن الشيخ القطعاني يحدثنا عن غير ذلك في موسوعته، فالسيدة ربح الفرجانية، كانت من فقهاء المذهب المالكي في تلك الفترة[1]، بل تضمنت تراجم الموسوعة عددًا غير قليل من النساء اللاتي برزن في عهد السيدة ربح، كالسيدة زينوبة، والسيدة السودة، والسيدة أم سلام، والسيدة كليلة[2]، ومن الواضح أن عنايته بتحديد أماكن دفنهن ووصف أضرحهن والتأكيد على إقامة مزارات لهن، يهدف للتنبيه على الحُظْوة التي عاشتها هؤلاء النسوة في مجتمعهن لا في زمنهن فقط بل وفي لاحق الفترات، فتمييزهن بأبنية وقِباب وإقامة مواسم سنوية لهن يشير إلى استمرار المجتمع في حفظ مكانتهن لأدوار يبدو أن صفحات التاريخ غيَّبتها.

ومن الجوانب التي تكشف عنها الموسوعة في الحياة الاجتماعية ظاهرة الأُسر العلمية، فقد ضمّت ذِكرًا للكثير منها، مثل: الفيتوريين، والحطابيين، والمكنيين، والمدنيين، والأوجليين، والنعاسيين، والخروبيين، والحُضيريين، والغلبونيين، والمسعوديين، والسنوسيين، والسودانيين، وغيرهم، واعتنت بالترجمة لأبناء هذه الأُسر في تسلسل متلاحق كالحطابيين، والمدنيين، والسنوسيين، والغلبونيين والمسعوديين، وغيرهم، أو عبر فترات زمنية متباعدة كالفيتوريين، والحضيريين مثلًا، مقرونة بآثارهم ومنتجاتهم الفكرية ومؤلفاتهم.

---

(1) المصدر نفسه، ج2، ص 404.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص 405.

ورغم الأهمية التي أوْلتها الدراسات لظاهرة الأُسر العلمية وتأثيراتها وأدوارها، إلا أن الشيخ يشير إلى جانب آخر قد يختلف بالنظر إلى وحدة التكوين الثقافي العلمي في ليبيا، وتأسيسًا على تشكّل المجال الثقافي والعلمي وفقًا لأصوله الثلاث الراسخة في التاريخ وباستمرار حركتها وفعلها على مرّ العصور، ويتعلق ما يشير إليه الشيخ بالدور العلمي المتشابه لكل هذه الأُسر الليبية ومنتجاتها التي تجلّت في مضمون كتبهم مؤلفاتهم، وبالتالي ربما إمكانية وجود قرابة بين هذه الأُسر في ليبيا تتجاوز النسب إلى وحدة الانتماء لفضاء صوفي ثقافي، وهو ما نلحظه في تنبيهاته العديد إلى انتساب العديد من الأُسر إلى الفضاء الثقافي للمدينة كالغدامسيين والبرقيين والتاجوريين.

كل تلك الشخصيات الصوفية الفاعلة وما نتج عن أدوراها يعطي صورًا أخرى مغايرة لما تذكره كتب التاريخ التقليدية وسايرها في ذلك المنتج الاستوغرافي حول مزاعم وجود ركود وتراجع الفعل الثقافي والاجتماعي في معظم فترات تاريخ البلاد، وبالتالي تنهض التراجم كوثيقة مهمة بالفعل توضح وتُجلّي ما غاب عن كتب التاريخ التقليدية من حَرَاك اجتماعي وثقافي كبير، داخلي: من خلال الاتصالات التي أثبتتها رحلة الأسانيد وتنقلاتها بين المناطق التي تمرّ بها الأسانيد في حلقات زمنية أفقية وعمودية، وخارجي: من خلال الاحتكاك بالمثقفين الوافدين، الذين تحتضنهم الزوايا في الغالب، في عملية تأثير وتأثُّر، ولنا في وقائع الكثير من اللقاءات التي وثقتها كتب الرحلات الحاجّية خير دليل.

الجانب الاقتصادي

تنشغل كتب التاريخ التقليدية بالنظر إلى المجتمع من زاوية البلاط وأثر السُّلطات السياسية في توجيه دفّة الاقتصاد وإيجاد موارده، والحديث عن عوامل ومسبِّبات داخلية وخارجية في انتعاش الاقتصاد وركوده، وأهملت دور الفئات

المجتمعية الفاعلة بمختلف أشكالها وتوزيعاتها، وربما من المهم أن نحاول الغوص في تفاصيل التراث الصوفي لنجد فيه الكثير من المهمل في هذا الجانب.

وكما سبق وأن أسلفنا فإن الانتشار الكبير للزوايا وتوزّعها في الرُّقع الواسعة في عمق البلاد كان له دور كبير ومساهمة فاعلة في توطيد عوامل الاستقرار، من تلك المساهمات الفاعلة القضاء على ظاهرة قطع الطريق وخلق ظروف آمنة لتنقل قوافل التجارة وتحول الزوايا لمحطات رئيسة تتوقف عندها تلك القوافل كما أسلفنا، وإن كنا بحاجة للبحث في تفاصيل أكثر توسعًا عن الدور الصوفي في حماية وتأمين التجارة الصحراوية، لكن يمكن الاستناد بشكل مبدئي على بعض الوثائق كرسالة سلطان واداي محمد شريف بن السلطان صالح بن السلطان صليح العباسي إلى الشيخ يونس العجائبي، شيخ الطريقة السنوسية في جالو، قائلًا: «فسبب الخط إليك من جهة القافلة فها هي متوجهة إليك بكُلّيتها وأنتم أهل الطريق ومنانا وناسنا فالمطلوب منكم كما هي عادتكم معنا بأن تقوموا بكامل همتكم وتتواصوا بهذه القافلة بأن تحفظوها وتمنعوها من كل مذبذب ومتصدٍّ لها، فلا يتعرّض لها أحد بقليل ولا بكثير وتحفظوا ما ضاع منها وتردوه لأهله وناس الوقف ترسلوهم إلى سفرهم الذين هم بصدده وقافلة التجار كذلك، وأنتم ناسنا وأهل أماننا، والسلام»[1].

وإن تحدثت بعض الدراسات الحديثة وكتب التاريخ التقليدية عن دور «الرباطات» في المراقبة البحرية وحماية الثغور، إلا أنها في الحقيقة لم تكشف عن كامل أدوارها ووظائفها، ومما قد يربك بعض الدارسين الاسم التي اشتهرت به مواقع الصوفيين على سواحل البحر، فقد يذهب البعض إلى التفريق بين تلك المواقع والزوايا، تبعًا للاسم الذي اشتهرت به وهو «الرباطات»، وهو اسم انبثق من أحدى وظائف الزوايا، وهي وظيفة الدفاع والحماية، وهي وظيفة لم تقتصر على زوايا الصوفيين على ساحل البحر، بل مارستها أغلب الزوايا الصوفية عندما استدعت

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج 2، ص 496.

الحاجة، ولنا في زوايا الطريقة السنوسية أشهر مثال؛ إذ تحولت الزوايا السنوسية من وظيفتها التعليمية والمجتمعية إلى ثكنات عسكرية عندما استدعت الحاجة للدفاع، على الرغم من أنها كانت في عمق الصحراء بعيدًا عن ساحل البحر. ويمكننا في إطار الدفع نحو الكشف عن المزيد من الوظائف والأدوار التي أدتها تلك «الرباطات»، إثارة أسئلة من واقع مواقعها وما يحيط بها، ومنها هل يتصل دور المراقبة والدفاع بممارسة دور لحماية «التجارة البحرية»؟، فقياسًا على وعي الصوفيين الليبيين بأهمية تأمين وحماية طرقات التجارة عبر الصحراء، فلا بد أن يكون لزواياهم دور في تأمين التجارة البحرية، وإن كنا لا نملك تفاصيل حول هذا الدور، لكننا نستأنس لتأكيد هذا الافتراض بمواقع الرباطات التي يبدو أن الصوفيين اختاروها هنا أيضًا لأسباب معنية، فأغلبها يقع إلى جانب الموانئ البحرية أو قريبًا منها؛ ما قد يشير إلى علاقة ما بينها وبين موانئ البلاد التي تُعدُّ المنفذ الرئيس للتجارة البحرية.

وتزودنا تراجم أصحاب الرباطات بمعلومات قد تندرج في هذا السياق، ومنها أن الإمام الشعاب كان يمارس مهنة النجارة في رباطه بطرابلس[1]، وبخلاف ما تم تصويره من أن تلك الرباطات كان يسكنها الزهاد والعباد المنقطعين للعبادة، فمهنة النجار تقتضي اتصال من يمارسها بالمحيط سواء لتسويق منتجه أو لشراء المواد الأساسية. وبناءً على إشراف رباطه على ميناء المدينة هل يمكننا افتراض سؤال مفاده: هل كانت مهنة الشعاب في النجارة على صلة بصناعة السفن، وأنه كان يشارك في تعزيز القوة الدفاعية التي من المؤكد أن من بين مهامها تأمين التجارة البحرية؟.

وما يقال في رباط الشعاب يقال في الأربطة الأخرى المنتشرة على طول الساحل، فيمكن معرفة المزيد من خلال قراءات بين سطور تراجم أصحابها، ومثلًا هل كانت مهنة الصيد في البحر التي كان يزاولها الشيخ عبد الجليل الحكيمي في رباطه بجنزور[2]، على علاقة بدوره في الرصد والحركة في ساحل منطقته؟.

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 200.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص 275.

ووعي الصوفيين بأهمية الاقتصاد في الدفاع عن البلاد في المجمل لا يقع في دائرة الافتراضات والتخمين فقط، بل صفحات التاريخ الصوفي تثبت وتؤكد ذلك من خلال العشرات من الوقائع، ومنها أن عددًا من الصوفيين كانوا يطوفون طرابلس والدواخل في إبَّان احتلال الإسبان لطرابلس للدعوة لـ «المقاطعة الاقتصادية للمحتلين، ونجحت المقاومة الاقتصادية فحولت التجارة البحرية عن ميناء طرابلس إلى موانئ مصراته وحُرم الإسبان بذلك من دخل المدينة الرئيس»[1]، كما أن واقعة اتصال مراد آغا -أول الولاة العثمانيين في ليبيا- بالإمام عبد السلام الأسمر[2]، تعكس لنا بشكل واضح إدراك الصوفيين لأهمية موارد الدولة في تشييد أركانها، وضرورة حماية تلك الموارد من فساد الولاة وتعدِّيهم عليها، فقد أجمعت المصادر التي أرَّخت للإمام الأسمر أنه اشترط على مراد آغا «عدم الإضرار بأحد من الناس وأن يأكل من عمل يده»[3]؛ لقبوله في الطريقة العروسية، وهو ما التزم به مراد آغا فكان يعيش من صنعة الخياطة على الرغم من أن الأموال التي تجبى لخزينة حكمه بلغت سنة 1560م (100000) سكودو سنوي»[4]. ويبدو أن الشيخ الأسمر واصل تعزيز قيم تلك النصيحة في مراد آغا، فحتى المصادر الأجنبية أكدت أنه أخذ بنصائح الإمام الأسمر فـ «لم يهتم سوى بالأعمال الصالحة والخيرية»[5]، وبعد تنازله عن الحكم لدرغوث ريس انصرف للعبادة و«أوقف جميع أملاكه على بناء المساجد والزوايا والكتاتيب»[6].

(1) المصدر نفسه، ج1، ص 465.
(2) ذكر هذه الواقعة: كريم الدين البرموني في «روضة الأزهار»، وعبد السلام بن عثمان في «فتح العليم»، وانظر تفصيلها في موسوعة القطعاني، ج1، ص 533.
(3) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 533.
(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(5) الحوليات الليبية، شارل فيرو، ترجمة عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، ط3، 1994م، ص 108.
(6) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

وتتوفر الموسوعة على العديد من الوقائع كشواهد على وعي الصوفية بأهمية الاقتصاد لردع الولاة الظلمة، ومنها قيام الشيخ إبراهيم الدامي الحضيري بـ «سكّ عملة باسمه تداولها الناس لفترة فطلبته الحكومة التركية، وحملته إلى تركيا حيث أودع سجنًا هناك»[1]، وإن كانت مثل هذه الواقعة تكفينا كشاهد، إلا أنه من الضروري السعي لكشف ما أحيط بها من أسباب وظروف، خصوصًا وأن قلق السلطات التركية الذي وصل إلى حد اعتقال الشيخ الدامي ونقله إلى تركيا لسجنه فيها وليس في ليبيا، يؤكد أنه لم يكن تصرفًا فرديًّا أو عشوائيًّا، فمن الضروري لسكِّ العملة من وجود نظام سياسي وإداري وخزانة وموظفين ونظام مالي، كما أن سكَّ العملة مرتبط بشكل الوضع الاقتصادي وأنماط الموارد أيضًا، فأين كتب التاريخ التقليدية من كل ذلك؟!.

ومن مظاهر اعتناء الصوفية بالاقتصاد ووعيهم بأهميته لدعم مشاريعهم الإصلاحية - الأوقاف التي تعكس أيضًا وعيهم بأهمية تحصين مشاريعهم من أي اختراق، فالاستقلالية وفرت لهم عامل آمان من التبعيّة للسلطة والحكام ومنعت استغلال الزوايا. ووثائق المؤسسات الوقفية مهمة أيضًا في توسيع البحث حول الشخصيات الصوفية الليبية بإبراز أبعادٍ أخرى في حياتهم، كريادتهم في الجانب الإداري وقدرتهم على تطوير هياكل تلك المؤسسات وصيانة مواردها واستمرار استثمارها.

وتتميز المدونات الصوفية -كمصدر مهم للتاريخ الليبي- بالثراء والتنوع، لكنها تحتاج وعيًا خاصًّا بطريقة التعامل معها، فالوثائق الصوفية تختلف نسبيًّا عن الوثائق بمعناها الدارج سواء على المستوى الرسمي أو الأكاديمي، فمثلًا «الأوراد» الصوفية تُعدُّ من أهم الوثائق صحة وصلة بأصولها؛ إذ تتواتر في أوساط الطرق الصوفية بالتناقل الشفهي والمكتوب، فهي بالإضافة لتوثيقها مشروحة في «الإجازات الصوفية»[2] يتم تداولها شفهيًّا على نطاق واسع بين مريدي كل طريقة صوفية عبر

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج3، ص 190.
(2) الإجازة كغيرها من الإجازات التي يمنحها الشيخ لتلميذه عند تخرجه، يبين فيه الشيخ أسانيده =

مختلف الفترات المتوالية في تطابق بين المروي والمكتوب. ومنها أوراد الطريقة العروسية المتواترة بين مريديها منذ عصر الإمام الأسمر في القرن العاشر الهجري، وبإمعان النظر فيها نكتشف مضامين مهمة تعكس صورًا من الجهود التي كان يبذلها الإمام الأسمر، بل وتمكن من تنفيذها، فأهم وِرْدين وظّفهما للمريدين هما (ورد الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنسيخة والنساخين وما أشبه ذلك) و(ورد أصحاب الفلاحة والاشتغال)[1]، يكشفان عن بُعْد اقتصادي في مشروعه، فكلاهما أوراد لشريحة من مريديه يمارسون أشغالًا، أي: حِرَفًا ومهنًا، وأنشطة زراعية وفلاحية، بالإضافة لطلبة العلم والعلماء.

وما يهمنا في الوِرْدين أعلاه، هو ما يعكسانِهِ من ملامح مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي، ونجاحه في خلق فضاء في زاويته بزليتن وحولها نمتْ فيه صناعات وحِرَف، بعضها على علاقة بالدور العلمي للزاوية كمهنة النسخ والوِرَاقة، وبعضها على علاقة بالظروف الطبيعية والجغرافية المتوفّرة بمنطقته كالفلاحة والزراعة وتنشيط حركة الحِرَف والصناعات.

ولا نتوقف عند حد قراءة معاني أسماء تلك الأوراد، بل نجد في ثنايا نصوص وصايا الإمام الأسمر ما يؤكد حقيقة وجود نشاطات اقتصادية رائجة في زاويته ومنطقته، كرَوَاج مهنة النسخ والوِرَاقة، ففي بعض مواضعها نجده يوصي فيه طلابه ومريديه والأساتذة في زاويته بضرورة تدارس القرآن الكريم وإن «لم تحفظوه فاقرأوه من النسخة»[2] وغَنِيّ عن البيان أن وجود أعداد كبيرة من طلابه ومريديه في الزاوية يستدعي كثرة وجود «نسخ» من المصحف الشريف، وهو ما يقتضي وجود نساخين

= في مختلف العلوم ويشهد له بالأهلية للتدريس، غير أن الإجازة الصوفية تزيد عن ذلك ببيان الشيخ أسانيده في طريقته الصوفية، وعادة ما يُرفقها بنصوص أحزاب وأوراد الطريقة، وهي من أهم الوثائق الصوفية التي لا تزال بعيدة عن متناول أيدي الدراسين.

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص 201.

(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص10.

بالزاوية بالتالي، ومن المهم أن نشير إلى أن الرسم القرآني الخاص بكتابة المصاحف يحتاج تخصُّصًا في علم القراءات لخصوصية رسم المصاحف.

وتكثر المواضع المتصلة بالنسخ والوراقة في وصاياه، كحثّ مريديه على مطالعة كتب الإمام زرُّوق، وكتب أخرى «كالمورد والعمدة وابن جُزَي»[1]، و«التجويد والضوابط والروايات كنافع وغيره»[2]، و«كاليافعي والمنهاج والشيخ القشيري»[3]، و«المختصر والرسالة»[4]، و«الروايات الصحيحة في المذاهب المعلومات»[5]، و«الأخبار الصحيحة وبالناسخ والمنسوخ وبالمطلق والمقيد والعام والخاص»[6]، وإن كانت هذه النصوص مهمة أيضًا للتعرّف على ما كانت تحويه مكتبة الزاوية، إلا أن أهميتها تبدو في أن توفُّر هذه الكتب يقتضي وجود حركة نشطة لمهنة نسخ الكتب، خصوصًا إذا لاحظنا أنه يتحدث في بعض الأحيان عن تخصصات علمية، دون أن يسمي كتبها كـ «الروايات الصحيحة في المذاهب المعلومات، والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد» وغيرها، ما يعني أنه يقصد كل الكتب المؤلفة فيها التي تعد بالعشرات.

وبالإضافة لنصوص الإمام الأسمر، ففي كتب السيرة التي ألّفها تلاميذه حول حياته ما يشير إلى نشاط حركة النسخ ووجود عدد كبير من النساخين، ومنها أن للإمام الأسمر «أربعين كاتبًا، منهم سبعة لا يفارقونه قط»[7] يدونون كل ما يمليه عليهم من رسائل أو نصائح أو كتب، وأزعم أن عدد النسّاخين أكثر من ذلك، فالمصادر أجمعت

(1) المصدر نفسه، ص 32؟
(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(3) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(5) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(6) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(7) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 490.

على أن مكتبة زاوية الإمام الأسمر كانت تضم 500 مجلد في مختلف التخصُّصات[1]، وهو كمٌّ من الكتب يتطلب وجود عدد كبير من النساخين. وفي أثناء كل هذه المؤشرات والمعطيات يجب ألا نغفل أن نشاط النسخ والوِرَاقة يتطلب وجود الورق والأحبار واللوازم الضرورية في عمليات النسخ والتجليد والحفظ والتخزين وغيرها، ويتطلب توفّر كل هذا اتصالات مباشرة بالأسواق، والمكتبات الكبرى في البلاد وفي الأقطار المجاورة لجلب نسخ الكتب والاصدارات الحديثة للنسخ منها.

كما يمكننا ربط وجود شريحة من أصحاب «الأشغال»، وهم المهنيون والحِرَفيون وممارسو الأنشطة الصناعية الذين وظّف لهم الإمام الأسمر وِرْدًا خاصًّا، بما يرد في وصاياه من نصوص تعكس حركة رخاء اقتصادي حول زاويته، لحد توفر خدمات وكلاء التبضع يوصلون السلع إلى الزبائن في بيوتهم دون الحاجة للتسوق، كما تتوفر الوصايا على ملامح وصور من الحياة الاقتصادية المرفّهة التي يعيشها الناس في عصره، كاستخدام «السروج المرصّعات بالذهب والفضة والركب المغشاة المموهات»[2]، وتوفر الألبسة بوفرة ألوانها كـ «اللباس الأحمر والأسود»، و«الأصعب والأشقر والأشخم والولغ»[3]، «والشال والقفطان والسدرية لأهل المدائن»[4]، و«الأُزُر (جمع إزار) المرموقات بأطرافهن بالأحمر والأصفر»[5]، والأحذية بأصنافها كـ «البشماق الأحمر.. والكمخت والأخفاف والأمسات»[6].

وفي مواضع أخرى نجد الإمام الأسمر يحثُّ مريديه على ضرورة غسل وتنظيف وتبييض الملابس «بالجبس أو الغاسول أو الصابون أو الشب الأبيض»[7]

(1) ذكر هذا العدد في أغلب المصادر التي تحدثت عن واقعة اعتداء يحيى بن يحيى السويدي على الزاوية، وتدمير مؤسساتها، ومنها حرق المكتبة. ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، 517
(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص 27.
(3) المصدر نفسه، ص 28.
(4) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(5) المصدر نفسه، ص 29.
(6) المصدر نفسه، ص 28.
(7) المصدر نفسه، ص 27.

ما يدل على رواج صناعات هذه السلع بكثرة حتى أنها متاحة لكافة شرائح مريديه، وحِرَف وصناعات أخرى: كالحياكة ودبْغ الجلود والحلي والمعادن وصناعاتها، وإن كان بعضها يعكس وجود حركة شراء واستيراد نشطة في المنطقة كـ «المسك وجميع الرائحة الفائحة»[1]، فمثل هذه الأصناف لا يبدو أن صناعاتها تتم داخل البلاد.

وعلاوة على أن هذه النصوص مفيدة في التعرّف على صور من الحياة الاقتصادية، إلا أن أهميتها أكبر في كونها تبين لنا بُعدًا من أبعاد مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي، خصوصًا علاقة الزاوية بتنشيط وتشجيع أصحاب المهن على صناعاتها واحترافها، فقد اعتنى الإمام الأسمر باستمرار ارتباط أصحاب هذه المهن والحِرَف بالزاوية من خلال تخصيصهم بأوراد خاصة بهم.

ومن مظاهر عناية الزاوية برفع المستوى الاقتصادي لدى مريد الطريقة العروسية، ما نفهمه من نصوص وصاياه لمريديه وطلابه بلباس «الأجاريد (يقصد الجرد) الفاخرة والثياب الفائقات والشواشي الباهيات والعمايم الحسنات والبشاميق الباهرات والأمسات الغاليات والأخفاف المعكرشات»[2] وهي أصناف غالية الثمن كما يتضح، ولا بد لمن يلبسها ويقتنيها أن يكون في سَعَة من عيشه بوفرة مالية تمكنه من شرائها، وإلا كيف يطالبهم إمامهم وشيخهم المربي بتداول وشراء ألبسة لا يمكنهم اقتناؤها؟.

الجانب السياسي

أبرز الشيخ القطعاني للصوفية من خلال تراجمهم في موسوعته خطابًا ومواقف سياسية واضحة المعالم، إما من خلال رفضهم ظلم الحكّام وعدوانهم، أو بتدخلهم للشفاعة لدى الحكّام، أو التوسُّط بين الحكّام والقبائل لوَأْد الفتن والحروب.

(1) المصدر نفسه، ص 29.
(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

وشكّل ما عرف عن كبار رموز التصوف من زهد وورع ما يمكن وصفه بالمقاومة غير المباشرة لنفوذ السُّلطات والحكّام، فاستحالة شراء ذممهم أو استمالتهم من قِبَل الحكام بسبب ورعهم وزهدهم خَلَق قيمًا إيجابية رسّخت مبدأ رفض التسلط والفساد في أوساط المجتمع، كما أن مكانتهم في المجتمع جعلت السلطات دومًا تنظر إليهم بعين المهابة وحفظ جوارهم؛ ما خلق نوعًا من التوازن حدّ من نفوذ أصحاب السلطة.

لكن هذه الأدوار لا تعبر عن كامل تفاصيل مشاركة الصوفيين الليبيين في الحياة السياسية، فدراسة تراجم الصوفية وتفحّصها وتتبّع أعمالهم بشكل دقيق يكشف عن مشاركة أوسع وتنوع وثراء أكثر، واختلاف في طريقة التعاطي مع المواقف السياسية تبعًا لاختلاف المبادئ والأسس التي قامت عليها كل طريقة صوفية وميزتها عن بعضها البعض.

لكن قد تبرز بعض الصعوبات في طريق استجلاء دور رجال التصوف في ليبيا في الحياة السياسية؛ بسبب أن المدونة الصوفية الليبية يطبع أغلبها طابع الحديث عن قواعد السلوك والتربية أو توثيق السير والمناقب، وتسهيلًا على الباحث والمهتم بدراسة حيوات الصوفيين الليبيين وأدوارهم - اقترح طريقة قد تكون أيسر، وهي: أن يجمع الباحث تراجم رجال كل طريقة على حِدَة ودراستها بشكل فاحص، فيتبيّن لديه القواسم المشتركة في أعمال رجال كل طريقة، وسيكتشف ملامح من اختلاف تعاطي رجال كل طريقة مع القضايا السياسية، فبعضهم اكتفى بممارسة وظائف دبلوماسية لفكّ اشتباكات أو منع صراعات بين دول وكيانات سياسية، كالدور الدبلوماسي الذي لعبه الشيخ حامد الحضيري وأخاه الشيخ علي بين الدولة العثمانية ودولة أولاد امحمد عام1036 هـ/ 1626م وإقناع الطرفين بالصلح بل واقتراح بنود الصلح وتوثيقه بعد أن كانت المنطقة على شفا حروب ضَرُوس[1]، وكذلك سفارات الشيخ محمد الخروبي بين الجزائر والمغرب لمرتين، الأولى عام 956هـ/ 1549م،

(1) للتوسيع ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 91.

والثانية عام 961هـ/ 1553م، وتمكن من رَأْب صَدْع كبير بسبب خلاف حدودي[1]، وجهود الشيخ محمد الصيد الناجحة في التوسط بين سليمان باشا داي طرابلس وأويس الهاجدي زعيم قبيلة الرقعيات ووأد فتنة كانت ستطال مناطق واسعة[2].

كما أننا نجد طرقًا أخرى أدّى رجالها وظائف الاستشارة السياسية، كما هو الحال مع الشيخ عبد الوهاب القيسي، المعروف بعروس الصوفية؛ إذ يحدثنا الرحالة التيجاني عن احتضانه لأبي يعقوب يوسف الخشاب، الذي أقام دولة في جنوب الأندلس قريبًا من جبل طارق، قبل أن يلجأ إلى طرابلس إثر سقوط دولته، ويقيم في ضيافة القيسي ويتصوف على يديه إلى أن طلبه السلطان الحفصي في تونس[3]، وكذلك كان الشيخ علي الخروبي مستشارًا لأبي بكر بن عثمان آخر الولاة الحفصيين على طرابلس[4]. ومثل هذه الأدوار الاستشارية للصوفيين نرصدها حتى في فترات التاريخ الحديث، ومن أشهرها الشيخ محمد ظافر بن محمد حسن المدني الذي كان مستشارًا للسلطان عبد الحميد الثاني، والشيخ علي البكو كان أيضًا مستشارًا سياسيًّا لبشير السعداوي زعيم حزب المؤتمر، أو نشاطًا سياسيًّا عبر الصحافة كالشيخ محمد البوصيري صاحب صحيفة الترقي التي أسسها عام 1897م كأول صحيفة سياسية ليبية.

ويعود هذا التباين والاختلاف في الممارسات السياسية لدى رجال التصوف في ليبيا إلى الأفكار والأُسس التي قامت عليها كل طريقة صوفية، فنجد أن مبدأ الطريقة العروسية الأساسي الذي حدد نهجها في التعامل مع القضايا السياسية، يقوم على التعامل الحَذِر مع السُّلطة والحكام، بل يتصادم مشروعها الإصلاحي المبني على التغيير من القاعدة الشعبية مع السلطة في الكثير من الأحيان، فنجاح رجالها

---

(1) الصراع التركي السعدي الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي للمغرب، حبيب وداعة الحسناوي، ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص 177.

(2) للتوسع ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 5.

(3) للتوسع ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص 270.

(4) للتوسيع ينظر: موسوعة القطعاني، ح1، ص 442.

في حشد مجتمعي كبير حولهم عادة ما يثير مخاوف السلطة، فتكون قرارات النفي والتضييق أول ما يصدر بحقهم، والأمثلة في ذلك عديدة نلمسها في محاولات الشيخ أحمد أبو تليس[1] وتلميذه الشيخ فتح الله بوراس[2]، في تونس والقيروان خلال العهد الحفصي، قبل أن يتعرضا لنقد واسع في الأوساط الفقهية وصل لحد الكَيْد لهما لدى السُّلطة، ما استدعى خروجهما إلى ليبيا حيث استقرا في بني وليد شرق طرابلس. وهو أسلوب في التعاطي مع السياسة والحكام يختلف تمامًا عن أساليب الطريقة العيسية[3] أو الطريقة الناصرية[4] أو الطريقة المدنية[5] أو الطريقة السعيدية[6]

(1) أحمد بن عبد الله الرشيد، أبو تليس، من أبرز رجال الطريقة العروسية الأوائل، برز في تونس وفي الأزهر بمصر، هاجر من تونس وأقام في بني وليد بليبيا سبع سنوات قبل أن يرجع إلى تونس مجدد، رجح الشيخ القطعاني انه توفي في حدود 916هـ/ 1510م. ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص 473.

(2) فتح الله بن فتح الله بن سعيد الجغبري، أبو راس، من أبرز رجال الطريقة العروسية، ومن علماء تونس، درّس في الأزهر والقيروان، وهاجر إلى ليبيا وأقام رفقة شيخه أبو تليس في بني وليد، وتتلمذ له في ليبيا الشيخ عبد الواحد الدوكالي، كما التقاه الإمام عبد السلام الأسمر، توجه جنوبًا حتى وصل برنو وتوفي فيها. ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص 476،

(3) الطريقة العيسية (وهي غير الطريقة العيساوية) أحد فروع الطريقة الجزولية الشاذلية، أسسها الشيخ عيسى بن يحيى التلمساني الشهير بأبي معزة، أخذها عنه عدد من علماء ليبيا، من بينها الشيخ حامد الحضيري والشيخ محمد الصيد، واشتهرت على يد الأخير، وأنجبت هذه الطريقة عددًا من علماء ليبيا، منهم الشيخ محمد بن مساهل مفتي طرابلس، ومن رجال هذه الطريقة في فترات لاحقة الشيخ أحمد أبو طبل الورفلي، وغيرهم الكثير. للتوسع عن الطريقة العيسية ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص3.

(4) الطريقة الناصرية من فروع الطريقة الزروقية الشاذلية، أسسها الشيخ امحمد بن ناصر الدرعي في المغرب، دخلت إلى ليبيا على يد مؤسسها عند مرورها بها سنة 1076هـ/ 1665م، وأخذ عنه عدد من علمائها، وأولى زوايا زاوية بن عمار في تاجوراء، وزاوية الشيخ علي بن عبد الصادق في الساحل بالقرب من الخمس، ونمت وانتشرت هذه الطريقة في ليبيا، وأنجبت الكثير من العلماء منهم الشيخ محمد خليل بن غلبون صاحب كتاب «التذكار». للتوسع عن الطريقة الناصرية ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 139.

(5) الطريقة المدنية من فروع الزرُّوقية الشاذلية، أسسها الشيخ محمد حسن بن ظافر المدني في مصراته، وانتشرت على يديه داخل ليبيا وخارجها، وأنجبت العديد من العلماء، وخلفه في مشيختها نجله محمد ظافر، ومن أعلامها الشيخ أحمد النائب صاحب كتاب «المنهل العذب» وغيره الكثيرون. للتوسع عن الطريقة المدنية ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 330.

(6) الطريقة السعيدية من فروع الخلوتية، أسسها الشيخ محمد سعيد الهبري الجزائري في ليبيا، بعد =

في التعاطي مع القضايا السياسية كما سنرى لاحقًا.

وسنقتصر على دراسة مواقف هذه الطرق التي ذكرنا كنماذج لتوضيح شكل الممارسات السياسية لدى رجال التصوف في ليبيا، وتهدف دراسة هذه النماذج أيضًا إلى إجلاء ما غاب في دهاليز ظلام الدراسات الحديثة عن الدور الصوفي الفاعل في خلفيات حَرَاك تاريخ البلاد، وأهمها:

- قضية دولة أولاد امحمد الفاسي.
- قضية كتابي «التذكار» و«المنهل العذب» ومؤلفيهما.

الممارسة السياسية في الطريقة العروسية ودولة أولاد امحمد الفاسي

ويبدو أنه من المفيد الإقرار بصعوبة استخلاص ما يمكن وصفه بالدور السياسي للطريقة العروسية في التاريخ الليبي؛ وذلك نابع من حذرها الشديد في التعامل مع السلطة والحكام، ما جعل أكثر رجالها لا يظهرون في الميدان السياسي على مرّ فترات تاريخ البلاد، كما هو الحال في شخصية أبرز رجالها وهو الإمام عبد السلام الأسمر، وإن ذُكر بعض رجال العروسية الآخرين ففي سياق الرفض والإقصاء المتبادل بينهم وبين والحكّام، كما حدث مع الشيخ علي الفرجاني والشيخ عبد السلام بن عثمان والشيخ محمد النعاس[1]، وبالإضافة إلى أن غياب الوثائق طَمَس العديد من الجوانب من الممارسة السياسية لرجال هذه الطريقة كما سنرى في العلاقة بينها وبين دولة أولاد امحمد.

ويبدو أن علاقة الحذر بين رجال الطريقة البارزين والحكام، خصوصًا تنفير شيوخ الطريقة مريديهم من الاتصال والتعامل مع الحكّام والأمراء ورجال الدولة، جعل كُتّاب المدونات الخاصة بالتاريخ العروسي في ليبيا يعزفون بشكل كبير عن إيلاء هذا الجانب أهمية. وعلى الرغم من ذلك فلدينا جملة من المعطيات يبدو أن

= أن تتلمذ على يد الشيخ أحمد النفاثي التاجوري، ونمت وتوسعت وأنتجت عددًا من العلماء منهم الشيخ أحمد بن عبد الدائم الانصاري والشيخ أحمد البهلول والشيخ محمد المختار الحضيري وغيرهم. للتوسع عن الطريقة السعيدية ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 116.

(1) سنتعرض لقضيتهم لاحقًا بشيء من التفصيل

تراكمها واحتشادها سيفرض في المجال البحثي ضرورة للاهتمام بها والبناء عليها، ففي سيرة أبو تليس نجد أنه بعد أن هاجر من تونس أقام كيانًا سياسيًّا في بني وليد، عُرف بـ «مشيخة بن تليس»[1]، وساعده في توطيد أركانه تلميذه أبو راس الذي نجده على علاقة مباشرة بشخصية صوفية أخرى، وهو الشيخ مبارك الفاسي، فقد لازم الفاسي أبو راس وأخذ عنه الطريقة العروسية عام 899هـ/ 1493م[2]، قبل أن يتجه عام 902م/ 1497م إلى الحمادة الحمراء بليبيا ليؤسس فيها زاويته العروسية في وادي بوحيران وبقي بها إلى توفي في حدود 931هـ/ 1525م[3]، وفي هذه الزاوية أخذ عنه حفيده الشيخ امحمد بن عثمان بن مبارك الفاسي مؤسس دولة أولاد امحمد، وحفظ عليه القرآن الكريم ومبادئ العلوم[4]، قبل أن يتنقل بصحبة والده عثمان بين عدد من مناطق الجنوب إلى ان استقرا في بلدة قطة حيث بَنَى والده فيها قلعة وقصرًا لا تزال أطلالهما قائمة[5]، وواصل ولده الشيخ امحمد مسيرة جدِّه ووالده اللذين وضعا أسس الكيان السياسي فأقام دولتهم واشتهرت باسمه «دولة أولاد امحمد».

وإن كانت الوثائق تعجزنا عن تجلية صورة المشروعين السياسيين -مشيخة بن تليس، ودولة أولاد امحمد- وصلتهما ببعضها إلا أن جملة هذه المعطيات تجبرنا على ضرورة اعتبارها مؤشرات مهمة على ممارسة الطريقة العروسية ورجالها أدوارًا سياسية، وربما تتضح معالم المشروع الأول إذا ما أولت المؤسسات المعنية بدراسة اركيولوجيا المدن وآثارها عناية بدراسة متخصصة لمدينة «بن تليس»[6]، فأغلب

(1) تحدث عن هذا الكيان بإيجاز الأستاذ مختار بن يونس في كتابه «علماء الغلابنة وآثارهم العلمية»، وخلال كتابه «من تاريخ الثقافة في ليبيا» أشار إلى أنه بصدد التوسع في الحديث عن مشيخة بن تليس من خلال وثائق في حوزته، إلا أنه توفي ولم يخرج ذلك العمل.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 507.

(3) المصدر نفسه، نفس الصحة.

(4) المصدر نفسه، ح1، 508.

(5) المصدر نفسه، ج1، 507، 508.

(6) مدينة أثرية تقع على بعد 10كم شرق مدينة بين وليد، لا تزال أقسامها ظاهرة حتى الآن، بما فيها قصر الحاكم والمسجد الجامع ودار القضاء، وأكثر من 300 بئر تشكل شبكة مياه فريدة لتغطية =

أقسام هذه المدينة ومؤسساتها لا تزال قائمة، بالإضافة لضرورة الكشف عن وثائق هذه المدينة التي لا تزال حبيسة الخزائن الخاصة لدى بعض الأُسر، فلا بد أن ترتفع هذه الأُسر إلى مستوى الوعي بأهمية الوثيقة، وتسمح للباحثين بالاطلاع على كميات الوثائق التي تزال تحت رُكام الأتربة في الخزائن الخاصة لأسباب غير معقولة، فهذه الوثائق مهمة بأهمية الوثائق التي ظهرت في الجنوب الليبي وكشفت عن جوانب من حياة دولة أولاد امحمد.

وقد تدفعني العلاقة المؤكدة بين أبي راس وتلميذه الفاسي، إلى افتراض أسئلة قد يفتح الوصول إلى جوابها آفاقًا للكشف عن الصِّلَات بين مشروعي أبي تليس والفاسي، وما لدينا لا يعدو أن يكون قرائن، كتوجُّه مبارك الفاسي إلى الجنوب الليبي الذي قد يكون بتوجيه من شيخه أبي راس، لا سيما وأن المصادر التي ترجمت لأبي راس أجمعت على أنه توجه -بعد رجوع شيخه أبي تليس إلى القيروان- إلى الجنوب حتى بلغ «برنو» وتوفي ودفن فيها، ولا يمكن أن يكون قد وصل إلى برنو دون أن يمرّ على أسرة الفاسي التي كانت وقتها تمهد لإنشاء كيان سياسي في الجنوب، كما أن تلك الأسرة هي الأخرى على صلة تجارية بـ «برنو» التي توفي فيها أبو راس، فهل كانت تلك الوجهة إلى الجنوب والوفاة في برنو على علاقة بمشروع تأسيس كيان سياسي عرف فيما بعد بدولة أولاد امحمد؟ وأزعم أن توجه أبي راس إلى الجنوب جاء بعد أن ساءت أحوال «مشيخة بن تليس» التي نجد أن أحد حكامها اللاحقين عُرف عنه الجور والإسراف في جباية الضرائب من المناطق المجاورة لبني وليد[1].

= المدينة، ومباني السكان ترتفع بعضها إلى ثلاثة طوابق، وشبكة كثيفة من الطرقات، وكل مبانيها ذات طراز وطابع إسلامي، تعرضت للإهمال وتلفت بعض أجزائها، ولم تلقَ أي عناية أو اهتمام من مصلحة الآثار التي تعاني أزمة توجيه متعمد لأذهان مسؤوليها للعناية بآثار فترات ما قبل الفتح الإسلامي، وهي أزمة تعانيها أقسام التخصص في علم الآثار في الجامعات الليبية؛ إذ لا تخصص موادًّا عن الآثار الإسلامية إلا بخجل واستحياء، ولا تشجع طلابها على أنجاز رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه حول الآثار الإسلامية في البلاد.

(1) ذكر عبد السلام بن عثمان في «فتح العليم» وفي «الإشارات» واقعة تفيد بأن علي بن تليس كان جائرًا في جباية الضرائب وذكر صورًا من ظلمه، وإن كانت الواقعة التي ساقها ضمن حديثه عن =

وإن كنت العلاقة الصوفية بين الفاسي وشيخه أبي راس مؤكدة، إلا أن ما تشير إليه بعض الوثائق وتسندها فيه المرويات المحلية توفر لنا معطيات أخرى قد تزيد من وثاقة الاعتقاد بوجود صلات بين مشروعي بن تليس وأولاد امحمد وإقامتهما في إطار انتماء مؤسسيهما للطريقة العروسية، ومن ذلك أن أبا راس أعطى للفاسي «راية» عرفت في أوساط أسرة الفاسي بـ«راية العروسية» وبقيت يتوارثها حكام أولاد امحمد، يسلمها كل من يعتلي كرسي الحكم رمزًا لشرعية حكمه، وكذلك إقامة المشروعين في مناطق بعيدة عن نفوذ السلطات القائمة في طرابلس ما يدل على عدم الرغبة في الاحتكاك بها، وهو ما يتماشى تمامًا مع التعامل الحذر مع السلطات الذي عرفت به العروسية، خصوصًا وأن سلاطين دولة أولاد امحمد تحاشوا أكثر من مرة الصِّدَام مع سلطات طرابلس، وكانت سلطتهم في الجنوب قائمة على الولاء للصوفية والأشراف والتبرك بهم لا بواسطة الإخضاع بقوة السلاح.

وربما من المهم أيضًا أن نقف عند واقعة اختيار الإمام الأسمر «جبل سوف الجين» في بني وليد، مقرًّا لسكناه بعد نفيه من طرابلس على يد السلطة الإسبانية، وهو المكان الذي جرّد الإسبان حملة عسكرية لمحاصرته فيه(1)، فهل كانت الحملة الإسبانية على علاقة بذلك الكيان السياسي الذي سعت العروسية لإنشائه في بن تليس؟ ولا يغيب عن بالنا أن المكان الذي سكنه الإمام الأسمر في جبل سوف الجين محصّن بطبيعة جبلية يصعب التنقل فيها أو الوصول إليه، لا يزال يسمى حتى الآن بـ«القلعة»، وهو اسم له دلالاته العسكرية، ولا تزال بعض أطلاله تشير إلى وجود

= كرامات الفواتير في زليتن، إلا أن مضمونها يشير إلى استمرار قوة مشيخة بن تليس وتوسع رُقعتها حتى ضمّت زليتن وبلوغ قوتها إلى حد الجور في جباية الضرائب، ينظر: الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات، عبد السلام بن عثمان، مكتبة النجاح، د. ت، ص 74، 75.

(1) اتفقت على هذه الواقعة كل المصادر التي ترجمة للإمام الأسمر: روضة الأزهار لكريم الدين البرموني، وفتح العليم لعبد السلام بن عثمان. انظر أيضًا: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 524.

مبانٍ في تلك القلعة، وعين ماء قالت كتب السير إن الإمام هو من استحدثها، وإن لفَّ واقعة استحداثه لعين الماء طابع الكرامة الصوفية.

وكما أسلفنا فإن حالة الحذر الشديد لدى مؤسسي الطريقة العروسية الأوائل من الاقتراب أو التعامل مع الحكام والسلطة أثَّر بشكل كبير في تجاهل كتب المناقب والسِّيَر ذكر أي تفاصيل في البُعد السياسي للجهود الإصلاحية التي بُذلت في الفترة الأولى من عمر الطريقة، فنحن لا نجد أي تفاصيل مهمة في هذا البُعد في كتاب «ابتسام الغروس»[1] الذي يُعَدُّ أول مصدر تاريخي للطريقة، ولا في المدونات التالية، باستثناء ما تُحدّثنا عنه كتب السيرة المعنية بالإمام الأسمر، من أن مراد آغا قام بزيارة الإمام الأسمر بعد أن استقر له أمر البلاد، وتعكس تفاصيل اللقاء حالة الحذر الشديد التي طبعت استقبال الإمام الأسمر لمراد، وفي تفاصيل أخرى حول هذه العلاقة نجد الإمام الأسمر اشترط على مراد آغا «عدم الإضرار بأحد من الناس وأن يأكل من عمل يده»[2]؛ لقبول انخراطه في سلك الطريقة العروسية، وكل ما يمكن فهمه من هذه العلاقة أن الإمام الأسمر لم يرغب في الاقتراب من دوائر السلطة، لكنه لم يكن رفضًا في ذات الوقت، فالأمر في اعتقادي له علاقة بدعم الإمام الأسمر لمجيء العثمانيين للمساعدة في طرد الإسبان وفرسان القديس يوحنا من البلاد، وفي اشتراطه عليه «أن يأكل من عمل يده» رسالة ضمَّنها موقفه الرافض لمجرد تفكير السلطة في استمالة زاويته بالأموال والمزايا، وبذلك وضع سدًّا منيعًا منذ البداية بينه وبين السُّلطة.

ومواقف الإمام الأسمر التالية لعهد مراد آغا تؤكد الموقف العروسي الرافض على الدوام التبعية للسلطات، فيبدو أن الولاة العثمانيين الذي أعقبوا مراد آغا في الحكم مارسوا إجراءات جائرة وفرضوا ضرائب باهظة؛ ولذا نجده جاهر برفض انحرافات أولئك الولاة، ففي بعض أحزاب طريقته يستعيذ علنًا من «جوز المخازنية

(1) ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب الشيخ أحمد بن عروس، عمر الرشيدي، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1938م.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 533.

وظلم الجبابرة العادية»[1]، وغني عن البيان أن أحزاب الطريقة تُتلى بشكل جماعي وعلى الملأ، ما يعكس إعلانا من جانب الإمام الأسمر في الأوساط عن موقفه من ولاة السلطة، بل ودعوة المجتمع للإعلان عن رفضها.

ويظهر الموقف العروسي الحذر في التعامل مع الحكام والولاة بشكل واضح في نصائح ووصايا الإمام الأسمر، فقد شدّد على مريدي طريقته بقوله: «وإياكم وخلطة السلاطين والقادة والأمراء والوزراء والحكام فلا تخالطوهم، بل ولا تقربوا الجميع ولا تفقوا عليهم ولا على منازلهم ولا على مجالسهم إلا لضرورة واضحة ومشقة فادحة»[2]، ويلاحظ أنه لم يدعُ مريديه للخروج على الولاة والحكام، بل الاقتصار على نصحهم فقط «فان علمتم أنهم يقبلون النصيحة فانصحوهم بترك الظلم وبالعفو عن الخلائق المحبوسين»[3]، وحتى وإن اضطر كبار مريديه إلى مجالسة «الملوك فحدثوهم بسيرة أهل العدل وآداب العقلاء والعفاف عما في أيدي الرعية»[4].

ومن الواضح أن نصائح ووصايا الإمام الأسمر شكلت منهج تعاطي الطريقة العروسية مع القضايا السياسية، فلاحقًا نجد أن تعامل رجال الطريقة من الجيل الثالث الذي يبدأ مع الشيخ أبي راوٍ وتلاميذه كالشيخين علي الفرجاني وعبد السلام بن عثمان، والجيل الثالث الذي ظهر فيه الشيخ محمد بن عبد الحفيظ النعاس وآخرون، مع القضايا السياسية يسير وفق هذا النهج، ويتضح ذلك جليًّا في المناظرة التي وقعت بين الشيخين محمد بن عبد الحفيظ النعاس ومحمد خليل بن غلبون التي أورد الأخير نصها في كتابه «التذكار»[5]، وسنحاول قراءة مضامين هذه المناظرة لاستجلاء الموقف العروسي بوضعها في إطارها زمانًا ومكانًا وفي بُعْدها الفكري، وتفيد هذه

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص 96.
(2) المصدر نفسه، ص 12.
(3) المصدر نفسه، ص 13
(4) المصدر نفسه، ص 32
(5) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، محمد خليل بن غلبون، تصحيح وتعليق الطاهر الزاوي، دار المدى الإسلامي، بيروت، ط1، 2004م، ص 269.

القراءة أيضًا في التعرف على بعض الجوانب المهمة المهملة في شخصية ابن غلبون وفكره وآرائه وبالتالي منهجه في كتابه التذكار.

الخلفية الصوفية لابن غلبون المفتاح لمغاليق كتابه «التذكار»:

قبل المُضي أحب أن أؤكد أن على أمر مهم وهو أن تركيز الدراسات المعنية بالتاريخ الليبي على القسم الأول من كتاب التذكار، الخاص بالأخبار والأحداث السياسية؛ لمحاولة استكشاف منهج ابن غلبون ومصادره وفكره ووضع المقارنات بينه وبين نصوص غيره من المؤرخين، أضر باعتقادي بشخصية ابن غلبون وكتابه المهم في التاريخ الليبي، فالتعرّف على تكوينه وأبعاد تشكل شخصيته وآرائه السياسية والثقافية والاجتماعية تظهر بجلاء ووضوح من خلال القسم الأخير من كتابه، وهو قسم التراجم، كما سيتضح بعد قليل.

وتتحدد المحاور الرئيسة في المناظرة التي دارت بين الشيخين ابن غلبون والنعاس في:

1- إنكار ابن غلبون على الطريقة العروسية تخصيصها ليلتي الاثنين والخميس من كل أسبوع للاجتماع على بعض العبادات، وإقامة حلقات السماع والذكر الجماعي.

2- إنكار ابن غلبون على النعاس تأديب المتغيب عن الاجتماع ليلتي الاجتماع الاثنين والخميس، أو من قارف معصية من أتباع الطريقة العروسية، بالمال.

3- الخلاف بين الشيخين حول أين يوضع ذلك المال؟، فبينما أقر ابن غلبون بجواز التأديب بالمال، إلا أنه رأي أنه لا يجوز إلا «للإمام، بشرط أن يضعه في بيت مال المسلمين»، فرد النعاس على ابن غلبون: «وأين الإمام؟»، فأجاب ابن غلبون بأن «مذهب مالك يقول بإطاعته بعد انعقاد البيعة ولو فاسقًا» دون أن يسمي ذلك الإمام.

4- طعن ابن غلبون في «شهادة» شيوخ النعاس في الطريقة العروسية: محمد الفرجاني وعبد السلام بن عثمان وشيخهما الشيخ أبي راوٍ، والتأكيد على عدم قبول شهادتهم.

ونص المناظرة مهم لفهم خلفيات ومنطلقات ابن غلبون والنعاس كرجلين يمثّل كلّ منهما طريقة صوفية ازدهرت في ليبيا، وأثّرت في مناخها الثقافي، وبالتالي أثر هذه الخلفية الصوفية فيهما. وإن كنت لا أضيف أي جديد إذا نبّهت إلى أن النعاس كان عروسيًّا، بل شيخ الطريقة العروسية في وقته، إلا أنه من المهم معرفة أن ابن غلبون كان ناصري الطريقة، بل من أهم رجال الطريقة الناصرية في عصره، وهو الانتماء الصوفي الذي لم يعرفه أغلب من اشتغل بدراسته وكِتابه، ومن عرفه لم يوله أهمية. وسنرى أهمية الانطلاق من الخلفية الصوفية للشيخين لاستكشاف مواقفهم وآرائهم، وبالتالي أهمية هذا المنطلق للتعرف الصحيح على آراء وأفكار ومواقف كل الشخصيات التي تنتمي للتصوف.

وباعتبار شهرة تاريخ الطريقة العروسية وسهولة الوصول إلى مصادرها التاريخية وما كتب عنها لاحقًا، فلا بد من تعريف وجيز بالطريقة الناصرية، وهي: طريقة صوفية أسسها الشيخ امحمد بن ناصر الدرعي[1] في المغرب الأقصى، الذي يُعرف عنه وعن شيوخ طريقته اللاحقين حرصهم الكبير على تطبيق مبادئ وتعاليم الإمام زرُّوق، كونها أحد فروع الطريقة الزرُّوقية، وأشهر تلك المبادئ مبدأ عدم قبول الترخص في السنة النبوية، وعدم قبول ما لم يتم فيه إجماعًا بين الفقهاء و ما لا يُسند إلى الأئمة المشهورين في المذهب، والإنكار على من يرون فيهم مخالفة لهذه المبادئ بنعتهم بـ «المتفقِّرة» ووصف أعمالهم بـ «البدعة». بل وألف أئمة الناصرية في ذلك كُتبًا، ومنها كتاب «المزايا فيما أحدث من البدع في أم الزوايا» للشيخ محمد بن عبد السلام

(1) انظر الهامش رقم (94)

الناصري[1]، بل وحتى شيوخ الطريقة الناصرية في ليبيا شاركوا في التأليف حول هذه القضايا الصوفية الخلافية، ومنهم الشيخ علي بن عبد الصادق الجبالي[2]، الذي ألف كتاب «تحفة الإخوان في الرد على فقراء الزمان»[3].

ولعدم وضوح موقف ورأي الإمام زرُّوق في مسألة الحكم والسلطة، اجتهد أئمة الطريقة الناصرية في بناء موقف خاص بهم في هذه المسألة، استندوا فيه إلى فهمهم للنصوص الشرعية وإجماعات فقهاء المذهب المالكي، فجاء موقفهم في اتجاهين، الأول: الاعتراف بشرعية الحكام المحليين والتعامل معهم مباشرة ومخاطبتهم بلقب «أمير المؤمنين»، دونًا عن التعامل مع الخلافة في مراكزها البعيدة، والثاني: ممارسة النقد داخل دائرة الولاء للسلطة المحلية، وتختلف أوجه هذا النقد بحسب واقع وظروف الحادثة التي تستوجب نقدًا، فمنها ما يتم بتوجيه الرسائل التي تحمل نصائح مباشرة إلى رأس السلطة، ومنها ما يتم بالمجاهرة برفض قراراتها التي تراها ظالمة ومطالبتها بالتراجع عنها لكن دون خَلْع الطاعة.

وعلى الرغم مما جرَّته هذه الطريقة في التعاطي مع السلطة على الناصريين من تضييق وتهديد في الكثير من الأحيان من بعض الحكام، إلا أنها شكّلت لها في ذات الوقت حصنًا مانعًا من محاولات استغلال السلطة لمكانتهم الكبيرة لخدمة مصالحهم، فنجد مؤسس الطريقة امحمد بن ناصر الدرعي رفض الدعاء على المنبر للمولى رشيد لما آلت إليه أمور الدولة، لكنه في ذات الوقت كتب له رسائل ناصحًا

(1) ينظر: المزايا فيما أحدث من البدع في أم الزوايا، محمد بن عبد السلام الناصري، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.

(2) أحد علماء ليبيا، أقام زاويته في منطقة الساحل المحاذية لمدينة الخمس، يعد شيخ الطريقة الناصرية في ليبيا أخذها عن الخليفة الثاني الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، ألف العديد من الكتب وطبع بعضها، توفي سنة 1138هـ/ 1725م. ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، 246.

(3) قال عنه ابن غلبون في التذكار أنه «كتاب في البدع» أي في الرد عليها، عن هذا الكتاب وسائر مؤلفات ابن عبد الصادق ينظر: مصادر دراسة الحياة الفكرية في ليبيا في العهد القرمانلي، عمار جحيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2003م، ص 42 وما بعدها.

ومقرِّعًا في الكثير من الأحيان حيال بعض قرارته وفي ذات الوقت يخاطبه فيها بـ «أمير المؤمنين»، وعندما تولى المولى إسماعيل ضمّن اعترافه به حاكمًا شرعيًّا للبلاد في رسالة تحمل تشديدًا له على ضرورة عمله على إحياء السنة وإماتة البدعة في البلاد، وكذلك كان موقف خليفته من بعده ابنه الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي مع المولى إسماعيل في عدم الدعاء له على المنبر لكنه يخاطبه بـ «أمير المؤمنين»[1].

واعتقد أن ما سبق كافٍ لتوضيح ما أعنيه بارتباط الصوفي بنهج طريقته فكرًا وعملًا، وتأثير ذلك في بناء مواقفه وآرائه، فابن غلبون ارتبط بشكل مباشر مع قائد السلطة في عصره أحمد القرمانلي، وكان يصفه بـ «أمير المؤمنين»[2]، دون أي ارتباط له بالخلافة في مركزها الرئيس في الآستانة، وفي ذات الوقت جاهر في العديد من المرات برفض قرارات ومواقف القرمانلي وقادته، كموقفه المجاهر برفض سماح قائد القرمانليين في مصراته ببيع الخمور ولليهود ببناء كنيس[3]، بل اعترض على بناء القرمانلي مسجده في طرابلس واتهمه ببنائه من أموال حرام[4].

وبالعودة لنص المناظرة، نجد أن محاورها الأساسية تكشف الفروق في تعاطي الطريقتين -الناصرية والعروسية- مع قضايا السياسة، وأبرزها موقفهما من شرعية سلطة الحكام المحليين، فبينما يؤكد ابن غلبون -كغيره من الناصرية- أثناء حواره مع النعاس على شرعية الحاكم وأنه «الإمام» ووجوب طاعته ولو كان «فاسقًا»، وهنا يعني بكل تأكيد أحمد باشا القرمانلي الذي وصفه في الكثير من مواضع في كتابه التذكار بـ

(1) ينظر: زاوية تمكروت والمخزن، عبد العزيز الخمليشي، ضمن الكتاب الجماعي الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997م، ص 121 وما بعدها. وضمّن الخمليشي بحثه عددًا من رسائل امحمد الناصري وابنه أحمد لسلاطين الدولة في المغرب ينتقدونهم ويخاطبونهم بـ «أمير المؤمنين» في ذات الوقت.

(2) وصفه عدة مرات بوصف «أمير المؤمنين»، انظر على سبيل المثال التذكار ص 245 و247 وغيرها الكثير في ثنايا كتابه.

(3) التذكار، ص 269.

(4) نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، أحمد النائب، تحقيق علي مصطفى المصراتي، المكتب التجاري، بيروت، 1963م، ص 168.

«أمير المؤمنين»، يعكس سؤال النعاس لابن غلبون «وأين الإمام؟» موقف العروسيين من الحكام المحليين وعدم الاعتراف بشرعيتهم، ونفهم أن المقصود بسؤال النعاس هنا هو القرمانلي وأنه لا يعترف بشرعيته حاكمًا.

ولو تتبَّع كل من درس «التذكار» ومؤلفه السياق التاريخي لموقف الناصريين من «السماع» لعرف أن مناظرة ابن غلبون والنعاس هي حلقة من سلسلة طويلة دار فيها خلاف حول السماع، فقد كان قائمًا منذ فترة طويلة سبقت وجود ابن غلبون واستمرت من بعده، وأول محطاتها كانت بين مؤسس الطريقة الناصرية الشيخ امحمد الدرعي والشيخ أبي راوٍ أبرز شخصيات الجيل الثاني في الطريقة العروسية، ففي «فتح العليم» انعكاس لحوار دار بينهما حول هذه القضية انتهى بثناء الدرعي على أبي راوٍ في توضيح أصول الطريقة العروسية على الرغم من تحفّظه على استخدام الدُّف المصاحب للسماع[1]، واستمر موقف الناصريين في عهد الخليفة الثاني للطريقة وهو الشيخ أحمد الدرعي نجل مؤسس الطريقة؛ إذ سجل انطباعه المتحفِّظ بشدة على ما شاهده من أتباع الطريقة العروسية عند مروره بزليتن[2]، ثم تحول إلى موقف جدلي بين علماء الطريقتين في ليبيا، إذ كتب الشيخ عبد السلام بن عثمان عملين، الأول: في شكل رسالة، والثاني: في شكل نَظْم؛ تعليقًا على الإشكالات المحيطة بقضية السماع، ساق فيهما عددًا من الأدلة الشرعية للاجتماع للذكر بمصاحبة استخدام الدُّف، فرد عليه الشيخ ابن عبد الصادق شيخ الطريقة الناصرية في ليبيا والتلميذ المباشر للشيخ أحمد بن ناصر الدرعي، بكتاب «تحفة الإخوان في الرد على فقراء الزمان» سالف الذكر، ما حدا بالشيخ عبد السلام بن عثمان ومعه الشيخ علي الفرجاني لرفع القضية

(1) فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم، عبد السلام بن عثمان، تحقيق نادية مفتاح، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس الأولى، للعام الدراسي 2001 – 2020م، ص192.

(2) الرحلة الناصرية، أحمد بن ناصر الدرعي، تحقيق عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، ط1، 2011م، ص 208.

إلى الشيخ علي النوري الصفاقسي؛ كونه شيخ الطريقة الناصرية بتونس ومرجعًا علميًّا بارزًا؛ ليحكم في الخلاف بينه وبين ابن عبد الصادق، فكتب النوري الصفاقسي رسالة «في حكم السماع» أبان فيها عن رأي متوازنٍ بين جواز الاجتماع للذكر والتحفظ على استخدام الدفوف بمصاحبة الذكر[1].

واستمرت هذه الحوارات، لكنها أخذت طابعًا جدليًّا حِدّيًّا بدخول ابن غلبون على خطّها، فإلى جانب مناظرته مع النعاس، جرت مناظرة أخرى بينه وبين عدد من شيوخ الطريقة العروسية: عبد السلام بن علي الفرجاني ومحمد قاسم قاجة وحسن القلاصي في زاوية الفرجاني العروسية بساحل آل حامد[2]، واستمرت السِّجَالات شفهية ومكتوبة، فألف الشيخ محمد قاسم قاجة «تحفة ذوي التقليد» ردًّا على «تحفة الإخوان» لابن عبد الصادق[3]، كما كتب بعض تلاميذ النعاس ردًّا عنْوَنَه بـ «نصرة الذاكرين وحجة أرباب التمكين»[4] على آراء ابن غلبون.

بل طاول موقف الناصرية من السماع أتباع الطُّرق الأخرى، فلاحقًا نجد أحد شيوخها وهو الشيخ الطالب بن طوير الجنة الشنقيطي يكتب «فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان» عند مروره ببنغازي عام 1247 هـ/ 1831م، انتقد فيه استعمال أتباع الطريقة المدنية في شرق ليبيا للسماع[5]، ودارت العديد من السِّجَالات حول السماع بين رجال الطريقة المدنية ومن اختلف معها حول السماع، كما سنرى لاحقًا[6].

(1) رسالة في السماع، علي النوري الصفاقسي، تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
(2) من تاريخ الثقافة في ليبيا، مختار بن يونس، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2007م، ص 40
(3) المصدر نفسه، ص 46.
(4) مصادر دراسة الحياة الفكرية في ليبيا في العهد القرمانلي، مصدر سابق، ص 49.
(5) ينظر تاريخ بن طوير الجنة، الطالب أحمد بن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، منشورات جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995م، ص 28.
(6) ابن طوير الجنة من شيوخ الطريقة الناصرية أخذها عن شيخه محمد عبد الله التوريني عن أبيه =

وهكذا يتبين جليًّا أن موقف ابن غلبون من قضية السماع التي تمحور حولها أساس مناظرته مع النعاس، كان حلقة في سلسلة من حلقات حوارات جرت بين رجال التصوف، اختلفوا فيها استنادًا إلى أُسس نظريات كل طريقة صوفية. وفي هذا السياق لا يهمنا أدلة أي من الطرفين ترجح على الأخرى حتى لا ننجرَّ إلى جدل فقهي لسنا بصدده، خصوصًا وأن هذه القضية لم ينتهِ علماء التصوف فيها إلى حسْم رغم كل هذه السجالات، لكن ما يهمنا التعرُّف على السياق الذي ظهر فيه ابن غلبون وخلفياته الفكرية الصوفية التي بنى عليها موقفه من قضية السماع كونه من رجال الطريقة الناصرية، وهو ما ينطبق بكل تأكيد على مواقفه في القضايا الأخرى، على أنني أجد من المهم التنبيه على جانب في شخصية ابن غلبون يبدو أنه كان له أثر في جعل مواقفه تختلف نسبيًّا عن مواقف أسلافه ومعاصريه من رجال الطريقة الناصرية، هذا الجانب يبدو بعضه ظاهرًا ويتعلق بحدَّة طبْعه التي تخرجه في بعض الأحيان عن قواعد المناظرة والحوار، وهو ما نفهمه من وصف النائب له بقوله: «غير أنه كان في لسانه فضْل»[1]، وبعضه الآخر لا يبدو واضحًا كعدم توثيقه لكامل نص المناظرة مع النعاس، فنص المناظرة أوسع من ذلك كما وثقها الشيخ محمد قاسم قاجة[2]، وتعطي صورة أوسع للمناظرة غير الصورة التي رسمها ابن غلبون كمتفوق على النعاس بحججه وأدلته[3].

= عبد الله التوريني عن أحمد بن ناصر الدرعي عن أبيه امحمد الدرعي مؤسس الطريقة الناصرية. ينظر: حياة موريتانيا، المختار بن حامد، الدار العربية للكتاب، 1990، ج2، 93.

(1) نفحات النسرين والريحان، مصدر سابق، ص 168.

(2) من تاريخ الثقافة في ليبيا، مصدر سابق، ص 47

(3) ومما يؤيد اختلاف موقف ابن غلبون، لا في قضية السماع بل في عديد القضايا، ربما بسبب الحدَّة في حواراته وتحيّزه لرأيه – أن شيوخ الطريقتين –الناصرية والعروسية– لم يتجاوزوا في قضية السماع حدَّ الاختلاف في الرأي، فالشيخ عبد السلام بن عثمان قرض كتاب «إرشاد المريدي» للشيخ علي بن عبد الصادق بناءً على طلبه، ونجد في كتب عبد السلام بن عثمان ثناءً كبيرًا على رجال الطريقة الناصرية، وبالمقابل صدر الشيخ النوري الصفاقسي رسالته في السماع بثناء كبير على الشيخين عبد السلام بن عثمان وعلي الفرجاني، كما نقل محمد بن عبد السلام الناصري رحلته الكبرى أن أحمد بن ناصر الدرعي احتفى بعبد السلام بن عثمان عندما التقاه ببيت من =

وبصرف النظر عما يتعلق بطبيعة شخصية ابن غلبون، إلا أن التفاصيل التي يذكرها في المناظرة مهمة؛ لأنها ستكشف لنا عن المزيد مما يدعم فرضي بأن الأرضية المعرفية والمنطلق الصوفي ذا تأثير مباشر في توجيه فكر أي شخصية صوفية، فمبادئ الطريقة الناصرية التي ينتمي لها ابن غلبون كانت موجهًا أساسيًّا في تحديد معالم منهجه في الكتابة التاريخية، خصوصًا معايير اختياره للشخصيات التي ترجم لها في نهاية كتابه «التذكار».

وتنقسم شخصيات قسم التراجم في «التذكار» إلى شخصيات عاصرها ابن غلبون وأخرى سبقت عصره، فالذين عاصرهم يربطهم مشترك عام يمكن بيانه في وجهين، أولهما: ولائهم لسلطة أحمد باشا القرمانلي (الإمام) بل وتعاملهم المباشر معه وهو ما يشير إليه ابن غلبون في كل ترجمة من تراجمهم من القرمانلي وهو من بنى لهم زواياهم، والثاني: حرص ابن غلبون على التأكيد بأنهم ممن يُقيم السنة ولا يترخّص فيها.

وينسجم الوجهين -الولاء والقرب من السلطة وإقامة السنة وعدم الترخُّص فيها- مع مبادئ الطريقة الناصرية التي ينتمي لها ابن غلبوم، فلا توجد أي إضافة

= الشعر، وقال مخاطبًا له:

من أين أقبلت يا من لا نظير له ... ومن هو شمس والدنيا له فَلَكُ.

فرد عليه ابن عثمان، قائلًا:

من منزل يألف العُبَّاد خلوته ... وفيه ستر عن الفُتَّاك إن فتكوا

(ينظر: الرحلة الناصرية الكبرى، تحقيق المهدي الغالي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2013م، ص 350). وقبل كل هذا فالاتصال بين العروسية والدرعيين قديم وأبرز مظاهره أن والدة الإمام عبد السلام الأسمر هي السيدة سليمة بنت عبد الرحمن الدرعي.

ومن بين المواضع التي نجد فيها تشدد ابن غلبون وتحيزه لانتمائه الناصري، بخلاف غيره من الناصريين، نقده الشديد لعمل عبد السلام بن عثمان في تذييل المعيار، بقوله «وألف كتابًا في الفتاوى سماه (التذييل) زعم أنه ذيّل به المعيار وجمع فيه من الغث والسمين شيئًا لم يسبق به» (التذكار، ص 269)، لكننا لا نجد نقده لفتاوى الشيخ علي بن عبد الصادق بهذه الحدة، عندما قال «كان رَحِمَهُ اللَّهُ يميل لجمع المسائل دون تحرير، فكلمته في ذلك فقال: قصدي حفظ الدين ونقل أقاويل العلماء، فالله تعالى يتقبل عمله ويحسن ثوابه» (التذكار، ص 277) على الرغم من أن مجال كتابة ابن عبد السلام وابن عبد الصادق واحد، وهو مجال الفقه وشروحاته.

أخرى على تراجم شخصيات كتابه التذكار غير ما ذكرنا من الوجهين، وهو ما يفسر لنا إهماله الترجمة للعشرات من الشخصيات الأخرى التي عاصرها، باستثناء الشيخين محمد النعاس وعبد السلام بن عثمان التاجوري اللذين وصفهما بـ «نَصَرة المتفقِّرة» وبقبول الترخّص في السنة والابتداع.

أما الشخصيات التي سبقت عصره، فقد اختارها وفق معيار يتقارب مع الأول، وهو أنهم من الأُوَيسيين أو الجُنَيديين[1]، ويعني بالقسم الأول «موافقتهم أويسًا القرني رضي الله عنه في هذا الوصف، فهم في التقشف والزهد والقناعة بالرتبة الأويسية»[2]، والثاني «موافقتهم لأبي القاسم الجُنَيد سيد طائفة أهل عصره، وإمام من بعدهم في الدعوة إلى الله تعالى، على أصول الكتاب والسنة»[3]، فترجم لمن ظهر له أن تصوفه ينتمي إلى المضمونين: الأويسي أو الجنيدي، وأهمل من لم يثبت له ذلك، فالأصلان هما ما يحققان له خلو توجه من ينتمي لهما من ممارسة ما تصفه الناصرية بـ «البدع» و«التفقر».

كما يظهر أثر الخلفية الصوفية الناصرية في منهج ابن غلبون أيضًا بشكل واضح في المعيار الذي أقامه أساسًا لاختيار مصادر وموارد «التذكار»، فلم يكن طعنه في «شهادة» الشيخ أبي راوٍ وتلميذيه علي الفرجاني وعبد السلام بن عثمان أثناء حديثه مع النعاس، إلا وجهًا يكشف لنا قاعدة «عدالة الراوي» والوثوق في صحة الأخبار التي يرويها، ومن هنا نفهم سبب عدم اعتماده كتاب «فتح العليم» لعبد السلام بن عثمان من بين مصادر كتابه الذي تضمن تراجم عدد من الشخصيات الليبية، ففي ترجمته لابن عثمان ما يؤكد أنه اطلع عليه، بل في قوله إنه «اعتمد في وَفَياتهم (أي

(1) وإن كان هذا التقسيم ورد في أصل القصيدة التي قام عليها كتابه إلا أنها تتماشى تمامًا مع مبدأ الطريقة الناصرية الداعية إلى ضرورة الرجوع بالتصوف إلى أصوله القديمة في إطار رفضها لما تصفه بـ «المتفقرة» و«البدع»

(2) التذكار، مصدر سابق، ص 248.

(3) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

الصالحين) وخصائصهم على أخبار عوام المتفقرة»[1]، ما يؤكد أثر مواقف الطريقة الناصرية ممن يخالفهم الرأي على ابن غلبون، فبالإضافة إلى أن ابن عثمان من المبتدعة، فمصادره في نقل أخبار الشخصيات التي ترجم لها «عوام المتفقرة». كما أننا لا نجد من بين مصادره كُنَّاشة الشيخ النعاس، وإن كنا لا ندري هل كتب النعاس كناشته قبل «التذكار» أم بعده؟.

ويبرز معيار عدالة الراوي لدى ابن غلبون استنادًا إلى خلفيته الصوفية الناصرية أكثر في طبيعة مصادره الأخرى في كتابه، فبحسب اعتقادي أن اختياره لقصيدة أحمد بن عبد الدائم الأنصاري لتكون أساسًا لكتابه الذي قام على شرحها[2]، على علاقة وثيقة أيضًا بتأثير الانتماء الصوفي، فابن عبد الدائم من رجال الطريقة السعيدية[3]، بل ومن أهم تلاميذ مؤسسها الشيخ محمد سعيد الهبري، الذي أقام طريقته على مبادئ متقاربة بشكل كبير من مبادئ الطريقة الناصرية، فالسعيدية أيضًا متشددة في التمسك بظاهر الشريعة والسنة، وتركز وظيفة زاوياها على العملية التعليمية كما الطريقة الناصرية، ولا يوجد «في منهجها إقامة حِلَق الذكر العامة ومجالس السماع»[4]، كما أنها تشترك مع الناصرية في الولاء للسلطة المحلية والتعاطي المباشر مع حكامها، حتى أن مؤسسها الشيخ الهبري كان يتقن التركية[5]، كما نجد ملامح الولاء للسلطة

(1) المصدر نفسه، ص 269

(2) أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، من أسرة النائب التي ينتمي لها أحمد النائب صاحب «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب»، من مثقفي وعلماء وقضاة طرابلس، ومن أبرز رجال الطريقة السعيدية؛ إذ أخذها عن مؤسسها الشيخ محمد بن سعيد الهبري لازمه في طرابلس، أديب وشاعر، وله دراية واسعة بالتاريخ، من نصوصه الشهيرة قصيدة انبرى فيها بالرد على الوزير الإسحاقي الشرقي الذي هاجم طرابلس وأهلها في رحلته، وهذه القصيدة كانت سببًا في تأليف ابن غلبون لكتابة التذكار؛ إذ قام الكتاب على شرحها، رجَّح الشيخ القطعاني أن تكون وفاة ابن عبد الدائم ما بين 1144هـ و1150هـ. ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 262.

(3) ينظر الهامش رقم (96)

(4) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 129

(5) نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، الحسين بن محمد الورثلاني، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908م، ص 140

المحلية واضحًا في تمجيد ابن عبد الدائم نفسه لأحمد القرمانلي في قصيدته التي شرحها ابن غلبون، ومنه قوله:

بها مَلِكٌ أندى من السُّحْب راحةً ... وأرْأَفُ بالأغراب من والدَتِهَا

لـه هـمَّـة تعلو لتأييد سنةٍ ... بحفْظ مبانيها وجمْع رُواتِهَا

لكن المختلف بين السعيدية والناصرية، أن السعيدية لا تقف موقف المعارض والمجاهر بالرفض لقرارات أي حاكم، وتستفيد من علاقاتها مع السلطة لتتجنب تضييقها على أنشطتها في نشر أفكار مشروعها الإصلاحي، ولتوضيح علاقة السعيدية بالسلطة بشكل أكثر يمكن مقاربتها بعلاقة رجال الطريقة البكرية في مصر مع السلطة، فالبكرية والسعيدية تنتميان إلى ذات الأصل الصوفي وهو الطريقة الخلوتية.

كما تختلف السعيدية عن الناصرية في موقفها من الطُّرق الأخرى، فعلى الرغم من حثّها للطرق الأخرى على العودة بالتصوف إلى أصوله الأُويسية والجُنيدية، إلا أنها لا تتخذ موقفًا شديدًا في النقد لأتباع الطرق الأخرى وتصفهم بالمتفقِّرة أو أحوالهم بالبدعة.

وربما يعترض قائل بأن سبب تأليف ابن غلبون كتابه كان في الأصل للرد على الوزير الإسحاقي، ولم يكن من قصيدة تناسب هذا الغرض إلا قصيدة ابن عبد الدائم التي نظمها أساسًا لذات الغرض، لكني ربما أضيف دلائل أخرى تدعم اعتقادي بأن تقارب الطريقتين في مبادئهما كان مظهرًا كاشفًا للمعايير التي اعتمدها ابن غلبون لاختيار مصادره، فبالإضافة لقصيدة ابن عبد الدائم، اعتمد ابن غلبون على «حولية البهلول» مصدرًا في أخبار الفترة التي سبقته أو عاصر أواخرها، فالبهلول هو الآخر من رجال الطريقة السعيدية بل ومن أبرزهم.

ومظاهر ارتباط الطريقتين الناصرية والسعيدية عديدة، منها العلاقة المتينة التي ربطت البهلول بالنوري الصفاقسي شيخ الناصرية في تونس، ليس على الصعيد الشخصي فقط، بل الفكري أيضًا فقد نَظَم كتاب البهلول كتاب الصفاقسي «العقيدة

النورية في اعتقاد الأئمة الأشعرية» في منظومة سماها «درة العقائد ونخب الفوائد»[1]، وألف مقامة أدبية على نهج «المقامة النورية» للصفاقسي. ومن مظاهر الارتباط الفكري بين الطريقتين أن ابن عبد الصادق وعلى الرغم منه أنه كان شيخ الطريقة الناصرية بليبيا في عصره[2]، إلا أنه أخذ أيضًا الطريقة السعيدية عن مؤسسها الشيخ محمد بن سعيد الهبري[3]، حتى أن الهبري كان يطلب منه استقبال خلفائه القادمين من خارج البلاد، كخليفته في الجزائر الشيخ محمد بن عبد الرحمن الراشدي، وبلغ من تَرْحاب ابن عبد الصادق بالراشدي أن ألّف للترحيب به كتابًا سماه «نور البصر في نتائج الفكر»، قال فيه إن ما كتبه فيه هو «من نفائس شيخنا الأستاذ والقطب الملاذ أبي عبد الله محمد بن سعيد» الهبري. كما أن ابن عبد الصادق اعتنى بشرح قصيدة البهلول في أحكام العزية[4].

النائب وكتابه «المنهل العذب»:

وهذا البحث المكثّف حول خلفيات الانتماء الصوفي لكل ما مرّ من شخصيات وأثرها في الأحداث والوقائع المرتبطة بهم، لعله يكون مدخلًا مناسبًا للحديث عن شخصية أخرى لها أهميتها في التاريخ الليبي ومدوناته، وهي شخصية الشيخ أحمد

---

(1) العقيدة النورية في اعتقاد الأئمة الاشعرية، علي النوري الصفاقسي، تحقيق الحبيب بن طاهر، دار اليمامة للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 2008م، ص 24.

(2) الرحلة الناصرية الكبرى، مصدر سابق، ص 343.

(3) كان ابن عبد الصادق يصف الشيخ الهبري بـ «شيخنا الأستاذ»، وقد كلفه الأخير باستقبال أحد أهم تلاميذ الطريقة السعيدية في الجزائر، وهو الشيخ محمد بن عبد الرحمن الراشدي الماحي، عند مروره بليبيا، فألّف ابن عبد الصادق إكرامًا للماحي كتابًا أسماه «نور البصر في نتائج الفكر»، والكتاب صوفي في مضمونه بالكامل، ولفت في ثناياه إلى أن «جميع ما احتوى عليه هذا الكتاب من علوم أولي الألباب، ونفائس شيخنا الأستاذ والقطب الملاذ أبي عبد الله سيدي محمد بن سعيد». ينظر: مثل طريف للتواصل الثقافي عالم ليبي يؤلف كتابًا للترحيب بضيفه، عمار جحيدر، ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص 97. وأيضًا: مصادر دراسة الحياة الفكرية في ليبيا في العهد القرمانلي، مصدر سابق، ص 57 وما بعدها.

(4) من تاريخ الثقافة في ليبيا، ص 117.

النائب الأنصاري، فمن المهم أن نستكشف آثار انتمائه الصوفي في كتابه «المنهل العذب».

وأعتقد أن الفوائد التي جنيناها من التعرُّف على الانتماء الصوفي لابن غلبون والتي فسّرت لنا بعض الواقع والقضايا المتصلة به وبكتابه مهمة، من المفيد أن نُوليها اهتمامًا في شخصية النائب، فهو من أبرز رجال الطريقة المدنية[1]، التي تُعدُّ أبرز فروع الطريقة الدرقاوية.

وإن كانت الدرقاوية تُعدُّ هي الأخرى من أهم فروع الطريقة الزرُّوقية، إلا أنها تعبّر عن فهم آخر لفكر الإمام زرُّوق وتمارس سلوكها وأعمالها بناءً على هذا الفهم، بشكل مغاير للفهم الناصري للفكر الزرُّوقي.

وباعتبار انتماء الطريقتين المدنية والناصرية لذات الأصل الزرُّوقي، ولأن موضوع كتاب النائب «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب»[2] يتقارب مع موضوع كتاب ابن غلبون «التذكار»، فمن المهم أن نبحث عن جذور الاختلاف بين الطريقتين المدنية والناصرية على الصعيد الفكري المُفضِي إلى التعرف على طريقة تعاطيهما في القضايا السياسية، وبالتالي الكشف عن المزيد من خبايا المنطلقات والجوانب المهمة التي غابت عن الدراسات المعنية بالنائب والمنهل العذب.

وللفائدة، ولحصر الموضوع دون توسع، سأنطلق من جملة انتقادات وجّهتها بحوث قدّمت إلى مؤتمر عقده مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية عن أحمد النائب، ومنها تعقُّب الأستاذ مختار بن يونس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تراجم النائب في «المنهل العذب» ومقارنتها بتراجم ذات الشخصيات في «التذكار»، باعتبار الأخير من مصادر الأول، فلاحظ أن النائب لم يتقيد «بحرفية النصوص التي ينقل عنها؛ إذ يتدخل فيها بالإسقاط

---

(1) ينظر الهامش رقم (95)

(2) طبع لأول مرة في عهد مؤلفه في الآستانة عام 1899م، لكننا سنعتمد هنا على طبعة دار الفرجاني، طرابلس، بتصحيح الشيخ الطاهر الزاوي، 1961م.

والزيادة والتعديل»[1]، واعتبر أن ذلك «يقلل من قيمة كتاباته»[2]. وعلى الرغم من أن الأستاذ ابن يونس استشعر انتماء النائب للطرق الصوفية التي تُولِي «السماع» أهمية في قواعد سلوكها، عند تعليقه على حذفه كل ما يتصل بنص مناظرة ابن غلبون مع النعاس في ترجمته للأخير[3]، إلا أنه لم يعرف ربما الطريقة التي ينتمي إليها النائب، وهي الطريقة المدنية التي بالفعل تُولِي اهتمامًا كبيرًا للسماع وعُرف عنها أنها تقيمه حتى في الطرقات والميادين العامة وتجاهر بالذكر فيه، وكثيرًا ما دخل رجال هذه الطريقة في سِجَالات تشبه السجالات التي اضطر رجال الطريقة العروسية لدخولها، فقد تعرضت هي الأخرى لنقد الطريقة الناصرية، فواجه رجال المدنية في درنة وبنغازي نقد ابن طوير الجنة الذي ألّف كتابًا خاصًّا في ذلك وهو كتاب «فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان» سالف الذكر، كما أن الحسين النائب والد صاحب المنهل العذب وأحد رجال الطريقة المدنية، ألّف كتاب «إرشاد السالكين ونصرة الذاكرين» للرد على منكري استخدام اتباع الطريقة المدنية بالجبل الغربي بليبيا للسماع[4]، كما تعرَّض المدنيون في سوكنة لنقد شديد اضطرهم لجَلْب مؤلفات لعلماء من خارج البلاد للرد على من أنكر عليهم السماع، حيث يفيدنا الشيخ القطعاني بأن الشيخ عبد الرحمن بن عبد الدايم بن طالب الله السوكني ألّف كتابًا سنة 1251هـ بعنوان «تحفة الفتاوى» جمع فيه فتاوى كبار علماء عصره من الأزهر وسواه المادحة للطريقة المدنية وأشياخها وأوْرَادها ومنهجها، وأشار لاطلاعه على الكثير من النصوص التي كتبها وجلبها المدنية في سوكنه بهذا الخصوص، منها كتاب لأحد رجال المدنية بسوكنة

---

(1) ابن غلبون وأحمد النائب دراسة مقارنة، مختار بن يونس، ضمن أعمال مؤتمر المؤرخ أحمد النائب حياته وآثاره وعصره، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2008م، ص372.

(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(3) المصدر نفسه، ص 375.

(4) مكتبة أسرة العسوسي/ النائب، إبرهيم الشريف، ضمن مؤتمر المؤرخ أحمد النائب الأنصاري، تحرير عمار جحيدر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2008م، ص 139.

عنوانه «الأجوبة المصرية الأزهرية على الطريقة المدنية الشاذلية»[1]، بل وألّف شيخ الطريقة المدنية في عصره، الشيخ محمد ظافر بن محمد حسن المدني، كتاب «النور الساطع والبرهان القاطع في أحوال الصوفية اللوامع» ودفع به إلى العديد من علماء الإسلام لتقريظه دفاعًا عن منهج الطريقة المدنية، وطبع في عهده عام 1885م.

ووضع النائب في إطاره الصوفي يمكننا من فهم أسباب تصرفه في التراجم التي نقلها عن «التذكار»، واعتقد أنها على علاقة بفهمه للخلفيات الفكرية الصوفية التي انطلق منها ابن غلبون، ففي المثالين اللذين أوردهما الأستاذ ابن يونس -وهما ترجمتي الشيخ سالم بن قنونو والشيخ محمد النعاس- نجد أن النائب لم يُسْقِط منهما إلا ما يمُتّ للاعتقاد الناصريين بصلة، كعلاقة بن قنونو بأحمد باشا القرمانلي وأن الأخير بَنَى له زاويته، وكذلك وصف ابن غلبون لقنونو بأنه «مقيم على السنة لا يترخَّص»، بل نجده أسقط من كل التراجم التي اعتمد فيها على التذكار كل ما يشير بصلة إلى أحمد القرمانلي أو وصف الابتداع[2]، كونه وجهة نظر الناصريين، وأبقى على ما سوى ذلك في كل التراجم التي نقلها من التذكار.

ويظهر ذلك أكثر جلاءً في تصرفه في ترجمة النعاس؛ فقد حذف كامل نصّ مناظرة ابن غلبون مع النعاس، واستبدل عبارات ابن غلبون في النعاس بغيرها من أوصاف العلم والزهد والعبادة، بل أدرج عبارة كان من الواضح أنها مقصودة، وهي أن النعاس «كان من الثقات الأثبات المخلصين»[3]، في ردٍّ ضِمْني على تشكيك ابن غلبون في شهادة النعاس وشيوخهم وإسقاط عدالتهم بالتالي، كما ضمّن سلسلة

(1) ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 345.

(2) على سبيل المثال في ترجمة محمد الماعزي قال: قال في التذكار «وكان يجلس بزاويته بالمنشية لبث العلوم» دون أن يشير إلى إعانة أحمد القرمانلي للماعزي على بنائها (المنهل العذب، ج1، ص 296)، وفي ترجمة علي بن عبد الصادق حذف عبارة «يكره الابتداع في الدين» على الرغم من أن التذكار مصدره في الترجمة كما يتضح في النقل الحرفي منها (المنهل العذب، ج1، ص 289)، وغيرها من الأمثلة التي لن تجد فيها تصرفاً إلا في هذين الموضعين فقط.

(3) المنهل العذب، ج1 ص 298.

من الثناءات في ترجمته لعبد السلام بن عثمان تدل على علمه وتقدمه في التصوف، وختمها بأنه كان «من خيار عباد الله الصالحين المتمسكين بالسنة»[1]، في ربط واضح بين تصوفه وتمسكه بالسنة، ما يشير أيضًا إلى ردٍّ ضِمْني آخر على ابن غلبون في اتهامه لابن عثمان بالترخّص في السنة ووصف اتباعه بالمتفقرة.

وتصرف النائب في النقل عن ابن غلبون باعتقادي أنه يهدف إلى موازنة مضمون تراجمه بعيدًا عن الإسقاطات الفكرية التي تبناها ابن غلبون تبعًا لانتمائه الصوفي للطريقة الناصرية، علاوة على أن مضمون مناظرة ابن غلبون مع النعاس يمس مبدأً أصيلًا لدى طريقته المدنية وهو «السماع»، ومن التجنِّي ومخالفة الواقع أن نتساءل لماذا لم يبين سبب تصرفه بحذف نص المناظرة؟، فالبيئة والعصر الذي عاش فيه كانت مثل هذه الجوانب الخاصة بالطريقة المدنية -كالسماع- ظاهرة ومعروفة فيه.

وتختلف الطريقة المدنية في علاقتها بالمحيط الثقافي والاجتماعي والسياسي عن غيرها من الطرق الصوفية الأخرى، فالمدنية على الصعيد الثقافي والاجتماعي طريقة منفتحة على كل الشرائح، وتنْتَهِج في مشروعها الإصلاحي الغوص والتغلغل في ثنايا وتفاصيل مشاكل المجتمع لتكون قريبة منه، ويمكنها بذلك إجراء عمليات تحديث ثقافي بواسطة الخطاب المباشر؛ ولذا فهي لا تشترط قبول المريد الذي قطع أشواطًا في العملية التعليمية السائدة وقتها، فلا نجد في زواياها برامج تعليمية تخصُّصية، بل زواياها مفتوحة أمام كل الشرائح المجتمعية، ومن أولى وسائل الدعوة لديها عقد حلقات السماع في النوادي والساحات العامة، وهو أسلوب لاحظنا أن الطريقة العروسية تنْتَهِجه أيضًا، إلا أن المدنية تختلف عن العروسية في عدم استعمالها للآلات الموسيقية المصاحبة للذكر، لا سيما الدفوف، بل وسائل أخرى في إطار تحديث التصوف لوسائل خطاباته لتلائم كل عصر ووقت.

(1) المصدر نفسه، ج1، 290.

وتشترك المدنية مع الناصرية والسعيدية في اهتمامها ببناء النخبة المثقفة، لكن باختلاف في المضمون، فبينما تركز الناصرية والسعيدية على العملية التعليمية التخصُّصية في العلوم الشرعية، تضيف الطريقة المدنية في مشروعها دفع المريد في زواياها إلى الانفتاح على العلوم المعاصرة في زمنها، كدراسة التاريخ والجغرافيا ومعرفة أحوال المسلمين، بل تتّبع في ذلك منهجًا عمليًّا يتجاوز النظري، ومن مفردات ذلك المنهج العملي توظيف وِرْد مهم من أوراد الصوفيين ويعرف بـ «ورد السِّيَاحة»، وإن كانت السياحة معروفة لدى غيرها من الطُّرق، إلا أن طريقة إدارتها وممارستها تختلف في الطريقة المدنية، وهو مبحث يخرجنا التوسع فيه إلى مباحث أخرى[1]، لكن المهم هو معرفة أنها تهدف من خلال السياحة إلى انفتاح المريد على أحوال بلاده بالمشاهدة والتماس مع الواقع للوصول إلى مستوى من التوعية المجتمعية بالقضايا السياسية.

ومن الاختلافات بين المدنية والناصرية أيضًا، أن المدنية ترفض المشاركة في الصراعات الدائرة بين قادة السلطات المحلية وخصومهم، فعندما تعرَّض مؤسس الطريقة الشيخ محمد حسن المدني للتضيق من قِبَل يوسف باشا القرمانلي ترك طرابلس وغادرها إلى مصراته[2]، ثم غادر مصراته لما كثرت فيها الثورات على الوالي إلى مدينة غريان، ولمَّا ثار في الأخيرة غومة المحمودي لم يشاركه في تمرُّده، بل بادر إلى الاستجابة لدعوة طاهر باشا عندما دعا الأعيان إلى بلاطه أول وصوله من دار الخلافة إلى طرابلس لتقديم واجب الطاعة[3]، فهي طريقة تفضِّل العمل قريبًا

(1) تعد الرحلة الظافرية للشيخ محمد ظافر المدني، نجل مؤسس الطريقة المدنية، من أهم مظاهر اهتمام رجال الطريقة المدنية بالسياحة، ورغم أنها لا تزال مفقودة حتى الآن، إلا أن المدونات التي نقلت عنها، ومن ترجم لصاحبها، ذكروا أنها تقع في مجلدين، ما يؤشر إلى دول رحلات الشيخ المدني الذي نجد في تراجمه أيضًا أن والده أرسله في سياحة طويلة بدأ بتونس وعمره 15 عاما.

(2) المنهل العذب، مصدر سابق، ج1، ص 355.

(3) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

من السلطة بل وبرعايتها والإعلان بوضوح عن مشروعها الإصلاحي، وتتحاشى الاصطدام بعراقيل الحكّام أمام سعيها للانخراط التام في كافة الأوساط المجتمعية للرفع من مستوى وعيها بخطاباتها المباشرة.

ومن أهم الاختلافات المهمة بين المدنية والناصرية في جانب العلاقة بالسلطة، أن المدنية لا تكتفي بالاتصال بالسلطات المحلية، بل تركز في اتصالها بالسلطة على العلاقة المباشرة برأس هرم السلطة المركزية، وتحديدًا الخلافة في الآستانة، كما نرى ذلك في المرحلة الثانية من عمر الطريقة المدنية؛ إذ كان الشيخ محمد ظافر ابن مؤسس الطريقة من أهم مساعدي السلطان عبد الحميد الثاني ومستشاريه المهمين الذين كان لهم ثقل في صناعة القرار السياسي والمساعدة في تنفيذ مشاريع السلطان عبد الحميد كمشروع «الخلافة الإسلامية».

ومن مظاهر عناية المدنية بترتيب علاقة هادئة مع السُّلطات المحلية وممارسة أعمالها بإذنها - الرسالة التي وجّهها مولاي العربي الدرقاوي من الجزائر إلى يوسف القرمانلي ليطلب منه تسهيل نشاط طريقة تلميذه الشيخ محمد حسن المدني في طرابلس[1]، وكانت أول خطوة قام بها الشيخ المدني عند دخوله لطرابلس زيارة يوسف القرمانلي[2]، الذي خصّص له مدرسة الكاتب مقرًّا لزاويته، وتسلمها منه بشكل رسمي يوم 24 صفر 1241هـ[3]، ومن ملامح رغبة المدنية في إقامة صلات هادئة مع السلطات المحلية استجابة الشيخ المدني لدعوة طاهر باشا لتجديد الطاعة كما أسلفا، كما أن أبرز تلاميذ الشيخ محمد حسن المدني كآل النائب، محمد وعبد العزيز والحسين والد أحمد صاحب المنهل العذب - استمروا في شغل الوظائف الرسمية داخل دوائر السلطة، ونجد أن مدرسة الكاتب، التي أعطاها يوسف باشا

(1) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(2) المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(3) اليوميات الليبية، حسن الفقيه حسن، تحقيق محمد الأسطى وعمار ججيدر، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2001م، ج1، ص 329.

للشيخ المدني لتكون مقرًّا له في طرابلس، استمرت في ممارسة أعمالها كزاوية أساسية في طرابلس وتولى مشيختها نَجْله الشيخ حمزة أخو محمد ظافر، والأخير كان خليفة لوالده في مشيخة الطريقة المدنية وأقام في الآستانة مستشارًا للسلطان عبد الحميد الثاني.

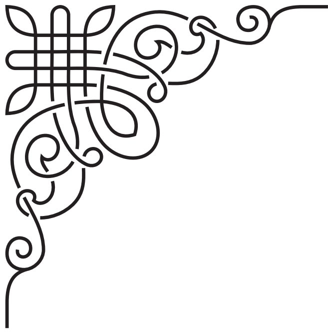
هذه الاتجاهات الرئيسة التي توضح علاقة المدنية بالسلطة والحكام والولاة، تفسّر ما لاحظه المؤرخ عمار جحيدر من أن معيارية النص في «المنهل العذب» تنساب في ثلاثة محاور متداخلة، ومنها «ذكر الخلفاء؛ وذلك لربط التاريخ الليبي القُطْري بتاريخ الدولة الإسلامية التي كانت تتبعها ليبيا منذ الفتح الإسلامي إلى عصر المؤلف»[1]، و «ذكر الولاة؛ وذلك لبيان وقائع التاريخ المحلّي، في بُعْده السياسي»، و«تراجم العلماء ومن شابههم في اختيار المؤلف».

وإن كان تفسير الأستاذ جحيدر لهذه المحاور مقبولًا جدًّا، إلا أن الانتماء الصوفي المدني للنائب كان الموجّه الأساسي وراء ربطه للتاريخ المحلي بالمركزية الرئيسة للخلافة، فالطريقة المدنية تقيم الشرعية في الأساس للخلافة المركزية، وتعاملها مع السُّلطات المحلية منطلق من شرعيتها التي منحتها لها الخلافة، وهو ما لا تعتبره الطريقة الناصرية التي تتعامل فقط مع السلطات المحلية دونًا عن الخلافة[2]، فجاء عمل ابن غلبون في «التذكار» خاليًا من أي ربط بين الوُلاة المحلّيين والخلافة في مركزها الأساسي في الآستانة استنادًا إلى مبادئها في التعامل المباشر مع السلطات المحلية؛ كونها صاحبة الشرعية ومن يحكمها هو «الإمام» الذي تُضْفِي عليه لقب «أمير المؤمنين» وهو اللقب الذي من المفترض أن يحمله الخليفة أين كان موقع مركزه الرئيس.

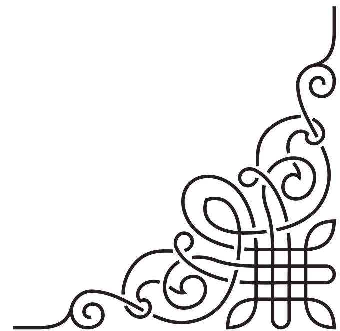
---

(1) المؤرخ أحمد النائب الأنصاري رؤية نقدية جديدة في آثاره، عمار جحيدر، ص 561، ضمن أعمال مؤتمر المؤرخ أحمد النائب حياته وآثاره وعصره، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2008م، ص 561.

(2) يبدو أن ذلك مرتبط أساسًا بأن الطريقة الناصرية نشأت في المغرب التي لم تكن تتبع لسلطة أي خلافة، وطالما استقلت بالخلاقة في المغرب.



الإصلاح والتجديد في فكر العلامة أحمد القطعاني



الرؤية النقدية في أفكار القطعاني الإصلاحية

د. توفيق بن عامر
بيت الحكمة - تونس

ملخص

نحاول الوقوف في هذا البحث على أبرز الأفكار الإصلاحية للمفكر المصلح أحمد القطعاني، من خلال عدد من مؤلفاته التي تضمنت آراءه ومنهجه في الإصلاح. فقد جاءت تلك الآراء مبثوثة في آثاره المتنوعة وارتادت مجالات مختلفة منها ما هو ديني وصوفي ومنها ما هو اجتماعي وثقافي، وقد اجتهدنا في رصد تلك الأفكار والآراء والمواقف وتحليلها، مع التركيز بالخصوص على ما استند إليه منهجه الإصلاحي من رؤىً نقدية ميز فيها بين العلل والأدواء الطارئة على المجتمع الليبي والإسلامي عمومًا، وما يقترحه من حلول يراها كفيلة بالعلاج والدواء. وقد أفضى بنا استقراؤنا لآرائه النقدية وتحليلها ومناقشتها إلى الكشف عن الثوابت المبدئية والمرجعيات الفكرية التي شكلت المنطلقات في مشروعه الإصلاحي، وتداخلت أيضًا في صياغة الأهداف والغايات من ذلك الإصلاح؛ إذ كان للرجل تصور لوظيفة العامل الروحي في النهوض بالمجتمع سواء كان ذلك العامل دينيًّا أو صوفيًّا، كما كان له تصور أيضًا لمفهومي التخلف والتقدم نستشفه خاصة مما يجريه غالبًا من مقارنات

بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية، وذلك علاوة على ما تستبطنه أفكاره من روح وطنية واستماتة في الدفاع عن الهوية. تلك خلاصة البحث وفيما يلي مزيد من التفصيل.

كلمات مفاتيح: أحمد القطعاني، دين، تصوف، اجتماع، ثقافة، سيرة، إصلاح.

مقدمة

نروم في هذه الورقة الإدلاء بدراستنا لعدد من أبرز مؤلفات المفكر أحمد القطعاني؛ بهدف استجلاء أهم أفكاره الإصلاحية وما اشتملت عليه من رؤى نقدية، لأن كل إصلاح يعتمد النقد ضرورة لقيامه بمهمتين متكاملتين هما: تشخيص الداء ووصف الدواء، وما لم تكن المهمتان سليمتين لا يكون النقد سليمًا ولا تكون نتائجه موفقة. وذلك ما عقدنا العزم على اختباره بتحليلنا لتلك المؤلفات المنشورة تحت عناوين: سري للغاية - موسوعة الأشراف - لماذا أبكيتم عصام - إسلام للبيع - أكذوبة الدعوة إلى الإسلام - الحب القذر - وداعًا أيتها الدموع، وغيرها. وقد اعتمدنا في دراسة هذه النصوص منهجًا تحليليًّا نقديًّا يتوخى مناقشة الآراء وإدراجها في تاريخ الأفكار الإصلاحية؛ لبيان منزلتها وما حققته من إضافة، فإلى أي حد وُفِّق القطعاني في نقده الإصلاحي؟ وما هي مرجعياته المبدئية التي أقام على أساسها مشروعه الفكري؟ وما هي الحلول التي يقترحها للنهوض بالأوضاع الإسلامية؟ وما الإضافة التي حققها للجهود الإصلاحية في العصر الحديث؟.

مسارات الإصلاح

يبدو لنا السيد أحمد القطعاني من خلال مؤلفاته علمًا من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر في القطر الليبي الشقيق، ولا تقتصر آراؤه في الحقيقة على النظر في أوضاع المجتمع الليبي، وإنما تتجاوزها إلى معالجة القضايا والرهانات المطروحة على المجتمعات العربية والإسلامية في الفترة المعاصرة، وتجتهد في البحث عن الحلول

لما تشهده تلك المجتمعات من أزمات وعن السبل الكفيلة برفع التحديات التي تواجهها داخليًّا وعلى الساحة العالمية، ويمكن لقارئ مؤلفاته أن يرسم الإطار العام الذي تتنزل فيه آراؤه وقراءاته وتحاليله للمجتمع العربي الليبي الذي يركز عليه جهوده بشكل خاص وعلى المجتمعات العربية والإسلامية بشكل عام، وهو إطار يتشكل من ثلاثة مسارات واضحة المعالم والأبعاد ونعني بها: أولًا- النقد الديني الذي يشكل التصوف ركنًا من أركانه، وثانيًا- النقد الاجتماعي الذي تندرج في إطاره العادات والتقاليد ومناهج السير والسلوك، وثالثًا- النقد الثقافي وما يشتمل عليه من منظومات قيم ونشاط فكري وإبداع فني في مختلف المجالات .

ولا يخفى على قارئ مؤلفاته أيضًا ما تتسم به تلك المسارات الإصلاحية من ترابط بينها ومن تفاعل بين مكوناتها، وكذلك الخلفية الكامنة وراء مختلف تلك المسارات والمتمثلة في إرادة النهوض بالمجتمعات العربية الإسلامية ماديًّا ومعنويًّا؛ إذ لا يفتأ الحس الاقتصادي مطلًا من فجاج ما يقدمه من مقترحات في مختلف الميادين التي يتناولها بالدرس والمعالجة، فللرجل نظرة إصلاحية متكاملة الأركان ينظر إلى الفرد كما ينظر إلى الجماعة ويربط في تحليله بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويقدم لنا رؤية حضارية متماسكة تنبني على أسس واضحة المعالم وتستشرف الآفاق الممكنة للنمو والتطور، وهو يستلهم هذه الرؤية من معين ديني بالأساس ومن القران والسنة النبوية على وجه التحديد. إنه يفجر ما في القرآن من روح حضارية ويتوسع فيها باعتماد السنة النبوية ومخزون التراث الإسلامي في عصور نمائه وازدهاره، كما نراه يؤسس هذه الرؤية الحضارية على أسس عقلانية ونقدية ترفع عن البصائر غشاوة التقليد والجهل.

في الإصلاح الديني

يحتل إصلاح الفكر الديني كما أشرنا مكانة مرموقة في رؤية القطعاني الإصلاحية، وذلك لأن الدين هو مرجعه ومستنده في عملية الإصلاح كما أنه يتحكم

في نظره في كل نشاط بشري بما تضمنه من هدي وإرشاد، وهو يستحضره ويعتمده ويستشهد بتعاليمه في شتى المجالات التي يخوضها بقلمه وفكره، ويرى أن العودة إلى الدين الصحيح هي الحل الأمثل في مشروع الإصلاح، وهي مفتاح النهوض بأوضاع الأمة مما تردت فيه من خمول وتدهور، فالخلل يكمن في نظره في الانحراف عن محجة الدين الواضحة وفيما اعترى الفكر الديني في الوضع الراهن من تشوه في القيم واضطراب في المفاهيم نتيجة تفشي الجهل والجمود والتقليد؛ وبناءً على ذلك كان منطلقه نقد تلك الأوضاع الفكرية وبيان ما تعانيه من خلل واعتلال، والمبادرة بعملية تصحيح لها على ضوء الوحي المنزل والهدي النبوي، وسنقف فيما يلي على بعض النماذج التطبيقية لهذه العملية النقدية والتصحيحية.

فمن المفاهيم الدينية الرائجة التي انتقدها القطعاني مفهوم «اللباس الإسلامي» الذي يرى بعضهم أنه يتلخص في الجلابية والطاقية التي يلبسها الرجل المسلم ولا يستبدلها بغيرها؛ لأنها في نظره دالة على التدين والتقوى، بينما «ليس الثوب أيًا كان نوعه دلالة على دين المرء من عدمه»[1]، فاللباس ثقافة اجتماعية بحتة ولا علاقة له بالدين، والإسلام لم يحدد لباسًا معينًا دون غيره، واشترط فقط ستر العورة مع معرفة حدود عورة الرجل وعورة المرأة، ويقول في ذلك: «فالإسلام لم يفصل علينا ثيابًا تطول أو تقصر أو جلابية وطاقية، فالالتزام بلباس موحد لا يتغير وتقييم الناس بموجبه تأباه الفطرة السوية وينبو عنه المنطق السليم وطبيعة خلقة الإنسان التي تأبى القيود وترغب التحرر (كذا) والانطلاق»[2]، وذلك علاوة على تعارض ذلك الموقف مع روح الشرع الداعية إلى الالتزام بجمال المظهر وبالتزين حتى في السجد كما أشارت به السنة النبوية الشريفة، فالله جميل ويحب الجمال والجميل اسم من أسمائه الحسنى والرسول ﷺ مشهور بجماله، وحتى جبريل عندما تمثل للرسول في صورة

---

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 3
(2) نفس المصدر، ص 4

إنسان اختار صورة دِحية الكلبي لجماله، وكل ما خلق الله على الأرض هو زينة لها وجعل المرأة خلاصة جمال الكون .

ويحرص القطعاني في نقده لظاهرة ما اعتبره البعض «لباسًا اسلاميًّا» على تفنيد ذلك الزعم بتقديم مختلف الحجج والبراهين العقلية والنقلية مستمدًا لها من سنن الكون وطبيعة الفطرة البشرية ومن آيات الذكر الحكيم وسيرة النبي الأكرم، ومما ساقه من ذلك في هذا المقام قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ [**الأعراف**: 26]، وكذلك قوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [**الأعراف**: 32]، وقوله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ [**الكهف**: 7]. وشبيه بذلك نقده لظاهرة الالتحاء واعتبار اللحية علامة على التدين والتقوى؛ إذ فنَّد مزاعم القائلين بأنها من السنة وأن الرسول ﷺ قد أمر بإطلاقها حين قال: «**أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى**»، فأمر الرسول في نظر السيد القطعاني مرتبط بظروف الزمان والمكان وكانت الغاية من ذلك في زمانه تمييز المسلمين عن غيرهم في البيئة التي تجاوروا واختلطوا فيها لكن تلك الحاجة لم تعد قائمة اليوم، فاللحية هي عادة عند الشعوب المختلفة وليست عبادة، والعبرة في التدين ليست بالمظهر وإنما بالتقوى والسلوك الحسن، والله سبحانه يحاسب الناس على إيمانهم وأعمالهم وليس على صورهم وألوانهم؛ فقد روي عن الرسول قوله : «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

ويتعرّض السيد القطعاني إلى الخلاف الفقهي حول بعض الفنون مثل: الرسم والنحت والموسيقى والسينما والمسرح والرقص، ويرد على الحملة التي يشنها بعض فقهاء العصر على الفن عمومًا فيرى أن الآفة في موقفهم من الفن متأتية من ميلهم إلى التعميم في الأحكام، فالفن ككل نشاط إنساني فيه جوانب إيجابية وأخرى سلبية ولا يجوز تقييمه والحكم عليه إلا بعرضه على أحكام الشرع الخمسة وهي: الحلال والحرام والمندوب والمكروه والمباح. فالفن في جوهره تعبير جمالي

وهنالك علاقة تكاملية بين الحق والجمال، إذا تحققت تلك العلاقة كان الفن مهما كانت تعبيراته أمرًا مباحًا ونافعًا للإنسان؛ إذ به يعبر عن مشاعره وتطلعاته وما يرنو إليه من مُثل ومبادئ، وإذا ما اختلت تلك العلاقة بين الحق والجمال دخل في عداد المكروهات والمحرمات، مستشهدًا في ذلك بأقوال العلماء مثل: الغزالي والشوكاني وابن حزم الأندلسي، فمما اقتبسه من ابن حزم قوله: «وعلق ابن حزم في المحلى على حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» بقوله : فمن نوى استماع الغناء عونًا على معصية الله تعالى فهو فاسق، وكذلك كل شيء غير الغناء، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وينشط نفسه بذلك على البر فهو مطيع محسن وفعله هذا من الحق، ومن لم ينوِ طاعة ولا معصية فهو لغو معفوٌ عنه كخروج الإنسان إلى بستانه متنزهًا وقعوده على باب داره متفرجًا»(1).

وينتقد القطعاني في هذا السياق ظاهرة المزج بين الغناء والمجون والخلاعة على شاشات الفضائيات والأفلام والمسلسلات(2)؛ لما في ذلك من إساءة للفن بمجانبته للحق وتوظيفه لنشر الرذيلة والباطل، وهو بتمييزه هذا بين الجيد والرديء في الفن يعتمد المقياس الأخلاقي؛ لأن الهدف من الإبداع هو الإعلاء للقيم السامية وللمُثل العليا؛ ولذلك لا يجوز توظيفه لغير ما أعد له. وخلاصة القول: إن القطعاني قد عالج هذه القضية الفقهية برؤية عقلانية معتبرًا أن مسألة الحرمة والحل لا تتعلق بالفن في حد ذاته كنشاط إنساني وكإبداع وموهبة، وإنما تتعلق بكيفية توظيفه لخدمة غايات ونوايا بعينها، فالعيب لا يكمن في طبيعته وجوهره ورسالته وإنما في سوء استعماله وما يمكن أن ينجر عنه من ضرر بالفرد والمجتمع، وقد برهن من خلال تحليله لهذه المسألة عن روح علمية ونظر منفتح ومُجانب للانغلاق والتعصب.

(1) نفس المصدر، ص 46
(2) نفس المصدر، ص 48

ولا يكتفي القطعاني بتصحيح ما وقع تحريفه وتشويهه من مفاهيم وقيم دينية، كما لا يقتصر على تسليط الأضواء النقدية على مظاهر وأساليب التدين في الأوساط الاجتماعية، وإنما يتجاوز هذا المدى الضروري لكل إصلاح إلى الصدع بعديد المقترحات التي من شأنها أن تفتح الآفاق أمام نشر الرسالة المحمدية، وتحبب الناس في الانتماء إليها من قبل غير المسلمين، وكذلك من قبل المسلمين من ذوي الجنسيات الغربية والإفريقية والآسيوية الذين لا يفهمون لغة القرآن. ومن أهم مقترحاته تخصيص مسجد تلقى فيه خطبة الجمعة باللغة الإنكليزية وآخر تلقى فيه تلك الخطبة باللغة الفرنسية(1)، وتكليف مختص في لغة الإشارة لنقل خطبة الجمعة للمصابين بعاهة الخرس والصمم حتى يمكنهم الاستفادة منها ولا يكتفون بإقامة الصلاة بسبب إعاقتهم؛ وبناءً على ما لاحظه في بيئته من ضعف في مواهب الخطباء وقصورهم عن جلب اهتمام المستمعين نراه يدعو إلى التحري في اختيار الخطيب المفوه والمثقف، وألا تكون الخطبة حكرًا على الوعّاظ وإنما توكل أيضًا إلى ذوي الاختصاص في ميادين العلوم المختلفة من طب وهندسة واقتصاد وغيرها من العلوم والمعارف، فوظيفة المسجد لا تقتصر على الجانب التعبدي، بل له كذلك مهمة تثقيفية ومعرفية ترفع من مستوى جمهور المصلين. ومما يلاحظه القارئ أيضًا حرص السيد القطعاني على سلامة بيوت الصلاة من كل الآفات المادية والمعنوية وعلى سلامة المصلين جسدًا وروحًا، فهو يهتم حتى بنظافة أوعية الماء المخصصة للشرب من جرار وغيرها، وينبه إلى أن تداولها بين عموم المصلين يمكن أن تنجر عنه العدوى بالأمراض المختلفة لا سيما في فترات انتشار الأوبئة(2).

وهذه المقترحات وغيرها يعبر عنها القطعاني بالأمنيات الشخصية؛ لأنه لا يراها تتحقق بالرغم من إعلانه لها في مناسبات سابقة ولكنها في الحقيقة أمنيات

(1) نفس المصدر، ص 55
(2) نفس المصدر، ص 57-59

كل مسلم صادق ووطني غيور، فالرجل يصدر في هذه المقترحات وغيرها عن عقيدة لديه قائمة على يقين بأن الإسلام قد جاء برسالة حضارية حافزة على الرقي والتطور، وأن تعاليمه وشعائره تتظافر لبلوغ هذه الغاية لكن المسلمين المعاصرين قد غفلوا عن هذه العبرة منها، وتمسكوا بطقوس وأشكال دون التفكير في مغازيها ودون الاجتهاد في ابتكار السبل والآليات الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف والغايات الحضارية، فهو مثلًا في حديثه عن الزكاة يقترح إنشاء مصرف خاص بها تستثمر فيه الأموال لبعث المشاريع الاقتصادية التي تعود بالنفع على المعوِزين وذوي الحاجة وعلى المؤسسات الاجتماعية المختلفة[1].

وقد كانت للرجل مبادرات زمن إشرافه على بعض دور العبادة تحت شعار «إعادة الاستفادة» وقد تمثّلت في جمع المواد والمرافق المستعملة والتي استغنى عنها أصحابها وإعادة توزيعها على المستحقين لها، واعتبر أن تلك البادرة تعتبر من الوظائف التي يمكن أن تضطلع المساجد بها.

وهكذا يتضح أن الإصلاح الديني عند القطعاني يتناول العقيدة والفكر والسلوك جميعًا لدى المسلم المعاصر ويعمد إلى تصحيح كل ذلك قدر الطاقة، ودليله في ذلك الفهم السوي للدين والتعامل العقلاني مع تعاليمه والاستفادة من علوم العصر لاستكناه رسالته الحضارية الحافزة على مواكبة التطور والصالحة لكل زمان ومكان، وهو لا يحجم عن نقد النصوص الدينية التي تتضارب مع هذه المبادئ وتتناقض مع ثوابت العقيدة الإسلامية فتراه يرد المرويات من الحديث إذا تعارضت مع صريح القران مثلما فعل بخصوص بعض المرويات عن حادثة سحر عاصم إليهودي للرسول، موضحًا ما فيها من تهافت لتناقضها مع مفهوم العصمة[2]، والأمثلة

(1) نفس المصدر، ص 55
(2) نفس المصدر، ص 29-38

على هذا المنهج النقدي لديه كثيرة يضيق المقام بإيرادها[1]، وهي على تعددها تنهض دليلًا على توخيه لمعيار مركزي يحتكم إليه لمواجهة كل شبهة أو خلاف لكونه قطعي الثبوت عن الله بالقياس إلى غيره من النصوص الدينية المستمدة من المجهود البشري غير المعصوم من الخطأ .

ولا نعتزم الإحاطة في هذا السياق بكل المواضيع الدينية التي تناولها بمجهر النقد وأخضعها لآلة التعديل والتصويب، وإنما نروم الاجتزاء فقط بالإشارة إلى أبرزها: كنقده للتصور الشائع لمفهوم القضاء والقدر، وللأساطير التي حيكت عبر العصور حول مسألة عذاب القبر وهي من المواضيع التي يستعملها المغرضون لتشويه صورة الإسلام ولإحباط عزائم الشباب المسلم وتدجين إرادة الحياة لديه، وكانت من الأسباب والعوامل الفاعلة في انحطاط الأمة. وللرجل نظرات ثاقبة أيضًا في التراث الفقهي عمومًا نادى من خلالها إلى ضرورة تنقيته من الآراء والمواقف البالية والتعقيدات المفرطة التي لا تناسب الثقافة المعاصرة.

لكن رؤيته النقدية في الإصلاح الديني لا تقتصر على المسائل العملية والتشريعية، وإنما تزداد عمقًا وتجذرًا حين يتعرض إلى الأبعاد الروحانية في الحياة الدينية، ويعقد العزم على النظر في التصوف الإسلامي في عصره بعين ناقدة تشي بأن للرجل مشروعًا للإصلاح الصوفي.

الإصلاح الصوفي

يثير التراث الصوفي وما يزال الكثير من السجال والجدال على الساحة الإسلامية وغير الإسلامية وما انفك يسيل حبرًا غزيرًا من أقلام المعارضين له والمنتقدين لما تضمنه من عقائد وأفكار وطقوس وممارسات، كما تجندت للدفاع عنه أقلام أخرى

(1) نفس المصدر، ص 77. وينتقد السيد القطعاني في هذا السياق حديث الفرقة الناجية المروي عن معاوية ويكني عنه بقايروس 73

من الشرق والغرب منوِّهة بما اشتمل عليه من تجارب روحية ورؤى فكرية، وكانت حصيلة تلك الجهود في الجملة منقسمة إلى موقفين: موقف المنتقد المتحامل من ناحية، وموقف المنوِّه والمنافح من ناحية أخرى، لكنها رغم ذلك الانقسام تستند إلى منهج مشترك في التعاطي مع المدونة الصوفية ومع أعلامها ومؤسساتها قديمًا وحديثًا، وهو المنهج الأيديولوجي الذي لا يرى صاحبه هذا التراث إلا من زاوية نظره الشخصية واستنادًا إلى مسلماته العقائدية والمذهبية .

ونادرًا ما وقفنا على دراسات ذات طابع نقدي محايد يتجرد أصحابها من انتماءاتهم العقدية والمذهبية فلا ينتقدون تحاملًا ولا ينوهون مجاملة ولا يهدفون بمواقفهم تلك إلى غايات خاصة ولا يسقطون على ذلك التراث آراءهم المسبقة، وإنما يتناولونه بالتأمل والنقد والتقييم بمنأىً عن كل ذلك وبموضوعية وتجرد حرصًا منهم على البحث عن حقيقة هذا التراث والوقوف على ما تضمنه من معطيات إيجابية وأخرى سلبية، فيعبِّدون بذلك الطريق للكشف عن العطاء الحضاري الذي يقدمه الفكر الصوفي للإنسانية، وعن الانحرافات والمزالق التي يمكن أن يكون قد تردى فيها خلال مسيرته التاريخية الطويلة، فيساهمون بذلك في التأسيس لموقف عقلاني وعلمي متماسك يمكن البناء عليه في المستقبل بتطوير ما فيه من أبعاد إيجابية تفتح آفاقًا للإحياء والتجديد .

فأولئك كما أشرنا قلة قليلة بالقياس إلى وفرة ما ينجز في هذا المجال، ومع ذلك فنحن نعثر من حين لآخر، وبالرغم من تلك الندرة على بعض الآراء والتقييمات التي لا تخلو من وجاهة في تدبر التراث الصوفي تدبرًا نقديًّا وتظهر لنا في شكل بوارق خاطفة في جو غائم، فنحن نكتشف في مؤلفات السيد القطعاني محاولة نقدية للنشاط الصوفي في زمانه وبالقُطر الليبي وخارجه، وهي محاولة طريفة ووجه الطرافة فيها كونها صادرة عن علم من أعلام التصوف المعاصر فكأنه يجري بنقده لأوضاع التصوف في بيئته نقدًا ذاتيًّا، وذلك في حد ذاته خروج عن المألوف وضمانة في الآن

نفسه للصدق والنزاهة والعلم والإحاطة، فهو ينتقد خاصة الوضع الذي تعيشه الطرق الصوفية ويكرسه نشاط الزوايا وأدنى ما يصف به ذلك الوضع هو التحجر والجمود على طقوس شكلية عفا عليها الزمن وأصبحت مجردة من المعنى، وكل نشاط في الزاوية يختزل منذ عقود من الزمن في قراءة جماعة لحزب ليلة الاثنين والجمعة ثم ينصرفون ولا يضيفون إلى ذلك علمًا نافعًا أو عملًا مفيدًا، ويقول في ذلك متحسرًا: «يحزنني كثيرًا ذلك المنظر الكئيب لزاوية يجتمع بها مريدون على شيخهم يقرؤون الحزب ويضربون الدفوف لسنين وما زاد أحدهم علمًا أو عملًا على يوم انتسابه للزاوية خطوة واحدة»[1].

فالصوفية في هذا المنظور قد حادوا بالتصوف عن العلم والعمل، وركنوا إلى الخمول ودأبوا في زواياهم على طقوس وممارسات لم يأمر بها الشرع كضرب الدفوف والطبول ودق الصنوج بدل النظر في كتاب الله وتدبر آياته. يقول السيد القطعاني مستنكرا لهذا الوضع: «هل جاء في شرع الله تعالى أن نطبل على الدفوف والطبول وندق الصنوج إلى الصباح ثم نكون أجهل بشرع الله من أبي جهل؟»[2]، ثم يجيب عن سؤاله بأن قراءة آية من كتاب الله خير من قراءة أحزاب المشايخ كلها. ولم تكن تلك المظاهر في نظره الآفة الوحيدة التي أصابت الزوايا الصوفية بل دخل فيها من العوام من لا يصلي ويقرأ مع ذلك الحزب ولا يصلي ومن يسلب الناس أموالهم باسم بركة الشيخ، ومن يدبر الدسائس والمكائد للانقلاب على الشيوخ وتبديلهم، علاوة على فضائح ومخازٍ داخل الزاوية وخارجها وتملق للمسؤولين والتطبيل لهم في المناسبات المختلفة، فتحولت بذلك الزاوية إلى فرقة للفنون الفلكلورية[3].

وهكذا أصبح وضع الزوايا يشكل مظهرًا من مظاهر التخلف والجهل والانحراف عن الدين ولم تعد له صلة بالتصوف من قريب أو بعيد، ويقول السيد

(1) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 16.
(2) نفس المصدر، ص 37
(3) نفس المصدر، ص 38

القطعاني واصفًا لتلك الحال بقول صريح: «كلنا يعرف أن ما عليه حال جل الزوايا اليوم لا يمت للتصوف بصلة من قريب أو بعيد، بل هو تخلّف يدعو للخجل وتأخر يندى له الجبين»[1]، وبناءً على ذلك يدعو إلى تنقية ساحة التصوف مما يشوبها من انحرافات وبدع الصقت به وإعادة النظر في المسألة جملة وتفصيلًا؛ لأن التصوف علم وليس جهلًا وعطاءً وليس خمولًا، ونقاءٌ وليس كدرًا، فلا بد من تقويم المناهج الصوفية بحذف ما لا يتفق مع روح التصوف وآدابه؛ لأن التصوف هو روح الإسلام . ويقارن السيد القطعاني بين ماضي التصوف المشرق وحاضره المتدني كما يحيي ذكرى أعلام من الصوفية القدماء والمعاصرين له ممن كان لهم دور رائد ومراتب عليا في الروحانية الصوفية.

وهكذا تتجه عناية القطعاني إلى إحياء الرسالة الصوفية الحقيقية وإلى أن يعيد للتصوف إشعاعه وبريقه في عصور ازدهاره الأولى، ويعمل على تبديد ما أحاط به من تشويه وسمعة سيئة فتراه ينتقد الأوساط الجامعية والأكاديمية على سوء ظنها بالتراث الصوفي، وإعراضها عن إدراجه في برامجها البحثية والتعليمية واقعة بذلك تحت تأثير ما آلت إليه أوضاعه المتأخرة من تدهور وما يروجه عنه خصومه من المذاهب الأخرى من تضارب مع التدين الصحيح، ويقول في ذلك: «وكم يحزُّ في النفس الموقف الغريب المخالف بل المضاد للمنهج العلمي المعارض لأبسط قواعد البحث والمعرفة الذي يتخذه بعض من يفترض فيهم تشجيع النشاط الأكاديمي الجامعي التخصصي، فإنك إن ذكرت لهم التصوف ورجاله وأثره الايجابي في المجتمع بادروا إلى معارضتك مستشهدين بنتفٍ سلبيات يلتقطونها من هنا وهناك ويجتهدون في تكبير صورتها وتضخيم مظهرها قائلين هذا هو التصوف»[2].

ولا يخفى ما في موقف القطعاني هذا من دعوة إلى تصحيح مسار البحث الجامعي بإدراج التراث الصوفي ضمن اهتماماته والتزام الحياد العلمي في كل ما يقرر

(1) نفس المصدر، ص 37
(2) نفس المصدر، ص 9

من برامج أكاديمية، لكن اهتمامه بنقد الرؤى وتصحيحها في هذا المجال لا يقتصر على الأوساط العالمة، بل أنه يتركز خاصة على إصلاح الواقع الميداني للنشاط الصوفي الذي تمثله الزوايا في عصره؛ ولذلك نراه يدعو إلى تطوير أساليب النشاط وتنويعه داخل الزاوية بما من شأنه تقديم الخدمات العلمية والثقافية والاجتماعية للأمة، فبإمكان الزاوية أن توفر لروادها التربية النفسية والخلقية ومناهج تقويم السير والسلوك وأن تكون بدور داعم ومكمل لمختلف مؤسسات المجتمع، ولكأن السيد القطعاني يريد أن يجعل من الزاوية مؤسسة وطنية تربوية بامتياز، فاستمع إلى قوله مخاطبا شيخ الزاوية: «قسم المسؤوليات في الزاوية ووزعها فاجعل فيها من المريدين مسؤولًا عن النشاط الأدبي وآخر عن العلاقات الاجتماعية وستجد نفسك أديت واجبك وربيت رجالًا»[1].

ويستشهد القطعاني بسيرة بعض مشاهير الشيوخ من الصوفية الذين تألقوا في شتى المجالات الثقافية سواء في المسرح أو الموسيقى مثل: الشيخ رجب البكوش المنشد في بنغازي، والشيخ عبد الله جمال الدين الميلادي شيخ الطريقة القادرية في طرابلس، ويعتبرهم نماذج تحتذى في الرقي بالإلهام الصوفي إلى مدارج عليا من الإبداع. ويرى أن المطلوب من الزوايا لتحقيق تلك الأهداف تنظيمها إداريًّا تحت إشراف شيخ الطريقة وتحويلها إلى مراكز علمية وتربوية وثقافية واجتماعية قادرة على المساهمة في النهوض بالمجتمع، وتأهيلها معنويًّا وماديًّا لتكون قبلة للسياحة الدينية ومزارًا لكل الأجناس من كل بلاد العالم. فعلى الصوفية وفق هذا التصور المشاركة في الحياة العامة ونفض غبار الخمول، وعليهم أن يخرجوا من الزاوية وأن ينتصبوا للوعظ بالمساجد ويقدموا مساهمة فعالة على مختلف الأصعدة الدينية والاجتماعية والثقافية، ويكون لهم دور في الدورة الاقتصادية وفي التمثيل المشرِّف

(1) نفس المصدر، ص 16

للأمة والوطن. وبذلك يتكامل مشروع السيد القطعاني الإصلاحي في مجال التصوف وهو كما رأينا مشروع تحديثي وتعصيري لرسالته ولمؤسساته.

في الإصلاح الاجتماعي

إن من أهم ما يسترعي انتباه القارئ لمؤلفات المفكر أحمد القطعاني ما تكشف عنه من تعاضد بين فكره الديني وفكره الاجتماعي في مشروعه الإصلاحي، فهو إن فكر دينيًّا كان همه اجتماعيًّا وإن فكر اجتماعيًّا استدعى مراجعه الدينية لدعم مواقفه وخياراته، ونحن إذ نفصل في مشروعه الإصلاحي بين الديني والاجتماعي فلغاية يقتضيها منهج الدرس والتحليل وحسب الهدف الذي يرمي إليه صاحب المشروع إن كان دينيًّا أو اجتماعيًّا. وبناءً على هذا المنهج في البحث سنقف على رؤيته النقدية في إصلاح المجتمع العربي الإسلامي، وهي رؤية تتناول معالجة عدة مواضيع رئيسة هي: موضوع الطفولة، والشباب، وقضية المرأة المسلمة، ومؤسسة الزواج والأسرة، ومسألة التدين ومصير الإنسانية. ونحن نستعرض في هذا السياق آراءه النقدية ورؤاه الإصلاحية لكل قضية من هذه القضايا الهامة والمفصلية في حياة الشعوب والمجتمعات.

ينتقد القطعاني في القضية الأولى سلوك الشباب العربي المسلم في المجتمع العربي المعاصر؛ إذ يراه سلوكًا غير مسؤول لما يتسم به من نزعات تخريبية ولا مبالاة بالقيم وفقدان للحس المدني، فهو لا يقيم وزنًا لمكاسب أمته المعنوية والمادية ولا يولي أهمية لقواعد العيش المشترك في مجتمعه ولا لأمجاد تراثه وتاريخه، فتراه باسم الحرية ينشر الفوضى ويتمرد على الأسرة ولا يحترم كبار السن ويطلق العنان لنزواته بلا قيد ولا شرط، كما أنه يفتقر إلى الإحساس بالواجب تجاه وطنه ويخلد إلى الميوعة والتفصي من المسؤولية. ويعقد القطعاني بعد هذا التوصيف مقارنة بينه وبين شباب البلدان الغربية المتقدمة منوِّهًا بما عليه ذلك الشباب من تربية وتهذيب

وقيام بالواجب تجاه المجتمع وغيرة على المكاسب العمومية واعتزاز بالانتماء إلى الوطن وافتخار بأمجاد التاريخ.

ويخرج القطعاني من تلك المقارنة بحقيقة جلية وهي أننا قد فشلنا في مجتمعاتنا في تربية الناشئة على القيم الدينية وقيم المواطنة، وأن الواجب يدعونا اليوم إلى تدارك هذا الوضع بالسهر على تكوين الناشئة منذ الطفولة على المبادئ الأخلاقية السامية وعلى المُثل العليا من الوفاء والإخلاص والاستقامة وعلى حب الوطن والتفاني من أجله، فالتربية الدينية والمدنية هما عماد تلك التنشئة ولنا في الوحي القرآني من القصص والرموز والعبر ما يصلح لأن يتخذ قدوة في هذا المجال، فتربية الشباب ورفع مستوى الوعي لديه وشحذ إرادته هي الضمان لنهضة الشعوب. ويستشهد القطعاني على آرائه تلك بنماذج من القرآن الكريم وأخرى من تجارب الأمم المتقدمة مثل: هولاندا وألمانيا وتايلندا وغيرها ثم يتوجه إلى الشباب المسلم بقوله: «بُنيَّ، بُنيَّتي، إنك لست أقل أبدًا من أولئك ممن ذكرنا في شيء»[1].

أما بالقضية الثانية التي ركز القطعاني عليها اهتمامه فهي قضية المرأة باعتبارها الواجهة التي تعكس طبيعة المجتمع، فيشير إلى الخطر الذي يتهددها بفعل التأثر بالمظاهر المادية ومغريات الحياة المعاصرة المنتشرة عن طريق العولمة والتي أصبحت فيها المرأة بمنزلة السلعة المبتذلة في جميع المحافل، كما ينتقد وسائل الإعلام التي تروج لصورة مبتذلة للمرأة في الإعلانات الإشهارية وعلى الشاشات الفضائية، حيث يمزج الغناء بالمجون والخلاعة في الأفلام والمسلسلات[2]، وهو ما لا يليق بالمرأة المسلمة وبتقاليد المجتمع الإسلامي القائمة على الاستقامة والحشمة وما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ومن الظواهر المنتشرة التي ينتقدها القطعاني ظاهرة الحب المتحرر من كل القيود الاجتماعية والأخلاقية ذلك الحب الذي لا يكون فيه

(1) لماذا أبكيتم عصام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 12 13-
(2) الحب القذر، مصدر سابق، ص 48

طاعة للوالدين ولا احترام لواجبات الزوجية ويصفه بأنه «حب قذر» إذ تعرض فيه المرأة نفسها لكل قادم باسم الحب حتى وإن كان في ذلك خيانة لزوجها يقول في ذلك: «نعم إنه حب ولكنه حب قذر نجس دنس تعس كبقايا المزابل لا يأكل منها إلا الكلاب المتشردة والجرذان المنفرة»[1]، وهو يعدد المصائب التي يمكن أن تنجرَّ عن ذلك الحب، ومن أهمها تفكيك الأسرة بسبب الخيانة الزوجية وتحطيم مؤسسة الزواج التي شرعها الله لعمارة الكون. فالزواج رابطة دينية واجتماعية لا تنعقد بقرار فردي وإنما يؤخذ فيها برأي الوالدين باعتبارها مسؤولية جماعية حرصًا على سلامة الأسرة[2].

ومن العلل المجتمعية الشائعة والتي تمثل سببًا رئيسًا لتدهور الأوضاع الاجتماعية في نظر القطعاني امتزاج التدين بالجهل في جل الشرائح الاجتماعية، بل حتى لدى النخب من فقهاء وعلماء الأمة ما دام بعضهم يشكك في كروية الأرض ويكفر القائلين بها ويعتبرها نظرية مخالفة للواقع وللنص الديني، ويقف سدًّا منيعًا دون قبول المكتشفات العلمية ودون الأخذ بأسباب العلوم والمعارف، ويدعي مع ذلك الدفاع عن الإسلام باتخاذ بعض المظاهر في الهيئات واللباس ويعتبرها من صميم التدين وأداة من أدوات نشر الإسلام والدعوة إليه، وتلك أكذوبة كبرى، ولو تفطن أولئك إلى الزحف المتواصل للنصرانية بين الشعوب الإفريقية على حساب انتشار الإسلام بينهم لفهموا مدى تقصيرهم في القيام بالواجب ازاء هذا الدين ولراجعوا مواقفهم وكانوا أقرب إلى الحقيقة والواقع .

ولا يقتصر اهتمام القطعاني الإصلاحي على معالجة عِلل المجتمع المسلم، وإنما يولي أهمية أيضًا لأوضاع المجتمع الإنساني حيثما كان، ويرى أن المجتمعات الغربية الحديثة لا تسير على الدرب الصحيح وأن مستقبلها ينذر بالخطر؛ وذلك

(1) نفس المصدر، ص 50
(2) نفس المصدر، ص 49

بسبب تفكيكها للأسرة باسم الحرية الفردية وجراء اقتصارها على توفير الحاجيات المادية لحياة الإنسان دون اعتبار للجانب القيمي والأخلاقي في وجوده، وهو ما جاء الوحي الإلهي لتأكيده. كما نراه يشير إلى ما تعيشه المجتمعات الإنسانية اليوم من تفاوت بين المجتمعات الفقيرة والأخرى الغنية دون تآزر بينها، وما تشهده من توتر وصراعات وحروب دفاعًا عن مصالحها الضيقة، وما تتسابق فيه تلك المجتمعات من اختراع لأسلحة الدمار التي تهدد الإنسانية بالفناء.

وما يفتأ القطعاني لذلك يدعو إلى الأخوة الإنسانية على ضوء تعاليم الإسلام متوجهًا إلى الإنسان بهذا الخطاب: «أَفِقْ أيها الإنسان ومد يدك المثقلة بأساور وخواتم من ذهب وألماس لتصافح إنسانًا آخر يقطن دولة مجاورة لا يفصلك عنه في الواقع شيء إلا حدودًا أنت من افتراها، ثم آمن بها وصدقها وأقسم عليها غلائظ الأيمان. افتح عينيك وانظر لترى أن الأكسيجين والأيدروجين والبحر والمطر والتراب وحتى القرود والنسانيس تتنقل بين أرجاء المعمورة كما تشاء؛ لأنها تعرف الحقيقة التي تتجاهلها أنت وحدك. ولا يوجد من يسجن نفسه في أوهام الملكية الخاصة والتمييز المقيت إلا أنت»(1).

في الإصلاح الثقافي

وللسيد أحمد القطعاني رؤية ثقافية نقدية منبثقة من رؤيته الإصلاحية العامة ومشكلة لأساس هام من أسسها الرئيسة، وله أدبيات غزيرة يثمن فيها التراث العربي الإسلامي ولا سيما التراث المادي المتجسد في المعالم الأثرية والأضرحة والزوايا والمساجد التاريخية، ويصف ما تتعرض له من إهمال وتخريب حتى غدت في حالة مزرية يندى لها الجبين. وهو يدعو انطلاقًا من ذلك التوصيف إلى ضرورة العناية بها باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من الذاكرة الوطنية ورمزا لمقومات الهوية، كما يؤكد

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص21 - 22

على ضرورة التعريف بها لدى الناشئة واعتمادها أداة من أدوات تأصيل الشعور الوطني لديها واعتبارها وسيلة من الوسائل الناجعة في المجهود التربوي الذي تبذله المؤسسات التعليمية، وهو لا يقتصر في رؤيته الثقافية هذه على ضرورة تعزيز الصيانة للمعالم التراثية وتوظيفها في المجال الثقافي والتربوي، بل يتجاوز هذا المجال إلى تثمين دورها الاقتصادي في خلق الثروة الوطنية، وذلك بإدماجها في الدورة الاقتصادية للوطن عن طريق البرامج السياحية.

ويقترح الرجل في هذا السياق وضع الأسس لنوع خاص من السياحة وهو ما أطلق عليه اسم «السياحة الدينية» لأن المعالم التراثية التي يركز عليها في رؤيته الثقافية هي المعالم الدينية بالأساس، والتراث إجمالًا كما يراه هو عبارة عن عنوان من عناوين سيادة الدول ومصدر فخرها واعتزازها بذاتها ماضيًا وحاضرًا. وهو يذكرنا بتأثر كبير بخنجر معقوف من أصل ليبي اشتمل عليه متحف «المارينز» الأمريكي ويعرضه كمثال لكنوز الشرق التي استولى عليها الغرب. وإذا تجاوزنا هذا المظهر المادي من التراث وجدنا الرجل يعبر عن أسفه وتحسره على تدهور الأوضاع الثقافية العربية في الفترة الراهنة، بالرغم من توفر وسائل التثقيف الحديثة وتوفر الإمكانات لازدهار الإنتاج والإبداع فيقول: «الحال الثقافي العربي اليوم للأسف ما بين كتاب وصحافة ومسرح وموسيقى وفنون كثير وغزير، ولكن بلا لون ولا طعم ولا رائحة»[1].

ويقف القطعاني مستغربًا أمام الازدهار الثقافي الذي شهدته البلاد العربية خلال فترة الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين، وما عجت به تلك البلاد من كبار المفكرين والأدباء والشعراء الذين يشهد القاصي والداني بتفوقهم في شتى مجالات الإبداع بالرغم من الأوضاع الصعبة التي كانوا يعيشونها. إنها مفارقة عجيبة يقف صاحبنا أمامها متعجبًا من مثل تلك التناقضات والمفارقات، وتراه لا يجد لها من تفسير سوى ما تميز به ذلك الجيل السابق من إرادة وتصميم واعتماد على الذات

(1) لماذا أبكيتم عصام، مصدر سابق، ص 21

وطموح إلى العلا، وهي قيم خبا اليوم بريقها في الجيل الحالي وأصبح من المتعين اليوم تحفيزه على الالتزام بها ليواصل طريقه نحو مستقبل أفضل. لقد استحضر مؤلفنا كل ذلك بمناسبة فقدان الساحة العربية عَلمًا فذًّا من أعلام الفكر العربي الإسلامي، وهو الدكتور مصطفى محمود فكانت وفاته مناسبة للتنويه به وبخصاله العلمية والإنسانية مستذكرًا اللقاءات الغراء التي جمعت بينهما ومستخلصًا منها جليل الفوائد والعبر، وإنما المرء حديث بعده.

ويتطرق القطعاني في نقده للأوضاع الثقافية في المجتمعات العربية إلى تقصير الأنظمة السياسية في الاهتمام بالتعليم الجامعي والبحث العلمي؛ إذ ما ترصده تلك الأنظمة من اعتمادات مالية يعتبر ضعيفًا جدًّا بالقياس إلى ما ترصده الدول المتقدمة في العالم، وغير كاف للنهوض بأوضاع الأمة علميًّا وثقافيًّا، بينما تصرف الأموال الطائلة من عائدات البترول في شؤون أخرى دون ذلك أهمية، وهو كثيرًا ما يعمد إلى إجراء المقارنات بين الدول العربية ودول أخرى كاليابان والدول الاوروبية وإسرائيل في هذا المجال؛ ليوضح مدى تقصير الدول العربية في دعم العلم والمعرفة، ويقول في ذلك: «وعلى ذكر الجامعات والإنفاق على البحث العلمي فإنه ربما كان من المخجل أن أقول لك إن إنفاق اليابان على الجامعات والبحث العلمي يفوق إنفاق كل الدول العربية مجتمعة بمائة وخمسين 150 مرة فقط . أما إسرائيل ذلك الكيان الذي يأبى إلا أن يتحدانا في كل شيء فإن إنفاقه على الجامعات والبحث العلمي يفوق إنفاق كل الدول العربية مجتمعة ب 130 مرة فقط في حين تفوقنا أوروبا فقط ب 131 مرة، أما المقارنة بأمريكا في هذا المجال فإنها مرعبة»[1].

ويواصل تلك المقارنة مع ما ترصده الولايات المتحدة الأمريكية من اعتمادات للتعليم الجامعي والبحث العلمي لتطوير مناهج البحث وتعصير التجهيزات الضرورية لإنجاحه، مشيرًا في المقابل إلى الحالة المتردية التي عليها المؤسسات الجامعية في

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، مصدر سابق، ص 5

الوطن العربي، ويقول في ذلك: «توجد بالولايات المتحدة الأمريكية 3500 جامعة وتوجد في كل الدول العربية من المحيط الثائر إلى الخليج الهادر 240 جامعة فقط أي أقل من العُشر، هذا من ناحية الكم، أما من ناحية الكيف وتوفير الجامعات المجهزة والأساتذة الأكفاء والمعامل وأساليب التعليم الحديثة وطرق التدريس المتطورة وحيازة الجوائز والأوسمة العلمية العالمية والالتزام بمعايير أعداد طلاب وأساتذة الجامعات الدولية، حيث يجب ألا يتجاوز عدد الطلاب عالميًّا 15 طالبًا لكل أستاذ، لا أن يكون المئات منهم في مدرج ليرددوا مثل الببغاوات معلومات عفا عليها الزمن بعد أن أكل وشرب وغط في سُبات عميق. فإني لا أعتقد أن كل جامعاتنا العربية العتيدة ترتقي إلى مستوى جامعة واحدة بالتعريف العلمي الصحيح، ويكفي أن يصدر التقرير العالمي للجامعات والبحث العلمي لسنة 2005م وبه أفضل 500 جامعة على مستوى العالم وليس به جامعة عربية واحدة، ولله الحمد الذي لا يحمد على مكروه سواه، وربما هذا ما أدى بأهل الكهف إلى التثاؤب أخيرًا، حيث لأول مرة في تاريخ عروبتنا الطويل العريض تبحث قمة عربية موضوع الجامعات والبحث العلمي، وذلك في قمة الخرطوم سنة 2006م»[1].

وكنتيجة طبيعية لذلك التقصير في المراهنة على العلم والمعرفة كان الإنتاج العلمي والثقافي على الساحة العربية ضئيلًا يكاد لا يذكر بالمقارنة مع ما تنتجه الشعوب الأخرى، فدولة أوروبية واحدة تنتج سنويًّا أضعاف ما تنتجه الدول العربية مجتمعة، ويقدم لنا القطعاني إحصائيات دقيقة بالأرقام للدلالة على هذا الوضع الثقافي الهزيل، وهو إذ يعرض ذلك على القارئ العربي مهما كان موقعه في المجتمع فحرصًا منه على شحذ الهمم العربية على تدارك تلك الحال من التخلف والوهن، وللاقتداء بالأمم المتقدمة في هذا المجال وتنشيط عملية الإنتاج و ترسيخ عادة القراءة لدى المواطن العربي؛ إذ لا سبيل إلى الخروج من التخلف إلا بالعلم. ويقول

(1) نفس المصدر، ص 5 6-

في ذلك: «إن الباب الوحيد الذي نخرج منه من التخلف إلى التقدم ومن التردي إلى القوة ومن الظلام إلى النور هو باب العلم، وينبغي أن نعلم هذا جيدًا ونعمل له وبه وأن ننظر إلى من حولنا وما يفعلونه في هذا الصدد، ويكفي أن نعلم أن اليونان وهي دولة صغيرة نسبيًّا مقارنة بدول الاتحاد الأوروبي تطبع من الكتب والمجلات والدوريات لوحدها سنويًّا أكثر مما تطبعه كل الدول العربية مجتمعة في عام واحد وللأسف، فنحن لا نطبع الكتاب ولا نقرأه إن كان مطبوعًا، بل إن كتبنا هي شذر مذر في نواحي الدنيا الأربع ولا نتكلف حتى جهد جمعها فضلًا عن طباعتها»[1].

وحظ الصحف والمجلات في الوطن العربي ليس أحسن وأوفر من حظ الكتاب، فالصحيفة كما يقول القطعاني هي سليلة الكتاب ولبنته ووضعها شبيه بوضعه إن لم يكن أسوأ حالًا، فالصحافة الليبية والعربية لم تستطع تجديد نفسها والاعتماد على توفير التمويل الذاتي، وبقيت عالة على التمويل من قبل الدولة، والسر في ذلك هو انقطاع الصلة بين المطبوعة الليبية والقارئ الليبي؛ ذلك لأن القراءة لم تترسخ في عادات المجتمع، فقيل هم الذين يقتنون الصحف والمجلات اليومية والموسمية وهم يهدفون من اقتنائهم لها إلى خدمة مصالحهم الآنية والشخصية الضيقة كمتابعة إعلانات الإشهار وغيرها وما يسحب من الأعداد الغفيرة للصحف يوزع في معظمه مجانًا على المصالح الإدارية، ويودع ما بقي منها في المستودعات، بينما نرى الصحافة في البلدان المتقدمة تمثل رافدًا هامًا من روافد الاقتصاد والاستثمار؛ لأن المواطن في تلك البلدان يجعل من قراءة الصحف عادة وحاجة يومية، وفي كل زمان ومكان فتراه بحكم مستوى الوعي الثقافي لديه يتابع ما يصدر من مقالات ودراسات فضلًا عن أخبار المستجدات الوطنية والعالمية .

فمشكلة الإعلام المكتوب خاصة هي مشكلة اجتماعية ثقافية، ولا بد من معالجتها بالرفع من مستوى القراء من ناحية وتوفير الحرية الفكرية اللازمة للأقلام

---

(1) نفس المصدر، ص 42 43–

الجيدة والقادرة على استقطاب الاهتمام، وبرفع القيود عن كل ما ينشر من تحاليل ومواقف، وفي هذا السياق ما يفتأ القطعاني منافحًا عن حرية الصحافة[1]، ودفاعه عنها هو دفاع واضح عن حرية التفكير وحرية التعبير المفقودة أو تكاد في المجتمع الليبي وغيره من المجتمعات العربية المعاصرة له، وهو لئن أطنب في الحديث عن دور الإعلام في النهوض بشؤون الأمة فلخبرته في هذا المجال ومساهماته المتواصلة في نشر مقالاته العديدة على صفحات الجرائد والمجلات، ونحن نلاحظ فيما دأب على نشره اهتمامًا بالغًا برسالة الإعلام الثقافية والاجتماعية وإيمانًا عميقا بتلك الرسالة.

ولم يقتصر اهتمام القطعاني بالإصلاح الثقافي على قضاياه المحلية والإقليمية، بل إنه يرتقي بتلك القضايا إلى مراتب عالمية، فتراه يناقش مسألة العولمة في أبعادها الثقافية، ويحاول أن يوجه أنظار الإنسان العربي إلى كيفية التعامل مع تلك الظاهرة بما يعود عليه بالنفع ويجنبه ما يمكن أن يلحقه به تيار العولمة من مضار. فهو يحذره من تجاهل حقيقة العولمة وعدم الاعتراف بها؛ لأنها ظاهرة حتمية لا مفر منها وتشكل خطرًا على من يقف ازاءها موقفًا رافضًا بالكلية، فللعولمة في نظر القطعاني جوانبها الإيجابية والسلبية، وينبغي أن يكون للإنسان العربي من الوعي ما يخول له التمييز بين النافع منها والضار، واتخاذ ذلك الموقف مع احترام للرأي الآخر، ويقول شارحًا موقفه من الظاهرة: «وأنا أعتقد أن تيار العولمة الجارف قادم لا محالة وسيأخذنا معه إلى آخر النهر شئنا أم أبينا، وسنمر في طريقنا معه على حدائق أزهار ورياحين كما سنمر على مستنقعات عفنة، ولا سبيل للسلامة إلا الوعي الذي لن يكون إلا باحترامنا لكل رأي وإن خالفنا، وكل صحيفة ومجلة وكتاب ومطبوعة وعندها سنجد أن الزبد يذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، ولا فائدة من ادعائنا أننا بمنأىً عن تيار العولمة كالنعامة التي تدس رأسها في الأرض آملة ألا يراها عدوها بحكم كونها لا تراه، فلا تفيق إلا وقد صارت وجبة مستسلمة شهية لغريمها، فحتى الذين

(1) نفس المصدر، ص 8

يعترضون على العولمة ويناصبونها العداء تراهم هم أحوج الناس إليها. فالإنترنت والفضائيات والفاكس والمصارف العالمية صارت ضرورة لكل شخص ودولة»[1].

منزلة القطعاني في النقد والإصلاح

لقد حاولنا فيما سلف أن نقدم للقارئ صورة موجزة عن الرؤية النقدية في أفكار القطعاني الإصلاحية من خلال أهم مسارات الإصلاح لديه من دينية وصوفية واجتماعية وثقافية، والواقع أن تلك الرؤية النقدية تخترق كل مؤلفاته وكل المواضيع التي خطها قلمه ومثّلت العمود الفقري لجل آثاره. ولعل أول ما يكتشفه القارئ لتلك الاثار هو أن مؤلفها متعدد المواهب فهو يطالعك تارة في صورة فقيه وصوفي، وطورًا في هيئة مثقف أديب وصحفي أريب، مع اطلاع واسع على التراث العربي الإسلامي وتاريخ الشعوب الإسلامية ومعرفة دقيقة أيضًا بحضارة الغرب القديمة والمعاصرة، فضلًا عما تمتع به من تجارب وخبرات في حياته العملية وفي محيطه العربي الليبي وعلى الساحة العربية الإسلامية بشكل عام، فنحن إذن إزاء مفكر قد توفرت له المؤهلات الضرورية لمباشرة رسالة النقد والإصلاح ما دام عارفًا بماضي أمته وحاضرها ومدركًا لما يعتري أوضاعها من خلل، وحريصًا على معالجة تلك الأوضاع لمساعدتها على النهضة والتقدم .

ويكتشف القارئ لآثاره أيضًا إحساسًا وطنيًّا عميقًا عبرت عنه تلك الآثار بأشكال تعبيرية مختلفة ومتنوعة، فتراه حينا يتحسر ويتألم من الحال المتردية التي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية المعاصرة، خصوصًا عندما يقارن بين ما كانت عليه في الماضي من مجد وفخار وسيادة للعالم وما آلت إليه في العصر الحديث من تخلف ووهن وخنوع وتبعية، وتراه حينا آخر يتهكم بمرارة على تلك الأوضاع من الخمول والجمود لا سيما عند مقارنته لها بما تنجزه الحضارة الغربية الحديثة في

(1) نفس المصدر، ص 10

شتى ميادين العلوم والصنائع، فيصف الأمة بأهل الكهف لما عاشته من سبات خلال القرون ولم تستفق منه بعد، لكنه سرعان ما يتخلى أحيانًا أخرى عن أساليب الأسى والتهكم ليتوخى خطابًا حماسيًّا يستنهض به الهمم ويحفز الإرادة ويشد به العزائم خصوصًا، عندما يتوجه بخطابه إلى شباب الأمة ليحملهم مسؤولية بناء المستقبل موضحًا لهم المبادئ والقيم الكفيلة بتحقيق النمو والتقدم المنشود ومقدمًا لهم نماذج تحتذى من تاريخ الأمة ومن حضارات الشعوب المتقدمة.

فللرجل إذن كفاءة وخبرة وحس وطني تؤطر جميعها رؤاه النقدية ومشروعه الإصلاحي، وحديثنا عن هذا الإطار هو حديث عن المؤهلات التي يتأكد توفرها لكل نظر نقدي نزيه ولكل مشروع إصلاحي يؤتمن ويوثق به. بقي من الضروري الحديث بعد ذلك عن محتوى الرؤية النقدية وطبيعة المواضيع المطروحة على بساط المعالجة ومراكز الاهتمام فيها سواء كان ذلك بالحضور أو بالغياب، وكذلك النظر في المراجع والمعايير النقدية التي تشكل المستندات لتلك الرؤية فضلًا عن مناهج التقييم والحكم المعتمدة فيها. ولا يخفى ما لهذه الأركان من أهمية في بيان المنزلة الحقيقية للمجهود النقدي والإصلاحي الذي ينفرد به السيد أحمد القطعاني، فإذا سلَّطنا النظر على المحتوى وحاولنا الإحاطة به وحصره بشيء من الاختصار والاختزال أمكننا القول بأن رؤية الرجل النقدية للمجتمع العربي الإسلامي قد تناولت المظاهر التالية:

أولًا- انتشار الجهل بالدين وبالمعارف الحديثة، وثانيًا- ظاهرة الخمول ووهن الإرادة والتخلي عن المبادرة، وثالثًا- تداعي وانهيار المؤسسات الاجتماعية، ورابعًا- استشراء الفساد والانحلال الأخلاقي. وقد حلل القطعاني هذه المظاهر ونقدها مشيرًا إلى وسائل معالجتها وتداركها، وقدم في ذلك آراء وأحكام وجيهة إلى حد بعيد، لكنه لم يتوقف كثيرًا عند أسباب تلك الأوضاع واكتفى بالإشارة إلى ثلاثة عوامل فقط وهي: تدهور الفكر الديني، والخلل في منوال التربية، واختراق مؤثرات الخضارة الغربية للمجتمعات الإسلامية، إلا أنه قد تجنب في الغالب الأعم الحديث

عن العوامل السياسية الداخلية والخارجية، وهي التي كان لها دور هام فيما وصلت إليه تلك المجتمعات من تخلف وتدهور. ومن المفيد أن نشير في هذا السياق إلى أن الرؤية النقدية القطعانية لم تقتصر على تناول الأوضاع العربية الإسلامية، بل إنها تعرضت بالنقد أيضًا إلى الأوضاع الحضارية الغربية.

فللمنوال الحضاري الغربي في رأيه مظاهره السلبية التي تسربت إلى المجتمعات الإسلامية وأحدثت فيها اضطرابًا وتقلقلًا في القيم، ومن تلك المظاهر السلبية التوجه المادي لتلك الحضارة وما ساد بسببه من انحلال وتفسخ أخلاقي باسم الحرية الفردية وحقوق الإنسان، وهو يشير كذلك إلى النزعة العدائية والاستعمارية التي يكنها الغرب المسيحي للإسلام ويذكر بإساءته إلى شخصية الرسول ﷺ، وهي إساءة لم يعتذر عنها حتى بعد إعلان المقاطعة الاقتصادية معه، ولا جدوى في الحقيقة من المقاطعة ما دمت الشعوب الإسلامية تعيش في تبعية اقتصادية للغرب، فالحضارة الغربية في رأي القطعاني تسير في اتجاه لا يحقق السعادة بالضرورة للإنسان رغم ما أحرزته من تقدم مادي؛ لأن الإنسان قد أصبح في تلك الحضارة مجرد آلة لا تدرك معنى للحياة بسبب تعقدها والتزاماتها، وهو يعبر عن حيرته إزاء ما ينتظر الأجيال القادمة من ظروف معيشية معقدة لا طعم لها ولا رائحة، وبالتالي لا معنى فيها للسعادة.

نأتي الآن إلى مرجعيات الرؤية النقدية ومستنداتها والمعايير المتحكمة بها في مشروع القطعاني الإصلاحي لنؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أنها تتألف من ثلاثة أركان: أولها: مبادئ الدين الإسلامي، فالقطعاني يستمد آراءه الأساسية من الوحي القرآني ومن الهدي النبوي أي من الثوابت الأساسية للرسالة المحمدية، فإصلاحه إسلامي النزعة والإسلام منطلقه في كل المواضيع التي عالجها، مما يجيز لنا القول بأنه ينتمي إلى التيار الإصلاحي الذي يرى أن الإسلام هو الحل، وأن سبب الانهيار كامن في الابتعاد عن تعاليم الدين، ولا بد من العودة إليه لتحقيق النهضة المرجوة،

لكنه مع ذلك يختلف عن المصلحين المنتمين إلى ذلك التيار في كونه ينتقد الموروث الديني ويخضعه للنقد والإصلاح أيضًا ليعيد إليه نضارته عن طريق الاجتهاد ومجانبة التقليد، فالإسلام الذي يستلهمه القطعاني هو الإسلام المستنير بالعقل والقادر على مواكبة التغيرات الطارئة على الزمان والمكان .

أما ثاني تلك المرجعيات: فهي المرجعية العلمية، فلا نهضة في نظر القطعاني بدون المراهنة على العلم، إذ كان التخلي عنه ولا يزال السبب الأساسي للتخلف، ولن تتمكن الامة من النهوض إلا إذا أولت الأهمية الضرورية للعلوم والمعارف ولنا في التاريخ الإسلامي وتاريخ الشعوب الأخرى خير دليل على ذلك.

وأما الركن الثالث لتلك المستندات والمرجعيات في مشروع القطعاني: فهو الاعتقاد الراسخ بضرورة مواكبة العصر وبحتمية التطور؛ إذ بدون الوعي بالسيرورة التاريخية ودوران عجلة الزمن لا يمكن للشعوب أن تضمن لنفسها البقاء.

وللرؤية النقدية كما أسلفنا وعلاوة على ما توفر لها من مرجعيات ومستندات تشكل الجهاز المفهومي الضروري لكل عملية إصلاح مناهجها العملية في المعالجة والتقييم وإصدار الأحكام واقتراح الحلول، وطبيعي أن نتساءل في هذا المستوى عن المقاربة المنهجية التي درج القطعاني على توخيها في رؤيته النقدية واعتمادها في مشروعه الإصلاحي، ويمكن القول في هذا الصدد بأنه غالبًا ما اعتمد الحجاج في تحليله العقلاني جاعلًا من الاقناع غايته الأولى، حتى أنك ليخيل إليك أنه يتقمص دور المربي المجادل والحريص على تنوير العقول بإزاحة ما ران عليها من خيالات وأوهام، فهو لا يفنِّد زعمًا و لا يؤكد رأيًا إلا مدعومًا بحجة نقلية أو عقلية، وقد يدعم ذلك أحيانًا بخلاصة تجربة شخصية أو حدث هام من أخبار الماضي أو مستجدات الحاضر ليستخلص من وراء كل ذلك طبيعة الموقف الذي يتبناه وليجعله مستساغًا من قِبَل سامعه أو قارئه .

وكثيرًا ما تنضاف آلية أخرى إلى هذا المنهج المعتمد من قبل القطعاني وهي آلية المقارنة، فللمقارنة موقع مركزي في منهجه النقدي؛ إذ ما انفك يعتمدها في معظم المواضيع التي أخضعها للنقد، ومن أبرز المقارنات التي عقدها تلك التي وازن فيها بين ما يحدث في المجتمعات العربية الإسلامية وما يجري في المجتمعات الغربية؛ إذ بأضدادها تتميز الأشياء، وغالبًا ما تهدف تلك المقارنة إلى المفاضلة بينها في ظاهرة من الظواهر ومقياسه في ذلك المنطق القويم والحس السليم دون انحياز لهذا الطرف أو ذاك، ولا جدال في أن ذلك المنهج المقارني يشي بما يتسم به القطعاني من فكر منفتح على الآخر وغير منغلق على الأنا، بل إننا نشهد في أدبياته اطلاعًا واسعًا على شؤون الحضارة الغربية قديمها وحديثها؛ إذ تراه يأتيك بخلاصة مراكز البحوث الغربية في جداول وأرقام مضبوطة، مما يدل على معرفة عميقة بمكونات ومخرجات تلك الحضارة ولا يرى مندوحة عن الاستفادة منها بما يتلاءم مع الحضارة الإسلامية.

ومن خصائص هذا المنهج أيضًا الاعتدال في اتخاذ المواقف وإصدار الأحكام، فهو في دفاعه عن الهوية الإسلامية يدين التعصب والانغلاق، وفي نقده للحضارة الغربية لا يمنع الاستفادة من جوانبها الإيجابية، ويمكن القول بصيغة أدق إن الرجل يحتفي بعلوم الغرب ومنجزاته التقنية ومكتشفاته في مختلف الميادين، ولكنه يرفض في الآن نفسه عاداته الاجتماعية والأخلاقية ومواقفه المنحازة والمغرضة من الإسلام. وتنضاف إلى خاصية الاعتدال في منهجه النقدي خصيصة أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، ونعني بها نوعية الخطاب النقدي الذي تراوح بين خطاب عقلاني وتحليلي مباشر وخطاب أدبي ابداعي، مناطه الخيال والوجدان كأنما أراد بذلك مخاطبة العقل والروح معًا.

خاتمة

لعل أهم ما نستنتجه مما سلف من تحليل للرؤية النقدية والإصلاحية للعلامة أحمد القطعاني، هو أننا نجد أنفسنا إزاء أنموذج إصلاحي له مميزاته الخاصة؛ إذ يروم الإحاطة بكل تجليات الواقع الحضاري للمجتمع الليبي بشكل خاص والمجتمع العربي بشكل عام، ولئن ركز في نقده على الأوضاع الدينية والاجتماعية والثقافية فإننا لا نعدم عند استقرائنا لفكره النقدي الوقوف على عديد الاشارات إلى انعكاسات تلك الأوضاع على الوضع الاقتصادي سلبًا وإيجابًا، ومع ذلك فإننا قد لا نعدو الصواب إذا قلنا إن صاحبنا كثيرًا ما تحاشى الخوض في الأوضاع السياسية مكتفيًا بالإشارة إليها من طرف خفي وبأسلوب غير مباشر نظرًا إلى إكراهات الحكم في زمانه .

ومن خصائص أنموذجه النقدي والإصلاحي أيضًا، أنه أدرج نظرته الشاملة للأوضاع في إطار تقييمي مستند إلى منهج نقدي ثاقب، مستأنسًا ومسترشدًا في كل ذلك بالرؤية الحضارية الإسلامية المقتبسة من النصوص المؤسسة للدين الإسلامي، أي النص القرآني والحديث النبوي. وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أمر هام وهو أن القطعاني قد اهتم في معالجته النقدية باستيعاب الرؤية الحضارية الدينية الصحيحة بعد تخليصها مما شابها عبر العصور من تشويه بفعل التقليد وانتشار الجهل والتجمد الفكري، فللرجل مشروع إحيائي للفكر الديني الاجتهادي، وإن كان يبدو في الظاهر للقارئ المتعجل صاحب موقف محافظ، فالمتعمق في آرائه يدرك عكس ذلك تمامًا ويتبين مدى انفتاح مواقفه الدينية على مواكبة العصر وفهمه العميق لمعنى التطور والتقدم.

ولذلك الأنموذج النقدي والإصلاحي خصيصة أخرى رئيسة، وهي الاستلهام من الحضارات الأخرى سواء أكانت غربية أو شرقية، ويظهر ذلك واضحًا في التنويه بما أنجزته تلك الحضارات وما حققته من تقدم، ولا ينبني موقف القطعاني منها

على التقليد والاتباع، بل انه لينتقد أيضًا ما فيها من ممارسات اجتماعية غير محمودة ومتعارضة مع القيم الأخلاقية والإنسانية، وفي ذلك دليل على توخيه للموضوعية والاعتدال في إصدار الأحكام دون تعصب للذات أو تحامل على الغير، كما نراه يحترم الاختلاف في الرأي ولا يحتكم إلا للحجة والبرهان العقلي، ولعل من أهم خصائص فكر الرجل أنه يطلب الحكمة حيثما وجدت ووظفت فيما ينفع الناس .

وكما ينفتح القطعاني على الآخر لصالح الأنا، نراه يستفيد من الماضي لتقويم أوضاع الحاضر وفتح الآفاق أمام المستقبل. وصفوة القول: إن المنهج النقدي والإصلاحي لديه يتلخص في الجمع بين الأصالة والمعاصرة مع استيعاب معناهما بعمق، وبيان كيفية الجمع بينهما عبر بوصلة دقيقة يتحكم فيها الفكر العقلاني والتدبر العلمي، فالعلوم والمعارف تشكل في منهجه النقدي الجسر الواصل بين الضفاف الحضارية في مجرى الزمان والمكان.

أوجه التجديد في اجتهادات أحمد القطعاني

د. صابر مولاي أحمد

باحث مختص في قضايا الفكر والدراسات القرآنية – المغرب

ملخص

الشيخ أحمد القطعاني عالم ليبي اشتهر بعلمه واجتهاداته، عاش بين (1956م – 2018م). في هذه الورقة سنقترب من بعض وجهات نظره، ولا ندعي أننا أحطنا بكل ما كتب، بل اكتفينا ببعضٍ من نصوصه، وعملنا على ربطها بالسياق الثقافي، وما تَميَّز به من وجهات النظر والرأي في علاقة الإنسان المسلم بماضيه وحاضره، فأحمد القطعاني هو شيخ وداعية، ولكن ليس كباقي الدعاة الذين يدخلون على الناس دون إذن ودون أدب؛ لأن همَّهم الوحيد هو الظهور والحضور المتكرر في الإعلام وغيره، والتسرع في القول في أي شاردة أو واردة، دون تدبر أو تفكير، ودون وعي بمقتضيات العصر ومتطلباته.

كلمات مفتاحية: أحمد القطعاني، التجديد، الاجتهاد، الإسلام.

• الفكر الإسلامي ومطلب التجديد:

طُرِقَ باب الدعوة إلى التجديد؛ بفك موضوع الاجتهاد في فهم الدين وقضاياه وفهم الواقع ومتغيراته؛ من أغلال قيود الاتباع والتقليد في العالم الإسلامي، أواخر

القرن 19م مع كلٍّ من الطهطاوي (1801-1873م)، وجمال الدين الأفغاني (1838-1897م)، والكواكبي (1854-1902م)، ومحمد عبده (1889-1905م). ومن الملاحظ أن رواد النهضة هؤلاء كانوا مخلصين لسؤال الاجتهاد بمعزل عن الانتصار لأيِّ طرحٍ إيدلوجي أو مذهبي كيفما كان.

وعلى طول الفترة التي تفصلنا عن محمد عبده حتى اللحظة الراهنة؛ طُرحت الكثير من الرؤى ووجهات النظر، وتَشكَّلَت الكثير من المشاريع الفكرية التي أغنت المكتبة العربية الإسلامية، بغض النظر عن المشارب الفكرية لتلك المشاريع التي تباينت وجهات نظر النقاد والقراء في تقييمها؛ إذ بالإمكان التمييز بين ثلاثة اتجاهات بشكل عام:

الأول: الاتجاه الذي رآه جمهور القاعدة من القراء بكونه متأثرًا ومنحازًا إلى المنظومة الفكرية الغربية، بمعزل عن مراعاة متطلبات وخصوصيات المحيط الثقافي والاجتماعي الإسلامي؛ تأثرًا منهم بالمنهج الليبرالي أو الاشتراكي أو القومي العروبي من حيث الفهم والتحليل، وهذا الاتجاه يعاني من مشكلة تقليد ونقل ما عليه بيئة جغرافية لصالح بيئة أخرى مع عدم مراعاة الفرق، ويكون الأمر هنا أسوأ عندما يتم تجاهل تبيئة الأفكار والمفاهيم تبعًا للخلفية الدينية والثقافية والتاريخية التي يختص بها العالم الإسلامي عن غيره، وبإمكاننا القول: إن هذا ما جعل هذا الاتجاه يعرف تعثرًا في الانتشار وصعوبةً في أن يشكل حلًّا لمشكلات الواقع، وفي هذا تفويت لفرصة الاجتهاد والتجديد تبعًا لمتطلبات الواقع ومقتضياته، ومن البديهي جدًّا أن المحسوبين على هذا الاتجاه بكونهم يتفاوتون على المستوى المنهجي والمعرفي من حيث وعيهم بالخصوصية الثقافية والحضارية والدينية للعالم الإسلامي.

الثاني: الاتجاه الذي كانت ملاحظة القراء والنقاد عليه بكونه يتصف بالمبالغة في الارتباط بما قال به الأقدمون، بمعزل عن متطلبات الواقع الحالي ومقتضيات العصر؛ إذ لا فائدة بجلب فتاوي ما قال به الأقدمون للإجابة على أسئلة العصر، وقد

بقي المحسوبون على هذا الاتجاه مقتصرين على مناهج طرق الأقدمين في فهم الشرع والشريعة، وقد يكون الأمر أسوأ عند هؤلاء، عندما يكون جلب تلك الفتاوى بدون مراعاة اختلاف الزمان والمكان. وقد ساهم هذا الطرح في تعطيل حركة التجديد، كما أنه من العوامل التي جَعلَت جمهور عامة الناس يعتقدون بكون الحل يكمن في تاريخهم وماضيهم بمعزل عن حاضرهم.

الثالث: اتجاه المشاريع والرؤى الفكرية التي اتصفت بالوعي باستحضار الخلفية الثقافية والحضارية للعالم الإسلامي، وفي الوقت ذاته؛ الوعي بما عليه العصر من روح العلم والمدنية، فضلًا عن التمييز بين العلم والمدنية من جهة؛ وبين الخلفية الإيدلوجية الكامنة من وراء العلم والمدنية من جهة أخرى، وبهذا فسحت المجال لنفسها بانتقاد ما قال به الأقدمون وتَجاوُز آرائهم واجتهاداتهم، وفي الوقت ذاته؛ العمل على انتقاد المدنية المعاصرة وتعريتها وإزالة لباس القداسة عنها، وهذا أمر يترتب عليه إفساح المجال أمام انخراط الفكر الإسلامي في الحركة الفكرية العالمية، من حيث النقد والإرشاد والتوجيه والاستفادة -في الوقت ذاته- بالعمل على فهم الخطاب القرآني تبعًا لمقاصده العالمية والكونية، بدلًا عن الفهم المحلي الذي يكتفي بالفهم الموروث.

هذا الثالث الأخير ينبغي الاعتناء به؛ فهو المعول عليه في تقوية روافد الحركة التجديدية، ففي تقديرنا أن العالم الليبي أحمد القطعاني ينتمي إلى الاتجاه الثالث؛ إذ يبدو جليًّا -من خلال الكثير من تصوراته وآرائه- استحضاره للأبعاد الثقافية للحظة الحضارية التي تظللنا اليوم، وفي الوقت ذاته استحضاره للأبعاد الاجتماعية والثقافية التي ساهَمَت في تَشكُّل الكثير من المواقف والرؤى داخل المدونة الفقهية، وسنأتي على استحضار بعض من آراء أحمد القطعاني حول موضوع عالمية الإسلام والفن والمرأة، وهي قضايا أسالت كثيرًا من المداد.

• عالمية الاسلام:

موضوع عالمية الإسلام من بين المواضيع التي في حاجةٍ إلى تجديد الفهم والنظر، وذلك من خلال القراءة المعرفية لمجمل نصوص القرآن، وتحرير صفة عالمية الإسلام من ثِقل الحمولة الثقافية والتصورية التي لَحقَت بها تبعًا لظروف اجتماعية وسياسية وغيرها، لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر، من بينها؛ تقسيم قدماء الفقهاء -ومن سار على نهجهم- العالم إلى دار الإسلام ودار حرب(1). هذا الفهم لا زال حاضرًا -وبالأخص- في تصورات الجماعات المتطرفة، وبالنظر إلى المدونة التفسيرية وإلى كبار مفسري القرآن؛ نجدهم لم يولوا عنايةً خاصةً لتحليل مسألة عالمية الرسالة المحمدية، بل اقتصر جهدهم حين كانوا يتعرضون للآيات المتصلة بما كان يُسمَّى عموم الرسالة، إلى المكلفين على تقرير أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- لم يُبعَث لأمةٍ بعينها خلافًا لكل الرسل السابقين(2).

وقد تَشعَّبَت الإشكالات المنهجية في فهم عالمية الإسلام -بحضور الفهم الإيدلوجي للدين من لدن الإسلاميين أو العروبيين-، فمحمد ﷺ يبدو من خلال

(1) تم تعريف دار الإسلام عند الفقهاء بكونها: «الدار التي يغلب عليها ظهور شرائع الإسلام، ويحكم فيها المسلمون بحكم الإسلام وتعاليمه، وإن كان غالب سكان تلك البلاد غير مسلمين». ودار الكفر بكونها: «الدار التي لا يحكم فيها المسلمون، ولا يظهر فيها تطبيق لتعاليم الإسلام، أو أن = = يكون المسلمون فيها أقلية غير حاكمة». «قد وقع خلاف بين الفقهاء المسلمين فيما يخص هذا التقسيم للعالم، ومع أن الغالبية قَبلته كأمر واقع فإنّ فئةً منهم -ولاسيما فقهاء المذهب الشافعي- افترضَت وجود دارٍ ثالثةٍ هي دار الصلح، أو دار العهد. وحسب هذا المذهب فالإسلام اعترف بالشعوب غير الإسلامية التي أبرمت معاهدةً أو صلحًا مع المسلمين على أن تدفع الجزية، لكن فقهاء الحنفية لم يقبلوا بهذا، وما اعترفوا أبدًا بالصلح، وحجتهم أنه متى عقد سكان الإقليم معاهدة سلام ودفعوا الجزية؛ فإنهم يصبحون بذلك ضمن دار الإسلام، وعلى الإسلام أن يضمن لهم الحماية. وكانت دار الإسلام -من ناحية نظرية- في حالة نزاع مع دار الحرب؛ لأن الهدف الأخير للإسلام هو أن يكون العالم بأسره تحت سيطرة المسلمين». انظر: دار الإسلام - بحث في المفهوم، عبد الله إبراهيم، مجلة التسامح، إصدار وازرة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، تصدر الآن باسم مجلة «التفاهم»، العدد 17، سنة 2007م.

(2) النبوة والعالم: عالمية الخصوصية في الخطاب القرآني، حميدة النيفر، مجلة الإحياء، إصدارات الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، العدد 27، فبراير 2008م، ص 25.

الكتابات العروبية بكونه بطلًا عربيًّا تَمكَّنَ من تحرير شعبه، وألقى به في دائرة الفعل التاريخي والحضاري، كما تطغى النظرة التي تختزل التاريخ الإسلامي في كل ما هو عربي، بإسقاط خصوصيات الإنسان العربي الثقافية واللغوية والتاريخية، على غيره من الشعوب، فهذا الفهم الإيدلوجي العروبي للإسلام وَلَّد ردَّة فِعلٍ من الأجناس المسلمة غير العربية الأصل، مثل: الأمازيغ في المغرب والجزائر، والأكراد في الشرق الأوسط، بعودتها إلى كيانها الثقافي واللغوي الذي يميزها عن غيرها.

فعالمية الإسلام تتعارض مع النظرة التي تنظر إلى العالم بمنطق ثنائي، ما هو داخل دائرة الإسلام وما هو خارجها، كما أنها تتعارض مع اختزال الإسلام في الأنثروبولوجيا العربية وكل ما اتصل بحياة العرب زمن نزول القرآن، فهناك فرق منهجي بين الإسلام بكونه قِيمًا مفتوحةً على الكون وعلى مختلف الثقافات، وبين الإسلام في شقه التاريخي والذي تَشكَّلَ جزءٌ كبيرٌ منه في سياق الثقافة العربية، وهي مشكلة في حاجة لنظر كما تقدم.

تبعًا لهذا السياق المنهجي نستحضر رأي أحمد القطعاني وقوله: «فالذي يجب أن نفهمه ونتيقنه أن عربنة الإسلام تُفقده أهم خصائصه، ألا وهي عالميته، وأنه ليس لنا وحدنا فقط -بني يعرب- حكرًا علينا، بل نحن جزء صغير محدود فقط من شموليته اللامتناهية، وأن الله تعالى أراده للناس كافة بكل لغاتهم وأجناسهم وتاريخهم وأفكارهم، ونحن من هؤلاء الناس، ولسنا ولم ولن نكون كل الناس»[1]. هذا النص يحمل أبعادًا منهجيةً، أهمها الوعي بكون الإسلام متجاوزًا لما هو عربي، فلا ينبغي حصره في السياق الثقافي العربي؛ لأن ذلك سيجعل منه دينًا محليًّا بدلًا من أن يكون كونيًّا وعالميًّا، فالكثير مما هو محليٌّ يتعذر تحويله لما هو عالمي وكوني، فالدائرة الأوسع والتي تشمل الناس جميعًا في الخطاب القرآني هي دائرة «يا أيها الناس»، ففهم الثقافة العربية بكونها تحمل طابعًا محليًّا زمن النزول وبعده، أي التمييز

(1) إسلام للبيع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص9.

ما بين القيمة الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام في بُعدها الكوني والإنساني، وبين التطبيقات التاريخية التي صاحَبَتها؛ سيفتح المجال أمام الكثير من المقاربات المعرفية التي تبحث في مجال الفقه الإسلامي في علاقته بالثقافة العربية وغيرها من الثقافات، وهذا سيجعل من الفقه فقهًا مرتبطًا بزمانه ومحيطه الثقافي، ويفتح المجال للتجديد والنظر الفقهي؛ أخذًا بعين الاعتبار مستجدات اللحظة الراهنة ومتطلباتها.

صحيح وبدون منازع، ومما هو معروفٌ كون الإسلام ليس للعرب وحدهم، ولا أحد يدعي أنه للعرب وحدهم، فالإسلام على الإطلاق لا يهدف إلى تعريب مختلف الشعوب والثقافات التي تحت مظلته، كما أن الحضارة الإسلامية قد انطوت بداخلها مختلف الثقافات بما فيها الثقافة العربية وغيرها، ولهذا؛ فتاريخ الإسلام وثقافته ليست بالضرورة هي تاريخ العرب وثقافتهم، مع العلم أن أمة العرب منذ البدء كانت هي الأمة الحاملة للإسلام، فالقرآن نزل بلغة العرب، ونزل على قلب النبي الأمي العربي، فهنا بالضرورة التمييز بين الحامل والمحمول، فالحامل هي أمة العرب زمن النزول، أما المحمول فهو رسالة الإسلام، وهذا المعطَى سيأخذنا لأمرٍ يتعلق بلغة القرآن الكريم، فنزول القرآن الكريم باللغة العربية لا يعني أن نُسقِط عليه الحمولة الثقافية لمختلف مفردات اللغة العربية زمن النزول وبعده، فالقرآن له حقله الدلالي يميزه عن غيره لمفردات اللغة من داخله، فمفرداته اللغوية لها حمولاتها الخاصة والتي تتعارض أحيانًا مع حمولات مفردات اللغة في الشعر العربي، والأبحاث والدراسات في مجال الدراسات القرآنية قد تَطرَّقَت باستفاضةٍ لهذا الأمر.

عالمية الإسلام اليوم تقتضي فَهْمَ الإسلام بكونه منظومة قِيمٍ وأخلاقٍ، منفتحةً على جميع الثقافات عبر العالم، مما يسمح بتجسيد تلك القيم بأوجه متعددة، تبعًا للتنوع اللغوي والثقافي عبر العالم، فنحن اليوم في حاجة لنفهم -عن قُربٍ- طبيعة تلك النقلة النوعية والدور الذي قام به القرآن الكريم، المتمثل في إتمام مكارم الأخلاق؛ وذلك بالحط أو الرفع من شأن الكثير من أوجه الثقافة المحلية في جزيرة

العرب حينها، أو ما يحيط بها من ثقافات أخرى؛ فالثقافات عبر العالم اليوم فيها كثير من مكارم الأخلاق، فكيف لنا اليوم أن نتأسى بقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو يحدد أحد أهم مقاصد بعثته، قال -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(1). الثقافة المعاصرة اليوم في حاجة إلى ترشيدٍ على ضوء مكارم الأخلاق.

وفي هذا السياق نستحضر رأي أحمد القطعاني وهو يستشرف ما هو قادم في قوله: «فإنني أجزم أننا سنرى بأمِّ أعيننا في الأعوام القليلة القادمة لا محالة إسلامًا قادمًا نحونا من قارات العالم الست ودول العالم المائة والستين، بوجوه وألسن وقامات وثياب متعددة، وسيجبرنا على أن نعيد النظر في مسلَّمات كثيرة طالما توارثناها من غير ما تَدبُّرٍ وتَفكُّرٍ، كما أنني أجزم بأن الزمن الذي كنا نُفصِّل فيه الإسلام على مقاسنا العربي الفضفاض قد ذهب إلى غير رجعة»(2). هذا النص يعكس مدى قدرة صاحبه واستعداده لتبنِّي كل مكرمة أخلاقية ولو لم يعرفها تراث المسلمين وتاريخه من قبل، إنَّ رأيَ أحمد القطعاني يعكس صدى قول محمد إقبال وهو يقرِّب للأذهان الطريقة التي اتخذها النبيُّ في بسط رسالة الإسلام في قوله: «الطريقة التي يتبعها النبيُّ هي أن يُعلِّم أمَّةً معيَّنةً ويتخذ منها نواةً لبناء شريعة عالمية، وهو في هذه الحالة يؤكد المبادئ التي تنهض عليها الحياة الاجتماعية للبشر جميعًا، ويطبقها على حالات واقعية في ضوء العادات المميِّزة للأمَّة التي هو فيها، وأحكام الشريعة الناتجة عن هذا التطبيق -كالأحكام الخاصة بعقوبات الجرائم- هي أحكام يمكن أن يقال إنها تخص هذه الأمة، ولما كانت هذه الأحكام ليست مقصودةً لذاتها فلا يمكن أن تُفرَض بحرفيتها على الأجيال المقبلة، ولعل هذا هو السبب في أن أبا حنيفة -وكان نافذ البصيرة بما للإسلام من صفته العالمية- لم يكد يعتمد على هذه الأحاديث، وإدخال أبي حنيفة

(1) أخرجه أحمد والبخاري.
(2) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 11.

لمبدأ (الاستحسان) في الفقه، والاستحسان يقتضي الدرس الدقيق للأحوال الواقعة في التفكير القانوني، ويلقي ضوءًا آخر على البواعث التي كَيَّفَت موقفه من مصادر التشريع المحمدي»[1].

• الإسلام وسؤال الفن:

عندما تُطرَح قضية الفن بشتى أبعاده تتعالى الكثير من الأصوات، ظنًّا منها بأن الفن حرام، وبأنه يُفسد أمر الدين، وتستند في رأيها على كثيرٍ من المرويات، والسؤال الذي ينبغي التقرير فيه هو: ما هو الفن؟ وعن أيِّ فن نتحدث؟ فمن البديهي أن أمر الفن وأمر العلم وأمر التدين وأمر السياسة... كلها بمثابة مجالات للفعل الإنساني، وهذا الأخير تابعٌ للنفس وبُعدَيْها في التكوين، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: 7-10]، فالنفس مُلهَمة على الفجور وعلى التقوى، فبفجورها يكون العلم لا يولي اهتمامًا للأخلاق، ويكون الفن في استجابة للغريزة، ويكون التدين غارقًا في التشدد والتطرف العنيف، وتكون السياسة متماهيةً مع الظلم والطغيان، أما في حالة تقواها فالعلم سيكون طريقًا إلى عالم الغيب، والفن في إيقاعٍ منسجمٍ مع الروح، والتدين يسع الناس جميعًا برحمةٍ من الله، والسياسة تراعي العدل والمساواة بين الناس، فالفن بكونه فعلًا إنسانيًّا لا يمكن حصره في زاويةٍ واحدةٍ.

فتصورات الفقهاء للفن ليست بالضرورة هي تصورات القرآن؛ إذ غالبًا ما يتم التعاطي مع مواقف وتصورات الفقهاء وغيرهم على أنها تصورات تعكس روح القرآن الكريم، والأكثر من ذلك أننا لا ينبغي أن نعتبر الفقه الإسلامي بأكمله يعكس روح القرآن بشكلٍ كاملٍ؛ وهذه هي مشكلة المحافظين الذين يكتفون بما هو شائعٌ وعامٌّ من تصورات الفقه الإسلامي والثقافة الإسلامية، ظنًّا منهم أن روح القرآن كامنة فيها،

(1) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة في القاهرة، الطبعة الثانية، 1968م، ص197-198.

وهذا لا يعني أننا سنقطع مع معطيات الفقه الإسلامي وما تتضمنه الثقافة الإسلامية، بل ينبغي إنزالها مقام التحليل والنقد والفهم والتجاوز؛ فقضايا الفن وغيرها من المواضيع التي ينبغي قراءتها قراءةً معرفيةً من داخل النص القرآني، بهدف الكشف عن تصوراته ومواقفه تجاه تلك القضايا.

من هنا تأتي أهمية مقاربات أحمد القطعاني لموضوع الفن في قوله: «فالنحت نفتي بأنه حرام، ويحرم على المسلم اقتناء أيّة قطعة فنية نحتية، أو أن يزين بها داره أو مكتبه، ويُمنَع أن يُلقِّن أسرته من خلال ثقافة الجمال والإبداع، والسبب ليس شرعيًّا؛ إذ في القرآن الكريم أن سيدنا عيسى -عليه السلام- كان ينحت من الطين كهيأة الطير، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ **[آل عمران: 49]**، وسيدنا سليمان كانت تصنع الجن له التماثيل، قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، ولا أعتقد أننا أَقرَبُ منهما إلى الله تعالى، وإنما نحن العرب لا يوجد في موروثاتنا الثقافية هذا النوع من الفنون مقارنةً بالفراعنة أو الرومان مثلًا الذين لا تزال فنونهم النحتية تزين كل بقعة في الأرض»(1)، من خلال هذا النص نفهم أن عملية التفكير والتأصيل الفقهي عند أحمد القطعاني تتصل بشكل مباشر باستحضار الآيات القرآنية في أبعادها الغائية، ويحق لنا القول بأن الرجل -خاصةً في هذه القضية- جعل من الآيات القرآنية مَدخلًا لِتجاوُز الكثير من الأقوال والآثار التي تُحرِّم الفن، والحقيقة أن الكثير من القضايا ينبغي مراجعتها تبعًا لتصورات القرآن ورؤيته حولها.

(1) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص12.

• قضية المرأة:

مع الأسف؛ تَسرَّب إلى الفقه الإسلامي الكثير من الأمور التي لا أصل لها في الدين، من قبيل القول بأن صوت المرأة عورة، والقرآن يخبرنا بحوار المرأة التي تشتكي من زوجها، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [**المجادلة**: 1]، والقول بالزوجة الجارية، فهناك الزوجة الحرة والزوجة الجارية، فالتسمية توحي بأن هناك أفضلية للأولى على الأخيرة، كما تَسرَّبَت أقوال عدة، من قبيل أن المرأة خُلِقَت من ضلع أعوج[1]، وغير ذلك من التقاليد والعادات التي تجعل الذكر مميَّزًا عن الأنثى، في وقتٍ يُدِين القرآن أسوأ تَصوُّرٍ عن الأنثى كان سائدًا زمن النزول ظنًّا منهم أن الذكر مفضَّلٌ عن الأنثى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾ [**النحل**: 58]، وهذا لا يعني أن الفقه الإسلامي في مجمله مأخوذ عما سبقه، بقدر ما يعني أنه تَشكَّلَ في زحمة سياقات ثقافية واجتماعية تبعًا لعقلية أزمنة لها خصوصياتها، ومن البديهي أن الكثير من مخرجاته لا تتوافق مع عصرنا في الوقت الحاضر.

فأحمد القطعاني -وهو ينظر بعين المساواة بين الرجل والمرأة- يقول: «الذي يعتقد أن المواقف النبيلة والمشرِّفة هي حكر على الرجال وحدهم دون النساء هو مخطئ بنسبة مائة في المائة، لا يعرف عن الناس والدنيا وتقلباتها شيئًا، ففي أحيان كثيرة تكون مواقف النساء أشرف وأنبل من مواقف الرجال»[2]، وهذا النص يُعَدُّ مقدمةً ومَدخلًا لأمور كثيرة تتصل بفقه المرأة.

---

(1) رويَ أبو هريرة فيما نسب إلى الرسول الكريم: «اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ؛ **فإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ**، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ». رواه البخاري ومسلم، وهذا الحديث يتوافق مع ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: «(21) فأوقع الرب الإله سباتًا على آدم فنام، فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا (22) وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأةً وأحضرها إلى آدم (23) فقال آدم: «هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تُدعَى امرأةً لأنها من امرئ أُخِذَت»».

(2) اسلام للبيع، مصدر سابق، ص 31.

بين إنسانية الإسلام، وتجديد الخطاب الديني في فكر العلَّامة أحمد القطعاني

د/ محمد السيد محمد

جامعة طنطا[1] - مصر

كان الإبحار في فكر العلَّامة الشيخ أحمد القطعاني تجربة ثرية وممتعة، تجربة تعرف فيها الباحث على منتج فكرى رصين لمفكر ومجدد وصوفي ومستنير، ولم

(1) من المفارقات الطيبة أن الباحث يعمل بمدينة مصرية تُعرف بمدينة طنطا، ومن الرائع أن هذه المدينة كأنها صدى وحضور واضح في ذاكرة العلامة أحمد القطعاني، وفي مصر على سبيل المثال يحضر مولد سيدي أحمد البدوي مليون زائر في كل عام، ولنا تصور الرواج الاقتصادي الهائل الذي تحظي به طنطا جراء هذا؛ حيث بها مزار هذا الولي، كما يحضر مولد سيدي الشيخ محمد بن عيسى في مكناس في المغرب تسعمائة ألف زائر سنويًّا، والأمر مشابه في جل الدول العربية والإسلامية. انظر: إسلام للبيع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 21، وفى مواضع أخرى يستعيد طنطا في ذاكرته بقوله «ويحضرني وكنت وبعض الأحباب في زيارة سنة 1991م لسيدي الشيخ أحمد البدوي في طنطا بمصر إذ قدم علينا رجل تبدو عليه الوجاهة والصلاح يعتمر طاقية (معرقة) طرابلسية بيضاء على رأسه وهَشَّ في وجوهنا وبَشَّ وبالغ في الترحيب والحفاوة، ثم أخبرنا أنه عرف من هيتنا أننا ليبيين وأنه مصري من أهل طنطا من مريدي طريقة سيدي عبد السلام الأسمر ويحب ليبيا وأهلها، لذلك أقصي ما يكون الحب ويعتمر طاقية طرابلسية على رأسه كشعار لهذه الوصلة الربانية التي يعتز بها وأنه يشغل منصبًا مرموقًا في محافظة طنطا، ثم أضافنا وما افترقنا حتى أبكي العيون وأسال الدموع بلواعج محبته الصافية النقية ، وخبرني بربك أتستطيع مائة قرار عن مؤتمرات القمة العربية مصدقة من جامعة الدول العربية وكل لجانها وإدارتها أن تفعل بيننا معشر العرب عشر معشار هذا». انظر: سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 21.

يكن هذا التراث الضخم مجرد منتج فكرى تنويري عقلاني فحسب، بل كان خلاصة تجربة روحية مزجتها محبة صوفية ورؤية عرفانية، وثقافة موسوعية.

إن هذه التجربة البحثية الفريدة يمكن الولوج إليها من النص التالي الذي يذكر فيه العلَّامة القطعاني تجربته الدراسية قائلًا: «كنت طالبًا في أكسفورد في بريطانيا تستغرق الحصص الدراسية يومي كله من الصباح حتى الساعة الرابعة مساءً، وباقي النهار حبيس الحجرة أيام الشتاء هناك طويلة قارصة البرد الضباب يلفها، ووقت صلاة المغرب عند الساعة الرابعة والنصف ليبتدئ بعدها ليل يكسوه الثلج المتهاطل تغوص فيه الأقدام، وجاء الربيع وأشرقت الشمس والجملة الإنجليزية التقليدية التي يفتتح بها الكلام عادة في كل الأحوال هي (**Niceweather**) أي طقس جميل ثم ينساب الحديث»[1] .

والنص السابق كفيل أن يرسم لي صورة بانورامية عن الرجل الذي سنغوص في طروحاته الفكرية، فهو المستنير الذي تلقى تعليمًا في أرقى جامعات العالم الأوروبي، وهو الحريص على صلاته في ظل هذا التجربة التي عاشها في الغرب، وهو الإنسان الرقيق الذي يتفاعل مع الطبيعة بوجدان فائض بالمشاعر والسمو في التصوير، وربما كان هذا مدخلًا مناسبًا لما سنراه في طيات هذه الورقة البحثية.

محاربة الغلو في فكر العلَّامة الشيخ أحمد القطعاني:

إن الباحث في التراث الفكري للعلّامة أحمد القطعاني يدرك بشكل قاطع مدى نفوره من الغلو والشطط في كافة مناحي الحياة بشكل عام، وفي الدين بشكل خاص، فالرجل المستنير لم يترك مناسبة يستطيع فيها أن يدُكَّ حصون الغلو إلا وقام بذلك، وتشى لنا النصوص التي تركها بشكل واضح عن هذه الرؤية، فحسبما يذكر في واحد من أهم كتبه «بأن من يقول الأرض تدور حول نفسها كافر ومن لم يكفره

(1) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 27.

كافر، وطالب بفتوي التحريم الهاتف أول اختراعه بحجة أن الصوت الذي نسمعه منه هو صوت شيطان يسكن في خيوطه»[1]، ثم حرمنا بعد ذلك التصوير الفوتوغرافي والإنترنت والكمبيوتر والسيارات وحتي الديمقراطية التي هي أبسط حقوق المواطن في دنيا الله الواسعة هي بدعة غربية محرمة عندنا كافرة يجب أن نهجرها متعللين بالدين، وهنا يتدخل لينفض غبار التطرف عن جوهر وسماحة الدين الأصيل بقوله القاطع: «حاشاه وإنما هو موروث تلك القرون الاستبدادية المظلمة التي تلت عصر الخلافة الراشدة عدا بعض الاستثناءات التاريخية النادرة، حيث لا معقب لحكم ولي الأمر ولا راد لقضائه، بل تسلم له الأعناق والأرزاق ليفعل بها ما يشاء ويرضى عنا نحن الله تعالى تبعًا لذلك، لقد فسرنا طاعة ولي الأمر الواردة في القرآن الكريم بالخنوع والذل والخور، وحاشا لدين الله أن يأمر عباده بها»[2].

ويستمر العلَّامة أحمد القطعاني في هذا الطرح بقوله: «القائمة طويلة واسعة وإنني أقول وحسبي الله وحده أن ٪60 من الحرام الموجود الآن بين أيدي المسلمين العرب بمختلف فرقهم السنة والشيعة والخوارج - هو من عند أنفسنا ما أنزل الله تعالى به من سلطان»[3].

ويضع يده على بيت الداء، مدركًا أن الغلو هو أصل المرض ومنبع الآفة فيقول: «لا أعتقد أن أمتنا المسلمة اليوم تحتل ذروة حضارية بين الأمم، وها على شاشات فضائيات العالم بكل لغات الأرض نرى ديارها محتلة، وحرماتها مستباحة، وأطفالها جوعي، ونساؤها يصفعن ويركلن، ومقدساتها تدنس، وشبابها ينجرف وراء الإرهاب والتطرف، صناعاتها متأخرة، وزراعتها لا تفي بحاجاتها.. إلى آخر المنظومة المعروفة؛ لذا لا يتوقع أن نشذ عن القاعدة بحال، بل المتوقع فعلًا هو أننا نعيش واقع وثقافة عصرنا المنهار هذا ونتلون بلونه»[4].

(1) المصدر السابق، ص 13.
(2) المصدر السابق، ص 14.
(3) المصدر السابق، ص 15.
(4) موسوعة الأشراف، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 55.

موقف العلَّامة أحمد القطعاني من تحريم الفنون:

بطبيعة الحال فإن حديثنا عن العلَّامة القطعاني الذي انتصر لإنسانية الإسلام، فإن موقفه من الفنون لن يكون استثناءً، وفي الواقع فإن للفن في فكر العلَّامة القطعاني مكانة فريدة فهو القائل: بأن أمة بلا فنون خرساء وفنون بلا أمة عمياء. والفن حسب رؤية الشيخ القطعاني هو لغة تعبيرية استخدمها الإنسان منذ القدم ليترجم بـها مشاعره وأحاسيسه، وهو حاجة ضرورية للإنسان كالماء والطعام، وستجد أعمالًا فنية رائعة ما بين رسوم ونُحُوت وأدب محفورًا في: لبده وشحات وصبراتة وجبال أكاكوس وفي واحة جرمه بوادي الآجال وسرسرة بالجبل الأخضر ووادي الغريقة بضواحي مدينة البيضاء وغات، وفي العديد من المدن والقرى الليبية القديمة بيد جدنا الإنسان الليبي منذ آلاف السنين، ويتلخص الفن في 6 كلمات هي: (مهارة، حرفة، خبرة، إبداع، حدس ن محاكاة) وأصله موهبة يهبها الخالق سبحانه لكل إنسان بصور متفاوتة تختلف بين فرد وآخر ويخصه سبحانه البعض بقدرات ومهارات لإبداع أشياء تحمل قيمة جمالية، وحسب رؤيته فلا توجد معارضة فقهية حقيقية لأنواع من الفنون التشكيلية مثل : الألوان، الخط الهندسة التصميم، فن العمارة، الصناعات التقليدية، الأضواء. أو لأنواع من الفن الصوتي مثل التجويد، الترتيل، الشعر، الحكايات أو لأنواع من الفن الحركي مثل السيرك، حيل الخداع البصرية، الراضة البدنية، التهريج مسرح العرائس[1].

وإمعانًا من العلَّامة أحمد القطعاني في عدم الانسياق وراء التشدد والتحريم فإنه يدلى بدلوه في إحدى القضايا الهامة التي تعكس شعورًا مرهفًا بالفن وعدم جواز فرض رقابة كهنوتية على الفن، فعلى سبيل المثال يناقش إشكالية تحريم فن النحت بقوله: «فالنحت نفتي بأنه حرام ويحرم على المسلم اقتناء أية قطعة فنية نحتية أو أن يزين بها داره أو مكتبه، ويمنع من أن يلقن أسرته من خلالها ثقافة الجمال والإبداع

(1) الحب القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 40.

والسبب ليس شرعيًّا؛ إذ في القرآن الكريم أن سيدنا عيسي عليه السلام كان ينحت من الطين كهيأة الطير، مستدلًا على ذلك بآيات من القرآن الكريم مثل: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]، ويستدل أيضًا بأن سيدنا سليمان عليه السلام كانت تصنع له الجن التماثيل في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]، وبوعى كبير بفلسفة التاريخ ينهى القول في هذه الإشكالية بقوله: ولا أعتقد أننا أقرب منهما إلى الله تعالى وإنما نحن العرب لا يوجد في موروثاتنا الثقافية هذا النوع من الفنون مقارنة بالفراعنة أو الرومان مثلًا الذين ما تزال فنونهم النحتية تزين كل بقعة في الأرض مروًا عليها ومنها مدننا شحات ولبده وصبراتة وسواها»[1].

واستمرارًا منه في تبنِّي قضية الدفاع عن الفن، والتي في جوهرها دفاع عن جوهر الدين الصحيح يناقش أيضـًا إشكالية تحريم الموسيقى، وبوعي كبير بقضايا الفقه والتاريخ والتراث يقول: «وللموسيقي حرمناها ليس لسبب شرعي فقي صحيح البخاري أن النبي ﷺ استمع إلى غناء جاريتين في داره، وإنما لأن الموسيقي المتداخلة المتناغمة ليست في تراثنا كالصينيين أو الهنود الحمر مثلًا!» وكما كان للنحت والموسيقى نصيب في رؤية العلَّامة القطعاني فإن الرسم أيضًا كان له نصيب من هذه الرؤية التنويرية قائلًا: «والرسم حرام لا بنص ديني وإنما لسبب بسيط جدًّا هو أننا لا نعرفه ولم يعثر على رسوم في جزيرة العرب بأيدي عربية قط»[2]، وبقولٍ فصلٍ

(1) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 12.
(2) المصدر السابق، ص 13.

يحسم قضية الفنون في الفكر الإسلامي بقوله: «لذا فإنني أعتقد أن للأصوات التي تحارب الفن باسم الإسلام أن تعيد ترتيب أحكامها»[1] .

المرأة في فكر العلَّامة أحمد القطعاني:

تميزت المرأة بمكانة مخصوصة في فكر العلَّامة الشيخ أحمد القطعاني، وهذه المكانة للمرأة في فكر فضيلته تعكس أفقًا بالغ الرحابة والإنصاف للمرأة، وهو من ناحية أخرى يعكس سماحة الإسلام الحقيقية التي أنصفت المرأة بعيدًا عن وطأة التشدد، ويمكننا أن نرصد هذه الرؤية من خلال ما قاله على النحو التالي: «الذي يعتقد أن المواقف النبيلة المشرفة هي حِكْر على الرجال وحدهم دون النساء هو مخطئ بنسبة 100٪ لا يعرف عن الناس والدنيا وتقلباتها شيئًا، ففي أحيان كثيرة تكون مواقف النساء أشرف وأنبل من مواقف رجال كانت تسوق لهم المعروف والخير أطنانًا فما ردوه لك إلا نكرانًا وجحودًا، حيا الله طائفة منهن أسماؤهن وُثِّقت في دواوين أهل الوفاء الخالدة خلود التاريخ، لا يملن بعقائدهن ومواقفهن مع رياح السوء حيث مالت، شعارهن الخير وسبيلهن الحق ومنزلتهن عند أهل المروءة تبقي سامية عالية؛ فلهن كل التقدير والاحترام»[2] .

إن المرأة في الإسلام حسبما أوضح العلَّامة القطعاني لها مكانتها السامية من اهتمام فهي نصف المجتمع وشمس الأسرة وريحانة المنزل وبسمة الحياة وبهجتها، عظّمها الإسلام أُمًّا مقدسة، وبث في ثنايا كتابه الكريم وسنة نبيه العظيم ﷺ تلك النفحات الطيبات المخبرات عن أمهات المؤمنين المعظّمات، ويعضد رؤيته بأمثلة عديدة قائلًا: «ولا غَرْوَ فأول من آمن برسالة سيدنا رسول الله ﷺ من البشر كافة هي أُمُّنا السيدة خديجة بنت خويلد، وكان من أوجه احترام الإسلام للنساء أن

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 46.
(2) اسلام للبيع، مصدر سابق، ص 31.

أشاد بذكرهن وخصهن بسورة في القرآن الكريم باسمهن هي (سورة النساء) أمهات المؤمنين صفوة النساء يقصر البيان عن بيان فضلهن إذا ما أراد لهن بيانًا، معالم خالدة في الدعوة الإسلامية الخالدة قاسين وبذلن وقدمن لكل نساء الدنيا أسوة حسنة ونبراسًا مشعلًا تهتدي به كل ماجدة من النساء وفاضلة»[1].

وبتحليل فقهى مستنير يقول: «صوت المرأة أفتينا بأنه عورة، وأردفنا بفتوي تُحرِّم على المرأة الخروج من دار أبيها إلى مكانين اثنين فقط لا ثالث لهما هما: دار زوجها والدار الآخرة في قبرها، وهذا ليس دينًا فأمهات المؤمنين كن يتكلمن مع الناس ويخرجن ويزرن من يشأن في حياة سيدنا محمد ﷺ ويرافقنه في غزواته ويشاورهن ويُشرن عليه، والسيدة أم سلمة هي التي أشارت على سيدنا محمد ﷺ بأن يحلق رأسه الشريف في الحديبية، ففعل وكفَّ الله تعالى برأيها الصائب خلافًا خطيرًا كاد أن يطل برأسه البغيض بين المسلمين، ولكن نفهم السبب إذا ما علمنا أننا كنا نئد المرأة طفلة وهي حية في التراب ذات يوم من الأيام، ويظل وجه الواحد منا إذا ما بُشِّر بالأنثى مسودًا وهو كظيم يتوارى من الناس من سوء ما بُشِّر به»[2].

وبرؤية بالغة العمق يربط بين شرب ماء زمزم ومعنًى بالغ الرقى يتعلق بالأمومة قائلًا: «لا ينبغي الاكتفاء بشرب ماء زمزم المبارك دون النظر إلى معنى الأمومة السامية في شرابه السائغ العذب، فالرضاعة هبة إلهية كالهواء والماء غير اختيارية ولا كَسْبِيَّة، تشترك فيها كل مخلوقات المملكة الحيوانية بما في ذلك حتى الضباع والذئاب، وإنما يميز رضاعة الأم الإنسان الحقيقية تلك الجرعات العاطفية الناعمة من الحنان والحب والتضحية والإيثار التي ترافقها؛ مما يغرس قيمًا عدة في الطفل ليس البِرُّ بأقلها، وهنا نري كل الصفات واضحة جلية في أم نسيت نفسها وهي تسعي بين الصفا والمروة جيئة وذهابًا بحثًا عن الماء لابنها العَطِش، فتغدو مسرعة طمعًا في الماء ثم يأكلها

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 47.
(2) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 13.

قلبها على ابنها فتروح إليه والهة مشتاقة، لقد فجر حب الأم الأرض القاحلة الجدباء ماء زمزمًا زُلالًا باقيًا إلى اليوم وإلى أن يبعث الله تعالى الناس من مراقدهم»[1].

ويسوق العلَّامة الشيخ أحمد القطعاني أمثلة مشرفة للمرأة: إنهن يذكرنني بالسيدة التي عاشت في دولة قوية شديدة الشكيمة وافرة الجند غنية بالموارد خصبة، تفيض بالعلوم ويدرس شبابها في الجامعات سبقت العالم كله حضارة وأصالة، بل وانفردت بعلوم لم يستطيع مجاراتها فيها أحد حتى اليوم: كالطب والفلك والتحنيط يتزعمها رجل من زعماء العالم المعدودين قوة ومنعة وسلطانًا حقيقيًّا اسمه مبتاح وإن كان عرف ككل أسلافه وأخلافه باسم الفرعون، أما هي فقد كانت زوجته ولكنها لم تكن على شاكلته؛ إذ هي عظيمة من عظيمات النساء قاطبة انحني لها التاريخ إجلالًا واحترامًا ونطقت بالثناء عليها كُتُب الله تعالى المنزلة من عليين اسمها: آسيا بنت مزاحم[2].

دروس تربوية:

لم تخل رؤية العلَّامة الشيخ القطعاني الإنسانية من أحاديث تربوية، وخصوصية هذه الأحاديث والرؤى أنها مستقاة من فهم عميق من القرآن ومن سير الأنبياء، فنجده على سبيل المثال يفكك قصة سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام قائلًا: «إن سيدنا إسماعيل هو أنموذج قرآني مثالي للابن ذكرًا كان أو أنثي البار بوالديه؛ ولذا استحق عن جدارة أن يكرم بذكر سيرة بره العطرة في ثنايا القرآن الكريم ليضعها البررة أما أعينهم قدوة ومنهاجًا، ومن دواعي فخرنا وسرورنا معشر العرب أن يكون جدنا دون باقي أنبياء الله ورسله هو مثال بر الوالدين، ولعل هذا الميراث الكبير هو الذي يفسر أصالة هذه الشيمة النبيلة عندنا وعمق إصرارها وتوارثها في مجتمعاتنا أكثر من

(1) المصدر السابق، ص 16.
(2) المصدر السابق، ص 31.

شعوب الشرق والغرب[1] وكان من الطبيعي أن يرسم هذا الأب العظيم طريق التربية المثالية ليسير عليها الناس كافة ليغنموا أبناءً إسماعيليين بررة»[2].

التصوف وغذاء الروح في فكر العلَّامة أحمد القطعاني:

للتصوف مكان مميز وكبير وواضح في رؤية العلَّامة الشيخ القطعاني، فهو الصوفي المحب العازف الماهر على أوتار الكلمة والروح والوجدان، وحسبما يذكر الشيخ القطعاني فإن التصوف حياة سعيدة متوازنة وآفاق فكرية وثقافية واسعة، وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشرع الكريم ونواهيه، وريادة وسمو، فعلًا إنا نغفل عن كل هذا ونكتفي بقشور[3].

وأجدني هنا كباحث مصري في غاية السعادة لما أقره الشيخ القطعاني بدور مصر في تاريخ التصوف، فيقول: «وأنصحهم بدراسة تاريخ بلدهم مصر ذاتها التي تكلموا منها، ليجدوا على صفحاته تاريخ الصوفي العز بن عبد السلام الذي باع سلاطين مصر المماليك عندما اشتد جورهم على الرعية في أسواق النخاسة، وأبطال الجهاد ضد الحروب الصليبية وعلى رأسهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي، والصوفي ابن لقمان الذي أسر قائد الحملة الصليبية الملك قلب الأسد في داره في مدينة المنصورة، بل ولهم أن يسألوا أي فلاح مصري يحفر الأرض بمسحاته العتيدة لينشد علي أسماعهم ذلك النشيد العظيم الذي يتوارثه المصريون منذ قرون ممجدًا دور الشيخ أحمد البدوي في تكوينه كتائب فدائية من مريديه تهاجم معسكرات الصليبيين، وتفتك الأسري المسلمين منهم فيقول بكل بساطة: الله الله يا بدوي جاب الأسري»[4].

وفي ذات السياق يسترجع الشيخ القطعاني ذكرياته مع التصوف في مصر، ويذكر اسم أحد مشايخ المتصوفة فيقول: «أحب أن أقول أن صديقنا الشيخ محمد

---

(1) المصدر السابق، ص 15.
(2) المصدر السابق، ص 16.
(3) المصدر السابق، ص 16.
(4) سري للغاية، مصدر سابق، ص 35.

النمر شيخ الطريقة كان قد أخذ التصوف عن الشيخ الطاهر بن محمد أحد متصوفي مدينة الزاوية الغربية في ليبيا، وصحبه لعشر سنين متصلة حتى أذن له بالرجوع إلى مصر، وصار من أمره ما لا يخفى»[1]، وهو بذلك لا يتوقف عند الحديث عن التصوف أو خصوصية مصر في تاريخ التصوف، بل يتوسع للحديث عن العلاقة الروحية بين مصر وليبيا وتبادل العلم والمعرفة الصوفية بين البلدين الشقيقين.

وإمعانًا في الغوص في روحانيات العبادات وفهم جوهرها، فإن رؤية الشيخ القطعاني قامت بتأويل غير تقليدي للعبادات منها صيام المسلمين في شهر رمضان المبارك، ومن الممتع أنه قسّم كلمة رمضان لحروف على النحو التالي، فقال إن هذه الكلمة أولها **حرف الراء**: رعونة رعناء أن تطبق عينيك وتقفل نوافذك وتسدل عليها الستائر تطلب الظلام، فالظلام يا مسكين وباء فتاك مُعْدٍ يتسرب إلى قلبك فيجعله ظلامًا بهيمًا، وعندها ستكون مقابض نوافذك الموصدة قد صدأة فلا تستجيب لك إن أردت فتحها مجددًا، الشهر الكريم نور رباني وشعاع ثاقب يضيء القلوب وينور الأفئدة فعش رمضان وأنت تصومه ليسري ذلك النور المبين في باطنك فيحيله نهارًا متصلًا لا ليل فيه ولا ظلمة.

والميم: مضي عليك وقت طويل وأنت تلعب دورًا ليس لك على مسرح الحياة الكبيرة فارجع -لله- النظر في صفحات وجهك وأعد التأمل في ملامحك؛ لأنك ربما لست أنت الذي يحمل هذا الوجه الظاهر في المرأة أمامك وإنما أرغمتك ظروفك المرة على ارتدائه، فوجهك الحقيقي جميل بشوش حنون متسامح لا سامح الله من أرغمك على تغطيته يومًا بهذه الأقنعة الثقيلة السمجة، ويعزيك أنه لست وحدك على المسرح وإنما يشاطرك الأدوار الكثير من المغلوبين على أمرهم مثلك، تمامًا ممن لا يحبون الكَدَر ولا يطيقون الأذى وإنما أرغمتهم[2] أهل الشرور على الاحتماء منهم

(1) المصدر السابق، ص 54.

(2) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 41.

خلف وجوه عابسة كالحة اتقاءً لشرهم وصرفًا لكيدهم ناهيك بمكابدة تحصيل لقمة العيش ومخالطة الناس والقيود التي يزيد الآخرون تضييقها كل يوم على معصميك أكثر، كلها تتضافر لتشكل وجهك كما تريد هي لا كما هو في أصله، وها هو رمضان قد أتاك مجددًا وربما هي فرصتك لتستلقي مطمئنًا وتشرع في إزالة أقنعة كثيرة غريبة عنك، وتلقيها في سلة النفايات، ويقيني أنك ستشعر بعدها أنك أكثر نشاطًا وخفة بعد أن أزحت عنك هذه الأثقال المثقلة وأشرق وجهك الحقيقي باسمًا بعد غياب طويل كشمس ظهرت بعد غيوم كثيفة وسحب سوداء[1].

أما الضاد: ضعف المسكين عن مواجهة حاضره، فهرع إلى الوحدة يظنها الجنة المفقود ولو كانت الوحدة جنة لأسكن الله تعالى كل عبد من عباده جنة لوحده وما أسكنهم جميعا جنته معًا، فاختر لنفسك من ينهض بك حاله ويدلك على الله مقاله -وقليل ما هم- واصحبه فهو الأمان إن وجدته لتنجو سفينتك من أهوال قاسية وأمواج عاتية وترسو على شاطئ السلامة آمنة مطمئنة، وتلك كلمات شيخنا مختار السباعي رَحِمَهُ اللهُ التي طالما أوصاني بها تتردد في خاطري وتلح على أفكاري لأدونها لك، وهو يقول:

جلوس المرء وحدَهُ خير من جليس السوء عندَهْ
وجليس الخير خير من جليس المرء وحدَهْ

والألف: الوردة عشرات من الأجفان ولكنها بلا عين ترى في وسطها، فاتفق كل الخلق على حبها والتودد إليها وزرعها وكسبها وإهدائها والاستبشار بطلعتها، تقول لك الوردة: أيها الصائم خلق الله لك جفنين يحيطان بعين واحدة لتغمضها بهما عن الآخرين فتريح، وتستريح فكُفَّ يا مسكين عينيك عن الآخرين واترك مراقبة عوراتهم ومتابعة رعوناتهم؛ فيَكُفّ لسانك قطعًا عن الخوض في سيرتهم وحيواتهم ويهنأ

(1) المصدر السابق، ص 42.

عيشك ويطمئن فؤادك وستكون محبًا محبوبًا مثلي أنا الوردة، فالبعض حاول فتح القلوب بالخمر والدم فخسر، والبعض بالقوة والعنف فانكسر، وكله باطل فالقلوب لا تفتح إلا بالله تعالى حتى المال بنوعيه يعجز عن حل أقفال القلوب وفتح مغاليقها، أقول بنوعيه لأن المال الذي ينفعك هو طريقك للحرية وهذا نوع، والمال الذي يضرك هو طريقك للعبودية و هذا نوع من المال آخر .

والنون: نومك مضطرب وصحوك قلق لأنك ترتدي جلد القنفذ بالمقلوب، انظر حولك وستجد أن نحيب الخريف هو ربع العام فقط، والثلاثة أرباع الباقية لا نحيب للخريف فيها، فأرجع جلد القنفذ إلى وضعه الطبيعي فإن العمر لأقصر بكثير من أن يتسع لوخزة واحدة من أشواكه المؤلمة فما بالك بما هو أكثر.. وإن كنت تحب الحياة فلا تُضِع وقتك؛ لأن الوقت هو المادة التي تصنع منها الحياة، أما إن كنت تبحث عن مكان لنفسك تحيا فيه تحت الشمس فعليك أن تتحمل لفحانها[1].

إن المحبة هي عنوان واضح في كل نص مكتوب بتوقيع الشيخ القطعاني، فالرجل عنوانه الأبرز هو المحبة، فحسبما يذكر في أحد المواضع «كثيرون حولك يحبونك ويبتسمون لك ويبذلون جهدهم لإدخال السرور على قلبك، ثم يفرحون لابتسامتك ويتألمون لعبوستك، ولكنك لا تريد أن تراهم أو تبادلهم طيب مشاعرهم لأنك تعتبر حبهم وبذلهم حقًّا طبيعيًّا لك لا ينبغي أن تشكرهم عليه ولا أن ترده لهم بالمثل، كم أنت جهول أعمى البصيرة، فالحب يا مسكين هو أثمن ما في الوجود، وكل شيء قد تأخذه من بني الإنسان خوفًا أو طمعًا إلا الحب فإنهم لا يهبونه إلا عن رغبة وطيب خاطر؛ فلا تستهين بمشاعرهم لأنك إن فقدتها فقدت كل شيء، وافرح بهم وبادلهم أحاسيسهم الكبيرة، وكف عن التجاهل والمكابرة وكسر خواطرهم، فجوع بطنك لسويعات في شهر رمضان ينبئك عن مجاعة قاتلة يُقاسى ويلاتها أولئك الذين

(1) المصدر السابق، ص 43.

حرموا شيئًا كبيرًا اسمه (الحب) لولاه ما لذَّ في الدنيا طعام ولا ساغ شراب ولا هنئ نوم»[1].

الآخر في رؤية العلّامة القطعاني:

لم تجد الكراهية والتعصب وإقصاء الآخر مكانًا في كتابات الشيخ القطعاني، فقد حرص دائمًا على أن يبرهن أن الآخر له مكان آمن في رؤيته وفي فكره، دونما إقصاء أو تحزّب، ولم ينسَ أن يدافع دائمًا عن إنسانية الإسلام وعدم مسؤوليته عن أحاديث إقصاء الآخر، وأهمها حديث الفرقة الناجية المسؤول عن كافة الصراعات السياسية عبر أحداث التاريخ الإسلامي، والأمثلة عديدة في كتاباته على هذا الطرح، فحسب إحدى النصوص التي قال فيها: «إن ما يجرى الآن في العراق والجزائر والمغرب ولبنان والسودان وليبيا والصومال وسواها من سفك دماء وهتك أعراض وخطف وقتل ومجازر - كلها يتـعلل أصحابها بنصوص حديثية منسوبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبررون بهـا ما يرتكبون من أفعال مشينة، وأهم حديث في هذا الصدد هو حديث الفرقة الناجية الذي يعتبر النص المقدس الأساس لكل فرقة إسلامية سياسية أو قتالية أو ثقافية ظهرت في البلاد الإسلامية قديمًا أو حديثًا، فكل فرقة من هؤلاء تحرص على روايته وتلقينه لعناصرها على أنه نص ديني مقدس واجب النفاذ لتقنعهم بأن كل مَنْ يسمون أنفسهم المسلمين هم ليسوا كذلك فعلًا، وإنما هم جزء من مجموع 73 فرقة كلها ضال في النار إلا واحدة فقط، هي فرقتهم وجماعتهم تحديدًا الناجية التي تمثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وبذا يجوز لكل عنصر منهم مخالفة أو تكفير وحتى قتل وقتال باقي المسلمين، والفتك بهم وترويعهم وتفجيرهم بالسيارات المفخخة واستباحة أعراضهم وأموالهم؛ لأنهم مارقين عن الدين جزاؤهم في الدنيا القتل وفي الآخرة جهنم والعذاب الشديد، وأن

(1) المصدر السابق، ص 44.

الناجي الوحيد هو فرقته الناجية التي ينتمي إليها كما تأكد له من الحديث المذكور، ونص الحديث كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن معاوية بن أبي سفيان قال:

«**قام فينا رسول الله ﷺ فقال: ألا إن من قبلكم من الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**» وهناك رواية أخرى مماثلة عن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجها الترمذي، وروايات أخرى تبلغ العشر أخرجها البزار وكذلك الترمذي في سننه وأبو يعلى في مسنده وفي سنده أبو معشر نجيح وهو ضعيف، والطبراني في الكبير والأوسط والصغير وفي سنده كثير بن مروان وهو ضعيف جدًّا وعبد الله بن سفيان وهو أضعف، وكلها موجودة في كتب الحديث التي أشرنا إليها وبالإمكان مراجعة متونها وأسانيدها، وهي منسوبة إلى 14 صحابيًّا يرفعونها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويبقى أقواها سندًا وأعلاها صحة الذي ذكرناه أولًا أعلاه، تليه في القوة رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ومعروف بجلاء أن عمرو بن العاص كان هو الذراع الأقوى والمـعين الأول لمعاوية ضد الخليفة الراشد سيدنا علي بن أبي طالب[1] .

ولم تتوقف سماحة العلَّامة القطعاني ورؤيته للآخر عند ما سبق، بل إن اليهود أنفسه لم يكونوا منبوذين في كتاباته، فهو يعرض تاريخية العلاقة السلمية معهم، واحتواء المسلمين لهم، ولكنه يحملهم المسئولية عما حدث منهم بعد ذلك، قائلًا: «واليهود أيضًا كانوا يعيشون بيننا إلى عهد قريب، لهم كل ما لنا وعليهم كل ما علينا في كل الدول العربية بلا استثناء لدولة عربية واحدة، وفي ليبيا على سبيل المثال لا تكاد تخلو مدينة ساحلية كبيرة من طرابلس إلى زليتن ومصراته وبنغازي ودرنه وطبرق وسواها من معبد يهودي يتعبدون فيه ومقابر خاصة بهم ودكاكين

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 78.

وحوانيت كانت تنتشر في أسواقنا لتجارهم، وحارة لليهود بها مساكنهم ومنازلهم وعملوا بوظائف الدولة المختلفة وتولوا بها مسئوليات وإدارات عليا، ولطالما جُعنا نحن وهم معًا وشبعنا معًا وارتوينا معا ومرضنا وشُفينا معًا، وتصاهرنا وتصادقنا، ومع ذلك سقط اليهود على خبثهم الأصيل في أوهام أكذوبة التفوق العنصري والفوارق العرقية والطبقية العالمية الكبرى، واحتلوا فلسطين وخاض العرب الذين ما أساءوا لهم طوال تاريخهم المشترك قط ضدهم حروبًا أربعة كبري عدا الحروب الاستنزافية وغير النظامية، وهم يعيشون الآن فيها متزاحمين في رقعة من الأرض بحجم زجاجة سفن أب في حمام سباحة عربي كبير متنعمين بدعم غربي طويل وتأييد أمريكي عريض، ويتقلبون في شباك وَهْمٍ حالكة تُخيّل لهم أنه باستطاعة 4 ملايين يهودي البقاء في فلسطين قسرًا للأبد مراهنين على تخاذل وخوف الأنظمة العربية وضعفها وخياناتها في وسط 280 مليون عربي يرفضونهم كلهم وستحين الساعة بلا ريب وتنشب الحرب مجددًا وسيخرجون قطعًا من فلسطين وسيعودون للعيش معنا مجددًا، سيتساءلون يومها نادمين عن مغزى عيشهم لأَجَل محدود في رقعة تحت وَهْم الحدود والفوارق، وعن مبرر منطقي لِمَا كلفتهم إياه غاليًا، ولن يجدوا إلا الألم والأسى في انتظارهم»[1] .

والآخر ليس منبوذًا أو عدوًّا أو خصمًا في فكر العلَّامة القطعاني بل يجب مد جسور التواصل معهم وعدم النفور منهم، بل وضرورة وجود قنوات مشتركة لمخاطبتهم، وهو ما عكسته رؤيته التالية «طالما تمنيت أن يخصص في كل منهما مسجدان، واحد يلقى خطبة الجمعة باللغة الانجليزية والآخر الفرنسية، ولن يكون صعبًا بحال توفير خطيب يتقن إحدى اللغتين، ففي كل من المدينتين كثرة في الأجانب المسلمين الأسيويين والأفارقة ممن لا يحسنون العربية، ولكنهم يتكلمون إحدى اللغتين المذكورتين، وهم بين حاضر لصلاة الجمعة لا يفهم حرفًا مما يقال،

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، ط1، 2018م، ص 20.

وغائب عن المسجد الغياب لغة التواصل وفي غيابهم عن المسجد ما قد يفقدهم قيمًا إسلامية وسلوكًا دينيًّا قويمًا هم ونحن بحاجة إليه لنعيش معًا، ناهيك بآخرين أوروبيين وسواهم يسمعون عن الإسلام ويحبون معرفة أموره، وينبغي إيجاد قناة تواصل معهم تتيح دخول نور الهداية إلى القلوب المتعطشة له»[1].

الإنسانية والتضامن الاجتماعي في فكر العلَّامة القطعاني:

بطبيعة الحال فإن الرؤية المفعمة بالإنسانية للعلامة الشيخ القطعاني لم تكن لتخلو من التضامن الاجتماعي، وحسب طرحه قائلًا: «ما فتيء الخيّرون جزاهم الله خيرًا يخرجون -مأجورين مثابين إن شاء الله- زكاة أموالهم وتجارتهم وزرعهم وماشيتهم إضافة لزكاة الفطر خاتمة كل شهر صيام ولهذه الزكاة ثمانية مصارف معلومة حددها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ **[التوبة: 60]**.

ولكن بعد هذه القرون الطويلة من إخراجها ما زالت اليد السفلى تزداد عددًا وفقرًا وحاجة وبؤسًا، مما لا يحل مشكلة ولا يحقق الهدف الذي شرعت من أجله هذه الشعيرة السامية التي هي ثالث خمس بني عليها الإسلام وتمشيًا مع روح الزكاة ومضمون موضوعها العظيم أتمنى لو تنشئ المصارف في بلادنا ليبيا وفي كل البلاد الإسلامية أقسامًا بها خاصة باستثمار أموال الزكاة، حيث تتسلمها من الهيئة العامة للأوقاف أو من دافعيها مباشرة، وتقوم بتجميعها في مبالغ كبيرة متزايدة واستثمارها لصالح الفقراء[2].

أما فيما يتعلق بذوي الهمم فقد كان لهم نصيب في فكر العلَّامة القطعاني، هذا الفكر الذي عكس إنسانية فريدة، فحسب قوله في إحدى أمنياته أن «هناك عدد كبير

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 54.
(2) المصدر السابق، ص 55.

ممن يعانون الصمم والخرس في مدن بلادنا ويقـاسون الآمه ويعانون انقطاعًا غير مبرر جراءه للتواصل الطبيعي مع أبناء مجتمعهم ويحضرون خطبة الجمعة ـتعبدًا وتقربًا لمولاهم سبحانه- ويخرجون منها كما دخلوا بلا فائدة ثقافية أو علمية أو تربوية وهي العناصر الثلاث الأساس لحضور تلك الصلاة، وكم أتمنى أن يتـم اختيار مسجد واحد أو أكثر حسب الحاجة في المدن الكبيرة تحديدًا وهي عدة بحمد الله ليكـون بها مترجم يُعيَّن بمكافأة رسمية للغة الإشارة التي يتكلمها هؤلاء، يقف بجانب المنبر ويتولى ترجمة الخطبة للصم المصلين([1]).

والمدهش أن هذه الإنسانية لم تقف عند الإنسان الفقير والعاجز فقط، بل حتى وصلت للطيور حيث قال: «انتقل من موضوع بيئي خطير عنوانه قتل العصافير من ممارسة عادية أو ترفيهية قد يقدم عليها أحدنا بلا تفكر في عواقبها الوخيمة على التوازن البيئي وتكامله وكارثة الاخلال به - إلى فقرة ديـنية أساسية تدخل ضمن واجبات المسلم واهتماماته، وعليه أن يـعي خطورة هذا الأمر إذا ما فكر في ارتكابه؛ لأنه سيقف بين يدي مــولاه سبحانه ويُسأل عنه، فإن اعتذر لنفسه بشدة الجوع أو سواه من الأعذار المبيحة فقد اجتاز عقبة السؤال الكؤود في وقت هو أحوج ما يكون لكل حسنة وثواب، وإلا فإنه سيجد نفسه في موقف لا يُـحسد عليه»[2].

المذاهب في فكر العلاَّمة الشيخ القطعاني:

(المذاهب بديلًا عن المذهبية) هذا هو العنوان الواضح في فكر العلاَّمة القطعاني، فالتحزب والمذهبية مصطلحات غير واردة بالمرّة في أطروحاته الفكرية، ولكنه ينبهنا للمَعين الذي يجب أن تُستقى منه هذه الرؤية وهم السلف الصالح بديلًا عن السلفية المشوهة، فحسب رؤيته فإن «الدين ظاهرة مخيفة العواقب مرعبة الآثار،

(1) المصدر السابق، ص 54.
(2) موسوعة الأشراف، مصدر سابق، ص 51.

خصوصًا في وقت صارت الفتاوي المتباينة باختلاف المذاهب الإسلامية من سنة حنفية ومالكية وشافعية وحنبلية وشيعية اثني عشرية إمامية وزيدية وبهرية وسواهم من مذاهب الإسلام، ناهيك بالفرق الفارقة الضالة المحسوبة على الإسلام وهو منها براء كالقاديانية والبهائية كلها تبث دروسها وفتاويها عبر برامج عشرات القنوات كل يوم وساعة، والمذهبية هل الباب الملكي للتخريب والتحزب والكراهية فيقول، وتأثر الشارع الليبي والأسرة والمسجد والمدرسة بهذا التعدد والاختلاف فصرنا نشاهد الصلاة في المسجد يصليها كل واحد بهيئة وصفة، ولكل مسجد أذانه ومواقيته، ولك خطيب جمعة مذهبه، وما عدنا نفرق بين الزكاة والصدقة والحج والعمرة، وانفرط عقد الزوجية وحرمها المقدس بفتاوى دخلت بين الزوجين في فراشهما تبيح وتحرم، وكفر البعض بعضًا بسبب ساعات بث مطولة عن اللحية وتشمير السروال والسواك، والله تنزه وتقدس في السماء أم في الأرض[1].

إن أحكام الإسلام كما يقول العلَّامة القطعاني ليست من اليسر فهمها بل هي واسعة شاملة تتسع لكل ما يتعلق بشئون الحياة الخاصة والعامة في مختلف الظروف والأحوال وهي جميعها تعود إلى الكتاب والسنة إما بدلالة ظاهرة أو مباشرة أو بواسطة النظر والاجتهاد والاستنباط قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: 83].

ولحكمة أرادها الحكيم الخبير كتب سبحانه على خلقه أن يتفاوتوا في الملكات والمواهب وتحصيل العلوم ونيل المعارف والدراية بأحكام الشريعة الغراء، فكان من الضروري أن يسأل العالم الأعلم ويقتدي الجاهل بالعارف ليتوحد الجميع في مرضاة الله تعالى، وهو الأمر الذي وجّه الله سبحانه أنظار خلقه إليه ليغنموا الراحة

(1) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 59.

والطمأنينة والسلامة والنجاة فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43][1].

فالمجتهدون الأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وسواهم من أمثالهم رضوان الله عليهم هو قوم علموا القرآن والسنة ثم اجتهدوا فدنوا وحرورا، وانعقد اجماع الأمة على جواز تقليدهم فيما ذهبوا إليه وإجماع الأمة معصوم من الذلل قال ﷺ «**إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة**» رواه الترمذي، ومن هنا نشأ الفقه الإسلامي العظيم الذي انقسم إلى مدرستين هما مدرسة الرأي وتركزت في العراق ومدرسة الحديث الشريف وتركزت في الحجاز، ولكل منهما رجالها وقواعدها ومميزاتها وكل قواعد هؤلاء الأئمة مقتبسة عن نور الشريعة الساطع مؤيدة بالقرآن الكريم والسنة الغراء، كيف والله سبحانه يقول في محكم آياته مجليًا لحقيقة عظيمة مفادها أن نقرأ فقط من دون المؤمنين هم من كلفوا بالاجتهاد في طلب العلم وتحصيله وعلى إخوانهم ممن لم تسعفهم ظروفهم، ولم تتوفر عندهم ملكة العلم أن يسمعوا لهم ويأخذوا عنهم ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

وهنا تتمحور إحدى أطروحات العلّامة الشيخ القطعاني بالغة الأهمية حيث يقول: لقد حفظ الله الدين بأئمة مجتهدين مجمع على علمهم ودرايتهم وبلوغهم الغاية القصوى على مرتبة العلم بالأحكام والفتوي من أهل الرأي والحديث، أسسوا مذاهب مباركة غراء، وكل مسائل الأحكام وفتاوي الحلال والحرام لو لم تضبط بأقوال هؤلاء الأئمة الكرام لأدّي ذلك إلى فساد الدين، ثم ضبط العلماء الذين أتوا بعدهم مذاهبهم وحررت قواعدها أصولًا وفروعًا، ولولا ذلك لعاش المسلمون

(1) المصدر السابق، ص 60.

كارثة كبري متمثلة في تفصيل كل واحد منهم للشريعة على مقاسه وحسب حاجاته وأهوائه وضاع الحرام والحلال، لقد أحكم أئمة المذاهب رضوان الله عليهم أحكام الفقه التي هي قاسم مشترك بينهم لا خلاف فيها؛ لأنهم متفقون عليها وإن بقي مدار البحث حول ما اختلفت اجتهاداتهم فيه[1] ولكن للأسف ظهرت عدة دعاوي في عصرنا الحديث تدعونا للخروج عن هذا الحصن الحصين الذي طالما حمى الأمة من الزوابع والأعاصير، ونبذ هذه السمة الحضارية التي ينفرد بها المسلمون عن كل الملل والنحل السابقة واللاحقة تحت عنوان مريب يقول : إسلام بلا مذاهب. وسمعنا بكل أسف من يقول: لماذا العمل بهذه المذاهب وباستطاعتنا أن نأخذ الفقه عن القرآن والسنة مباشرة؟[2] ومعترض يكتب : كيف ينحصر الاجتهاد في أئمة متعينين ويمنع باب الاجتهاد عن غيرهم؟ ومنكر يصيح بأعلى صوته: كيف نمنع من تقليد غير أولئك؟.

ولاقت هذه الدعاوي قبولًا واستحسانًا عند البعض وعبثًا ذهبت محاولات المخلصين ردهم عن هذا الخطأ الشنيع، وزاد بلة الطين احتضان الجماعات المتطرفة لهذه الأقوال واعتمادها والدعوة لها خصوصًا ما بين 1970م-1995م حيث انفردوا بجُل الساحة الإسلامية تقريبًا عبر سيطرتهم على وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية مدعومين من دولة السعودية المتخمة بالبترودولار، وهي تدفع ثمن ذلك التصرف الطائش الأرعن اليوم من اقتصادها واستقرارها ودماء مواطنيها وسمعتها في المحافل الدولية حتى جعل بعض كبارهم هذه المذاهب كالنصرانية، ومن ذلك ما علق به الألباني على حديث نزول سيدنا عيسي عليه السلام على مختصر المنذري لمسلم حيث كتب: هذا صريح في أن عيسي عليه السلام يحكم بشرعنا ويقضي بالكتاب والسنة لا بغيرهما من الإنجيل أو الفقه الحنفي أو نحوه .

(1) المصدر السابق، ص 61.
(2) المصدر السابق، ص 62.

وقرع العلَّامة الشيخ القطعاني مبكرًا ناقوس خطر فيقول: «أما عندنا في ليبيا فإنني أري من واجبي أن أنبه إلى خطر الفرقة والتشتت وانتشار أفكار التطرف في مجتمعنا، وأقول: إن من أهم السبل لدرء ذلك جمْع الناس على مذهب واحد هو مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي قال فيه الرسول ﷺ متنبأ منوها: «**يوشك أن يضرب اناس أكباد الإبل فلا يجدون عالمًا أعلم من عالم المدينة**» رواه الترمذي وأحمد وابن عبد البر والتبريزي وابن حبان والحاكم والبيهقي والمنذري، وعلينا التعجيل بذلك وإلا وقعنا في المحظور الذي سبقنا إليه دولة شقيقة تغافلت عن خطر تعدد مصادر الفتوي واختلاف المذاهب، حتى فجعت بتفجيرات الدار البيضاء؛ وإذ بها عقب ذلك بشهر تصدر قرارا عن مجلس الوزراء بحظر الفتوي بما عدا المذهب المالكي»[1].

ولا يقولنّ لي أحد أني أضيق واسعًا وأقفل باب التعدد في اجتهادات العبادات أو أنني انتقص من قدر المذاهب الأخرى، فهذا والله افتراء عظيم ويعلم الله وحده المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور أنني أتيقن من نفسي أنني لا أرتقي لمستوي أن يطأ خدي نعل أحد أئمتهم فضلًا عن أن أفاضل بينهم أ أتعصب لأحدهم دون الآخر وأين الذرة من المجرة؟ ولكنني أخاف التشتت والفرقة وأراهما عدوًا خطيرًا مهلكًا واضعًا نُصب عيني حديث رسول الله ﷺ «**عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة**» رواه الترمذي وابن ماجه[2].

ويذكّر الشيخ القطعاني بالمسئولية التاريخية لبلاد المغرب الإسلامي وتحديدًا ليبيا تجاه المذهب المالكي بقوله: «لكل ذلك فإنني قلت وأقول وسأبقي أقول: لا مذهب عن المذهب، ثم يجب ألا ننسي أنه علينا معشر الليبيين مسئولية تاريخية

---

(1) المصدر السابق، ص 64.

(2) المصدر السابق، ص 65.

تجاه مذهب الإمام مالك؛ إذ نحن مَنْ أدخلناه إلى كل المغرب العربي تونس الجزائر والمغرب وموريتانيا، ثم أواسط وغرب إفريقيا على يد الفقيه الليبي على بن زياد الطرابلسي (ت 183هـ) التلميذ المباشر للإمام مالك مؤسس المذهب المالكي، ومن أوائل من رووا عنه الموطأ، وله نسخة عن الموطأ دونها بخطه وعلق عليها بشروحات وأحضرها معه، وأدخلها المغرب العربي وما يزال قدر مائة صفحة من هذه النسخة العتيقة التي ينيف عمرها عن 13 قرنًا موجودًا بحمد الله، وتعد أقدم كتاب معروف ألّفه مسلم على الإطلاق[1]، فالمذهب المالكي هو وطننا وآباؤنا وأجدادنا وأمهاتنا وإخواننا وإخوانا وأعمامنا وعماتنا، وهو المذهب الذي استقر في ليبيا طوال عمرها وبه اليوم العمل، وهو الذي يدرس الآن في الجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية في ليتن وسواها في الجامعات والكليات ذات العلاقة، وهو الذي يدرس في المنارات الشرعية وهو الذي يفتي به علماء البلاد المعتبرون، ولكن المشكلة في طوائف خلت من علم الأمس وحياة اليوم وأمل الغد؛ لأنهم لا يعون حجم المسئولية ولا يمتد بصرهم لأبعد من أنوفهم ممن تسلقوا سياج هذا الحرم المقدس الآمن، وصاروا يفسدون علينا نعيم هذه الوحدة الربانية الطاهرة وطمأنينة هذه الألفة الإيمانية الزاهرة[2].

مسئولية الفتوى في فكر العلَّامة أحمد القطعاني:

تعانى المجتمعات الإسلامية من ظاهرة خطيرة يمكن توصيفها بأنها عشوائية الفتوى، فالفتوى حين تترك لكل هاوٍ بدون علم ومعرفة حقيقية ساعتها فإننا أمام كارثة اجتماعية ودينية بل وسياسية أيضًا، وهنا ينبّه العلّامة الشيخ القطعاني مبكرًا على مسئولية الفتوى، أقول: العلم لا يعرف الجمود والأسرار ولا يأبه بالقيود والأسوار ولا يحترم التقوقع والاحتكار، وكل من يعتقد غير ذلك لا يمُتّ للعلم وأهله بصلة

(1) المصدر السابق، ص 65.
(2) المصدر السابق، ص 66.

وإن حمل كل شهادات ومؤهلات العالم، وإنك إذا ما رأيت شجرة قوية زاهية المرأى مخضرة الأغصان محملة بالأوراق والثمار ناشرة ظلها فاعلم أن جذورا قوية أصيلة ممتدة في الأعماق هي مصدر ذلك كله[1] ولا يضع رسول الله ﷺ الأديب محل القائد العسكري ولا الفقيه مكان الإداري بل كل رجل في مكانه الصحيح فلا غرابة أن يكون كل صحابي كريم في الذروة فيما قلده مربي الإنسانية من أعمال وأناطه به واجبه من مسئوليات ومهام[2].

ويستمر العلَّامة الشيخ القطعاني في طرح القضية بوعى شديد نابع عن مسئولية أخلاقية شديدة الحساسية تجاه المجتمع وضمان سلامته، وضمان سلامة الفهم الصحيح للدين قائلًا: «نعم أخي لا تندهش إذا ما سمعت مني ذلك؛ فإننا كلنا معشر من ينتسب إلى العلم لا نعطي الفتوي بل ننقلها عن أسلافنا الطيبين من علماء الأمة المعتبرين المعتمدين فهم رضوان الله عليهم دوّنوا العلم ووثقوه وحفظوه، وما من مذهب إلا وحوت كتب فقهه إجابة كل مستفتٍ ورد كل سائل، ومن ذلك المذهب المالكي الذي نتشرف بالانتساب إليه، ومن النادر جدًّا أن نحتاج إلى الاجتهاد، فقد دوَّن سادتنا كل سؤال وجوابه حتى الصلاة على القمر رغم أنهم ما أدركوا سفن الفضاء والمكوكات الفضائية بينوها وحددوا قبلتها، حتى الحمل الذي يحدث ولم يرَ الزوج زوجته قط كأن يعقد عليها بالوكالة وهو في النرويج وهي في غات بيّن سادتنا العلماء أبواب مشروعيته وكيفيتها قبل أن تظهر الطفلة (لويز) كأول طفلة أنابيب على شاشات التليفزيون، وقبل أن نحدق مشدوهين في النعجة (دوللي) رائدة المستنسخات الحية المعلنة، والمسائل التي اجتهد فيها العلماء المعاصرون جزاهم الله خيرا إذا حذفنا ما قاسوه على أحكام وفتاوي من سبقهم من العلماء وقواعدهم لن تصل بحال من الأحوال إلى العشرين مسألة حتى اليوم»[3].

(1) سري للغاية، مصدر سابق، ص 11.
(2) المصدر السابق، ص 15.
(3) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 68.

وبتركيز شديد على القضية الأهم وبيت القصيد وهى قضية مسئولية الفتوى، يقول: «نعود إلى موضوعنا فأقول: لقد كان أهلنا وآباؤنا وأجدادنا يعرفون خطورة الفتوي ومسئوليتها، فكانوا يرسلون في طلبها إذا لم تتوفر بين أيديهم وكثيرًا ما وجدنا مخطوطات ورسائل متبادلة ما بين مدننا وقُرانا من فزان إلى طرابلس إلى برقة إلى عالم بعينه؛ إذ لم تكن الفتوى تؤخذ إلا من أهلها ممن عُرفوا بسعة الثقافة والورع والتقوى والاطلاع على مصادر العلم الشريف، أما أولئك المتسرعون على الفتوى القائلون فيها بجهل فما أشبههم بمن قال ابن حصين رَحِمَهُ اللَّهُ فيهم: إن أحدهم ليفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر ا.هـ»، كما أنه يضع قواعد وأسس وآداب للفتوى قائلًا: «وللفتوى آداب وقواعد وضوابط عرفها السادة العلماء، وما أحرى كل مجترئ على الشريف بالاطلاع عليها والالتزام بها، وحلية الفتوى وجمالها وكمالها في كلمة (لا أدري) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**العلم ثلاثة: كتاب ناطق، وسنة قائمة، ولا أدري**» رواه أبو داود وابن ماجه. ومن أهم قواعد الفتوى تصور المسألة، حتى قال سادتنا العلماء الحكم على الشيء فرع من تصوره ا.هـ. ومعنى هذا أن المفتي ما لم يتصور المسألة فيبقى عاجزًا عن الإفتاء ولو حفظ كل كتب الفقه والفتوى. وكل عالم يعرف حقيقة العلم وعظم أمانته يعلم أنه إذا أفتى بغير الحق تبوّأ مقـعده من النار وضل وأضل، ناهيك والفتوى لا تموت ويتناقلها الناس ويتداولونها ويعملون بها مما يوسع دائرة التأثير بها حتى قيل زلة العالِم زلة العالَم»(1).

ولأننا أمام رجل مستنير إصلاحي يريد العمل بروح الإسلام ونفض غبار التطرف والتشدد والحفاظ على الإنسانية فقد كان يميل دائمًا للمرونة في الرأي، وتحرّى الدقة ومحاولة إيجاد مخرج للحفاظ على الأُسر من التفكك ويروى قصة تعضد لنا هذا الأمر فيقول: «في مدينة درنة أمارس عملي اليومي المعتاد مديرًا للمعهد الديني

(1) المصدر السابق، ص 69.

الثانوي (منارة الصحابة للعلوم الشرعية) وإذ برجلين في أوسط عمرهما يدخلان عليّ الإدارة وعلامات الوجل والإرباك تلوح عليهما، رحبت بهما وأجلستهما وسألتهما عن سبب تشريفهما بالزيارة، فقال أحدهما: إن ابن عمه الذي برفقته يشرب الخمر وقد قدم إلى منزله مخمورًا، ووقعت مشادة بينه وبين زوجته فطلقها الطلقة الثالثة، وإن له منها أولادًا وهو نادم على ذلك الآن، ويسأل عن مخرج شرعي من هذه الطلقة، وهنا يقول الحقيقة إن الحياة الزوجية التزام ولفظ الطلاق ليس لعبة أو فكاهة يتلفظ بها المتلفظ بمسئولية ضخمة تقع على رب الأسرة تحديدًا، إن الطلاق زلزال يضرب الأسرة فيشتت الأطفال ويهدم الآمال وينشر الخراب والوبال، نعم شرعه الله ولكن ليكون بعد أن نستنفذ سبل الوفاق ويستحيل الاتفاق، لا ليكون قبلة في يد طائش أرعن يلقيها متى شاء لله سرته فيحيلهم أشلاء، ويستمر في سرد الرواية قائلًا: على كل حال استمعت لقصتهما بإمعان وركزت على وجود عامل الخمر فأنا بطبعي ولكثرة ما رأيت من ويلات جرها يمين الطلاق على أطفال أبرياء ونساء غافلات، ورجال يتقطعون حسرة وندمًا على ساعة نفخ فيها الشيطان لعنه الله سمومه في صدورهم، فتسرعوا بأبغض الحلال عند الله وأبحث عادة عن أي مخرج شرعي ترتضيه ملتنا الغراء لأفتى ببطلان الطلاق وبقي أمامي أن أتحرى عن القدر المسكر مما تناوله هذا الرجل، إذ لسادتنا الـعلماء قولان أصحهما عندي: أنه لا ينعقد يمين السكران غائب العقل ولا يقع طلاقه، وهو موجود في المذهب المالكي وثابت عن أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان ﵁ وهو قول عمر بن عبد العزيز، وإحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل، وهو القول القديم للشافعي وقول الطحاوي من أصحاب الإمام أبي حنيفة، جاء في الصحيح أن ماعز بن مالك لما جاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقر أنه زنى أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستنكهوه ليعلموا هل هو سكران أم لا ا. هـ، وذلك أنه إن كان سكرانًا لا يصح إقراره، وهذا أحد الأدلة التي استشهد بها الإمام

أبو الوليد الباجي من علماء المالكية في هذه المسألة، على كل حال طلبت منه أن يحضر لي زجاجة وأن يملأها بالماء بقدر ما شرب من خمر»[1].

إن العلَّامة الشيخ القطعاني في هذه النازلة حاول إيجاد عذر شرعي ومخرج فقهي لإنقاذ الأسرة، ولتبيان سماحة الدين وللحفاظ على سلامة المجتمع من التفكك.

الدعوة للإسلام كما يجب أن تكون:

كان العلَّامة الشيخ القطعاني شغوفًا حتى النخاع بقضية الدعوة إلى الإسلام، هذا الشغف كان رفيقًا دائمًا في كتاباته وأطروحاته، لقد كان حريصًا أن تكون الدعوة للإسلام بأسس صحيحة وأصول سليمة كما يجب أن تكون لتحقق أغراضها المنوطة بها، فيقول: «سر نجاح الدعوة إلى أي فضيلة يكمن في نجاح من اعتنقها وعمل بها»[2]، وحسب طرحه فيقول في موضع آخر وبنظرة فاحصة لتاريخنا المجيد: نجد أن الأمة كانت إبَّان تسلمها ذروة الكون مجدًا وعلوًا تفتخر بمثقفين إسلاميين عظام، اختار لك منهم أئمة في عُجالة كشاهد يفي بالغرض، أما جميعهم فيحتاج مجلدات موسعة وموسوعات، فمنهم: البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والبيهقي والدارمي وابن ماجه في الحديث الشريف، والجنيد وأبو يزيد البسطامي ومعروف الكرخي والحسن البصري والغزالي وابن عربي والسهروردي في التصوف، والزمخشري وابن كثير والقرطبي والواقدي ومزاحم ومقاتل في التفسير القرآني الكريم، وابن جني وابن فارس وسيبويه والأخافشة الثلاثة والمبرد والأصمعي في اللغة العربية، وأبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل في الفقه، والجاحظ والمتنبي والمعري في الأدب ... إلى آخر أسماء أفذاذها وأعلامها، لماذا؟ لأنهم جسّدوا فعلًا حقيقة الشرف

(1) المصدر السابق، ص 71.
(2) أكذوبة الدعوة للإسلام، مصدر سابق، ص 27.

المحمدي وصنعوا بأخلاقهم ومزاياهم الشخصي،ة والعلوم الجمة شيم ومكارم أهل البيت الشريف وصدق عليهم الشرف بلا شك ولا ريب لأنهم ولدوا من رحم شريعة سيد الخلق ومكارم أخلاقه وجميل شيمه؛ فصدق عليهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**سلمان منا آل البيت**» رواه الطبراني في الكبير»[1].

ولأنه يدرك تمامًا العائد الحقيقي من وجود دعوة إسلامية صحيحة بعيدة عن التشدد وعدم الفهم فإنه يقول: «قد مرّت حضارة أمتنا الإسلامية بأوقات بلغت فيها الذروة ثقافة وعلمًا وسيادة وغنى وفضلًا، بَيْدَ أنها عانت في أوقات أخرى من انهيارات وتداعيات نزلت بها عن مكان الصدارة الذي تستحقه، ولكل مرحلة بلا شك ثقافتها التي تنعكس على كامل عصرها فتلونه بلونه، فتجد في أوقات العلو والرفعة الفهم الصحيح لنصوص الشرع الكريم وقواعد وقوانين العلوم المختلفة والأخذ بأسباب النهوض»[2].

ويستمر في هذه الرؤية الصحيحة والصحيّة لأصول العمل الدعوى المنزه عن أي غرض سياسي أو أيدلوجي فيقول: «مع احترامي الشديد لما يقوم به بعض الأفراد بمجهوداتهم الشخصية وأساليبهم الدعوية الخاصة لدين الإسلام الحنيف ويحققون نجاحًا مشكورًا، ومع عدم احترامي لجل جمعيات الدعوة الإسلامية الرسمية المعاصرة التي أعتقد إنها ليست في الحقيقة سوى أداة للحكومات العربية المختلفة لتحقق بواسطتها باسم الدين والإسلام والدعوة له ما عجزت عنه بوسائله الطبيعية المعتادة، سواء كانت دبلوماسية أو استخباراتية أو تخريبية، وحسب قوله أيضًا فمع احترامي لبعض الأعاجم من أفارقة وسواهم الذين يطلون علينا برؤوسهم عبر الوسائل الإعلامية المختلفة لينطقوا بالشهادتين ويعلنوا إسلامهم بلغة ركيكة لا تخفي الفرح بما حصلوا عليه مقابل ذلك من دولارات أو مزايا، إلا أنني أقول وبكل أسف –حسب قوله– إن الدعوة الإسلامية اليوم رغم بترودولارات العرب وهم

(1) موسوعة الأشراف، مصدر سابق، ص 57.
(2) المصدر السابق، ص 54.

قلب الإسلام وأجهزة الاتصال والتكنولوجيا الحديثة وإمكانيات طي الزمان والمكان المذهلة التي لم يتيسر وزن الذرة منها لأسلافنا الذين نشروا دين الله في أقطار الدنيا الأربعة - هي في أسوأ حالاتها قاطبة منذ عهد سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم إلى الساعة، ويقرع جرس التنبيه قائلًا: وتعالي معي أريك الصورة أكثر وضوحًا مع أسفي الشديد مسبقًا إن لم تحُزْ رضاك فإن ذلك لإيقاظك من سبات الغفلة اللذيذ الذي خدرتك به برامج التلفزيون في القنوات العربية عبر فقراتها الإسلامية المتعددة، وتطميناتها المستمرة لك أن الأمور بألف خير»[1].

إن العلَّامة الشيخ القطعاني يضع يده أكثر من مرة على موضع الداء وهذه المرة يحدد بشكل واضح، فيذكر أن هناك «جامعات إسلامية نبذت نور القرآن الكريم وراء ظهورها وعوضًا عن أن تستقي منه شرف الدنيا والآخرة، استعاضت عنه باجتهادات وآراء سقيمة جعلتنا أضحوكة أمام الآخرين، فتارة دين الله لِحْية كثة وسراويل مشمّرة وسواك في الفم، وما عداه من زي وهيئة هو تشبه بالكافرين المشركين، ومن تشبه بقوم فهو منهم، مع أنه لا يوجد حرف واحد من ذلك في القرآن الكريم، وتارة أخرى معارك دينية فقهية شديدة وكتب ومؤلفات بل ندوات جامعية ومؤتمرات عن إباحة لبس ساعة اليد من عدمه، وإن لبست فهل في الساعد الأيمن أم الأيسر»[2].

ومن نصائحه الهامة في هذه الإشكالية قوله: «فلنعظم قيمة المسجد وشيخ الزاوية ومناسباتها الدنية وتراثنا الأصيل في أعين أولادنا مبتدئين بأنفسنا، ولنخرج أطفالنا وشبابنا من دوامة الغفلة وغياهب الضياع بإرشادهم إلى قيمنا وحضهم على سلوكيات طالما تربي مجتمعنا لمئات السنين وعاش عليها... سبحان الله لقد نجح آباؤنا رغم ظروف الفقر والعَوَز والأميّة والاستعمار فما عذرنا إن فشلنا؟»[3].

---

(1) أكذوبة الدعوة للإسلام، مصدر سابق، ص 27.
(2) المصدر السابق، ص 28.
(3) المصدر السابق، ص 54.

رحمة الله عز وجل وسماحة الدين بين الفهم الحقيقي للإسلام والتشويه الكهنوتي المتعمد:

على مدار البحث في تراث العلَّامة الشيخ القطعاني فإن العنوان الأبرز هو السماحة والإنسانية، ونفض غبار الرؤية الكهنوتية عن الدين وتحريره من أي تفسير متشدد، ويضرب العلَّامة الشيخ القطعاني العديد من الأمثلة منها: الحديث المستفيض عن عذاب القبر، هذه القضية التي أرّقت بال الكثيرين، وحولت إيمانهم من إيمان بفعل المحبة إلى طاع بدافع الخوف: وتنبه العلَّامة الشيخ القطعاني لهذه الإشكالية قائلًا: إنها مؤامرة واضحة لدرجة أنهم لا يذكرون لهم النصف الطبيعي المكمل لعذاب القبر هو نعيم القير ولا يركزون عليه؛ لأنه لا يخدم أهدافهم وقد انخدع بها كتاب عرب و مسلمون وصاروا يرددونها ويخدمون من خلال تصرفهم العدو ولا يعلمون، ويصدرون كتبًا بذلك وعلي أغلفتها صور مرعبة لنيران وثعابين وأهوال مخيفة، وبشجاعة منقطعة النظير لا تصدر إلا عن رجل تعمقت رؤيته حتى بلغت حد الشفافية قائلًا: «إنه إرهاب فكري مبرمج يقتنص الشباب باسم الدين ليوقعهم صرعى رهبة المستقبل المظلم يهدف شغلهم عن حاضرهم الجميل الذي لم يسلم من الأذى هو الآخر، وعاث فيه فسادًا الهيروين والكوكايين والبانجو والحشيش وحبوب الهلوسة والخمور والفضائيات الأجنبية الخليعة وإباحية الإيدز»[1].

ولا ينسى أن يستحضر روحه المرحة التي لم تغب أبدًا عن صفحات تراثه الكبير قائلًا: مع أن كل الثعابين على حد علمي قرع الرؤوس جميعها، ولم أسمع أنه يوجد أصلًا ثعبان له جمة سوداء تزين جبهته أو ضفائر شقراء مسدلة على ظهره ليسمي بعضها الأقرع والآخر الأشقر أو ذو التسريحة الجميلة، فإننا ما لم نتوصل إلى إلباس أجناس الثعابين، ويستمر في قوله: ما اقتنعت كما أرجو وأتمنى لك بسخف

(1) الحب القذر، مصدر سابق، ص 86.

هذه الأقوال وبطلانها وبراءة دينك القويم العظيم منها، فإنني أبشرك بالحق الصريح في هذه المسألة نقلًا عن حبيبك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول: «**المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويُرحب له في قبره سبعون ذراعًا ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر**» رواه ابن حبان(1).

ولم تقتصر رؤية العلَّامة الشيخ القطعاني في الفهم الحقيقي لسماحة الدين وإنسانيته على قضية عذاب القبر والثعبان الأقرع فقط بل يتصدى لمناقشة إحدى أكثر القضايا الشائكة وهى قضية القضاء والقدر، فيقول: يعشش مصطلح القضاء والقدر في عقول المسلمين بمفهوم خاطئ عجيب، يتمحور حول أن الله يظلم بعض عباده ويجوعهم ويمرضهم ويؤذيهم وينكل بهم، بينما يحابي آخرين محظوظين ويجاملهم بالطعام الوفير والمال الغزير والصحة والعافية، بل تفقد المسئولية الفردية مكانتها ليتحول الجميع إلى أبرياء مهما جنوا وارتكبوا، وهو ما حدا بالبعض لخلط الأوراق بين الخالق سبحانه والمخلوق، إذ يذكر التاريخ أنه قيل لعبد الله بن عمر أن أقوامًا يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون: كان في علم الله ا.هـ أما والده الخليفة الراشد عمر فقد أُتي بسارق فقال له : لم سرقت؟ فأجاب: قضي الله عليّ فقال عمر: اضربوه 30 سوطًا، ثم اقطعوا يده، فقيل له: ولم؟ فقال: يقطع لسرقته ويضرب لكذبه على الله(2).

وحتى يطرد كل المشاعر النفسية السبية والمُحبِطة التي من الممكن أن تسيطر على الإنسان في حال فهمه الخاطئ لمصطلح القضاء والقدر - فإنه يوجه نصيحة هامة قائلًا فيها: لهذا أهجر الأفكار القدرية المحبطة التي لقّنوك إياها وتوارثتها كمسلمات، وهلّم اصنع قدرك كما تريده أن يكون، فأنت فقط من تصنع قدرك بيقظتك وحركة ميولك، والسبيل أمامك لأن تجعله قدرًا عظيمًا بقرارات صادرة عن قناعات عظيمة

(1) المصدر السابق، ص 86.
(2) المصدر السابق، ص 106.

تعتقدها وتحملها أو تجعله قدرًا وضيعًا ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3] و لا تنس أبدًا أنه عليك أن تتحمل لوحدك نتيجة هذه القرارات في خاتمة المطاف ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾ [الطور: 21] [1].

القيم الجمالية والمظهر الشخصي للمسلم في فكر العلَّامة أحمد القطعاني:

بطبيعة الحال فإن الفكر الإنساني النبيل المتسامح الذي يتجلى في كتابات الشيخ القطعاني لم يكن ليتغافل عن فلسفة الجمال والقيم الجمالية، من كافة النواحي حتى في المظهر الشخصي، ويؤكد أن الدين أكبر من أن يمارس رقابة على ملابس الناس ومظهرهم، فالدين جميل والله جميل يحب الجمال؛ ولذلك فيقول العلَّامة القطعاني 1 «فالإسلام لم يفرض علينا ثيابًا تطول أو تقصر أو جلابية وطاقية، فالالتزام بلباس موحّد لا يتغير وتقييم الناس بموجبه تأباه الفطرة السوية وينبو عنه المنطق السليم، وطبيعة خلقه الإنسان التي تأبي القيود والقوالب وترغب التحرر والانطلاق[2]، إن الزينة والتزين بما يرضي الله تعالى حسب طرح الشيخ القطعاني أصل أصيل في ديننا القويم ولقد أمرنا رسول الله ﷺ ألا نقتصر على ثوب واحد نرتديه على الدوام، بل تكون ثيابنا متعددة متنوعة ليظهر فيها جمالنا وتبدو أناقتنا ويتجدد فيها نشاطنا ومظهرنا مما ينعكس على وجوهنا وهيئتنا فتظهر جميلة حسنة، فقال: «**وما على أحدكم أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة غير ثوبَيْ مهنته**» رواه أبو داود. وحسب نص الشيخ القطعاني فإن الرسول ﷺ أمرنا بإصلاح الشعر وتهذيبه وتزيينه ومشطه إذ جاءه رجل ثائر الرأس واللحية فأشار إليه يأمره بإصلاح شعره ففعل ثم رجع، فقال النبي ﷺ: «**أليس هذا خيرًا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان**» الموطأ. ورأي صلوات الله عليه رجلًا رأسه أشعث -أي مشتت مهمل غير دهين ولا مغسول ولا ممشوط- فقال: «**أما وجد**

(1) المصدر السابق، ص 112.
(2) المصدر السابق، ص 4.

هذا ما يسكن به شعره»، لقد أوجب الله سبحانه علينا الصلاة خمس مرات وسن لنا وندب عشرات النوافل في اليوم ولتيسير تلك المهمة المقدسة علينا جعل كل الأرض مسجدًا وأمرنا بالتزين عند كل بقعة منها نسجد للصلاة فيها فقال ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [**الأعراف**: 31]، ومعني هذا بكل صراحة أن نكون في زينة أنيقة وطلعة جميلة طوال اليوم.

وحسب رؤيته المُفعمة بالجمال فيقول: كما يجب أن نعلم يقينًا بيننا ليست بجلابية بيضاء أو داكنة أو طاقية حمراء أو بيضاء مخرمة، وإنما هي مفاضلة بين ما حوته قلوبنا وجرت به أعمالنا وها هو رسول اللهﷺ يقول «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» رواه مسلم وابن ماجه[1]، إن أسرار التزين والتجمل في الكون حسب طرح العلَّامة الشيخ القطعاني هي أوسع وأجلّ من أن يحيط بها الكلم، ولكنني أوجه كريم عنايتك إلى الزهور والورود وأنت تعلم بلا شك أنها ستتحول إلى ثمار لذيذة شهية تري لماذا ازّيّنت وصارت مورّدة زاهية بألوان وأحجام مختلفة؟! والجواب: إنها تفعل ذلك لتستحق شرف المساهمة في الحياة، وبرؤية جمالية نابعة عن أفق متسع مرهف يقول: وهذه الطيور المزركشة والحيوانات المنمقة والفراشات المرفرفة والمياه المتدفقة، إن هذا الجمال جميعه هو الحياة عينها، فاعلم هذا وتيقنه لتعرف أهمية الزينة والتجمل، وبألم شديد يقول: من المخجل المحزن أن نري ثقافة التأنق والتجمل قد انحطت في مجتمعنا ونبذها المجتمع خلف ظهورهم!، وأحسبني بعد هذا لا أذيع سرًا إذا ما أخبرتك أنني أكره للرجل أن يقتصر في تزينه على موقع عمله أو سوقه فقط وأسأله قائلً : أين المنزل من كل هذا؟ ألا تقضي أكثر من نصف حياتك في منزلك؟! أمن العدل أن تتجمل للأباعد وتترك هذه المزية الحضارية الإنسانية لأكثر الناس عليك حقًّا: أهلك وأسرتك؟![2].

(1) المصدر السابق، ص 6.
(2) المصدر السابق، ص 7.

ومن نصائحه البديعة في هذا الإطار قوله: عليك بسيد الزينة ومفتاح الجمال والبهاء وهو وضوء الصلاة، فقد أثبتوا الآن أن للماء دورًا كبيرًا في ترطيب بشرة الوجه وتأخير الشيخوخة ومقاومة التجاعيد، كما أدلك على أكسير الملاحة والنضارة ألا وهو تلاوة حديث واحد على الأقل لنبيك سيدنا محمد ﷺ كل يوم فإنه يكسب الوجه وسائر البدن نضارة وهو ما أشار إليه ﷺ بقوله: «**نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها**»[1].

وبعيدًا عن نموذج المرأة القبيحة التي حاول المتشددين إطفاء جمالها، فيتقدم بنصائح ذهبية بعد تمحيص ورؤية فقهية مستنيرة فيقول للمرأة: ولا تغفلي الكحل فسيد الأنبياء محمد ﷺ كان يكتحل ويقول: «**اكتحلوا بالإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر**» ثم اعمدي إلى صديقتك الخالدة –اقصد المرأة– وتفقدي مواقع ملاحتك على صفحتها، وانظري أين أنت من مشط الشعر وتتويجه بالتسريحة التي يحبها زوجك، وارتدائك لأثواب جميلة ولا أقول ثمينة تظهر قوامك ورشاقتك وبخّة عطر بين الفينة والأخرى تزيدك ومن حولك انتعاشًا، فمن الضروري أن تملئي عينك لتكوني مثالًا لما جاء في حديث نبيك ﷺ الذي أخرجه ابن ماجه قال: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوي الله خيرًا له من زوجة صالحة أن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»، وبلغة المحبة يوجه النصائح الذهبية التي تُزيد من ترابط الأسر والبيوت فيقول: وأين أنت من تلطيف معاملتك له وتخليل أحاديثك معه بألفاظ الاحترام وبعض النوادر واللطائف المحببة، وكلمات تظهر مشاعرك نحوه وحبك له وإعزازك لشخصه، ومقدار أهميته في حياتك. إن الحياة تصبح أجمل إذا ما أظهر المرء عواطفه الطيبة تجاه الآخرين، وضعي نُصب عينيك حديث نبيك ﷺ فيما أخرجه ابن حبان قال: «**والذي نفسي بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها**»[2].

ولا ينسى العلّامة الشيخ القطعاني من استحضار العديد من الأمثلة المُضيئة فيقول: لقد سألت امرأةٌ أمّك السيدة عائشة أم المؤمنين عن القدر الذي تصله في

(1) المصدر السابق، ص 11.
(2) المصدر السابق، ص 12.

التزين لزوجها فقالت أمك لها : «لو استطعت أن تخرجي عينيك من محجريهما فترديهما أجمل مما كانا فافعلي» وأشرح لك هذه الكلمة الجامعة المانعة بلفظ أيسر فأقول: إن أمك ﵂ تعني ألّا حد لتجمل الزوجة لزوجها أو التزين له، وأنا أفتي دائمًا بإباحة صبغ الشعر بما تحب الزوجة أن تبدو به لزوجها من ألوان، وأقول إن المرأة ذات الزوج التي تترك بياض شيب رأسها من غير حناء أو صبغ آثمة لا محالة وأعتبرها متشبهة باليهود وأستشهد في ذلك بقوله ﷺ فيما أخرجه البخاري : «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**»، وأقول أيضًا: إن الزوجة تؤجر بكل دينار تنفقه على شراء ما تتزين به لزوجها، كما أفتي بإثم الزوجة إن كانت مهشمة الأسنان وتملك ما تنفقه على إصلاحها على يد طبيب الأسنان، ويتصدى أيضًا لإحدى القضايا التي فرضت سورًا قبيح المعالم على المرأة وهو سور النامصة والمتنمصة هذا السور الذي يستند لفهم غير صحيح للدين ولحديث الرسول ﷺ فيقول: وطالما أيضًا رددت بشدة وقوة على تحريم بعضهم لتحديد شعر الحاجبين مستدلين بقولهم «**لعن رسول الله ﷺ النامصة والمتنمصة**» وهو حديث صحيح رواه أبو داود وغيره، ولكنني اعتبر أن فهمهم له هو غير الصحيح واستشهد في ذلك بالتعريف الذي نكره أبو داود نفسه في سننه بقوله: إن النامصة هي التي تنقش الحاجب حتى ترقه[1].

ويتدخل العلّامة الشيخ القطعاني لفض الاشتباك وحل هذا الإشكال قائلًا: «بمعني آخر أن الترقيق غير مطلوب أما إحفاف الحاجب أي: نتف ما فيه من شعر زائد يقبح صورة المرأة، فهو مطلوب، ولعل هذا ما يؤكده ما أخرجه الطبري عن امرأة أبي إسحاق أنها دخلت على السيدة عائشة، وكانت شابة يعجبها الجمال فقالت: المرأة تحف جبينها لزوجها؟ فقالت السيدة عائشة: أميطي عنك الأذى ما استطعتِ. نعم أنا أفتي بكل ذلك لأنني لا أحب أن يري الزوج زوجته إلا في أحسن صورة وأبهي حلة لتستقر الأسرة وتتحاب، وتؤدي وظيفتها وتنجح في مهمتها المقدسة، وأخاف

(1) المصدر السابق، ص 12.

إن لم تفعل الزوجة ذلك لزوجها أن تكون آثمة بدفعه إن كان ضعيف الإيمان إلى إشباع غرائزه حيث لا يرضي الله، كما هيّأ ديننا الحنيف كل الظروف لتنتصر المرأة في معركة الحياة الخالدة حتى أنه ينهي الرجل أن يطرق باب أهله ليلًا إذا ما آب من السفر وإنما ينتظر إلى الصباح! أتعلمين لماذا؟ إنه لا يريد أن يراك زوجك مهملة المنظر مشتتة الشعر متغالبة الخطي، وإنما أخّر قدومه إليه إلى الصباح حتى تأخذي أُهْبتك واستعدادك فلا يري منك إلا ما يحب وتحبين[1].

صفوة القول: فإننا أمام تراث مستنير عنوانه الإنسانية والمحبة والدفاع عن الفهم الحقيقي لصحيح الدين، وتحرير هذا الفهم من رؤية كهنوتية خاطئة، فالدين كما رآه وفسره الشيخ القطعاني هو دين إنساني، وأن جوهر العبادات هو المحبة وليس الخوف، وأن أصل الحضارة هو الجمال والقيم الجمالية، وأن الدعوة للإسلام تتطلب أسس واضحة، وأن المذهبية وإقصاء الآخر ليس من الإسلام في شيء، وأن تجديد الخطاب الديني الذي تسعى إليه جميع الأمم المتحضرة اليوم بعد أن ذاقت ويلاوت التطرف الإرهاب هذا التجديد كان حاضرًا بوضوح ومبكرًا في تراث العلّامة الشيخ أحمد القطعاني.

(1) المصدر السابق، ص 13.

الشيخ أحمد القطعاني: ملامح فكرية وإبداعية

د. لطيفة الوزاني الطيبي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتعليم والرياضة – المغرب

الملخص

يعتبر الشيخ أحمد سالم كريم القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إحدى الشخصيات العلمية الفريدة من نوعها، أنجبها القُطر الليبي الشقيق في عصرنا الحالي؛ حيث نبغ في علوم كثيرة وآداب عديدة حتى سطع نجمه داخل بلده وخارجه. ومما اشتهر به كونه مُسند الديار الليبية ومحدثها الأشهر، بل واحدًا من أعلام الحديث الشريف دراية ورواية على مستوى العالم؛ لأنه صاحب أسانيد تشمل كل كتب الحديث الشريف المعروفة وأثباته ومراجعه بمسندين ومحدثين أجلَّة ثقات من مختلف دول العالم.. وقد تعددت مصنفاته بتنوع العلوم التي أخذها والآداب التي درسها والفنون التي أتقنها. وحصل له كل ذلك في فترة قصيرة مقارنة مع عمره غير المديد. فشكل بذلك أعجوبة عصره، وجوهرة دهره، كما خلَّف إضافة لِما ذكرنا أعدادًا كبيرة من مريدي طريقته عيسوية المشرب، وطلاب علومه الذين ساروا على دربه مقتفين أثره في خدمة البلاد والعباد، لصبحوا بذلك خير خلف لخير سلف.

وتتوخى هذه الدراسة المتواضعة محاولة المشاركة في الكتاب الجماعي «**المصلح الصوفي العلّامة أحمد القطعاني: دراسات وقراءات في فكره**» الذي ارتأى «**مركز العلّامة الليبي الدكتور أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية بليبيا**» مشكورًا إصداره مؤخرًا؛ وذلك من أجل المساهمة في كشف ملامح من شخصية الشيخ المربي أحمد القطعاني على المستوى الفكري والإبداعي، تخليدًا لشخصه الكريم المشع أخلاقًا وعلمًا وسلوكًا بين الأجيال المتعاقبة، قدوةً للشباب الذي كان يحظى عنده بكبير اهتمام لكونه عمود هذه الأمة، واعترافًا كذلك بجهوده وتضحياته المبذولة.

الكلمات المفتاحية: الشيخ أحمد القطعاني، التصوف، السيرة النبوية، الأدب.

مقدمة

إن المتصفح لترجمة العلَّامة أحمد القطعاني يجذبه فيها كمٌّ ما خلّفه من متروك المصنفات تأليفًا وتحقيقًا. وبعد القراءة المتأنية لعناوينها يجد هذا المتصفح نفسه أمام مكتبة قيِّمة تنوعت رفوفها بما رُصَّ فوقها من علوم وفنون، وبما تدلَّى منها من قطوف شهية لأصحاب الفهوم والأذواق، المُشرئبة نفوسهم لما يغذي الأرواح، ويطفئ ظمأ الأشواق. وهذه الملاحظة الأولية تفيد مبدئيًّا بأن الشيخ أحمد القطعاني كان يتمتع بما يمكن تسميته «النبوغ التأليفي»، وهي عبارة يتفرع مدلولها إلى مستويين اثنين هما:

- ✓ المستوى الكمي: ونرمز به إلى عدد المؤلفات التي ألفها الشيخ سيدي أحمد القطعاني، والذي تجاوز السبعين بين كتاب وموسوعة مؤلفة من عدة مجلدات. وهذا كمٌّ يستوقفنا نظرًا لكون الشيخ لم يكن من المعمرين؛ فهو لم يعش مدة طويلة بل فارق الحياة وهو لا يزال في عقده السادس، علما أن الفترة التي خصصها للتأليف لم تكن مديدة لأنه لم يتفرغ في فترة من الفترات للكتابة، بل كان يزاولها مع ما كان يقوم به من أعمال أخرى تربوية تعليمية جمعوية ثقافية وغيرها.
- ✓ المستوى النوعي: والذي يمكن تقسيمه هو الآخر إلى ضربين هما:

- ضرب علمي: ويضم مصنفات في علوم مختلفة: كالفقه والحديث والسيرة والتصوف والأنساب والتاريخ والتراجم وغيرها.
- ضرب أدبي وفني: ويضم الكتابة ضمن أجناس أدبية وأخرى فنية: كالقصة القصيرة والشعر والرحلات والزجل والمسرحيات والأوبريتات الموسيقية وغيرها.

وبناءً على ما سلف، نجد أنفسنا أمام عطاء غزير تم في زمن قليل، أنتجته -بحب- شخصية فريدة متميزة تشكل حالة نادرة، يكاد وجودها يكون صعبًا في زمننا الحالي مع ما يعرفه من انفجار معلوماتي تكنولوجي كبير. كما نجد أنفسنا أمام إشكاليات من قبيل: ما هو السياق الزمكاني والعلمي الذي تضافرت ظروفه ليُهدي للقطر الليبي الشقيق خاصة، وللعالم الإسلامي عامة، شخصية علمية منفتحة في مقام العالم المشارك الدكتور أحمد القطعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟ وما هي الخصوصيات والسمات البارزة في حركته التأليفية؟ وأين يكمُن سر تأثيره فيمن كانوا حوله من طلبة ومريدين؟ وما رؤيته الاستراتيجية لمستقبل الأمة؟.

للإجابة عن هذه الإشكاليات المطروحة، نجد أنفسنا ملزمين بالتنقيب في مؤلفات الشيخ؛ كونه موجودًا بين موادها بأفكاره ومبادئه وقناعاته، ونظرًا للكم الوفير منها، فإنني سأقتصر على مؤلفاته التالية:

- موسوعة الأشراف: رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة.
- الحب القذر (فقه مستنير).
- سري للغاية.
- وداعًا أيتها الدموع (قصص قصيرة).
- لماذا أبكيتم عصام؟ (قصص قصيرة).
- إسلام للبيع.
- أكذوبة الدعوة للإسلام.

وسأجعل مقالي البحثي هذا وقفات مع ملامح من شخصية الشيخ الدكتور أحمد القطعاني، مع ملاحظة أن هذه المشاركة لا تتوخَّى استيفاء كل جوانب الشخصية العلمية والأدبية المتميزة؛ بل إن هدفنا الرئيس هو الإشارة أو التلميح إلى مفاتيح تقربنا من هذه الشخصية الفريدة، وإلا فالوقت لا يسمح لبسط كل دلائل خيرات هذا الرجل؛ لذا سنكتفي بتقديم إجابات عن الإشكاليات المطروحة فيها قطفًا لبعض المجاني القيمة من المؤلفات المذكورة، والتي تندرج من حيث التجنيس في الفقه والسيرة النبوية الشريفة والتصوف والأدب؛ لذلك سأقسم المقال البحثي إلى فقرات تبعًا لذلك بعد أن أقف وقفة قصيرة مع مؤلفها.

1 السياق: ملامح الذات العالمة:

إن المعرَّف لا يُعرَّف، كما أن تعريف العالم العلَّامة الباحث الفهامة المحدث مسند الديار الليبية الصوفي الجليل الدكتور أحمد القطعاني أمر يقوم به أهل مكة لأنهم أدرى بشعابها، ومع ذلك لن أترك الفرصة تفوتني دون أن أسجل وقفة في هذا المحور حول سياق تكوين شخصية هذا الرجل المتميز، وقفة نأمُل أن تعطينا فكرة ناصعة عنه وعن مسيرته التربوية التي أثرت في طلبة علمه ومريدي طريقته. ومما استوقفني في شخصه الكريم أنه كان عالمًا صوفيًّا، عيساويًّا[1] . . . .

(1) نسبة إلى شيخ الطائفة العيساوية بالمغرب سيدي مَحمد بن عيسى الفهدي السفياني: (ت 941هـ)، وطريقته جزولية شاذلية، أخذ عن أبي العباس أحمد الحارثي السفياني ثم عن سيدي عبد العزيز التباع ثم عن الصغير السهلي. وهو دفين مدينة مكناس، ينظر:
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، محمد بن عسكر، تحقيق محمد حجي محمد، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط3، 2003م، ص 71 – 72 رقم 61.
- ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، محمد المهدي الفاسي، تحقيق عبد الحي العمروي وآخرون، ومراد عبد الكريم، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط1، 1994م، ص 80 – 81 رقم 32.
- طبقات الحضيكي، محمد الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط 1، 2006م، ج 1/ ص 272 – 273 رقم 310.
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء محمد بن جعفر الكتاني، تحقيق =

شاذليَّ[1] المشرب، ليشكل بذلك رافدًا مهمًّا من روافد انتشار الطريقة العيساوية داخل المغرب الكبير، بل إنه ألف حولها مؤلفات أماط بواسطتها اللثام عن كثير من خصوصياتها المتعلقة بالطريقة وأذكارها وأورادها وأحزابها، فضلًا عن جمع أعلامها والتعريف بهم في مصنفات قيمة تفصح عن باع الرجل في علوم أهل الله وخاصته[2].

وفي هذا السياق، نجده منفتحًا على الزوايا والطرق الصوفية المختلفة اقتداء بكبار المشايخ الذين أكدوا أن الطرائق بعدد أنفاس الخلائق، وأن أخذ التبرك يكون بالصحبة والزيارة لأهل الله رشفًا من بركاتهم، ونهلًا من أنوارهم وأسرارهم، والكل

= عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 2004م، ج 1/ ص 230 رقم 124.

– إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، عبد الرحمن بن زيدان، مطابع إديال، الدار البيضاء، 1990م، ج 4/ ص 11 21–.

(1) نسبة إلى شيخ الطريقة الشاذلية وإمامها القطب سيدي أبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي: (571 – 656هـ)، ولد بمنطقة الأخماس من شمال المغرب. وتلقى علم التصوف على يد شيخه مولانا عبد السلام بن مشيش – قدس الله سره– بجبل العلَم. أقام بشاذلة من تونس مدة طويلة فنُسب إليها. وهو دفين صحراء عيذاب من بلاد مصر، ينظر:

– الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، عبد الوهاب الشعراني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1954م، ج 2 / ص 4 – 12.

– مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، محمد العربي الفاسي، تحقيق محمد حمزة الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، ط1، 2003م، ص 259 – 261. =

= – لطائف المنن والأخلاق، في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 2006م، ص 75 – 201.

– سلوة الأنفاس، مصدر سابق، ج 1 / ص 86 – 87 رقم 3.

– شجرة النور الزكية، محمد بن مخلوف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ج 1/ ص 186 – 18.

– المطرب بمشاهير أولياء المغرب، عبد الله التليدي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط3، 2000م، ص 122 – 126.

(2) راجع مثلاً:

– الشيخ الكامل محمد بن عيسى، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي ومكتبة جمهورية مصر، 1992م.

– الغوث في أوراد الشيخ محمد بن عيسى الغوث، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط3، 2017م.

– أعلام الطريقة العيساوية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2019.

بطبيعة الحال من رسول الله ﷺ مغترف، على حد قول صاحب «البردة»[1] رضي الله عنه:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

ما أود إبرازه عبر هذه الأفكار أن أهم ما تتسم به شخصية الشيخ أحمد القطعاني هو جمعه بين علمي الظاهر والباطن، أو ما يعرف أيضًا بعلوم الشريعة وعلوم الحقيقة. وهذا له تأثيره البالغ على كل ما قام به من أعمال وما خلف من إنتاج كيفما تنوع بين تأليف علمي أو فكري أو صوفي أو أدبي.. شخصية شربت من معين أهل الله لا بد لها أن تكون مؤثرة بالحال والمقال، موجِّهة بالعرفان والسلوك لكل من قصد الحِمَى نهلًا للتربية والعلوم بصدق وشفافية وحرقة على دين الله، فكان حريًّا به أن يسطع نجمه على كل من خالطه وأخذ عنه وتربى على يديه. والشيخ القطعاني يرى أن «العلم لا يعرف الجمود والأسرار، ولا يأبه بالقيود والأسوار، ولا يحترم التقوقع والاحتكار، وكل من يعتقد غير ذلك لا يمتُّ للعلم وأهله بصلة وإن حمل كل شهادات ومؤهلات العالم»[2]، ويؤمن أن «سر نجاح الدعوة إلى أي فضيلة يكمن في نجاح من اعتنقها وعمل بها».[3]

2 الملمح الصوفي عند الشيخ المربي أحمد القطعاني:

إن الوقوف عند الملمح الصوفي للشيخ أحمد القطعاني يشكل في نظري مفتاحًا مهمًّا لفهم باقي ملامح شخصيته؛ ذلك أن الذي تربى في الطريق وسلك

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري: (608 – 696هـ)، وهو صوفي وشاعر صنهاجي الأصل مصري المولد والوفاة. له ديوان شعر معروف بالمدائح النبوية أشهرها قصيدتا «البردة» و«الهمزية».
– الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ط 2، فيسبادن – ألمانيا، دار فرانز شتاينر، ط2، 1979م، ج 3/ ص 105 – 11.
– الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، لبنان، ط7، 1987م، ج 6/ ص 139.
(2) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، ط 1، 2018م، ص 11.
(3) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 26.

مسالكها، وخبر مخاطرها ومغانمها، وفهم مغالقها، وذاق أسرارها، وحاز علومها المختلفة – لا بد أن يكون شخصية منفتحة على محيطها الصغير والكبير، مهتمًا بأمور الخلق إرضاء لخالقه، محبًّا الخير للجميع، مهمومًا لهمومهم، فرحًا لفرحهم، منخرطًا في حركية بناء المجتمع وإصلاحه؛ كون المنظومة الصوفية منهج حياة متكامل متطور يتم فيه وبه البناء والوعي والتقدم سيرًا على خُطى الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم. يقول الشيخ أحمد القطعاني: «التصوف نشاط إنساني بطبعه؛ لذا فهو يتأثر بالمناخ العام لمجتمعه سلبًا وإيجابًا، فتراه يزدهر ويربع أحيانًا، ويخبو ويجمد أحيانًا أخرى مترافقًا في ذلك مع بيئته وظروفها»[1]، و«التصوف حياة سعيدة متوازنة وآفاق فكرية وثقافية واسعة وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشرع الكريم ونواهيه وريادة وسمو»[2]. كما يرى أن «التصوف والعلم توأمان وُلدا من رحم واحد»[3]

إن التصوف عند الشيخ المربي أحمد القطعاني كما هو عند جميع الشيوخ الربانيين، ترجمة عملية لتعاليم ديننا الحنيف الداعي إلى المحبة والصدق والوفاء والتعاون والتسامح والسلام والتآخي والمهادنة والمصالحة والوسطية والاعتدال والصفاء والطهر، وكل الأخلاق الحميدة والخصال الجميلة التي يرقى بها الفرد والمجتمع، والتي أجملها الله ﷻ في عبارة مدحه لحِبِّه المصطفى عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم عندما قال عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4]، فالتصوف عندهم جميعًا تفعيل للمنظومة القيمية بتعليم شيخ التربية لمريديه تنقية النفس وحب الآخر وخدمته، فترقى الذات والجماعة ويتحقق مضمون الآية الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. وإذا كان قد أصاب من عرّف التصوف بقوله: «التصوف هو التخلق بالأخلاق الإلهية بالوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرًا وباطنًا. أي أنه عيش مع الله

(1) سري للغاية، مصدر سابق، ص 18.
(2) المصدر السابق، ص 16.
(3) المصدر السابق، ص 17.

ولله وفي الله وبالله. فهو إيمان وتوحيد وإخلاص وطاعة، شريعةً وحقيقةً، إسلامًا واستسلامًا»[1]، فإن الشيخ القطعاني يرى ردا على من يخالف هذا قولا أو سلوكا أن «التصوف روح الإسلام لا مكان فيه للدجل وأكل أموال الناس بالباطل ونحوه مما نهى عنه الشرع الحكيم»[2]، فهو اعتصام بكتاب الله وسنة رسول الله تحصينًا للعباد والبلاد من كل غلو أو تطرف في الفكر أو السلوك؛ لذلك نجد مشايخ الطريق المتمكنين يتبرؤون مما ينسب للتصوف من منكرات وشطحات وفلتات خوفًا من الله الواحد الأحد، وحياء من رسوله خاتم الأنبياء والرسالات. يقول الشيخ القطعاني في جواب له عن سؤال وجه له عبر قناة «الجزيرة»: «أنا رجل وهبت حياتي لخدمة دين الله... كتاب الله منهجي وصحيح سنة نبيه مدرستي والإصلاح هدفي والنصح سبيلي ورفعة هذه الأمة غايتي».

لقد صقل الشاب أحمد القطعاني نفسه عند مشايخ التربية فرباها على منظومة القيم الإسلامية، وتسلَّح بالعلوم الشرعية والإنسانية حتى ذاع صيته في أغلبها. وبعدما تشبع بذلك قلبًا وقالبًا وتوفرت فيه شروط الشيخ، تصدى لتربية المريدين، وتعليم المتعلمين مبادئ الدين وعلومه فقهًا وحديثًا ولغة وسيرة وتاريخًا وحضارة وفنًّا إنسانيًّا راقيًا. وكان هدف الشيخ القطعاني «التقاط درر» جيل جديد من الشباب المسلم الطموح، يكون قادرًا على تغيير إيجابي يخدم الأمة التي ميزها الله عن سائر الأمم، جيل تكون لبنتُه من الرصيد البشري ذاك المسلمَ النقي بأخلاقه، التقي بورعه،

(1) التعرف لمذهب أهل التصوف، محمد بن إسحاق الكلاباذي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1993م، ص 103 - 104.
- الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، تحقيق معروف وآخرون، دار الجيل، بيروت، ط1، ص 279 - 283.
- اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق القاشاني، تحقيق محمد كمال إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 1981م، ص 156.
- معجم ألفاظ الصوفية، حسن الشرقاوي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1987م، ص 78 80-.
(2) سري للغاية، مصدر سابق، ص 19.

الغني بالله الفقير إلى من سواه. لقد كان الشيخ القطعاني يرى أن «أهم مهام الزاوية من خلال الشيخ المربي هي اكتشاف مواهب وملكات المريدين وتنميتها وصقلها وتشجيعها والدفع بها إيجابًا بما يحقق طموحاتهم الظاهرة والباطنة؛ فالدرر هم، والملتقط هو (أي الشيخ)»(1). وهذا هو المعنى الذي استهل به الشيخ كتابه القيم «سري للغاية» معرفًا شيخ التربية بقوله: «هو رجل حامل مرآة صقيلة يضعها أمام المريد فيرى المريد فيها نفسه»(2).

هكذا انبرى الشيخ القطعاني -رحمه الله- لخدمة دين الله يتحلق حوله الصغار والكبار لينهلوا مما توافر في جعبته من علوم وأسرار، ويتأسوا بنهجه المنبني على الوسطية والاعتدال لا إفراط ولا تفريط؛ فكم انتقد أساليب الدعوة المنفرة للشباب عند عدد لا يستهان به من الدعاة، فنجده يتحسر على «شباب لو اهتم بالنهوض بوطنه قدر اهتمامه بمشط لحيته وقص أسفل سراويله وخوض المعارك والتشاجر، بل وسفك الدماء انتصارا لقول فلان أو فتوى علان لكنّا في حال غير الحال»(3)، كما انتقد باستماتة وشجاعة عز نظيرها كل من يتاجر في الدين من «رجال الدين» أو ممن يعتنقه طمعًا في نوال بعض الجهات.(4)

لقد انجذب للشيخ القطعاني الكثيرون وتأثروا به، وأسلم على يديه الكثيرون دون جلبة أو ضوضاء أو نفور من الدين بسبب تزمت أو تكلف أو غلو. فكان نموذجا للشيخ المربي الآخذ بأيدي مريديه الحامل همَّ أمته، وقد عبر عن ذلك بحرقة وهو ينتقد ضمنيًّا ما آل إليه وضع بعض الزوايا من جمود يحول دون تقدم المريد في الطريق حتى ينتفع وينفع: «أخي الحبيب، يا من وضع الله في عنقك مسؤولية الزاوية،

---

(1) المصدر السابق، ص 15.

(2) المصدر السابق، ص 2.

(3) أكذوبة الدعوة للإسلام، مصدر سابق، ص 29

(4) المصدر السابق، ص 27 - 31.

- إسلام للبيع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 36 40-.

انظر في المريدين المجتمعين عليك.. جالس كل واحد منهم على حدة، اسأله تلويحًا أو تصريحًا.. ثم امدد يدك مشجعًا ناصحًا ملحًا لهذا المريد -وذاك في جمع وانفراد- حاضًّا له على الانتقال من طور التمني إلى طور العمل»[1]. وهذه دعوة لتحريك الهمم نحو العمل للنهوض بالمجتمع والأمة التي تعرف نكوصًا لأسباب عديدة، تصْرف الدول أموالًا طائلة في المؤتمرات والقمم والملتقيات العربية والدولية لإيجاد حلول لمشاكلها، بينما يرى الشيخ القطعاني أن «التصوف من عوامل وحدتنا العربية التي يجب أن نوليها قدرًا من الاهتمام يليق بها، خصوصًا وقد نجح في تحقيق نسيج وحدوي عربي عجزت عنه كل مؤتمرات القمة العربية وجامعة الدول العربية واجتماعات وزرائها ولجانها المتعددة»[2]. ويرى دليل ذلك في أن «حِلَق الذكر واجتماعات متصوفيها يطبعها اليسر والانسياب بلا أي نظر لفوارق إقليمية ضيقة أو اقتصادية مؤقتة أو اجتماعية طارئة»[3].

3 رؤية الشيخ القطعاني للسيرة النبوية الشريفة:

لما كان أهل التصوف مجبولين على حب صفيِّهم وحبيبهم سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليم، فقد اشتهر عن الشيخ الصوفي أحمد القطعاني حبه الشديد للجناب المحمدي، وتعلقه العظيم بسيد الخلق أجمعين أخلاقًا واقتداءً، حتى أننا نجده يصف هذا الحب والتقدير بقوله «ما زرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مدينته المنورة قط إلا خشعت نفسي وذاب وجداني وهام قلبي وانبهر عقلي وتلعثم لساني، وغمرني من جلال الحال وجماله ما أفقدني الصلة بمن وما حولي رغم مغالبتي، وما مشيت فيها قط إلا حافيًا، ولو انتعلت في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرأيت نفسي مرتكبًا كبيرة، فتراب الحبيب

(1) سري للغاية، مصدر سابق، ص 16.
(2) المصدر السابق، ص 20.
(3) المصدر السابق، ص 20.

أحب إلي من كنوز العالم، وغبارها ألذ على قلبي من أنفس عطور الدنيا وأطيب ورودها وأعبق رياحينها»[1].

هذا نص يبرز بالملموس مدى تعلق الشيخ الجليل أحمد القطعاني بحبيب هذه الأمة. وقد أفنى حياته مادحًا له في كل المجالس، زائرًا له منافحًا عنه بطريقته المتميزة، ذاكرًا له دالًّا عليه بكل ما أوتي من وسائل مادية ومعنوية؛ كيف لا، والدلالة على الحبيب ﷺ فيها خير عميم رأسه أنه بابنا المفتوح المشرع على المولى سبحانه. وللشيخ أحمد القطعاني في السيرة النبوية الشريفة وما يجري مجراها كتب قيمة، ومما ألفه في الباب كتاب وسمه «موسوعة الأشراف: رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة». وقد يظن القارئ للشق الأول من العنوان، أن المؤلف كتاب أنساب يؤرخ فيه صاحبه لفروع النسب النبوي الشريف، بيد أن الشيخ يعلن في الشق الثاني من العنوان عن رؤية جديدة لعلم شريف هو علم السيرة النبوية العطرة. وتجدر الإشارة إلى أن قارئ الكتاب لا يحتاج لكثير عناء حتى يلمس ذلك بنفسه منذ الوهلة الأولى لتصفح الكتاب؛ ذلك أن الشيخ صرح بذلك قائلا: «هذا الكتاب هو السيرة النبوية كما أفهمها»[2].

لقد عمد على غير عادة كتاب السيرة النبوية إلى استهلال الكتاب بمبحث عنونه «إن الدين عند الله الإسلام»[3] جعله جردًا تاريخيًّا لبعض أشهر الديانات التي كانت منتشرة في آسيا كديانة الهندوس بطبقاتهم (البراهمة، الكاشتر، الويش، الشودر) والبوذية والسيخ، وكذلك إفريقيا مستعرضًا ديانة الميرو، الجالا، الكيكويو، ديانة أقزام إفريقيا، تشابا، البامبوت.. مبرزًا مظاهر الوثنية المختلفة وتجليات الخرافات الشائعة والأعداد الهائلة لأدعياء النبوة وأدعياء الألوهية كذلك، مقدمًا الإحصائيات

(1) موسوعة الأشراف: رؤية جديدة للسيرة النبوية الشريفة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2017م، ص 19.
(2) المصدر السابق، ص 2.
(3) المصدر السابق، ص 3 17-.

العلمية لكل ما سلف وما أشبه. كل ذلك ليجعل القارئ يستشعر ويتمثل حقيقة بلاغة دعاء: «الحمد لله على نعمة الإسلام»[1]، من باب أن الأشياء بأضدادها تُعرف. وهي فكرة جميلة توقظ كل من يرفل في نعمة الإسلام وهو غافل عنها، متغافل عن شكرها.

بعد هذا العصف النفسي أو الفكري، ينتقل بنا الشيخ في كتابه السيروي إلى مبحث آخر عنونه «يا مولد الهدى»[2] ليتدفق قلمه وصفًا ومدحًا لسيد الخلق وأشرفهم أجمعين. ويُذكِّر بأن «سيدنا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بُعث للناس كافة مما جعل الحاجة ماسة إلى أن تكون سيرته العطرة شاملة تامة كاملة لتتأسى بها جميع الأمم والأجناس في كل زمان ومكان. ويرى الشيخ أنه لا غرابة أن أحصى المؤرخ «وول ديورنت» في كتابه «قصة الحضارة» ج 13 ص 22 عشرة آلاف مجلد امتلأت سيرة وأخبار سيدنا محمد ﷺ»[3]. فهو إذن بناءً على ما سبق، شرف المسلمين الفخيم، وفخرهم العظيم.

وينقل لنا الشيخ أحمد القطعاني صور احتفال الكون كله بميلاد رسول الله ﷺ، حيوانه ونباته وجماده وكواكبه وقمره، وليتساءل بعد ذلك: «فكيف لا يحتفل به الإنسان، كيف؟»[4]، وهو سؤال إنكاري يطرحه بحرقة مستغربًا بشدة موقف هؤلاء الذين ينكرون الاحتفال بالمولد النبوي الشريف. ويصف بشجاعة ممزوجة بالمحبة العظيمة للرسول الكريم عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليم كل من يجادل مسألة الاحتفال بمولده السعيد أنه «ذو قلب جامد وذهن خامد»[5]. ويرى أن كل من سوَّلت له نفسه ذلك الإنكار قد أساء الأدب مع حضرة النبي الكريم، بينما المفارقة العجيبة أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يستحون من إمعان النظر إليه إجلالًا

(1) المصدر السابق، ص 3 وص17.
(2) المصدر السابق، ص 18 23-.
(3) المصدر السابق، ص 18.
(4) المصدر السابق، ص 19.
(5) المصدر السابق، ص 19.

له وهيبة من قدره العظيم، كعمرو بن العاص رضي الله عنه وهو من هو[1]، ولهذا السبب، نجد الذين وصفوه قلة مقارنة مع أعداد الصحابة الذين صاحبوه عليه السلام.

هكذا يتعامل الشيخ أحمد القطعاني مع فصول السيرة النبوية الشريفة، يمزج بين أخبار سيد الخلق وجديد العصر لعقد مقارنة ضمنية مع جيل الصحابة رضوان الله عليهم وما يحدث في عصرنا من تجاوزات في جانب التأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله رحمة للعالمين كافة، فيعمل الشيخ على تنبيه الغافلين بعظم أحب الخلق إلى الخالق سبحانه لعلمه الأزلي أنه لم ولن تلد أنثى أجمل منه خَلْقًا وخُلُقًا، ويذكرهم بأخلاقه التي سبت جميع المخلوقات وأوقعتها في حبه؛ فالأولى منطقًا أن يتأثر بها الإنسان ويتخلق بها ويرتقي بها حتى يصبح هو رسالة محمدية يراها الكل كذلك بحاله ومقاله.

ولم يقتصر انتقاد الشيخ القطعاني للمسلمين المغفلين أو الغافلين، وإنما انتقل لانتقاد الغرب الذي تجرأ على المس بالرسول الأكرم عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليم. هذا الغرب الملطخ بالأوحال المدنس بدماء الملايين من أبنائه: «12 مليون إنسان قتلتهم الكنيسة المسيحية، 97 إنسانًا ادعى الألوهية، 50 ألف إنسان ادعى أنه سيدنا المسيح عليه السلام»[2]. إنها إحصائيات ساقها الشيخ دليلاً على ما اقترفه الغرب بمؤسساته الدينية في حق رعاياه، ولا زال الجهل الديني يهيمن عليهم إذ كلما ادعى أحدهم أنه المسيح عليه السلام أو أنه الإله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرً- وجد أنصارًا وأتباعًا بأعداد لا يستهان بها، يقومون بطقوس تتنافى مع الفطرة النقية للإنسان، فتكون النتيجة كارثية في صفوفهم من ارتكاب محرمات وجرائم وانتحارات وغيرها[3]. والشيخ يروم بتشخيص هذا الواقع المنافي للشرائع السماوية

(1) المصدر السابق، ص 20.
(2) المصدر السابق، ص 24.
(3) المصدر السابق، ص 24 - 30 / 31 38-.

كلها وللقيم الأخلاقية جميعها غايتين: أولاهما: أن كان على الغرب المتأخر عقديًا أن يخجل من نفسه ولا يتجرأ برسوماته وأفلامه على من بعثه الله رحمة للعالمين أجمعين؛ ليخرجهم من ظلمات ما ذكرنا إلى نور الهداية والصلاح والفلاح، وثانيهما: تنبيه المسلمين الغافلين للنعمة التي أكرموا بها، وهي نسبتهم للحبيب المصطفى ﷺ والامتيازات الفخيمة التي خولتها لهم هذه النسبة المحمدية العظيمة.

وختامًا، فإن الشيخ أحمد القطعاني تعامل مع موضوع السيرة النبوية الشريفة تعاملًا مغايرًا عن المعتاد. نعم، قام بإيراد أخبار الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله، من تعداد أوصافه الشريفة وذكر معجزاته الباهرة ومواقفه الراقية وغيرها من الجوانب التي نجدها في كتب السيرة النبوية الشريفة، غير أنه أتى في كتابه القيم برؤية جديدة للسيرة النبوية تتلخص في رغبته الجامحة المتمثلة في إبراز عظمة النبي الأكرم بطريقة تتماشى مع العصر من حيث ربط الموضوع بمستجداته وتحدياته، وكأنه يخوض غمار معركة جديدة يكون مكسبها إيقاظ الغافلين وهداية الضالين إرضاء للحبيب المجتبى الذي يروقه حتمًا أن تمتلأ سفينة النجاة من العالمين أجمعين؛ لذلك نجد الشيخ يختم الكتاب بفصل رائع جدا عنونه «وا شوقاه يا قرة العين»[1] شحنه بما لذ وطاب من أخبار الحبيب المحبوب رغبة منه أن يعلق ذلك بالأذهان والقلوب. والحقيقة، فإنك تجد نفسك تستعر شوقًا له، وتتحرك همة للعمل بما جاء به والحديث عنه في مجالس الأنس والدلالة عنه إرضاءً له وشكرًا لله على هديته النفيسة لكافة خلقه.

4 الملمح الفقهي عند الشيخ أحمد القطعاني:

وهو ملمح يصعب الحديث حوله في هذه العجالة، غير أننا سنحاول تسجيل بعض الملاحظات والاستنتاجات في هذا الجانب من خلال مؤلفه الموسوم «الحب

(1) المصدر السابق، ص 60 – 79.

القذر: فقه مستنير». وكعادة الشيخ القطعاني في اختيار عناوينه، فإن عتبة الكتاب تثير التشويق حول مضمونه كمصنف له علاقة بالفقه، وعند تصفحنا لفهرس الكتاب، نجد فصلًا من فصوله يحمل عنوان «الحب القذر»؛ فيدفعنا الفضول لمعرفة مضمونه فنجد الشيخ المربي يتطرق فيه إلى قضية أساس خص لها الدين الإسلامي حيزًا مهمًّا ألا وهي قضية المرأة، لنستنتج أن العنوان المختار يشي بما ارتبط بقيمة الحب في الزمن الحديث من قذارة جعلت المرأة ترفل في مستنقع من الرذيلة.

في هذا الفصل من الكتاب، يعود بنا الشيخ أحمد القطعاني للمرأة في الإسلام، فيبين أن من أوجه احترام الإسلام للنساء أن أشاد بذكرهن في آيات القران الكريم من خلال نماذج عدة للمرأة الكريمة المكرمة نراها في تجليات الأمومة «أم موسى عليه السلام» والمرأة الأخت «أخت سيدنا موسى عليه السلام» والمرأة الزوجة «زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام» والمرأة الابنة «بنات سيدنا شعيب عليه السلام»، والحقيقة أنه مهما تعددت صور المرأة وأدوارها فهي في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه مصانة مكرمة شريفة عفيفة، كادحة عاملة حافظة لشرفها وسمعتها وسمعة أهلها، «هكذا أرادها الله سبحانه درة مصونة وجوهرة مكنونة سامية عزيزة .. نعم هكذا أرادها رب السماء وما هكذا أرادها للأسف إعلاميو العرب»[1].

لقد تسللت الفتنة إذن لهذه المرأة الكريمة العفيفة المصانة عن طريق وسائل الإعلام بما تبثه من خلاعة ومجون جرت المرأة المسلمة إلى ما لا يحمد عقباه، والشيخ القطعاني إذ يتحدث عن وسائل الإعلام يتحدث عن سكين مسموم أُغرز بإحكام في خصر هذه الأمة؛ لذلك نجده يعلن بنبرة حادة «أيها الحب المفترى عليك عذرا؛ فما عدت تعني حب الله أو حب رسوله ﷺ وآله وسلم وإخوانه من الأنبياء والرسل وآل البيت الأطهار.. ولا تلك العواطف المقدسة الجياشة بين الأسرة.. ولا تلك المشاعر النبيلة المعظمة بين محبيْن يظلهما سقف الرباط المقدس، وإنما

(1) الحب القذر: فقه مستنير، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط 1، 2018م، ص 48.

أفرغك إعلاميونا -هداهم الله- من كل محتوى، وما عدت تعني إلا علاقة بين ذكر وأنثى خارجة عن قيود الشرع وضوابط الأخلاق، وإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

نستنتج من القضية المثارة في هذا الفصل استنكار الشيخ القطعاني وتحسره على ما آلت إليه أوضاع المرآة في مجتمعنا الحالي، حيث أصبحت تستغل استغلالًا بشعًا باسم عاطفة خلقها الله نبيلة فلوثها الإنسان بكذبه وخداعه حتى صارت قذرة لما يرتكب باسمها من معاصي وآثام، وهو إذ يتحسر على المرآة إنما يوليها اهتمامًا خاصًّا في مؤلفاته لإيمانه الشديد أنها عماد الأسرة ولبنتها الأساسية، إن صلحت صلح المجتمع كله، وإن فسدت، كان ذلك وبالًا عليه أيضًا. كما يترحم الشيخ المربي والفقيه المتنور على ما آلت إليه أحوال المرأة على يد الإعلام فيرى في الزواج حلًّا لمن أراد إشباع الغريزة، كما يرى في الطلاق حلا لمن لم يوفق في زواجه.. فما الحاجة «للحب القذر» مع وجود إسلام سمح نظم للإنسان المسلم أمور دنياه تنظيمًا يصون كرامته وعزته وشرفه؟.

وبعيدًا عن الفصل الذي يحمل عنوان الكتاب، تطالعنا مسائل فقهية حياتية دقيقة ومتنوعة وزعت على فصول الكتاب، تناولها الشيخ المجدد تناولًا فريدًا فيه انفتاح على العصر ونوازله وتحدياته، منها ما يرتبط بالعبادات كالصلاة والزكاة، ومنها ما له علاقة بالرجل والمرأة، عاطفة الحب، السحر، الفن إلخ. ومن بين المسائل الفقهية التي تناولها الكتاب نختار:

✓ **اللباس وزينته:**

مسألة افتتح الشيخ المربي، العلَّامة الفقيه سيدي أحمد القطعاني بها مؤلفه «الحب القذر: فقه مستنير»، وهي مسألة فقهية مرتبطة بلباس المسلم من حيث شروطه وضوابطه، إذ استهل غمارها باستفهام فيه من التعجب ما يفصح عما طال المسألة من ابتعاد عن جوهر الدين وكنهه «من حرم زينة الله؟!».

---

(1) المصدر السابق، ص 50.

وللإجابة عن هذا السؤال الإشكالي، يكتب مُتأسفًا على حال هذه الأمة وما تعرفه من انتكاسة حضارية عاقت مسيرتها. وهي انتكاسة مردها إلى الاستدلال على دين الشخص من عدمه بما يرتديه من ثياب؛ وهكذا يغدو إسدال اللحية، وتقطيب الجبين، وإغراق البدن في الجلابية، نموذجًا للمسلم المثالي. والحال أن اللباس ثقافة بحتة، ويرى الشيخ أنه «من الشطط الفادح أن نلصقها بالدين لتبريرها»[1]. لقد عاد الشيخ إلى ما فعله ماوتسي تونغ مؤسس الصين حيث فرض لباسًا موحدًا على شعبه بقوة الحديد والنار، لكن هذا الالتزام ما فتئ أن تبخر بوفاة المؤسس ليعود الصينيون بعد ذلك إلى طبيعة خلق الله في ارتداء ما تهوى النفس وترغب، وتماشيًا مع طبيعة هذه النفس، تمتع الدين الإسلامي بمنهجية واقعية مبنية «على علم الله سبحانه بدقائق خلقه وأسرار طباعهم، لذا نراه اكتفى بوضع ضوابط وشروط للثوب .. أثبتها تعالى بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ الأعراف 26»[2].

وينطلق الشيخ المربي أحمد القحطاني من هذه الآية الكريمة ليعدد مطالب الشرع في اللباس، فكان ستر العورة مطلبًا أساسًا ارتكزت عليه الآية الكريمة ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، حتى إذا ما تحقق شرط الستر وقفنا على شرط آخر دعت إليه نفس الآية في قوله تعالى ﴿وَرِيشٗاۖ﴾، «ويعني إظهار المسلم ذكرًا كان أو أنثى في منظر حسن جميل»[3].

هكذا تصدى الشيخ أحمد القطعاني ليؤكد أن الجمال نعمة إلهية، وأن إظهار هذه النعمة وفق الضوابط الشرعية عبادة، ولا أدل على ذلك من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذي أورده الشيخ بأسلوب سلس يجعلك تستشعر هذه النعمة، وترغب في إظهارها لتنال أنت أيضًا شرف المساهمة في الحياة. يقول الشيخ في معرض حديثه عن جمال الكون: «إن أسرار التزين والتجمل في الكون

(1) المصدر السابق، ص 4.
(2) المصدر السابق، ص 4.
(3) المصدر السابق، ص 4.

أوسع وأجل من أن يحيط بها الكلم، ولكنني أوجه كريم عنايتك إلى الزهور والورود، وأنت تعلم بلا شك أنها ستتحول إلى ثمار لذيذة شهية، ترى لماذا ازينت وصارت موردة زاهية بألوان وأحجام مختلفة؟! والجواب: إنها تفعل ذلك لتستحق شرف المساهمة في الحياة»[1].

ويمضي الشيخ المربي والفقيه المستنير ليرصد أثر التزين على الأسرة وحاجة أفرادها «إلى مظاهر جمالية أنيقة وزينة حانية رقيقة بين أفرادها لتزداد حبًّا وأنسًا وتنسجم مع منظومة الحياة الخالدة، فلا تكون نشازًا ثقيلًا في جوقتها»[2]. من هنا كان لِزامًا على المرأة التزين لزوجها كما كان لزامًا على الزوج التزين لزوجته، وهما في هذا الأمر سيان؛ فاللباس الأنيق ثقافة يلح الشيخ على أن ننقلها «إلى أبنائنا فلا يخرجون إلى المدرسة أو إلى الشارع إلا في ثياب جميلة أنيقة»[3]، ويؤكد الشيخ على الأناقة بمفهومها البسيط التي لا تتطلب ثيابا غالية ثمينة، بقدر ما تتشكل من ثياب جميلة أنيقة.

والعميق في هذه المسألة أن الشيخ القطعاني وهو يناقش فقهيًّا مسألة اللباس يبرز أثر التربية على الجمال داخل الضوابط الشرعية على الأبناء والمجتمع، مبرزًا أن المسؤولية مناصفة بين الرجل والمرأة في بناء أسرة مثالية هي هدف ديننا الحنيف. والجميل أيضًا أن الشيخ ينهي هذه المسالة الفقهية كما بدأها بسؤال «وإن لم نرتقِ نحن خير أمة أخرجت للناس بالذوق الجمالي، فمن؟!»[4].

✓ **الزوجة الصالحة:**

وهذه مسألة ثانية خاض فيها الشيخ المربي بفكره المستنير حيث ربط بين صلاح المرأة وبيان قيمة الجمال في «كل الموجودات وإن اختلفت كثيرًا وتباينت

(1) المصدر السابق، ص 7.
(2) المصدر السابق، ص 7.
(3) المصدر السابق، ص 8.
(4) المصدر السابق، ص 8.

نجدها قد اتفقت في شيء واحد وهو تلك المسحة الجمالية الملازمة لها، الغالبة في الكون كله»[1]، إلى أن يقول: «وكانت المرأة خلاصة جمال الكون»[2]، لكن هذه المرأة تعرف في المجتمع الحالي، مجتمع العولمة والثقافات الواردة، انتكاسة هي الأخرى؛ فارتفاع نسبة الطلاق، وارتفاع نسبة العنوسة، وزواج أبناء البلد بالأجنبيات، كل هذا أفرزته الازدواجية القائمة بين صورة المرأة الزوجة القابعة في المنزل تقوم بأعبائه، وبين صورة المرأة النموذجية المشرقة المبهرة التي نجدها على شاشات التلفاز أو الهاتف أو ما شابه ذلك. وبين هذه وتلك يقف الرجل الزوج مسلوب الإرادة يجاهد نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فتكون الفجوة التي تعقبها جفوة حسب تعبير الشيخ أحمد القطعاني، غير أن حل هذه المعضلة الاجتماعية والأخلاقية أيضًا يجده الشيخ المربي في الحديث النبوي الشريف «**إن نظر إليها سرَّته**»، وهو حديث يختزل كنه الحياة الزوجية؛ فإسعاد الزوج من صفات المرأة الصالحة، ولا يكون إسعاده إلا بإظهار مواطن الجمال فيها.. وهنا يقدم الشيخ وصفات طبيعية عجيبة للمرأة تتمثل في الوضوء للصلاة الذي يعتبره سيد الزينة، وتلاوة الحديث وهو إكسير الملاحة والنضارة، زد على ذلك التكحُّل[3]، ويفتي الشيخ أيضًا بإحفاف الحاجب -وهو غير الترقيق- ونتف ما فيه من شعر زائد يقبح صورة المرأة. يقول بعد أدلة: «نعم أنا أفتي بكل ذلك؛ لأنني لا أحب أن يرى الزوج زوجته إلا في أحسن صورة»[4].

ما نستنتجه من المسألتين، إضافة لمسائل أخرى من واقع الحياة الحالية أن الشيخ القطعاني بذل جهودًا كبيرة من أجل حل مسائل طارئة على حياة الأسرة في المجتمعات الإسلامية بعد غزو العولمة وما جرفته معها من عادات هجينة ومظاهر

(1) المصدر السابق، ص 9.
(2) المصدر السابق، ص 9.
(3) المصدر السابق، ص 11.
(4) المصدر السابق، ص 13.

دخيلة، حفاظًا على متانة هذه الأسرة التي إن قويت قوي المجتمع، وإن ضعفت تهلهل المجتمع وهوت قيمه وضاع أبناؤه بضياع قطبي الأسرة.

5 الملمح الأدبي عند الشيخ أحمد القطعاني:

لم يكن الشيخ أحمد القطعاني منعزلًا عن محيطه كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بل كان منغمسًا في مشاكل الناس، مشاركًا إياهم همومهم وانتظاراتهم، منخرطًا في مساعدتهم والبحث عن حلول لمعاناتهم المختلفة، وهو إلى جانب اهتماماته وكثرة التزاماته المهنية والتربوية والتعليمية والجمعوية وغيرها، فقد خلف لنا تراثًا أدبيًّا غنيا يتوزع بين مسرحيات وقصص وأشعار وأزجال وغيرها.

وسأركز في هذا الملمح على مجموعاته القصصية: «لماذا أبكيتم عصام؟» و«وداعًا أيتها الدموع»، والمثير في العنوانين اشتراكهما معًا في البكاء والدموع، مع فارق في المعنى يتجلى في كون عنوان المجموعة الأولى سؤالًا حول سبب البكاء، بينما العنوان الثاني أمر بالكف عن البكاء وتوديع الدموع. ونظرًا لقيمة الرجل العلمية والأدبية، فإن اختيار العنوانين لم يكن اعتباطيًّا بطبيعة الحال، وإنما هو ترجمة قلبية للإحساس بآلام الناس ومحنهم، ودعوة للحد من ذلك.

وإن الناظر في قصص الشيخ القطعاني يبتدره شعور بالتميز والفرادة إن لم أقل نوعًا من الغرابة؛ حيث إن الشيخ القطعاني وهو يوظف الفن القصصي لغايات تربوية إصلاحية تنطلق من نقد كل هجين غزا مجتمعنا واخترق أسرتنا ومسخ قيمنا واستبدلها بقيم ردية هوت بنا إلى المهالك، وأثمرت ثمارًا فاسدة غيرت الذوق السليم الذي كنا نمتلكه، يروم إصلاح كل ذلك بوضع اليد على الجرح حتى نعرف بيت الداء فنستهدفه بالدواء. ولنلقِ نظرة على المجموعتين لنبين بالملموس ما تمت الإشارة إليه. نجد المجموعة القصصية الأولى «لماذا أبكيتم عصام؟» تتكون من خمس عشر قصة بينما المجموعة الثانية «وداعا أيتها الدموع» تتألف من ثلاث عشر

قصة، وكلا المجموعتين تستهل بالقصة التي تحمل المجموعة عنوانها. أما المشترك بين المجموعتين هو المنهج التأليفي الذي اعتمده الشيخ القطعاني في ذلك؛ حيث نجده يستهل المجموعتين بتقديم قصير، فهو في المجموعة الأولى: عبارة عن جملة خبرية وخمس جمل إنشائية استفهامية تتضمن كلها قضايا كبيرة (قيمة الكلمات، جدلية الحب والوقت، علاقة الألم بالموسيقى، علاقة الوقت بالعمر، قضايا الذاكرة، الحركة والتفكير)[1]. أما المجموعة الثانية: فقد قدم لها بهذه الجملة: «تعطي الدنيا للأحياء فيها وعودًا كثيرة ولكنها لا تفي لبعضهم إلا بوعد واحد فقط هو العذاب.. فيا ويلهم»[2]، ويوجد مشترك آخر بين المجموعتين يتعلق بافتتاح الشيخ القطعاني لجميع قصصه بحكمة من تأليفه هي جوهر الرسالة المتوخاة منها.

وإذا ما قرأنا تلك القصص قراءة فاحصة متمعنة، نجدها تتطرق لمواضيع مهمة جدًّا مأخوذة من الواقع المعاش أو من الواقع الذي ولى ومع ذلك لا بد من الاعتبار به وبأحداثه. وإذا كانت للقصة عناصرها التي لا تقوم إلا بها أهمها الأحداث والشخوص والفضاء الزمكاني، فإن الشيخ القطعاني يوظف ذلك توظيفًا فيه إبداع وفيه مسحة شخصية تجعل قصصه تتحرر من القالب التقليدي وتكتسي سمة الحداثة في تقديم القضية وتناولها تناولًا فيه تشويق وإبداع، وإن كانت بعض قصصه تنقل عصارة حياة بعض الشخصيات المشهورة اعتبارًا بها أو إنصافًا لها لسبب من الأسباب، ونمثل لهذا النوع الأخير من القصص بالقصة الرابعة من المجموعة الأولى وتحمل عنوان «مصطفى محمود إيمان بلا شك»[3] وبالقصة الخامسة وتحمل عنوان «هلم.. أعرفك بهم»[4]، ثم القصة السادسة وتحمل عنوان «تاريخك الجميل القابع في متاحفهم»[5]،

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 2.
(2) وداعا أيتها الدموع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 2.
(3) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 21 26-.
(4) المصدر السابق، ص 27 – 31.
(5) المصدر السابق، ص 32 36-.

أما الرابعة فيحكي فيها أحداثا ومواقف تتعلق بالشخصية العلمية الكبيرة الدكتور مصطفى محمود، والقصة الخامسة يحكي فيها كذلك أحداثًا ومواقف عن شخصيات عظيمة شهيرة نجهل عنها الكثير أمثال الكونت ليو تولستوي، عمر الخيام وفيتوريو إيمانويلي الثالث، ويقوم بنفس الشيء في القصة السادسة مع محمد الكبير لياس، درغوث العظيم وعبد الله أحمد المغربي، لكن الجدير بالذكر أن القارئ للشذرات القصصية المأخوذة من حياة هؤلاء يصطدم بمفاجآت كبيرة يخرج منها بعبر عميقة وفوائد قيمة.

ومن بين المواضيع التي استأثرت بقلم الشيخ القطعاني القصصي قضايا المرآة[1]، وهذا ليس غريبًا ضمن اهتمامات الشيخ المربي الذي خبر كنه الحياة وعرف قيمة المرأة وأهميتها في بناء المجتمعات كونها شقيقة الرجل من جهة، ومن جهة أخرى كونها عماد الأسرة لبنة المجتمع. لذلك تجده في قصصه أو نوازله الفقهية أو غيرها يوجه الانتباه لمكانة المرآة وخطورة ما يحاك ضد المجتمع من خلالها؛ كما أنه اهتم في قصصه بالقيم[2] وبالأسرة[3] ككل وبالأطفال[4] الذين تسرق طفولتهم بتشغيلهم مبكرًا وعدم ترغيبهم في التعليم إن نفروا منه. ويشكل الشباب -إناثًا وذكورًا- أحد المواضيع التي اهتم بها الشيخ المربي، خاصة ما يرتبط بخطر انغماسه في برامج الفضائيات ومواقع التواصل الاجتماعي التي تجرفهم فيضيع مستقبلهم، وتضيع هويتهم كذلك من خلال الاختراق الذي يتطلب مدافعة كبيرة درءًا للمفاسد.

ومن بين قصصه في هذا السياق قصة عَنونَها «مسجد كبير اسمه الوطن»[5]، استهلها بنداء موجه: «بُني يُنيتي» فيه تحذير لهما من انكبابهما على الفضائيات

(1) المصدر السابق، ص 3 – 8 / ص 14 – 20 (مثلاً).
– وداعا أيتها الدموع، ص 3 – 7 / ص8 – 12 (مثلًا).
(2) المصدر السابق، ص 42 47–.
(3) المصدر السابق، ص 37 41–.
(4) المصدر السابق، ص 13 – 19 (مثلاً).
(5) المصدر السابق، ص 9 13–.

والإنترنت خوفًا من استيلاب الهوية أو تهجينها، ثم يسافر بنا الكاتب إلى بعض الدول مبرزا بعض ما مرت به من صعاب وكيف تغلبت عليها: ذكر محن تايلاند بعد زلزال تسونامي الذي أثر على حركتها الاقتصادية، والتي تعتمد أساسًا على السياحة، وأبرز كيف تغلّب كل الشعب على ذلك بما فيهم المساجين الذين حولتهم الأزمة من مجرمين إلى أدلاء سياحيين يشرحون بكل أدب لكل من يزورهم داخل سجنهم مواضيع نشاطاتهم وإبداعاتهم، وينتقل بنا عبر قناة فضائية ناطقة بالفرنسية إلى أدغال إحدى الدول الإفريقية حيث يدور حدثها السنوي المرتبط بساحر تتقمصه الأرواح الشريرة وهو يحاورها وسط أغاني الآخرين ورقصاتهم حول النار، ليقنعها في نهاية اليوم بضرورة إنزال المطر في مواعيدها. ويختار مراسل القناة أحد الراقصين ليجري معه حوارًا يتبين أنه أستاذ جامعي في باريس يحضر سنويًّا في إجازته ليساعد حضورُه في استقدام السياح إلى مضارب قبيلته بغية الترويج الاقتصادي. ويأخذنا بعد ذلك إلى دولة صغيرة جدًّا هي هولندا، والتي كانت تحتل فيما مضى أكبر بلد إسلامي هو إندونيسيا، هولندا هذه فطنت إلى أن الأرض ستضيق عليها فلجأت إلى حل وهو ردم البحر من شواطئها المطلة عليه ومعالجة الملوحة الزائدة بتلك الأراضي حتى أصبحت خصبة، وأصبح دخل هولندا القومي السنوي أكثر من دخل كل الدول العربية مجتمعة.

ويسترسل الشيخ القطعاني في سرد مثل هذه القصص للشاب والشابة ليبرز لهم ما قامت به تلك الدول وغيرها من أعمال هادفة بناءة من خلال مواطنيها، ثم يعلن رسالته من هذه القصة وهي تحريك همة «بني بنيتي» لحب الوطن والعناية به استنادًا للحديث النبوي الشريف «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»؛ ليبرز لهما أنه لا بد من أن نتعامل جميعًا وخاصة الشباب مع الأرض كل الأرض بآداب المسجد نتعبد الله فيه بالصيانة والتعمير لا بالفساد والتدمير.

خلاصة القول: إن الشيخ القطعاني يغلب عليه الجانب التربوي الدعوي حتى في مؤلفاته الإبداعية؛ لأنه حمل على عاتقه رسالة ثقيلة أفنى حياته في إبلاغها للصغير والكبير، للرجل والمرآة، للشيب والشباب، رجل حمل هم الأمة منذ الصغر فاشتغل على هموم الناس ومشاكلهم، وفضح آفات المجتمع وانخرط بآدابه كما بعلومه لمحاربتها من خلال توجيه الشباب وتنوير المرأة وتوعية الجميع بكل الوسائل المتاحة. وكان الفن القصصي إحدى تلك الوسائل التي برع بواسطتها لعصف أذهان الناس ومشاعرهم وضمائرهم، بأسلوب مشوق وحبكة مميزة وتيمات متنوعة تصب هنا وهناك.

6 الملمح الفني عند الشيخ أحمد القطعاني:

ما قد يثير الانتباه والاستغراب عند البعض في شخصية عالمنا مسند الديار الليبية ومحدثها، وأحد رموزها الصوفية الكبار اهتمامه ببعض جوانب الفن. وربما أثارت هذه النقطة جدلًا حوله نظرًا لكونه عالمًا صوفيًّا قدمه راسخة في علوم الشريعة والحقيقة من جهة، ولكون الفن مجالًا يعج بالكثير من اختلافات الرأي عند علماء الدين خاصة منهم الفقهاء، لكن الشيخ أحمد القطعاني شخصية متكاملة لم يغفل شيئًا من الحياة؛ فهو يرى أن الفن جزء منها يخدمها ويرقيها كلما وظف توظيفًا رصينًا بمفهومه الصحيح وغاياته التربوية والجمالية والنفسية والثقافية.

نعم، خاض الشيخ الفقيه المربي أحمد القطعاني في مسألة الفن، فاعتبره بدايةً «حاجة ضرورية للإنسان كالماء والطعام»[1]، وأكد على أن «هناك حملة تقودها مؤسسات وأفراد باسم الإسلام ضد الفن عمومًا، أحدثت وتحدث ربكة بين الشباب المسلم»[2]، الشيء الذي دفعه إلى الخوض في أحكام الشرع، فطرح مسألة الحلال

(1) الحب القذر: فقه مستنير، مصدر سابق، ص 40.
(2) المصدر السابق، ص 40.

والحرام في الفني على بساط البحث العلمي، عدته في ذلك أسلوب سلسل مميّز، يقدم المعنى بأقرب الطرق وأيسرها، ويحسم في الموضوع بعدم اعتقاده «أنه توجد معارضة فقهية حقيقية لأنواع من الفنون التشكيلية مثل: الألوان، الخط، الهندسة، التصميم، فن العمارة، الصناعات التقليدية، الأضواء. أو لأنواع من الفن الصوتي مثل: التجويد، الترتيل، الشعر، الحكايات. أو لأنواع من الفن الحركي مثل: السيرك، حيل الخداع البصرية، الرياضة البدنية، التهريج، مسرح العرائس»[1].

وهكذا يستند الشيخ المستنير إلى حادثة فنية تمثلت في اللوحة التي نجدها على غلاف كتابه «الحب القذر: فقه مستنير»: إنها لوحة «أيوب سلمان» وهي «أول لوحة شخصية بريطانية رسمت لمسلم أفريقي أسود كان عبدًا رقيقًا فحرر، رسمها في مدينة لندن وليام هوار»[2]. ولا شك أن حاجته في استحضار هذه اللوحة هي تبيان الجانب الإيجابي للفن؛ فاللوحة «تعطي الناظر فكرة نادرة عن بداية بزوغ قيم التسامح العرقي والثقافي في بريطانيا إبّان فترة التنوير»[3]، ذلك أن أيوب سلمان هو أول مسلم سنغالي استرق في تجارة العبيد حين تم بيعه رقيقًا في أمريكا، لكنه حافظ على دينه خلال فترة العبودية، وتتحدث مذكراته عن تعرضه للإهانة عندما هرب من مالكه الأمريكي حيث قبض عليه وسجنه، ثم بعد أن علل سبب الهروب بالذهاب إلى الغابة لتأدية الصلوات الخمس أعاده المالك وخصص له مكانًا للصلاة، بعدها وصل ديالو بريطانيا حرًا في عام 1733م، وكون صداقات مع الطبقة الأرستقراطية فناظر الأساقفة ورجال الدين المسيحي عن الإسلام.

يسرد الشيخ القطعاني حكاية سلمان ويربط بين اللوحة التي رسمت له وبين رسالة الفن السامية، ففي وقت التفرقة العنصرية السائدة، كان الناس معجبين بذكاء

(1) المصدر السابق، ص 40.
(2) المصدر السابق، ص 41.
(3) المصدر السابق، ص 41.

ديالو، وكانت اللوحة الوجه المشرق للفن الحلال بل المندوب، وبنَفَسٍ فقهي مستنير يعلن الشيخ أحمد القطعاني رأيه في الفن «ثم إن رأيي الذي ما فتئت أجهر به هو أن الفن مثله مثل أي نشاط إنساني آخر في الدنيا يحتكم إلى الميزان الدقيق الذي ينبغي أن يكون هو الفيصل في حياة المسلم وهو عرضه على أحكام الشرع الخمسة، التي هي: الفرض، الحرام، المندوب، المكروه، المباح»[1].

لهذه الاعتبارات التي نسوقها باختصار شديد، نؤكد وجود آصرة قوية بين الشيخ أحمد القطعاني وبعض مجالات الفن المختلفة. نبدأ بما يظهر اهتمامه بها جليًّا من خلال لائحة مؤلفاته، ومن بين ذلك نذكر تمثيلًا لا حصرا:

الفنون المسرحية: فقد اهتم الشيخ بالمسرح أدبًا وفنًا؛ إذ لم يقتصر شغفه بالمسرح على تأليف بعض النصوص المسرحية كما سبقت الإشارة إلى ذلك، بل أشرف على تحويلها إلى عروض مسرحية قيد حياته الحافلة بالعطاء. ومنها:

- مسرحية «فتح مكة» وهي مسرحية تتحدث عن فتح مكة لقلوب وعقول الناس. عرضت لأول مرة عام 1998م بمناسبة ذكرى فتح مكة بأداء طلاب وطالبات منارة الصحابة للعلوم الشرعية. وأعيد عرضها عام 2008م في اليوم الوطني للمسرح في ليبيا بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المسرح الليبي الحديث، وكانت من أداء فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية.

- أوبريت موسيقي بعنوان «الأسوة الحسنة» تم العرض عام 2007م بأداء فرقة غفران، وذلك بمناسبة دخول مجلة «الأسوة الحسنة» عامها العاشر.

- أوبريت موسيقي بعنوان «اليقظة» تم العرض عام 2008م بأداء فرقة غفران كذلك.

الموسيقى: وهي حاضرة في أعماله المسرحية المذكورة كجزء لا يتجزأ من مكونات تلك الأعمال المسرحية التي تغيى الشيخ من وراء تأليفها وعرضها غايات

(1) المصدر السابق، ص 41 42-.

سامية، تراوحت بين الإمتاع والتربية والتقييم والتقويم والتذكير والوعظ والدعوة إلى التحلي بالأخلاق الكريمة، وبالتالي تجنب الرذائل التي تردي بالإنسان إلى المهاوي والمهالك.

كما تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن الشيخ القطعاني كان شغوفًا ببعض الآلات الموسيقية، وهذا ليس غريبًا، بل يشاركه في هذا الجانب عدد كبير من مشايخ التربية أمثال الشيخ جلال الدين الرومي، بعض مشايخ الزاوية الريسونية ومشايخ الزاوية الحراقية وغيرهما رضي الله عن الجميع. فالموسيقى لغة هؤلاء المحبين، وهم يرون أن الموسيقى تجاوب كبير بين نفسية الإنسان وباقي موجودات الله في كونه الفسيح: كخرير المياه وحفيف الأشجار وصفير الرياح وهديل الحمام وصهيل الخيل وغيرها مما يستأنس به الإنسان، هذا المخلوق الذي فطر على محبة الأنس، فيكون أنسه هذا تأمل في مخلوقات الله وإعجاب بجمال خلق الله. وصدق جلال الدين الرومي عندما قال بأن كل موسيقى بلا حب هي ضجيج، وكان طبعًا يتحدث عن موسيقى تلامس شغاف القلب فتلينه وتوجهه إلى خالقه وليس إلى نزواته.

لقد كان الشيخ أحمد القطعاني واحدًا من هؤلاء، ومن بين الآلات التي شغف بها وكان يتقنها ويخصص لها وقتًا على الرغم من أعبائه الكثيرة آلة الناي، وقد كتب قصة جعلها بطلة لأحداثها تحكي تفاصيل حياتها الطويلة التي سبقت وجود الإنسان على ظهر الأرض في أسلوب جميل يغلب عليه التشويق والإثارة، وتبرز مكانة الرجل الأدبية كذلك. وقد جعل آلة الناي تصف نفسها وتذكر عمرها الطويل وثمنها الرخيص، وتبرز مع ذلك أهميتها التي اكتسبتها من خلال تطوير البابليين وقدماء المصريين لها من جهة، ومن خلال اهتمام كبار الناس بها من علماء وأدباء وعارفين بالله. وتفتخر آلة الناي بكونها كانت معشوقة العارف بالله الشيخ جلال الدين الرومي، وكيف استهل ديوانه الشهير «المثنوي» بأبيات عنها. يقول الشيخ القطعاني على لسان آلة الناي: «تسمعون قطعًا بمولانا جلال الدين الرومي شيخ الطريقة الصوفية المولوية

التي تنتشر بين الملايين في آسيا وأوروبا والأمريكيتين هو الآخر كان من عشاقي وأحبابي، وكثيرًا ما ضمني إليه واحتواني بيديه المباركتين ونفخ من صدره الشريف في باطني لأتمايل بين يديه طربًا ولأتحول بأمره إلى سمفونية نور تنبعث منها أصوات ملائكية وأنغام علوية»[1].

ثم يواصل الشيخ القطعاني حديثه على لسان آلة الناي ساردًا تاريخها المجيد مع بتهوفن الذي حزن عليها حزنًا شديدًا لما فقد سمعه، ومع جبران خليل جبران وغيرهما، ويستحضر معلومات عجيبة عن تأثير عزف الناي في حل مشكل كثرة الفئران في مدينة هيلمن الألمانية عام 1238م، وكيف أنها تعالج بعض أمراض المخ والأعصاب والتوحد والاكتئاب[2]، واختصارًا فإن قصة الناي تفصح عن شغف الشيخ القطعاني بالموسيقى وبعض آلاتها خاصة آلة الناي حيث صرح على لسانها: «والآن اسمحوا لي أن أتوقف عن سرد المزيد من قصتي الطويلة.. فصديقي أحمد القطعاني الذي ترجع صداقتي به إلى زمن كان طالبًا في مدرسة الأمير الإعدادية ببنغازي قد فرغ من صلاة العصر، ومن عادته أن يعزف بي في هذا الوقت، ولا أستطيع أن أخلف موعده».[3]

خاتمة:

وختْمًا لما سبق وليس ختامًا، نصل إلى ما بدأت به هذا المقال البحثي في محوره الأول، إذ نتأكد بالفعل بعد تجولنا في بعض مؤلفات الشيخ أن السمة المهيمنة عليه الفرادة والتميز من حيث غزارة الإنتاج وتنوعه، بل إن هذه الفرادة تتعدى التأليف في حد ذاته إلى طرق ومناهج تناول القضايا والمواضيع التي استأثرت باهتمامه. وإن كان لا بد من إيجاد الخيط الناظم لكل ذلك، يطالعنا انشغاله بِهَمِّ هذه الأمة التي

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 73.
(2) المصدر السابق، ص 76.
(3) المصدر السابق، ص 77.

فضلها الله على سائر الأمم، مع اتساع مفهوم الأمة عنده إيمانًا منه أن الرسول الأكرم بُعث رحمة للعالمين كافة، فهو يخاطب الوجدان الإنساني قبل أن يخاطب الوجدان الإسلامي اقتداءً بالحبيب المصطفى عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التسليم؛ ذلك أن الإسلام بمستوياته الثلاث هو دين الإنسانية جمعاء لا بد من إيصاله لها أينما كانت بطرق تتماشى مع عصرنا الحالي بتحدياته ومستجداته. وهذا التصور متعلق بكونه ذا منزع صوفي، وهي نقطة مهمة تؤكد أن الشيخ الدكتور أحمد القطعاني آمن بأن التصوف هو إطار للتواصل الإنساني. وإنه كان وسيبقى لا يؤمن بحدود جغرافية ولا ألوان ولا أجناس بشرية، بل يؤمن بأن التصوف أداة تواصلية رفيعة داخل إطار يحدده الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، شعاره التوحيد الخالص والتخلق بالأخلاق المحمدي

جمالية التضاد وعرفانية الموقف في تجربة الشيخ القطعاني

د. ليلى قراوزان
جامعة تلمسان- الجزائر

الملخّص

يعتبر الشيخ القطعاني صاحب قلم إصلاحي صريح وجريء، لا يخاف في الحقّ لومة لائم، وينبع ذكاؤه النقدي من أنّه تعدّى اللغة الخطابية ذات النبرة التوجيهية المباشرة إلى لغة إبداعية إيحائية، متمثلة في العوالم القصصية التي نسجها، وجعل من شخصياتها وأحداثها اللّسان الواصف للحال والمعبّر عن الآلام والطموحات.

ومن ها هنا كانت قراءتنا الجمالية لقصصه التي تركّز على ثنائيّات متضادة؛ وذلك لمنح الصورة والفكرة أبعادها المنطقية والرمزية.

الكلمات المفتاحية: (أحمد القطعاني، الأدب الصوفي، جماليات، التضاد، المفارقة، الفنّ، المجتمع)

المقدّمة

تتناول هذه الورقة البحثية النّظر في جماليات الكتابة لدى الشيخ القطعاني، انطلاقًا من منبره الفكري الإصلاحي الصوفي، فهو قارئ ممتاز لواقع مجتمعه

وعارض لقضايا أمّته، ماضيها وراهنها ومستشرف لمستقبلها، ولكنّه كان مدركًا أنّ تطلّعه للغد المشرق يحتاج إلى عمل كبير وجهد عظيم، يتمثل في إزاحة عوامل التخلف في العقول والسواعد؛ ولهذا فقد انبرى لمظاهر التقهقر يجسّدها في كتاباته وقصصه، يحاربها ويتصدّى لها، ويرسم البديل عنها، حتى تكون بمنزلة قنديل ينير طريق مَنْ اقتنع بخيار التجديد والنهضة.

ومن هنا تمّ اختيارنا للمنهج الجمالي لتحقيق غايتنا من هذه الدراسة المتمثلة في بيان التجربة الجمالية في قصص الشيخ القطعاني، والإبانة عن ذائقته الرّاقية وقلمه البديع، بالتركيز على جزئيات متعارضة للكشف عن الرّؤى الاستشرافية.

المبحث الأوّل
بمهجة الصّوفي الثّائر.

إنّ الفكر النيّر يأبى إلّا أن يشعّ رغم القيود والجحود[1]

التصوّف مشاركة في الحياة وبناء لها، والصّوفي مهندس بارع ومعماريّ ناصع يقدّم مشاريعه ومقترحاته بعد أن يعدّها بإتقان فوق طاولة عمله وبين زوايا ورشته، يلمسها اللّمسة الأخيرة وينظر إليها النّظرة الأخيرة قبل أن يخرجها إلى النور، ويضعها في معترك الحياة فتختمر وتتحول من خطوط وزوايا وحروف وأرقام ورموز جوفاء إلى واقع ناطق وحقيقة متجسّدة بأبعادها الثلاثية وألوانها المتناغمة.

إنّ أساطين الصوفية خبروا معاني التصوّف وأدركوا رسالته باعتباره نبتة مغروسة في تربة المجتمع، فهو يستمدّ نموّه وحياته من مجتمعه؛ كونه يسقى من جداوله ويتشرّب من مياهه، ويستخلص عناصره من ذرات الأرض التي ينتمي إليها، وما اليد

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 25

الّتي ترعاه وتتعهّده أكثر من يد حملت تاريخ الأجداد وحفلت بتراثهم وإرثهم، وهي اليوم تصنع الحاضر بيمينها والحضارة بشمالها.

ومن هذا المنطلق فالتصوّف انعتاق في مسيرة الحياة ونظرة إيجابية لزواياها وساعد يشقّ أخدودها فيبعث منها مياه الحضارة الفائرة؛ لذا ظلّ الشغل الشاغل لسماحة الشيخ القطعاني أن يقدّم التصوّف في أحسن إخراج ويروّج له كما ينبغي أن يكون فهو «حياة سعيدة متوازنة وآفاق فكرية وثقافية واسعة، وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشرع ونواهيه وريادة وسموّ»[1]، وليس مجرّد قشور نلحظها في ثياب معلومة وطقوس موصوفة وجماعة مخصوصة، ومن ها هنا تجسّدت العبرة في ربطه بحبل الشّرع المتين ليصفِّيه من الأفكار المدسوسة، ويؤكد المصدر الّذي ينهل منه، وحتّى يقطع السبل أمام المتطفلين على التصوف والمدّعين له.

ويرفع الشيخ القطعاني كلمته خفاقة مثل راية تعلن عن سيادة لا يسمح بانتهاكها، فقد غدا التصوّف مؤسسة معنوية ومادية تنتسب إلى مؤسسات الدولة يبني المجتمع المدني ويخدمه من خلال الزوايا الّتي تغيّر مفهومها وحتّى اتجاه إحداثياتها، فلم تعد مجرّد مكان جامد ينغلق على مريديه ومرتاديه، وإنّما هي مركز إشعاع ينفتح على المجتمع الّذي يستمدّ منه حركته ونشاطه، بل وغدت تصبو إلى أن تصير هي نفسها مؤسسة رسمية مثلما كانت عليه بالأمس كيانًا معنويًّا قائمًا بذاته: «ولطالما كانت إبّان أوقات ازدهارها وريادتها عبر تاريخها الطويل عرين المجاهدين وحضن المثقفين، ومدرسة المتعلمين، ونُزُل الحجاج والمسافرين، وأمان الخائفين، ومأوى المنقطعين، ومحكمة المتخاصمين»[2] .

وما هذا التقهقر في المفاهيم والوظائف إلّا لحالة الجمود والقصور الّتي أصابت العقول، فأحالتها إلى الحال المخزي الّذي آلت إليه، ومن الطبيعي أن تصبح

(1) سرّي للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 16
(2) سرّي للغاية، مصدر سابق، ص 45

الزوايا بعد هذا التردّي موضع تفكُّه الناس وازدرائهم بل ومعرض شتم وإنكار: «كلّنا يعرف أنّ ما عليه حال الزوايا اليوم لا يمُتّ للتصوّف بصلة من قريب أو بعيد، بل هو تخلّف يدعو للخجل، وتأخّر يندى له الجبين»[1].

ويكمن الحلّ لهذه الكارثة في نظر الشيخ القطعاني في إعادة العجلة على السكة، بإعادة الزوايا إلى خلية المجتمع وقيامها بالدور الرائد: «آن الأوان لتؤسس الطرق الصوفية عندنا المستشفيات والعيادات الخيرية، وتساعد الفقراء والمحتاجين بالغذاء والكراسات واللّوازم المدرسية والثياب... تؤسس المكتبات ودور الثقافة، تنظّم الندوات العلمية والمحاضرات التي تقي الجيل شرور المخدرات والخمور والسرقة والجنوح...»[2].

وليس هذا وحسب، بل إنّ التغيير يشمل حتى مفهوم الصوفي ذاته الّذي كان مُعادلًا للشّخص الّذي: «يتخبط والعرق يسيل منه بغزارة، ويصيح بألفاظ وعبارات، ثمّ يجلس بعد ذلك ليشعل سيجارة ويتحدّث عن فلان وفلانة، ويخلط كلامه وفعله الغثّ بالسمين والباطل بالحقّ»[3]، فالمريد المنتسب هو ذلك المهندس والطبيب والمدير والرياضي وطالب العلم... إنّه من نخبة المجتمع وخيرة أبنائه: «ما الّذي يقصر بنا عن ذلك، فالطّرق الصوفية عندنا عامرة بحمد الله بالأطبّاء والعلماء والمثقفين والموسرين والشباب المقتدرين على العمل التطوّعي»[4].

إنّ التصوّف المخالف للمفهوم التقدّمي لم يعد له نسبة إلى الوجود، ولا رواق له في معترك الأمّة، ولا أعشاش له بين صروح التقدّم، والصوفي من هذا المنطلق رجل محارب وبطل ثائر وهو إلى جانب ذلك معلم محنّك وصانع ماهر وسياسي مبرّز وصحفيّ محترف، وفقيه حاذق، ومبدع ألمعيّ، والتاريخ الإسلامي يعرض أسماءً

(1) المصدر السابق، ص 36
(2) المصدر السابق، ص 56
(3) المصدر السابق، ص 38
(4) المصدر السابق، ص 56

تعكس إمّا مواهب عسكرية أو قيادية إدارية أو أدبية فنية أو فقهية[1]، وهكذا دواليك في جميع مراتب العلوم والفنون والصناعات، يضاف إليهم شخصيات من تاريخ أمّتنا الحديث وأعلام لا تعدّ ولا تحصى غصّت بهم الزوايا والمساجد والمدارس، بل فلنقل وحتى الجامعات والمؤسسات والجمعيات عبر أرجاء أوطاننا العربية.

وليست العواطف وحدها ما يفجّر ينابيع التغيير، فمكاشفة البصائر ومخاطبة العقول من مفاتيح النهضة بعد الخمول، وهذا ما ترجمه الجانب الآخر من كتاباته «إسلام للبيع»، «أكذوبة الدعوة للإسلام»، «سري للغاية»... مبصّرًا ومرشدًا ومستقرئًا ماضي الشعوب وحاضرها؛ كلّ ذلك للارتقاء إلى مستوى الإسلام وتعاليمه، ونفض ما تعانيه الأمة من التخلف والهوان والضعف والتواكل والخضوع، بل والتشتّت والتطاحن بين فكي حرب ضروس إن كلامية أو دموية بغيضة، ناقدًا ومنتقدًا وآخذًا على شعوبنا ما تغرق فيه من الطائفية والتطرّف والتعصب المقيت.

وبمشرح الجراح الجريء يفتح الجسد العليل ويطلع على هول المنظر وحجم الدّاء ونسبة التعفّن في الجسد العربي، فيغرز أداته في موضع الإصابة متهيّئًا لاستئصال الضّرر، وهو الّذي قبل ذلك تنقل بين البلدان الغربية ومدنها وجامعاتها وشخصياتها وتاريخها الماضي المشتت بالحروب، وحاضرها القويّ الموحّد، يستعرض فيه عوامل تطورها العلمي والتكنولوجي والاقتصادي ومدى نضج أفرادها وعيًا وسلوكًا[2].

إنّ الضعف الرهيب الّذي يكبّل واقعنا راجع إلى أنّنا في محفل الحياة اليد السفلى التي تستجدي وتأخذ، والأمم الغربية هي اليد العليا التي تعطي وتَهَب، ولهذا الخيار تداعيات على محور أمننا في مجال الصحة والاقتصاد والبحث العلمي والتطور التكنولوجي، بل وفي فاعليتنا على مسرح الأحداث؛ لأنّ «قانون وجود الأمم

(1) ينظر إلى هذه الأعلام والتصنيفات في: سرّي للغاية، المصدر السابق، ص 16،15
(2) أكذوبة الدعوة للإسلام، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1ن 2018م، ص 3: 7

صارم وناموسه حازم لا أنصاف حلول أو مجاملة فيه»[1]، فإن لم نصنع قوانين قوّتنا التي تضمن استمرارنا واحترام الآخرين لنا وتصدّ اجترائه علينا، فسنكون عُرضة للاستباحة والضياع.

وقد نختصر أسباب محنتنا كلها في عنوان كتابه «إسلام للبيع»، فقد بعنا رأس مالنا فخسرت تجارتنا، وإذا أردنا النهوض من جديد فما علينا إلّا استرجاع قيم ديننا، ليس بالخطب والمدارسة فقط، بل بمعاملاتنا وأعمالنا فيما بيننا ومع الغير.

ومن محطات التغيير الشامل الّتي يجب أن تتجسّد: مسح صور التخلف من انتشار القمامة والأوساخ والتقهقر في برامجنا التعليمية مُوهمين أنفسنا أنّنا ننشد التعليم، ومنها تخريب كل ما تقع عليه أيدينا من مرافق وممتلكات عمومية، ومنها كذلك الانحسار في قوقعة ظاهر الشرع وخوض الحروب الفقهية التي لا ضرورة لها، وصولًا إلى بعض المعتقدات الفارغة كتحريم الفنون والرياضة وحتى المخترعات الحديثة والمعاصرة، مثل السيارة والتلفاز والهاتف والكمبيوتر والإنترنيت ونظم حياتنا[2].

إنّ أهمّ عوامل النهوض في العالم العربي متاحة، ومنها الثروة الطبيعية التي تتوفر عليها بلداننا، والثروة البشرية التي هي الإنسان نفسه أصل كلّ تقدّم ورقيّ وحضارة، ولا عذر لنا في بقائنا تابعين متأخرين[3].

إنّها رحلة الشيخ القطعاني بفكره النّاصع، ولسانه الناطق بأحاديث عذبة ومواضيع ذات شجون، فمن القنوات الفضائية والبرامج والأحداث يغطّي ببراعة جانبًا من مجرياتها ماضيًا أو حاضرًا، ويدلي بدلوه في أمور السياسة والسياحة والرياضة والثقافة والفنون...[4]، بل ويضرب بحَرْبته في التاريخ الإسلامي القديم

(1) المصدر السابق، ص: 39
(2) إسلام للبيع، مصدر سابق، ص 3: 14
(3) المصدر السابق، ص 22، 23
(4) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص9: 13

منه كان أو العالمي، يستجلي شخصياته وأحداثه وأماكنه، شاهدًا عليها وحاويًا لها ومستقرئًا للعِبَر العظيمة منها، كيف لا وهو الإمام والعلّامة والمفكر والموسوعيّ والأديب والمربّي والمؤرّخ والرّحالة، والصوفي الذي يعجز القلم عن إيفائه حقّه، وأقلّ ما يمكن فعله عرفانا لجهوده، هو توجيه الناشئة لكتبه وتخصيص الدراسات لأعماله، التي هي بمنزلة إنجازات ثمينة تفخر بها أمّتنا في عزّ حاجتها إلى مصدر فتح وقوّة.

رحلة في قصص الشيخ أحمد القطعاني: تنقلات صوفي بين ظلال المجتمع.

وبمهجة الصّوفي الثائر يتقلّب بين ظلال المجتمع، يستلهم منه القصص وينسجها طورًا آخر، فهو قبل كلّ شيء المصلح والمربّي والمسعف الّذي يضمّد جراح المصابين، يخلق الأحداث والشخصيات، ويعالج الأمراض والآفات، ويرسم القيم الفاضلات، ومنها قصة «عصام» وزوجته الحبيبة «فاطمة» جمعهما القَدَر شهرًا واحدًا، وفرّقتهما العقليّات البائدة، والأطماع الخادعة، والعوائد الزائفة، والأنانية اللّاذعة المنتشرة في المجتمع المقيّد بقوانينه الضيقة أكثر من الظروف الموضوعية، وأعظمها الحرب الّتي وجد نفسه عسكريًا في معسكرها، إنها انتقاد للأفكار البالية والنظرات البليدة، والنوازع البغيضة التي تعصف بالأسر وتشطر قلوب المحبين، وهي في الوقت ذاته تحاول إنقاذ مستقبل الجيل الناشئ، من تلك الترهات الّتي تحاول أن تمتدّ بخيوطها على غده وتقيّد آمال أبنائه وأحلامهم وطموحهم، فالحمد لله أنّ فاطمة «لم تنجب من عصام الّذي تعشقه بجنون ويبادلها الإخلاص ذاته، لا لشيء سوى لأنّ «رمضان» ذلك الجار المكتنز ثروة، والّذي تنشده جميع بنات الجيران، قد تقدّم لطلب يدها، إنها صفقة العمر وليلة القدر في نظر الأمّ اللّحوح، الّتي تنشد مصلحة ابنتها في زعمها، أما الأب فسيتكفل لاحقًا بمراسيم تطليقها، فأمام هذه الغنيمة الباقي كلّه سهل، بل وهيّن، حتّى ما تعلّق بأمور الشّرع[1].

(1) المصدر السابق، ص 3: 8

وبأنامل الفنان الحاذق يرسم مأساة زوجة خانها حظّها، فحرمت وسامة المنظر، فتفاقمت معاناتها مع زوج أهملها بل واحتقرها بسبب ذلك، ولم يكلّف نفسه متعة البحث عن أسرارها وروحانية باطنها وصفاء قلبها، وأبى أن يرخي سمعه لموسيقى انبعثت من أجراس طهرها ونقائها، في زمن ضاعت فيه القيم وأصبح التكلّف بل والتصنّع بضاعة رائجة في سوق الخداع والمراوغة والسطحية، لا يصحو مرتادوه على الحقيقة الغرّاء إلّا بعد فوات الأوان، حينما يكتشفون أنّهم كانوا ضحايا سلعة زائفة لا قيمة لها، والمغفلون منهم قد لا يصحون مطلقًا ولا يتفطنون للخديعة النكراء ما عاشوا، هذا إن تبقّى لعيشهم معنى أو كرامة[1].

ويسمعنا في وقع تراجيدي آخر صرخة «آمال» الفتاة الطموح النجيبة في إدارة أمور البيت وأعبائه، رغم يُتْمها المبكر وظروف حياتها الصعبة وسط عائلة عمّها، كلّ شيء كان ينبئ بنجاحها في حياتها المستقبلية لولا زوجها -الفارغ من الرجولة والشرف- وقد رمى بها وجبة سائغة بين أيدي أصدقائه الأنذال، لتكمل مسيرة حياتها بحبوب لشتى الأمراض وحقن الأنسولين[2].

أمّا الخطيئة فهي ذلك الوحش الكاسر الّذي لا يرحم أيّ فتاة مغرّر بها باسم الحبّ، فيفترس جسدها وينهش سيرتها وينخر مستقبلها خاصة إذا خرجت منه بمولود[3].

ومثلما خصّ المرأة بينابيع حبره مشفقًا على حالها مداويًا عللها وآهاتها، فكذلك جاد على الطفولة بلوحات ومشاهد سريعة متنوعة، لكنها عميقة في مأساتها ومغزاها، استغلال الأطفال وسلب حقوقهم المادية والمعنوية وتعرضهم للحرمان والقهر[4].

(1) المصدر السابق، ص 60: 64
(2) وداعًا أيّتها الدّموع، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 8: 12
(3) المصدر السابق، ص 42: 47
(4) المصدر السابق، ص:2

وللأمراض الاجتماعية نصيبها كالشعوذة، ومنه سحر إبطال الزواج الّذي تعرّضت له إحدى الفتيات يوم خطبتها على يد أخت خطيبها[1]، وكلها مِحَن وأقدار منصبّة على رؤوسهم بعضها كانوا سببًا فيها، وبعضها الآخر كانوا مجرّد ضحايا لها.

لقد أدرك الشيخ القطعاني أنّ التصوّف مهما كان مستنيرًا لا يمكنه تغيير شيء، ما دام الجهل يخيم على عقول الناس ويتحكم في أفعالهم ويوجه نمط عيشهم ويرسم لهم القيم الزائفة والأهداف البليدة، فوجد أنّ القصص أحسن رسول إلى قلوب الفتيان والفتيات ينهلون منه القيم الصحيحة والمبادئ القويمة ويتخلون عن سقيمه وعقيمه، ومع جيل القصص الإصلاحي الهادف يبنى العهد الزاهر.

المبحث الثّاني

أمّة بلا فنون خرساء، وفنون بلا أمّة عمياء.

لقد تضمّنت كتابات الشيخ القطعاني قيم الحقّ والفضيلة والجمال، وإذا كنّا ألقينا في الفصل الأوّل شيئًا من قيم الحقّ مترجمة في أعماله الفكرية، وقيم الفضيلة منثورة في قصصه، فإنّنا في هذا الفصل سنركّز على قيم الجمال، وخاصّة ما تعلّق منها بجماليات التصوّف كاللّذة والألم، الظاهر والباطن، النفس والأهواء، الجمال والقهر...

يقدّم الشيخ القطعاني نظراته في الفنّ معرِّفًا إيّاه بأنّه «لغة تعبيرية استخدمها الإنسان منذ القدم ليترجم بها مشاعره وأحاسيسه»[2]، ولا تكتفي الفنون بالمشاعر والأحاسيس بل لا بدّ لها من أمور الصنعة أو الصقالة لتطوّع بها وترتقي بالتهذيب

(1) المصدر السابق، ص 31، 32

(2) الحبّ القذر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص 40

والتصفية إلى مرتبة الكمال الفني، وقد حصرها في أمور ستّة هي: المهارة والحرفة والخبرة والإبداع والحدس والمحاكاة[1].

وقد أبى إلّا أن يخرج من لغط التحريم والإباحة منتصرًا للفنون مسقطًا عليها أحكام الشريعة الإسلامية، فالفنّ مثله مثل النشاطات الإنسانية الأخرى لا نحكم عليه بالإباحة المطلقة ولا بالحظر المطلق، وإنّما يلزم ما يلزم غيره من الأحكام الشرعية الخمسة المتمثلة في: الفرض والحرام والمندوب والمكروه والمباح[2]، مقدّمًا أمثلة عن تحوّل ضروب الفنون وأصنافه من حكم شرعي إلى آخر بحسب مادّته، ففي أيّ خانة وضع عرف حكمه.

جماليات التضاد وعرفانية الموقف:

عُرِفَ التضاد في الدرس البلاغي العربي القديم بالجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل[3]، لكنه أخذ في الفكر الغربي منحًى متشعّبًا تقاطع مع مفهوم المفارقة، فقد كانت في البداية تعني أن تقول شيئًا وتقصد العكس، وقد توصل فيما بعد إلى القول إنّها توجد في التنافرات الأساسية بين الإنسان وبقية الكون، بين الحياة والموت بين الروحي والمادي، أو في تلك التناقضات التي تبدو جوهرية لا يمكن حلّها: كالتضارب بين العقل والعاطفة والغريزة، الإرادة الحرّة والحتمية، الموضوعي والذاتي، المجتمع والفرد، المطلق والنسبي، الإنساني والعلمي[4]، أي انتقاله من مستوىً لفظي ودلالي إلى اعتباره ضربًا من الرؤية الكونية، ذات الأبعاد الجدلية بين ما هو إنساني وما هو رمزي روحي وميتافيزيقي.

(1) المصدر السابق، ص 40
(2) المصدر السابق، ص 41، 42
(3) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1986م، ج2، ص 252
(4) ينظر: موسوعة المصطلح النقدي، مصدر سابق، ص 18-22-23-32-49-96-109.

وتنبعث أصوات المفارقة ذات الموجات المتآلفة بعد تضاد وتنافر في كتابات القطعاني، في ثنائية التنزيه الّذي لا سبيل للإنسان إليه، والخطأ الّذي لا مفرّ له منه، أو بلغة الاصطلاح الجمالي: الكمال والنقص، فالإنسان كلّما وقع في الخطأ والنقص علت أسوار سجنه وضاقت عليه مساحته، حتى لتكاد تخنقه ويسودّ عيشه وتفسد حياته، لكن في المقابل إذا كانت نفسه تنشد الكمال فستبلغ به السموات العلا، وتخرجه من ضيق الأسوار والجدران[1].

ويمكن أن نرصد جماليات التضاد في كتابات القطعاني في مساحات التوتر الّتي تخلقها تلك الثنائيات، كالّتي نجدها بين اللّذة والألم، الظّاهر والباطن، النّفس والأهواء، الجمال والقهر.

الألم واللّذة:

الآلام في تعريف القطعاني أشياء محسوسة ملموسة، لها أشكال ووجوه، وحتّى أسماء تميّزها عن بعضها البعض، أمّا اللذة فهي قرينة السعادة، وتكمن في يد المساعدة التي يقدّمها الإنسان لأخيه الإنسان(2).

إنّ عواصف الحبّ الهائجة التي تزعزع أركان القلوب واستقرارها، هي أوّل جذوة تنبئ بلهيب مستعر يلتهم كلّ ما في طريقه ولا تغادره إلّا وهو غبار تذروه الرياح، فالحبّ سبب عذاب المحبّين وآلامهم، إنّه سائق قطار اللّيل الأعمى الّذي يشق طريقه بجنون غير مبالٍ بما يخلفه وراءه من صرعى مغدورين، فسعادة المحبين سراب كاذب يلوح لهم[3]، وإذا كان الحبّ على هذا المنوال، فإنّ السعادة الوحيدة التي يمكن تقديمها لأولئك الواهمين، هي تبصيرهم بالعواقب الوخيمة الّتي تتربّص

(1) لماذا أبكيتم عصام؟ مصدر سابق، ص 57
(2) المصدر السابق، ص 45
(3) المصدر السابق، ص: 3، 46

بهم، بالتمييز بين وهم وحقيقة، بين زهر وأشواك، بين لطف كاذب وبطش فتّاك، فتحصيل اللّذة إنّما يكون في نجاة النّفس واجتناب الهلاك.

تستعير النفس الإنسانية بالألم واللّذة وتؤصّلان لفلسفة الحزن والسعادة، والأعماق مسرح هاتين الثنائيتين وهي كهف مظلم يرشح بالألم والحزن، أمّا السّعادة فهي على النقيض من ذلك أرض بطحاء تشرق الشمس عليها، حيث لا كهوف، لا ظلمة ولا أنداء المغارات[1].

إنّ البيئة الظلامية تعمي الإنسان عن رؤية الألوان، ولا تسمح للعين بأن تستمتع بالنّظر إلى جمالها، أو الإحساس باللّذة في تحقّقها، فالعدل والحرية والكرامة والإنسانية والتسامح، ألوان تشرق على مدن النور فقط[2]؛ لذا فالنّفس تتألّم بفقدان هذه القيم وتعاني ممّا يتضادّ معها من الظلم والعبودية والذلّ والبهائمية والانتقام، ومختلف الشرور.

إنّ الكاتب هو ذلك الكائن الشقيّ الّذي ينحت حجر السعادة من غياهب الكهوف والمغارات ليبعثها ناصعة إلى الآخرين، ويعمل جاهدًا على أن يكشف الحجب ويرفع الأستار، إنّه من يحمل على عاتقه تعديل المقامات ويتحمّل أهوالها وأحوالها، ليلقي لوح النجاة إلى أولئك الغرقى الّذين تتقاذفهم أمواج الحياة، فيبعثهم إلى السّاحل ويرسيهم عليه.

إنّ الحياة -في إبداعات الشيخ القطعاني- رديفة العذاب فهي تريك صنوف اللّذة، لكنّها لا تعطيك غير العذاب والألم[3]، وكأنّ دُنوّك من الحياة هو في حدّ ذاته اقترابك إلى حتفك، والبلسم الّذي تأمل فيه شفاءك هو نفسه السمّ الّذي يقطّع أوصالك، وإنّك حين تضع أولى خطواتك، فأنت تغرزهما بثبات في عتبات نهايتك.

(1) المصدر السابق، ص 46، 47
(2) المصدر السابق، ص 43.
(3) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، ص 8.

وأمام تصارع الأقدار وتلاطم الأهواء وتصادم النهايات وتحطم الآمال والرغبات، يلوح في الأفق سؤال جوهريّ: هل يوجد فعلًا في الحياة شيء اسمه نهاية سعيدة؟[1]، وتأتي المشاركة الوجدانية لتخفف وطأة المحن وتستحضر الضمير المغيّب وتستعيده من العدم إلى الوجود، فتخفف من ثقل الجريمة النكراء، وتضبط اختلال الموازين، باعتبار التعاطف الوجداني موسيقى كونية تخفّف أثقال آلامنا حتى تصير كريشة عصفور على ظهر جمل[2].

الظاهر والباطن:

لكلّ شيء ظاهر وباطن، فللحرف تعيّنات ورسوم ولها أيضا أسرار ومواهب، وللمعاني وجه إلى العبارة الظاهرة ووجه إلى الإشارة الباطنة، فالعبارة تحديد للمعنى وسجن له، أما الإشارة فتجعل المعنى منفتحًا ولا محدودًا[3]، والمعنى الباطني يتمثل في التعامدات مع مختلف الأبعاد النفسية والميتافيزيقية والعرفانية والجمالية...

والكلام نص متجسّد في الظّاهر، والصمت مشهد وكيان حامل للمعاني الباطنة والملغزة، وبينهما تنشأ علاقة حوارية تارة وجدلية طورًا آخر، وقد نلمح تضادًّا بين النطق والصمت، باعتبار المعارف النطقية ناقصة وعاجزة على أن تعبر عن نفسها فضلًا عمّا تشير إليه، فالاعتبار يكون للمعرفة الصمتية لا النطقية[4].

وفي كتابات القطعاني شيء من هذه الفلسفة، يقول: «صمت الحزانى موسيقى لا يسمعها سواهم»، وفي معرض آخر: «أنا أتكلم كثيرًا ولكنّكم لا تسمعونني»[5]، فعلًا إذا لم تتعلّم السماع من الأكوان، فلن يفيدك نطق اللّسان وإشارات الجوارح والأبدان.

(1) المصدر السابق، ص 74.
(2) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 45
(3) هكذا تكلم ابن عربي، نصر حامد أبوزيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000، ص 139
(4) النّطق والصّمت، عبد الجبار النفري، أزمنة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2001م، ص: 42.
(5) وداعًا أيّتها الدّموع، مصدر سابق، ص 49، 51

وتمتلئ قصصه بما يمكن أن نسمّيه خداع الظّاهر، ويتبدّى من خلال كلّ ما هو متصنّع وزائف، سواء كان في القول كالتحذلق في الكلام، أو ما كان في الفعل كالتظاهر بالرحمة والرقة في لمسة حنان أو قبلة عطف، أو ما كان متعيّنًا في الصور وتخصّ جميع حركات الإنسان وسكناته ومجمل مشاعره كالطّيبة والتسامح والرّأفة، وفي كلّ ما يستعيره من خارجه ليضفيه عليه فيبدو على غير حقيقته، وكلّها أقنعة يتنكّر من خلالها ليواري نوازعه الدّفينة، والقناع ما يرتديه الإنسان لتجميل ظاهره مع أنّ الباطن قد يكون خلاف ذلك، فالظّاهر تحكمه المظاهر، أمّا الباطن فلا أقنعة ولا أثواب ولا مساحيق تنمقه؛ لأنّه لا سلطان لشيء عليه.

ويمتدّ التضاد بين الظاهر والباطن في خداع البصر أيضًا، فما تراه العين من بعيد ليس هو ما يتراءى بمنظار القرب، فالأبعاد والمسافات تغيّر من رؤيتنا للحقائق، أو على الأقلّ تؤثر في حكمنا على الأشياء، فالحقيقة جميلة برّاقة ما دامت بعيدة عنّا، ولكنها تحوّل حياتنا إلى جحيم مستعر يوم نجدها ونقف أمامها وجها لوجه[1].

والوقوف على الكليات قشرة ظاهرية تغلّف الحقائق وتحجب أعماقها، أمّا الانتهاء عند الجزئيات فيمنحنا معرفة بالدقائق والتفاصيل، فالأرض تبدو من بعيد كوكبًا واحدًا، ولكنّها من قريب تمزّقها النزاعات، وهذا الأمر نراه في أكبر وحدة إلى أصغر نواة، فمن الكرة الأرضية إلى الشعوب وأنظمتها المتطاحنة، ومن المجتمع إلى الفئات والطّبقات المتعاركة، ومنها إلى الأسر والعائلات المتعادية، ومن الأسرة إلى الزّوجين، ومنهما إلى المرء بينه وبين نفسه...[2]، فكيف يمكن العثور على وحدة خرق التضاد باطنها؟.

ومن صور التضاد بين الظاهر والباطن ما يمكن أن ترصده عدسة الكاميرا الّتي يمكنها أن تلتقط صورنا مبتسمين، ولكنها لا يمكن أن تلتقط صورنا سعداء[3]، فالظاهر

(1) لماذا أبكيتم عصام؟ مصدر سابق، ص 42
(2) المصدر السابق، ص 44
(3) وداعًا أيّتها الدّموع، مصدر سابق، ص 29

لا ينطق بصدق الحال؛ لأنّه قاصر عن ذلك ولا يمتلك الأداة الّتي تمكّنه من ذلك، لأنّ سعادة القلب يلتقطها مسبار من نوع خاص، فالابتسامة سعادة ظاهرية تلتقطها كاميرا صناعية، أمّا الباطن فلا يعرف حاله إلّا قلب اطلع على أحوال القلوب، وقاس درجة لهيبها، وعرف مقدار عذابها ورصد تقلّب حركاتها، إنّه قلب كبير تفجّرت من ينابيعه جداول دفّاقة، وأصل عظيم تفرّعت من جذعه فروع لا نهاية لها.

ويستمرّ القطعاني في إدهاش المتلقّي بخلق المزيد من الأمثولات المتضادّة بين الظاهر والباطن، فعلى صيغة الكرة الأرضية والكاميرا، يخلق نموذجًا ترميزيًّا جديدًا فحواه أنّه قد يكون القلب ميّتًا رغم أنّ دقاته مستمرة[1]، فهيهات أن تكون دقات القلب دليلًا على حياته؛ لأنّه إذا كان مترعًا بالأحزان والتعاسة كانت له الحياة الظاهرية فقط، وإذا انتزع منه الحبيب ظلمًا وسلبت منه الإرادة قهرًا، عندها لا تبقى له إلّا الحياة الميكانيكية، مثل دواليب طاحونة خشبية لا روح فيها تعبث بحركاتها وسكناتها رياح عاتية.

إنّ العلاقة الّتي تجمع الظاهر بالباطن عميقة وفي غاية الحساسية، فرغم أنّهما يبدوان على شيء من التعارض والتناقض، إلّا أنّهما يحملان الكثير من الخصائص الّتي تعمل على تأصيلهما، فالباطن امتداد للكيان الظاهري، وللظاهر حرمته، وبينهما خطورة النوازع النفسية.

النفس والأهواء:

إنّ دراسة النّفس مدخل ضروري لعلم الأخلاق، وهو علم يبحث في الأحكام القيميّة الّتي تنصبّ على الأفعال الإنسانيّة من حيث أنّها خير أو شرّ، وهو ضربان: عملي ويسمّى علم السّلوك أو الأخلاق العمليّة، ونظري ويبحث في حقيقة الخير والشرّ والقيم الأخلاقيّة من حيث هي[2].

(1) المصدر السابق، ص 33

(2) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، جمهوريّة مصر العربيّة، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، 1983م، ص: 124

الحياة الحقيقيّة هي الحياة الّتي تستضيء بنور العقل وتهتدي بهداه، والسّلوك الخلقي هو ذلك السّلوك الذّي يعتمد على المعرفة والتّفكير، فالاتّصاف بالأخلاق الفاضلة يستوجب العلم والمعرفة؛ لأنّهما من وسائل تحقيق الفضيلة، وتطهير النّفس والسموّ بالرّوح، فأساس علم الأخلاق -من هذا الجانب- لا يقوم على الغرائز، بل على معرفة النّفس وتقويمها[1].

إنّ الاشتغال على النفس الإنسانية أعظم من فتح الأمصار وتعمير المدن والأقطار، وتتجلّى خطورتها في تعديل أهوائها وضبط غرائزها وقهر شهواتها وقمع رغباتها، ووجوب قهر النّفس بالخروج من عبادة صنمها؛ لأنّ الشّهوة تُصيّر الملوك عبيدًا، ولذلك كان أفضل جهاد عند الزاهدين جهاد النّفس[2].

إنّ معرفة كُنْه النّفس البشريّة والتعامل مع دقائقها يجعلها تتخلّص من أعذارها الواهية، وهنا يأتي دور الإرادة في إخراجها من كوّة الأهواء والمضيّ بها إلى العوالم الوضّاءة، ولكن الوصول إلى القمر لا يتمّ على ظهر سمكة بتعبير العطّار[3]، فلا يمكن تخليص النفس من قيودها اعتمادًا على الخيال والأحلام، بل بلزوم الشّجاعة والرياضة.

وفي التاريخ الإسلامي الصّوفي يذكر البسطامي لمريديه تجربته في صناعة نفسه أثناء رحلته في لزومه الطّريق بقوله: «كنتُ اثني عشر عامًا حدّاد نفسي، ألقيت بها في كور الرّياضة، وأحرقتها بنار المجاهدة، ووضعتها على سندان المذمّة، وطرقتها بمطرقة الملامة، وكنت خمس سنين مرآة نفسي أصقلها دائمًا بأنواع العبادات والتّقوى، وسنة أنظر فيها بعين الاعتبار... ووصلت بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق»[4]، فكلّ ما يحتاجه المريد هو أن يتقن حرفة نفسه فيتعلّم حدادتها وتلحيمها وصقالتها ونقشها ونزع شوائبها، وهو علم شريف وفنّ حصيف.

---

(1) مع الفلسفة اليونانية، محمد مرحبا، مشورات عويدات، بيروت، ط3، 2007م، ص 106
(2) مكاشفة القلوب المقرّب إلى حضرة علّام الغيوب، أبو حامد الغزالي، ص 13 إلى 15
(3) منطق الطّير، فريد الدين العطار، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1996م، ص186
(4) المجموعة الصّوفية الكاملة، أبو يزيد البسطامي، دار المدى للثقافة، دمشق، ط1، 2004م، ص66

وإذا أردنا أن نعلّق على الإرادة في مفهومها الصّوفي بتعابير معاصرة فهي فنّ إدارة النّفس وصوغ الذّات، واستخراج فِلِزَّات النّفس المتلألئة من مناجم الحجر المتفحّم، والطّريق نحو ذلك هو طريق الكيمياء فلا بدّ من استخراج اللّطيفة النّورانيّة من حظوظنا التّرابية.

أمّا تجربة النفس عند القطعاني فهي أكثر واقعية وأقرب إلى فطرة الإنسان، فوجود الآثام والذنوب والمعاصي في حياتنا على الأرض، تنطق بحكمة إلهية مفادها: أنه لولاها ما صلحنا للعيش على ظهرها، مثلما لا تستطيع الأسماك أن تعيش في ماء كامل النقاء[1].

إنّ مِلاحة النفس فنّ ينشد من وراءه تحصيل جوهرة الحقيقة، ولا يبلغ المرء ذلك إلّا إذا حصّن نفسه من حواشيها القاطعة الّتي هي أمضى من حدّ الشّفرة، وتتمثّل هذه الأخطار في الوحوش الّتي تجتهد في تحقيق أهوائها ورغباتها ومصالحها على حساب سلامتنا وأمننا واستقرارنا، فقصم وحش النفس الأمارة بالسوء بجميع أشكاله، وخوض الحروب الضارية ضدّه يتطلّب البقاء على الإنسانية، وأن تجرّ الخصم إلى ساحتك لا أن يستدرجك هو إلى ميدانه[2].

وتمثل الخطيئة حلبة تتصارع فيها النفوس وتتصادم الأهواء، فهي ذلك الكأس المزركش عذب المذاق، الّذي لا تعرف حقيقة مرارته إلّا مع آخر رشفة من قاع كأسها: «أرى في الرّؤيا نفسي أنظر إلى زوجة شقيقي الأكبر، نظرات غير مؤدّبة...»[3].

وإذا ما مددت للغواية خطوة اجتذبتك بعشر منها، ولا تكون إلّا من طائش تعوّد التغرير بالأوانس الخُرّد واحترف القنص في ميادينهنّ، متوسّلًا إلى غايته بالكلمات المعسولة والأماني الموعودة، واللقاءات المحمومة، ثمّ يختفي كنجم محترق ترك أثرًا على جسد حبيبته وسوادًا حالكًا في سماء أحلامها[4].

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 57
(2) المصدر السابق، ص 66
(3) وداعًا أيّتها الدّموع، مصدر سابق، ص 42-66
(4) المصدر السابق، ص 44، 45

ويطفو زَبَد الانتقام على بحر النفس، وتتصارع فيه أمواجها مع صوت الحكمة الّذي يبصرك بالعواقب الوخيمة قبل ارتكاب أيّ خطيئة، فالانتقام يفرض عليك أن تحفر قبرين أحدهما لك، وكان الأجدر أن تحفر البئر قبل أن تعطش[1]، أي أن تستمع لصوت عقلك قبل فوات الأوان.

لقد تمكّن القطعاني من خلق مشاهد مدهشة للنفس الأمّارة، وأبدع في علاج إصاباتها وجبر كسرها، فإذا وضع المرء على قلبه تاجًا فلن يكون محتاجًا، وصون النفس من أهوائها يجعلك تخفض تاج الشهوات من على رأسك وتزحزحه أسفل سافلي؛ لأنّ القلب هو مكان العرش والملك.

الجمال والقهر:

إنّ القبح والجمال تجلّيات أفعال الإنسان وأقواله وتنوعات في مراتب الأخلاق، وليست مجرّد صور تثير استهجاننا أو أخرى تأسر ألبابنا وحسب، ومن خصائصهما أنّ الجمال تعدّد والقبح تفرّد، الجمال وحدة والقبح تشتت، والتنوع أساس الوجود.

ويتمظهر القبح في أنواع الإساءة إلى بني البشر وألوان الشرور الأخرى: كالخطيئة والآثام والسحر والحسد والبغض والحروب والجريمة والقتل وهو نقص، أمّا الجمال فهو كمال ومثالية وطهر، وتتمثّل في القيم المطلقة.

ويقرن القطعاني القبح بالقهر باعتباره شكل من أشكاله، فيرسم تجربة العيش في عالم جديد يتصارع فيه الجمال والقهر، فتنوّع الآراء والنظرات والرّؤى، بمنزلة ألوان تضفي على الكون جمالًا وانسجامًا وتناسقًا، أمّا إذا فقد الإنسان التمييز بينها أو رفض تقبّلها، فسيصبح التجبّر والقهر الصّفتان السّائدتان بين النّاس[2]، ولتفادي ما قد ينجرّ عن تسلّط القهر من مآسٍ إنسانية، ينصح باحترام آراء الآخرين حتى ولو

(1) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 57
(2) المصدر السابق، ص 71

كانت لا تعجبك، وألّا تجبرهم بأن يكونوا كلهم على رأيك ووجهة نظرك[1]؛ لأنّ ذلك يفقد التناغم الّذي هو من السّنن الكونية.

إنّ الحسن والقبح المادّيين يستكشفان بالعين المجرّدة وبالجوارح الحسية، لكن من لا يمتلك عين البصيرة محروم من رؤية الجمال الروحي الأبدي الّذي لا يغدر به تقدّم الزمن، فالفرق بينهما أنّ الأول يجعلك تتلمّس خدًّا أسيلًا أحمر، وشعرًا حريريًّا أشقر، وقدًّا رشيقًا أميس بعقد زمني محدود، أمّا الآخر فيعرج بك إلى السماء فتتناول بيدك القمر وتعلقه على دار الحبيب قنديلًا ينير حياته وتنظم من النجوم عقد نور وهاج يضيء الليالي والأمسيات[2].

فالجمال المادي نسبي خادع يقترن بالألم والتعاسة والشقاء، أمّا الجمال الروحي يفضي إلى الرّضا الدّاخلي والسلام والسّكينة والسعادة الأبدية؛ لأنّه يخلو من المنفعة والفائدة ولا تجري عليه أحكام الزمن.

نجح القطعاني في بلورة فكرة الجمال في قصصه بأن جعلها تنبثق من وسيط مادي هي المرأة: «في كلّ قصّة هناك امرأة»[3]، بكلّ ما يتقاطع معها من لذة ورغبة ونوازع، لتنزاح بعد ذلك إلى عرش سماوي تكون فيه كُنْه الجوهر وفقه الحقيقة.

إنّ الجمال والقبح في تأصيل القطعاني يتعلّق بالصور المعنوية ولا يلتصق بالصور المادية، فوجوه الخلق كلها حسان كالبدور والزهور والورود لأنها خِلقة الله تعالى، وإنما يكون المرء جميلًا أو قبيحًا بما يقول أو يفعل، أي بأخلاقه العملية.

إنّ هذه الفلسفة هي التي جعلت القطعاني يلفت إلى تلك المرأة المختلفة عن باقي الفتيات الحسناوات، ويفرد لها مساحة تعبر فيها عن مأساتها في هذه الدّنيا مع نفسها، ومعاناتها مع النّاس ومع زوجها، وما تحسّ به من آلام بسبب افتقارها لحسن

(1) وداعًا أيتها الدموع، مصدر سابق، 74
(2) لماذا أبكيتم عصام؟ مصدر سابق، ص 61
(3) المصدر السابق، ص 44

فاتها الحظ فيه وأغفلها اللّحظ في تتبعه، فحذا بها إلى أن تعيش حياتها سجينة المرآة ترى فيها وجهها ولكنّه ليس وجهها[1]، إنها الحقيقة الّتي تتوق إلى أن تصرخ بها عاليًا في وجوه أولئك البلداء فتُسمِع بها آذانهم الصماء وتُقنِع بها عقولهم السّقيمة، بأنها في جوهرها أعظم ممّا يرونها عليه.

وعلى مثل هذه المرأة المتشظية في عوالمها الداخلية والخارجية يشتغل القطعاني، فيجعل منها مادّة غُفْلًا يبدع من خلالها شخصيات بأسماء وصفات شتى ويخلق أحداثًا ومواضيع تجتذب قلوبنا وتهوي بأفئدتنا، ويقرّر مصائر ما كان لها أن تكون لولا أنانية الإنسان وقصر بصيرته وعناده وغوايته، وهو في الوقت نفسه يفرغ في كلّ هيكل مادّي فلسفته في الجمال وينفخ في كلّ كيان روحيّ رؤيته الصّوفية.

عرفانية الموقف:

الاعتراف موقف عرفاني يمكّنك من شهود الحقّ ومشاهدة الحقائق وخطاب المخلوق بلسان الخالق، فتعرف أنّ الإنسان والأشياء والموجودات قطع تحرّكها يد الصانع وأنّ نسبتها إليك كنسبة الوهم إلى اليقين والزيف إلى الحقيقة، فلا تكون -عندئذ- مغرورًا مدّعيًا ما ليس لك.

ومن أشهر من خصّ المواقف بكتاباته ابن قضيب البان في «المواقف الإلهية»، والنفري في «المواقف والمخاطبات»، وكلها مواقف عرفانية تتعلّق بالأسرار القدسية والمشاهدات الإلهية: «موقف نفس الرحمن» وهو موقف الأمر، يقول فيه: «أوقفني الحق على بساط الأمر وقال لي: انظر إلى تنزل الملائكة بنفس الرحمن على قلوب المصطفين بالروح الإنساني بحضرة الشهود، فرأيت أسرار الطيّ والنشر من خزائن الجود»[2]

(1) المصدر السابق، ص 61
(2) المواقف الإلهية، الحسين بن قضيب البان، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013م، ص: 156

ويشرح عفيف الدّين التلمساني معنى الموقف في قوله: «أوقفني في العز، قلت: قوله وأوقفني أي قد قابليتي لتلقي التجلي»[1] ... وكلها لها معنًى من جهة الأسرار اللدنية والحكم الربانية.

أمّا الموقف لدى القطعاني فيحتمل خصوصية تطهيرية، يقول في موقف الاعتراف مشيرًا إلى خطورته: «الاعتراف أشبه بتجرّع السمّ الزعاف، أو المشي حافيًا على الجمر الأحمر المتّقد»، ولكنّه يظلّ حاجة ملحّة ويضع صاحبه على طرَفَيْ نقيض، فإمّا هاوية سحيقة أبدية وإمّا عرش سماوي خالد؛ لذا على المعترف اختيار الشخص الأنسب لتسليمه مفاتيح أسراره: «عندما يعترف لك شخص ما بشيء يؤرّق ليله وينغص حياته، فإنّه أشبه بمن يضع رقبته بين يديك لتخنقه فتقتله، أو تضمّه بحنان إلى صدرك ليطمئنّ قلبه وتسكن خواطره»، وتتجلّى ضرورته والحكمة منه في كونه الوسيلة لتطهير النفس والتخلص من أثقالها: «...ثمّ اعترف واعترف وابكِ واصدق في اعترافاتك، وستفاجأ بأنّ حياتك تجدّدت وأثقالك تنفض عن ظهرك، وأنّك ستلبس بعد كلّ اعتراف تنطق به من أعماقك حلّة نقية تزيدك في عين نفسك ومن حولك بهاءً وقدرًا وجمالًا ومكانة، وتقول لما تقول وتكتب معنى»[2]، إنه ضرب من الولادة الجديدة أو هو بمنزلة الانبعاث الجديد، وفي هذه الجزئيّات المتصارعة تتجلّى جمالياته.

تجربة الاعتراف كأس مرّ تتجرّعه الواحد تلو الآخر، لكنّك إذا أدمنته وقفت على حلاوته ووجدت فيه من البلسم الشافي ما لا يجده غيرك، فلو نظر الإنسان لأبصر، ولو أبصر لرأى، ولو رأى للمس الحكمة الإلهية بيده، حقًّا حينما ترفع عن القلب ستائر الظلمات يصبح قابلًا للكشف عن النبوءات[3].

(1) شرح مواقف النفري، عفيف الدين التلمساني، تحقيق جمال المرزوقي، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، 1998م، ص 57.
(2) لماذا أبكيتم عصام؟، مصدر سابق، ص 43
(3) المصدر السابق، ص 54: 58

الخاتمة:

يمكننا أن نعلّق في ختام هذه الورقة البحثية على الأعمال الإبداعية للشيخ القطعاني بالملاحظات الآتية:

• يحمل الشيخ القطعاني فكرًا ثوريًّا وبصيرة إصلاحية وقلمًا إبداعيًّا، تمازجت أبعادها فكوّنت شخصية مستنيرة، تبنّت قضايا مجتمعها وحملت هموم أمّتها، فلم تتوانَ عن توصيف الدّاء وإيجاد الدواء الشّافي والحلول النّاجعة.

• يخدم المنهج الجمالي ما أثاره الشيخ القطعاني من قضايا فكرية واجتماعية في أدبه القصصي؛ ذلك أنّه يزيد من إيضاح صور التناقض الصارخ الّذي ينطوي عليه واقعنا الفكري والاجتماعي بخاصّة، ومن ثَمّ يسهل ترميم الشرخ الّذي تعاني منه أمّتنا الإسلامية وييسر تشييد صرحها النهضوي والحضاري من جديد.

• ابتعد الشيخ القطعاني عن النبرة الخطابية المباشرة بما تحمله من نقد لاذع أو تقريع ولوم وقدح، متيحًا المجال لشخصياته وهي تستعرض مهارتها، فتدهشنا بحركاتها وسكناتها، وتراوغنا بصمتها وبوحها، وتخادعنا بانتقامها وعفوها، وتستفزّنا بشراستها ولطفها.

• أبان الأدب القصصي للشيخ القطعاني عن حقائق وجدليات متوسّلًا إليها ببعض الرموز، ومنها رمز المرأة، فهي محور كلّ عمل وأساس كلّ قضية، وهي كذلك جوهر كلّ حقّ وحقيقة.

• ألقى الشيخ القطعاني الضوء على الإنسان في أعمق أبعاده، وقرّب إلينا المشاهد وهو يتصارع مع واقعه الدّاخلي بحساسية شديدة، كالّذي وجدناه بين الألم واللذّة، الظّاهر والباطن أو المادّة والروح، النفس والأهواء، الجمال والقهر...

• أدرك الشيخ القطعاني أنّ إصلاح أمّتنا الإسلامية ومجتمعاتنا إنّما يبدأ بإصلاح الفرد في حدّ ذاته؛ لأنّه به ومن خلاله تشاد الأمم وتعمّر الأقطار وتصنع الحضارة.

• يمتلك الشيخ القطعاني حسًّا جماليًا راقيًا، وريشة فنية بديعة، وخيالًا مجنّحًا، وروحًا تنبؤية، ورؤىً استشرافية طلائعية، تتوافق وانصهاره مع مجتمعه، إلى جانب تنقّله في إطار الزيارات إلى باقي الأقطار الأخرى، ما جعله فردًا منها، مترجمًا لآهاتها وعارفًا بأهوالها، ومداويًا لجراحها، ولم يكن ذا قلم يخطّ من أبراج عاجية.

• تستأهل أعمال الشيخ القطعاني الفكرية والأدبية المزيد من الدراسات والبحوث بمختلف المناهج؛ وذلك للإبانة عن كنوزها وأسرارها وأبعادها، بإعادة طبع ونشر مؤلفاته ورقيًّا وإلكترونيًّا خاصة تلك الّتي يتعذّر على الدّارس الوصول إليها.

يتضمن هذا الكتاب عددا من المقالات البحثية في الفكر الإصلاحي الصوفي للعلامة الليبي الكبير الشيخ أحمد القطعاني، الذي شمل العديد من مجالات الفكر والأدب والاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها، وهي مجموع الأعمال المشاركة في **المؤتمر الدولي السنوي عن العلامة الشيخ أحمد القطعاني** في دورته الرابعة التي نُظمت عام ٢٠٢٢م تحت عنوان **(قراءات في الإصلاح الصوفي عند العلامة أحمد القطعاني).**

وناقشت أعمال هذه الدورة مختلف الجوانب في حياة وفكر العلامة القطعاني، كاشفة عن تنوع وثراء واسع في ممارساته ورؤاه وأفكاره في الإصلاح الصوفي، كما أنها أكدت على قدرة رجال التصوف على تطويره وتكييفه وفق متغيرات كل عصر للجواب على أسئلة الإصلاح والتجديد، وتجاوز الطرح والتصور النظري إلى الفعل والممارسة.

قدم الكتاب تصورا واضحا عن شخصية الصوفي الإصلاحي، القادر على الوقوف على أرضية الماضي الصلبة بكل منتجها الفكري والثقافي، والانطلاق منها إلى معاصرة حصينة تقدم رؤية أخرى لنصوص ديننا الإسلامي الحنيف قوامها الجمال المطلق، وتطبيق ناجح مثمر ملؤه الحب المحمدي الخالص.